روبرت رايت

الحيوان الأخلاقي

كيف تشكلت الفطرة البشرية؟



ترجمة: المجتبى الوائلي

دار الخيال
DAR AL KHAYAL

للنشر والتوزيع

الحيوان الأخلاقي، كيف تشكلت الفطرة البشرية؟
روبرت رايت، ترجمة: المجتبى الوائلي

الطبعة الأولى ٢٠٢٤

This edition published by arrangement with Pantheon Books.
an imprint of The Knopf Doubleday Group.
a division of Penguin Random House. LLC.

منشورات نابو في بغداد
Nabu Publishers
تلفون: ٩٦٤٧٨٠٤٤٢٣٦٢٩
ص.ب: ٥٠٤٧ مكتب بريد الرشيد، بغداد، العراق
E-mail:nabu2018@yahoo.com
تلفون: +9647804423629
nabupub nabupub nabupub

دار الخيال
مركز الترجمة العربية
صندوق بريد 519251
مدينة الشارقة للنشر المنطقة الحرة
الشارقة - الإمارات العربية المتحدة
Email: alkhayal@inco.com.lb
www.daralkhayal.com
dar.alkhayal dar.alkhayal daralkhayal_

روبرت رايت

الحيوان الأخلاقي

كيف تشكلت الفطرة البشرية؟
العلم الجديد للسيكولوجيا التطورية

ترجمة: المجتبى الوائلي

للنشر والتوزيع
دار الخيال
DAR AL KHAYAL

إلى ليزا

صبَّ لنفسه كأسًا آخر من البراندي من دون أن يفكر فيما يفعل. وبينما مَسَّ الشراب لسانه، تذكر طفلته، بازغةً من نورٍ وهّاج: كان الوجه عارفًا بائسًا وكئيبًا. قال: «إلهي، أَعِنْها. صُبَّ عليَّ لعناتك فأنا أستحقها، ولكن اتركها كي تحيا إلى الأبد». كان ذلك هو الحُبّ الذي وجب أن يشعر به تجاه كل الأرواح في العالم: كل ذلك الخوف، كُلُّ تلك الرغبة في الحماية والتخليص، كله تركّز من دون عدل على طفلة واحدة فقط. ثم شرع في البكاء؛ كان الأمر كما لو أنه يراقبها من على الشاطئ وهي تغرق بطيئًا، ذلك أنه نسي السباحة. ثم فكَّرَ في نفسه: هكذا يجب أن أشعر تجاه الجميع طوال الوقت...».

غراهام غرين، القوة والمجد

المقدمة: نحن وداروين

لم يتضمن أصل الأنواع في طياته أي ذكر تقريبًا للأنواع البشرية. غير أن التهديدات التي صنعها الكتاب - للرواية الإنجيلية عن خلقنا، ذلك الاعتقاد المريح بأننا أكثر من مجرد حيوانات - كانت جليّة بما يكفي؛ ولم يكن لتشارلز مصلحة من الإسهاب فيها. وقرب نهاية الفصل الأخير من الكتاب ذهب للاقتراح أنه عبر دراسة التطور، «سيُسلِّطُ الضوء على أصل الإنسان وتاريخه». ثم غامر في ذات الفقرة بالقول: إن دراسة علم النفس في المستقبل القريب ستُشيَّدُ على أساس جديد».

وقد كان محقًا في مدى قُربِ ذلك. إذ في العام ١٩٦٠، أي بعد ١٠١ عام من صدور أصل الأنواع، ألحظ المؤرخ جون س. غريني قائلًا: «فيما يتعلق بأصل السمات البشرية المميزة للإنسان، كان داروين ليُصاب بالخيبة إذا ما شاهد أن تكهناته بخصوص أصل الإنسان قد تمّ تجاوزها. وعزيمته كانت ستُثَبَّطُ لو سمع جوزيف فينر من مختبر الأنثروبولوجيا في جامعة أوكسفورد وهو يصف هذه المسألة بالموضوع المحير الكبير الذي تظلّ فيه رؤيتنا التطورية هزيلة للغاية... وفي التوكيد الحالي على تفرّد الإنسان كونه حيوانًا ناقلًا للثقافة، وربما كان داروين سيستشعر ميلًا للعودة إلى فكرة ما قبل التطور القائلة بالاختلاف المطلق بين الإنسان والحيوان».

وبعد بضعة أعوام من حديث غريني، حدثت الثورة. إذ بين الأعوام ١٩٦٣ و١٩٧٤ وضع أربعة من علماء الأحياء، وهم ويليام هاميلتون وجورج

ويليامز وروبرت تريفرز وجون ماينرد سميث، سلسلة من الأفكار التي إذا ما وضعت مع بعضها بعضًا، سَتصقل وتوسع نظرية الانتقاء الطبيعي. وقد عمَّقت هذه الأفكار من تبصُّر علماء الأحياء التطوريين في السلوك الاجتماعي للحيوانات، وبضمنهم نحن.

في البدء، كانت وَثاقة الارتباط بين الأفكار الجديدة ونوعنا ضبابية. وقد تحدث البيولوجيون بثقة عن رياضيات التضحية بالنفس عند النمل والمنطق الخفي للتودد عند الطيور، في حين مال أسلوبهم للتخمين عند حديثهم عن البشر، هذا إن تحدثوا عنهم أساسًا. حتى إن أهم الكتب التي جمعت وأشاعت الأفكار الجديدة - وأقصد كتاب البيولوجيا الاجتماعية (١٩٧٥) لإدوارد أوسبورن ويلسون والجينة الأنانية (١٩٧٦) لريتشارد دوكينز - لم تقل إلّا القليل نسبيًا عن البشر. فقد ابتعد دوكينز بشكل شبه كامل عن هذا الموضوع بينما حصر ويلسون مناقشته لجنسنا البشري ضمن فصل صغير في نهاية الكتاب وبأسلوب تخميني لا يمكن إنكاره - في ٢٨ صفحة من أصل ٥٧٥.

ثم أصبح الموقف البشري منذ منتصف السبعينات أكثر وضوحًا. إذ أخذت جماعة صغيرة من الباحثين ما أسماه ويلسون «التوليف الجديد» وتوجهوا به إلى العلوم الاجتماعية بهدف ترميمه. حيث طبَّقَ هؤلاء الباحثون النظرية الداروينية الجديدة والمحسَّنة على الجنس البشري، ثم اختبروا تطبيقاتهم تلك على بيانات جُمِعت حديثًا. وعلى الرغم مما نالهم من إخفاقات محتومة، إلّا أن النجاح الذي حققوه كان كبيرًا. ومع وصفهم أنفسهم بالأقليّة المحاصرة (وهي صفة يبدو أنهم تمتَّعوا سرًا باكتسابها)، لكن علامات سموّ مكانتهم في المجتمع العلمي باتت واضحة. إذ صارت كبرى المجلّات المختصة بالأنثروبولوجيا وعلم النفس والطب النفسي تنشر مقالات لكُتّاب كانوا قبل عشر سنوات يودِعون أعمالهم لدى مجلّات صاعدة ذات نزعة داروينية صريحة. ثم بزغت ببطء وبشكل لا لبس فيه رؤية عالمية جديدة.

المعني بـ«الرؤية العالمية» هنا هو المعنى الحرفي للعبارة تمامًا. إن التوليف الدارويني الحديث، مثله مثل الفيزياء الكمية أو البيولوجيا الجزيئية، هيكل

مـن النظريـات العلميـة والحقائـق؛ ولكنـه عـلى العكـس منها ليـس طريقة لرؤيـة الحيـاة اليومية. إذ بمُجرد فهمه حقًا (وهو أسـهل فهـمًا من كلا المثالين اللذيـن سـبقاه) يُمكن له تغيير تصور المرء تمامًـا للواقع الاجتماعي. وتتراوح الأسـئلة التـي تتطرق لهـا الرؤية الجديدة بـدءًا من الأمـور الدنيوية ووصولًا إلى الروحانيات، كما وتلامس كل مسـألة مهمة أخرى: كالرومانسـية والحب والجنـس (هـل الرجـال و/ أو النسـاء مجبولون حقًـا على الـزواج الأحادي؟ وأي الظـروف تدفعهم إلى تعزيز أو تثبيط هـذه النزعة؟)؛ الصداقة والعداوة (مـا المنطـق التطوري وراء سياسـات بيئـة العمـل - أو السياسـة عمومًا؟)؛ الأنانيـة والتضحية بالنفس والشـعور بالذنب (لماذا أودَعَنـا الانتقاء الطبيعي وديعة الذنب الكبرى، تِلْكَ المعروفة بالضمير؟ وهل هي حقًا دليل للسـلوك «الأخلاقي؟»)؛ المكانـة الاجتماعية والتدرج الاجتماعي (هل الهرمية متأصلة لـدى المجتمعات البشرية؟)؛ اختلاف الميول بين الرجال والنسـاء في مجالات كالصداقـة والطمـوح (هـل نحـن سـجناء جنسـنا؟)؛ العنصريـة وكراهيـة الأجانـب والحرب (لماذا نملك القدرة على اسـتبعاد مجاميـع كبيرة من الناس مـن نطـاق تعاطفنا بمنتهى السـهولة؟)؛ الخـداع ومخادعة الـذات واللاوعي (هـل الصـدق الفكري ممكـن؟)؛ الأمراض النفسـية المختلفة (هـل الإصابة بالاكتئاب، العُصابيّة أو جنون العظمة مسألة طبيعية؟ وإن كانت كذلك، هل يجعل ذلك منها مقبولة على نحو أكبر؟)؛ علاقة الحب والكراهية بين الأشقاء (لمـاذا الحب بينهم ليس نقيًا؟)؛ المقدرة الهائلة للآباء على إلحاق أضرار نفسـية بأبنائهم (أي المصالح يميل الآباء لخدمتها؟)؛ وهكذا دواليك.

ثورة صامتة

يجابه علماء الاجتماع الداروينيون الجدد عقيدة هيمنت على مجالاتهم أغلب هذا القرن: فكرة أن البيولوجيا ليسـت ذات أهميـة كبيرة، وأن مرونة الدماغ البشري الفريـدة إلى جانـب القـوى الثقافية المتفـردة قد فصلت سـلوكياتنا عـن جذورها التطورية؛ أن لا وجود لطبيعة بشرية متأصلة تُسـيِّرُ الإنسـان،

وأن طبيعتنا المتأصلة تلك هي المُسيَّرة. وكما أورد إميل دوركايم، أب علم الاجتماع الحديث، في مطلع القرن العشرين: أن الطبيعة البشرية «محضُ مادة غامضة يصوغها العامل الاجتماعي ويشكّلها». ويضيف دوركايم: يظهر العلم الحديث أن حتى أعمق المشاعر كالغيرة الجنسية أو مشاعر حب الطفل لوالده «بعيدة كل البعد عن كونها متأصلة في الطبيعة البشرية». فالعقل، طبقًا لهذا المنظور، سلبي في أساسه - إذ هو بمثابة وعاء تملؤه الثقافة المحلية تدريجيًا مع نضوج الفرد؛ ولو كان للعقل أي حدود لاحتواء الثقافة فستكون واسعة للغاية. لقد ذكر عالم الأنثروبولوجيا روبرت لوي عام ١٩١٧ أن «مبادئ علم النفس غير قادرة على حساب الظواهر الثقافية مثلما لا تستطيع الجاذبية حساب الطرُز المعمارية». وحتى علماء النفس، الذين كان متوقعًا أن يجادلوا دفاعًا عن العقل البشري، لم يتصوروه إلّا بوصفه شيئًا يعلو قليلًا على محض صفحة بيضاء. والمذهب السلوكي الذي هيمن على علم النفس لِشَطر ليس بالقليل من هذا القرن تشكله إلى حد كبير فكرة أن الناس يميلون بحكم العادة إلى فعل ما يكافَأون على فعله وتجنب ما يعاقبون عليه؛ وهكذا أعطي العقل تكوينًا لا شكل له. الأمر هنا كما في رواية بورهوس فريدريك سكينر الطوباوية الصادرة عام ١٩٤٨ Walden II، حيث قُضي على الحسد والغيرة وغيرها من النزعات المعادية للمجتمع من قبل نظام صارم من المعززات الإيجابية والسلبية.

تُعرف وجهة النظر المتعلقة بالطبيعة البشرية هذه - بعدِّها شيئًا بالكاد موجودًا وذا أهمية طفيفة - بين علماء الاجتماع الداروينيين الجدد باسم «أنموذج العلوم الاجتماعية القياسي». وقد درسها أكثرهم حين كانوا طلبة جامعيين، وبعضهم قضى ردحًا كبيرًا من حياته المهنية تحت سطوتها قبل الشروع في مُساءلتها. وبعد مدة وجيزة من التشكيك والمساءلة، ما لبث هؤلاء أن تمردوا.

ما يحدث الآن يناسب كثيرًا وصف توماس كون لـ«تحول الأنموذج الفكري» الذي أورده في كتابه المعروف بنية الثورات العلمية. حيث تجرأت

مجموعة من العلماء اليافعين بشكل أساس على الرؤية العالمية الراسخة لمن يكبرونهم، ثم قوبلوا بمقاومة مريرة، وبعد كفاح حثيث، بدأت رؤاهم تزدهر. وعلى الرغم من ذلك، مهما بدا هذا الصراع بين الأجيال كلاسيكيًا، لكنه حمل في طياته بعض المفارقات المميزة.

ظهرت بدايةً، وكما هو حال كل الثورات، بشكل غير جليّ. حيث رفض الثوار المتنوعون بعناد وصفهم باسم واحد سهل، اسم يُمكن كتابته على لافتة رفرافة. لقد امتلكوا يومًا ما اسمًا كهذا - وكان «البيولوجيا الاجتماعية،» وهو مصطلح استحدثه ويلسون، وكان مناسبًا ومفيدًا. لكن كتاب ويلسون أثار كثيرًا من الشَرَرْ ووصِم بامتلاكه نوايا سياسية خبيثة، كما صدرت رسوم كاريكاتورية تسخر من مضمون البيولوجيا الاجتماعية، لدرجة أن المصطلح ما عاد مُحَبَّبًا. وصار معظم الممارسين في هذا المجال يتجنبون الإشارة إليه بمصطلح البيولوجيا الاجتماعية. وعلى الرغم من دَين الجميع بالولاء لمجموعة متراصّة ومتماسكة من المذاهب، لكنّهم فضلوا استعمال أسماء مختلفة؛ كعلم البيئة السلوكي، والأنثروبولوجيا الداروينية، وعلم النفس التطوري أو الطب النفسي التطوري. يسأل الناس أحيانًا عمّا قد حلّ بالبيولوجيا الاجتماعية؟ والإجابة أنها قد استترت حيث يمكن لها نهش أسس العقيدة الأكاديمية بمأمن.

والمفارقة الثانية في هذه الثورة مرتبطة بالأولى. فكثير من ملامح الرؤية الجديدة هي بشأن أن أكثر ما ينفر منه الحرس القديم ويخافه ليس ملامح الرؤية الجديدة في الواقع. فمنذ البداية كانت الهجمات على البيولوجيا الاجتماعية ارتكاسيّة - إذ كانت ردود الفعل على كتاب ويلسون أقل بالمقارنة مما كانت عليه ضد الكتب السابقة التي أصدرها فريق داروين. حيث تملك النظرية التطورية بعد كل شيء تاريخًا طويلًا وقذرًا إلى حد كبير فيما يتعلق بالتطبيقات على الشؤون الإنسانية. وبعد امتزاجها مع فلسفة سياسية مطلع القرن الماضي لتشكيل أيديولوجية اجتماعية عُرفت بـ«الداروينية الاجتماعية،» صارت طوعًا بيد العنصريين والفاشيين، إلى جانب أكثر

الرأسماليين قسوة. كما وتمخضت في أثناء ذلك الوقت عن بعض الأفكار المُيَسَّرة عن الأسس الوراثية للسلوك - أفكار بدت ملائمة لتغذية إساءات الاستعمال السياسية تلك للداروينية. وتستمر الحالة الناتجة - للفظاظة الفكرية والأيديولوجية على حد سواء - في التشبث بالداروينية داخل أذهان كثير من الأكاديميين والعامّة. (بل يظنُّ بعضهم أن مصطلح الداروينية معناه الداروينية الاجتماعية). وبذلك هناك كثير من المفاهيم الخاطئة تحيط بالأنموذج الدارويني الجديد.

وحدات خفيّة

على سبيل المثال: غالبًا ما يُساء فهم الداروينية الجديدة عند الاستعمال في التقسيمات الاجتماعية. حيث تحدث الأنثروبولوجيون مطلع القرن العشرين عن «الأعراق الدنيا» و«المتوحشين» الذين لا يُمكن إعدادهم أخلاقيًا. بالنسبة إلى المراقب غير المتمتع بالحس النقدي فإن مثل هذه المواقف يُمكنها التلاؤم مع الإطار الدارويني بسهولة، كما هو حال المذاهب التفوقية التي ظهرت في ما بعد، ومن ضمنها التي تبناها هتلر. لكن علماء الأنثروبولوجيا الداروينيين اليوم، وعبر مسحهم شعوب العالم، يركزون بدرجة أقل على الاختلافات الظاهرة بين الثقافات، ويولون الوحدات العميقة اهتمامهم الأكبر. وأسفل الكساء العالمي الجنوني المتمثل بالطقوس والعادات، يرى أولئك العلماء أنماطًا يتكرر ظهورها في هيكل الأسرة والصداقة والسياسة والتودد والأخلاق. كما ويؤمنون بأن التصميم التطوري للجنس البشري يمكنه تفسير هذه الأنماط: لماذا يبدي البشر من شتى الثقافات اهتمامًا بالمكانة الاجتماعية (غالبًا بدرجة أكبر مما يدركون)؟ لماذا لا يمارس الناس من جميع الثقافات النميمة فحسب، بل ويتناولون ذات المواضيع عند الحديث بها؟ لماذا يظهر الرجال والنساء من جميع الثقافات اختلافات في بعض النواحي الأساسية؟ لماذا يشعر الناس بالذنب في كل مكان، وفي ظل ظروف قابلة للتنبؤ على نطاق واسع؟ لماذا يملك الناس في كل مكان حسًا عميقًا بالعدالة،

لدرجـة أن البدهيات المتمثلة بـ«ما جزاء الإحسـان إلّا الإحسـان»، و«العين بالعين والسـن بالسـن»، تشـكّل الحياة الإنسـانية في كل مكان على الكوكب تقريبًا؟

بطريقة ما، لا يُعد مستغربًا أن إعادة اكتشاف الطبيعة البشرية جاء متأخرًا وقتًا طويلًا. فوجود شيء في كل مكان من حولنا يجعله أكثر ميلًا لمراوغتنا. إذ نعدُّ عناصر الحياة الأساسـية كالامتنان، والعار، والندم، والفخر، والشرف، والجـزاء، والعاطفـة، والحب ..إلخ، أشـياء مُسـلمًا بها، تمامًا كـما الهواء الذي نتنفسـه، وميل الأجسام المُلقاة إلى السقوط، وبقية السمات القياسية الأخرى للحياة على الكوكب. لكن من غير الضروري أن تكون الأمور بهذه الشاكلة. فقـد كان بالإمـكان أن نحيا على كوكب لا تُظهِـر فيه الحياة الاجتماعية أي مما سـبق، أو نعيـش على كوكب تشـعر فيه بعض الجماعـات الإثنية ببعض تلك العنـاصر بينما تشـعر جماعـات أخرى ببعـض مختلف منها. لكـن الأمر ليس كذلـك. حيث كلما نظر علماء الأنثروبولوجيا الداروينيون إلى شـعوب العالم عن كثب أكثر، كلما صُدِموا بكثافة وتعقيد شـبكة الطبيعة البشرية التي تربط الجميع، ورأوا أكثر كيف نُسجت هذه الشبكة.

وحتـى عند تركيز الداروينييـن الجدد على الاختلافات، سـواء أكانت بين جماعات المختلفة أم ضمن الجماعة الواحدة، فإنهم لا يميلون عمومًا إلى تفسيرها مـن حيث الاختلافـات الجينية. ينظر علـماء الأنثروبولوجيـا الداروينيون إلى ثقافات العالم المختلفـة اختلافات لا لبس فيها بوصفها نِتاجات لِطبيعة بشرية واحدة تسـتجيب إلى ظروف شـديدة التباين، وتكشـف النظرية التطورية عن روابط غير مرئية بين الظروف والثقافات (مُفسرة على سبيل المثال سبب امتلاك بعض الثقافات عادة تقديم مهر للزواج فيما تفتقد أخرى لمثل هذه العادة). أما علـماء النفس التطوريـون فهُم على عكس التوقعات الشـائعة يؤيدون العقيدة الأساسـية لعلم النفس والطب النفسي للقرن العشرين القائلة بـ: فاعلية البيئة الاجتماعيـة المبكرة في تشـكيل عقل البالغين. ولكن هناك قلّـة منهم في الواقع منشـغلة بهذا الأمر ومصمِّمة على كشف القوانين الأساسية التي تحكم التطور

النفسي وعلى قناعة بأن السبيل الوحيد لفعل ذلك يكمن باستخدام الأدوات الداروينية. إذا أردنا على سبيل المثال معرفة كيف تُعدَّل مستويات الطموح أو انعدام الأمان عبر التجارب المبكرة فعلينا التساؤل أولًا عن سبب جعلها قابلة للتعديل من قبل الانتقاء الطبيعي.

يحاول علماء النفس بمعنى ما أن يتبينوا المستوى الثاني من الطبيعة البشرية، مستوى أعمق من الوحدة ضمن الأنواع. حيث يلاحظ عالم الأنثروبولوجيا أولًا الموضوعات المُكررة ضمن ثقافة بعد أخرى، كالتعطّش للقبول الاجتماعي والقدرة على الإحساس بالذنب. وقد يسمي تلك الموضوعات، وكثير من المسلمات الأخرى، بـ«مفاتيح الطبيعة البشرية». ثم يلاحظ عالم النفس أن الدوزنة الدقيقة للمفاتيح تبدو متباينة من شخص لآخر. حيث ما أن يتموضع مفتاح «التعطش للقبول» عند شخص ما في منطقة آمنة، في الأسفل قريبًا (نسبيًا) من «الثقة بالنفس»، «ويعلو مفتاح شخص آخر إلى منطقة «انعدام الأمن المفرط»؛ وبينما يُضبط مفتاح الذنب لدى أحدهم عند مستوى سفلي، يكون لدى آخر عند مستوى مرتفع لدرجة أليمة. لذلك يطرح علماء النفس سؤالًا، ويقولون: كيف تُضبط هذه المفاتيح؟ تلعب الاختلافات الجينية بين الأفراد دورًا بالطبع، ولكن ربما تلعب القواسم الجينية دورًا أكبر: عبر برنامج تنموي شامل على مستوى الأنواع يمتص المعلومات من البيئة الاجتماعية ويضبط العقل الناضج وفقًا لها. الغريب أن التقدّم المستقبلي في إدراك أهمية البيئة ربما سيأتي من التفكّر في الجينات.

وبهذا تأتي الطبيعة البشرية على هيأتين، كلاهما ميّال طبيعيًا كي يتم تجاهله. الأولى: هناك النوع المُتَّخَذ على أنه مفروغ منه تمامًا (كالذنب على سبيل المثال). والثانية هي الهيأة التي تتمثل وظيفتها بإحداث اختلافات بين الناس في أثناء مرحلة نضوجهم، وبذلك لديها ميل طبيعي لإخفاء نفسها (برنامج تنموي يعاير الشعور بالذنب). تتشكل الطبيعة البشرية من مفاتيح وآليات لضبط تلك المفاتيح، وكلاهما غير مرئي بطريقته.

وهناك مصدر آخر للإخفاء، وهو سبب آخر لتثبيط سرعة تجلي الطبيعة

البشرية: المنطق التطوري الأساس المشترك بين الناس في كل مكان غامضٌ أمام الاستبطان[1]. يبدو أن الانتقاء الطبيعي قد أخفى ذواتنا الحقيقية عن ذواتنا الواعية. وكما يرى فرويد فإننا غافلون عن دوافعنا العميقة، ولكن بطرق أكثر تأصلًا وتكاملًا (بل وبشاعة في حالات) مما نتخيل.

العون الذاتي الدارويني

على الرغم من تناول هذا الكتاب لكثير من العلوم السلوكية - كالأنثروبولوجيا والطب النفسي والاجتماع والعلوم السياسية - إلّا أن علم النفس التطوري سيكون جوهره: إن هذا الهيكل الفتي غير المُنجز، مع وعده الموفى به جزئيًا في خلق علم جديد للعقل، سيُتيح لنا الآن طرح سؤال لم يَكن بالإمكان طرحه في العام ١٨٥٩، بعد صدور أصل الأنواع، ولا حتى في العام ١٩٥٩: ما الذي لدى نظرية الانتقاء الطبيعي كي تقدمه إلى البشر الاعتياديين؟

فعلى سبيل المثال: هل بإمكان الفهم الدارويني للطبيعة البشرية مساعدة الناس على تحقيق أهدافهم في الحياة؟ بل وهل يُمكنه مساعدتهم على اختيار تلك الأهداف من الأصل؟ أو على التمييز بين الأهداف العملية وغير العملية؟ والأعمق من كل ما سبق، هل يُمكنه المساعدة على تحديد أيٍّ الأهداف تستحق؟ بمعنى، هل تساعدنا معرفة كيف شَكَّلَ التطوّر دوافعنا الأخلاقية الأساسية في تحديد أي الدوافع يجب أن نعُدّها شرعية؟

والإجابات هي برأيي نعم، نعم ونعم ونعم أخرى أيضًا. ربما تُثير الجملة السابقة الإزعاج، ذلك إنّها تُثِر غضبَ كثيرين في هذا المجال. (صدقني. فقد سَبَق لي عرضها على بعض منهم.) حيث لطالما عملوا تحت عبء الانتهاكات الأخلاقية والسياسية السابقة للداروينية، وهم يودُّون إبقاء ملكوتيّ العلم والقيم منفصلين عن بعضهما بعضًا. حيث من غير الممكن اشتقاق القيم

(١) أحد المناهج النفسية التي تحاول سبر أغوار النفس البشرية [المترجم]

الأخلاقيـة الأساسـية مـن الانتقـاء الطبيعي، كـما يقولون، أو مـن أي عملٍ للطبيعـة في واقع الأمر. ولو فعلتَ ذلك، فإنك ترتكب ما يدعوه الفلاسـفةُ بـ«مغالطة المذهب الطبيعي» – وهو الاسـتدلال غير المُبرر لما يُراد للشيء أن يكونه عمّا هو عليه بالفعل.

أتّفقُ أن الطبيعة لا تُمثّلُ سُلطة أخلاقية، ولسنا بحاجة إلى تبنّي أيِّ «قِيَم» تبـدو مُتضمَّنـة في أعمالهـا – مثل «القـوّة هي الحـقّ». ومع ذلك يظـلُّ الفهـمُ الحقيقـي للطبيعة البشريـة مؤثِّرًا حتميًا على الفكر الأخلاقي بعُمق وبشـكل شرعي كما سأحاول البيان لاحقًا.

سـيكون لهـذا الكتـاب، من حيـث صلته بمسـائل الحيـاة اليومية، بعض سـماتِ كُتب المُساعدة الذاتية، ولكنه سـيفتقر للكثير الآخر منها. فلن تكون المئـات اللاحقة من الصفحات مُحمَّلة بالنصائح المُركَّزة والتطمينات الدافئة. إذ لا تعمل وجهة النظر الداروينية على تيسير حياتك بنحو كبير، بل ستعمل مـن بعض النواحـي على تعقيدها عبر تسـليط ضـوء باهِر على السـلوكيات الأخلاقيـة المشـبوهة التي نخضعُ لها، وأي الشُـبهات أخفاها التطـوّر عنّا لما في صالحنا. إن الوصفات القليلة الهشّـة والمُبهجة التي يُمكنني اسـتخلاصها مـن الأنمـوذج الداروينـي الجديـد أكثر توافقًـا مع المُفاضـلات والمُعضلات والألغاز العنيدة والثقيلة التي تُنيرها.

لكـن ليـس بإمكانـك إنكار شـدّة تلـك الإنـارة – على الأقل لـن تحاول إنكارها كما آمل عند نهاية هذا الكتاب. وعلى الرغم من أن أحد أهدافي إيجاد تطبيقـات عملية لعلم النفس التطوري، لكنَّ الهدف الأسـبق والجوهري هو تغطيـة المبادئ الأساسـية لعلم النفس التطوري – لإظهـار مدى أناقة نظرية الانتقـاء الطبيعـي، كما بات مفهومًا اليوم، وهي تكشـفُ عـن ملامح العقل البـشري. هذا الكتـاب، مبدئيًا، هو عرضٌ ترويجي لعلم جديد؛ ومن ثم فهو عرض ترويجي لأساس جديد للفلسفة السياسية والأخلاقية.

لقـد بذلتُ قُصارى جهدي كي أبقي هذين المسـألتين منفصلتين، للتمييز بين الادعاءات الداروينية الجديدة عن العقل البشري وادعاءاتي الخاصة عن

الثمار العملية للداروينية الجديدة. أكثرُ من سيقبلون طقم الادعاءات الأول، الطقم العلمي، سيرفضون أغلب ما في الطقم الثاني، الفلسفي. لكني أظنُّ أن بعض من اشتروا الطقم الأول سينكرون صلته بالثاني. إذ يصعب من ناحيةٍ الموافقة على أن الأنموذج الجديد يُمثِّل إلى حدٍ بعيد عدسة قوية يُمكنُ النظر عبرها إلى الجنس البشري ثم تنحية هذه العدسة قبل النظر لتفحُّصِ المأزق البشري. إنما الجنس البشري هو نفسه المأزِق البشري.

داروين والابتسامات والمطحنة

لم يَكُن «أصل الأنواع» الكتاب الرائد الوحيد الذي صدر في إنكلترا عام ١٨٥٩، إذ صدر بالتزامن معه كتاب «المساعدة الذاتية» مسيحي الطابع الأكثر مبيعًا الذي كتبه الصحفي ساموئيل سمايلز. ثم كان هناك كتاب «عن الحريّة» تأليف جون ستيوارت مِل. والمصادفة كانت تأطير كلا الكتابين على نحو أنيق سؤال ما سيعنيه كتاب داروين في نهاية المطاف.

لم يُشدِّد «المُساعدة الذاتية» على التواصل مع مشاعرك أو تحرير نفسك من العلاقات المتوتِّرة أو تحقيق فائدة من القوى الكونية التوافقية، أو الأشياء الأُخر المختلفة التي منحت كُتُب المساعدة الذاتية منذ زمنٍ جوًا من الانغماس الذاتي والراحة الهيِّنة. بل بَشَّرَ بالفضائل الفكتورية الجوهرية: الكياسة، والنزاهة، والمثابرة، ومن ثمَّ ضبط النفس الحديدي، وهو المُعزِّزُ لها جميعًا. يؤمن سمايلز أن بإمكان المرء تحقيق كل شيء تقريبًا «عبر حريّة الإرادة، وإنكار الذات». لكن يجب عليه دائمًا أن يكون «متسلِّحًا ضد إغراء الانغماس في كل ما هو مُنحط» وألّا «يُدنِّسَ جسده بالشهوة، ولا عقله بالأفكار الدنيئة».

وعلى النقيض من ذلك، كان كتاب «عن الحرية» مُجادلًا شرسًا ضد الإصرار الفيكتوري الخانق على ضبط النفس والامتثال الأخلاقي. إذ اتّهم مِل المسيحية، مع ما لديها من «رُعبٍ تجاه الشهوة،» واحتجَّ بأن («المنع» لن يسود على «السماح» بإفراط). وأسَّسَ لقمع الفرع الكالفيني على نحو

خـاص، مع مـا يحمله من اعتقـاد عن أن «الطبيعـة البشرية فاسـدة بأصلها، ولا طريق للخلاص بالنسـبة إلى أي أحد ما لم يقتل الطبيعة البشرية داخله». تبنى مِل نظرة أكثر إشراقًا للطبيعة البشرية واقترح على المسـيحية فعل الشيء نفسه. «إن كان أي جُزء من الدين يُؤمن بكون الإنسان صنيعة خالق صالح، فالأكثر اتسـاقًا مع هذا الاعتقاد الإيمان أن ذلك الخالق حينما أهدى الإنسـان كلَّ ما له من ملكات فالواجب على الإنسان تهذيبها وتفتيحها، لا استئصالها واسـتهلاكها، وأن يسـعَدَ لكُلِّ جُهد تبذله مخلوقاتـه في الاقتراب إلى التصور المثـالي المتجسِّـد فيها، ولكل زيـادة في أي من قدراتها عـلى الإدراك أو العمل أو الاستمتاع».

طرح مِل على نحو مميز سؤالًا في منتهى الأهمية، ألا وهو: هل البشر سيئون بطبيعتهـم؟ يميـل من يعتقـدون بذلك، مثل سـامويل سـمايلز، لأن يكونوا محافظيـن أخلاقيًـا - حيث التشـديد عـلى إنكار الـذات والتزهُّـد وترويض وحـش الأنفُس. في حين يميل غير المؤمنين أمثـال مِل لأن يكونوا مُتحررين أخلاقيًـا ومتراخين إلى حـدٍّ ما مع الكيفية التي يختار فيها الناس أن يتصرفوا. سـلَّطَ علم النفس التطوري، على الرغمِ من حداثته، كثيرًا من الضوء بالفعل على هذا الجدل، وما بلغه من نتائج كانت مريحة ومقلقة في الآن نفسه.

فقـد صـار ممكنًا القـول بثقـة أن الإيثـار، والرحمـة، والعطـف، والحب، والضمـير، والإحسـاس بالعدل، كُل تلك الأشـياء التي تُحافظ على تماسـك المجتمـع بعضـه ببعـض، والتي تمنـح أنواعنا قـدرة فائقة على التفكير بشـأن أنفسـها، كلها لها أسـاس جيني راسـخ. هذه هي الأخبار الجيدة، أما السـيئة فهـي عـلى الرغم من مدى كون هذه الأشـياء بمثابة نعمـة على البشرية ككل مـن بعض النواحي، لكنها لم تتطور لأجل «صالـح الأنواع» ولم توظـف على نحـو موثـوق بما يحقق هـذه الغاية، بل العكـسُ تمامًا: إذ بـات واضحًا اليوم أكثـر من أي وقت مـضى كيف (ولماذا تحديدًا) تسـتعمل المشـاعر الأخلاقية بمرونة وحشـية، إذ تُفعَّل وتُعطَّل بما يتماشـى مع المصلحة الذاتية؛ وكيف أننا في الغالـب نتغافـل طبيعيًا عن هـذا التحوّل. في الرؤية الجديـدة، يُعدُّ الجنس

البشري نوعًا مُبهرًا لما يمتلكه من ذخيرة أخلاقية، لكنه مأساوي من حيث ميله لإساءة استخدامها، ومثير للشفقة في جهله البنيوي بسوء الاستخدام. ولا يخلو عنوان هذا الكتاب تمامًا من السُخرية.

وهكذا فعلى الرغم من كل ما في المعالجات الشعبية للبيولوجيا الاجتماعية من تشديد على «الأسس البيولوجية للإيثار،» وعلى الرغم من أهميتها الأصيلة، إلّا أن الفكرة التي ازدراها جون ستيوارت مِل - فكرة الطبيعة البشرية الفاسدة، و»الخطيئة الأصلية» - لا تستحق مثل هذا الرفض الموجز. ولهذا السبب أؤمن أن المحافظة الأخلاقية لا تستحق ذلك أيضًا. في الواقع أعتقد أن بعض - وأشدِّدُ على «بعض» - المعايير المحافظة التي سادت في إنكلترا الفيكتورية تعكس، ولو بشكل غير مباشر، فهمًا أكيدًا للطبيعة البشرية أكثر من معظم العلوم الاجتماعية التي كانت سائدة خلال معظم هذا القرن؛ وأن بعض الأخلاق المحافظة المُنبعثة التي ظهرت خلال العقد الأخير، ولا سيما في ملكوت الجنس، مُستندة إلى إعادة اكتشاف ضمني للحقائق المتعلقة بالطبيعة البشرية التي أُنكِرت منذ مدة طويلة.

إن كان للداروينية الحديثة بالفعل بعض الانبثاقات الأخلاقية المحافظة، فهل يعني ذلك أن لها انبثاقات سياسية محافظة؟ هذا السؤال صعبٌ ومهم. من السهل والصحيح أيضًا نبذُ الداروينية الاجتماعية بِعَدِّها نوبة من الالتباس الخبيث. إلّا أن مسألة الخير البشري الفطري ستظلُّ تلقي بظلالها السياسية بحيث لا يُمكن تجاهلها والمُضيّ، ذلك أن الارتباط بين الأيديولوجيا ووجهات النظر عن طبيعة الإنسان لها تاريخ طويل وبارز. فعلى مدار القرنين الماضيين، بينما تغيّرت معاني «الليبرالية» و«المحافظة» السياسية إلى درجة يصعب معها التعرف عليهما تقريبًا، ظلَّ هناك ما يميِّز بين الاثنين: إن الليبراليين السياسيين (أمثال مِل في أيامه) يميلون إلى تبنّي وجهة نظر أكثر تفاؤلًا عن الطبيعة البشرية مقارنة بالمحافظين، مع تفضيل مناخ أخلاقي أكثر مرونة.

ومع ذلك فلا يزال غامضًا مدى أهمية هذا الارتباط بين الأخلاق

والسياسة حقًا، ولا سيما في سياق الوقت الحالي. وإلى الحد الذي يكون فيه للأنموذج الداروينى الجديد مضامين سياسية متمايزة بشكل معقول - وفي الأغلب لن يكون ذلك - فهي في أكثر الأحيان ستميل إلى اليسار بقدر ميلها لليمين. لكنها في بعض الأوقات تميل ناحية اليسار بإفراط.

(وعلى الرغم من أن كارل ماركس قد يجد الكثير ليكرهه في الأنموذج الجديد، لكنه سيجد أجزاءً منه جذابة للغاية)، والأكثر من ذلك أن الأنموذج الجديد يقترح أسبابًا قد تدفع السياسي الليبرالي الحالي لتأييد بعض المذاهب الأخلاقية المحافظة كمسألة اتساقٍ أيديولوجي. في الوقت نفسه فهي تقترح أن الأجندة الأخلاقية المحافظة ربما تستفيد في أحيان من السياسات الاجتماعية الليبرالية.

دَرْوَنَةُ داروين

لأجل إثبات وجهة النظر الداروينية سأستخدم تشارلز داروين أنموذجًا رئيسيًا للعرض. حيث ستوضح أفكاره ومشاعره وسلوكه مبادئ علم النفس التطوري. في العام ١٨٧٦، كتب داروين في الفقرة الأولى من سيرته الذاتية، «لقد حاولت كتابة هذه السيرة عن نفسي، كما لو كُنتُ رجلًا ميتًا في عالم آخر أنظر للوراء ناحية حياتي». (ثم أضاف بانفصال كئيب متميّز، «ولم أجِدْ في ذلك صعوبة؛ لأن الحياة بالنسبة لي شارفت على النهاية»). أحب الاعتقاد بأن داروين لو كان ينظر إلى الوراء اليوم، مع ما توفره الداروينية الجديدة من إدراك متأخر نافذ، لرأى حياته كما سأصفها أنا إلى حدٍّ ما.

ستُمثِّل حياة داروين أكثر من مُجرَّد شاهِد، إذ ستكون بمثابة اختبارٍ مُصغَّر للقوة التفسيرية للأنموذج الحديث والمُحسَّن من نظرية الانتقاء الطبيعي التي وضعها. لطالما ادّعى المدافعون عن النظرية التطورية - وبضمنهم هو وأنا - أنها بالغة القوة من حيث قدرتها على تفسير طبيعة كافّة الكائنات الحيّة. ولو كُنا على حقّ فيجب أن تُمثِّل حياة كُل إنسانٍ يُنتقى عشوائيًا توضيحًا جديدًا إذا ما نُظر إليها وفق المنظور التطوري. حسنٌ، لم يُنتقى داروين عشوائيًا

بالفعل، ولكنه سيكون مناسبًا مثل خنزير غيني. وادعائي أن حياته - ومحيطه الاجتماعي المتمثل بإنكلترا الفيكتورية - ستبدو أكثر منطقية عند النظر إليها من منظور دارويني مقارنة بأي منظور منافس آخر. وفي هذا السياق سيبدو هو وبيئته مثل كُلِّ ظاهرة عضوية طبيعية أخرى.

لا يبدو داروين شبيهًا بالظواهر العضوية الأخرى. إن الأمور التي تطرأ في الذهن عند التفكير بالانتقاء الطبيعي - السعي الحثيث وراء المصلحة الذاتية الجينية، وبقاء الأشرس - لا تُشبِه داروين. إذ كان متحضرًا وإنسانيًا وفق كافة المقاييس (ربما باستثناء الأوقات التي تُصعِّبُ فيها الظروف التصرف عكس هذين الحافزين؛ إذ كان يتملّكه الهياج أثناء إدانته العبودية، وقد يستشيط غضبًا إذا ما شاهد سائسًا يُسيء معاملة حصانه). إن رقّة سلوكه وافتقاره المطلق للتظاهر الذي تميّز بهما منذ شبابه لم تُفسدهما الشهرة. «من بين جميع الرجال البارزين الذين شهدتهم على الإطلاق، كان داروين الأكثر جاذبية بالنسبة إلي من دون منازع»، كما يصفه الناقد الأدبي ليزلي ستيفن، ويضيف: «إن في بساطته وودّه شيئًا يستثير الشفقة إلى حد ما»، كان داروين، باستعارة عبارة من الفصل الأخير لكتاب «المساعدة الذاتية»، «نبيلًا حقيقيًا».

لقد قرأ داروين «المساعدة الذاتية»، لكنه لم يكن بحاجة لذلك. إذ كان في ذلك الحين (بعمر الواحد والخمسين) تجسيدًا حقيقيًا لمفهوم سمايلز عن أن الحياة معركة ضد «الجهل الأخلاقي والأنانية والرذيلة»، في الواقع، هناك وجهة نظرٍ مفادها أن داروين كان خلوقًا أكثر من اللازم، بل قد يُحاجج بعضهم أنه لو كان بحاجة لكتابٍ في المساعدة الذاتية، لناسبه واحدٌ من كتب أواخر القرن العشرين التي تتحدث عن كيفية الرضا عن النفس والسعي لتحقيق الصدارة. يعتقد الراحل جون بولبي، أحد أفضل كتّاب سيرة حياة داروين، أنه كان يعاني من «ازدراء مُزعج للذات» ومن «ضمير مُفرط النشاط». لقد كتب بولبي: «في حين أن هناك كثيرًا مما يستحق الإعجاب في غياب القدرة على التظاهر وتبني مبادئ أخلاقية صلبة التي كانت جزءًا لا يتجزأ من شخصية داروين وجعلته، إلى جانب أشياء أُخر

كثيرة، محبوبًا بين أقربائه وأصحابه وزملائه، لكن صفاته تلك تطورت للأسف في زمن سابق لأوانها وإلى درجة مُفرطة».

كان تواضع داروين وأخلاقه «المفرطة» وافتقاره الشديد للتوحُّش هو ما جعل منه ذا قيمة مُثلى بوصفه موضوعًا للاختبار. سأُحاول تبيان أن الانتقاء الطبيعي، مهما بدا غريبًا في انطباقه على هذه الشخصية، يُمكنه الانطباق عليها. صحيحٌ أن داروين كان على درجة من النُبل والإنسانية والخُلق كما تأمل أن يكونها كُل الرجال على هذا الكوكب. ولكن الحقيقي أيضًا أنه بشكل أساس لا يختلف عن أي أحد منّا. فحتى تشارلز داروين كان حيوانًا.

القسم الأول:

الجنس والرومانسية والحب

الفصل الأول

داروين راشدًا

«أمّا بالنسبة إلى السيدة الإنكليزية، فقد كدت أنسى ما هي عليه. - شيءٌ في مُنتهى الملائكية والطيبة».

رسائل من سفينة البيغل (١٨٣٥)

لم يُنصح الأطفال الذين نشأوا في إنكلترا في أثناء القرن التاسع عشر عمومًا بالسعي وراء الإثارة الجنسية، ولم يُنصحوا بفعل أشياء يمكن لها دفعهم إلى التفكير في البحث عنها. فقد حذَّر الطبيب الفيكتوري ويليام آكتون في كتابه «وظائف واضطرابات الأعضاء التناسلية» من تعريض الصبية إلى «الأعمال الكلاسيكية» للأدب. «إنه يقرأ فيها عن ملذات الانغماس في الجنس من دون اطلاع على عواقبها. وهو غير مُدركٍ بشكل حدسي أن الرغبات الجنسية في حال كانت مثيرة ستتطلَّبُ قوة إرادة كبيرة للسيطرة عليها وتجنُّب السقوط في براثنها كحال معظم الفتيان؛ وفي حال سقط ضحية لها فسيتحتَّم على الرجل دفع جزاء ما ارتكبه الصبي من زَلل؛ وأن مُقابل كل ناجٍ سيُعاني بدله عشرة؛ وأن خطرًا فظيعًا كهذا يستحضر بدائل غير طبيعية عن الجماع؛ وأن مثل هذا الانغماس الذاتي الذي سُعيَ إليه طويلًا سينتهي بحامله في نهاية المطاف، إذا

ما تمَّ الإفراط في الانجراف نحوه، ضحيةً للموت أو تدمير الذات».

صدر كتاب آكتون في عام ١٨٥٧ في منتصف العصر الفيكتوري وفيه استخلص مضامين العصر الأخلاقي. لكن القمع الجنسي كان يسود الأجواء منذ زمنٍ سبق اعتلاء الملكة فيكتوريا العرش عام ١٨٣٧، بل وقبل ذلك التاريخ حين كانت الخلاعة تُستخدم لتأطير العصر الفيكتوري في ١٨٣٠. وفي مطلع القرن اللاحق بالطبع، كانت الحركة الإنجيلية التي غذّت التشدد الأخلاقي الجديد لا تزال جارية على قدم وساق. وكما أشار جي إم يونغ في كتاب «بورتريه عُمْر»، صبيٌّ ولد في إنكلترا عام ١٨١٠ - بعد عام من ولادة داروين - «وجد نفسه خاضعًا للسيطرة من كل جانب، ومُحرَّكًا بفعل الضغط الهائل للانضباط الأنجليكاني. . . .» لم تكن هذه مسألة كبح جنسي فحسب، بل مسألة كبح عامّة - احتراز مُطلقٌ ضد الانغماس. سيتعلم الصبي، على حد تعبير يونغ، أن «العالم بالغ الشرّ. إذ من شأن نظرة متهورة، كلمة أو صورة أو رواية أن تزرع بذرة الفساد داخل أصفى القلوب...» وقد وصف تلميذ آخر من تلامذة الفيكتورية «حياةً من النضال المُستمر - نِضالٌ لمقاومة كُلٍّ من الإغراء والسيطرة على رغبات الأنا»؛ وعبر «الممارسة المدروسة للانضباط الذاتي، على المرء أن يؤسس للعادات الجيدة ويكتسب القدرة على ضبط النفس».

كان هذا الرأي هو ما أراد ساموئيل سمايلز المولود بعد داروين بثلاثة أعوام أن يُضمِّنه في كتاب «المُساعدة الذاتية». ومثلما يشهد نجاحُ الكتاب الواسع فقد لاقت النظرة الإنجيلية انتشارًا كبيرًا وراء جدران الكنائس الميتودية التي مثّلت المنبع، وبلغت الأنجليكان والموحدون وحتى اللاأدريين. وأهلُ بيت داروين خيرُ مثال على ذلك. إذ كان داروين موحِّدًا (وكان والده مفكِّرًا حرًا، على الرغم مما اتسم به من هدوء)، ومع ذلك استوعب النزعة المتزمِّتة لعصره. ويبدو ذلك جليًا في ضميره المُثقَل والشريعة الصارمة في القيادة التي ناصرها. وبعد مدة طويلة من تخليه عن إيمانه، كَتَبَ أنَّ «أعلى مراحل الثقافة الأخلاقية التي يُمكننا بلوغها هي حينما نُدرك أن علينا التحكّم بأفكارنا

و[كما سبق أن قال تينيسون] 'اجتناب التفكير مرة أخرى، حتى في مكامن أفكارنا الأعمق، بالخطايا التي جعلت ماضينا غاية في المتعة بالنسبة إلينا' كُل ما يجعل فعلًا سيئًا مألوفًا للعقل، يجعل من معاودة أدائه أمرًا أسهل. وكما قال ماركوس أوريليوس منذ زمن طويل، 'كيفما تكون أفكارك المُعتادة، تكون شخصية عقلك؛ ذلك أن الروح تصطبغ بالأفكار'».

على الرغم من أن شباب داروين وحياته كانا غريبين من بعض النواحي، لكنهما من هذا الجانب تحديدًا كانا مثاليين لحقبته: إذ عاش وفق مركزية أخلاقية هائلة. فقد كان عالمه واحدًا يُصادفُ فيه المرءُ أسئلة عن الصائب والخاطئ في كل منعطف. والأكثر أنه كان عالمًا ليس لتلك الأسئلة فيه إجابة - ليس بشكل مُطلق على الأقل - على الرغم من أن الإجابات كانت في بعض الأحيان أكثر مما يُمكن احتماله. كان عالمًا شديد الاختلاف عن الذي نعيشه اليوم، وكان عمل داروين موشكٌ على صنع الكثير لإحداث الفرق.

بطلٌ غير مُتوقَّع

كانت الخطة المهنية الأصلية بالنسبة إلى داروين أن يصبح طبيبًا. ويذكُر أن والده كان على يقين من «أنّي سأُمثِّل طبيبًا ناجحًا - وقد عنى بذلك واحدًا يراجعه كثير من المرضى»، وداروين الأب نفسه كان طبيبًا ناجحًا، «وأكد أن العنصر الرئيس للنجاح عبر إلهاب الثقة؛ لكن ما رآه داخلي وأقنعه أن عليَّ بناء ثقة هو أمر لا أعرفه»، ومع ذلك ترك تشارلز داروين في سن السادسة عشرة منزل عائلته المريح في روزبري وتوجه رفقة شقيقه الأكبر إيراسموس إلى جامعة أدنبرة كي يدرس الطب.

لكن الحماسة لم تُكلَّل بالنجاح. ففي إدنبرة لم يبذل داروين سوى القليل من الانتباه إلى الدورات الدراسية وتجنَّب صالات العمليات (إذ لم تكن مُشاهدة العمليات الجراحية في عصر ما قبل الكلوروفورم أمرًا يريدهُ المرء)، بينما قضى كثيرًا من وقته في الأنشطة اللامنهجية: التَّرْولة مع الصيادين لأجل جمع المحار، الذي كان يُشرِّحه لاحقًا؛ كما أخذ دروسًا في التحنيط لتكميل

حبه الجديد لهواية الصيد؛ التمشية والدردشة مع خبير إسفنج يُدعى روبرت غرانت، والذي كان إيمانهُ بالتطور بالغًا - غير أنه لم يكن يعلم بالطبع آلية عمله.

شعر والد داروين بانحراف مهني معين، ويذكر تشارلز أنه «كان عنيفًا للغاية جرّاء تحوّلي إلى رياضيّ عاطل، والذي بدا في ذلك الحين وجهتي المحتملة»، ونتيجة لذلك ذهب الدكتور داروين إلى خطة بديلة واقترح على ابنه مسارًا مهنيًا يُصبح فيه رجل دين.

قد يبدو ذلك توجيهًا غريبًا حين يصدر من رجل لم يكن مؤمنًا بالرب ويُمنح إلى ولدٍ لم يتميّز بالتديّن وكان انجذابه لعلم الحيوان واضحًا. لكن والد داروين كان رجلًا عمليًا. وفي تلك الأيام كان عِلْمَي الحيوان واللاهوت وجهان لعملة واحدة. لو كانت كل الكائنات الحية صنيعة الرب، فإن دراسة تصميمها العبقري ستكون دراسة لعبقرية الربّ نفسه. وأبرز مؤيدي هذا الرأي ويليام بالي، مؤلف كتاب اللاهوت الطبيعي، أو أدلة وجود وصفات المعبود المجموعة من مظاهر الطبيعة، الصادر عام ١٨٠٢. جادل بالي فيه أنه مثلما تشير الساعة إلى صانع الساعات، فإن عالمًا مليئًا بالمتعضّيات بالغة التعقيد، والمهيأة تهيئة مثالية لأداء مهامّ بعينها، جميعها تُشير حتمًا إلى مصمِّم. (لقد كان مُحقًّا. بَيْدَ أن السؤال هو ما إن كان المُصمِّم إلهًا غير منظور أم عملية غير واعية).

كانت الثمرة اليومية لعلم اللاهوت الطبيعي السماح للقسيس المحلي قضاء كثير من الوقت في الدراسة والكتابة عن الطبيعة دون انطواء ذلك على ذنب. بذلك ربما يكون ردُّ فعل داروين على احتمال الزي الكنسي إيجابيًا إلى حدٍّ ما إن لم يكن روحيًا على وجه الخصوص. «طلبتُ بعض الوقت للتفكير في ذلك، إذ كان لدي مما سمعته وتفكّرتُ فيه شيئًا من التردد في إعلان إيماني بكل عقائد الكنيسة الإنكليزية؛ وذلك على الرغم من حُبي لفكرة أن أكون قسيسًا محلي». أتمَّ داروين بعض القراءات عن الألوهية و«بما أنّي لم أشك على الأقل بالحقائق الصارمة والحرفية لكُلِّ كلمة جاءت في الكتاب

المُقدّس، سرعان ما أقنعت نفسي بأن أسس العقيدة خاصّتنا لابد من أن تُقبلَ بالكامل»، ولأجل الاستعداد للكهانة، ذهب داروين إلى جامعة كامبريدج حيث قرأ كتاب بالي وكان «مفتونًا ومقتنعًا بسلسلة الجدل الطويلة».

لكن ليس لوقت طويل. فبعد انتهائه من كامبريدج، واجه داروين فرصة غريبة: الخدمةُ بوصفه عالمًا طبيعيًا على متن سفينة البيغل، والباقي خلّده التاريخ. وعلى الرغم من أن فكرة الانتقاء الطبيعي لم تتأتَّ لداروين في أثناء إبحاره على متن البيغل، إلّا أن دراسته للحياة البريّة حول العالم أقنعته بأن التطوّر قد حدث، ونبهته إلى أغلب خصائصه الموحيّة. ثم بعد عامين من انتهاء الرحلة التي دامت خمس سنوات، تبيَّن كيف يعمل التطور. لم تصمد خططَ داروين للالتحاق بالأكليروس أمام هذه الرؤية. ومن رحلته جلب معه مجلده المفضل من الشعر، كما لو كان يعمل على توفير كثير من الرمزية لكُتّاب سيرته اللاحقين، وكان ذلك المُجلد هو «الفردوس المفقود».

عندما غادر داروين شواطئ إنكلترا، لم يكن هناك داعٍ للاعتقاد بأن الناس سيكتبون كُتبًا عنه بعد قرن ونصف. إذ جازف أحدُ كُتّاب السيرة بوصف مرحلة شبابه، مُطلقًا حُكمه الشعبوي إلى حدّ ما، قائلًا عنه: «لم يتميَّز بأدنى لمحة من العبقرية». مثل هذه الادعاءات غالبًا ما تكون بطبيعة الحالِ مثارًا للشك، ذلك أن التشاؤم المُبكر بالعقول العظيمة يُضيفُ مسحة من الإثارة على المحتوى المقروء. وهذا الادعاء تحديدًا يستحقُّ منّا شكًّا خاصًّا، لأنه يعتمدُ إلى حدٍّ كبير على تقييمات داروين لنفسه، والتي لم تكن ميّالة إلى التضخيم وأقربُ للتواضع. حيث أفاد داروين بإخفاقه في إتقان اللغات الأجنبية ومعاناته مع الرياضيات، و«وصِفتُ من قِبَلِ كافّة مُدرسيني إلى جانب والدي على أنّي صبي اعتيادي للغاية، بل وتحت المعيار العامّ للفكر.» ربما يكون ذلك صحيحًا، وربما لا، وربما ينبغي استثمار المزيد من الأسهم في واحدٍ آخر من تقييماته لنفسه، ذلك المتعلق بموهبته الفذّة في اكتساب صداقات الرجال «الأكبر سنًا منّي والأعلى منزلة أكاديمية»، «أظنُّ أن في نفسي أمرًا يمنحني شيئًا من التفوق بالمقارنة مع أقراني الشبيبة عمومًا».

عـلى كُل حال فـإن غياب البريـق الفكـري المُعمي لم يكن الأمـر الوحيد الذي حدا بكُتّاب السـيرة إلى عدّ داروين ناجيًا غير محتمل لنقش اسـمه على أعمـدة المخلّدين. هناك أيضًا إحسـاسٌ بأنه لم يكن رجـلًا رائعًا، إذ كان غايةً في التواضع واللطف وشديد الافتقار إلى الطموح غير المقيّد. وكان أقرب إلى صبي ريفي بسـيط وضِيق الأفق إلى حدٍّ ما. سـأل أحدُ الكُتّـابِ قائلًا: «لماذا أُعطـي داروين، الأقلّ طموحًا وخيـالًا وتعليمًا من كثير مـن زملائه، إنجاز التوصّـل إلى النظرية التي سـعى إليها آخـرون بمنتهى المُثابـرة؟ كيفَ أمكَنَ لشـخصٍ محدود الفكر وغير حسّـاس ثقافيًا أن ينتهي إلى ابتكارِ نظرية هائلة في هيكليتها وكاسحة في أهميتها؟»

إحدى وسـائل إجابة ذلك السـؤال الطعن في تقييم داروين (وهو تمرين سـنجريه لاحقًا)، ولكن الوسيلة الأسـهل هي الطعن في تقييمه لنظريته. إن فكـرة الانتقـاء الطبيعي، رغم كونها «كاسـحة في أهميتها،» ليسـت «هائلة في هيكليتها» بالضبط. إذ إنها نظرية صغيرة وبسيطة، ولا تتطلب قدرًا كبيرًا من الذكاء لتصوّرها. بل سـبق لتوماس هنري هكسـلي، صديـق داروين المُقرّب والمدافع الشرس والخطيب الطليق، أن انتقد نفسه على عدم توصّله شخصيًا للنظرية حين قال: «كم أنا غبي إذ لم أفكر في ذلك من قبل!»

كُلُّ مـا تقولـه نظريـة الانتقـاء الطبيعي هـو الآتي: إن كان لـدى نوع من الأنـواع تباينٌ بين الأفراد على صعيد السـمات الوراثية، وتبيَّن أن بعض تلك السـمات أكثـر ملاءمة للبقـاء والتكاثر مـن غيرها، فهذه السـمات (بالتأكيد) سـتُصبِحُ أكثر انتشـارًا بين أعضاء النـوع الواحد. والنتيجـة (بالتأكيد) تغيُّر حوض السِمات الإجمالي للنوع. وهكذا يكون الانتقاء الطبيعي.

قـد يبـدو التغيير ضئيلًا للغاية إذا مـا أُخذَ من أي جيـلٍ بعينه. فلو كانت الرِقابُ الطويلة تُسـاعد الحيوانات عـلى بلوغ الأوراق القيِّمة، وبذلك تموت الحيوانـات قصـيرة الرقبـة قبل التكاثر، فسيسـتطيل متوسـط طـول الرقِابِ بالـكاد. ولكن في حال ظهـرت تنوعات في أطوال الرِقـاب حديثًا عند جيل جديد (عبر إعادة الخلط الجنسي أو الطفرات الجينية، كما نعرف اليوم) بحيث

يستمر الانتقاء الطبيعي بامتلاك مجموعة متباينة من الأطوال «للانتقاء» من بينها، سيستمرّ متوسط طول الرقاب بالازدهار شيئًا فشيء. بالمُحصّلة فإن الأنواع التي انطلقت برقابٍ حصانية ستنتهي إلى امتلاكِ رِقابٍ زرافية. أي إنها ستُصبح بمعنى آخر أنواع جديدة.

لخّصَ داروين مرّة الانتقاء الطبيعي في ثماني كلمات: «تكاثرٌ وتنوّع، دَع الأقوى يعيش بينما يموت الأضعف»، لا تعني «الأقوى» هنا كما كان يعلمُ جيدًا الأشدَّ فقط، بل الأكثر تكيفًا مع البيئة، سواء أكان عبر القابلية على التمويه أو مستوى الذكاء أو أي شيء آخر بإمكانه المُساعدة على تعزيز فرص البقاء والتكاثر[1].

عادة ما تستعمل عبارة «الأصلح» (مصطلحٌ لم يَسكّه داروين لكنه رضي به) بديلًا لـ«الأقوى» كدالّة على مفهوم أشمل - وذلك يعني «لياقة» كائنٍ لمهمة نقل جيناته إلى الجيل اللاحق في بيئته الخاصة. و«اللياقة» هي الشيء الذي «يسعى» الانتقاء الطبيعي إلى تعظيمه في عملية إعادة التصميم المستمرة للكائنات. كما أنها الشيء الذي جعلنا على ما نحن عليه اليوم.

إن كان تصديق ذلك يبدو يسيرًا، فربما لم ترَ الصورة كاملة. إن جسمك بالكامل - الأكثر تناغمًا على الرغم من تعقيده مقارنة مع أيّ منتجٍ إنساني التصميم - قد ابتُكِرَ منذ مئات آلاف السنين عبر تحسينات تراكميّة، وعبر الصُدفة جرت كُلُّ إضافة؛ وكُلُّ خطوة طفيفة بينك وبين أسلافك البكتيريين صادَفَ أن ساعدتَ أحد الأسلاف الوسيطين يومًا على نقل جيناته بوفرة إلى الجيل اللاحق. يزعم الخلقيون في بعض الأحيان أن احتمالات إنتاج شخص عبر التغيّرات الجينية العشوائية تساوي تقريبًا تلك الخاصّة بطباعة قرد لأعمال شكسبير. حسنٌ، ذلك صحيح. ولكن ليس الأعمال الكاملة، بل

---

(١) في الواقع لقد قسَّمَ داروين جوانب «البقاء» و«التكاثر» في العملية. إذ عزا الصفات المؤدية لإنجاح التزاوج إلى «الانتقاء الجنسي،» بعدّها شيئًا مستقلًا عن الانتقاء الطبيعي. لكن في هذه الأيام غالبًا ما يُعامل الانتقاء الطبيعي بنقاط أشمل بحيث يحوي كلا الجانبين: حِفظ السمات المؤدية بأي شكل من الأشكال لتمرير جينات الكائن الحي إلى الجيل اللاحق)

ربما بعض الامتدادات الطويلة القابلة للتميز منها.

ومـع ذلك يُمكن لتلك الأشـياء التي على تلـك الدرجة من بُعد الاحتمال، بمنطـق الانتقاء الطبيعي، أن تكون معقولـة. لنفترض حصول قرد واحد على خـرقٍ مـؤات مـا - ولنفترض أنـه الجين XL والـذي يزيد مقدار حـب الآباء لأبنائهم قليلًا، حبٌ سـيُترجم إلى مزيد من الرعاية الدؤوبة لصالحهم. ربما لن يكون هذا الجين حاسمًا بالنسبة إلى حياة فردٍ من القرود، ولكن افترض أن نسل القـرود الحاملة لجين XL أكثر احتمالًا للنجاة وبلوغ مرحلة النضج بنسـبة ١٪ في المتوسط مقارنة مع نسل القردة غير الحاملة لهذا الجين. وطالما استمرت هذه الأفضلية الطفيفة فإن نسـبة القردة الحاملة لجين XL ستسـتمر بالازدياد، بينما تسـتمر الأخرى غير الحاملة في الانحسـار جيلًا بعد جيل بعد جيل. والتتويج النهائي لهذا الأمر جماعة سـكانية يحوز جميع أفرادها الجين XL. سـيكون الجين بحلول ذلك الوقت قد بلغ مرحلة «الرسـوخ»؛ حيث ستكون الزيادة الطفيفة بدرجة الحب الأبوي الآن «أنموذجية للنوع» أكثر من ذي قبل.

حسـنٌ، إذن بإمكان خرق مؤاتٍ واحد أن يزدهر إلى هذا الحد. ولكن ما احتماليـة تواتر هـذا التوفيق - حيـث يزيد التغيير الجيني العشـوائي اللاحق مـن مقدار الحب الأبوي؟ ما احتماليـة أن تُتبَع طفرة «XL» بطفرةٍ «XXL»؟ يُمكـن القول إنها احتمالية مُنعدمة بالنسـبة إلى فرد واحد من القرود، ولكنها كبيرة بالنسـبة إلى جماعة سـكانية يمتلك جحافل من أفرادها نسخة من الجين XL. فإذا كان أحد أفرادها، أو نسل أو حفيد له، محظوظًا بحيث يمتلك جين XXL، ففرصة ذلك الجين سـتكون كبيرة في الانتشـار عبر الجماعة السـكانية بأكملهـا، ولو ببطء. كما يحتمل طبعًا حصول بقية القرود خلال ذلك الوقت على جينات متنوعة أقل فائدة، وقد تُنهي بعض تلك الجينات سلالة حامليها. حسنٌ، هذه هي الحياة.

بهذه الطريقة يتجاوز الانتقاء الطبيعي الصِعاب - عبر عدم التغلب عليها فعليًـا. إن الأمـر الـذي يتجاوز في ترجيحه السـلالات الصالحة التي تسـود العـالم اليوم - والمقصود السـلالات غير الصالحة التي بلغت نهاية مسـدودة

بفعـل الطفرات غير المؤاتيـة - قد تكررت كثيرًا جـدًا في عدد من الأوقات. فحاوية قمامة التاريخ الجيني تفيض بالتجارب الفاشـلة، سلاسـلُ طويلة من الشـفرات التـي كانت يومًـا ما نابضة بالحياة كأبياتِ شِـعرٍ شكسـبيرية حتى حلول ذلك الانفجار المشؤوم للثرثرة. والتخلص منها كان التكلفة المدفوعة مقابـل التصميـم عبر التجربة والخطـأ. لكن طالما أمكن دفع هـذه التكلفة - طالمـا كان تسـنى للانتقاء الطبيعي الحصـول على أجيال كافيـة للعمل عليها واسـتبعاد عـشرات التجارب الفاشـلة مقابـل كُل واحدة ناجحة - سـتظلّ احتمالية توريده نتاجات رائعة مسـتمرّة. إن الانتقاء الطبيعي عملية غير حية ولا واعية، لكنها رغم ذلك مُهذِّبة دؤوبة وحِرَفية بارعة.

كُل عضـو داخلـك يُمثل شـهادة على فن الانتقـاء الطبيعـي، بما في ذلك قلبـك ورئتاك ومعدتك. كل تلك «تكيّفـات» - نتاجات رائعة لتصميم غير واعٍ، ميكانيكيـات موجـودة هنا الآن لمسـاهمتها في الماضي بلياقة أسـلافك. وجميعهـا أنـواع أنموذجيـة. ورغـم احتمال اختـلاف رئتي فرد عـن الخاصّة بآخـر، ولأسـباب جينية في بعض الأحيـان، لكن جميع الجينات المشـاركة في بناء الرئة خاصتك هي تقريبًا نفسها التي لدى جارك أو شعب الأسكيمو أو البيغمـي. لاحظ عالما النفس التطوريّان جـون توبي وليدا كوزميدس أن كل صفحـة من كتـاب تشريح غراي تنطبق على كافة النـاس في جميع بِقاع العالم. ثم انطلقوا للسـؤال عـمّا إذا كان على تشريح الدماغ أن يكـون مختلفًا؟ تتمثل أطروحة علم النفس التطوري في أن «الأعضاء العقلية» المختلفة التي تُشكِّل العقـل البـشري - كالعضـو الذي يعـزز حُبَّ الآبـاء لذريتهـم - أنموذجية للأنـواع. ويتعقـب علـماء النفـس التطوريـون ما يعـرف في التجارة بوسـم «الوحدة النفسية للبشرية».

تحكُّم الطقس

إن بيننا وبين القردة الجنوبية (Australopithecine)، التي سارت مُنتصبة مع امتلاكها دماغًا بحجم ما للقرد، حوالي بضعة ملايين من السنين: ١٠٠ أو ٢٠٠ ألف جيل. قد لا يبدو ذلك بالكثير، ولكن لك أن تعرف أن ٥٠٠٠ جيل فقط كانت كافية لتحويل ذئبٍ إلى كلب تشيواوا، وعلى مسار منفصل في الوقت نفسه إلى كلب سانت بيرنارد. أكيدٌ أن الكلاب تطورت عبر الانتقاء الاصطناعي وليس الطبيعي، ولكن كما يؤكد داروين فإن الاثنين متماثلين جوهريًا، حيث يتمّ التخلّص في كلتا الحالتين من السِمات غير المرغوبة لدى جماعة سكانية وفق معايير تظل مستمرة على مدى أجيال كثيرة. وفي كلتا الحالتين - في حال كان «الضغط الانتقائي» كبيرًا - لو تمَّ استئصال الجينات غير المرغوبة بسرعة كافية، فيُمكن للتطور أن يتسارع بخفة.

سأتحدث في هذا الكتاب أحيانًا عمّا «يريده» أو «ينتويه» الانتقاء الطبيعي، أو عن «القِيَم» المتضمّنة في أعماله. وكثيرًا ما سأستعين بعلامات الاقتباس، ذلك أن كُل ما بينها مُجرَّدُ استعارات. لكنها استعارات تستحقُّ الاستعمال كما أظن؛ لأنها تساعدنا على التوصل إلى استخلاص تعابير أخلاقية من الداروينية.

قد يتساءل أحدٌ كيف للضغط الانتقائي أن يكون شديد القوّة في أثناء التطور البشري المعاصر. فبعد كُلِّ شيء، ما يولّد الضغط في العادة بيئةٌ معادية، كالجفاف أو العصور الجليدية أو المفترسات الغاشمة أو نُدرة الفرائس، وبتقدُّم التطور البشري، تضاءلت أهمية هذه المؤثرات. لقد تسبب ابتكار الأدوات وإذكاء النار إلى جانب التمكّن من التخطيط والصيد ضمن مجاميع تعاونية، جميعها تسببت وأدت إلى مزيد من التحكم بالبيئة ومزيد من الانعزال عن نزوات الطبيعة. إذن كيف تحولت أدمغة القردة إلى أدمغة بشرية خلال بضعة ملايين من السنين؟

يبدو أن غالب الإجابة يكمن في إمكانية اختزال بيئة التطور البشري بالكائنات البشرية (أو ما قبل البشرية) نفسها. حيث كانت مجتمعات الأفراد

المختلفون للعصر البشري أعداءُ بعضهم بعضًا في سباق تمرير الجينات إلى الجيل اللاحق. والأكثر أنهم كانوا أدوات بعضهم الآخر في ذلك السباق. إذ اعتمد تمرير جيناتهم على التعامل مع جيرانهم: بعض الأحيان عبر مُساعدتهم وبعضها بتجاهلهم وأخرى باستغلالهم ومرّة في تملّقهم وثانية في كراهيتهم، مع شعورٍ بأيّهم تنطلي عليه هذه المعاملة أو تلك، وأي الأوقات المناسب لتبنيها. لقد تألف غالبُ تطور الجنس البشري من التكيف مع أحدهم الآخر.

إن كُلّ تكيُّفٍ، بعد ترسيخ نفسه بين أفراد الجماعة السكّانية وبذلك تغييره للبيئة الاجتماعية، لا يقود إلّا لمزيد من التكيّف. وبمُجرَّد امتلاك جميع الآباء جينّ XXL، لن يتبقى للآباء أفضلية على بعضهم بعضًا في السباق المستمر على إنتاج نسل هو الأكثر قابلية للنجاة والتكاثر. سباقُ التسلُّح مُستمر. وفي هذه الحالة الحبُّ هو السلاح الذي يجري عليه التسابُق، على الرغم من أنه لا يكون كذلك في أكثر الأحيان.

من المألوف في بعض الدوائر تقليل أهمية فكرة التكيف والتصميم التطوري المُحكَم. وغالبًا ما يؤكد دعاة الفكر البيولوجي لا على دور اللياقة في التغيّر التطوري، بل دور العشوائية والصدفة. فقد يداهِمُ تغيُّرٌ مناخي ما ويمحي أنواعًا غير محظوظة من النبات والحيوان، ما يغيّر السياق التطوري بالكامل لأي أنواع أخرى كانت محظوظة بما يكفي للنجاة من الكارثة. رمية نرد كوني واحدة وتنقلبُ كافّة الرهانات. يحدث ذلك بالفعل، وهو يمثل أحد الجوانب التي تؤثر فيها «العشوائية» على مسار التطور، إلّا أن هناك جوانب أخرى. فعلى سبيل المثال تبدو السمات الجديدة التي يُصدر فيها الانتقاء الطبيعي حُكمًا مُنشأةً عشوائيًا.

لكن لا ينبغي لنا السماح لأيّ «عشوائية» في الانتقاء الطبيعي بحجب ميزته المركزية: حيث المعيار المُهيمن على التصميم العضوي هو اللياقة. أجل، فكما يُعاد رمي النرد، كذلك يتبدّلُ سياق التطور. والميزة المُتكيّفة اليوم قد لا تكون كذلك في الغد. لذا غالبًا ما يجد الانتقاء الطبيعي نفسه يُعدِّلُ سماتًا أصبحت بالية، ويُمكن لهذا التعديل المُستمرُّ وفقًا للظروف أن يمنح

الحيـاة العضويـة جودة رخيصـة مُعيّنة. (وذلك هو سـبب معاناة كثيرين من آلام الظهر؛ فلو أمكنك تصميم كائن حي مهيأ للسير منتصبًا من الصفر بدلًا من التكيف التدريجي لساكني الأشجار، لن تكون لتصمِّمَ ظهرًا سيئًا كهذا)، ومـع ذلك فعادة مـا تكون التغـيّرات في الظروف تدريجية بـما يكفي للتطور كـي يواكبها (على الرغم من مُداهمتِها الحيـاة من حين إلى حين، حيث يُصبح الضغط الانتقائي شديدًا للغاية)، وغالبًا ما يجري ذلك بمُنتهى البراعة.

وعـلى طـول الطريـق يظـل تعريفهـا للتصميم الجيّـد نفسـه. إن الآلاف المؤلفة من الجينات المؤثرة على السـلوك البشري - الجينات التي تبني الدماغ والناقـلات العصبية وبقيـة الهرمونات، وبذلك تحديـد «أعضائنا العقلية» - موجودة هناك لسـبب. والسبب أنها مَرَّرَتْ أسـلافنا كي يمرروا جيناتهم إلى الجيـل اللاحق. لـو كانت نظرية الانتقـاء الطبيعي صحيحة، فـكل ما يتعلق بالعقل البشري سـيكون بالنتيجة مفهومًا في ضوء هذه التعبيرات. إن الطرق الأساسـية التي نشـعر عبرها ببعضنا بعضًا، الأنواع الأساسـية للأشياء التي نفكر بها في بعضنا بعضًا، ما فَضْل مُلْكِنا إياها اليوم إلّا لمسـاهمتها السـابقة في اللياقة الجينية.

الحياة الجنسية لداروين

لا سـلوك بشري يؤثـر على انتقال الجينـات أوضح من الجنـس. وبذلك لا أجزاء من السـايكولوجيا الإنسـانية مُرشحة أجْلى للتفسـير التطوري من الحـالات الذهنيـة المؤدية إلى الجنس: الشـهوة الخـام، الافتتان الحـالم، الحُب المَتين (أو الشعور المَتين على الأقل)، وهكذا دواليك - القوى الأساسية التي يتشارَكُها الناس الذين بلغوا سنَّ الرُشد أجْمَع، بمن فيهم تشارلز داروين.

حينـما غـادر داروين إنكلـترا كان يبلغ الثانية والعشرين مـن عمره وكان مغمورًا، كـما أفترض، بالهرمونات التي كانت، بحُكـم التصميم، تغمر كافَّة الشـباب من عمـره. كان لطيفًا مع بعـض الفتيات المحلّيات، ولا سـيما فانّي أوين التي كانت الأجمل والأكثر شـعبية وغُنجًا. وقد سـمح لها يومًا بإطلاق

النـار مـن بندقية صيـد وبدت فاتنـة للغاية وتظاهـرت بشـجاعةٍ أن ردَّ فعل البندقية لم يؤذِ كتفها لدرجة أن داروين سيستعيد ذكرى هذا اليوم بعد عقود عدّة باعتزاز بَيِّن. ومن كامبريدج خاطبها بغزل طفيف عبر البريد، ولكن من غير الواضح ما إذا كانت الأمور بينهما قد وصلت حدَّ تبادل قبلة.

وبينـما كان داروين في كامبريـدج، كانـت البغايا مُتاحات لـه، ناهيك عن الفتيات العرضيات من الطبقة الدُنيا اللاتي قد يقبلنَ بأجرٍ أقلَّ. إلّا أن مراقبي الجامعة جابوا الشـوارع قريبًا من الحرم الجامعي مستعدّين لاعتقال أي امرأة تبدو عليها أمارات العمل في الدعارة. لقد حذَّرَ شقيقُ داروين أخيه أن لا يظهر برفقة فتاةٍ أبدًا. وأقرب ارتباطاته بالجنس غير المشروع كانت عندما أرسل مالًا لصديقٍ ترك الدراسـة بعد أن أنجبَ طفلًا غير شرعـي. وربما كان داروين لا يزال بتولًا حينما غادر شواطئ إنكلترا. ثم قضى السنوات الخمس اللاحقة على متن سفينة طولها ٩٠ قدمًا رفقة نصف دزينة من الذكور من دون توفّر كثير من الفرص لتغيير حالته تلك، على الأقل ليس عبر القنوات التقليدية.

وفي هـذا الصـدد لن يكـون الجنس متاحًـا بكثرة حين عودتـه أيضًا. فقد كانـت تلـك إنكلـترا الفيكتوريـة بعـد كل شيء. يُمكـن ممارسـة الدعارة في لندن (حيث كان سـيُقيم داروين)، ولكن ممارسة الجنس مع امرأة «محترمة»، واحدةٍ من الطبقة نفسـها التي ينتمي لها داروين، كان أمرًا أصعب - وأقرب للمستحيل في غياب الإجراءات المتطرفة، كالزواج.

إن الهوّة الكبيرة بين هذين الشـكلين من الجنس واحدة من أشـهر عناصر الأخلاق الجنسـية الفيكتورية - ثنائية «مادونّـا والعاهرة». كان هناك نوعان مـن النسـاء: النوع الـذي سـيتزوجه العازب لاحقًـا والذي يتمتَّـعُ به الآن، النـوع الذي يسـتحقُّ الحبّ والآخر المُرخَّصُ للشـهوة فحسـب. أما الموقف الأخلاقـي الثـاني الذي يُعزى عادة إلى العصر الفيكتـوري هو المعيار الجنسي المزدوج. فعلى الرغم مما في هذا العَزو من تضليل، نظرًا لأن أخلاقيي العصر الفيكتـوري لم يُشـجِّعوا إطلاقًا على الانفتاح الجنسي للرجال والنسـاء، يظلُّ صحيحًـا أن غلـوَّ الرجـل الفيكتوري في السـعي لأجل الجنس لم يُثِر سـوى

القليل من الدهشة بالمقارنة مع ما أثاره ذات الأمر حين كانت بطلاته نساء. ومن الصحيح أيضًا أن هذا التمييز كان مُرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بثنائية مادونا والعاهرة. فقد كانت العقوبة العُظمى التي تنتظر المرأة الفيكتورية المغامرة جنسيًا الإيداع الدائم في النصف الثاني من الثنائية، والذي من شأنه الحَدَّ كثيرًا من نطاق الأزواج المُحتملين.

هناك ميلٌ هذه الأيام لرفض هذه الجوانب من الأخلاق الفيكتورية والسخرية منها. ورفضها أمر لا بأس فيه، لكن في الاستهزاء بها مبالغة في تقدير تقدُّمنا الأخلاقي. فالحقيقة أن كثيرًا من الرجال لا يزالون يتحدثون صراحة عن «العاهرات» واستخدامهنَّ الصحيح: رائعات للتسلية ولكن ليس للزواج. وحتى الرجال (بمن فيهم الليبراليون حسنو التعليم) الذين لم يكونوا ليتحدثوا بمثل تلك الأشياء هم في الحقيقة يفعلونها أحيانًا. تشتكي النساء أحيانًا من الرجال الذين تبدو عليهم أمارات التنوير ممن يبذخون شيئًا من الاحترام عليهنّ ولكن بعد ممارسة الجنس في الموعد الأول أو الثاني لا يكررون الاتصال بهنَّ ثانية، كما لو أن الجنس المُبكِّر قد حوَّل المرأة إلى شخص منبوذ. ذلك يعني أن رالرغم من تضاؤل المعايير المزدوجة بعد مرور قرن من الزمن، لكنها لم تزل قوية بما يكفي لدفع النساء إلى الشكوى. ويُمكن لفهم المناخ الجنسي الفيكتوري أن يقودنا مسافةً باتجاه فهم المناخ الجنسي السائد اليوم.

كان الأساس الفكري للأخلاق الجنسية الفيكتورية صريحًا: النساء والرجال مختلفون بطبيعتهم، والأهم هو اختلافهم من حيث الشهوة الجنسية. فحتى الذين أدانوا الذكور العابثين جنسيًا من الفيكتوريين شدَّدوا أيضًا على الفرق. حيث كتب الدكتور آكتون: «عليَّ القول إن أغلب النسوة (لحُسنِ حظِّهنَّ) لا يعانين كثيرًا من الرغبات الجنسية بأي شكل. ما لدى الرجال عادة، عند النساء استثناء. أعترف أن من الصحيح للغاية كما تُظهِر محاكم الطلاق أن هناك عددًا قليلًا من النسوة لديهنَّ رغبات جنسية قوية للغاية لدرجة فاقت تلك التي للرجال»، وهذه «الغُلْمَة شكلٌ من أشكال الجنون». ومع ذلك، «لا يُمكن أن يكون هنالك شكٌّ في أن الشعور الجنسي

لـدى الإناث هو في أغلـب الحالات مُعطَّل... وحتى في حال إثارته (وهو ما يُعـدُّ غير مُمكـنٍ في كثير من الأحيان) يكون معتدلًا للغايـة مقارنةً بالذكور». يقـول الدكتـور آكتـون إن إحـدى المشـاكل تكمـن في أن كثـيرًا من الشُّبّان يُضلَّلـون برؤية «النسـاء الماجنـات، أو الدنيئات والسـوقيات عـلى الأقل»، وبذلـك يُقبِلون عـلى الزواج مُحمَّلين بمفاهيم مُغاليـة عن محتواه الجنسي. هم لا يفهمـون أن «أفضـل الأمّهـات والزوجـات ومُدبّرات المنـازل لا يعلمن سـوى القليل أو دونه عن الانغماس الجنسي. وما لهنَّ شغفٌ إلّا بحُبِّ البيت والأطفال والواجبات المنزلية».

قد يكون لدى بعض النسـوة الـلاتي يعتقدن أنفسـهن زوجات وأمّهات متميّـزات رأي مُختلف بهـذا الخصوص، ولربما يَخْزنَ دليلًا قويًا له. ومع ذلك فإن فكرة وجود بعض الاختلافات بين الشهوة الجنسية الأنموذجية للذكور والإنـاث، وأن الشـهوة الذكورية أسـهلُ إرضاءً وأقل انتقائية، تسـتمدُّ دعمًا كبـيرًا من الأنمـوذج الدارويني الجديد. وهي في هذا الخصوص تسـتقطب الدعـم من أماكـن مُختلفة كثيرة. يبـدو أن الافتراض الذي شـاع مؤخرًا عن أن الرجال والنسـاء متماثلـون في طبيعتهم جوهريًا صار يفقـد يومًا بعد آخر المزيـد والمزيـد من مُدافعيـه. فلم يعد بالنسـبة إلى النسوية على سـبيل المثال عقيدة أساسـية. حيث أصبحت مدرسـة كاملة من النسـويات - «نسـويات الاختلاف» أو «الماهويّات» - يوافقن الآن على اختلاف الرجال عن النسـاء بعُمـق. وما تعنيه عبـارة «بعُمق» تحديدًا أمرٌ غالبًا مـا يظلُّ غامضًا، وكثيرون لا يفضلون نُطقَ مُفردة «جينات» في هذا السـياق. وحتى يفعلوا ذلك يُرجَّحُ بقاءهـم في حالـة مـن الضياع، مُدركـين أن العقيدة النسـوية المُبكـرة للتماثل الجنسي الفطـري كانـت غـير صحيحـة (وأنهـا أضرَّت بالنسـاء مـن بعض النواحي) ومع ذلك يخشون استكشاف البديل صراحة.

إن لم تفعـل النظـرة الداروينيـة الجديدة للجنس شـيئًا غـير تأييد الحكمة التقليديـة المقبولة بأن الرجال مجموعة شـديدة الشـهوانية، فسـتكون قيمتها ضئيلة. لكنها في الحقيقة تُسـلِّطُ الضوء ليس على الدوافع الحيوانية فحسـب،

كالشـهوة، بل وعلى الخطوط الرقيقة للوعي. يشـمل «علـم النفس الجنسي» بالنسـبة إلى عـالم النفـس التطوري كل شيء، بـدءًا من تقلبـات تقدير الذات لـدى المراهقـين ومـرورًا بالأحكام الجمالـية التـي يتخذها الرجال والنسـاء بشـأن بعضهـم بعضًـا ووصـولًا إلى الأحـكام الأخلاقية التي قـد يتخذونها تجـاه بعضهم، وكذلك التي يتخذونها تجاه أقرانهـم من نفس الجنس. وهناك مثالان جيدان هما ثنائية مادونا والعاهرة إلى جانب المعايير الجنسية المزدوجة، وقـد تبـيَّنَ أن لكليهما جذورًا في الطبيعـة البشرية – في الآليـات العقلية التي يستعملها الناس لتقييم بعضهم بعضًا.

وهذا يسـتدعي إخلاء بعض المسـؤوليات. الأولى: حين تقول إن شيئًا ما نتاج للانتقاء الطبيعي فذلك لا يعني أنه غير قابل للتغيير؛ حيث يُمكن تغيير أي مظهـر مـن مظاهر الطبيعة البشرية بحدوث تغيُّر مناسـب في البيئة – على الرغم من أن التغيير المطلوب يكون في بعض الحالات متطرفًا إلى حد الحظر. الثانية: حين تقول إن شيئًا ما «طبيعي» لا يعني كونه جيدًا. وبذلك لا يوجد داعٍ لتبنـي «قيـم» الانتقاء الطبيعي على أنهـا خاصّتنا. ولكـن يُفترض أننا لو أردنا السعي وراء القيم المتعارضة مع الانتقاء الطبيعي، فعلينا معرفة ما نحن بصـدد مواجهتـه. فإذا رغبنـا بتغيير بعض الأجـزاء المُخجلة المُستعصية من قانوننـا الأخلاقي، فسيُسـاعدنا أن نعرف مصدرهـا. ومصدرها هو الطبيعة الإنسـانية، عـلى الرغم من أن تلـك الطبيعـة المعقدة تتكسر بفعـل الطبقات العديـدة للظـروف والإرث الثقافي اللائي تمرُّ عبرهـا. لا، ليس هناك وجود لـ«الجين مزدوج المعايير». ولكن نعم، في حال رغبنا في فهم المعايير المزدوجة فعلينا فهم جيناتنا وكيفية تأثيرها على أفكارنا. ثم فهم العملية التي اختارت تلك الجينات والمعايير الغريبة التي استخدمتها.

سنقضي الفصول القليلة اللاحقة في استكشاف هذه العملية عبر تشكيلها علـم النفس الجنسي. ثم لتأمين قضيتنا أكثر سـنعود إلى الأخلاق الفيكتورية وعقل داروين وعقل المرأة التي تزوجها. كُلُّ ذلك سيُمكّننا من رؤية وضعنا – الخطوبة والزواج في نهاية القرن العشرين – بوضوح جديد.

الفصل الثاني

الذكر والأنثى

«ضمن أرقى فئات مملكة الحيوان، بما فيها الثدييات والطيور والزواحف والأسماك والحشرات وحتى القشريات، تتبع الاختلافات بين الجنسين ذات القواعد تقريبًا؛ إذ غالبًا ما يكون الذكور هم المتودِّدون...».

أصل الإنسان (١٨٧١).

كان داروين مُخطئًا بشأن الجنس.

لكنه لم يكن مُخطئًا بشأن كون الذكور مُتودِّدين. إذ لا تزال قراءته للشخصيات الرئيسة بشأن كلا الجنسين جيدة لغاية اليوم. فـ«الأنثى»، .. على الرغم من الاستثناءات النادرة، أقلُّ رغبة من الذكر. . . حيث إنها خجولة، ويُمكن رؤيتها في أحيان كثيرة وهي تحاول لمدة طويلة تجنُّبَ الذكر. ويستطيع كُلّ المهتمّين بعادات الحيوانات استذكار لحظات كتلك. . . إذ يبدو أن ما تبذله الأنثى من جهد لانتقاء الشريك قانونٌ عالمي حاله حال شغف الذكر تقريبًا.

ولم يكن داروين مُخطئًا بشأن عواقب هذا الاهتمام غير المتكافئ. حيث

رأى أن تحفّظ الإناث تجاه الذكور هو لِمنافسة قريناتها في الحصول على فرص تكاثر أكثر انتقائية، وذلك يُفسِّرُ سبب امتلاك الذكور في كثير من الأحيان أسلحة مُدْمَجَة - على سبيل المثال قرون الأيائل والفك السفلي الشبيه بالقرون لخنافس الآيل، والأنياب الرهيبة للشمبانزي. حيث يُستبعد الذكور غير المؤهلين لقتال غيرهم من الذكور جنسيًا، وبذلك التخلص من سماتهم عبر الانتقاء الطبيعي.

رأى داروين كذلك أن انتقائية الأنثى تمنح فرادَةً كبيرة لاختياراتها. فلو فضّلت الإناث التكاثر مع نوع معيّن من الذكور، فستجد ذلك النوع يتكاثر ويزدهر. ومن هنا جاءت البهرجة التي ازدانَ بها أغلب الذكور - كيس حلق السحلية القابل للنفخ، وزهوّ اللون في أثناء موسم التزاوج؛ ذيل الطاووس الهائل والثقيل؛ ومرة أخرى، قرون الأيائل والتي تبدو أكثر تعقيدًا مما قد تمليه احتياجات القتال وحدها. لم تتطور هذه البهارِج لما فيها من فائدة للنجاة - وإن كان لها دور في هذا الخصوص، فهو تعقيد مسألة النجاة أكثر - ولكن لِقُدرتها الفائقة على جذب الإناث بما يفوق ما تضيفه من أعباء على الحياة. (كيف أصبح من المصلحة الوراثية للإناث انجذابهنّ لمثل هذه الأشياء هي قصة أخرى ونقطة خلاف دقيقة بين علماء الأحياء).

كلا هذين المتغيرين للانتقاء الطبيعي - الصراع بين الذكور والتفرُّد بعين الإناث - دعاهما داروين بـ«الانتقاء الجنسي»، وكان فخورًا بهذه الفكرة، ولفخره ما يُبرِّره. فالانتقاء الجنسي امتداد غامض لنظريته العامّة غايته تفسير الاستثناءات الظاهرية لها (كالألوان المُبهرجة التي كأنها تقول «اقتلني» للحيوانات المُفترسة فعليًا)، ولم تصمد تلك الرؤية على مرّ الوقت فحسب، بل وتوسّعت في نطاقها.

ما كان داروين مُخطئًا بشأنه هو السبب التطوري لتحفُّظ الإناث وتلهُّف الذكور. حيث رأى أن هذا التباين في الاهتمام يخلق منافسة بين الذكور على الفتحات التكاثرية الثمينة، ورأى تداعيات هذه المنافسة؛ لكنه لم ينظر إلى مصدر صناعة هذا التباين. ولم تنجح محاولته المتأخرة لشرح هذه الظاهرة.

وكي أُنصفه، فإن أجيالًا كاملة من البيولوجيين لم تنجح في تحقيق ذلك أيضًا.

الآن وقد أصبح هناك إجماع على الحل، صار الفشل الطويل في إيجاده يبدو مُحيّرًا. إذ إن الحلَّ في مُنتهى السهولة. في هذا السياق، يُعدُّ الجنس أنموذجيًا لكثير من السلوكيات التي يُنيرها الانتقاء الطبيعي؛ وعلى الرغم من أن الإنارة لم تسطع حقًا إلّا منذ ثلاثة عقود فقط، إلّا أنه كان يجب عليها من حيث المبدأ أن تفعل ذلك قبل قرنٍ من الزمن، لذا يبدو واضحًا اتّباعها رؤية داروين للحياة. هناك شيء من المنطق الدقيق الذي ينطوي عليه الأمر، لذلك يُعذرُ داروين على عدم رؤيته النطاق الكامل لنظريته. على الرغم من ذلك فلو كان موجودًا اليوم وسمع حديث علماء النفس التطوريين عن الجنس، لأنزوى بنفسهِ مرتاعًا، محتجًا ضد بلادته على عدم إدراك الصورة في وقت سابق.

لعب دور الإله

تتمثل أولى الخطوات تجاه فهم التباين الأساس بين الجنسين في افتراض الدور الذي يلعبه الانتقاء الطبيعي في تصميم الأنواع. خذ النوع البشري مثالًا. افترض أنك مسؤولٌ عن تثبيت قواعد السلوك في عقول البشر (أو أسلافهم) التي ستُرشدهم في حياتهم، والهدف من اللعبة تعظيم الإرث الجيني لكل شخص. لنسهل الأمرَ أكثر: يُفترض بك أن تجعل كل شخص يتصرف بطريقة تزيد من احتمالية تعزيز عدد ذريته - ذُريةٌ هي أيضًا ستُنتِجُ المزيد من الذُرية كذلك.

من الواضح أن هذه ليست الطريقة التي يعمل الانتقاء الطبيعي وفقها بالضبط، فهو لا يُصمِّمُ الكائنات الحيّة وعيًا منه، بل يحافظ على السمات الوراثية المُعزِّزَة للبقاء والتكاثر بشكل أعمى. ومع ذلك فإن الانتقاء الطبيعي يعمل كما لو كان يُصمِّمُ الكائنات الحيّة واعيًا، لذا فإن التظاهر بمسؤوليتك عن تصميم الأحياء لَطريقة مشروعة من أجل معرفة أيِّ الميول قد رَسَّخها التطور عند الإنسان وبقية الحيوانات. والواقع أن هذا هو ما يبذل لأجله

علماء الأحياء التطوريون كثيرًا من الوقت: النظر إلى سِمَة - سواء أكانت عقلية أو غير ذلك - ومعرفة التحدي الهندسي الذي يُمثِّل لها حلًّا إن وجِد.

حين تلعب دور المسؤول عن التطور مع محاولة تعظيم الإرث الجيني، سُرعان ما ستكتشف أن هذا المسعى ينطوي على ميول مختلفة للرجال والنساء. إذ يُمكن للرجال التناسل مئات المرات في أثناء العام، ذلك بافتراض تمكُّنهم من إقناع العدد الكافي من النساء للتعاون، وافتراض عدم وجود أي قوانين تمنع تعدُّدَ الزوجات - والتي لم تكن موجودة بالطبع في البيئة التي جرى فيها أغلبُ تطورنا. النساء على الجانب المقابل لا يستطِعنَ التناسل أكثر من مرّة خلال العام. يكمن اللاتناسق جزئيًا في القيمة العالية للبيض؛ حيث إنه أكبر وأندر من الحيوانات المنوية الأصغر والأغزَر. (وذلك في الحقيقة هو تعريف علم الأحياء الرسمي للأنثى: الفرد صاحب الخلايا الجنسية الأكبر). لكن اللاتناسق مُبالغٌ فيه بتفاصيل تكاثر الثديّات؛ حيث يجري التحوُّل المُطوَّل للبيضة إلى كائن حيّ داخل الأنثى، وفي أثناء ذلك لا يُمكنها التعامل مع كثير من المشاريع في وقت واحد.

لذلك فَفي حين أن هناك كثيرًا من الأسباب التي تجعل من المنطقي داروينيًا للمرأة مواعدة أكثر من رجل واحد (ربما لِكونِ الرجل الأول عقيمًا على سبيل المثال)، فهناك وقتٌ تكون مُمارسةُ الجنس فيه لا تستحق العناء، حيث الأفضل نيل قسطٍ من الراحة أو تناولِ شيء من الطعام. أما بالنسبة إلى الرجل فما لم يكن على وشك الانهيار أو الجوع، فإن ذلك الوقت لن يأتيه أبدًا. حيث كُلُّ شريكة جديدة ستوفِّر له فرصة مُثلى كي يُمرِّرَ المزيد من جيناته إلى الجيل اللاحق - ففي ذلك آفاقٌ أكثرُ قيمة في الحسابات الداروينية من مُجرَّدِ أخذ قيلولة أو تناول وجبة. وكما يضع عالما النفس التطوريان مارتن دالي ومارغو ميلسون الأمر بإيجاز: بالنسبة إلى الرجال «هناك دائمًا إمكانيةٌ للاستزادة».

قد يظنُّ أحد أن بإمكان المرأة الاستزادة كذلك، ولكن الأمر بالنسبة لها مُتعلِّقٌ بالنوعية أكثرُ من ارتباطه بالكميّة. فمهمَّة ولادة طفل تنطوي على التزام كبير بالوقت، ناهيك عن الطاقة، وقد وضعت الطبيعة سقفًا مُنخفضًا

في تحديدها عدد هذه المشاريع التي يُمكنها تولّيها. لذلك فإن كُلَّ طفل، من وجهة نظرها (الجينية)، هو آلة جينية ثمينة للغاية. حيث إن قدرته على البقاء ومن ثمَّ إنتاج آلاته الجينية الفتيّة الخاصّة أمرٌ غاية في الأهمية. لذا فمن المنطقي داروِنيًا بالنسبة إلى المرأة أن تكون انتقائية إزاء الرجل الذي سيُعاونها على بناء كُل آلة جينية. حيث يجب عليها تقييم شريك طموح قبل السماح له بمُشاركتها الاستثمار، وسؤال نفسها عن الإضافة التي يُمكنه تقديمها للمشروع. ثم سيستلزم هذا السؤال بعدها عددًا من الأسئلة الفرعية، ولا سيما لدى الجنس البشري، أكثر وأدقّ مما يُمكنك تخيُّله.

وقبل تناول هذه الأسئلة يجب توضيح نقطتين. الأولى: أن المرأة لا تحتاج إلى سؤالها حرفيًا، أو الدراية بها حتى. حيث حدث أغلب تاريخنا ذي الصلة بالجنس البشري قبل امتلاك أسلافنا الذكاء الكافي للسؤال عن أي شيء. وحتى في الماضي القريب عند مجيء اللغة وإدراك الذات، إذ لم يكن هناك داعٍ لوقوع كلّ نزعة سلوكية تطوَّرت تحت سيطرة الوعي. في الواقع، ليس من مصلحتنا الوراثية أبدًا، في بعض الأحيان، أن نكون مدركين تمامًا لما نفعله وسبب فعلنا له. (وكذلك كان فرويد، الذي كان بالتأكيد مهتمًا بشيء ما، رغم أن بعض علماء النفس التطوريين سيقولون بعدم عِلمِهِ ماهيته بالضبط)، في مسألة الانجذاب الجنسي فإن الخبرة اليومية تشير على أي حال إلى أن الانتقاء الطبيعي قد مارس تأثيره إلى حد كبير عبر الحنفيات العاطفية التي تفتح وتغلق مشاعر كالانجذاب المؤقت والعاطفة العاتية والافتتان المُغوي. فالمرأة لا تُقدِّر في العادة رجلًا ثم تُفكِّر في نفسها: «يبدو كأنه مساهم جدير لإرثي الوراثي»، إنما تُقدِّره وتنجذب إليه فحسب - أو لا تنجذب. لقد جرى «التفكير» كُله - من دون وعي وبنحو مجازي - عبر الانتقاء الطبيعي. إذ ازدهرت الجينات المؤدية نحو الانجذاب إلى ما يصبُّ في صالح الإرث الوراثي لأسلافنا بينما لم تنجُ تلك الأقل انجذابًا لما في صالح صاحبها.

إن فهم الطبيعة اللاواعية للتحكم الوراثي هو الخطوة الأولى باتجاه استيعاب أنّنا - في كثير من الميادين، وليس في ميدان الجنس فقط - جميعًا

دُمى، وأفضل آمالنا للتحرر الجزئي عبر محاولة فك رموز المنطق المُحرِّك لهذه الدُّمى. وسيستغرق النطاق الكامل للمنطق بعض الوقت في الشرح، ولا أظنني أريد إفساد نهاية الفيلم بالإشارة هنا إلى أن مُحرِّك الدمى يبدو غير مُهتمّ مُطلقًا بسعادة دُماه.

النقطة الثانية التي يجب استيعابها قبل التأمّل في كيف «قرَّرَ» الانتقاء الطبيعي تشكيل الميول الجنسية للنساء (والرجال) في أنه ليس مُتبصِّرًا. إذ ما يقود التطور هو الوضع البيئي الراهن، والبيئات من جانبها مُتغيِّرة. ليس للانتقاء الطبيعي أي وسيلة للتنبؤ مثلًا بأن البشر سيَعمدون يومًا ما لاستخدام وسائل منع الحمل، وأن عاطفتهم بذلك ستقودهم إلى ممارسة الجنس الذي يستهلك كثيرًا من الوقت والجهد من دون إثمار؛ أو أن أشرطة الفيديو الإباحية ستصل وتقود الرجال الشهوانيين إلى قضاء وقت فراغهم في مشاهدتها بدل ملاحقة النساء الحقيقيات اللواتي قد يُمرِّرن جيناتهم إلى الجيل اللاحق.

لا يعني ذلك وجود مشكلة في الترفيه الجنسي «غير المُثمر»؛ إذ ليس المعنى وجوب الخضوع إلى أجندة الانتقاء الطبيعي الخاصة فقط لكونه خلقنا. (لو كان هناك ما يجب علينا فعله فهو الميل إلى ازدرائه على كلّ الأمتعة الثقيلة التي أثقلنا بها)، المسألة أن من غير الصحيح القول: إن عقول الناس مُصمَّمة كي تُعظِّمَ لياقتهم وإرثهم الجيني. وما تقوله نظرية الانتقاء الطبيعي بالأحرى: صُمِّمَت عقول الناس لتعظيم اللياقة في البيئة التي تطورت تلك العقول فيها. وتُعرف هذه البيئة بوسم EEA – بيئة التكيُّف التطوري. أو بصيغة أسهل رسوخًا في الذاكرة: «بيئة الأسلاف»، في هذا الكتاب ستظلُّ بيئة الأسلاف متوارية في الخلفية. ثم في بعض الأحيان، عند أوقات التأمل فيما إذا كانت بعض السمات العقلية تكيُّفات تطورية أم لا، سأسألُ عمّا إذا كانت تبدو صابَّةً في «الصالح الجيني» لحاملها. على سبيل المثال: هل الشهوة العشوائية في الصالح الجيني للرجال؟ لكن ما سبق مُجرَّدُ نوع من الاختزال، حيث إن السؤال الموضوع على نحو صحيح دائمًا سيكون حول ما إذا كانت سِمة ما في

«الصالح الجيني» لشخص ما ضمن بيئة التكيّف التطوري خاصته، وليس في أمريكا المُعاصرة أو إنكلترا الفيكتورية أو أي مكان آخر فحسب. وفقط السمات التي تدفع الجينات المسؤولة عنها عبر الأجيال في بيئتنا الاجتماعية الموروثة عليها أن تكون من الناحية النظرية جزءًا من الطبيعة البشرية اليوم.

كيف بَدَت بيئة الأسلاف؟ إن أقرب الأمثلة المشابهة لها من القرن العشرين هي مجتمعات الصيد وجمع الثمار، كالكونغ سان في صحراء كالاهيري في أفريقيا والإنويت (الأسكيمو) في المنطقة القطبية الشمالية أو قوم الآتشي في البارغواي. المُزعِج أن مُجتمعات الصيد وجمع الثمار تختلف إحداها عن الأخرى، ما يجعل من التعميم السهل عن بوتقة التطور البشري مسألة صعبة. يُمثِّل هذا التنوع تذكرةً بأن فكرة بيئة تكيُّفٍ تطورية واحدة هي في الواقع محض خيال، رسمةٌ تقريبية لا أكثر؛ إذ لا شكَّ أن بيئتنا الاجتماعية الموروثة تغيّرت كثيرًا خلال مراحل التطور البشري. ومع ذلك يُمكن ملاحظة بعض الموضوعات المتواترة بين مجتمعات الصيادين جامعي الثمار المعاصرة، ما يقترح أن بعض السمات ربما ظلَّت ثابتة إلى حد كبير في أثناء أغلب مرحلة تطور الدماغ البشري. فعلى سبيل المثال: الناس الذين نشأوا بالقرب من أقربائهم داخل قرى صغيرة جميعهم يعرف جميعهم ولا يُشاهَد الغرباء بينهم كثيرًا. الناس يتزوجون - سواء أكان الزواج متعددًا أم أحاديًا - وعادة ما تتزوج المرأة بمجرد بلوغها السنَّ الكافي للإنجاب.

وهذا رهان آمن إلى حد كبير على أي حال: إذ أيًّا كانت شاكلة بيئة أسلافنا، فهي لا تُشبه بيئتنا التي نحيا فيها اليوم. إننا غير مُصمَّمين للوقوف في محطّات المترو المزدحمة، أو العيش في ضواحي مجاورة لأشخاص لم نُحادثهم يومًا، أو للتوظيف أو الفصل، أو لمشاهدة نشرة الأخبار المسائية. ربما يكون هذا الانفصال بين سياقات تصميمنا وحياتنا اليومية مسؤولًا عن أكثر سايكوباثولوجيَّتنا، إضافة إلى كثير من أشكال المعاناة الأقل دراماتيكية. (ومثل أهمية التحفيز غير الواعي، فَلِفرويد حصَّةٌ في فضلِ هذه المُلاحظة؛ إذ إنها مركزية بالنسبة إلى حضارته وقَلَقِها).

لمعرفة ما تميل النساء للبحث عنه في الرجل، والعكس بالعكس، سنحتاج إلى التفكير مليًا ببيئة أسلافنا الاجتماعية. يُساعد التفكير في بيئات الأسلاف الاجتماعية كذلك، مثلما سنرى لاحقًا، على تفسير لِمَ نساءُ مجتمعاتنا أقلُّ تحفُّظًا من الناحية الجنسية مقارنة مع كثير من إناث الأنواع الأخرى. ولكن بغرض تأسيس أهم محاججات هذا الفصل - والمتعلّقة بأيٍّ كان مستوى التحفُّظ الأنموذجي لإناث نوعنا، فهو يظلُّ أعلى من مستواه لدى الرجال - حول أن بيئة المجتمع قيد الملاحظة غير فارِقَة. وتعتمدُ هذه النقطة على فرضية أن بإمكان الأنثى أن تنال عددًا محدودًا من الذرية على مدار حياتها مقارنة بالذكور. ولطالما كان الحالُ كذلك من الأساس: من قَبل أن يُصبِحَ أسلافنا بشرًا، أو رئيسيات، قبل أن يصبحوا ثديّات حتى - في زمن قديم للغاية من تاريخ تطور دماغنا، وصولًا إلى وقتٍ كان فيه أسلافنا من الزواحف. قد لا تكون إناث الأفاعي غاية في الذكاء، لكنها على قدر كافٍ من الذكاء، وإن لم يكُن بالشكل الواعي، لتمييز أن هناك صنفًا معينًا من الذكور لا يُعدُّ التزاوج معهم فكرة جيدة.

كان فشل داروين حينها فشلٌ في رؤية ماهيّة السلعة التي توليها النساءُ أكثر تقديرها. إذ رأى أن حياءهنّ يزيدهنّ ثمنًا من دون أن يُدرِكَ أنهنَّ ثميناتٌ في إرثهنّ - ثميناتٌ بحُكمِ دورهنَّ البيولوجي في التكاثر ومُعدَّلِ التناسل البطيء لهن. لكن الانتقاء الطبيعي رأى ذلك - أو «شاهده» على الأقل - وكان حياء الإناث نتيجة فهمه المُتضمّن.

فجر التنوير

اِتُّخِذَت أولى الخطوات الكبرى والواضحة نحو فهم الإنسان لهذا المنطق في العام ١٩٤٨ من قبل عالم الوراثة البريطاني أ. جـ. باتيمان. أخذ باتيمان جمعًا من ذباب الفاكهة وزَجَّ به في لعبة مواعدة. كان يضع خمس ذكور وخمسة إناث في حجرة تاركًا إياهم لاتباع قلوبهم، ثم يكتشف عبر قياس سمات الجيل اللاحق أيُّ الأبناء يعود إلى أيّ الآباء. وقد توصَّل إلى نمط واضح.

إذ في حين كان لجميع الإناث ذاتُ العدد من الذُرية، بغض النظر عن عدد الذكور الذين تزاوجوا معهم، لكن إرث الرجال اختلف طبقًا لقاعدة يسيرة: كُلّما زاد عدد الإناث اللاتي عاشرتَهنَّ زادَ عددُ ذُريتك. أدرك باتيمان المغزى: يُشجِّع الانتقاء الطبيعي رسوخَ «توقٍ أعمى في الرجال، وتوجُّس حريص لدى الإناث».

لم تُقدَّرَ رؤية باتيمان بالشكل الذي تستحق. إذ تطلَّبَ الأمر ثلاثة عقود كاملة وعددًا غير قليل من البيولوجيين التطوريين الذين أكملوا ما كان فيها من نقوصات: التفصيل الكامل والدقيق من ناحية، والدعاية من ناحية أخرى.

جاء الجزء الأول المتعلّق بالدقة من بايولوجيَّين يُعَدّان مثلًا جيدًا على مدى خطأ بعض الصور النمطية عن الداروينية. في السبعينيات غالبًا ما اتخذت معارضة البيولوجيا الاجتماعية شكل اتهامات بأنّ ممارسيها عبارة عن رجعيين منغلقين، عنصريين فاشيين وما إلى ذلك من اتهامات. ويصعُبُ تخيُّل شخصين أقلّ عرضة لمثل هذه الاتهامات من جورج ويليامز وروبرت تريفرز، كما ويصعب التفكير بأحد فعل أكثر مما فعلاه لوضع أساس الأنموذج الجديد. عمل ويليامز، وهو أستاذ فخري بجامعة ولاية نيويورك، باجتهاد لتبديد بقايا الداروينية الاجتماعية وافتراضها الأساس عن أن الانتقاء الطبيعي عملية تستحق المحاكاة والخضوع إلى حد ما. كثير من البايولوجيين يشاركونه رؤيته هذه، ويُشدِّدون على أننا لا نستطيع اشتقاق قيمنا الأخلاقية من «قيمها». لكن ويليامز يذهب لما هو أبعد، حيث يقول إن الانتقاء الطبيعي عملية «شرّيرة»، إذ عظيمٌ هو الألم والموت الذي تزدهرُ به، وعميقةٌ هي الأنانية التي تُولِّدها.

كان تريفرز، الذي عمل أستاذًا غير متمرّس في جامعة هارفرد حينما كان الأنموذج الجديد يتخذ شكلًا ويسكن الآن جامعة روتجرز، أقلَّ ميلًا إلى الفلسفة الأخلاقية بالمقارنة مع ويليامز. لكنه برهنَ على فشل أكيد في قبول القيم اليَمينية المرتبطة بالداروينية الاجتماعية. وكان يتحدَّثُ بفخر عن

صداقته بالفهد الأسود الراحل الزعيم هيوي نيوتن (الذي شاركه يومًا كتابة مقالٍ عن السيكولوجيا البشرية). كما وانتقد انحياز النظام القضائي، إذ كان يرى مؤامَراتٍ محافظة لم يستطع الآخرون رؤيتها.

في العام ١٩٦٦ نشر ويليامز عمله الاستثنائي التكيّف والانتقاء الطبيعي: في نقد بعض الأفكار التطورية الحالية.

الذكر والأنثى

اكتسب هذا الكتاب بطيئًا مكانة شبه مُقدَّسة في مجاله. إذ إنه بمثابة نصٍّ أساس للبيولوجيين المُعتقدين بالسلوك الاجتماعي، وبضمنه البشري، في ضوء الداروينية الجديدة. لقد بدَّدَ كتابُ ويليامز الارتباكات التي لطالما ابتليت بها دراسة السلوك الاجتماعي، وأرسى رؤىً أساسية من شأنها دعم صروح كاملة عاملة في موضوعات الصداقة والجنس. وسيكون تريفرز مفيدًا في بناء الصروح لكلا الموضوعين.

ضَخَّمَ ويليامز المنطق الكامن خلف ورقة باتيمان الصادرة عام ١٩٤٨ ووسعّه. إذ طرح مسألة المصالح الوراثية للذكور مقارنة بالإناث من حيث «التضحية» المطلوبة للتكاثر. بالنسبة إلى ذكر الثديّات تقترب التضحية المطلوبة من الصفر، حيث قد ينتهي «دوره الأساس بالجِماع والذي ينطوي على بذل قدر ضئيل من الطاقة والمادّة من جانبه، وتشتُّت مؤقت عن التركيز على بعض المؤثرات المباشرة على سلامته ورفاهيته»، ومع خسارة قليلة مقابل كثير من المكسب، يُمكن للذكور الربح، بعُملة الانتقاء الطبيعي، عبر «الرغبة الشديدة والفورية للتزاوج مع أكبر عدد ممكن من الإناث المتاحات»، بينما قد يعني الجماع بالنسبة إلى الإناث على الجانب الآخر «التزامًا بعبء طويل الأمد، بالمَعْنَيين الميكانيكي والفسيولوجي، وما يصاحب ذلك من ضغوط وأخطار لا تحصى»، وبذلك فمن مصلحتها وراثيًا ألّا «تتحمل أعباء التكاثر» إلّا في حال توفّر الظروف المؤاتية. و«أحد أهم تلك الظروف توافر الذكر الخِصب»؛ ذلك أن «عادة ما يَبذرُ الآباء اللائقين ذُرية لائقة»، و«في صالح

الأنثى أن تكون قادرة على انتقاء أكثر الذكور المتوفرين لياقة...».

ومن هنا جاءت المغازلة: «إعلان الذكر عن مدى لياقته»، ومثلما أنَّ «من مصلحته التظاهر بمدى لياقته سواء أكان ذلك صادقًا أم لا»، فمن صالح الأنثى تمييز الإعلانات الخادعة. لذلك أوجد الانتقاء الطبيعي «فنونًا تسويقية ماهرة بين الذكور إلى جانب تطوير مقاومة شرائية كفوءة وانتقائية عالية لدى الإناث»، بعبارة أخرى: يميل الذكور نظريًا إلى الاستعراض والتباهي.

بعد بضع سنوات، استعمل تريفرز أفكار باتيمان وويليامز لوضع نظرية تامّة صارت منذ ذلك الحين تُلقي بالضوء على سيكولوجيا الرجال والنساء. بدأ تريفرز باستبدال مفهوم ويليامز عن «التضحية» بـ«الاستثمار.» قد يبدو الاختلاف طفيفًا، لكن يُمكن لهذه الفروق اليسيرة التسبُّبَ بانهيارات فكرية، وهو ما حصل هنا. يأتي مصطلح الاستثمار المرتبط بالاقتصاد مصحوبًا بإطار تحليلي جاهز.

في ورقة بحثية باتت الآن مشهورة صدرت عام ١٩٧٢، عرَّفَ تريفرز رسميًا «الاستثمار الوالديّ» بأنه «كُلّ استثمار يبذله الوالد في أحد أفراد ذريته بحيث يزيد من احتمالات بقائه (وبذلك نجاح الذريّة من الناحية الإنجابية) على حساب قدرة الوالدين على الاستثمار في المزيد من الذرية»، يشمل الاستثمار الوالديّ الوقت والطاقة المستَهْلَكتين في إنتاج البويضة والمني، ومن ثمّ في تحقيق الإخصاب، وحمل البويضة أو احتضانها، إلى جانب رعاية الذرية وتربيتها. من الواضح أن الإناث عمومًا هنَّ المستثمر الأكبر حتى موعد الولادة، ومن ثمَّ يستمرُّ هذا التفاوت بعد الولادة على الرغم من انحساره.

اقترح تريفرز أن عبر قياس تباين الاستثمار بين الأم والأب ضمن نوع معيّن يُمكن لنا فهم كثير من الأشياء بشكل أفضل - على سبيل المثال، مدى لهفة الذكور وحياء الإناث، وشدّة الانتقاء الجنسي، إلى جانب كثير من الجوانب الدقيقة للتودُّد والوالديّة والإخلاص والخيانة. رأى تريفرز أن تباين الاستثمار ليس شديدًا كما هو حال كثير من الأنواع الأخرى. واشتبهَ صائبًا أن النتيجة (كما سنرى في الفصل اللاحق) هي قدرٌ كبير من التعقيد النفسي.

أخيرًا ومع صـدور ورقة تريفرز المعنونة بـ«الاستثمار الوالديّ والانتقاء الجنسي»، تفتّحت الزهرة؛ وَمَضَى امتدادٌ يسير لنظرية داروين - يسير لدرجة كان داروين ليستوعبه في دقيقة فقط - عام ١٩٤٨، ثمَّ زُيِّدَت بمزيد من التفصيل عام ١٩٦٦، حتى مُنحت شكلها الكامل بحلول العام ١٩٧٧. مع ذلك ظلَّ مفهوم الاستثمار الوالديّ يفتقر إلى شيء واحد: الدعاية. وكان كتابَيْ «البيولوجيا الاجتماعية» (١٩٧٥) لإدوارد أوسبورن ويلسون و«الجينة الأنانية» (١٩٧٦) لريتشارد دوكينز هما اللذان منحا عمل تريفرز جمهورًا واسعًا ومتنوعًا، ما دفع العشرات من علماء الأنثروبولوجيا للتفكير في الجنسانية البشرية من منظور الداروينية الحديثة. ويُرجَّح أن تستمرَّ الرؤى الناتجة في التراكم لمدة طويلة.

اختبار النظرية

إن النظريات من كثرتها مرمية على الطرقات. حتى النظريات الأنيقة، كنظرية الاستثمار الوالديّ، التي تبدو قادرة على تفسير الكثير بالقليل، غالبًا ما يتبيّن أنها عديمة القيمة. وهنالك شيء من الحقِّ في الشكوى (الصادرة عن الخلقيين، إضافة إلى غيرهم) من أن بعض النظريات عن تطور السمات الحيوانية «مُجرَّدُ قصص» لا غير - معقولة ظاهريًا لا أكثر. على الرغم من ذلك يُمكن الفصل بين ما هو معقول ظاهريًا ومُفحِمْ. في بعض العلوم يكون اختبار النظريات غاية في الشفافية والدقّة لدرجة يُعدُّ فيها الحديث عن «ثبوتٍ» أيّ نظرية ضربًا من المُغالاة على نحو ما (رغم أن حديثًا كهذا دائمًا ما يُعدُّ مغالاةً بالمعنى الدقيق للكلمة). في حالات أخرى يكون التأييد غير مباشر - عملية مستمرة ومُتدرّجة تقترب عبرها الثقة من عتبة الإجماع أو تفشل في بلوغها. إن دراسة الجذور التطورية لطبيعة الإنسان أو أي شيء آخر هو علمٌ من نوع ثانٍ. فعن كُلِّ نظرية نطرح مجموعة من الأسئلة، لتغذي الإجابات الواردة الإيمان أو الشكّ أو التأرجحُ بينهما.

أحد الأسئلة عن نظرية الاستثمار الوالديّ هو عمّا إذا كان السلوك

البـشري في الواقع متوافقًا معها بالكامل. هل النسـاء أكثر انتقائية فيما يتعلّق بالشركاء الجنسـيين مـن الرجال؟ (لا ينبغي الخلط بين هذا السـؤال والآخر المُختلـف تمامًا الذي سـنعود إليه لاحقًا عن أي الجنسـين أكثر انتقائية بشـأن الـزوج المُحتمل). هناك بالطبع كثير من الحكم الشعبية الموحية بهذا الشيء. بشـكل أكثر تحديدًا، هناك حقيقةٌ أن الدعارة - ممارسة الجنس مع شخص لا تعرفه أو تهتمُّ بمعرفته - خدمةٌ يسـعى إليها الرجال بغالبية ساحقة، وينطبق هـذا على الوقت الحـالي مثلما على إنكلترا الفيكتورية. وبالمثـل فإن كافّة المواد الإباحيـة المعتمدة عـلى التحفيز البصري - صور أو فيديوهات الأشـخاص المجهولـين، تلـك الأجسـاد الخالية مـن الأرواح - غالبية مُسـتهلكيها من الذكـور. كما وأظهرت كثير من الدراسـات أن الرجال بالمُتوسّـط أكثر تقبُّلًا لممارسـة الجنس العرضي مع شريـكات مجهولات مقارنة بالنسـاء. في إحدى الدراسـات وافق ثلاثة أرباع الشُّبّان الذين تواصلـت معهم امرأة مجهولة في الحـرم الجامعي على ممارسـة الجنس معها، في حين لم تتقبـل أيّ امرأة الإقدام على ذلك مع المجهول الذي عرض عليها الشيء نفسه.

كان من الشائع بالنسبة إلى المشككين الشكوى من أن هذا النوع من الأدلة المستمدة من المجتمع الغربي لا تعكس سـوى قِيَمه المشوّهة. ظَلَّ هذا النهجُ إشـكاليًا منذ العام ١٩٧٩ حينما نشر دونالد سـيمونز كتاب تطوّر الجنسـانية البشرية، وكان أول مسـح أنثروبولوجي شامل للسلوك الجنسي البشري من منظور الداروينية الجديدةَ. برهنَ سـيمونز، مُعتمـدًا على ثقافات من الشرق والغـرب، لمجتمعـات صناعية وأخـرى أُميّة، على مدى اتسـاع الأنماط التي تتضمَّنها نظرية الاستثمار الوالديّ: تميل النساء إلى أن تكون أكثر انتقائية نسبيًا في اختيـار شركائها الجنسـيين؛ في حين يكـون الرجال أقـل انتقائية ويميلون لإيجاد ممارسة الجنس مع شركاء جنسيين بوصفه مفهومًا غاية في الجاذبية.

إحـدى الثقافـات التـي ناقشـها سـيمونز هي أبعد مـا يُمكِن عـن التأثير الغـربي: ثقافة شـعب جزر تروبرياند الأصـلي في ميلانيزيـا. كانت هجرة ما قبل التاريخ التي انتهت بالاسـتقرار في هذه الجزر قد انفصلت عن الهجرات

التـي اسـتوطنت أوروبـا قبـل حـوالي ١٠ إلى ١٠٠ ألـف عـام تقريبًـا. وقد انفصلـت ثقافة أسـلاف شـعب التروبرياند عـن ثقافة أسـلاف الأوروبيين في زمن يسـبق حتى انفصـال الأمريكيين الأصليين عنهـم. وبالفعل، عندما زارهم الأنثروبولوجي العظيم برونيسـلاو مالينوسـكي عام ١٩١٥، أثبتَت تلـك الجُـزُر بُعدها الشاسـع عن تيـارات الفكر الغـربي. ويبدو أن السـكّان الأصليـين لا يزالون لم يكتشـفوا الصلة بـين الجنس والتكاثـر. حيث عندما عاد أحد البحّارة التروبرياندين من رحلة دامت سـنوات عدّة ليجد زوجته مـع طفلين، كان مالينوسـكي لبقًا كفاية كـي لا يوحي للزوج بعدم إخلاص زوجته، و«حينها ناقَشْـتُ هذه المسـألة مع الآخرين، مُقترحًا أن أحد الطفلين على الأقل ربها لا يكون من صُلبِه، لم يَفهم المُحاورَون ما كُنت أقصده».

شَـكَّكَ بعض الأنثروبولوجيين في إمكانية أن يكون التروبرياندين غايةً في الجهل. وعلى الرغم من أن حكاية مالينوسكي عن هذه المسألة بدت بمثابة الكلمـة الفَصْـل، لكـن لم تكن ثمّة طريقـة لمعرفة ما إذا كان قـد فهم الحكاية بالشـكل الصحيـح. لكن مـن المهمّ، من حيـث المبدأ، اسـتيعاب إمكانية أن يكـون عـلى حق. إذ يبدو أن اكتشـاف تطور سـيكولوجيا البشر الجنسـية قد سـبقت اكتشـاف البـشر للغرض مـن وراء الجنس. تُمثِّل الشـهوة والمشـاعرُ المماثلـة الأخرى طريقة الانتقاء الطبيعـي في دفعنا للتصرف كما لو كنا نرغب بكثير من الذرية ونعرف كيفية الحصول عليها، سواء كُنّا على علمٍ بذلك حقًا أم لم نكـن. لـو لم يعمل الانتقاء الطبيعي بتلك الطريقة – لو أنه سـخَّرَ الذكاء البشري بدلًا من ذلك بحيث جعل سـعينا للّياقة واعيًا ومحسـوبًا بالكامل – لكانت سـتصبح الحياة مختلفة تمامًا. حيث مـا كان الأزواج مثلًا ليضيّعوا أي وقت في إقامة علاقات خارج نطاق الزواج باستخدام وسائل منع الحمل؛ إذ كانوا سيتخلّصون إمّا من وسائل منع الحمل أو من الجنس نفسه.

أمر آخر غير غربي لدى ثقافة التروبرياند وهو الافتقار إلى اللهفة لممارسـة الجنـس قبـل الـزواج. حيث يُشـجَّع الفتيـة والفتيات على المواعدة في سـنين المراهقة المبكرة مع سلسـلة من الشركاء بحسـب الرغبة. (لقد وجدت ذات

هـذه الحرية لدى بعض من مجتمعات ما قبل الثـورة الصناعية الأخرى، على الرغـم مـن نهاية هـذه الفـترة التجريبية وبدء الـزواج قبل وصـول الفتاة إلى سـن الخصوبة). غير أن مالينوسـكي لم يدع أي مجال للشك عن أي الجنسين أكثـرُ انتقائيـة. «لا وجود لطرق ملتوية في تـودُّد التروبرياندين. . . إذ تُطلب المواعدة بصراحة وسـهولة بِنِيَّة معلومة وهي الإشـباع الجنسي. إذا ما قُبِلَت الدعـوة فـإن إرضاء رغبة الفتى الجنسـية تقوّض الإطـار الرومانسي للعقل، ذلـك التـوق إلى المُتعـذّر الغامـض. ولكن في حـال قوبل بالرفـض فلا مجال واسع هناك للتراجيديا، إذ يعتاد الفتى منذ نعومة أظفاره على الرفض الجنسي من قبل بعض الفتيات، عالمًا أن من شـأن محاولة أخرى شـفاء هذا النوع من العِلَل بكفاءة وسرعة...» و«في سياق كل مُغامرة عاطفية، واجبٌ على الرجل تقديم هدايا صغيرة إلى المرأة. بالنسـبة إلى السـكان الأصليين فإن حاجة أحد الأطراف للمَنح يُمثِّل دليلًا متضمّنًا. إذ تُشير هذه العادة إلى أن الجِماعَ، حتى بوجود مودّة متبادلة، بمثابة خِدمة تُقدمها الأنثى إلى الذكر».

لا بُـدَّ وأن هنـاك قوى ثقافيـة تعزِّز الحياء بـين نسـاء التروبرياند. إذ على الرغم من تشـجيع المرأة الشـابّة على التمتّع بحياة نشـطة جنسيًا، فإن تقدّمها سـيُكبح لو غالَـت في الامتثال لكلِّ طلب بسـبب «الشـعور الضئيل بالقيمة الشـخصية التـي ينطـوي عليها هذا الإغـراء المُلِـحُّ». لكن هل هناك سـبب للاعتقـاد بـأن هذا المعيار كان أي شيء آخر غير انعكاس ثقافي وسـيط لمنطق جينـي أعمـق؟ هل يُمكن لأحـد إيجاد ثقافة واحـدة لا يُنظر فيها إلى النسـاء الشـبقات عـلى أنهن أكثر انحرافًـا بالمقارنة مع الرجال الداعرين؟ أم المسـألة أن هـذا العنـصر الثقافي العالمي موجـودٌ منذ نصف مليون سـنة أو يَزيد، أي قبـل بدء الأنـواع بالانفصال؟ يبدو ذلك زمن طويل لـدوام مثل هذه القيمة الاعتباطية في جوهرها، من دون انقراض ولو في ثقافة واحدة.

يتضمَّـن هذا التمريـن بضعة عِبَر هامّة. الأولى: أحد أسـباب التشـكيك الجيـدة في التفسـير التطوري لشيء مـا - المرتبطة ببعض السـمات العقلية أو آليـة التطور العقلي - أنها عالمية، تجدها في كل مكان، حتى في أبعد الثقافات.

الثانيـة: إن الصعوبـة العامّـة في تفسـير هذه الشـمولية بمصطلحـات ثقافية تمامًـا مثالٌ على كيـف أن المنظور الداروني، رغم عـدم برهنة صحته بالمعنى الرياضياتي، يُمكن أن يظلَّ المنظور الرابح بقواعد العلم؛ فسلسلته التفسيرية أقـصر من السلسـلة البديلة ولها عدد أقـل من الروابط المشـكوك فيها؛ فهي نظرية أسـهل وأكثـر فاعلية. لو قبلنا حتى بالتأكيـدات الثلاثة الهزيلة المُقدَّمة حتـى الآن - ١) أن نظرية الانتقاء الطبيعي توحي صراحة بـ«لياقة» النسـوة الانتقائيات في اختيارهنَّ الشريك الجنسي والرجال الذين غالبًا ما لا يكونون كذلـك. ٢) أن هـذه الانتقائيـة وعدمهـا قد لوحظـت في جميع أنحـاء العالم. و٣) أن هـذه العالمية لا يمكن تفسـيرها عبر نظرية ثقافية بحتة منافسـة - لو قبلنـا بكل ذلـك، وإن كنا نلعب وفق القواعـد العلمية فعلينا تأييد التفسـير الداروني: أن فِسْق الرجال وحَياء النساء (النسبي) فطريٌّ إلى حدٍّ ما.

ومـع ذلك يظل من الجيـد دائمًا الحصول على مزيدٍ مـن الأدلة. ورغم أن «الدليـل» المُطلـق قد لا يكـون ممكنًا في العلـم، لكن هناك درجـات متفاوتة من الموثوقية. وبينما يَندُر أن تُحقِّقَ التفسـيرات التطورية نسـبة ٩٩ , ٩٩٪ من الموثوقيـة التـي تُحقِّقُ عـادة في الفيزيـاء والكيمياء، يظل مـن اللطيف ارتفاع المُستوى، لِنَقُل، من ٧٠ إلى ٩٠٪.

تتمثّـل إحـدى طرق تقوية التفسـير التطـوري في إظهار أن منطقَـهُ مُطاعٌ عمومًـا. حيث لـو كانت النسـاءُ انتقائيات في الجنس فالسـبب هـو أن ليس بإمكانهـنَّ سـوى الحصول عـلى عدد محـدود من الأطفـال مقارنـة بالرجال (بحُكـم زيادة حجم الاسـتثمار فيهـم)، وإذا كان بإمكان الإنـاث في المملكة الحيوانيـة عمومًا إنجاب عدد أقل من الذريـة مقارنة بالذكور، فلا بُدَّ لإناث الحيوانـات أن تكـون أكثـر انتقائية من الذكـور. يُمكن للنظريـات التطورية توليـد تنبـؤات قابلة للخطـأ، كما يُتوقَّعُ مـن كلّ النظريات الجيـدة، حتى مع عـدم تمتّع علماء البيولوجيا التطوريـة برفاهية إعادة إجراء التطور مُختبريًا مرة أخرى مع التحكم في بعض متغيراته والتنبؤ بالناتج.

لقـد تأكد هذا التوقّع عـلى وجه التحديد بكثرة. إذ نرى في شـتى الأنواع

اتّسام الإناث بالحياء على العكس من الرجال. في الواقع فإن الرجال على قدرٍ من البلادة من حيث استيعابهم الجنسي لدرجة قد تجعلهم يسعون وراء أشياء أخرى غير الإناث. إذ يُعدُّ التودُّد المثلي بالخطأ بين بعض أنواع الضفادع شائعًا لدرجة استخدام الذكور «نداء الإعتاق» حال السقوط في براثن ذكرٍ لإعلامه أن ما يفعله يستهلك وقتهما من دون نفع. أما الثعابين على الجانب الآخر فمعروفٌ عن ذكورها قضاؤهم وقتًا مع جثث الإناث الميّتة قبل نيل فرصة معاشرة واحدةٍ حيّة. كذلك لا ينفكُّ ذكور الديك الرومي عن المعاشرة الشغوفة لأي شيء ذي شبه بإناثهم. في الواقع بإمكان نسخة من رأس أنثى ديك رومي بطول خمسة عشر إنش أن تؤدي الغرض عمومًا. حيث يدور الذكر حول الرأس مؤديًا طقوسه، ومن ثمّ (واثقًا على الأرجح من أن أداءه كان مثارَ إعجاب) يرتفعُ في الهواء ثمّ يهبط قريبًا من مؤخرة الأنثى، التي يتبيَّن لاحقًا أنها غير موجودة. أمّا الذكور الأكثر فحولة فسيُبدون مثل هذا الاهتمام حتى عند استخدام رأس خشبي، بل يُمكن لبعضهم استدعاءُ شهوة لمعاشرة رأس خشبي لا عيون له ولا منقار.

وليست هذه التجارب سوى تأكيد جلي لما سبق لداروين أن قاله في وقت سابق: الذكور توّاقون للغاية. تعزِّزُ هذه الفوارق مشكلة كثيرة الحضور في اختبار التفسيرات التطورية: المغزى الغريب الذي تؤكده «نبؤات» النظرية. حيث لم يجلس داروين في أثناء دراسته ويُصرّح، «تُشير نظريتي لحياءِ الإناث وانتقائيتهن وإلى شهوانية الذكور العمياء»، ومن ثم يَهمُّ بأخذ نزهة يبحث عبرها عن بعض الأمثلة الداعمة. على النقيض من ذلك، كانت الأمثلة العديدة هي ما دفعه إلى التساؤل عن تأثير الانتقاء الطبيعي الذي أوجدها - وهو سؤال لم يُجابَ بشكل صحيح حتى منتصف القرن اللاحق، بعد تراكم مزيد من الأدلة. إن هذا الميل إلى «التنبؤات» الداروينية بعد تحقُّقِها الجليّ مصدر إزعاجٍ مُزمن لنقّاد داروين. حيث اشتكى المُتشكِّكون بنظرية الانتقاء الطبيعي، أو المقاومون لإمكانية تطبيقها على السلوك الإنساني، من تعديل نبؤات جديدة لتلائِمَ نتائج موجودة مُسبقًا. ويبدو أن ذلك ما كان موجودًا في أذهانهم حين قالوا إن علماء البيولوجيا التطوريين يقضون وقتهم في الحُلُم

بـ«قصصٍ كهذه» من أجل تفسير كل ما يرونه.

بمعنى ما فإن الحلم بقصص معقولة هو ما يفعله البيولوجيون التطوّريون. لكن هذه ليس التهمة الدامغة بحدّ ذاتها، إذ تُقاسُ قوّة نظرية مثل الاستثمار الوالديّ بمقدار البيانات التي يمكنها تفسيرها ومدى سهولة ذلك التفسير بغض النظر عن وقت ظهور البيانات. فبعد إظهار كوبرنيكوس أن افتراض دوران الأرض حول الشمس يُمكنه تفسير الأنماط المُحيّرة التي تتّبعها النجوم في السماء بأناقة، كان يُمكن القول: «ولكنك تغُش. إذ لطالما كُنت عالمًا بتلك الأنماط»، من الواضح أن بعض تلك «القصص» أفضل من غيرها، وبذلك فقد فازت. ثمَّ ما عدد الخيارات التي بيَدِ علماء البيولوجيا التطورية؟ ليس هناك كثير مما يمكنهم فعله بشأن حقيقة أن قاعدة البيانات الخاصة بالحياة الحيوانية سبقت في تراكمها نظرية داروين بآلاف السنين.

لكن هناك أمر واحدٌ بإمكانهم فعله. غالبًا ما تولِّد النظرية الداروينية، إلى جانب الاعتقادات الكاذبة التي كانت النظرية مصممة في الواقع لتفسيرها، نبؤات إضافية - نبؤات حقيقية وأخرى غير مُختبرة والتي يُمكن استعمالها في تقدير النظرية أكثر. (أوجز داروين هذه الطريقة على نحو غير مباشر عام ١٨٣٨، حين كان في العشرينات من عمره - أي قبل أكثر من عشرين عامًا من صدور كتاب أصل الأنواع. كتب في مُفكّرته: «إن خط النقاش المُتّبع في نظريتي هو لتحديد نقطة بوصفها احتمالية عبر الاستقراء ومن ثمّ تطبيقها بوصفها فرضية على نقاط أخرى، ورؤية ما إذا كانت ستحلُّ إشكاليات تلك النُقَط»)، تُمثِّل نظرية الاستثمار الوالديّ مثالًا جيدًا. ذلك أن هناك القليل من الأنواع غريبة الأطوار، كما لاحظ ويليامز في العام ١٩٦٦، حيث يكون استثمار الذكور في الذرية مساوٍ للنساء تقريبًا، أو قد يفوقه حتى. لو كانت نظرية الاستثمار الوالديّ صحيحة فلا بُدَّ لهذه الأنواع أن تتحدى الصور النمطية الجنسية.

ضع في نظرك الكائنات الشوكية المُسمّاة الأسماك الأنبوبية. في هذا النوع يلعب الذكر دورًا يُشابه دور أنثى الكنغر: حيث يأخذ البيوض داخل جراب

ثـم يصلها بمجراه الدموي لأجل تغذيتهـا. وهكذا يُمكن للأنثى التفرّغ من أجـل دورة تكاثر أخـرى في الوقت الذي يلعب فيه الرجل دور الحاضِنة. قد لا يعنـي ذلـك بالضرورة إنجابها نسـلًا أكثر بكثير مقارنـة بالذكر على المدى الطويـل - إذ إنها تسـتغرقُ بعد كُل شيء وقتًا ليـس بالقليل لإنتاج البيض في المقـام الأول. رغم ذلك يظلّ الاسـتثمار الوالديّ متباينًا بشـكل كبير لصالح الجانب المُعتاد. ومثلما هو متوقّع فإن أنثى السمكة الأنبوبية تميل إلى اتخاذ دور نشط في عملية التودُّد في بحثها عن الذكور لأداء طقوس التزاوج.

تُظهِر بعض الطيور، كالفلروب (وبضمنها النوعان المُسميان بمَخاطيف البحـر)، توزيعًا غير طبيعي مُشـابه للاسـتثمار الوالديّ. حيـث يرقد الذكور فوق البيض تاركين للإناث حرية التجوال بحثًا عن شركاء آخرين للتزاوج. ومـرة أخرى نرى شـذوذًا متوقّعًـا آخر عن الصورة النمطيـة في تفوّق حجم إنـاث الفلـروب وبهرجـة ألوانها مقارنـة بالذكور - وتلـك علامات على أن الانتقـاء الجنسي عمل بطريقة مُعاكسـة بسـبب تنافس الإناث عـلى الذكور. لاحـظ أحـد البيولوجيـين أن الإناث، بالأسـلوب الذكوري الكلاسـيكي، «تتنازعُ وتستعرِض فيما بينها» بينما يحتضن الذكور البيض بصَبْر.

والحـق يُقـال إن ويليامز أدرك تحدّي تلك الأنـواع للنظرة النمطية عندما كتـب في العـام ١٩٦٦. غـير أن التحقيـق اللاحـق أكّـدَ «نبوءاتـه» على نطاق واسـع. حيث تبيَّن أن للاسـتثمار الوالـديّ المكثَّف من قبـل الذكور عواقب متوقعة على بقية الطيور، وفي ضفدع السهم السام البَنَمي، وفي حشرات الماء حيـث تُخصَّبُ البيوض فـوق ظهور الذكور، وفي صرصـار المورمون (الذي سُـمّي بهذا الاسـم تهكمًا كـما تبيَّن). ولم تواجـه توقعات ويليامز بهذا الشـأن مشكلة خطرة حتى الآن.

هناك شكل رئيس آخر من الأدلة التطورية المؤثرة على الاختلافات بين الرجال والنساء: والمقصود أقرباؤنا الأقربون. القردة العليا - الشمبانزي، والشمبانزي القزم (المعروفة أيضًا بالبونوبو)، والغوريلا والأورانغوتان - ليست أسلافنا بالطبع؛ إذ تطورت جميعها منذ افتراق مسارها عنّا. رغم ذلك فقد حدث هذا الانفصال قبل ما بين ثمانية ملايين سنة (للشمبانزي والبونوبو) وستة عشر مليون سنة (بالنسبة إلى الأورانغوتان). ليس ذلك بالزمن البعيد جدًا بمقياس التطوّر. (نقطة مرجعية: ظهرت القردة الجنوبية، أسلافنا المفترضين، الذين كانت جماجمهم شبيهة بالقردة ولكنهم ساروا منتصبين، قبل ما بين ٤ و٦ مليون عام، بعد فترة وجيزة من انفصال الشمبانزي. في حين ظهر الإنسان المنتصب - النوع الذي حاز دماغًا يقع في منتصف المسافة بيننا وبين القردة واستخدمه لاكتشاف النار - قبل حوالي ٥ , ١ مليون عام مضى).

يُجيزُ تقارب القردة الكبير معنا على الشجرة التطورية نوعًا من الألعاب البوليسية. من الممكن - على الرغم من صعوبة تأكيد ذلك - أن حينما نتشاركُ سمة ما مع كافة القردة، يكون سبب ذلك عائدًا إلى السلف المشترك. بعبارة أخرى فإن تلك السمة كانت موجودة لدى سلفنا المشترك، ذلك القرد الأولي الذي عاش قبل ١٦ مليون سنة، ثم مُرِّرت إلى كافة ذريته بتفرعاتهم منذ ذلك الحين. المنطق أشبه بتعقُّب أربعة أولاد عمومة متباعدين واكتشاف أن لجميعهم عيون بُنيّة اللون ثم استنتاج أن لا بدَّ من امتلاك أحد أجداد أجدادهم عيون بنيّة. هذه النتيجة بعيدة كلَّ البعد عن أن تكون مُحكمة، غير أن لها من المصداقية ما هو أكثر بالمقارنة مع احتمال أن ترى واحدًا من أبناء العمومة هؤلاء ثم تنطلق باستنتاج مشابه.

نتشارك مع القردة العليا كثيرًا من السمات. فيما يخص كثيرا من تلك السمات - الأيدي خماسية الأصابع مثلًا - فإن الإشارة لهذا الأمر لا تستدعي العناء؛ إذ لا أحد يُشكِّك بالأساس الجيني للأيدي البشرية على كل حال. لكن بالنسبة إلى حالة السمات العقلية البشرية فلا تزال ركائزها الجينية محلّ نقاش -

مثل تباين الشهية الجنسية لدى الرجال والنساء - ويُمكن أن تكون للمقارنة بين القردة فوائدها. كما ومن الجدير استقطاع دقيقة من الوقت للتعرف على أقرب أقربائنا. فمن يدري عدد السمات النفسية الموروثة التي نتشاركها مع بعضهم أو جميعهم من سلفٍ مُشترك؟

إن ذكور الأورانغوتان جوّالون، يهيمون في عُزلةٍ بحثًا عن إناث يبدو عليهنَّ الاستقرار، كُلٌّ في نطاق منزلها. قد يستقرُّ ذكرٌ لفترة كافية بغية احتكار واحدة أو اثنتين أو أكثر من هذه النطاقات، على الرغم من أن الاحتكارات الهائلة يصحبها بذل جهد أكبر في عملية الدفاع ضد أعداد المنافسين الكبيرة. وبمجرد انتهاء المهمة وولادة الأنثى المقيمة، يُرجّح أن يرحل الذكر. وربما يعود ثانية بعد بضع سنوات، حينما يُصبِحُ الحملُ ممكنًا من جديد. لكن في أثناء ذلك الوقت، لا يُكلّف الذكر نفسه عناء المراسلة.

بالنسبة إلى ذكر الغوريلا فالهدف دائمًا أن يكون قائدًا لقطيع يضمُّ عددًا من الإناث البالغات، إلى جانب عدد من ذريتهنَّ وربما القليل الآخر من الذكور البالغين. وبصفته الذكر المُهيمن، فإن لوحده صلاحية الوصول الجنسية إلى الإناث؛ حيث يهتم الفتيان بشؤونهم الخاصة (ربما يُشاركهم ذكر القطيع المهيمن بعد تقدّمه في السن وتلاشي قوته بعض إناثه). أما الجانب السلبي فيتلخَّص في أن على ذكر القطيع مجابهة أي ذكر مُتطفّل يحاول معاشرة واحدة من إناثه أو أكثر، وبذلك دائمًا ما تراه يُظهر طابعًا حادًّا.

إن حياة ذكر الشمبانزي عنيفة أيضًا. إذ يسعى جاهدًا لتسلّق الهرم الذكوري المُتّسم بالطول والمرونة مقارنة بالغوريلا. ومرّة أخرى، يحوز الذكر المُهيمن - العامل بلا كلل على حماية رتبته عبر الاعتداء والترهيب والدهاء - على دور المعاشرة الأول مع جميع الإناث، وهو امتياز يفرضُه بحماسة خاصّة وقت التبويض.

قد تكون القردة القزمة، أو البونوبو (وهي في واقع الأمر نوع مختلف ومستقلّ عن الشمبانزي)، أكثر أنواع الرئيسيات شبقًا. إذ تأتي ممارساتهم الجنسية بطرق ووضعيات عدّة وكثيرًا ما تخدم غايات غير التكاثر. ويبدو

أن تكرار السـلوك المِثْلي دوريًا، كحكّ الإناث فـروج بعضهنّ ببعض، طريقة لقول، «لنتصادَق»، ويظـل الإطار الاجتماعي الجنسي للبونوبو عمومًا يعكس صورة ذلك الخاص بقردة الشـمبانزي: تسلسل هرمي واضح للذكور يُساعد في تحديد الوصول إلى الإناث.

يبرُز وسـط التنـوع الكبير للبنيـة الاجتماعية في هذه الأنـواع موضوع هذا الفصل الأسـاس، أو الحد الأدنى منه على الأقل: حيث يبدو الذكور أكثر لهفة للجنس ويبذلون جهدًا أعلى في سبيل البحث عنه، وذلك على عكس الإناث. لا يعني ما سبق أن الإناث لا تحبّ الجنس، بل يُحببنه، وقد يُبادرن إليه. والمثير للاهتمام أن إناث الأنواع الأقرب صلة بالبشر - الشمبانزي والبونوبو - تبدو سـهلة الانقيـاد إلى عيـش حيـاة جنسـية جامحة، بضمنهـا الاقتران مـع شركاء متعددين. على الرغم من ذلك لا تفعل إناث القردة ما يفعله ذكورهم: البحث في كل مـكان والمخاطرة بكلّ شيء لأجل بلـوغ الجنس، والوصول لأكبر قدر منـه مع أكثر عـدد ممكن من الـشركاء المختلفين، وأن للجنـس طريقته للعثور عليهم.

خيارُ الأنثى

إن كـون إناث القـردة أكثر تحفّظًا من الذكور عامـة لا يعني بالضرورة أنها تتفحّـص شركاءهـا المحتملـين بحيوية. الحـقّ أن الـشركاء يُتفحَّصون؛ حيث يتـزاوج الذكـور المُهيمنـون على البقيـة، أما الآخـرون المُهيمَنُ عليهـم فقد لا ينالون الفرصة. هذه المنافسة هي بالضبط ما كان يفكّر فيه داروين حين رَغِبَ بتحديـد أحد نوعي الانتقـاء الجنسي، وهذه الأنواع (الشـبيهة بنوعنا) توضّح كيـف يُفضِّـلُ تطور الذكور الأوغـاد كبار الحجم. لكن مـاذا عن النوع الآخر للانتقاء الجنسي؟ هل تُشارك الأنثى في تفحُّص وانتقاء الذكر الذي يُبشِّر بالخير بوصفه شريكًا مساهمًا في مشروعها أكثر مع غيره؟

مَعـروفٌ أن مـن الصعبِ لَحظ اختيـار الإناث لشركائهـا، وغالبًا ما تكون علامـات تأثـيره طويل الأمد غامضة. هل سـبب زيـادة حجم وقـوّة الذكور

على الإناث عائد فقط إلى أن الذكر الأقوى يَقدِرُ على إقصاء منافسيه وضمان التزاوج؟ أم أن الإناث، إضافة لذلك، تفضِّل الذكر الأقوى لامتلاكها تفضيلًا متأصلًا وراثيًا في أن إنجابها أبناء أقوى يعني ذكورًا أكثر خصوبة، ما يقود كذلك إلى توريث بنات تلك الأمهات تفضيل أمّهاتهنَّ وجدّاتهنَّ نفسه؟

على الرغم من هذه الصعوبات فمن الآمن القول: إن الإناث عمومًا أكثر انتقائية في جميع أنواع القردة العليا. حيث على الرغم من تقيُّد أنثى الغوريلا، على سبيل المثال، بممارسة الجنس مع ذكر واحد مُهيمن، هي معتادة على الهجرة إلى أماكن أخرى في أثناء حياتها. فحينما يقترب ذكر غريب من قطيعها، وينخرط مع ذكر القطيع المهيمن بتهديدات متبادلة، وربما الاشتباك في قتال حتى، فقد تتبع ذلك الذكر الغريب إذا ما أُعجِبَت به كفاية.

في حالة الشمبانزي يظهر الأمر أكثر مكرًا. يُمكن للذكر المُهيمن، أو الألفا، الحصول على أي أنثى يريدها، إلّا أن هذا لا يُعدُّ مهمًا؛ لأنها مُعجبة بذكر القطيع على أي حال؛ حيث يُقصي الذكر المهيمن الخيارات الأخرى عبر إخافة بقية الذكور. ويُمكن أن يُخوّفها هي أيضًا، بحيث يكبح خوفها نوايا الذكور المُزدَرين. (في الواقع فإن من المعروف اختفاء خوف الذكور المُزدرين حينما لا يكون الألفا منتبهًا). إلّا أن هناك نوعًا آخر مختلفًا تمامًا من تزاوج الشمبانزي - علاقات خاصة قصيرة الأمد يُمكن عدّها أنموذجًا أوليًا للتودّد البشري. حيث يغادر ذكر شمبانزي وأنثى مُجتمعهم لبضعة أيام أو أسابيع. وعلى الرغم من أن الأنثى قد تتعرض للاختطاف إذا ما قاومت الدعوة، فهناك أوقات تنجحُ في مقاومتها، وأوقاتٌ أخرى تختار فيها الذهاب بسلام، رغم وجود كثير من الذكور القريبين الذين سيسعدون بنجدتها إذا ما استنجدت.

في الواقع فإن حتى الإذعان رُغمًا عن الإرادة يُمكن أن يتضمَّن نوعًا من حرية الاختيار، وتُمثّل إناث الأورانغوتان مثالًا جيّدا. إذ غالبًا ما يَبدين كأنهنَّ يُمارسن اختيارًا إيجابيًا في تفضيل بعض الذكور على الآخرين. لكنّهنّ في بعض الأحيان يقاومن التزاوج ويتمّ إخضاعهنّ بالقوة و - بقدر ما يُمكن تطبيق هذه الكلمة على غير البشر - يُغتصَبْن. هناك أدلة على أن المغتصبين، الذين

غالبًا ما يكونـوا مراهقين، عادة ما يفشـلون في تلقيح الأنثـى. ولكن افترض أنهم نجحوا إلى حدٍّ ما في التلقيح. سيكون من الأفضل بالنسبة إلى الأنثى وفقًا للاصطلاحات الداروينية المحضة التزاوج مع مُغتصب جيّد، ذكر كبير وقوي وعدواني جنسيًا بحيث تحصل على ذرية من الذكور غالبًا ما تكون كبيرة وقوية وعدائية جنسيًا (بافتراض أن العدوانية الجنسية تتباين جزئيًا على الأقل بسبب الاختلافات الجينية)، وبذلك تكون غزيرة الإنتاج. لذا يجب أن يكون تفضيل الانتقاء الطبيعي لمقاومة الأنثى طريقة لتتجنّب إنجاب صبيّ من مُغتصب غير كفء (بافتراض أن المقاومة لن تتسبب بإلحاق أذى للأنثى).

ليـس ذلك أشـبه بالقول إن أنثى الرئيسـيات «تريده حقًـا» على الرغم من احتجاجاتهـا، كـما عُرِفَ عن ذكور البـشر هذا الزَعْم. عـلى العكس من ذلك، فكلـما كانت أنثى الأورانغوتان «تريده حقًـا»، كلما قاومت أقل، وكُلّما خفَّفَت من حدّة أداة تفحّصها. ما «يريده» الانتقاء الطبيعي وما يريده أي فرد لا ينبغي أن يكـون الأمر نفسـه، وهمـا يبدوان على خلاف بما يخصّ هذه المسـألة إلى حد ما. المسـألة بسـهولة أن الإناث ربما تُفضّل نوعًا محدَّدًا مـن الذكور من الناحية العمليـة حتـى عنـد عـدم إبدائهنّ تفضيـلًا واضحًا لنـوع بعينه. وهـذا الحذر الفعـلي قد يكـون مشروعًا. فقد يكون تكيفًا فضَّلـه الانتقاء الطبيعي على وجه الخصوص لما فيه من تأثير مُغَرْبِل.

بالمعنى الأوسـع، يُمكن تطبيق ذات المنطق على أيٍّ من أنواع الرئيسـيات. بمُجرد أن تبدأ الإناث عمومًا بإبداء أدنى قدر من المقاومة، فإن الأنثى الأخرى التي تُبدي قدرًا أعلى بقليل من المقاومة بالمقارنة تُظهر سِمةً قَيِّمة. ومهما تطلّب الأمـر لاختراق مقاومتهـا، فإن أبناء المقاوِمات القويّـات أكثر احتمالًا للنجاح من أبناء المُقاومات الضعيفات. (يفترض هذا، مرة أخرى، أن الحيازة النسـبية مـن قبل ذكور مختلفـين لنوعية «مهما تطلّـب الأمر» تعكـس اختلافات جينية متضمّنـة.) وبذلـك، وفـق الاصطلاحـات الداروينية المحضـة، يصبح الحياء مكافأتـه الخاصّة. وهـذا صحيح بغض النظر عما إذا كانت وسـائل الذكور في المبادرة جسدية أم لفظية.

إن ردّ الفعل الشائع على المنظور الدارويني الجديد للجنس هو بوصفه يُمثّل تفسيرًا منطقيًا تمامًا للسلوك الحيواني - أو ما معناه لسلوك الحيوانات باستثناء البشر. قد يضحك الناس مع أنفسهم من قصة ديك رومي يحاول التزاوج مع رأس دمية لأنثى رومية، ولكن في حال أشرت إلى حقيقة أن كثير من ذكور البشر يتهيّجون بانتظام بعد النظر إلى تجسيد ثنائي الأبعاد لامرأة عارية، تراهم لا يجدون في ذلك ارتباط. فبعد كل شيء، يُدرك الرجل بالطبع أن ما ينظر إليه ليس إلّا صورة؛ ربما يكون سلوكه مثيرًا للشفقة، لكنه ليس مُضحكًا. وربما لا يكون كذلك. ولكن إن كان «يعرف» أنها مُجرد صورة، فلماذا يشعر بكل ذلك الحماس؟ ولماذا لا تتهيّج النساء لمرأى صور الرجال الخليعة؟

إن مقاومة الجمع بين البشر والديكة الرومية تحت قانون دارويني واحد له مُقتضياته. نعم، إن سلوكنا خاضع لتحكّم أكبر بحكم «الوعي» مقارنة بسلوك الديكة. إذ يُمكن للبشر أن يُقرِّروا ألّا يُستثاروا بفعل شيء ما - أو يُمكنهم أن يُقرِّروا على الأقل عدم النظر إلى شيء لَربما يقود إلى تهيّجهم. بل إنهم يتمسّكون أحيانًا بهذه القرارات. وعلى الرغم من قدرة الديكة الرومية على اتخاذ ما يُشبه «الخيارات» بعد المُقارنة (إذ قد يُقرِّرُ ديكٌ رومي يطارده حامل بندقية أن الوقت الحالي ليس مناسبًا للرومانسية)، فمن الواضح أن تعقيد الخيارات المتاحة ودقتها للبشر لا مثيل لها في مملكة الحيوان. وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى السعي البشري المدروس لتحقيق أهداف طويلة المدى.

كل شيء يبدو عقلانيًا للغاية، وفي بعض النواحي هو كذلك بالفعل. لكن هذا لا يعني أنه ليس في خدمة الغايات الداروينية. بالنسبة إلى الشخص العادي قد يبدو طبيعيًا أن يحررنا تطور العقول التأملية المُدرِكة لذاتها من الأحكام الأساسية لماضينا التطوري. بالنسبة إلى عالم البيولوجيا التطوري فإن ما يبدو طبيعيًا هو العكس من ذلك تقريبًا: أن العقول البشرية لم تتطور لِعزلنا عن مهمّة البقاء والتكاثر، بل للسعي لأجل ذلك بنحو أكثر فاعلية ومرونة؛ أي حين نتطور من نوع كان ذكوره يختطفون إناثه بالقوة إلى آخر يهمس

فيـه الذكـور كلامًا عذبًـا في آذان إناثهم، فـإن الهمس سـيكون محكومًا بمنطق الاختطاف نفسـه، إذ يُعدُّ ذلك وسـيلة أخـرى من وسـائل التلاعب بالإناث لأجل غايات الذكور، وشـكلها يصبُّ في خدمة هذا الغرض. يتكسَّر الفيض الأسـاس للانتقـاء الطبيعي من الأجزاء القديمة الداخليـة للدماغ وصولًا إلى أنسـجته الخارجية الطازجة. في الواقع لم يكن النسـيج الطـازج ليظهر أبدًا من دون الالتزام بالغاية النهائية للانتقاء الطبيعي.

الكثير من الأمور حدثت بالطبع منذ انفصال أسـلافنا عن أسـلاف القردة العليا، ويُمكن للمرء أن يتخيّل تغيّرًا في السياق التطوّري من شأنه إعفاء نسلنا من المنطق الذي حكم المصالح الرومانسـية للذكور والإناث بشيء من التباين في أغلب الأنواع. ولا يغبْ عن ذهنك فرس البحر أو ثعابين البحر أو فلروب البحر أو ضفادع السهم السام البنميّة أو صراصير المورمون وأدوارهم الجنسية المعكوسـة. وهناك قردة الغيبون (الجِبْون) وهي أحد أقربائنا من الرئيسـيات، التي على الرغم من كونها مثالًا أقل دراماتيكية لكنها أنسب من حيث الصلَة، والذيـن ودَّع أسـلافهم أجدادنـا قبل نحو ٢٠ مليون سـنة مضـت. في مرحلة مـا من تطور الغيبون، بدأت الظروف في تشـجيع المزيد من الاسـتثمار الأبوي مـن جانب الذكور. وبذلك صـار الآباء يتواجدون قريبًا بانتظام ويُسـاعدون أكثر في إعالة الأطفال. بل إن في أحد أنواع الغيبون يحمل الذكور الرضّع وهو شيء لم يُعرف عن ذكور القرود حقًا. وبالحديث عن الانسجام الزوجي: يغنّي أزواج الغيبـون ثنائيات لحنية صاخبة صباحًا لإعـلام أي مُخرّب مُحتمل بمدى استقرارهم العائلي.

حسـنٌ، يُعـرفُ عن ذكـور البـشر أيضًا حملهـم الرضّع والبقـاء قريبين من أُسرهـم. هـل مـن المُحتمل أن في فـترة ما في أثنـاء الملايين القليلـة الماضية من السـنين حدث لنا شيءٌ شـبيهٌ بما حصل للغيبون؟ هل انخفض التباين في شهية الذكـور والإناث الجنسـية بما يكفي على الأقـل لجعل الزواج الأحـادي هدفًا معقولًا؟

الفصل الثالث

الرجال والنساء

«بالاستناد إلى السمات الاجتماعية لرجال اليوم، وإلى أن مُعظم البدائيين ينزعون إلى تعدُّد الزوجات، فإن وجهة النظر الأكثر احتمالًا هي أن الإنسان البدائي كان قد عاش في مجتمعات صغيرة ضمَّ لنفسه فيها أكثر عدد من الزوجات استطاع كسبه وإعالته وحمايته غيرةً من الرجال الآخرين. أو ربما كان يعيش رفقة كثير من الزوجات بنفسه، كما الغوريلا...».

أصل الإنسان (١٨٧١)

إحدى أكثر الأفكار تفاؤلًا من بين ما ظهر من جانب المنظور التطوري للجنس هي تلك القائلة بأن البشر نوعٌ «زوجيّ الرابطة». بل ويُدّعى في الأشكال الأكثر تطرفًا أن الرجال والنساء مُصمَّمون لأجل الحبّ الأحادي الأبدي العميق. وهذا الادعاء لم ينبثق من الفحص الدقيق للحالة البدائية.

من أشاعَ فرضية الرابطة الزوجية كان ديزموند موريس في كتابه الصادر عام ١٩٦٧ بعنوان القرد العاري. قَدَّمَ هذا الكتاب، إلى جانب بضعة من الكتب الصادرة في الستينيات (على سبيل المثال كتاب روبرت آردري،

الحتمية الإقليمية)، نقطة تحوّل محتملة في تاريخ الفكر التطوّري. إن الوصول إلى عدد كبير من القراء يشير إلى انفتاح جديد على الداروينية ويُبَدِّدُ المخاوف السابقة حول إساءة استعمالها سياسيًا. ولكن في النهاية لم يكن هنا من سبيل؛ إذ تبدأ هذه الكتب نهضة داروينية داخل الأوساط الأكاديمية. والمُشكلة كانت سهلة: إنها لم تبدُ منطقية.

طفا أحد الأمثلة في مرحلة مبكرة من مُحاججة الرابطة الزوجية الخاصة بموريس. إذ كان يحاول شرح سبب إخلاص إناث البشر عمومًا لشركائهنّ. وهذا سؤال جيد فعلًا. ذلك أن الإخلاص العالي سيضع النساء ضمن نخبة محدّدة داخل المملكة الحيوانية. وعلى الرغم من أن إناث الحيوانات عمومًا أقلّ انحرافًا من الذكور، إلّا أن إناث كثير من الأنواع أبعد ما يكنَّ عن الاحتشام، وينطبق ذلك بشكل خاص على أقرب أقربائنا، القرود. حيث تُعدُّ إناث الشمبانزي والبونوبو في بعض الأوقات بمثابة آلات جنسية حقيقية. في شرحه لِكيف أصبحت النساء غاية في العفّة، يشير موريس إلى التقسيم الجنسي للعمل في الاقتصاد المبكر بمجتمعات الصيد وجمع الثمار. حيث كتب يقول: «بادئ ذي بدء، كان على الذكور التأكد من إخلاص إناثهم لهم وقت مغادرتهم بغية الصيد. لذا كان لزامًا على الإناث تطوير ميلٍ إلى الاقتران».

تمهّل قليلًا هنا. هل كان من المصلحة الإنجابية للذكور أن تطوّر الإناث ميلًا للإخلاص؟ إذن فالانتقاء الطبيعي هو من ألزم الذكور بفرض التغييرات اللازمة عند الإناث؟ لم يتمكن موريس أبدًا من تفسير كيف أمكن للانتقاء الطبيعي تأدية هذا العمل الفذّ بالضبط.

ربما ليس من العدل إلقاء اللائمة على موريس، فقد كان ضحية عصره. كانت المشكلة عبارة عن جو من التفكير الفضفاض والمفرط في الغائيّة. يتملكُ القارئ لكتاب موريس أو كتب آردري انطباعًا عن أن الانتقاء الطبيعي يتأمَّل المستقبل، مُقرِّرًا ما يجب عمله لجعل الأمور أفضل عمومًا بالنسبة إلى الأنواع، ثم أخذ الخطوات اللازمة لذلك. لكن الانتقاء الطبيعي لا يعمل بهذه الشاكلة. إذ إنه لا يتأمل المستقبل ولا يحاول جعل الأمور أفضل

عمومًا. وكُلّ خطوة مُفردة صغيرة مأخوذة على نحو أعمى إمّا كانت منطقية قياسًا بالمصلحة الجينية الذاتية في سياقها اللحظي أو لم تكن كذلك. وإذا لم تكن كذلك، فما كُنت لتقرأ عنها بعد ملايين من السنين لاحقًا. كانت هذه هي الرسالة الجوهرية من كتاب جورج ويليامز الصادر عام ١٩٦٦، وهي رسالة بالكاد وجدت موطِئ قدمٍ وقت ظهور كتاب موريس إلى العلن.

يؤكد ويليامز أن أحد مفاتيح التحليل التطوري الجيد التركيز على مصير الجين قيد السؤال. فلو كان «جين الإخلاص» (أو «جين الخيانة») يُشكّل سلوك الأنثى بطريقة تساعدها على تمرير أعداد كبيرة من النُسَخ إلى الأجيال المستقبلية، فسيزدهرُ ذلك الجين المَعني. وسواء اختلط هذا الجين عبر العملية مع جينات زوجها أو جينات حامليه أنفسهم، فهذا بحدّ ذاته غير ذي صلة. وبالنسبة إلى الانتقاء الطبيعي، فإن مركبة جيّدة واحدة تؤدي لأخرى جيّدة. (عندما نتحدث عن «جين» أي شيء - الإخلاص، الخيانة، الإيثار، القسوة - فإننا نبالغ في التيسير سعيًا للإفادة؛ إذ تنجم السمات المعقدة عن تفاعل كثير من الجينات، وعادة ما انتُقي كل منها لمقدار ما أضافه إلى اللياقة).

موجة جديدة من التطوريين استعملت هذه النظرة الأشد صرامة عن الانتقاء الطبيعي للتفكير بعناية أكبر في السؤال الذي أولاه موريس اهتمامًا كبيرًا: هل ولد ذكور وإناث البشر لتكوين روابط زوجية دائمة مع بعضهم بعضًا؟ والإجابة هي بالكاد نعم غير مشروطة بالنسبة إلى الجنسين. وعلى الرغم من ذلك فهي أقرب إلى الـ«نعم» لكلا الجنس مما عليه الحال بالنسبة إلى الشمبانزي مثلًا. في كل ثقافة بشرية يتضمّنها السجل الأنثروبولوجي، يُعدّ الزواج القاعدة - سواء أكان أحاديًا أم متعددًا، دائمًا أم مؤقتًا - والأسرة هي لُبّ النظام الاجتماعي. حيث يُكنّ الآباء في كل مكان مشاعر حب لأبنائهم، مشاعرٌ لا تُقارنُ بما يظهره آباء الشمبانزي أو البونوبو الذين لا يبدو أن لهم أدنى فكرة عن هويّة من يعودون إلى صلبهم من الصغار. ويقود هذا الحبّ الآباء إلى المساعدة في إطعام الصغار وحمايتهم، إلى جانب تعليمهم بعض الأمور النافعة.

بعبارة أخرى، في مرحلة ما يدخل الاستثمار الوالديّ الذكوري الفائق في سلالتنا التطورية. إننا، مثلما يقولون في أدبيات علم الحيوان، غاية في الاستثمار الأبوي[1] ليس الاستثمار الأبوي خاصتنا مرتفعًا لدرجة تنافس الاستثمار الأمومي، ولكنّ ما لنا هو أعلى بكثير من متوسّط ما لذكور الرئيسيات. وإن لنا بالفعل شيئًا مشتركًا مهمًا مع قردة الغيبون.

لقد أوجد الاستثمار الأبوي المرتفع توافقًا بين الأهداف اليومية للذكور والإناث من بعض النواحي، ومثلما يعلم كُل والد ووالدة، فإن بإمكان ذلك أن يمنحهما مصدرًا دوريًا للسعادة البالغة والمشتركة. إلّا أن ارتفاع الاستثمار الأبوي أوجد كذلك طرقًا جديدة تمامًا لتباعد غايات الذكور والإناث، سواء أفي فترة التودّد أو الزواج. في ورقة روبرت تريفرز المنشورة عام ١٩٧٢ عن الاستثمار الوالديّ، أشار قائلًا: «يُمكن للمرء، في الواقع، معاملة الجنسين كما لو كانا نوعين مختلفين، والجنس الآخر بمثابة مورد مرتبط بإنتاج أكبر قدر ممكن من الذرية»، كان تريفرز يُقدّم نقطة تحليلية محددة، لا نقطة بلاغية شاملة. ولكن لم تُعبّر هذه الاستعارة لمدى مؤلم - وإلى حدّ لم يكن واضحًا قبل صدور ورقته - عن الوضع العام؛ فحتى مع الاستثمار الأبوي المرتفع، وبسببها إلى حد ما، فإن الديناميكية الأساسية المتضمّنة بين الرجال والنساء هي الاستغلال المتبادل. إذ إنهم يبدون في بعض الأحيان مصممين لجعل أحدهم الآخر تعيسًا.

لماذا مستوى الاستثمار الأبوي مرتفع لدينا؟

لا نقص في الأدلة عن سبب ميل الرجال للمساعدة في تربية صغارهم. فهناك كثير من العوامل الكامنة في ماضينا التطوري الحديث التي يُمكن لها جعل الاستثمار الوالديّ مفيدًا من وجهة النظر الجينية للذكور. بعبارة أخرى، يُمكن للجينات الحاثّة للذكر على محبّة ذريته بفضل هذه العوامل

(١) اختصار male parental investment، ومعناها الاستثمار الوالديّ الذكوري، أو الاستثمار الأبوي. [المترجم]

- القلـق عليهم والدفاع عنهم، إعالتهم وتعليمهم - الازدهار على حساب الجينات الأخرى الحاثّة على العكس.

وأحـد العوامـل هي هشاشـة الذرية في مراحـل حياتها المبكـرة. إن اتباع الاسـتراتيجية الجنسـية الذكوريـة العامّة - البحث والإغـواء ومن ثمّ المضي بعـد التخـلّي عن كل شيء - لن تصبَّ في صالح الذكـر كثيرًا إذا ما تعرَّضت ذريتـه للافتراس. ويبدو هذا واحدًا من أسـباب عدّة تجعـل الكثير من أنواع الطيور أحادية الزواج، أو أحاديّة نسبيًا. إذ لن تدوم البيوض التي تتركها الأم وحيـدة عند ذهابهـا لصيد الديدان طويلًا. حينما ارتحل أسـلافنا من الغابات ليسـكنوا السـفانا، كان عليهـم التعامـل مـع مجموعة كبيرة من المفترسـات. ولم يكـن ذلـك الخطـر الجديد الوحيد الـذي أحاط بالصغار، فبعـد أن ازداد ذكاء النـوع وانتصابه، واجه تشريـح الإناث تحديًا آخر: المشي المنتصب يعني حوضًا أضيق، وبذلك قناة ولادة أضيق، هذا إلى جانب زيادة حجم رؤوس الأطفال أكبر من أي وقت مضى. وربما يكون هذا سـبب ولادة أطفال البشر قبـل أوانهم بالمقارنة مع الرئيسـيات الأخرى. إذ يُمكن لأطفال الشـمبانزي التشبّث بأمهاتهم في أثناء تجوالهنّ في وقت مبكّر من حياتهم، حيث لا تكون أيديهنَّ مشغولة بالرضّع. على الجانب الآخر فإن أطفال البشر حديثي الولادة يعيقون على نحو خطير قدرة الأم على جمع الطعام. ويظلّون طوال أشهر عدّة كتلة من اللحم العاجز: ليس أكثر من طُعمٍ للنمور.

في غضـون ذلك، ومـع تزايد العائد الجيني للاسـتثمار الذكـوري، كانت تكلفة الاسـتثمار في تراجع. حيث يبدو أن الصيد قد برز بشـكل كبير في أثناء تطورنـا. ومع توافر الـرزم الكثيفة للبروتين، كان إطعـام الأسرة أمرًا فعّال. وربـما ليس مـن قبيل المصادفـة أن يكون الـزواج الأحادي أكثر شـيوعًا بين الثدييات آكلة اللحوم مقارنة بالنباتيين.

إضافـة إلى ذلـك فمع زيادة حجـم الدماغ البـشري، ربـما ازداد الاعتماد عـلى البرمجة الثقافية المبكرة. إذ يتفوّق الأطفـال المترعرعون في كنف والدين تعليميًا على أقرانهم المترعرعين في ظلّ والد واحد.

ويبـدو أن الانتقاء الطبيعي قـد أخذ، بنحو متميّز، حسـاب التكلفة أمام الفائـدة هـذا وحوّلـه إلى شـعور - إلى إحسـاس بالحبّ على وجـه التحديد. وليس حبُّ الأبناء فحسـب؛ حيث إن الخطوة الأولى تجاه تحقيق وحدة أبوية واحدة وقوية هي تطوير الرجال والنسـاء انجذابًا متبادلًا قويًا. ويُعدُّ المردود الجينـي لامتـلاك أبويـن متفانين لضمان رفاهية الطفل سـبب وقـوع الرجال والنساء في غرام بعضهم بعضًا.

عُـدَّ هذا الادعاء، حتـى وقت قريب، محض بُدعة. حيـث كان يُعتقد بأن «الحب الرومانسي» من جملة اختراعات الثقافة الغربية؛ إذ كانت هناك تقارير عـن ثقافات لا علاقة فيهـا بين العاطفة واختيار الشريـك، ولم يكن للجنس أي وزن عاطفـي. لكـن علماء الأنثروبولوجيا ممن وضعـوا في نظرهم المنطق الداروينـي خلف التعلّق نظـروا مرة أخرى في هذا الأمـر، ثم أصبحت مثل تلـك التقاريـر موضع شـك. إذ يبـدو أن للحب بـين الرجل والمرأة أسـاس فطـري. بهذا المعنى فإن فرضية «الترابط الزوجي» تقف مُدعَّمة، وإن لم يكن لكافّة الأسباب التي تخيلها ديزموند موريس.

في الوقت نفسـه فإن مصطلح الترابط الزوجي - وبما يخص هذا الصدد، مصطلح الحبّ - ينقل إحساسًـا بالديمومة والتناسـق الذي، كما يمكن لأي مُراقـب عـرضي ملاحظته في نوعنا، قـد لا يكون له ما يسـوغه دومًا. ولكي ندرك تمامًا مدى اتسـاع الفجوة بين الحبّ المثالي ونسـخة الحب الطبيعي بين النـاس، علينا فعل ما فعله تريفرز في ورقته المنشـورة عام ١٩٧٢: لا التركيز على المشـاعر نفسـها، ولكن على المنطق التطوري المُجرّد الذي تُجسّده. ما هي المصالـح الجينية للذكور والإنـاث في الأنواع ذات الإخصاب الداخلي وفترة الحمل الطويلة واتكال الرضيع المسـتمر على حليب الأم والاسـتثمار الأبوي المرتفـع إلى حـد مـا؟ إن رؤية هـذه المصالح بوضـوح هي الطريقـة الوحيدة لتقدير كيف ابتكر التطور الحب الرومانسي، وكيف أفسده من الأصل.

ما الذي تريده النساء؟

بالنسبة إلى الأنـواع قليلـة الاسـتثمار الأبويّ (مـن جهة الذكـر)، تكون الديناميكية الأساسـية للتودّد، كما سـبق ورأينا، سـهلة للغاية: الذكر يرغب بممارسة الجنس جدًا؛ بينما لا تتحمّس الأنثى كثيرًا لذلك. فربما تكون بحاجة لبعـض الوقـت (من دون وعـي منها) لأجل تقييم جودة جيناته، سـواء عبر تفحّصـه أو تركـه يُقاتـل بقية الذكور سـعيًا لنيل حظوتها. وقـد تتمهّل قليلًا لتقديـر احتمالات أن يكون حاملًا لمرض ما. أو قد تحاول اسـتخلاص هدية قبـل الانخـراط في الجماع مسـتفيدة من ارتفاع الطلب عـلى بيوضها. يُلاحَظ «مهر الزفاف» هذا - والذي يُمثِّل من الناحية التقنية استثمارًا صغيرًا بالنسبة إلى الذكور، بما أن ذلك سـيُغذيها وبيوضها - في مجموعة متنوعة من الأنواع، بدءًا من الرئيسيات ووصولًا إلى الذبابة السوداء القلابة المعلقة. (حيث تُصرُّ أنثى الذباب القلّاب على نيل حشرة ميتة تتناولها في أثناء ممارسـة الجماع. وفي حـال انتهـت منها قبل انتهاء الذكـر فيحتمل أن تدير وجههـا عنه باحثة عن وجبة أخرى، تاركة إيّاه في المنتصف. وإن لم تكن سريعة كفاية في تناولها، فقد يسـتردُّ الذكر بقية الوجبة منها بعد انتهائه ويسـتثمرها في مواعيده اللاحقة). يُمكـن معالجـة تلك الضغـوط المختلفة على الأنثى عادة بسرعة نسـبيًا؛ إذ لا سبب لدوام التودّد مدّة أسابيع.

لكـن أدرِج الآن الاسـتثمار الأبـوي المرتفـع في المعادلـة - لا الاسـتثمار الذكـوري في أثناء الجـماع فقط، ولكن امتـداده إلى الولادة ومـا بعدها، ولن تهتـمّ الأنثى بعدها بالاسـتثمار الجيني للذكر، أو بالوجبـة المجانية، ولكن بما سـيُقدّمه لذريتـه بعد الإنجاب. في العـام ١٩٨٩ نشر عـالم النفس التطوري ديفيـد بوس دراسـة رائدة عن تفضيلات الشريـك في ٣٧ ثقافة حول العالم. وقـد وجد في جميـع الثقافات أن الإناث تهتمّ بالآفاق المالية للشريك المُحتمل أكثر من الذكور.

لا يعنـي ذلك أن للنسـاء تفضيلًا مُحـدَّدًا متطوّرًا لتفضيـل الرجل الغني. حيـث لم يكن للموارد المتراكمة والملكيات الخاصة في مجتمعات الصيد وجمع

الثمار مكانة كبيرة. وسواء أكان ذلك يعكس بيئة الأسلاف على نحو صحيح أم لا، فهو أمر جدلي؛ لقد استُبعِدَ الصيادون جامعو الثمار، على مدى الآلاف الماضية من السنين، من الأراضي الغنية إلى مواطن نائية، وبذلك قد لا يكونون تمثيلًا ملائمًا لأسلافنا في هذا السياق. ولكن إذا ما كان كافّة الرجال في بيئة أسلافنا متساوي الثراء نسبيًا (وهذا ما لم يكن)، فلربما لم تكن الأنثى لتهتم فطريًا بثراء الرجل قدر اهتمامها بمكانته الاجتماعية؛ حيث غالبًا ما تُترجم المكانة في مجتمعات الصيد وجمع الثمار إلى قوّة - التأثير على تقسيم الموارد، مثل اللحم بعد صيد غني. في المجتمعات الحديثة، غالبًا ما يأتي الثراء مترافقًا مع المكانة والسلطة بأي حال من الأحوال، ويبدو أن لهذه الحزمة جاذبيتها في أعين النساء بالمتوسّط.

ويتبيّن أن للطموح والمثابرة أثرهما الصاعق أيضًا على كثير من النسوة كبِشارات - وقد وجد بوس أن هذا النمط يظهر كذلك على نطاق واسع عالميًا. إن الطموح والمثابرة بالطبع من جملة الميزات التي قد تبحث عنها الأنثى حتى لدى الأنواع منخفضة الاستثمار الأبوي، ذلك لكونها مؤشرات على الجودة الجينية. ومع ذلك فهي لا تمثل لها كثيرًا في تقييمها استعداد الذكور للاستثمار. فقد تبحث الأنثى في الأنواع مرتفعة الاستثمار الأبوي عن ملامح الكرم والجدارة بالثقة إلى جانب الإخلاص الدائم لها على وجه الخصوص. من البديهي أن للزهور وغيرها من رموز العاطفة قيمة أكبر لدى النساء مقارنة بالذكور.

لماذا على النساء الارتياب من الرجال؟ فبعد كل شيء، ألم يُصمَّم الذكور في الأنواع مرتفعة الاستثمار الأبوي للاستقرار؛ لشراء منزل وجزّ العشب في عطل نهاية الأسبوع؟ وهنا تبرز المشكلة الأولى مع مصطلحات كالحب والترابط الزوجي. من المفارقات أن الذكور في الأنواع مرتفعة الاستثمار الأبوي أكثر نزعة للخيانة مقارنة بذكور الأنواع منخفضة الاستثمار الأبوي. فـ«سبيل الذكر الأمثل»، كما يَلحَظُ تريفرز، يتمثّل بـ«الاستراتيجية المختلطة»، فحتى وإن كان الاستثمار طويل الأمد غايتهم الرئيسة، يُمكن

للغواية والهَجر أن تكون مفهومة من الناحية الجينية للذكر، بشرط ألّا تكلّفه الذرية التي استثمر فيها كثيرًا من الوقت والجهد. فقد يترعرع اللُّقطاء حتى بغياب الاستثمار الأبوي؛ وربما يجتذبون استثمار بعض المساكين الذين يظنّون أن هذا الطفل من صلبهم. لذلك لابد وأن الذكور في الأنواع مرتفعة الاستثمار الأبوي متيقظين دومًا لاستغلال الفرص الجنسية العابرة من الناحية النظرية.

ولابُدّ طبعًا أن نتوقع المثل من ذكور الأنواع منخفضة الاستثمار الأبوي. لكن هذا لا يرتقي ليكون استغلالًا، ذلك أن ليس للأنثى فرصة الحصول على المزيد من ذكر آخر. أمّا في الأنواع مرتفعة الاستثمار الأبوي، فللأنثى فرصة، ويُمكن أن يكون الفشل في الحصول على المزيد من أي ذكر مكلفًا للغاية.

ونتيجة هذه الغايات المتضاربة - كراهية الإناث للاستغلال وانجذاب الذكور له - ستكون سباق تسلّح تطوري. فقد يُفضِّل الانتقاء الطبيعي الذكور المُجيدين لخداع الإناث بشأن إخلاصهم المُستقبلي بينما يُفضِّل الإناث القادرات على ذلك الخداع؛ وكُلّما أجادَ طرفٌ استخدامَ سلاحٍ، أجاد الآخر استخدامَ نقيضه. إنها حلقة مُفرغة من الغدر والاحتراز، وإن اتخذت، في الأنواع الرقيقة بما يكفي، شكل قُبلات ناعمة أو همسات ودودة أو دلع بريء.

إنها حلقة مُفرغة من الناحية النظرية على الأقل. فتجاوز كل هذه التخمينات النظرية والانتقال إلى عالم الأدلة الملموسة - بإلقاء نظرة في الواقع على الجانب الدنيء المُتضمّن للقُبل والغزل - أمرٌ شائك. إذ لم يُحقِّق علماء النفس التطوريون سوى تقدّم ضئيل في هذا الجانب. والحقيقة: إن إحدى الدراسات وجدت في الذكور ميلًا لوصف أنفسهم بكرمٍ وجدارةٍ لا يستحقّونها، وكانوا في ذلك يُبالغون أكثر من الإناث. لكن قد لا يكون هذا النوع من التسويق المُضلّل سوى نصف القصة، أما النصف الآخر فإدراكه أصعب. ما لم يلاحظه تريفرز في ورقته البحثية المنشورة عام ١٩٧٢،

ثـم لاحظـه بعد أربع سـنوات، إن إحدى الطرق الفعّالة لخـداع أحدهم هي بتصديق كذبتك التي تقولها للآخر. وفي هذا السـياق أن تكون معميًا بالحبّ - أن تشعر بعاطفة عميقة لامرأة قد تُصبح، بعد بضع أشهر من الحمل، أقلّ جاذبيّـة بشـكل ملحوظ. وهـذا في الواقع مهرب أخلاقي عظيم بالنسـبة إلى الرجال المُصمّمين على نمط الإغواء المتقن والهجر القاصم وقت الكرب. إذ تراهـم يقولون بمُنتهى التأثّر بعد التعرض لشيء مـن الضغط، «لقد أحببتها في ذلك الحين».

ليـس معنى ذلك أن عواطف الرجل تُعاني من الضـلال المُزمِن، وأن كُلَّ غـرام هـو خـداع تكتيكي للذات. حيـث يفي الرجـال أحيانًـا بوعودهم في الإخـلاص الأبـدي. إلى جانب ذلك، من ناحيـة أخرى، فـإن الكذبة التامّة ضربٌ من المسـتحيل. فليس هناك طريقة لمعرفة ما يخبّئه المُستقبل في حالات الغـرام المتأرجحـة، سـواء أكان على المسـتوى الواعـي أو غير الواعـي. رُبّما سيظهر شريكٌ يُبشّر بخير من الناحية الجينية بعد ثلاث سنوات من الآن؛ ثم مرّة أخرى، قد يعاني الرجل من مصيبة خطيرة تتركه غير قابل للتسـويق، ما يجعل من زوجته أمله الوحيد للإنجاب. ولكن في مواجهة حالة الريبة بشأن مقدار الإخلاص الذي ينتظرنا، فقد يجد الانتقاء الطبيعي إلى جانب المبالغة، حيث يجعل من الجنس أمرًا أكثر ترجيحًا من دون فرض تكاليف للموازنة.

ربما توفّرت بعـض تلك التكاليف في البيئة الاجتماعية العاطفية لتطوّرنا. حيث لم يكن الرحيل عن المدينة، أو القرية على الأقل، مسـألة سـهلة في ذلك الوقـت، لذا فإن الوعود الكاذبة قد تلتصق بالرجل سريعًا - بشـكل التقليل من مصداقيته أو تقصير عمره حتى؛ والسـجل الأنثروبولوجي يتضمّن عدّة قصص لرجال انتقموا لبناتهم أو أخواتهم بعد تعرضهنَّ للخيانة.

كذلك لم يكن عدد النساء المُعرضات للخيانة كما هو في العالم الحديث إلى حد ما. فكما لاحظ ديفيد سيمونز، في مجتمع الصيد وجمع الثمار الأنموذجي، كُل رجل يحوز إمكانية اتخاذ زوجة لا يتوانى عن ذلك، وكل امرأة تبلغ سـنّ الإنجاب تُسـارع للزواج. ربما لم يكن هنالك مشـهد مزدهر للعازبين في بيئة

الأجداد، باستثناء واحد يتضمن فتيات مراهقات في أثناء المرحلة العقيمة بين الحيض الأول والخصوبة. يعتقد سيمونز بأن أسلوب حياة الأعزب المتودّد الحديث - إغواء النساء المتاحات قبل التخلي عنهنّ عامًا بعد آخر، من دون جعل أي منهن هدفًا للاستثمار الدائم - ليس بالاستراتيجية الجنسية المتميزة والمتطورة. ويحدث ذلك فقط حين تأخذ عقل الرجل بما فيه من تفضيل لتنوّع الشريكات الجنسيات فترميه في مدينة كبيرة تعجّ بتقنيات منع الحمل.

ومع ذلك، حتى إن لم تكن بيئة الأجداد مليئة بالنساء العازبات اللاتي يقضين يومهنّ الذي يتبع علاقة جنسية عابرة متذمّرات من مدى حقارة الرجال، فهناك أسباب للاحتياط ضد الرجال الذين يبالغون في إخلاصهم. لقد كان الطلاق أمرًا واردًا في مجتمعات الصيد وجمع الثمار؛ حيث يعقدُ الرجال العزم على الرحيل بعد تنشئة طفل أو اثنين، وربما يرتحلون إلى قرية أخرى. وغالبًا ما يكون تعدُّد الزوجات خيارًا واردًا. فقد يتعهّد الرجل بأن تظلّ عروسه محور حياته، ثم، وبمجرّد إتمام الزيجة، يقضي الزوج نصف وقته في محاولة اجتذاب عروس أخرى - أو الأسوأ، النجاح في الزواج من ثانية وتحويل موارده بعيدًا عن زوجته الأولى وأطفاله. بالنظر لمثل هذه الاحتمالات، يُمكن لجينات المرأة تحقيق أقصى فائدة ممكنة من التمحيص المُبكّر والدقيق لإخلاص الرجل المزعوم. على أي حال، يبدو أن قياس إخلاص الرجل جزءٌ لا يتجزأ من سيكولوجية المرأة؛ بينما تبدو سيكولوجية الرجل ميّالة أحيانًا إلى تسويق قراءة خاطئة.

أحد أسباب تحدّي إناث نوعنا للصور النمطية السائدة في أماكن أخرى من المملكة الحيوانية هو لمحدوديّة إخلاص الرجل - بمعنى أن لكل رجل وقتًا وطاقة محدودتين لاستثمارها على ذريته. إن إناث الأنواع منخفضة الاستثمار الأبوي - أي إناث معظم الأنواع الجنسية - ليست تنافسية جدًا تجاه بعضها بعضًا. وحتى لو تعلّقت قلوب العشرات منهنّ بالذكر الأوحد صاحب الجينات الأمثل، فإنه سيُحقّق ببالغ السرور أحلامهنّ جميعًا؛ ولن يمر وقت قبل انخراطهنّ في الجماع معه. أمّا في الأنواع مرتفعة الاستثمار

الأبوي كنوعنا، حيث يكون حُلُم الأنثى احتكار شريك أحلامها - وتوجيه مـوارده الاجتماعيـة والمادية نحو ذريتها - فمنافسـة الإنـاث لبعضهن بعضًا أمرٌ لا مفـرّ منه. بعبارة أخرى: يجعل الاسـتثمار الوالـديّ المرتفع من جانب الذكور الانتقاء الجنسي يعمل في اتجاهين في الوقت نفسـه. إذ لم يقتصر الأمر عـلى تطور الذكور للتنافس على بيوض الإناث النادرة؛ بل وتطوّرت الإناث أيضًا للتنافس على الاستثمار الشحيح للذكور.

مـن المؤكد أن الانتقاء الجنسي كان أكثر حدّة بين الرجال منه بين النسـاء. وقدّ فضَّلَ أنواع مختلفة من السمات عند كلا الجنسين. فبعد كل شيء، تختلف الأشـياء التي تفعلها النسـاء لكسـب استثمار الذكر عمّا يفعله الذكور سـعيًا لضمان الوصول الجنسي إلى النساء. (وأوضح الأمثلة التي يُمكننا الاستشهاد بها أن النساء لم تُصمَّمَ مثلًا للصراع الجسدي مع بعضهنّ بعضًا كما الرجال)، المسـألة بسهولة هي أن أيًا كان الشيء الذي يجب على أحد الجنسين فعله بغية نيـل ما يريـده من الجنس الآخـر، فعليه فعلـه بتلذُّذ. من الصعـب أن تكون الإنـاث في الأنـواع مرتفعة الاسـتثمار الأبوي كسـولة وسـاذجة، وأحيانًا ما يَكُنَّ أعداء طبيعيين لبعضهن بعضًا.

ما الذي يريده الذكور؟

سيكون من المُضلِّل قول: إن الذكور في الأنواع مرتفعة الاستثمار الأبوي انتقائيـون في اختيـار الشريـكات، ولكن مـن الناحية النظرية فهـم انتقائيون بنحـو انتقائي. أي إنهم سيسـعون من جانب إلى ممارسـة الجنس مع أي شيء يسـير عـلى قدمين حـين تتوفر لهـم فرصة سـهلة، حالهم حال ذكـور الأنواع منخفضـة الاسـتثمار الأبوي. ومـن ناحية أخرى فحين يتعلـق الأمر بالعثور على أنثى لأجل مشروع ارتباط طويل الأمد، يكون التعقّل منطقيًا؛ إذ يُمكن للذكور الاسـتثمار في عدد محدود من مشـاريع الارتباط طويلة الأمد في أثناء حياتهـم، لـذا فإن الجينـات التي سـيضيفها الشريك إلى المشروع - الجينات الخاصّة بالصحّة البدنية والدماغ وغيرها - تستحقّ التمعّن.

لقد وُصِف الفارق ببراعة في دراسة سُئل فيها الرجال والنساء عن الحد الأدنى للذكاء الذي يُمكن أن يتقبّلوه في شخص «يواعدونه». وكان متوسّط الإجابة للرجال والنساء على حدّ سواء: متوسّط الذكاء. وقد سُئلوا أيضًا عن مدى الذكاء الذي يريدون أن يروه في الشخص قبل الموافقة على مشاركته علاقة جنسية. قالت النساء: أوه، في هذه الحالة نريده أعلى من المتوسّط بما لا شكّ فيه طبعًا. بينما كان رد الرجال: أوه، في هذه الحالة، أقلّ من المتوسّط بما لا يقبل الشكّ بالطبع.

وبخلاف ذلك، صبَّت إجابات الرجال والنساء في المصبّ نفسه. إذ على الشريك الذي يرغبون بالمواظبة على مواعدته أن يكون أكثر ذكاءً من المتوسّط، وأن يكون ذكاء الشريك الصالح للزواج مرتفع نسبيًا. أكّدت هذه النتائج المنشورة في العام ١٩٩٠ توقّع تريفرز الذي تنبأ به في ورقة العام ١٩٧٢ عن الاستثمار الوالديّ. في الأنواع مرتفعة الاستثمار الأبوي، كتب: «لا بُدَّ وأن الذكر قد انتُقي ليُميِّز بين معاملة الأنثى التي يرغب بتخصيبها فحسب، والأنثى التي سيرغب بتربية صغاره ورعايتهم رفقتها. مع الأولى يصبح أكثر تركيزًا على الجنس واهتمامًا به وأقل انتقائية في اختيار شريكته الجنسية مقارنة بالأنثى، بينما في الحالة الثانية يكون أكثر انتقائية في اختيار شريكته، كما هو حالها معه».

وكما عرف تريفرز فإن طبيعة التمييز – إن لم تكن شِدَّته – يجب أن تظلَّ في تباين بين الذكور والإناث. فعلى الرغم من أن كليهما يبحثان عن الجودة الجينية، لكن الأذواق قد تتباعد من نواحٍ أخرى. وكما أن للمرأة سبب منطقي للتركيز على قدرة الرجل لتوفير الموارد، فللرجل سبب وجيه للتركيز على قدرة المرأة الإنجابية. وهذا يعني، من بين أمور عدّة، الاهتمام بعُمرِ الشريكة المُحتملة، حيث تنخفض الخصوبة عند بلوغ سنّ اليأس حتى تتلاشى نهائيًا فجأة. وآخر ما يتوقع علماء النفس التطوريون إيجاده أن تكون المرأة ما بعد سن اليأس جذابة في المتوسط بالنسبة إلى الرجال بما لا يقبل الشك، وهو ما لم يجدوه. (وفقًا لبرونيسلاف مالينوفسكي، فقد عدّ سكان جزيرة تروبرياند

ممارسة الجنس مع امرأة عجوز أمر «غير مهذب ومُضحك وقبيح»). وحتى قبل انقطاع الطمث، يظل العمر فارقًا، ولا سيما مع الشريك طويل الأمد؛ إذ كلما كانت المرأة أصغر، زاد عدد الأطفال الذين بإمكانها إنجابهم. في كل ثقافة من ثقافات بوس الـ٣٧، فضَّل الرجال الشريكات الأصغر (بينما فضّلت الإناث الشركاء الأكبر).

ربما تساعد أهمية صِبا الشريكة في تفسير اهتمام الذكور البالغ بالجاذبية الجسدية عند الزواج (وهو اهتمام لاحظه بوس في كل الثقافات الـ٣٧). إن «المرأة الجميلة» عمومًا – نعم، هكذا وردت بعد دراسة جمعت أذواق بدت متنوعة لرجال مختلفين – لها عيون واسعة وأنف صغير. وبما أن عينيها ستبدوان أصغر وأنفها أكبر مع التقدم بالعمر، فإن مكونات «الجمال» علامات على الشباب أيضًا، وبذلك على الخصوبة. وفي حين يُمكن للمرأة أن تكون أكثر انفتاحًا بشأن المظهر؛ فالرجل العجوز ليس مثل المرأة المُسنّة، إذ لا يزال خصيبًا.

وربما أحد الأسباب الأخرى وراء المرونة النسبية للنساء في تقييمها لجاذبية الوجه أن لها أشياء أخرى لتقلق بشأنها (بوعي أو بغيره)، مثل: هل سيُعيل الأطفال؟ حينما يرى الناس امرأة جميلة برفقة رجل قبيح، سرعان ما يفترضون أن الرجل ثريّ أو رفيع المكانة. لقد حقَّق الباحثون بالفعل في مسألة هذا الاستدلال الذي يفترضه الناس، وما ظهر أن استدلالهم غالبًا ما يكون صحيحًا.

حينما يتعلق الأمر بتقييم الشخصية – لِتَبيان ما إذا كان بإمكانك الوثوق بشريك – فقد يختلف كذلك استيعابُ الذكر عن الأنثى، ذلك أن نوع الخيانة المُهدِّدة لجيناته تُختلف عن مُهدِّدات جيناتها. وفي حين أن خوف المرأة الطبيعي سببه احتمال سحب استثماره معها، فإن خوف الرجل الطبيعي يتلخّص بوضع استثماره في غير محلّه. إذ لن تستمرَّ طويلًا جينات الرجال العاكفين على رعاية أطفال ليسوا من صُلبهم. أشار تريفرز عام ١٩٧٢ أن في الأنواع مرتفعة الاستثمار الأبوي وذات الإخصاب الداخلي: «لابدّ من تطوّر

تكيّفات للمساعدة في ضمان أن نسل الأنثى هو نسل الرجل أيضًا».

يبدو كل ما سبق نظريًا للغاية - وهو كذلك بالطبع. إلّا أن هذه النظرية، على العكس من نظرية حب الرجل أحيانًا لصناعة الوهم الذاتي المُتقن، يُمكن اختبارها بسهولة. فبعد سنوات من اقتراح تريفرز أن التقنيات المُضادّة للتديُّث رُبّما شُيّدت داخل الرجال، استطاع مارتن دالي ومارغو ويلسون إيجاد بعضها. حيث أدركوا أن في حال كانت الديانة الخطر الدارويني الأعظم للرجال، بينما الهجران هو الخطر الأعظم بالنسبة للنساء، فلا بُدّ للغيرة أن تختلف لدى الذكور عنها في الإناث. حيث تُركّز الغيرة الذكورية على الخيانة الجنسية، ويجب ألّا يتسامح الذكور معها؛ أمّا المرأة فمن باب قلّة استحسانها لنشاطات الشريك غير المنهجية، ذلك لتبديدها الوقت والموارد، يجب أن تكون أكثر اكتراثًا بالخيانة العاطفية - ذلك النوع من الاهتمام المغناطيسي تجاه امرأة أخرى بحيث يُمكن أن ينتهي في نهاية المطاف إلى تبديدٍ أكبر للموارد.

وقد تأكّدت هذه التنبؤات - عبر دهور من الحكم الشعبية ومجموعة ضخمة من البيانات المتراكمة في أثناء العقود القليلة الماضية. أكثر ما يدفع الرجال للجنون هو فكرة مشاركة شريكتهم السرير رفقة رجل آخر؛ غَيْرَ أنهم لا يهتمون بارتباط المرأة عاطفيًا مع غيرهم، أو خسارة جزء من وقت المرأة واهتمامها قدر اهتمامهنَّ لتلك الأمور. تجد الزوجات من جانبهنَّ أن الخيانة الجنسية البحتة من قِبَل أزواجهنَّ مؤلمة، وتكون استجابتهنَّ لها غاية في القسوة، إلّا أن تأثير الزمن عادة ما ينتهي بها إلى شنّ حملة هدفها تحسين النفس: إنقاص وزنها والتبرّج و«الفوز به من جديد»، بينما ينزع الرجال إلى الردّ على الخيانة بالغضب العارم؛ وحتى بعد هدوء العاصفة غالبًا ما يجدون صعوبة في تقبّل استمرار العلاقة رفقة الشريكة الخائنة.

بالنظر إلى الوراء، رأى دالي وويلسون أن هذا النمط الرئيس قد سُجِّلَ (وإن لم يكنّ مع التأكيد) من قبل علماء النفس التطوريين قبل ظهور نظرية الاستثمار الوالديّ لتفسيره. إلّا أن علماء النفس التطوريين أكدوا الآن هذا النمط بتفاصيل جديدة وموجعة. وضع ديفيد بوس أقطابًا كهربيّة على رجال

ونساء ثم طلب منهم تخيّل شركائهم بوضعيات مزعجة. حينما تخيّل الرجال الخيانة الجنسية، قفزت معدلات ضربات قلبهم قفزات كبيرة كتلك الناتجة عن شرب ثلاثة فناجين متتابعة من القهوة، حيث نالهم التعرّق وقُطّبَت حواجبهم. وحينما تخيلوا بدلًا من ذلك ارتباطًا عاطفيًا ناشئًا، هدأوا، على الرغم من عدم استطاعتهم بلوغ المستوى الطبيعي للهدوء. بينما مع النساء كانت الأمور معكوسة: حيث جَلَبَ تصوّر الخيانة العاطفية - إعادة توجيه الحب، وليس الجنس الكمالي - القدر الأعمق من الكرب النفسي.

إن المنطق الكامن خلف الغيرة الذكورية ليس كما كان عليه من قبل. في هذه الأيام تستخدم بعض الزانيات وسائل منع الحمل وبذلك عدم استغفالهنَّ أزواجهنَّ بحيث يقضون معهنّ عقدين من حياتهم وهم يرعون جينات رجل آخر. ولكن لا يبدو أن تحجيم هذا المنطق أدى إلى تحجيم الغيرة بالنتيجة. حيث بالنسبة إلى الزوج الاعتيادي فحقيقة استخدام زوجته واقيًا قبل مضاجعة مدربها في التنس لن يُمثِّل مصدرًا كبيرًا للعزاء.

إن المثال الكلاسيكي للتكيُّفِ الذي تجاوز منطقه هو حبُّ تناول الحلويات. حيث صُمِّمَ ولعنا بالحلويات لبيئة توفّرت فيها الفواكه ولكن لم تزل الحلوى لم توجد بعد. ولأن الولع بالحلويات صار يُسبب السمنة، يحاول الناس جاهدين التحكم بولعهم، وفي بعض الأحيان ينجحون بذلك. إلّا أن أساليبهم عادة ما تكون ملتوية، وقلّة قليلة هم الذين يجدونها سهلة؛ حيث الشعور الفطري أن الحلاوة تترك إحساسًا جيدًا غير قابل للتعديل إلى حد ما (باستثناء، على سبيل المثال، الاقتران المتكرر للطعم الحلو بصدمة مؤلمة). بالمثل فإن من الصعب للغاية محو المُحرّك الرئيس للغيرة. ومع ذلك يجد القليل من الناس في أنفسهم قدرة السيطرة على هذا المُحرّك، والأكثر أن القليلين يُمكن لهم السيطرة على بعض أشكال التعبير عنه، مثل العنف، عند توافر رادع قوي وإدراكهم له، كالسجن على سبيل المثال.

ما الذي تريده النساء أيضًا؟

قبل المضي قُدمًا لاستكشاف البصمة السيئة التي تركتها الدياثة على النفس الذكورية، ربما نتساءل عن سبب وجودها من الأساس. لماذا تتجه المرأة لخيانة الرجل إن لم يُعظِّم ذلك عدد ذريتها - وحتى في حال أدت خيانتها إلى تعظيم الذرية، فإنها في ذلك تخاطر بإثارة غضب شريكها وخسارة استثماره؟ أي مكافأة من شأنها تسويغ مثل هذه المُقامرة؟ هناك كثير من الإجابات المُحتملة على هذا السؤال، وأكثر مما يُمكنك تخيّله.

أولًا: هناك ما يسميه البيولوجيون «استخلاص الموارد»، إذا كان باستطاعة إناث البشر، أسوة بإناث الذباب القلّاب، استحصال هديّة بوصفها مُقابلًا للجنس، فسيتناسب عدد الشركاء الجنسيين طرديًا مع عدد الهدايا المستحصلة. ويعمل أقرب أقربائنا من الرئيسيات وفقًا لهذا المنطق. إذ غالبًا ما تكون أنثى البونوبو على استعداد لممارسة الجنس مقابل قطعة من اللحم. ويشيع بين مجتمع الشمبانزي مقايضة الجنس مقابل الطعام إلى حدّ ما؛ إذ يميل ذكور الشمبانزي إلى منح اللحوم للإناث عندما يظهر عليهنّ التورّم المهبلي الدالّ على الإباضة.

نساء البشر لا يُعلِنَّ بالطبع عن موعد إباضتهنّ. وأحد النظريات عن «الإباضة الخفية» تراها بوصفها تكيُّفًا صُمِّم لأجل مدّ المدة التي يُمكن لها استحصال الموارد في أثنائها. إذ قد يُغدق الرجال عليهنَّ بالعطايا قبل فترات طويلة من الإباضة أو بعدها بوصفها مُقابلًا للجنس، غافلين عن عُقم فتوحاتهم. تحدّثت نيسا، وهي امرأة في قرية كونغ سان! للصيادين جامعي الثمار، بصراحة مع أحد الأنثروبولوجيين عن المكافآت المادية للشركاء الجنسيين المتعددين. «لا يُمكن لرجل واحد أن يمنحك غير القليل فحسب. لا يُمكن له أن يمنحك غير نوع واحد من الطعام لتأكله. ولكن حين يكون لك عاشقون، فأحدهم يعطيك شيئًا بينما يمنحك الآخر شيئًا مُختلفًا. يأتي أحدهم إليك ليلًا حاملًا اللحم، وآخر يحمل النقود، وثالثٌ الخَرَز. زوجكَ كذلك يصنع أشياء ثم يمنحها لك».

والسببُ الآخر لُمجامعة النساء أكثر من رجل واحد مع ميزة أخرى للإباضة الخفية هي بترك الرجال تحت تأثير أن يكون كُل واحد منهم أبًا مُحتملًا لأحد ذريتها. فعبر أنواع الرئيسيات هناك علاقة تقريبيّة بين عطف الذكر على الصغار واحتمالات أن يكون والدهم. إذ يُمكن لذكر الغوريلا المُهيمن، بمكانته الجنسية السامية، الاطمئنان إلى حد كبير لكون صغار قطيعه من صُلبه؛ وعلى الرغم من صعوبة مقارنة ما يُبديه من عطف بالآباء البشريين، إلّا أنه يُبدي تساهلًا معهم ويحرص على حمايتهم. وفي الطرف الآخر من الطيف، يقتل ذكور قردة اللانغور الصغار الرُّضّع الذين أنجبهم آخرون بوصفه نوعًا من كسر الجمود الجنسي، تمهيدًا للاقتران مع الأم (السابقة). وأي طريقة أفضل من تلك لإعادتها إلى الإباضة – عبر وضع حدّ لفترة رضاعتها – وتركيز طاقتها على الذرية المُقبلة؟

ولو أبدى أحدهم استعدادًا للتلويح باتهامات كُبرى عن أخلاقيات اللانغور عليه أولًا معرفة أن وأد مواليد الخيانة الزوجية يُعدُّ أمرًا مقبولًا في كثير من المجتمعات البشرية المختلفة. ففي اثنين من المُجتمعات يُطالِب الرجال المتقدمين للزواج من نساء لهنَّ ماضٍ أن يقتلنَ أطفالهنّ. وبين مجتمع الأنتشي للصيادين وجامعي الثمار في البارغواي، يقرر الرجال بشكل جماعي أحيانًا قتل مولود حديث لا أب له. وحتى بوضع القتل جانبًا، تظل حياة الأطفال غير المترعرعين في ظل أب مُخلص صعبة للغاية. إذ تهبط احتمالات بلوغ الأطفال المترعرعين في كنف أزواج أمهاتهم بعد وفاة آبائهم البيولوجيين سنَّ الخمسة عشرة إلى النصف مقارنة بأقرانهم المترعرعين بين أبويهم البيولوجيين. وبالنسبة إلى امرأة تعيش في بيئة الأسلاف، يُمكن لفوائد الاقتران مع شركاء جنسيين مختلفين أن تتراوح من عدم قتلهم لصغارها إلى الدفاع عنهم، أو إعالتهم على أقل تقدير.

لا يعتمد هذا المنطق على التمعُّن الواعي للشركاء الجنسيين بالأمر. فذكور الغوريلا واللانغور، مثلهم مثل سكان جزيرة تروبرياند الموصوفين من قبل مالينوفسكي، غير مدركين لأبوّتهم البيولوجية. ومع ذلك فإن سلوك الذكور

في جميع الحالات الثلاث يعكس اعترافًا ضمنيًا. لقد ازدهرت الجينات التي تجعل الذكور حسّاسين لا شعوريًا للملامح المُشيرة إلى عائدية بعض الصغار لهم من عدمها. إن الجين الذي يقول، أو على الأقل يهمس: «كُن عطوفًا على الصغار إذا ما حظيت بقدر كافٍ من الجنس مع أمهم» سيأتي بنتائج أفضل من الجينات التي تقول: «اسرقْ الطعام من الأطفال حتى وإن كنت تمارس الجنس بانتظام مع أمهم قبل أشهر من ولادتهم».

وقد ناصرت عالمة الأنثروبولوجيا سارة بلافير هيردي نظرية «بذور الالتباس» هذه عن لخبطة النساء. وصفت هيردي نفسها بأنها عالمة أحياء اجتماعية نسوية، وربما تتجاوز اهتماماتها العلم عند جدالها أن إناث الرئيسيات تميل كي تكون «غايّة في التنافسية. . .وحازمات جنسيًا على المستوى الفردي.» ثم مرّة أخرى، قد يشعر الداروينيون الذكور بالإثارة من القول: الذكور مجبولون على خوض الماراثونات الجنسية طوال الحياة.

تنبع النظريات العلمية من مصادر عدّة، والسؤال الوحيد الصالح في النهاية هو أيها يعمَل حقًا؟ يُمكن لكلا هاتين النظريتين عن لخبطة النساء - «استحصال الموارد» و«بذور الالتباس» - من حيث المبدأ أن ينطبقا على النساء العازبات والمتزوجات على حدّ سواء. في الواقع يُمكن لكلا النظريتين أن تكونا منطقيتين بالنسبة إلى الأنواع الضئيلة أو معدومة الاستثمار الأبوي، وبذلك ربما يُساعدان في تفسير اللخبطة الشديدة لإناث الشمبانزي والبونوبو. لكن هناك نظرية ثالثة انبثقت بتفرّد من ديناميكيات الاستثمار الأبوي، وبذلك لديها تطبيق خاص على الزوجات: نظرية «أفضل العالَمين».

لدى الأنواع مرتفعة الاستثمار الأبوي، تبحث الأنثى عن شيئين: الجينات الجيدة والاستثمار المستمر المُرتفع. ربما لن تجد كليهما في الشخص نفسه، وأحد الحلول لتدارك ذلك عبر خداع شريك مُخلص يفتقر إلى القوّة أو الذكاء من أجل تربية ذُرّيّة ذكر آخر معها. مرة أخرى قد يكون في الإباضة الخفية فائدة، بوصفها مُيسّرًا للخيانة الجنسية. من السهل على الرجل إلى حد ما منع منافسيه من إخصاب رفيقته في حال كانت مرحلة الخصوبة الوجيزة

واضحة للعين؛ ولكن في حال بدت عليها ملامح خصوبة متساوية طوال الشهر، فإن المراقبة الحثيثة تصبح مُشكلة. وهذا بالضبط هو نوع الالتباس الذي ترجو الأنثى أن تخلقه إن كان هدفها جذب استثمار أحدهم وجيناتُ أحدٍ آخر. قد لا «ترغب» الأنثى بهذا «الهدف» عن وعي بالطبع، وقد لا تكون واعية لموعد إباضتها، لكن ربما تكون متابعة لمواعيدها بمستوى معين.

قد تبدو النظريات المنطوية على كثير من الحيل اللاواعية غاية في الذكاء لدرجة الاعتداد، ولا سيما بالنسبة إلى غير المنغمسين في المنطق اللامُبالي للانتقاء الطبيعي. لكن هناك بعض الأدلة على أن النساء أكثر نشاطًا من الناحية الجنسية في مرحلة الإباضة. وقد وجدت دراستان أن النساء المتوجهات إلى حانات العزّاب يبالغن في تبرجهنَّ وزينتهنَّ حينما يكُنَّ قريبات من وقت الإباضة. يبدو أن لهذه البهارج ذاتُ القيمة التسويقية التي لتورّم الأعضاء التناسلية الورديّة عند الشمبانزي، ما يجذبُ عددًا من الذكور ناحية امرأة كي تختار بينهم. وقد تميل تلك النسوة المُبهرجات إلى إجراء مزيد من التواصل الجسدي مع الرجال في أثناء السهرة.

وجدت دراسة أخرى أجراها البيولوجيان البريطانيان ر. روبن باكر ومارك بيليس زيادة في معدل خيانة النساء اللاتي يَخُنَّ شُركاءهنَّ في أثناء وقت الإباضة. وهذا يقترح أنهنَّ لا يسعينَ لاستحصال موارد العاشق فحسب، بل وجيناته كذلك.

وأيًا كان سبب (أو أسباب) خيانة النساء لشُركائهنّ (أو كما يصفهم البيولوجيون بحياد «شُركاء الفراش الإضافيون»)، فليس هناك من يُنكر فعلهنَّ لذلك. تُظهر فحوصات الدم أنه في بعض المناطق الحضرية أكثر من رُبع الأطفال هم من صُلب رجل غير الأب المُسجَّل في سجلّاتهم. وحتى في قرية الكونغ سان!، والتي تُعدُّ حميميّة للغاية لدرجة يصعب فيها سَترُ شيء كحال بيئة أسلافنا، وجِدَ أن طفلًا من بين كلّ خمسين كان يترعرع في كنف والد مُضلَّل. يبدو أن لخيانة النساء تاريخ طويل.

في الواقع إذا لم تُمثّل خيانة الإناث جزءًا قديمًا متجذرًا من حياة في هذه

الأنـواع، فلـماذا تطوّرت الغيـرة الذكورية الجنونية البارزة؟ في الوقت نفسـه فإن اسـتثمار الرجال المُكثَّف في أطفـال شريكاتهم يُلمّح إلى أن الدياثة لم تكن واسـعة الانتشـار؛ فلو كانت كذلك لـما صمدت الجينات المُشـجّعة على هذا الاسـتثمار ولانقرضـت مُنـذ حين. إن عقـول الرجال بمثابة سـجل تطوري لسلوك النساء في الماضي، والعكس صحيح.

لو بدا أحد السـجلات «النفسـية» غامضًـا للغاية، إذن عليـك الالتفات ناحيـة البيانات الفسـيولوجية الواضحة: الخصيتان البشريتـان – أو بصورة أدق، متوسّـط وزن الخصيتين بالنسـبة إلى متوسـط وزن الجسم. تملك ذكور الشمبانزي وغيرها من الأنواع الأخرى ذات الخصي عالية الأوزان في المتوسط «أنظمة تكاثر مُتعـدّدة الذكور»، حيث تكون الإناث غاية في الانحلال. بينما تكون الأنواع ذات الخصيّ منخفضة الوزن نسبيًا إمّا أحادية الزواج (البونوبو على سبيل المثال) أو متعدّدة الزوجات (كالغوريلا)، حيث يحتكر ذكر واحد مجموعة من العوائل. (إن تعدد الزوجات هو المصطلح الأكثر شيوعًا، ويشير إلى ذكر، أو أنثى، له أكثر من شريك). والتفسير سهل. عندما تتكاثر الإناث مـع ذكـور عدّة مختلفـين، يُمكن لجينـات الذكـر الانتفاع من إنتـاج كثير من الحيامن لأجل الرحلة التي سـيقطعونها. قد يكون تحديد أي الذكور سينجح بإيصـال حمضـه النـووي لبويضة معينة مسـألة تتعلق بالكـمّ الهائل، ذلك أن جحافل من المني ستتنافس في معركة خفيّة. وبذلك فإن خصي الأنواع بمثابة سـجلّ لمغامرات إناثهم الجنسية على مرّ الدهور. في أنواعنا يقع متوسّط وزن الخصيتين بين الشـمبانزي والغوريلا، ما يقترح أن نسـاءنا مغامرات إلى حدّ ما، على الرغم من أنهنَّ لسن بجموح إناث الشمبانزي.

لا تعني المغامرة الخيانة بالطبع. ربما كان للنسـاء في بيئة الأسـلاف فترات عزوبيـة جامحـة – في أثنـاء المرحلة التـي كان فيها لخصيتي الرجـال الثقيلتين فائدتهـما – مثلـما كانت لهنّ مراحل إخـلاص أحادية الـزواج. ومرة أخرى، ربما لم يكن الأمر كذلك. خذ بعين النظر سـجلًا أصدَق لخيانة الإناث: كثافة المنـي المُتقلّبـة. قد تعتقـد أن عدد خلايا المني في قذفة الـزوج تعتمد فقط على

كـم مـن الوقت مرّ منذ آخر مرّة مارس فيها الجنس، وهذا خطأ. وفقًا لعمل أجراه باكر وبيليس، تعتمد كميّة المنيّ بشكل كبير على مـدّة غياب شريكة الرجل عن نظره مؤخـرًا. فكلـما زادت احتمالات جمع المـرأة منيًا من رجال آخرين، كلما زادت غزارة الجحافل التي من شـأن رفيقها قذفها. مرة أخرى: إن تصميـم الانتقاء الطبيعي لمثل هذا السـلاح الذكـي دليل على وجود شيء يجب محُاربته بهذا السلاح.

وهـو دليـل أيضًا عـلى مقـدرة الانتقـاء الطبيعي تصميم أسـلحة نفسـية حذقـة، تـتراوح من الغيرة الغضـوب وصولًا إلى الميـل المتناقض لدى بعض الرجال كما يبدو للاسـتثارة الجنسية عند تخيّل شريكتهم في الفراش مع رجل آخـر. أو بشـكل أعمّ: ميل الرجال لرؤية النسـاء بِعَدِّهـن ممتلكات. في ورقة صـادرة عام ١٩٩٢ بعنوان «الرجل الذي ظـنَّ زوجته مُلكيّة خاصة»، كتب ويلسـون ودالي بـأن «الرجـال يدّعون ملكية امـرأة بعينها كـما تدّعي الطيور المغـرّدة ملكيتهـا لأراضٍ، ومثلما تدّعي الأسـود مُلكيتها لفريسـة، أو الناس من كلا الجنسـين لنفائسٍ ما. . . . [إن الإشـارة إلى رؤيـة الرجل للمرأة بأنها 'مُلكيّة' يتجاوز المجاز: حيث يبدو أن بعض الخوارزميات العقلية تَنشَطُ في المجالات الزوجية والتجارية على حدّ سواء]».

الزُّبْدة النظرية لكل ما سبق هو سـباق تسـلّح تطوّري آخر. إذ بينما صار الرجـال أكثر وعيًا بتهديد الخيانة، يجب على النسـاء صَقلُ قدرتهنَّ على إقناع الرجـل أن عبادتهـنَّ له أقـربُ للرهبة، وإخلاصهـنَّ أقرب للقداسـة. وربما يُقنعـنَ أنفسـهنَّ جزئيًـا بذلـك أيضًـا، لُمجـرَّد الظهور بـأداءٍ أكثـر إقناعًا. في الواقع، ونظرًا لتداعيات الخيانة الزوجية الكارثية التي سـبق أن كشـفنا عنها - الهجـران المُحتمل من قِبل الرجـل المُتعدّى عليه بالخيانة، والعُنف المُحتمل ضـد الخائنة - فقَـد يُصقَلُ خداع الـذات الأنثوي ببالغ الإتقـان. ربما يكون تَكيّفًا بالنسـبة إلى المرأة المتزوّجة أن لا تعاني اهتمامًا مُزمنًا بالجنس، حتى وإن كان عقلهـا اللاواعي يتتبع الفُرص المُحتملة ويُبلِّغها بالفُرص التي تسـتحقُّ المُغامرة.

يُمكـن أن تكـون التقنيـة المُضادّة للخيانـة مُفيدة لا عندمـا يكون للرجل رفيقـة فحسـب، بـل وفي وقت مُبكّـر خلال اختيـاره لها. لـو تباينت الإناث المتاحات في درجة انحلالهنَّ، وإن زاد احتمال صناعة المُنحلّات زوجات أقلّ إخلاصًا، فقد يدفع الانتقاء الطبيعي الرجال للتمييز بينهنَّ وفقًا لذلك. فربما يكـون مُرحَّبًا بالنسـاء المُنحلّات بوصفهن شريكات جنسيات في العلاقات قصيرة الأمد - وقد يَكُنَّ في هذا مُفضَّلاتٍ واقعًا من بعض النواحي لإمكانية الحصول عليهنَّ بأقل مجهود. لكنَّهنَّ سيصنعن زوجات متواضعات، قنوات مَشبوهة لبذل الاستثمار الأبوي فيهنّ.

مـا هـي الآليـات العاطفيـة - أيُّ مزيـج للجـذب والنفـور - التـي قـد يسـتخدمها الانتقاء الطبيعي من أجـل حث الذكور على اتباع هذا المنطق من دون فهم؟ مثلما لحظ دونالد سيمونز، فإن أحد المُرشّحين هو الثنائية الشهيرة لمادونّـا والعاهـرة، ميـلُ الرجـال إلى التفكـير من منظـور هنـاك «نوعان من النساء» - النوع الذي يحترمونه، والآخر الذي يضاجعونه فحسب.

قـد يتخيّل أحدهم التودّد بعدّه - بـين عدّة أمور- عملية وضع الأنثى في فئـة أو ضمن أخرى. وقد يجري الاختبار على النحو الآتي. إذا وجدت امرأة تبدو مناسـبة للاسـتثمار جينيًا، ابدأ بقضاء مزيد من الوقت رفقتها. إن بدت مأخـوذة بـك، وظلّت على الرغم من ذلك مُتحفّظة جنسـيًا، فابْقَ معها. ولو بدت، على الجانب النقيض، مُتلهّفة لممارسة الجنس معك فورًا، فألزمها بذلك عـبر كافة الوسـائل. ولكن في حـال جاء الجنس بسـهولة بالغـة، ربما عليك التحوّل من وضع الاسـتثمار إلى الاسـتغلال. إذ قد يعني تلهّفها أنها سـتظل سهلة الغواية دومًا - وليست تلك بالسمة المرغوبة في الزوجة.

في حالة أي امرأة معينة، قد لا تعني اللهفة الجنسية دائمًا أنها ستكون سهلة الغوايـة بالطبـع؛ لربما قـد وجدت أن هـذا الرجل بعينه لا يقـاوم. ولكن في حـال كان هناك ارتباط بين سرعة خضوع المـرأة للرجل واحتمالات خيانتها له لاحقًا، إذن فما هذه السرعة سـوى إشـارة صحيحة إحصائيًا على عواقب

جينيـة كارثية. يلاعب الانتقاء الطبيعي الاحتمالات مواجهًا تعقيد السـلوك البشري وتَقلُّباته المُتكرِّرة.

ولأجـل إضافـة مقدار ضئيـل فقط من القسـوة إلى هذه الاسـتراتيجية: قد يُشـجّع الذكـرُ المرأة على ممارسـة الجنس معـه مُبكرًا فقط ليُعاقبهـا على ذلك في النهايـة. ما هي أفضل الطـرق للتحقّق من نوع التحفُّظ الثمـين هذا لدى المرأة القيّمـة لدرجـة رغبتك في الاسـتثمار معهـا بأطفالك؟ وفي حال ثبُـتَ افتقارها للتحفُّـظ، فـأي الطرق هي الأفضـل لبَذْرِ جيناتك قبـل التحـوّل إلى تُربةٍ أكثر قيمة؟

في شـكله المرضي المُتطرّف - عُقدة مادونّـا والعاهرة - يترك هذا الانفصال بين النسـاء الرجـل غير قادر على ممارسـة الجنس مع زوجته، على قـدرِ ما تبدو عليه من قُدسـية. من الواضح عدم تفضيل درجة القُدسـية من جانب الانتقاء الطبيعي كما يبدو. لكن النسخة الأكثر شيوعًا واعتدالًا من تمييز مادونّا والعاهرة تحمـل في طيّاتهـا خصائص تكيّفية فعّالة. إذ تقود الرجـال لأن يصبّوا وابلًا من الإخـلاص التعبُّدي على النسـاء المُتحفّظات جنسيًا اللاتي يريدون الاسـتثمار فيهنّ - نوع الإخلاص الذي تطالب به تلك النسـوة قبل مطاوعتهم في ممارسة الجنس بالضبـط. ويتيـح للرجال كذلك اسـتغلال النسـوة الـلاتي لا يريدون الاستثمار فيهنّ من دون شعور بالذنب، عبر وضعهنّ ضمن فئة مُزدراة. وهذه الفئة الشـاملة - فئة المكانة الأخلاقية المتدنّية، وشبه الإنسانية أحيانًا - هي، كما سـنرى لاحقًا، أداة مفضلة للانتقاء الطبيعي؛ إذ يتمّ استخدامها بفعّالية في أثناء وقت الحروب على نحو خاص.

يُنكـر الرجـال أحيانًا، من مُنطلق الكياسـة، تفكيرهـم بطريقة غير لائقة في النساء اللاتي نِمنَ معهم عرضيًا. وهم حكيمون بفعلهم ذلك. إذ إن الاعتراف بذلـك قد يبدو رجعيًا مـن الناحية الأخلاقية. (حتى إن الاعتراف بذلك القدر لأنفسهم قد يُصعّب من مهمّة طمأنة المرأة المعنية بالجدّية اللازمة على أنه سيظلّ على احترامه لها حتى الصباح - ويُمثل ذلك أحيانًا جزءًا حيويًا من المُداعبة).

وكما يُمكن لكثير من الزوجات المُعاصرات الشـهادة، فإن مُضاجعة الرجل

في وقت مُبكّر من التودّد لا يقضي بالضرورة على احتمالية الالتزام طويل الأمد. حيث يُفترض بتقييم الرجل (غير الواعي إلى حد كبير) لإخلاص المرأة المُحتمل تضمُّن أشياء كثيرة - مثل سُمعتها، وكيف تنظر إلى الرجال الآخرين، ومدى ما تظهر عليه من أمانة عمومًا. وعلى أي حال، فحتى من الناحية النظرية، لا ينبغي أن يكون عقل الذكر مُصمّمًا لاتخاذ العُذرية شرطًا أساسيًا من شروط الاستثمار. فاحتمالات العثور على زوجة عذراء تتباين من رجل لآخر ومن ثقافة لأخرى - وبالحكم على مُجتمعات الصيد وجمع الثمار الحالية، يُمكن القول إن احتمالات العثور عليهنّ في بيئة الأجداد كانت مُنخفضة للغاية. يُفترض أن الذكور مُصمّمون لبذل قصارى جهدهم طبقًا لظروفهم المُحيطة. فعلى الرغم من أن رجال إنكلترا الفكتورية المُفرطة في التحفّظ أصرّوا على اتخاذ زوجات عذراوات، فإن مصطلح ثنائية مادونّا والعاهرة تسميةٌ خاطئة لما هو ميل عقلي أكثر مرونة بما لا يقبل الشكّ.

على الرغم من ذلك فإن للمرونة حدود. هناك مستوى مُعيّن للانحلال والذي في حال تمّ تجاوزه يفقد الاستثمارُ الوالديّ من جانب الذكر معناه الجيني. إذ لو بدا على أنثى أن لها عادة غير قابلة للتقويم في مُضاجعة رجل كُل أسبوع، فإن حقيقة ممارسة جميع نساء ثقافتها ذات الأمر لا يجعل من فكرة صلاحيتها بوصفها زوجة أمرًا مُتقبّلًا. في مثل هذا المُجتمع، يجب على الرجال نظريًا التخلّي تمامًا عن بذل الاستثمار الوالديّ والتركيز فقط على محاولة مُضاجعة أكبر قدر ممكن من النساء. وبذلك يجب عليهم التصرّف مثل الشمبانزي.

الساموائيون الفيكتوريون

لطالما نُبِذَت ثنائية مادونّا والعاهرة بعدّها مُنتجًا مَرضيًا من منتجات الثقافة الغربية وانحرافاتها. ويتحمل الفيكتوريون على وجه الخصوص، باهتمامهم المُفرط في العُذرية وازدرائهم المُعلَن للجنس غير الشرعي، مسؤولية تغذية، بل وحتى ابتكار، هذا المرض. لو كان الرجال أيام داروين أكثر استرخاءً بشأن الجنس فقط، كما هو حال الرجال في المُجتمعات غير

الغربية المتحررة جنسيًا، كم كانت الأمور لتختلف الآن!

المشكلة أن هذه المجتمعات الفردوسية غير الغربية يبدو أنها موجودة فقط في عقـول قلة من الأكاديميين المُضلّلين، وبعض منهم مؤثرون. ومارغريت ميد أحد الأمثلة الكلاسيكية على ذلك، وهي واحدة من عدّة أنثروبولوجيين بارزين، حيث كانت ردّة فعلها تجاه إساءة الاستخدام السياسي للداروينية في بداية القرن بالتشـديد على قابلية تطويع النـوع البشري والتأكيد على الغياب شبه الكلي للطبيعة البشرية. أحدث كتاب ميد الأشهر، Coming of Age in Samoa، ضجـة كبيرة عقب صدوره عام ١٩٢٨. إذ بدت كأنها وجدت ثقافـة تخلـو تقريبا مـن أغلب الـشرور الغربيـة: التسلسـل الهرمـي للمكانة والتنافسـية الحادّة وجميع أنواع الهوس غير الضروري المتعلّق بالجنس. كتبت ميد أن في ساموا تُرجِئ أغلب الفتيات الزواج «لأكبر عدد ممكن من سنوات ممارسـة الحب العرضي الممكنة»، حيث الحـب الرومانسي «المُتعارف عليه في حضارتنـا،» المرتبط بأفكار عن «الاسـتئثار والغيرة والإخـلاص المُطلق، لا يُتعامَلُ معه بذات الطريقة في ساموا.» يا له من مكان رائع!

من الصعب تعظيم أثر اكتشافات ميد على فكر القرن العشرين. فدائما ما تكون الادعاءات عن الطبيعة البشرية مُتقلقلة، وعرضة للنقض باكتشاف أي ثقافة مُفردة تفتقر إلى عناصرها التأسيسـية. وفي أثناء مُعظم القرن العشرين، قوبلت مثل هذه الادعاءات بسؤال واحد، وهو: «ماذا عن ساموا؟»

في العـام ١٩٨٣ نـشر الأنثروبولوجـي ديريـك فريـمان كتابًـا بعنـوان Margaret Mead and Samoa: The Making and Unmaking of an Anthropological Myth. قـضى فريـمان قرابة الســت أعوام في سـاموا (في حين قضت ميد قبله تسـعة أشـهر، ولم تكن تتحدّث لغتهم حين وصولهـا)، وكان ضليعًـا في تاريخها المُبكّر، قبل أن يُغـيّر التواصل الغربي من فصوله كثيرًا. ترك كتابه سُمعة ميد عن كونها أنثروبولوجيّة عظيمة في فوضى عارمـة. إذ صوّرها بوصفها سـاذجة مثاليّة بعمر ٢٣ ربيعًا ذهبت إلى سـاموا وهي غارقة في حتمية ثقافية عصرية، واختارت أن لا تعيش وسـط السـكان

المحلّيين، ثم، بالاعتماد على بياناتها المُستخلصة من المقابلات المُجدولة، خُدعت من قبل فتيات ساموا اللاتي مارسن لُعبة هدفها تضليلها. هاجم فريمان بيانات ميد على نطاق واسع - الشحّة المزعومة في المنافسة على المكانة، النعيم البريء المحيط بمراهقي ساموا - ولكن الجنس هو ما يخصُّ غرضنا الحالي: الأهمية الهامشية المزعومة للغيرة وحب الاستئثار لدى الذكور، واللامبالاة المُفترضة للرجال بثنائية مادونّا والعاهرة.

في الواقع، عند الفحص الدقيق، تبيَّن شيئًا فشيئًا أن النتائج التي توصلّت إليها ميد كانت أقل تطرّفًا مقارنة بتعميماتها البرّاقة التي ذاع صيتها على نحو واسع. حيث اعترفت لاحقًا أن الذكور الساموائيون يتفاخرون بغزوهم العذراوات. وأشارت كذلك إلى أن لكل قبيلة عذراءها الطقسية - فتاة نقيّة النسل، غالبًا ما تكون ابنة لرئيس القبيلة، والتي تظلّ خاضعة لحراسة دقيقة حتى يوم زفافها، حيث تُفتحُ بُكارتها يدويًا، ومع انبثاق دماء غشائها تثبت عذريتها. إلّا أن هذه الفتاة، كما تُصرُّ ميد، تُعدُّ انحرافًا، استثناءً من «التجربة الحرّة والسهلة» التي كانت القاعدة. حيث «يتجاهل» الآباء متدنّو المكانة «عن طيب خاطر» تجارب بناتهم الجنسية. اعترفت ميد على مضض من أمرها أن اختبار العذرية كان يُجرى «نظريًا» في «زفافات الناس من شتّى الرُتَبْ»، لكنها نبذت الطقس بوصفه أمرًا يسهل تجنّبه في الغالب.

تفحَّص فريمان ملاحظات ميد الأكثر هدوءًا ثم أشار إلى فشلها التامّ في ملاحظة بعض الأشياء. حيث كتب أن قيمة العذارى كانت عظيمة في عيون المُقدمين على الزواج لدرجة خضوع المراهقات من أي مرتبة لرقابة إخوتهن، الذين لن يتوانوا عن «تخويفها، بل وضربها حتّى» إذا ما صادفوها رفقة «صبيّ يُشتبه بتشكيله تهديدًا لعذريتها»، وبالنسبة إلى الصبي المُشتبه به، فقد كان «عُرضة للاعتداء الشرس»، وفي بعض الأحيان، كان الشبّان الذين يُحققون نتائج سيئة في لُعبة المواعدة، يتسلّلون ليلًا بنيّة فضّ بكارة امرأة بالقوّة، ثُمَّ التهديد بفضح فَسادها ما لم توافق على الزواج بهم (ربما عبر الفرار مع المُعتدي، وهي الطريقة الأمثل لتجنّب اختبار العذرية). إن

مـن يُكتشـف افتضاضها يـوم زفافها تُسـتنكَرُ علنًا بمُصطلح يعنـي، تقريبًا، «عاهرة». في تقاليد سـاموا، توصـف المرأة المُفتضّة بأنّهـا «فاجرة مثل صدفة جوفاء كشفها انحسارُ المَدّ!» وتجري الأغنية التي تؤدّى في أثناء طقوس فضّ البـكارة بالنحو الآتي: «الجميع فشـل في الولوج، الجميع فشـل في الولوج. . . . هـو أوّل الواجـين، الوالـج الأول هو؛ حيّوا الوالج الأول!» هذه ليسـت بالسِمات المُميّزة لثقافة يُفترض أنها مُتحرّرة جنسيًا.

يبـدو الآن أن بعـض الانحرافـات الغربيـة المزعومـة التي وجـدت ميد أن سـاموا تفتقـر لها قـد قُمعت عبر التأثـير الغربي تحديدًا. لاحـظ فريمان أن المبشّريـن جعلـوا من اختبـار العذرية أقل علانية – حيث صـار يُجرى داخل المنزل وراء السـتار. في «الأيام السـالفة،» مثلما كتبت ميد نفسـها، لو وجد في أثناء الاحتفال الطقسي أن عذراء القبيلة ليست بعذراء، «تنهال عليها قريباتها الإنـاث بالحجارة، ما يؤدي إلى تشـويهها أو ترك الفتاة التي جلبت العار على أهل بيتها بجروح مميتة».

كذلك الأمر مع غيرة الساموائيون التي، مثلما شدَّدَت ميد، كانت مُكمَّمة للغايـة بسـبب المعايير الغربية: ربما يكون الغربيّون هـم من كمَّموها. لَحَظت ميـد أن الزوج الذي يقبض على زوجته وهي تزني قد يتم إرضاؤه عبر طقس غـير مؤذٍ والـذي ينتهي لاحقًا بجوٍّ مـن المودّة كما وصفـت. كما ويصطحب الذكـر المُتعـدّي رجالًا من أهله ويجلس خارج منـزل الزوج الضحية بتضرّع عارضًـا حُليًّا بوصفهـا تعويضًا حتى يأتيه الغفران ويدفـن الجميع أحقادهم عـلى وجبة عشـاء. «في الأيام السـالفة» بالطبع، كما لَحَظَت ميـد، كان الرجل المُتعدَّى على زوجته قد «يتناول هراوة وصُحبة من أقاربه بنيّة قتل الجالسـين خارج بابه».

لقـد صار هذا العنـف أقلَّ تواترًا في ظـل التأثير المسـيحي وذلك بالطبع شـهادة على قابلية الإنسـان للتطويع. ولكن لو أردنا في أي وقت سـبر أغوار المتغـيّرات المُعقّدة لقابلية التطويع تلك، علينا الاسـتيضاح بشـأن أيُّهما النوع الأصيـل وأيهـما التأثـير المطوّع. لقـد فهمت ميد مـرارًا وتكـرارًا، إلى جانب

مجموعتها المتكاملة من الحتميّين الثقافيين لمنتصف القرن العشرين، الأمور عكسيًا.

لكن الداروينية ستساعد على تصويب الأمور. حيث يعكف جيلٌ جديد من الأنثروبولوجيين الداروينيين على مزج الإثنوغرافيا القديمة وإجراء دراسات ميدانية جديدة مُكتشفين أشياء لم يهتم إليها أنثروبولوجيو الماضي أو يلاحظوها حتى. كثير من المرشّحات لصالح «الطبيعة البشرية» أخذت في الانبثاق، وثنائية مادونّا والعاهرة أحد أكثرها صلاحيّة. في الثقافات الشاذّة، بدءًا من ساموا مرورًا بمانغايا ووصولًا إلى أرض الآتشي في أمريكا الجنوبية، تُعدُّ سمعة الانحلال الجنسي شيئًا يحاول الرجال جاهدين تجنّبه وقت اقترانهم طويل الأمد. ويكشف تحليل فلكلوري أن ثنائية «الفتاة الطيّبة/ السيّئة» صورة متواترة مُزمنة – في الشرق الأقصى والدول الإسلامية وأوروبا، بل وحتى أمريكا ما قبل كولومبوس.

في أثناء هذا الوقت، وجد ديفيد بوس في مختبر علم النفس دليلًا على تمييز الرجال بين الشريكات قصيرات وطويلات الأمد. فالعلامات المُشيرة إلى الانحلال (الألبسة الخليعة أو لغة الجسد العدوانية ربّما) تجعل النساء أكثر جاذبية بوصفهن رفيقات للمدى القصير وأقل سحرًا بوصفهن شريكات للمدى الطويل. بينما الإشارات الدالّة على فقر في التجربة الجنسية تعمل في اتجاه مُعاكس.

في الوقت الحالي تستند الفرضية القائلة بأن ثنائية مادونّا والعاهرة لها على الأقل بعض الأسس المتأصلة في الطبيعة البشرية إلى توقّعات نظرية قوية وأدلّة أنثروبولوجية ونفسية جديرة، على الرغم من صعوبة وصفها بالمُفصّلة. هناك أيضًا، بالطبع، شهادة الأمّهات الخبيرات من عصور عدّة اللائي حذّرنَ بناتهنَّ من مغبّة أخذ رجل انطباعًا بأنها «ذلك النوع من البنات»؛ إذ لن يظلّ «يحترمها» بعد انطباعه ذاك.

يُعدُّ تمييز مادونّا والعاهرة ثنائية مفروضة وفق سلسلة مُتدرّجة. في الحياة الواقعية، ليست المرأة إمّا «صارمة» أو «متراخية»؛ إنّما مُنحلّة بدرجات مختلفة، تتراوح من الـ«ليست على الإطلاق» إلى الـ«تامّة». لذا فسؤال «لِمَ بعض النساء من نوع ما وبعضهنّ الآخر من نوع ثانٍ؟» ليس له معنى البتّة. بَيْدَ أن في سؤال سبب كون بعض النساء أقرب إلى أحد طرفي الطيف من الآخر معنى - ما سبب اختلاف النساء في درجة تحفّظهنّ الجنسي العامّ؟ وبما يخصّ هذه المسألة، ماذا عن الرجال؟ لماذا يبدو أن بعض الرجال قادرين على الإخلاص في زواجهم الأحادي، بينما ينزع آخرون إلى الحياد عن إخلاصهم بدرجات متفاوتة؟ وهل هذا الاختلاف - بين مادونّا والعاهرة، بين الآباء والأوغاد - اختلافٌ في الجينات؟ الجواب نعم قاطعة. لكن السبب الوحيد لقطعية هذا الجواب يكمن في أن عبارة «في الجينات» غامضة لدرجة يُمكن معها عدّها من دون معنى.

فَلنبدأ مع المفهوم الشائع «في الجينات». هل بعض النساء، منذ لحظة التقاء منيّ والدها ببيضة أمها، مُصمَّمة لتكون مادونّا، بينما انتهاء بعضهنَّ الآخر إلى عاهرات أمر حتمي؟ هل بعض الرجال مُقدَّرٌ لهم أن يكونوا آباء أو حقراء على حدّ سواء؟

والجواب بالنسبة إلى الرجال والنساء على حدّ سواء هو: غير مرجّح، ولكن ليس مستحيلًا. بوصفها قاعدة عامّة، لن يحتفظ الانتقاء الطبيعي بسمتين متعارضتين مُختلفتين للغاية بالوقت نفسه. إذ عادة ما تكون إحداهما أو الأخرى أكثر ملاءمة للتكاثر الجيني جزئيًا على الأقل. وأيًّا كانت أفضليته الهامشية، فلا بُدَّ من سوادِهِ إذا ما مُنِحَ الوقت اللازم. وهذا هو سبب أن أغلب الجينات لديك موجودة أيضًا لدى السكّان الاعتياديين في أي بقعة أخرى من العالم. لكن هناك شيئًا يدعى بالانتقاء «المعتمد على التردُّد»، حيث تنخفض قيمة السمة كلما أصبحت أكثر شيوعًا، بحيث يفرض الانتقاء الطبيعي سقفًا لحدود هيمنتها، وبذلك يترك مجالًا للبدائل.

فكّر في سمكة الشـمس زرقاء الخيشوم. ينمو ذكر زرقاء الخيشوم ويُشيّد عـددًا من الأعشـاش مُنتظرًا واحدة من الإنـاث كي تضع بيضها في عشّـه، ثـم يُخصّب البيـوض ويعمل على حمايتها. يا له مـن عضو شريف من أعضاء المجتمع. إلّا أن الأعشـاش التي سـتحتاج إلى رعايته قد تبلغ الـ ١٥٠، وهي حقيقة من شـأنها تركـه عرضة لنوع ثانٍ أقـل موثوقيّة من الذكـور، الجوّال. حيث يتسـلّلُ الذكر الجوّال في الأنحاء مُخصِّبًا البيض خلسة، ثمّ يفرُّ كالسهم تاركًا إياهـا في رعاية الوصي المخدوع. في أثناء إحدى مراحل حياتهم، يتنكّر الجوّالون بلون وسلوك الإناث مع نيّة إخفاء عملياتهم السريّة.

يُمكنـك أن تـرى كيف يُحفظ التـوازن بـين الجوّالين وضحاياهـم. إذ لا بـدّ وأن الجوّالـين يؤدّون عملًا جيّـدًا بما يخصُّ التكاثر؛ وإلّا مـا كانوا ليظلّوا موجوديـن. ولكن بسـبب دفع هذا النجـاح أعدادهم الضئيلـة للزيادة، فإن نجاحهـم نفسـه ينحسر، ذلك أن مـورد الذكـور الشُرفاء المحـدود - الذي يقتات عليه الجوّالون - سـينحَسر. هذا موقف يكون فيه النجاحُ عقوبة بحدّ ذاته، حيث كُلّما زاد عدد الجوّالة، كلّما تناقص نسل الجوّالين.

نظريًـا، يجـب أن ينمو عـدد الجوّالـين إلى الحد الـذي ينجبُ فيـه الجوّال متوسّـط عدد ذريّة الذكر أزرق الخيشـوم الشريف نفسـه. عنـد هذه النقطة، سـيُغيّر أي تحوّل في الكثافة السـكانية - سـواء أكان نموًا أم انحسارًا - قيمة الاسـتراتيجيتين بطريقـة عكسـية ضـدّ التحوّل. يُعـرف هذا التـوازن بحالة «الاسـتقرار التطـوّري»، وهـو مصطلـحٌ سـكّه البيولوجـي البريطاني جون مينارد سـميث والذي طوّرَ في السـبعينيات فكرة الانتقاء المعتمد على الترَدُّد بشكل كامل. من المُفترض أن جوّالة زُرق الخيشوم قد بلغت منذ فترة طويلة كثافتها السكانية المُستقرّة تطوّريًا، والتي يبدو أن نسبتها واحدٌ لخمسة.

لكـن ديناميكيـات الخيانـة الجنسـية لدى البـشر تختلف عمّا لدى أسـماك الشـمس زرقاء الخيشـوم، ويعود ذلـك جزئيًا إلى ميـل الثدييات للإخصاب الداخلي. إلّا أن ريتشارد دوكينز أظهر، مستعينًا بتحليلٍ تجريدي يقبَلُ التطبيق عـلى نوعنـا، إمكانية انطبـاق منطق مينارد سـميث مـن حيث المبـدأ علينا.

بعبارة أخرى: يُمكن للمرء تخيّل موقف لا يُمكن فيه للنساء الصارمات أو المتراخيات، ولا الذكور الحقراء أو الشرفاء، احتكار استراتيجية مثالية بشكل مُطلق. بدلًا من ذلك فإن نجاح كل استراتيجية يتفاوت طبقًا لمدى شيوع بقية الاستراتيجيات الثلاثة، وتميل كثافة متبنّي هذه الاستراتيجيات إلى الاستقرار في حالة من التوازن. وجد دوكينز على سبيل المثال في إحدى مجاميع الافتراضات أن خمسة أسداس الإناث تميل لتكون مُتحفّظة، في حين يميل خمسة أثمان الذكور ليكونوا مخلصين.

الآن وبعد استيعاب هذه الحقيقة، يُنصح أن تتناساها. لا تتناسَ الفروق الكسرية في الكثافة السكانية نفسها، والتي تنمو كما يبدو من افتراضات اعتباطية ضمن أنموذج مُصطنع للغاية، بل انسَ فكرة أن كُلَّ فردٍ من شأنه أن يكون شديد الارتباط باستراتيجية أو أخرى.

فمثلما لاحظ ماينارد سميث ودوكينز، يحفظُ التطوّر التوازن بحالة مستقرّة لو افترضت أن النسب السحرية موجودة داخل الأفراد - وهذه النسبة هي خمسة أسداس الإناث مُتحفِّظات، وخمسة أثمان الذكور مُخلصين. ويظلُّ ذلك صحيحًا حتى وإن تمَّ التحقُّق من هذه النسب عشوائيًا - لو رمى كُل فرد النرد بمواجهة أيّ شريك مُحتمل لتقرير ما عليه فعله. تخيَّل مقدار زيادة الفاعلية بالنسبة إلى المرء إذا ما تأمَّلَ كُل موقف (بوعي أو من دونه) وخمَّنَ بعد اطّلاع أي الاستراتيجيات أفضل في ظلّ الظروف الراهنة.

أو تخيّل نوعًا مختلفًا من المرونة: برنامج تنموي يُقيّم، في أثناء الطفولة، والبيئة الاجتماعية المحلّية ومن ثمّ، في سنّ البلوغ، يوجّه الشخص ناحية الاستراتيجية الأكثر ترجيحًا للنجاح. حاول تطبيق ذلك مع زُرق الخيشوم: تخيّل ذكرًا والذي في أثناء سنواته الأولى يتفحَّصُ بيئته المحلّية، حيث يحسب نسبة انتشار الذكور المُستغلّين والشرفاء، ثم يُقرّرُ بعدها - إن صَحَّ قول «يُقرِّر» - سواء كان سيصبح جوّالًا أم لا. لا بُدَّ لهذه المرونة من الهيمنة على السكّان دافعة الاستراتيجيَّين الأكثر صرامة إلى حافّة النسيان.

المغزى من القصة أن المرونة، إذا ما مُنحت الفرصة، عادة ما تتفوّق على

الصلابـة. في الواقع يبدو أن المرونة قد حَقَّقت تفوقًا معيّنًا حتى لدى أسـماك الشـمس زُرق الخيشـوم غير المعروفـة بتطوّر قشرتها المُخيّـة. فعلى الرغم من أن بعـض الجينـات تميل بذكر زرق الخشـيوم ناحية إحدى الاسـتراتيجيتين، وبعضها الآخر للعكس، فإن هذا الميل غير مُكتمل؛ حيث يسـتخلص الذكر البيانـات المحلّيـة قبـل أن «يُقـرِّر» أي الاسـتراتيجيتين سـيتبنّى. ومن الجليّ تعاظُـم مـدى المرونة المحتمـل عند الانتقال من الأسـماك إلينـا. إذ لنا أدمغة هائلة وسـبب وجودهـا هو التكيُّـف البارع مع الظـروف المتغـيّرة. وبالنظر إلى كـمّ الأشـياء العديدة المتعلقة ببيئة الفرد الاجتماعيـة التي يُمكن لها تبديل قيمة المادونّا مقابل العاهرة، والحقير مقابل الشريف - بضمنها الطريقة التي يتفاعل عبرها الأشـخاص تجاه أملاك الفرد ومسؤولياته المعيّنة - فلن يكون الانتقـاء الطبيعي بليـدًا على غير عهده إن لم يُفضِّل الجينـات التي تبني أدمغة حساسة لمثل هذه الأشياء.

ينطبـق ذلك على كثير من العوالم الأخرى. فقيمة كونك «نوعًا» معيّنًا من الأشـخاص - ولنقـل تعاونيًا أو بخيلًا مثلًا - قـد اعتمدت، خلال التطوّر، عـلى أشـياء تغيَّرت مـن وقت لآخر ومن مـكان لآخر ومن شـخص لآخر. والجينات التي ألزمت أسـلافنا بالتجسّد في شخصية من نوع ما بشكل قاطع لا بُـدَّ أنهـا خـسرت نظريًا ضدَّ الأخـرى التي سـمحت لنوع الشـخصيّة أن تترسَّخَ بشيءٍ من الرشاقة.

هذه ليست مسألة توافق. ففي الأدبيات هناك بعض المقالات التي تحمل عناويـن مثل «تطوّر المُخادعـين»، وبالعودة إلى عالم المادونّـات والعاهرات، هنـاك نظريـة مفادها أن بعض النسـاء يملـن بالفطـرة إلى اتّباع اسـتراتيجيّة «الابن المُثير»: حيث يتضاجعْن خارج إطار الزواج مع رجال جذّابين جنسيًا (وسـيمين أذكياء رياضيّين وهلمّ جرا)، مُخاطِرات بالاستثمار الأبويّ المرتفع الذي قد ينلنهُ لو كُنَّ أكثر مادونّيةً، ولكن مع اكتساب احتمالية حصولهنَّ على أبناء جذّابين وبالتـالي غزيري الإنتاج، مثل آبائهم. مثل هذه النظريات مثيرة للاهتـمام، لكن جميعها تواجه العقبة نفسـها: مهما كانت الاسـتراتيجية فعّالة

بالنسبة إلى المُخادعين أو المُنحلّات على حدّ سواء، ستزداد فعّاليّتها بوجود المرونة أكثر – حين يكون بالإمكان التخلّي عن هذه الاستراتيجية وقت ظهور علامات الفشل المُحتمل. والدماغ الإنساني عضو غايةٌ في المرونة.

التأكيد على هذه المرونة لا يتمّ بالقول أن كل الناس يولدون متطابقين نفسيًا، وكل الاختلافات في الشخصية نابعة من الطبيعة. فمن الواضح وجود اختلافات جينية لسماتٍ كالنَزَق والمرح. و«إمكانية توريث» هذه السمات هي بحدود ٤؛ وهذا يعني أن ما حدوده ٤٠٪ من الاختلافات الفردية بين هذه السمات (ضمن مجموعات سكانية معيّنة درسها علماء الوراثة) يُمكن تفسيرها عبر الاختلافات الوراثية. (وبالمقارنة فإن إمكانية توريث الطول هي بحدود ٩؛ إذ حوالي ١٠٪ فقط من فروقات الطول بين الأفراد تعود إلى التغذية وغيرها من الاختلافات البيئية). السؤال هو لماذا الاختلاف الجيني الهامّ اليقيني في الشخصيّة موجود من الأصل. هل الدرجات المختلفة من النزعة الجينية تجاه المَرَح تمثّل «أنواعًا» مختلفة من الشخصيّات، نِتاجات عملية معقدة للغاية للانتقاء المعتمد على التردّد؟ (على الرغم من أن الاعتماد على التردّد يتم تحليله بشكل كلاسيكي من حيث استراتيجيتين متميّزتين أو ثلاث، إلّا أنه قد ينتج أيضًا نسقًا بتدرّج أدق)، أم أن النزعات الجينية المختلفة مجرّد «ضوضاء» – نتاجات عرضية للتطوّر لم يُفضّلها الانتقاء الطبيعي على وجه التحديد؟ لا أحد يعلم جواب ذلك، وآراء علماء النفس التطوريّين متباينة بخصوص هذا الشأن. لكن ما يتّفقون عليه أن تطوّر المرونة، «اللّدونة التنموية»، يُمثّل جزءًا كبيرًا من قصة الاختلافات في الشخصيّة.

لا يتركنا هذا التركيز على التطوّر النفسي متأخرين عند ذات الموقع الذي كان فيه علماء الاجتماع قبل ٢٥ عامًا، حيث ينسبون كلّ ما يرون إلى «قوى بيئية» غير محدّدة. حيث الوعد الرئيس للسيكولوجيا التطوّرية هو المساعدة على تحديد القوى، واستيلاد نظريات جيّدة عن تطور الشخصية. بعبارة أخرى: يُمكن لعلم النفس التطوّري مُساعدتنا في رؤية ما هو أكثر من «مقابض» الطبيعة البشرية، ألا وهو كيفية إدارة تلك المقابض. إنه لا يرينا

فقط انجذاب كل الرجال في شتّى الثقافات للتنوّع الجنسي (وسبب ذلك)، بل وبإمكانه اقتراح الظروف التي تجعل من بعض الرجال أكثر هوسًا به من غيرهم؛ ولا يُرينا فقط أن النساء في كل الثقافات أكثر تحفُّظًا من الناحية الجنسية (وسبب ذلك)، ولكنه يَعِدُنا بالمُساعدة على تَبيُّن كيف أن بعض النساء يستطعن تحدّي هذه الصورة النمطية.

أحد الأمثلة الجيدة يكمن في ورقة روبرت تريفرز المنشورة عام ١٩٧٢ عن الاستثمار الوالديّ. يلحظ تريفرز نمطين اكتشفهما علماء الاجتماع بالفعل: ١) كلما ازدادت جاذبية الفتاة المراهقة، كلما ارتفع احتمال «زواجها» - الزواج من رجل يتمتّع بمكانة اقتصادية واجتماعية رفيعة. و٢) كلما ازداد نشاط المراهِقة الجنسي، كلّما انحسرت احتمالات زواجها أكثر.

بادئ ذي بدء، كُلُّ واحد من هذين النمطين يظهر بشكل مُستقل عن الآخر منطقيًا من الناحية الداروينية. حيث غالبًا ما يكون للرجل الثريّ رفيع المكانة نطاق واسعٌ من الزوجات المُحتملات الراغبات بأن يقع اختياره عليهنّ. لذلك فهو يميل لاختيار واحدة جميلة المظهر والتي هي أيضًا مادونّية نسبيًا. يأخذ تريفرز هذا التحليل لما هو أبعد ويسأل، أيُحتَمل أن «النساء تُعدِّل من استراتيجيتها الإنجابية في سنّ المراهقة بما يخدم حاجاتها المُستقبلية»؟ بعبارة أخرى، ربما تستفيد الفتيات المراهقات اللاتي يتلقين ردود فعل اجتماعية مبكرة تؤكد على جمالهنّ لأقصى حدّ، حتّى يُصبحن مُتحفّظات جنسيًا لتشجيع الذكور رفيعي المكانة الباحثين عن مادونّاتٍ جميلات على الاستثمار طويل الأمد معهنّ. في حين تصبح النساء الأقلّ جاذبية، مع فرصهنّ المتدنّية في تحقيق الجائزة الكُبرى عبر التحفُّظ الجنسي، أكثر انحلالًا، بحيث يستخلصن كميات موارد صغيرة من جُملةٍ من الذكور. على الرغم من إمكانية تقليل هذا الانحلال من قيمتهنّ بوصفهن زوجات في بيئة الأسلاف، وهو ما لم يحصل، ويُحطِّم فُرصهنّ بالحصول على زوج. في مجتمع الصيادين جامعي الثمار الأنموذجي، يُمكن لأي امرأة خصبة تقريبًا ضمان الحصول على زوج، حتى وإن كان بعيدًا كل البعد عن المثالية، أو في حال كان عليها مُشاركته مع امرأة أخرى.

سيناريو تريفرز لا يتضمّن قرارًا واعيًا من قبل النساء الجذّابات لحماية مَفاتنهنَّ (على الرغم من احتمالية لعب ذلك دورًا، والأكثر من ذلك إمكانية ميل الآباء وراثيًا لتشجيع بناتهم على التحفّظ الجنسي بالقوّة حينما يكُنَّ جميلات). وبذات المنوال، فنحن لا نتحدّث بالضرورة عن النساء غير الجذّابات اللاتي «يُدركنَ» بأنهنَّ لا يُمكن أن يكُنَّ انتقائيات ويبدأن بممارسة الجنس وفقًا للشروط الداروينية غير المثالية. إذ قد تكون آلية العمل لاواعية، تشكيل مُتدرّج للاستراتيجية الجنسية - اقرأ: «القيم الأخلاقية» - عبر تجربة المراهقين.

تُعَدُّ نظريات كهذه فارِقة. إذ جرت كثير من الأحاديث عن مشكلة أمومة غير المتزوّجات بين المراهقات، ولا سيما الفقيرات منهنّ. لكن لا أحد يعرف حقًا كيف تتشكَّلُ العادات الجنسية، أو مدى رسوخها بعد تشكُّلها. فهناك حديث كثير عن تعزيز «احترام الذات»، لكن لا يزال فهم ما يعنيه احترام الذات، غرضه أو ما يفعله، ضئيلًا.

لا يستطيع علم النفس التطوري حتى الآن توفير الأساس المفقود لهذه المناقشات بشكل موثوق. لكن المشكلة ليست في نقص النظريات المعقولة؛ بل نقصٌ في دراسات اختبار هذه النظريات. ظلّت نظرية تريفرز طيّ النسيان طوال عقدين من الزمن، حتى عام ١٩٩٢ حين اكتشف أحد علماء النفس ما تتنبأ به النظرية - علاقة متبادلة بين الفهم الذاتي للمرأة وعاداتها الجنسية: حيث كلما ظنَّت نفسها أقلَّ جاذبية، كلما ازداد عدد شركائها الجنسيين. إلّا أن باحثًا آخر لم يوفَّق في العثور على هذا الارتباط المُتنبَّأ به - والأهم من ذلك عدم إجراء أيٍّ من الدراستين لاختبار نظرية تريفرز على وجه التحديد، والتي لم يَكُن أيٌّ من الباحثين على دراية بها. في الوقت الحالي هذا هو موقف علم النفس التطوري: كلما ازدادت الأراضي خصوبة، كُلّما قَلَّ مُزارعوها.

في النهاية، من المرجّح إثبات الانجراف الرئيس لنظرية تريفرز، إن لم يكن إثبات النظرية نفسها. وهذا معناه: قد تعتمد الاستراتيجيات الجنسية للإناث

على الربحية (الجينية) المحتملة لكل استراتيجية، بالنظر إلى الظروف المحيطة. لكن هذه الظروف تذهب لما هو أبعد مما شدَّدَ عليه تريفرز - رغبة امرأة معيّنة. هناك عامل آخر أيضًا هو الوفرة العامّة للاستثمار الوالديّ الذكوري. مؤكدٌ أن هذا العامل كثيرًا ما تقلّب في بيئة الأجداد. فعلى سبيل المثال، قد يكون للقرية التي غزت الآن قرية مجاورة ارتفاع مفاجئ في منسوب النساء مقارنة بالرجال - ليس فقط بسبب من نال حتفه من رجال القرية في أثناء الغزو، ولكن لأن مُحاربي الغزاة المُنتصرين عادة ما يقتلون أو يكسرون رجال العدو بينما يبقون على نسائهم سبايا لهم. بذلك فقد تجد الشابّة احتمالات ضمانها استثمارًا أبويًّا حصريًا لها وحدها قد هبطت بين عشية وضحاها لمستويات مُتدنّية. كذلك قد تُغيّر المجاعة أو الوفرة المُفاجأة من أنماط الاستثمار. ونظرًا لكلّ تيّارات التغيير هذه، فإن أي جينات تُساعد النساء على التنقُّل بين استراتيجية وأخرى لا بُدَّ من ازدهارها نظريًا.

وهناك دليل مبدئي على فعلهم ذلك. وفقًا لدراسة أجرتها عالمة الأنثروبولوجيا إليزابيث كاشدان فالنساء اللاتي يعتقدن أن الرجال ساعين لممارسة الجنس من غير التزام أكثر احتمالًا لارتداء ملابس مثيرة وممارسة الجنس مقارنة بالنساء اللاتي يرين الرجال عمومًا على استعداد للاستثمار في ذُرّيّة. وعلى الرغم من أن بعض تلك النسوة مُدركات للعلاقة بين الظروف المحلّية وأسلوب حياتهنّ، يظلُّ إدراكهنَّ غير فارق. فقد تشعر النساء المُحاطات برجال غير قادرين أو مُستعدّين كي يكونوا آباء مُخلصين بانجذاب عميق نحو الجنس غير المُرتبط بالتزامات - بعبارة أخرى، يشعرن بالتحرُّر من القيود «الأخلاقية». وإذا ما تغيَّرت ظروف السوق فجأة - حيث ارتفعت نسبة الذكور للإناث، أو أن الرجال لسبب آخر ما تحولوا تجاه استراتيجية مرتفعة الاستثمار - فإن انجذاب المرأة الجنسي، وأحاسيسها الأخلاقية، تتحوّل كذلك وفقًا للمُستجدّات.

إنّ كُلَّ ما سبق تخمينيٌّ بالضرورة في هذه المرحلة المبكرة من نموّ علم النفس التطوري. إلّا أن بإمكاننا فعليًا رؤية نوع الضوء الذي سيُسلِّطُ شيئًا

فشيئًا. على سبيل المثال، من شبه المؤكد أن «تقدير الذات» لدى الأولاد ليس مثله لدى البنات، سواء في مصادره أو تأثيراته. فبالنسبة إلى الفتيات المراهقات كما يقترح تريفرز، قد تجلب الانطباعات التي تعكس مدى جمالهنّ تقديرًا عاليًا للذات، والتي أيضًا تُحفّز على ضبط النفس من الناحية الجنسية. بينما لدى الأولاد فقد يؤدي التقدير العالي للذات إلى العكس تمامًا: إذ ربما يؤدي بهم إلى السعي المحموم لخوض فتوحات جنسية عابرة والتي في الحقيقة تكون أكثر سلالة بالنسبة إلى الذكور رفيعي المكانة حسني المظهر. في كثير من المدارس الثانوية، يُشار إلى النجم الرياضي الوسيم، بنيّةٍ نِصفِ ساخرة، «stud»[1]. أمّا بالنسبة إلى أولئك الذين يُصِرون على التحقّق علميًا مما هو واضح فنقول إن للرجال حسني المظهر شركاء جنسيين أكثر من أقرانهم الاعتياديين. (أبلغت النساء عن وضعهنّ اهتمامًا أكبر بشأن مظهر الشريك الجنسي حينما لا يتوقّعنَ دوام العلاقة معه؛ يبدو أنهنّ راغبات، من دون وعي، بمقايضة الاستثمار الوالديّ مقابل الجينات الجيّدة).

وبمُجرّد زواج الرجل المتمتّع بتقدير عالٍ للذات، قد لا تجده معروفًا بالتفاني. حيث يُحتمل أن ميزاته المتنوعة لا تزال تجعل من المخادعة أسلوب حياة بالنسبة إليه، حتى وإن صارت مُستترة الآن (ولن تعرف أبدًا متى قد يؤثِرُ مُغامرٌ كهذا حياته الخاصّة مُختارًا الهجر). إن الرجال الأكثر اعتدالًا في تقدير ذاتهم أكثر ميلًا لأن يصنعوا أزواجًا أكثر التزامًا، على الرغم من قلّة مرغوبيتهم. فمع قلّة فرصهم في العبث خارج إطار الزواج، وربما شيء من عدم الإحساس بالأمان تجاه ولاء شريكتهم، ربما يضعون كامل طاقتهم واهتمامهم طوعًا للأسرة. في الوقت نفسه فالرجال أصحاب المستويات الدُنيا لتقدير الذات، وفي ظل استمرار تعرضهم للإحباط من جانب النساء، قد يلجأون في نهاية المطاف إلى الاغتصاب. وهناك جدلٌ مُستمر في علم النفس

(١) معنى عبارة stud هنا هي فَحل الإنجاب، ذكر الحصان نقيُّ الصفات رفيع الجودة مرتفع القيمة المُستخدم غالبًا لتوليد مهور نقيَّة مثله. كما أنها تُمثِّل نِصف عبارة Student والتي معناها طالب، وذلك ما يجعل منها استعارة لفظية ساخرة. [المترجم]

التطـوري عـمّا إذا كان الاغتصـاب تكيُّفًـا، اسـتراتيجية مُصمَّمة قـد يَبلُغُ أي صبـي ليتبنّاها، مع الأخـذ بالنظر ما يعانيه من انطباعـات مُحبطة بما يكفي من محيطة الاجتماعي. يُظهر الاغتصاب بالتأكيد في مجموعة متنوعة من الثقافات، وغالبًـا تحت الظـروف المتوقَّعة: أي عندمـا يواجه الرجال مشـكلة في العثور على نسـاء جذّابات بالوسـائل المشروعة. إحدى الدراسات (غير الداروينية) وجدت أن المغتصب الأنموذجي تسكنهُ «شكوك مُتجذِّرة عن كفايته وكفاءته بصفته شخصًا. إذ يفتقر إلى الشعور بالثقة في نفسه بوصفه رجلًا في المجالات الجنسية وغير الجنسية».

وقد يُسلّط نوع ثان من الضوء المُلقى من قِبل الأنموذج الدارويني الجديد على الروابط بين الفقر والأخلاقيات الجنسية. إذ إن النساء اللاتي يَسكُنَّ بيئات فيهـا قلّة من الرجـال القادرين و/ أو الراغبين في إعالة عائلة قد يُنَمّون طبيعيًا ميلًا لممارسـة الجنس من دون التزام. (غالبًا ما عُرِفَت نسـاء «الطبقات الدُنيا» في التاريـخ - بما في ذلك إنكلـترا الفيكتورية - برخـاوة أخلاقيّاتهن). بيد أن مـن السـابق لأوانه تأكيد ذلك بثقة، أو اسـتنتاج أن الأعراف الجنسـية داخل المدينة يُمكنها التغيُّر باختلاف مُسـتويات الدخل. لكن من الجدير بالمُلاحظة عـلى الأقل أن علم النفس التطوّري بتركيزه على دور البيئة قد ينتهي بتسـليط الضـوء على التكاليف الاجتماعيـة للفقر، وبذلك منح بعـض القوّة في أحيانٍ لوصفات السياسة الليبرالية، مُتحدّيًا الصورة النمطية القديمة عن الداروينية بوصفها مجالًا تابعًا لجناح اليمين.

يُمكن للمرء بالطبع المُجادلة حول إمكانية نشـوء شتّى المضامين السياسية من أي نظريّة. ويُمكن للمرء الحُلم بأنواع مختلفة تمامًا من النظريّات الداروينية عن كيفيّة تشـكُّل الاستراتيجيات الجنسـية. وأعترف أن الشيء الوحيد الذي ليس بإمكان أحد فعله هو القول: لا علاقة لعلم النفس التطوّري بهذا الجدل مُطلقًا. فنظرية أن على الانتقاء الطبيعي - اليَقِظ في واقع الأمر لأكثر العناصر ملاءمـة للتصميـم لـدى أقـلِّ الأنـواع مرتبة - تشـيد أدمغة مرنـة وضخمة فائقة الجودة وألّا يجعلها شـديدة الحساسية للإشارات البيئية المتعلّقة بالجنس

والمكانـة وغيرهـا من أمور معروفة بتأثيرها على تشـكيل شـخصيّاتنا بشـكل مركزيّ بالنسـبة إلى آفاقنا الجنسـية، وهـذه فكرة لا تُصدَّق حرفيًـا. فلو أردنا معرفة كيف ومتى تبدأ شـخصية المرء باتخاذ شـكل مُميّز، ومدى مقاومة تغيير الشـخصية لاحقًا، فعلينا النظـر إلى داروين. لا زلنا لم نعـرف الأجوبة، لكننا نعلم مصدرها، وهذه المعرفة ستساعدنا على صياغة أسئلتنا بشكل أكثر حدّة.

العائلة التي تظلّ متماسكة

أكثـر الاهتـمام المـولى للاسـتراتيجيات الجنسـية «قصيرة المـدى» الخاصة بالنسـاء حديثـة إلى حـدّ ما - سـواء أكانت لنسـاء غير مرتبطـات يبحثن عن قضـاء ليلـة عابرة، أو مرتبطات يتسـلّلن لعلاقات عشـيق. مالت النقاشـات السوسـيوبيولوجية في أثنـاء السـبعينات، بشـكلها الشـعبي عـلى الأقـل، إلى تصويـر الرجال بوصفهـم كائنات بريّة شـبقة تجوب الأنحاء بحثًـا عن امرأة بنيَّة خداعها واسـتغلالها؛ في حين غالبًا ما صُوِّرَت النسـاء بوصفهن مُغفَّلات مُسـتغَلّات. ويعـود هذا التحـوّل في التركيز بجزء كبير إلى العـدد المُتزايد من عالمـات الاجتماع، اللائـي شَرحْنَ بأنـاة لزُملائهنَّ الرجال كيف تبدو نفسـية المرأة من الداخل.

وحتـى بعد اسـتعادة التوازن، لا يـزال هناك مغزى واحد مهـمّ عمّا يميل الرجال والنساء ليكونوه، مستغِلّين ومُستَغَلّات. ومع تقدُّم الزواج، لا بُدَّ من تحوّل إغراء الهجر - في متوسّـط الحالات - نحو الرجال. والسـبب ليس، كما يفترض الناس أحيانًا، في ارتفاع التكاليف الداروينية للانفصال الزوجي على المـرأة. صحيـح أنه في حال كان للمرأة طفل وحدث الانفصال، فإنه سـيعاني - سـواء أكان لعدم اسـتطاعتها العثور على رجل مستعد للالتزام بامرأة لديها طفـل من آخر، أو لإيجادها شـخصًا يُهمـل طفلها ويـسيء معاملته. لكن من منظور الداروينية فإن هذه التكلفة يتحمّلها الزوج الفارّ بالتسـاوي؛ حيث إن الطفل الذي سيعاني هو طفله أيضًا بعد كل شيء.

بـدلًا من ذلك، يـأتي الفارق الكبير بين الرجل والمـرأة في الفوائد من دفتر

الحسـابات الخاصّ بالهَجْر. إذ ما الذي يُمكن لكُلّ من الشريكين اكتسـابه من الانفصال عبر العائد الإنجابي المُسـتقبلي؟ يُمكن للزوج من حيث المبدأ إيجاد امـرأة بعمـر الثامنة عشرة لا تزال تملك خمسـة وعشرين عامًـا من القدرة على الإنجـاب. بينـما لا يُحتمـل أن تجد الزوجـة - بغض النظر عـن صعوبة لقائها زوجًـا إن تُرِكَـت مع طفـل - شريكًا يمنحهـا ما يُعادل خمسـة وعشرين عامًا مـن القدرة على الإنجـاب. يبدو هذا الاختلاف في الفـرص الخارجية ضئيلًا في البدايـة، حينما يكون كلا الزوجين يافعًا، ولكـن مع تقدُّمهما بالعمر، يزداد أكثر فأكثر.

لكـن يُمكـن للظروف أن تقهر ذلـك أو تزيده. إذ قد لا تتـاح لرجل فقير متواضـع المكانـة فرصة الهجر وقـد يوفر لزوجته المُبرِّر لهجره، ولا سـيما إن لم يكن لديها منه أطفال ويسـهل عليها العثـور على رفيق آخر بسرعة. من ناحية أخـرى فإن الزوج الذي يرتقي بمكانته، سـيزداد حافـزه للهجر بينما يضعف حافـز زوجتـه. لكن بتسـاوي كُلٍ ما سـوى ذلك، فـإن ضجر الـزوج هو ما سيميل للزيادة بمرور السنين.

كل هـذا الحديث عن «الهجر» قد يكـون مُضلّلًا. فمع أن الطلاق متاح في كثـير مـن مجتمعات الصيد وجمـع الثمار، كذلك هو تعـدّد الزوجات؛ حيث لم يكـن مشروطاً التخلي عن الزوجة الأولى للزواج من ثانية في بيئة الأسـلاف. وطالمـا الأمـر كذلك، فلـم يكن هناك سـبب دارويني جيد للهجـر. إن البقاء قرب الذرية وتوفير الحماية والإرشـاد له معنى وراثي أكبر. وبذلك قد يكون تصميـم رجـال أقـلّ ملائمة للهجـر منه لتعـدّد الزوجـات. ولكـن في البيئة الحديثـة، مع مأسسـة الـزواج الأحـادي، فإن حافـز تعدد الزوجات سـيجد لنفسه منافذ أخرى، كالطلاق.

مـع نمـو أطفـال الأم ذاتيـة الاكتفـاء، تتراجـع حاجتهـا المُلحّة للتشبُّث بالاسـتثمار الأبوي. حيث هناك كثير من النسـاء في منتصف العمر من اللواتي يُمكنهـنَّ اتخـاذ أزواج أو التخـلّي عن مثل هـذا الخيار، ولا سـيما في حال كُنَّ مسـتقلّات مـن الناحية المادية. ومـع ذلك لا توجد قـوّة داروينية تدفعهنَّ إلى

التخلّي عـن أزواجهـنَّ، إذ لا وجود لشيء يدلّ على أن تركهـنَّ أزواجهنَّ من شـأنه تعزيز مصالحهنَّ الجينية. وأكثر الأشياء احتمالًا لدفع امرأة انقطع عنها الطمث إلى الانفصال هو حنقها على زوج خبيث. تسـعى كثير من النسـاء إلى الطلاق، لكن هذا لا يعني أن جيناتها هيَ المُسبِّبُ النهائي لذلك.

مـن بين جميـع بيانات الـزواج المُعاصر، هنـاك عنصران يـبرزان على نحو خـاص. الأول دراسـة منشـورة في العـام ١٩٩٢ وجـدت أن اسـتياء الزوج مـن زواجه أعظـم مُؤشر للطـلاق. والثاني أن الرجـال أكثر احتـمالًا للزواج مـرة أخرى بعد الطلاق من النسـاء. قد تكون الحقيقـة الثانية – معزَّزة بالقوة البيولوجية الواقفة خلفها – جزءًا جيدًا من أجزاء سبب الأولى.

والاعتراضـات على مثـل هذا النوع من التحليـلات متوقّع: «لكن الناس ينفصلـون لأسـباب عاطفية. هـم لا يضيفون عدد أطفالهـم ويُعْمِلون آلاتهم الحاسبة. إذ يَنفـرُ الأزواج مـن الزوجـات البليـدات المُتذمّـرات، أو في أثناء البحـث المُعمَّـق عـن الـذات في أزمـة منتصـف العمر. بينـما تنفر النسـاء من الأزواج المُسيئين أو المُهملين، أو بالغواية الآتية من رجل حسّاس وحنون».

ذلـك صحيـح تمامًا. لكن مرّة أخـرى: ما العواطفُ إلّا ثُلّـة من الجلّادين المُكلّفـين من قِبَل التطوّر. وأسـفل كل الأفكار والمشـاعر والتباينات المزاجية التي يقضي مستشـارو الزواج وقتهم في تقييمها بحساسـية تكمُنُ حِيلٌ جينية – معادلات باردة قاسـية مشكّلة من متغيّرات سهلة: مثل المكانة الاجتماعية، سـنّ الزواج، عـدد الأطفال، أعمارهـم، فرصهم خارج نطاق الـزواج وهلمّ جـرا. هل الزوجة أكثر بلادة وتذمّرًا حقًا ممـا كانت عليه قبل ٢٠ عامًا؟ ربما، ولكن يُحتمل أيضًا أن تَسـامُح الزوج مـع التذمّر قد انخفض الآن مع بلوغها سـن الخامسـة والأربعين وخسـارة قدرتها على الإنجاب. والترقيـة التي نالها الآن، تلك التي فَتَنت بالفعل امرأة شـابّة في مكان العمل، لم تسـاعده. يُمكننا بالمثل سـؤال الزوجة الشـابة التـي لم تُرزق بأبناء بعد، التي تجـد زوجها متبلّد المشـاعر بما لا يُطاق، لماذا لم يكن تبلّد شـعوره جائرًا بالنسبة إليها قبل عام من الآن، قبـل خسـارته عمله ولقاءَها أعزبًا عطوفًا ميسـور الحال بدا كأنها يتودد

لها. ربما تكون إساءات زوجها حقيقية بالطبع، وإساءته تشير في هذه الحالة إلى استيائه، وربما رحيله الوشيك - بالتالي فالضربة الاستباقية التي تُحضِّرُ لها الزوجة مُستحقّة.

بمُجرد بَدْءِك في رؤية المشاعر والأفكار اليومية بوصفها أسلحة جينية، سُرعان ما ستكتسب الخلافات الزوجية معنى جديد. فحتى تلك التي تبدو أتفه من أن تؤدي للطلاق سيُنظر إليها بوصفها إعادة تفاوض تزايُديّ على شروط العقد. فالزوج الذي يُصرّح في شهر عسله بأنه لم يكن يريد زوجةً «قديمة الطراز» يقترح الآن ساخرًا أن تحضيرها العشاء بين فينة وأخرى لن يُكلِّف كثيرًا. والتهديد واضحٌ بقدر ما هو ضمني: إنّني مُستعدٌ بل وقادر على فسخ العقد إن لم تكن على استعداد لإعادة التفاوض.

إعادة النظر في الترابطات الزوجية

بالمحصّلة، لا تبدو الأمور جيدة بالنسبة إلى نسخة ديزموند موريس من فرضية الترابط الزوجي. إذ لا يبدو أننا شبيهين جدًا بأقربائنا المشاهير من الرئيسيات، الغيبون، الذين كثيرًا ما قورِنَ بيننا وبينهم على نحو متفائل. ولا ينبغي لهذا أن يُمثل مفاجأة، فالغيبون ليس كائنًا اجتماعيًا للغاية. حيث تعيش كُلّ عائلة في نطاق منزليّ كبير - ضمن أكثر من مائة فدّان أحيانًا - ما يقي الزوجين من العبث خارج نطاق الزواج. ويطاردُ الغيبون أي متسلل/ـة قد يرغب في اختطاف أو استعارة أحد الزوجين. أمّا نحن فعلى النقيض من ذلك تطوّرنا ضمن مجاميع اجتماعية كبيرة زاخرة ببدائل الإخلاص المُربحة جينيًا.

للتأكيد فإننا مميّزون بالاستثمار الوالدي العالي من جانب الذكر. طوال مئات الآلاف من السنين، وربما أكثر، جَبَلَ الانتقاء الطبيعي الذكور على حب الأطفال، وبذلك منحهم شعورًا استمتعت النساء به طوال الملايين المئات الماضية من تطور الثدييات. وقد جَبَلَ الانتقاء الطبيعي، في أثناء ذلك الوقت، النساء والرجال أيضًا على «حُبِّ» أحدهما الآخر (أو على الأقل «حُبُّ» أحدهما الآخر مع الاختلاف الكبير عن المعنى الذي تُشير له هذه العبارة،

والـذي نادرًا مـا يقترب من التفـاني الموجود بين الآباء وذريتهـم). مع ذلك، بحبٍّ أو من دونه، لسنا والغيبون سواسية.

إذن مـا الذي نحـن عليه؟ إلى أي مدى يَبعُد جنسـنا عن الزواج الأحادي الطبيعـي بالضبـط؟ غالبًـا ما يجيب علـماء الأحياء على هذا السـؤال تشريحيًا. سـبق ورأينـا بالفعل دليـلًا تشريحيًـا - وزن الخصيتين وكثافة المني - يقترح أن إناث البشر ليسـت أحادية الزواج بطبيعتهـا. وهناك كذلك دليل تشريحي يتعلق بالسـؤال عن مدى بعد الذكور طبيعيًا عـن الزواج الأحادي بالضبط. كـما لاحـظ داروين، ففي الأنواع متعددة الزوجـات، يكون التباين في الحجم بـين الذكر والأنثـى - «مثنوية الهيأة الجنسـية» - كبيرًا. يحتكـر بعض الذكور كثـيرًا مـن الإناث، بينما يُسـتبعد البقية مـن اليانصيب الجيني تمامًـا، لذا هناك قيمـة تطوّرية هائلة لكون المرء ذكرًا ضخمًا قادرًا على تخويف بقية الذكور. إن ذكور الغوريلا، الذين يتزاوجون مع كثير من الإناث إذا ما انتصروا بكثير من المعـارك أو عدم نيـل أي أنثى في حال انعدام الانتصار بمعركة، عمالقة، حيث يبلغ حجمهم ضعف الإناث تقريبًا. أمّا مع الغيبون أحادي الزواج، فلا فارق بـين معدّل تكاثر صغار الذكـور عن ضِخامهم، بينما تكاد المثنوية الجنسـية لا تكـون محسوسـة. الزُبْدة أن مثنوية الهيأة الجنسـية تُمثّل مؤشرًا جيدًا على شـدّة الانتقـاء الجنسي بين الذكور، والذي يعكس أيضًا مـدى تعدّدية الزواج لدى النـوع. عنـد وضعنا عـلى طيـف مثنوية الهيـأة الجنسـية، يتحصَّـلُ البشر على تصنيف «متعدد الزوجات معتدل». فنحن أقل مثنوية بكثير من الغوريلات، وأقلّ قليلًا من الشمبانزي، ولكن أكثر من الغيبون بشكل ملحوظ.

تتمثل إحدى مشـكلات هذا المنطق في أن المنافسـة بين الذكور، وحتى ما قبل الإنسان، كانت عقلية إلى حدٍّ ما. فالرجال لا يملكون أنياب طويلة كالتي يسـتخدمها ذكـور الشـمبانزي للقتال عـلى رتبة الألفا وبذلـك ضمان حقوق التـزاوج العليا. غَيْرَ أنهم يسـتعملون حيلًا مُختلفة لرفـع مكانتهم الاجتماعية، وبذلـك جاذبيتهـم. لذلـك لا يُلاحـظ انعـكاس تعـدّد الزوجـات، قليله أو كثيره، المتضمن في ماضينا التطوّري في علم وظائف الأعضاء إجمالًا ولكن في

السمات العقلية الذكورية المميزة. ولو لوحظ شيء فإن الاختلاف الطفيف في حجوم النساء والرجال يرسم صورة مُفرطة الإطراء عن ميل الرجال للزواج الأحادي.

كيف تعاملت المجتمعات على مرّ السنين مع التباين الجنسي الأساس في الطبيعة البشرية؟ لا تماثل. لقد سمحت الغالبية العظمى من المجتمعات ٩٨٠ من أصل ١١٥٤ مجتمعًا، من الحاضر والماضي ممّا توافر لعلماء الأنثروبولوجيا بيانات عنها - للرجل بنيل أكثر من زوجة واحدة. ويتضمّن هذا الرقم أغلب مجتمعات الصيد وجمع الثمار، المجتمعات صاحبة الارتباط الأقرب بسياق التطور البشري بين كلّ ما نملك.

معروفٌ تقليل أكثر الأبطال تحمّسًا لأطروحة الارتباط الزوجي من أهمية هذه الحقيقة. حيث أصرَّ ديزموند موريس، العازم على إثبات ميل نوعنا الطبيعي للزواج الأحادي، في كتابه «القرد العاري» أن المُجتمعات الوحيدة التي تستحق الاهتمام بها هي المجتمعات الصناعية الحديثة والتي تقع مُصادفة ضمن الـ١٥٪ من المجتمعات أحادية الزواج. حيث كتب: «إن أي مجتمع يفشل في التقدّم هو بمعنى ما قد فشل، "ضَلَّ طريقه". شيءٌ ما قد حدث له وأعاقه، أمرٌ يعمل بالضد من الميول الطبيعية للأنواع...» لذا «يُمكن تجاهل المجتمعات الصغيرة المتخلّفة الفاشلة إلى حدّ كبير». باختصار فقد قال موريس (الذي كتب في وقت كانت فيه نسب الطلاق في الغرب نصف ما هي عليه اليوم): «أيًّا كان الذي تفعله الوحدات القبلية المغمورة والمتخلّفة اليوم، فإن التيار السائد لجنسنا يُعَبِّر عن طابع ترابط ثنائي بأكثر الأشكال تطرّفًا، وأعني الاقتران الأحاديّ طويل الأمد».

حسنٌ، ربما هذه إحدى طرق التخلّص من البيانات المزعجة وغير المرغوبة: إعلانها شاذّة، وإن كانت تفوق في كميّتها بيانات «التيار السائد» تفوقًا كاسحًا.

في الواقع هناك معنى في أن الزواج المتعدّد لم يكن القاعدة تاريخيًا. حيث بالنسبة إلى ٤٣٪ من أصل ٩٨٠ مجتمعًا متعدد الزوجات، كان الزواج

الأحادي يُصنَّف على أنه «عرضي». وحتى حينما يكون «شائعًا، فإن التعدُّدَ في الزوجات غالبًا ما يكون حكرًا على عدد محدود نسبيًا من الرجال القادرين على تحمّل نفقاتهنَّ أو بمكانة رفيعة تجعلهم أهلين لهنّ. لمدّة طويلة من الزمن، كانت مُعظم الزيجات أحاديّة، على الرغم من أن أغلب المُجتمعات لم تكن كذلك.

مع ذلك، يشير السجل الأنثروبولوجي إلى أن تعدد الزوجات طبيعيٌ بمعنى أن الرجال الذين يُمنحون فرصة حيازة أكثر من زوجة سيميلون بشدّة لاغتنامها. كما ويشير السجل إلى أمر آخر: أن لتعدُّد الزوجات فضائلها بوصفها طريقة للتعامل مع الاختلال الأساس بين ما يريده الرجال وتريده النساء. في ثقافتنا، عندما ينتاب الرجل الذي وضعت له زوجته عدّة أطفالٍ القلق و«يقع في حبّ» امرأة أصغر سنًّا، نقول: حسنٌ، يُمكنك الزواج منها، ولكن عليك أولًا التخلّي عن زوجتك الأولى وتلك ندبة ستظلُّ شاخصة في قلوب أبنائك وأن زوجتك السابقة وأبناءك، في حال لم تكن تكسب كثيرًا من المال، سيظلّون في مُعاناة شديدة. تميل بعض الثقافات إلى قول: حسنٌ، يُمكنك الزواج منها، ولكن فقط إن أمكنك إعالة العائلة الثانية؛ حيث لا تتخلى عن الأولى، ولا تترك بذلك ندبة تصم بها أطفالك.

ربما على بعض المجتمعات أحادية الزواج اسميًا، تلك التي تفشل فيها نصف الزيجات فعليًا، القيام بما يجب قدر ما أمكن. ربما علينا محو الندبة اللاحقة بالطلاق والتي بدأت تتلاشى بالفعل. ربما ينبغي علينا بسهولة التأكد من إبقاء الرجال الهائمين بعيدًا عن عوائلهم مسؤولين قانونيًا عنهم، والاستمرار في إعالتهم بالطريقة المُعتادة. وربما علينا، باختصار، السماحُ بتعدُّد الزوجات. حينها، ربما كانت كثير من النساء المطلّقات اليوم في وضع أفضل.

الطريقة الوحيدة لمعالجة هذا الخيار بذكاء عبر طرح سؤال سهل أولًا (واحدٌ سيتبيّن انطواءه على إجابة غير متوقعة): كيف حدث لإصرار ثقافي متشدّد على الزواج الأحادي، والذي بدا أنه يتعارض مع الطبيعة الإنسانية، والذي لم يُسمع عنه في أثناء الآلاف العديدة الماضية من السنين، أن يكون؟

الفصل الرابع

سوق الزواج

«من الصعب قراءة عمل السيد مليلنان من دون الاعتراف بأن كل الدول المتحضّرة تقريبًا لا تزال مُحتفظة بآثار عادات وقحة كالاستيلاء على الزوجات بالقوّة. ويسأل المؤلّف عن أيّ الأمم القديمة بوسعها الادّعاءُ أنها كانت منذ الأزل أحاديّة الزواج؟»

أصل الإنسان (١٨٧١)

أمرٌ ما عن العالم لا يبدو منطقيًا. حيث يُدير الرجال غالبه من جانب، ومن جانب آخر يُعدُّ تعدُّد الزوجات في معظم أجزائه غير قانوني. لو كان الرجال حقًا نوعَ الحيوانات الموصوفة في الفصلين السالفين، فلماذا سمحوا بحدوث ذلك؟

في بعض الأحيان تُفسَّر هذه المفارقة على أنّها تسوية بين طبيعة الرجل والأنثى. في زيجات الطراز الفيكتوري العتيقة، ينال الرجال خضوعًا روتينيًا مُقابل الإبقاء على شهوتهم للجنس خارج نطاق الزواج تحت السيطرة بشكل أو آخر. حيث تعكف الزوجات على الطبخ والتنظيف واستلام الأوامر

واحتمال كافّة الجوانب غير المريحة لوجود الرجل الاعتيادي. بينما في المُقابل يوافق الرجال بسماحة على البقاء قريبًا.

إن هذه النظرية تُجانِبُ المُرادَ، على الرغم ممّا لها من جاذبية. إذ لابُدَّ من التسليم بوجود تسوية ضمن كُل زواجٍ أُحادي. وداخل كُل زنزانة ثنائية تجري تسوية. لكن لا يعني ذلك أن السجّون اخترعتها التسوية بين السجناء. فالتسوية بين الرجال والنساء هي الطريقة التي صمَد بها الزواج الأحادي (حين فُرِضَ عليه ذلك)، ولكنها لا تُفسِّرُ كيف تمكّن الزواج الأحادي من الوصول إلى هنا.

أولى خطوات إجابة سؤال «لماذا الزواج الأحادي» تكمن في فهم أن السؤال، بما يخصُّ بعض المجتمعات أحادية الزواج في السجل الأنثروبولوجي - بضمنها كثير من ثقافات الصيد وجمع الثمار - لا يُعَدُّ مُحيّرًا كُليًا. فهذه المُجتمعات حامَت قُرْبَ مستوى الكفاف. ففي مثل هذه المُجتمعات، حيث يُدَّخرُ القليل لأجل يومٍ ماطر، قد ينتهي الرجل الذي يُقَسِّم موارده بين عائلتين إلى امتلاك قليل منَ الذرّية أو من دون شيء منها. وحتى لو كان على استعداد للمراهنة على إعالة عائلة ثانية فسيواجه مشكلة في اجتذاب زوجة ثانية. إذ ما الذي يُجبر امرأة على القبول بنصف رجل فقير وهي تملك إمكانية احتكار واحد تامّ لنفسها؟ غياب الحبّ؟ ولكن لكم مرّة سيفشل الحبّ فشلًا ذريعًا في أداء وظيفته؟ تذكّر أن وظيفة الحب الرئيسة اجتذاب الرجل الصالح للذريّة. وأيضًا، لماذا على عائلة العروس التسامح مع مثل هذه الحماقة؟ لا سيما وأن في عائلات المجتمعات ما قبل الصناعية غالبًا ما تفرض عائلة العروس اختيارها بقوّة وبراغماتية.

ينطبق المنطق نفسه تقريبًا إذا كان المجتمع فوق مستوى الكفاف قليلًا وغالبية الرجال فيه فوق المستوى بقليل. إن المرأة التي تختار نصف زوج على آخر تامّ لا تزال ترضى بما هو أقلّ بكثير من حيث الرفاهية الماديّة.

المبدأ العام أن المساواة الاقتصادية بين الرجال - ولا سيما لو كانت قريبة من مستوى الكفاف - تدفع إلى قَصرِ دائرة تعدُّد الزوجات. ويُبدِّدُ هذا الحثُّ

نفسه جزءًا كبيرًا من اللغز المحيط بالزواج الأحادي، ذلك أن أكثر من نصف المجتمعات أحادية الزواج المعروفة مُصنَّفة من قبل علماء الأنثروبولوجيا على أنها «غير طبقيّة». وما يتطلّب إيجاد تفسير حقًا هي الدزائِنُ الستّ من المجتمعات في تاريخ البشرية، بضمنها الأمم الصناعية الحديثة، التي كانت أحادية الزواج وطبقية الاقتصاد في الوقت نفسه. وما هذه إلّا من جُملة نزوات الطبيعة الحقّة.

وقد تمَّ التشديد على مفارقة الزواج الأحادي في الأوساط متفاوتة الترف من قبل ريتشارد ألكسندر خاصّة، وهو أحد أوائل البيولوجيين الذين طبقوا الأنموذج الجديد على السلوك الإنساني. حين يُعثر على الزواج الأحادي في الثقافات الحيّة عند مستوى الكفاف، ويدعو ألكسندر ذلك بـ«المفروضة بيئيًا». وحين ظهورها في الثقافات الأكثر ترفًا وطبقيّة، يدعوها هنا بـ«المفروضة اجتماعيًا». السؤال هو: لماذا يفرضها المُجتمع؟

قد يُسيء مصطلح «المفروضة اجتماعيًا» إلى المُثُل الرومانسية لبعضهم. حيث يبدو ذلك كأنه يُلمح، بافتراض غياب قوانين الجمع بين زوجين، إلى جري النساء وراء المال والقبول بمكانة الزوجة الثانية والثالثة، فرحاتٍ طالما المال وافر. ولا يُستعمل حشد الاصطلاحات بخفّة هنا. إذ هناك ميلٌ لأن يحدث الزواج المتعدّد وسط أنواع الطيور التي يتحكّم ذكورها بالأراضي ذات التباين الحادّ في الكمّية والنوعية. فبعض إناث الطيور تسعَد بمشاركة ذكر واحد طالما يسيطر على أراضٍ أكثر من أي ذكر آخر يَنشدون الاستثمار فيه. مُعظم إناث البشر سيرغبن في الاعتقاد بأنهن مُنقادات بنوع من الحب الأثيري، ومتمتّعات بفخر يزيد إلى حدّ ما عمّا يملكه طائر النمنمة.

وهنَّ يفعلن ذلك بالطبع. إذ حتى في الثقافات متعددة الزوجات، غالبًا ما تكون النساء أقلَّ رغبة في مشاركة رجل مع إحداهنَّ الأخرى. إلّا أنهنَّ يُفضِّلنَ في العادة ذلك على عيش حياتهنَّ في فقر رفقة رجل غير جدير يَمنحهنَّ كامل اهتمامه. من السهل على امرأة حَسنة التعليم رفيعة المكانة السخرية من فكرة قبول امرأة تحترم نفسها المعاناة عن طيب خاطر

مـن انحطاط تعدُّد الزوجات، أو إنكار مسـألة تركيز المرأة الكبير على دخل الرجل. لكن نادرًا ما تلتقي نسـاء الطبقـة العليا رجلًا متدنّي الدخل، ناهيك عن احتمال الزواج بأحدهم. فمحيطهنَّ منسجم اقتصاديًا لدرجة لا تجعلهنَّ يقلقن بشـأن الاقتران مع مُعيل محدود الدخل؛ حيث يُمكن لهنَّ إعادة تركيز بحثهنَّ وقضاء الوقت في التفكير بذائقة رفيقهنَّ الموسيقية والأدبية المحتملة. (ومـا هـذه الأذواق إلّا ملامح لحالة الرجل الاجتماعيـة والاقتصادية. وهي تذكرة بأن التطور الداروينـي للشريك لا يحتاج لأن يكون داروينيًا عن وعي).

ما في صالح اعتقاد ألكسندر عن أن هناك شيئًا مصطنعًا بشأن المجتمعات أحادية الزواج الغاية في الطبقية هو حقيقة أن تعدد الزوجات يميل للاستتار بعناد أسفل السطح. حيث رغم أن اتخاذ عشيقة لا زال يُعدُّ فاضحًا اليوم إلى حـدّ ما على الأقل، لكن يبدو أن عددًا من النسـوة لم يَزلنَ يُفضّلن هذا الدور عـلى دور الـضرّة: التزام أكبر من رجل أفقر - أو ربـما من دون التزام من أي رجل.

منذ أن بدأ ألكسـندر التشـديد على هذين النوعين من المجتمعات أحادية الـزواج، اسـتقطب نوعًا جديـدًا وأكثر براعـة من الدعم. حيـث أظهر عالما الأنثروبولوجيـا سـتيفن غولـين وجيمس بوسـتر أن المهر - أصـول منقولة مـن العـروس إلى عائلة العريس - وجد حصريًـا إلى حد ما لدى المجتمعات التـي يُفرض فيها الزواج الأحـادي اجتماعيًا. إن ٣٧٪ مـن هذه المجتمعات الطبقية غير المتسـامحة مع تعدد الزوجات لديها مهر، في حين أن ٢٪ فقط من مجمـوع المجتمعات أحادية الـزواج غير الطبقية تتبنّى هذا العُرف. (بالنسـبة إلى المجتمعـات متعـددة الزوجـات فـإن النسـبة تبلغ حوالي ١٪ فحسـب). ولنضـع الأمر بشـكل مُختلـف: على الرغم مـن أن ٧٪ فقط مـن المجتمعات المُسـجّلة تفـرض الـزواج الأحادي اجتماعيًـا، إلّا أنها تمثـل ٧٧٪ من مجموع المجتمعـات التـي تتبنّـى عُرفَ المهْـر بوصفه تقليدًا. يشـير ذلـك إلى أن المهر هـو نتاج اختـلال في السـوق، واحدُ مـن عراقيـل التجـارة الزوجية؛ حيث يجعـل الزواج الأحادي، بإجباره كل رجل عـلى الاكتفاء بزوجة واحدة، من

الرجال الأثرياء عملة نادرة، والمهر هو الثمن المدفوع لأجلهم. ويُفترض أن تعدُّد الزوجات إذا ما قُنِّنَ فلا بدَّ للسوق من تصويب نفسه: حيث بدلًا من اجتذاب الذكور الأثرى (وربما الأوسم وأصحاب الأجسام المشدودة وأي شيء آخر يُمكن عدّه بمثابة ثروة جزئيًا) مهورًا أكبر، فإنهم سيحوزون عددًا أكبر من الزوجات.

فائزون وخاسرون

إذا ما تبنينا هذه الطريقة في النظر إلى الأمور - إذا ما تخلينا عن المنظور الغربي المتمحور حول الإثنية وقبلنا افتراضًا بوجهة النظر الداروينية القائلة: إن الرجال (بوعي أو من دونه) يرغبون في أكبر عدد ممكن من آلات توفير الجنس وإنتاج الأطفال يُمكن لهم احتماله بأريحية، بينما ترغب النساء (بوعي أو من دونه أيضًا) في تعظيم الموارد المتاحة لأطفالهنّ - حينها فقط سيُمكننا ربما تفسير سبب شيوع الزواج الأحادي بيننا اليوم: في حين يُصوَّر المجتمع مُتعدِّد الزوجات بوصفه شيئًا يُحبّه الرجال وتكرهه النساء، بينما واقعًا لا وجود هناك لإجماع طبيعي ضمن كلا الجنسين على هذه المسألة. من الواضح أن النساء المتزوجات من رجل فقير اللاتي يُفضلن امتلاك نصف رجل غني عوضًا عمّا لديهنّ لا تمنحهنَّ مؤسسات الزواج الأحادي خدمة مقبولة. ومن الواضح أن الزوج المسكين الذي يَرْغَبن بهجره عن طيب خاطر لن يخدمه تعدّد الزوجات.

وهذه التفضيلات الساخرة ظاهريًا لا تقتصر على الأشخاص القريبين إلى قاع سلم الدخل. في الواقع، ومن منظور دارويني محض، قد يكون معظم الرجال بحال أفضل داخل نظام أحادي الزواج بينما معظم النساء على النقيض من ذلك في حال أسوأ. وهذه نقطة هامّة تتطلب انعطافة توضيحية موجزة.

تأمل أنموذجًا فجًا ومهينًا وفي الوقت نفسه مفيدًا من الناحية التحليلية لسوق الزواج. حيث يتمّ تصنيف ألف رجل وألف امرأة من حيث مرغوبيتهم

بوصفهم أزواجًا. حسنٌ: في الحياة الواقعية لا وجود لاتفاق كامل على مثل هذه المسائل. إلّا أن هناك أنماطًا واضحة. إذ قلّة قليلة من النساء قد تُفضِل رجلًا عاطلًا بلا هدف على آخر طموح وناجح، وإن تساوت بقيّة الصفات جميعها؛ كما نادرًا ما يختار الرجال امرأة بدينة قبيحة بليدة على أخرى جميلة رشيقة نبيهة. ولأجل تحقيق تقدّم فكري دعونا نعجن بشكل ميسر جوانب الجاذبية هذه وغيرها في بُعدٍ واحد.

لنفترض أن أشخاصًا يبلغ عددهم ٢٠٠٠ فرد يعيشون ضمن مجتمع أحادي الزواج وكل امرأة مخطوبة لرجل يُشاركها ذات المكانة وتنتظر الزواج منه. كل فتاة سيُعجبها الزواج من رجل أرقى مكانة، لكنها ستجد أن الجميع قد أُخِذ من قبل منافسات يَفُقْنَها مكانة. يرغب الرجال أيضًا في الزواج من امرأة رفيعة المكانة، ولكنهم لا يستطيعون ذلك للسبب نفسه. والآن قبل أن يتزوَّج أي من هؤلاء المخطوبين، دعونا نُقنِّن تعدُّد الزوجات ونمحو بالسحر وصمة العار الملحوقة به. ولنفترض أن امرأة واحدة على الأقل مرغوبة أكثر من المتوسّط - امرأة جذابة للغاية ولكنها ليست مفرطة الألق، ولنقل أن ترتيبها ٤٠٠ - تخلّت عن خطيبها. (الذكر #٤٠٠، يعمل بائعًا للأحذية) وقررت القبول بمكانة زوجة ثانية لمحامٍ ناجح (الذكر #٤٠). قد لا يبدو ذلك عصيًا على التصديق - حيث هجرتْ دخلًا سنويًا يُقدّر بـ٤٠ ألف دولار، واحدًا يُمكنها تحقيقه بنفسها إذا ما عملت بدوام جزئي في بيتزا هات، لصالح ما يقارب الـ١٠٠ ألف دولار في السنة ومن دون الحاجة للعمل بنفسها (ناهيك عن حقيقة كون الذكر #٤٠ راقصًا أبرع من نظيره الـ#٤٠٠).

حتى مثل هذه الدفقة الصغيرة تجاه تعدد الزوجات بإمكانها جعل أغلب النساء في حال أفضل وترك أغلب الذكور في حال أسوأ. حيث سيُمكن لجميع النساء الـ٦٠٠ القابعات خلف الخطيبة المتمرّدة في الترتيب الارتقاء درجة واحدة لسدّ الفراغ المُتخلّف؛ حيث سيحصلن على زوج كامل أفضل لأنفسهنّ. وفي هذه الأثناء سينتهي الحال بـ٥٩٩ رجل مع نساء أدنى مرتبة

من خطيئاتهم السابقات - كما أن هناك رجلًا قابعًا في الترتيب الأخير سيظلّ من دون زوجة. لكن يجب الاعتراف أن في الحياة الحقيقية، لن يُمكن للنساء الارتقاء رتبة واحدة بالتساوي. ففي مرحلة مبكّرة من هذه العملية، قد تجد امرأة، بعد تأمّل في مختلف عوامل الجاذبية غير المُدركة، اختارت البقاء رفقة شريكها. ولكن في الحياة الواقعية أيضًا قد تحصل على ما هو أكثر من دفقة صغيرة تصاعديّة في المقام الأول. النقطة الأساسية هي: إن كثيرًا جدًا من النساء، ومن بينهنّ كثيرات ممّن سيخترن عدم مشاركة رجل مع أخرى، سيوسّعن من خياراتهنّ إذا ما وجدن أن كثيرات على استعداد لقبول مشاركة رجالهنّ مع أخريات. وبالمنوال نفسه، سيزداد عدد الرجال الذين سيعانون من تعدد الزوجات أكثر وأكثر.

إذن يفتقر الزواج الأحادي المؤسساتي بالمُجمل للمساواة بالتأكيد نظرًا لآثاره على النساء، على الرغم من النظر إليه غالبًا بمثابة انتصار كبير للمساواة والنساء. إذ من شأن تعدد الزوجات توزيع أصول الذكور بين النسوة بمزيد من المساواة. إن من السهل - والحكيم - بالنسبة إلى الزوجات الجميلات المَرِحات المتعاونات مع عمالقة شركات الرياضة والمواد التجميلية رفض تعدد الزوجات بعدّه انتهاكًا لحقوق النساء الأساسية. لكن النساء المتزوجات اللاتي يَحْيين تحت وطأة الفقر - أو العازبات أو العقيمات أو المفتقدات لكلا الأمرين - يُمكن أن يُعْذَرن على سؤالهنّ عن أي الحقوق تلك التي يحميها الزواج الأحادي لصالح المرأة. فالمُعدَمون الوحيدون من الناس ممن بإمكانهم الانتفاع من الزواج الأحادي هم الرجال. حيث ذلك هو ما يمنحهم فرصة الوصول إلى مورد الإناث الذي ما كان ليتوفر في حالات أخرى بسبب انجرافه لمستويات أعلى.

لذلك فإن أيًا من الجنسين عمومًا لا ينتمي إلى أي جانب من جانبي طاولة المساومة المُتخيّلة التي أسفرت عن عُرْف الزواج الأحادي. لا يُعدّ الزواج الأحادي سلبيًا بالنسبة إلى الرجال في العموم ولا إيجابيًا للنساء إجمالًا؛ حيث تتضارب المصالح طبيعيًا ضمن كلا الجنسين. الأكثر استساغة

هـو أن التسـوية التاريخيـة الكـبرى قد عُقِـدَت بين الرجـال الأكثـر والأقلّ حظًّا. فمؤسسـة الزواج الأحادي تُمثّل بالنسـبة إليهم تسـوية حقيقية: حيث يظـلّ الرجال الأسـعد حظًّا يحصلون على أكثر النسـاء مرغوبيـة، وفي المقابل يُجـبرون على الاكتفاء بواحدة. إن هذا التفسـير للزواج الأحادي - كتقسـيم للملكية الجنسـية بين الرجال - له ميزة الاتسـاق مع الحقيقة التي افتتحنا بها هذا الفصل: وهي أن الرجال هم المتحكّمين عادة بمقاليد السـلطة السياسية بشكل مُطلق، وهم الذين عقدوا مُعظم الصفقات السياسية الكبيرة تاريخيًا.

هـذا لا يعنـي بالطبع جلوس الرجـال فعليًا يومًا ما والتوصّل إلى تسـوية مفادهـا أن لـكلّ رجـل امرأة واحـدة. لكن المسـألة بدلًا عن ذلـك أن تعدد الزوجات مال إلى التلاشي استجابة لقيم المساواة - والمقصود ليس المساواة بين الجنسـين، ولكن بين الرجال. وربما تكون «قيم المسـاواة» طريقة غاية في التهذيب لوضع هذه المسـألة. فمع توزيع السـلطة السياسـية عـلى نحو أكثر توازنًا، صار من غير المُحتمل احتكار الرجال الأرفع مكانة للنسـاء. ليسـت هناك كثير من الأشـياء التي تقض مضجع طبقة النخبة الحاكمة مثل حشـود من الرجال البُتْر المتعطّشين للجنس ممن لا يحوزون سوى القليل من السلطة السياسية.

تظـل هـذه الفرضية مُجـرّد فرضية. لكـن الواقع يتناسـق معهـا على نحو فضفـاض إلى حـدّ مـا. أظهـرت لاورا بيتـزغ أن في مجتمعات ما قبـل الثورة الصناعية، غالبًا ما يسـير تعدّد الزوجات المُفرط يدًا بيد مع الهرمية السياسـية الصارمـة، ويبلـغ ذروته في ظل الأنظمة الأكثر اسـتبدادًا. (بين الزولو الذين يُحصِّـبُ ملكهـم أكثـر من مائة امـرأة، كانت عقوبـة من يَسـعل أو يبصق أو يعطس في حضرة مائدة طعامه الإعدام). وغالبًا ما كان توزيع الموارد الجنسية بحسـب الحالة السياسـيّة دقيقًـا وصريحًـا. وفي مجتمع الإنكا كانت سـقوف التوزيع للمكاتب السياسية الأربعة من صغار المسؤولين وحتى كبارهم هي سـبعة، ثمانية، خمسة عشر، وثلاثين امرأة للشخص على التتابع. ومن المنطقي أن توزيع السـلطة وانتشـارها بنطاق واسـع دفع إلى توزيع الزوجات كذلك

بالنتيجـة. وإن النطـاق النهائـي للتوزيـع كان صوتـًا واحدًا انتخابيـًا وامرأة واحـدة لكل رجـل. ولا يزال هذان الأمران يميّزان معظـم الدول الصناعية اليوم.

سـواء أكانـت صحيحـة أم خطـأ فهـذه النظريـة الخاصة بأصـل الزواج الأحـادي المؤسـسي الحديـث مثال عـلى مـا بإمـكان الداروينيـة تقديمه إلى المؤرخـين. حيث لا تحاول الداروينية تفسـير التاريخ على أنـه تطوّر بالطبع؛ إذ لا يعمـل الانتقـاء الطبيعـي بالسرعة الكافية لإحداث تغيير على مسـتوى الثقافـة والسياسـة، ولكنّه شـيّد العقول المسـؤولة عـن قيادة التغيـير الثقافي والسـياسي، وقـد يوفّر فهم كيفية تشـكيله هـذه العقول رؤيـة جديدة لقوى التاريـخ. في العـام ١٩٨٥، نـشر المـؤرخ الاجتماعـي البارز لورينس سـتون مقالة شـدّد فيهـا على الأهمية الملحمية للتوكيد المسـيحي المبكّر على إخلاص الأزواج ودوام الـزواج. وبعـد مراجعة بضع نظريات عن كيفية انتشـار هذا الابتكار الثقافي، خَلَصَ إلى أن الإجابة «تظلّ غامضة». ربما يسـتحق التفسير الداروينـي – عن أن الزواج الأحادي، بالنظر للطبيعة البشرية، تعبيرٌ صريح عن المسـاواة السياسـية بين الرجال – الالتفات على الأقل. فقد لا يكون من قبيل المصادفة أن المسيحية، التي خدمت بمثابة راعٍ للزواج الأحادي سياسيًا وفكريًا، غالبًا ما حملت رسالتها إلى الرجال الفقراءِ والضعفاء بشكل خاص.

ما الخطأ في تعدد الزوجات؟

يُعقِّـد هذا التحليـل الداروينـي للزواج الاختيـار بين الـزواج الأحادي والمُتعدِّد. ذلك لإظهاره أن الخيار ليس بين المساواة وعدمها، بل بين المساواة وسط الرجال ووسط النساء. أمرٌ يصعبُ الحكم فيه.

وهنـاك كثير من الأسـباب التـي بالإمـكان تصورها لصالـح التصويت للمسـاواة بـين الرجـال (أي للزواج الأحـادي). وإحداها تفـادي الغضب العـارم للنسـويات القانعـات بـأن تعـدد الزوجـات لا يعـدّ تحريرًا للنسـاء المضطهدات، أمّـا الآخر أن الزواج الأحادي هو النظام الوحيد الذي يُمكن

عـبره توفـير رفيقة لكل رجل، مـن الناحية النظرية على الأقل. لكن السـبب الأقـوى يكمن في أن تـرك كثير من الرجال من دون زوجات وأطفال لا يُعدُّ تمييزًا فقط، بل وفيه خطورة أيضًا.

والمصـدر الأسـاس للخطر هـو الانتقاء الجنـسي بين الذكـور. حيث لطالما نافـس الذكـور بعضهم بعضًا على الوصول إلى الموارد الجنسـية النـادرة المتمثّلة بالنسـاء. وإن تكاليف خسـارة هذه المنافسـة مرتفعة للغايـة (الاندثار الجيني) لدرجـة أن دَفَعَهم الانتقـاء الطبيعي إلى التنافس بضراوة فريدة. يُمارس الرجال في جميع الثقافات نسـبة أعلى من العنف، بما في ذلك القتل، مقارنة بالنسـاء. (في الواقع فإن الذكور في المملكة الحيوانية هم الجنس الأكثر عدوانية باستثناء بعض الأنـواع كطيور الفلروب، حيث يكون الاسـتثمار الوالـديّ للذكر مرتفعًا جدًا بحيـث يمكـن للإناث تجاوز الذكور في التكاثـر)، وحتى حين لا يكون العنف موجهًـا ضـد منافس جنسي، فغالبًـا ما يكون نِتاجًا للتنافـس الجنسي. فقد تثور الغـيرة حتى يقتل رجلٌ الآخر لأجل «حفظ ماء الوجه» - لكسـب ذلك النوع من الاحترام الفجّ الذي كان يُعدُّ في بيئة الأسـلاف سببًا لرفع المكانة واجتلاب المكافئات الجنسية.

ولحسن الحظ يُمكن لجملة من الظروف تثبيط عنف الذكور. ومن بين هذه الظروف اكتسـاب شريكة. نحـن نتوقع من الرجال العُـزّاب التنافس بضراوة فريدة، وهو توقّع صائب. إن عازبًا يبلغ من العمر ٢٤ - ٣٥ عامًا يزيد احتمال قتله رجلًا آخر ثلاثة أضعاف بالمقارنة مع رجل متزوج في العمر نفسه. ولا شك أن يُرجّح بعضهم هذا التباين بوصفه انعكاسًـا لنوعية الرجال الذين يتزوّجون والذيـن لا يتزوّجون بوصفها بداية، لكن مارتن دالي ومارغو ويلسـون جادلا بشكل مُقنع أن جزءًا كبيرًا من التباين ربما يكمن في «التأثير المُهدِّئ للزواج».

فالقتـل ليس الـشيء الوحيد الذي يُرجّـح أن يرتكبه الرجل «غـير المُهَدَّأ». فهو عرضة كذلك لارتكاب جملة مختلفة من المخاطرات - السرقة، على سـبيل المثـال - لكسـب مزيد من الموارد التـي قد تعينه على اجتذاب النسـاء، كما وأنه أكثـر ترجيحًا للاغتصاب. ما هو أكثر أن الحياة الإجرامية عالية المُخاطرة غالبًا

مـا تنطوي على تعاطٍ للمخـدرات والكحول، ما يؤدي إلى تفاقم المشـكلة عبر تقليـص حظـوظ الرجل بكسـب المزيـد من المال لاجتذاب النسـاء بالوسـائل المشروعة.

ربـما تكون هذه هـي المُحاججة الأفضـل على الزواج الأحـادي، لما فيه من آثار مساواتية على الرجال، فغياب المساواة بين الذكور لها أثر تدميري أكبر على المُجتمـع - بطرق تؤذي كُلًّا من النسـاء والرجال - مقارنة بغيابها بين النسـاء. فأمّـة تتبنـى تعدّد الزوجات، بحيث يظلّ كثير مـن رجالها منخفضي الدخل بلا زواج، ليست من نوعية الأمم التي يرغب أكثرنا العيش فيها.

لسـوء الحـظ فإن هـذه بالـذات هي نـوع الأمّـة التي نحيـا فيهـا. إذ لم تعد الولايـات المتحـدة دولة الزواج الأحادي المؤسـسي، بل أمّة الـزواج الأحادي المتسلسـل. ويرقـى الزواج الأحادي المتسلسـل في أحيان إلى تعـدّد الزوجات. أمـضى جوني كارسـون، حاله حال كثـير من الرجـال الأثرياء رفيعـي المكانة، حياته المهنية في احتكار فترات طويلة من سـنوات الإنجاب لسلسلة من النساء الشابّات. ففي مكان ما هناك رجل يرغب في امتلاك عائلة وزوجة جميلة، ولولا جون كارسون، ربما كان ليتزوج من إحداهنّ. وفي حال تمكّن ذلك الرجل من العثـور عـلى امرأة أخرى، فهـو بذلك قد اختطفها بالمثل مـن براثن رجل آخر. وهكـذا دواليـك - تأثـير الدومينو: حيـث تزحف ندرة النسـاء حتى تصل إلى أقصى حوافّ النطاق الاجتماعي.

بقـدر مـا يبدو هذا نظريًا، ولكن لا يسـعه إلّا أن يحدث. فـكل امرأة لها ٢٥ عامًا من الخصوبـة تقريبًا. وعندمـا يُهيمن بعض الرجال عـلى فترات خصوبة تزيـد عـن الـ٢٥ عامًـا، فهناك رجل ما في مـكان ما يفقد فرصة الاسـتفادة من بعـض سـنوات الخصوبة هـذه. وحينما تضيـف إلى جميع الأزواج المتسلسـلين بعـض الشـباب الذين يعيشـون رفقة امرأة لمدّة خمس سـنوات قبـل تقرير عدم الـزواج منها، ثـمّ يُعاودون ذلك مُجدَّدًا (ربما حتى يبلغـوا الـ٣٥ فيتزوجون من امـرأة بعمـر الــ٢٨)، فيُمكن لصافي التأثـير أن يكون كبـيرًا. وفي الوقت الذي كانـت فيـه نسـبة البالغين من العمـر ٤٠ عامًا مـن غير المتزوجـين عام ١٩٦٠

هي نفسـها تقريبًا بالنسـبة إلى الرجال والنسـاء، فقد صار الفارق واسعًا للغاية لصالح الرجال بحلول العام ١٩٩٠.

ليـس جنونًا الاعتقاد بـأن هناك مدمنين على الكحـول ومغتصبين مُشرَّدين لـو أنهـم نالـوا فرصة بلوغ سـنّ الرشـد خـلال المنـاخ الاجتماعي للسـتينيات وسـط موارد نسـائية موزّعة بالتسـاوي لكانـوا قد وجدوا لأنفسـهم زوجة في وقـت مبكّـر وتبنّوا أسـلوب حياة أقلّ مخاطـرة وتدميرية. عـلى أي حال، أنا لا أضطـرّك لتقبّل هـذا المثال التوضيحي كي تتقبّل بيت القصيد نفسـه: ألا وهو، إن كان لتعـدّد الزوجـات آثـار ضارّة على رجـال المُجتمع الأقـلّ حظًّا بالفعل، وأخـرى غـير مباشرة عـلى بقيّتنـا، فلا يكفـي فقط معارضـة تعـدّد الزوجات المُقنَّـن. (على أي حال، لم يكـن تعدد الزوجات المُقنَّن خطرًا سياسـيًا داهمًا منذ آخـر مـرّة تحقّقت فيها من ذلك)، إنّما علينا القلق بشـأن تعدّد الزوجات الفعلي غـير المُقنَّن. ليس السـؤال عمّا إذا كان بالإمكان إنقـاذ الزواج الأحادي، ولكن فيما لو بالإمكان اسـتعادته. وربما لن يبتهج لمشاركتنا في استجوابنا هذا الرجال العازبون السـاخطون فقط، بل وستسـعدُ أعداد كبيرة من الزوجات السابقات السـاخطات في مشـاركتنا أيضًا - ولا سـيما تلك النسـوة سـيئات الحظ اللاتي تزوّجنَ رجالًا أقل ثراءً من جوني كارسون.

الداروينية والمُثُل الأخلاقية

إن هـذه الرؤيـة بخصوص الـزواج مثال ميسر عن كيـف يُمكن ولا يُمكن للداروينيـة إيجاد طريق ولوج شرعي للخطاب الأخلاقي. ومما لا يُمكنها فعله تزويدنـا بالقيم الأخلاقية الأساسـية. وإذا ما كنا نريد على سـبيل المثال العيش في مجتمع مسـاواتي فالخيار خيارنا؛ حيث عدم اكتراث الانتقاء الطبيعي بمعاناة الضعيف ليس شيئًا نحتاج إلى مُحاكاته. ولا يجب علينا مراعاة فيما لو كان القتل والسرقة والاغتصاب أشـياء «طبيعية» إلى حدّ مـا. والقرار واقع علينا في تقييم مدى بغض هذه الأشياء وكم نحن على استعداد لمحاربتها.

لكـن بمجـرّد اتخاذنا مثل هـذه الخيـارات، بمجـرد تكوين مُثُـل أخلاقيّة،

سيكون باستطاعة الداروينية مساعدتنا على معرفة أفضل المؤسسات الاجتماعية لخدمة تلك المُثُل. وفي هذه الحالة ستُظهر الرؤية الداروينية أن المؤسسة الزوجية السائدة، أي الزواج الأحادي المُتسلسل، مرادفٌ لتعدُّد الزوجات من أوجه عدّة. بمعنى أن هذه المؤسسة يُنظر إليها بامتلاكها آثار تمييزية على الرجال، حيث تعمل بالضدّ من المُستضعفين. كما وتُسلّط الداروينية الضوء على تكاليف هذا التفاوت - العنف، والسرقة، والاغتصاب.

وفي ضوء ذلك، تفترض الجدالات الأخلاقية القديمة وجود طاقم جديد. على سبيل المثال، بدأ ميل المحافظين السياسيين لاحتكار حجّة الدفاع عن «قيم العائلة» يظهر بشكل غريب. أمّا الليبراليون القلقون بشأن المحرومين و«المُسببات الجذرية» للجريمة والفقر، فقد يطوّرون منطقيًا ولعًا معينًا بـ«القيم العائلية»؛ حيث إن انخفاض معدلات الطلاق عبر إتاحة المزيد من الشابّات لمتناول الرجال محدودي الدخل قد يمنع عددًا ليس بالقليل منهم من الوقوع في براثن الجريمة وإدمان المخدرات، بل وحتى التشرّد أحيانًا.

ونظرًا للفرص المادّية التي قد يوفّرها تعدّد الزوجات (وبضمنها تعدّد الزوجات الفعلي) للنساء الفقيرات، يُمكن للمرء بالطبع تخيّل جدال ليبرالي ضد الزواج الأحادي. ويُمكن تخيّل جدال ليبرالي نسوي بالضد من الزواج الأحادي. وسيُمكن للمرء في كل مناسبة رؤية أن النسويّة الداروينية ستكون نسويّة أكثر تعقيدًا. فمن منظور دارويني، ليست «النساء» جماعة مُتشاركة المصالح طبيعيًا؛ فلا وجود هناك لأخوابيّة واحدة.

وهناك نوع آخر من التداعيات الناجمة عن المعايير الزوجية الحالية التي يتم التركيز عليها عبر الأنموذج الجديد: الخسائر التي تلحق بالأطفال. كتب مارتن دالي ومارغو ويلسون، «ربما يكون تنبؤ الرؤية الداروينية الأوضح للدوافع الوالديّة هو الآتي: يميل الآباء البديلون عمومًا إلى بذل اهتمام أقل بالأطفال مقارنة بالآباء الطبيعيين»، وبذلك فإن «الأطفال الذين تتمّ تربيتهم في كنف أُناس آخرين غير آبائهم الطبيعيين كثيرًا ما يتعرضون للاستغلال وغير ذلك من المخاطر الأخرى. إن الاستثمار الوالديّ موردٌ ثمين، ولا بدّ للانتقاء

من تفضيل الآباء الذين لا يبدّدونه على غير الأقارب».

بالنسبة إلى بعض الداروينيين، قد يبدو هذا التوقّع منيعًا لدرجة تجعل من مسألة التحقق منه مضيعة للوقت. إلّا أن دالي وويلسون تصدّيا لهذه المشكلة. وما وجداه كان مفاجئًا حتى بالنسبة إليهم. في أمريكا في أثناء العام ١٩٧٦، كان الطفل الذي يعيش مع والد بديل أو اثنين أكثر عرضة لسوء المعاملة المُهلكة بحوالي مائة مرة مقارنة بقرينه المتربّي في كنف والدين طبيعيين. وفي إحدى المدن الكندية في أثناء الثمانينات، كان الطفل البالغ من العمر عامين أو أقل أكثر عرضة للقتل من قبل والده بسبعين ضعفًا إن كان أحد والديه بديلًا مقارنة بغيره ممن تربّى في كنف والدين طبيعيين. والأطفال من ضحايا جرائم القتل لا يُمثّلون، في واقع الأمر، سوى كِسرة ضئيلة من الأطفال الرابين في كنف والدٍ غير طبيعي؛ فطلاق الأم وزواجها ثانية لا يُمكن عدّه بمثابة حكم بالإعدام على الطفل. لكن ضع في ذهنك مشاكل إساءة المعاملة الأكثر شيوعًا، تلك التي لا تؤدي إلى الموت بالضرورة. حيث كان الأطفال دون سن العاشرة، بحسب أعمارهم ونوع الدراسة المعنيّة، أكثر عرضة لمعاناة سوء المعاملة الوالديّة بثلاثة أضعاف إلى أربعين ضعفًا في حال كانوا يعيشون رفقة والد بديل أو اثنين مقارنة بالأطفال الذين يعيشون مع أبوين طبيعيين.

من العدل استنتاج أن كثيرًا من أشكال عدم الاكتراث الوالديّ الأقل دراماتيكية وغير الموثقة تنبع من هذا النمط الفظ. فبعد كل شيء، كان السبب الرئيس وراء ابتكار الانتقاء الطبيعي للحبّ الوالدي لأجل بذل المنافع على الذريّة. وعلى الرغم من دعوة البيولوجيين هذه المنافع بـ«الاستثمار»، فلا يعني ذلك أنها ماديّة بالضرورة أو مستدامة كليًا على الدوام. يمنح الآباء أبناءهم كل أنواع الوصاية والتوجيه (وفي العادة بدرجة تزيد عمّا يُدركه كُلٌّ من الأب والابن) وحمايتهم ضد جميع أشكال الخطر. ولا يُمكن للأم وحدها حمل المسؤولية برمّتها. ولن يكون زوج الأم على استعداد لتحمّل كمّ كبير من هذه المسؤولية أيضًا، هذا إن قَبِلَ بحمل شيء من الأساس. من وجهة النظر الداروينية، يُعدُّ ابن الزوج/ـة عقبة أمام اللياقة، ومُستنزفًا للموارد.

هناك طرق للاحتيال على الطبيعة الأم من أجل حث الآباء على محبّة أطفال ليسوا من صُلبهم. (منها الدياثة). فبعد كل شيء، لا يُمكن للناس الشعور تخاطريًا بأن الطفل المعني حاملٌ لجيناتهم. فهم بدلًا من ذلك يعتمدون على إشارات كانت دالّة بالقدر نفسه في بيئة الأسلاف. فلو عملت امرأة على إطعام واحتضان رضيعها يومًا بعد يوم، ربما ستُنمّي محبّة لهذا الطفل، وكذلك بالنسبة إلى الرجل الذي سيرقد إلى جانبها لسنوات. إن هذا النوع من الترابط هو ما يجعل الأطفال المُتبنّين محبوبين والمُربّيات مُحِبّات. لكن كلًّا من النظرية والملاحظة العرضية يقترحان أن كلما كَبُرَ عُمر الطفل وقت لقائه الأول بوالديه غير الطبيعيين، قلَّ احتمال الترابط العميق بينهما. وإن غالبية الأطفال الذين يحصلون على آباء بالتبنّي هم ممن تجاوزوا بالكاد سنّ الرضاعة.

يُمكن للمرء تخيُّل جدالات بين العُقلاء والإنسانيين حول ما إذا كان المجتمع أحادي الزواج المُتشدّد أفضل من آخر مُتشدّد في تعدد الزوجات. ولكن هذه المقارنة تبدو أقلّ مثارًا للجدل: حيث متى ما سُمِحَ للمؤسسات الزوجية - في أيٍّ من المُجتمعَين - بالانحلال، حيث يتفشّى الطلاق وتنتشر أمومة غير المتزوجات، وحيث يزداد عدد الأطفال الذين لا يعيشون في كنف والدين طبيعيين، فسيترتّب على ذلك إهدار هائل للمورد التطوّري الأثمن: الحب. ومهما كانت المزايا النسبية للزواج الأحادي والمُتعدّد، فما نملكه الآن - الزواج الأحادي المتسلسل، تعدّد الزوجات الفعلي - هو أسوأ العوالم الممكنة بما لا يقبل الجَدل.

السعي وراء المُثُل الأخلاقية

من الواضح أن الداروينية لن تُيَسِّر دومًا الجدل الأخلاقي والسياسي. في هذه الحالة وعبر تشديد التوتّر بين المساواة وسط الرجال وما بين النساء، فهذا في الواقع يُعقّد سؤال أي مؤسسات الزواج تخدم مُثلنا أكثر. مع ذلك فلطالما كان هذا التوتّر موجودًا؛ المُختلف أنه بات مكشوفًا الآن وبإمكان النِقاش حوله الاستمرار تحت دائرة ضوء أكبر. إضافة إلى ذلك فبمُجرّد تقريرنا،

مستعينين بالأنموذج الجديد، أيّ المؤسسات تخدم مُثلنا الأخلاقية أكثر، سيُمكن للداروينية تقديم نوعها الثاني من الإسهام في الخطاب الأخلاقي: حيث ستُساعدنا على اكتشاف أنواع القوى - أيِّ المعايير الأخلاقية والسياسات الاجتماعية - التي تُساعد على تغذية تلك المؤسسات.

وهنا تدخل مفارقة أخرى في جدلية «القيم العائلية»: قد يتفاجأ المُحافظون من سماع أن إحدى أفضل الطرق لتمكين الزواج الأحادي هي عبر توزيع الدخل بالتساوي. حيث ستشعر الشابّات العازبات بميل أقلّ لإغواء الزوج «أ» بعيدًا عن زوجته «أ» إذا ما امتلك العازب «ب» القدر نفسه من المال. بينما سيشعر الزوج «أ»، إذا ما لم يجتذب نظرات متودّدة من نساء أخريات، بمزيد من الرضا مع الزوجة «أ»، وستقلّ نزعته لملاحظة تجاعيد بشرتها. من المفترض أن تساعد هذه الديناميكية في تفسير سبب ترسّخ الزواج الأحادي ضمن المجتمعات قليلة التفاوت الاقتصادي.

إحدى الحجج الأنموذجية للمحافظين ضدّ سياسات مكافحة الفقر هي التكلفة: فالضرائب تثقل كاهل الأثرياء عبر تثبيط حافزهم للعمل، ما يؤدي إلى خفض الناتج الاقتصادي الإجمالي. ولكن إذا كان تعزيز الزواج الأحادي من ضمن أهداف السياسة، فإن جعل الأثرياء أقلّ ثراءً يُمثل واحدًا من الآثار الجانبية المرحَّب بها. فليس الفقر هو التهديد الوحيد المُتربّص بالزواج الأحادي كما يتّفق الجميع، ولكن الثراء النسبي للأثرياء أيضًا. إن خفض الناتج الاقتصادي الإجمالي عبر خفض ثروة الأثرياء أمر مؤسف بالطبع؛ لكن بمجرّد إضافة عدد من الزيجات المستقرّة إلى فوائد إعادة توزيع الدخل، يجب أن يفقد الأسف شيئًا من وخزته.

قد يتخيّل المرء فقدان هذا التحليل بأكمله أهميته بشكل مُطرد. فبعد كل شيء، مع دخول المزيد من النساء إلى سوق العمل، صار بإمكانهنّ احتمال اتخاذ القرارات الزوجية على نحو أفضل لأجل أمور أخرى غير دخل الرجل. ولكن تذكّر: إننا نتعامل مع عوامل الجذب الرومانسية العميقة للنساء، وليس حساباتهنّ الواعية فقط، وهذه الأحاسيس جرى سكّها في بيئة مُختلفة.

وللحكم عبر الاستعانة بمجتمعات الصيادين وجامعي الثمار، كان الرجل هو المسيطر على أغلب الموارد المادّية في أثناء تطوّر الإنسان. وحتى في أفقر هذه المجتمعات، حيث يصعب اكتشاف التفاوتات في ثروات الذكور، غالبًا ما تُترجم مكانة الأب الاجتماعية ببراعة إلى مزايا تضاف للأبناء، سواء أكانت مادّية أم غير ذلك، بطرق لا تستطيعها المكانة الاجتماعية للأم. وعلى الرغم من أن المرأة العصرية يُمكنها بالطبع التأمل في ثروتها ومكانتها المكتسبة بجهدها ومحاولة وزن قراراتها الزوجية وفقًا لذلك، فإن هذا لا يعني قدرتها على تجاوز تلك الرغبات المتأصّلة التي كانت تحوز قيمة عالية في بيئة الأسلاف. والحقيقة كما يبدو بيّنًا أن المرأة العصرية لم تتجاوزها. أظهر علماء النفس التطوريون أن ميل النساء لتركيز اهتمام أكبر على الوضع المادّي للشريك مقارنة بالرجل مُستمرّ بغض النظر عن مقدار الدخل الحالي أو المتوقّع للمرأة قيد المُساءلة.

وطالما يظلّ المجتمع طبقيًا من الناحية الاقتصادية، فإن التحدي المتمثل في التوفيق بين الزواج الأحادي مدى الحياة والطبيعة البشرية سيظلّ كبيرًا. وقد تكون الحوافز والمثبّطات (أخلاقية و/ أو قانونية) مهمّة في هذا الصدد. تتمثّل إحدى طرق معرفة أنواع الحوافز التي تعمل عن طريق النظر إلى مجتمع طبقيّ اقتصاديًا نجحت فيه الحوافز بالعمل. ولنتّخذ إنجلترا الفيكتورية مثالًا. إن البحث عن الخصائص الأخلاقية التي ساعدت على نجاح الزيجات (حصر الانحلال في حدوده الدُنيا على الأقل) لا يعني بالضرورة وجوب تبنّينا لهذه الخصائص. حيث يُمكن للمرء رؤية «الحكمة» في بعض العقائد الأخلاقية - انظر كيف تحقّقت بعض الأهداف عبر الإدراك الضمني للحقائق العميقة عن الطبيعة البشرية - من دون أن يجدها تستحقّ احتمال الآثار الجانبية المرافقة لها بالمُحصّلة. ولكن يظلّ النظر إلى الحكمة وسيلة جيدة لتقدير ملامح التحدّي الذي واجهته في حينها. والنظر إلى زواج فيكتوري - زواج تشارلز داروين من إيّما - من منظور دارويني يستحقّ بذل الجهد.

قبل العودة إلى حياة داروين، لا بدّ من التحذير بشأن أمر ما أولًا. كُنّا حتى الآن عاكفين على تحليل عقل الإنسان بشكل عمومي؛ حيث تحدّثنا عن

تكيّفـات «الأنواع الأنموذجية» المُصمَّمة من أجـل تعظيم اللياقة. لكن حينما نحوّل تركيزنا من النظر إلى الأنواع عمومًا باتجاه أيّ فرد مُعيّن، علينا ألّا نتوقّع مـن ذلك الشـخص الانكباب على تعظيم لياقته بشـكل مُزمـن خدمة لتمرير جيناته إلى الأجيال المُسـتقبلية. وسـبب ذلك يتجاوز ما شُدِّدَ عليه حتى الآن: أن مُعظم البشر لا يعيشون ضمن بيئات شبيهة إلى حدّ كبير بتلك التي صُمّمت عقولهـم لأجلها. إن البيئات مُتقلّبة، وبضمنها تلك التي صُمِّمت المُتعضّيات لأجلها. وهذا سبب تطوّر المرونة السلوكية في المقام الأول. والتقلُّب بطبيعته لا يقبل السـيطرة. ومثلما وضع جون توبي وليدا كوسـميديس هذا الأمر، «لا يسـتطيع الانتقاء الطبيعي النظر مبـاشرة إلى المُتعضّي الفرد ضمن موقف محدّد ومن ثمّ ضبط سلوكه تكيّفيًا».

إن أفضـل مـا يسـتطيعه الانتقـاء الطبيعي هـو منحنا تكيّفـات - «أعضاء عقليـة» أو «معايـير عقلية» - مجهـزة لمُلاعَبَة الاحتمالات. حيـث يُمكنها منح الذكـور معيار «حُـبّ الذرية» وجعله حسّاسًـا لاحتمال أن يكون النسـل قيد المُسـاءلة من صلب رجل آخر. لكن هذا التكيّف لا يُمكن ضمانه. وقد يمنح الانتقاء الطبيعي النسـاء معيار «الانجذاب إلى البنية العضلية» أو «الانجذاب إلى المكانـة» ومـا هو أكثـر إمكانيّته جعل قـوة الجذب هذه معتمـدة على كافّة أنـواع العوامل ذات الصلـة؛ ولكن حتى أكثر المعايير مرونـة لا يُمكنه ضمان ترجمة هذه الانجذابات إلى ذرية صحيحة وغزيرة الانتاج.

وكما يقول توبي وكوسـميديس فإن البشر ليسـوا «معظّمـي لياقة» غائيّين عمومًـا، وإنّـما «تنفيذيّون تكيفيّون». قـد تحقّق التكيّفـات، أو لا تُحقّق، نتائج جيـدة في كلّ حالة بعينها، وربما ينخفـض مُعدّل النجاح على وجه الخصوص في كافّة البيئات غير الشـبيهة بقرى الصيادين جامعي الثمار. لذلك حينما ننظر إلى تشـارلز داروين فالسـؤال لا يكـون: هل يُمكننا تصوّر الأشـياء التي كان بالإمكان فعلها لنيل ذرية أكثر صلاحًا وأغزر إنتاجًا مما ناله؟ بل السؤال: هل سلوكه مستوعَبٌ بوصفه نتاجًا لعقل شكلتّه حُزمة من التكيّفات؟

الفصل الخامس

زواج داروين

«مثل طفل يمتلك شيئًا يُحبّه بما لا يُقاس، هكذا أتوق للانزواء رفقة الكلمات عزيزتي إيمّا... عزيزتي إيمّا، أقبّل الأكُفّ بمُنتهى التواضع والامتنان، هذه الأكُفّ التي ملأت كأس السعادة لأجلي... هذا ما يفعله الكوخ عزيزتي إيمّا، وتذكّري أن الحياة قصيرة، وأنّ شهرين يُمثّلان سُدُسًا من السنة».

داروين، نوفمبر ١٨٣٨، في رسالة إلى خطيبته، يَحثُّها على إبكار موعد الزواج.

«إن الرغبة الجنسية تحثّ اللعاب على السيلان... ارتباطٌ يُثير الفضول».

داروين، في دفتر ملاحظاته العلمية، من الشهر نفسه والعام نفسه.

في العقد الذي تزوّج في أثنائه داروين، ثلاثينيات القرن التاسع عشر، بلغ متوسّط البريطانيين المُتقدّمين بطلب الطلاق أربعة أزواج كُلّ عام. وهذه إحصائية مُضلّلة من بعض النواحي. إذ رُبّما تعكس جزئيًا ميل الرجال حينها لتفضيل الموت قبل الوصول إلى ذروة أزمات مُنتصف العُمر. (وهناك خطأ في الصورة النمطية؛ إذ تمرُّ الزوجات بأزمة منتصف العُمر أكثر من الرجال

حتى)، وذلك يعكس بالتأكيد حقيقة أن الحصول على إذن بالطلاق كان يتطلّب قانونًا يُصدره البرلمان بالمعنى الحرفي. كما وأن الزيجات كانت تنتهي بطرق أخرى، لا سيما عبر الانفصال المُرتّب بشكل خاص. ومع ذلك ليس هناك من يُنكر دوام الزواج في ذلك الوقت إلى الأبد تقريبًا، ولا سيما ضمن الفئة العليا من الطبقة الاجتماعية المتوسطة التي ينتمي لها داروين. وظلّ الزواج على ذلك الحال حتى منتصف القرن وتحديدًا لما بعد العام ١٨٥٧، وهو العام الذي يسَّر فيه قانون الطلاق خيار الانفصال. كان في الأخلاق الفيكتورية ما يُساعد على دوام الزواج. ولم تصلنا حكايات عن مدى البؤس المتولّد في إنكلترا الفيكتورية بسبب الزيجات الدائمة غير السعيدة. لكنها ما كانت لتتجاوز البؤس المتولّد من انحلال الزواج الحديث. فعلى أي حال، نعرف اليوم أن بعض الزيجات الفيكتورية بدت ناجحة. ومن بين تلك الزيجات الذي بين تشارلز وإيمّا داروين. إذ كان تفانيهما مُتبادلًا وبدا كما لو كان يزداد قوّة بمرور الزمن. حيث أنجبا سبعة أبناء ظلّوا أحياءً حتى بلوغ سن الرشد لم يحمل أيًا منهم ذكريات سيئة عن آباء مُستبدّين. ودَعت ابنتهما هنريتّا زواجهما بـ«الاتحاد المثالي». كما كتب فرانسيس عن والده يقول: «في علاقته مع والدتي، كانت طبيعته الحنونة والعطوفة ظاهرة بأجمل حُلّة عند مرآها، حيث وجد فيها سعادته، وعبرها أصبحت حياته - التي ربما طغت عليها الكآبة - حياة قناعة وبهجة». بالنظر إليه بعيون اليوم، يبدو زواج تشارلز وإيمّا مثاليًا تقريبًا في رقّته وهدوء باله ومتانة وصاله.

آفاق داروين

لا بد من أن داروين كان سلعة مرغوبة للغاية في سوق الزواج الفيكتوري. إذ امتلك قابليّات رابحة وتعليمًا محترمًا وتقليدًا عائليًا يُبشّر بمستقبل مهني باهر، إضافة إلى إرثه الذي يلوح في الأفق. لم يمتاز بالوسامة كثيرًا، لكن ما المشكلة في ذلك؟ حيث كان الفيكتوريون شديدي الوضوح بشأن تقسيم الأدوار الجمالية، وكان تقسيمهم متّسقًا مع علم النفس التطوري: حيث

تجعل الآفاق الماليّة الواعدة الزوج جذّابًا، بينما تكمن جاذبية الزوجة في جمال مظهرها. في المراسلات الكثيرة بين داروين وأخواته – حينما كان طالبًا جامعيًا، أو لاحقًا على متن سفينة البيغل – كثير من أحاديثهم كانت عن الرومانسية، حيث جرى إبلاغه أولًا بأول كُلّ نميمة ونقلنَ له أي عمل استطلاعي أجرنهُ نيابة عنه. يُعايَرُ الرجال بشكل دائم تقريبًا وفقًا لقدرتهم على توفير الاحتياجات الماديّة للمرأة، بينما يُنظر للنساء بصفتهنّ متعة بصرية وبيئة سمعية للرجل. إن النساء المخطوبات حديثًا والأخريات المؤهلات بوصفهن خطيبات مُحتملات لتشارلز دائمًا ما جرى وصفهنّ بـ«جميلة» أو «جذّابة» أو «لطيفة» على الأقل. كتبت كاثرين، أخت تشارلز، لشقيقها عن إحدى المُرشّحات قائلة، «متأكدة أنها ستنال إعجابك. فهي غاية في المرح واللطف، وأجدها رائعة الجمال أيضًا». من ناحية أخرى فالرجال الخاطبون حديثًا، إمّا أن يكونوا ميسوري الحال أو لا يكونون كذلك. كتبت سوزان داروين لشقيقها في أثناء رحلته: «إن قريبتك الساحرة لوسي غالتون قد خُطِبَت للزواج من السيد موليت: الابن البِكر للسيدة موليت البدينة.. يملك الشاب نبيل المَحتد ثروة لا بأس بها، لذا فإنه اقترانٌ يمنح شعورًا عظيمًا بالرضا».

استغرقت رحلة البيغل وقتًا أطول من المتوقّع، وانتهى الأمر بداروين لقضاء خمسة أعوام – في عزّ عشرينياته – بعيدًا عن إنجلترا. لكن كما هو حال عدم أهميّة المظهر، لم يكن تقدّم العمر كذلك أمرًا يدعو للقلق كثيرًا بالنسبة إلى الرجال. حيث غالبًا ما أمضت النساء من طبقة داروين أوائل العشرينيات على عارِضةٍ بارزة بأمل اجتذاب رجل في أثناء ذروة أعمارهنّ. بينما اعتاد الرجال قضاء عشرينياتهم كما فعل داروين – في السعي المُكرّس وراء نوع من المكانة المهنية (و/ أو المال) الذي قد يعينهم يومًا على اجتذاب امرأة في سنّ ذروتها، ولم يكن هنالك داعٍ للعجلة بالنسبة إليهم. حيث كان يُعدّ من الطبيعي زواج امرأة من رجل يكبَرها سنًا، بينما زواج رجل فيكتوري من امرأة تكبره عُدَّ مدعاةً للفزع. حينما كان داروين على متن البيغل، كتبت أخته كاثرين تُفيد بأن قريبهم روبرت ويدغود، والذي كان من سنّ داروين،

قد «وقع في غرام السيدة كرو وقوع الأعور وهامَ في حُبّها غايَة الهيام». في حين ترنّمت أخته سوزان ساخرة: «ليس فارق العمر بينهما سوى ٢٠ عامًا!» وقالت الأخت كارولاين: «امرأة بعُمر يقترب لأن يجعل منها أُمًّا له». وكان عند كاثرين نظرية: «إنها امرأة ذكية، ولا بُدَّ من أن تكون قد أسقطته ضحية حيلها؛ إذ لا تزال تحمل بقايا من جمالها العظيم عونًا لها». بعبارة أخرى: كان نظام كشف العمر لدى الرجل يعمل بالطريقة التي صُمِّمَ لأجلها، إلّا أنه خُدِع بالجمال الدائِم لامرأة - أي بطلعَتِها الشابّة.

لم يكن العالم الذي وجب على داروين لقاء رفيقة فيه شاسعًا. فمُنذ مراهقته جميع المُرشحات المُحتملات كُنَّ يأتين من عائلتين ميسورتين ليستا بالبعيدتين عن منزل داروين في شروزبري. كانت هناك فاني أوين الشهيرة جدًا - «الأجمل والأكثر سحرًا وامتلاءً»، مثلما وصفها داروين حينما كان في الكلية. ثم هناك البنات الثلاث الأصغر لجوزيا ويدغود الثاني، خالُ داروين: شارلوت، وفاني، وإيمّا.

وفي أثناء رحلة البيغل، يبدو أن أحدًا لم يُفكّر في إيمّا بوصفها المرشّحة الأوفر حظًّا للاستحواذ على مشاعر تشارلز - رغم تلميح اخته كارولين، في رسالة بعثتها له في أثناء تلك الفترة، على مضض أن «إيمّا تبدو غاية في الجمال وأحاديثها بالغة المرح»، (ما الذي يريده الرجل أكثر من ذلك؟) وكما سيُسَيّرُ القدرُ الأمر، سُرعان ما سيتمّ إسقاط المرشّحات الثلاث الأخريات.

أول من أُسقِطَت من لائحة الترشيحات كانت أخت إيمّا المدعوة شارلوت. إذ كتبت في يناير عام ١٨٣٢ إلى داروين معلنة عن خطوبتها غير المتوقعة لرجل اعترفت بأن لديه «قليل من الدخل فقط الآن» ولكنه مُقبل على إرث كثير بمُجرّد وفاة جدّته، ثم إن لديه على كُلِّ حال «مبادئ رفيعة وطباعًا لطيفة ما يمنحني شعورًا بالأمان. . .» (ترجمة ذلك: موارده وشيكة، ورغبته موثوقة في الاستثمار الأبوي بنسبة ١٠٠٪.) ربما كانت شارلوت، في الحقيقة، حصانًا أسودَ بما أن تشارلز كان مهتمًا بها. وعلى الرغم من إثارتها إعجابه وإعجاب شقيقه إرازموس - حيث اعتادوا الإشارة لها بـ«التي

لا تُضاهى» - فقد كانت أكبر من تشارلز بما يزيد على العَقْد؛ وربما كان إيرازموس أكثر غرامًا بها (مثلما بدا حاله مع جملة من النساء اللاتي لم يتزوّج أيًا منهنّ في النهاية).

وربما كان الأمر الأكثر إثارة للقلق من مصير شارلوت هي الأخبار المتزامنة تقريبًا المُفيدة بأن الغاويَة فاني أوين كانت على وشك اتخاذ قرار طال التفكّر فيه. حيث كتب والد فاني إلى تشارلز عن الأخبار، وهو يشعر بخيبة أمل جليّة، أنّ العريس «لم يكن ثريًا للغاية وربما لن يكون كذلك أبدًا»، من ناحية أخرى، كان زوجها رفيع المكانة، وخدم لمدة وجيزة في البرلمان.

ولم يُظهر داروين في ردّه على كلّ أخبار الزيجات تلك ضمن خطاب بعثه لأخته كارولين أي نبرة تدلّ على السعادة: «حسنٌ، ربما يكون كلّ ذلك مُبهجًا لأولئك المَعنيّين، ولكن بما أنّي أُفضِّل النسوة غير المتزوّجات على قريناتهنَّ المُبارَكات، فإنّني أجدُ تلك الأخبار مصدرًا للكدر».

إن الرؤية التي كانت لأخت داروين عن مستقبله - أن يصبح كاهنًا محليًا ويستقرّ رفقة زوجة صالحة - لم تكن تزداد احتمالية كلما سقطت زوجة مُحتملة على جانب الطريق. أجرت كاثرين مسحًا على البقايا، إيّما وفاني ويدجوود، وفضّلت فاني. كتبت إلى تشارلز أنها تأمل أن تظلّ فاني عازبة حينما يعود - «كم ستكون زوجة لطيفة يافعة لا تقدَّرُ بثمن»، وما كُنا لنعلم حقيقة ذلك أبدًا. حيث نالها المرض ثم فارقت الحياة بعد شهر واحد فقط بعمر السادسة والعشرين. ومع انتهاء المطاف بثلاثة مرشّحات بين الزواج والقبر، تحوّلت الاحتمالات جميعها لصالح إيّما.

لو كان لدى داروين مُخطّطات مُسبقة بخصوص إيّما، فقد أجاد إخفاءها. إذ تنبّأ، كما استَذكرَت كاثرين، بعودته ليجد إيرازموس «مُقيَّدَ الرقبة والكعوب بإيّما ويدجوود، وقد فاض صبره منها». في العام ١٨٣٢ كتبت كاثرين إلى تشارلز تقول «إنني مسرورة للغاية بنبوّتك تلك، وأظنّ أنها ربما ستترك تأثيرًا جيدًا، بحيث لا تُحقّق»، استمرَّ إيرازموس في إبداء اهتمامه بإيّما، لكنها ظلّت متاحة حينما عادت البيغل إلى إنجلترا عام ١٨٣٦ . قد يمكنك في الواقع

القـول إنها كانت مُتاحَةً جـدًا. إذ كانت في الثالثة والعشرين من العمر بلا همّ أو كَرب حينما أبحرت البيغل، وفي أثناء السـنوات القليلة التي مضت جاءتها كثـير من عروض الـزواج. لكنها الآن تبعد عن الثلاثين بعام ونصف وتقضي معظـم يومها في المنزل ترعى والدتهـا العليلة؛ حيث فقدت كثيرًا من الحضور الذي تحلّت يومًا به. وفي اسـتعدادها لوصول داروين، كتبت إلى حماتها تقول: إنها كانت تقرأ كتابًا عن أمريكا الجنوبية «كي أنال القليل من المعرفة لأجله».

كان هناك سببٌ للتساؤل عمّا إذا كانت «القليل من المعرفة» كافية للإبقاء عـلى اهتمام داروين مُركّزًا على أصدقـاء الطفولة. عند عودته حاز شـيئًا نال تقدير النساء في جميع الثقافات وعبّر كافّة الأزمان: المكانة. لطالما كان تشارلز يتمتّـع بمكانـة اجتماعية رفيعـة والفضل لرُتبة عائلته، لكنه صـار يتمتّع الآن بمكانتـه البارزة التي أوجدها هو لنفسـه. بعث داروين مـن على متن البيغل أحافـيرًا وعيّنات عضوية وملاحظات ثاقبة عن الجيولوجيا نالت اهتمام كثير مـن جمهور المجـالات العلمية. وصـار على صلـة وثيقة جدًا بعلماء الطبيعة الأكابر في أيّامه. في ربيع العام ١٨٣٧، استقرَّ في لندن، في مسكنٍ طُلّابي يبعد بضعة أبوابٍ عن شقيقه إيرازموس، وكان مطلوبًا اجتماعيًا.

إنَّ شخصًا عظيم الخيَلاء وليس أكيدًا تمامًا من هدفه ربما قد جُرَّ إلى دوامة اجتماعيـة تسـتهلك الوقـت - انحـلالٌ كان إيرازموس، الاجتماعـي بطبعه، سيَسـعدُ بالتحريـض لأجلـه. المؤكد أن داروين كان مُدركًا لمكانتـه المتنامية («كنت بلا شـكّ مثل أسـد هناك»، في إبلاغه عن زيارة إلى كامبريدج.) لكنه كان رجلًا راجح العقل وجادًّا كي تُلهيه الطبيعة. وفي كثير من الأحيان رأى أن الأنسب التخلي عن التجمعات الكبيرة. وأخبر معلمه، البروفيسور جون هنسلو، أنه «يُفَضّل زيارته على لقاء العالم أكمله حول طاولة عشاء ضخمة». وفي مذكرة احتجاج موجّهة إلى تشارلز بابّاج، الرياضي الذي صمّم «المحرّك التحليلي»، رائد الكومبيوتر الرقمي: «عزيزي سيد بابّاج، أشعر ببالغ الامتنان لإرسالك لي بطاقات دعوة إلى حفلاتك، لكنّي أخشى قبولها، بسبب احتمال لقائي ببعض الأشخاص هناك، ذلك لقسمي لهم بكُلّ القديسين في السماوات

أني لـن أخـرج أبدًا. . . .» مـع توفير وقته بهذا النحـو، شرع داروين بتحقيق إنجازات رائعة. ففي أثناء عامين من عودته إلى إنجلترا: ١) حرَّرَ دفتر يومياته إلى مُجلّـد قابـل للنشر (والذي قُرِأ وباعَ جيـدًا ولا يزال يُطبع حتى يومنا هذا، وزِيـدَ في إيجـازه، تحت عنـوان رحلة البيغـل)؛ ٢) انتزع بمُنتهـى المهارة دعمًا ماديًـا بقيمـة ألف جنيه اسـترليني من وزير الخزانة لنشر كتـاب علم الحيوان لرحلـة البيغـل ودفع المُسـاهمون للاصطفاف مـن أجله؛ ٣) عـزز مكانته في العلوم البريطانية عبر تقديم نصف دزينة من الأوراق البحثية التي تراوحت بداية من رسـم تخطيطي لنوع جديد من النعام الأمريكي (الذي دعاه مجتمع علـوم الحيوان البريطاني بريا داروينى) وصولًا إلى نظرية جديدة عن تشكّل التربة السطحية («كلّ جُسيّم من التربة يُشكّل الحشيّة التي منها ينبع العشب في أرض المراعـي القديمـة، قد مرّ عبر أمعاء الديـدان.»)؛ ٤) ذهب في رحلة استكشـافية جيولوجيـة إلى أسـكتلندا؛ ٥) تحادَنَ مع صفوة الشـخصيات في نـادي أثينيوم الحصريّ للرجال؛ ٦) انتُخِبَ سـكرتيرًا للمجتمع الجيولوجي البريطاني (منصب قَبِله على مضض خوفًا من متطلّباته المؤثرة على وقته)؛ ٧) تصنيف كُرّاسـات علميّة - حول مجموعات تتراوح من «مسألة الأنواع» إلى الدين والمَلَكات الأخلاقية للإنسان - ذات كثافة فكرية عالية والتي سَتَخدم بمثابة أسـاس لأعماله الكبرى في العقود الأربعة اللاحقة؛ و٨) ابتكار نظرية الانتقاء الطبيعي.

اختياره الزواج

قُـرب نهايـة هـذه المرحلـة - قبل بضعة شـهور من بـزوغ فكـرة الانتقاء الطبيعـي عليه - قـرَّرَ داروين الزواج. لم يُقرِّر الزواج مـن واحدة بعينها؛ بل ولا يـزال مبهمًا مـا إن كانت إيمّا ويدجوود قد جالـت بذهنه حينها، وإحدى وجهـات النظـر المُتَّفـق عليها أنهـا لم تكن في مركـز تفكيره في مـا يتعلّق بهذه المسـألة. وفي مذكّرة تداولية رائعة يبدو أنها أُلِّفَت بنحو تموز من عام ١٨٣٨، قرَّرَ مسألة الزواج بشكل تجريدي.

تضمّن المُستند عمودين، إحداهما بُـوِّبَ بالعبارة «زواج»، والآخر بـ«لا زواج» وفوقهما الجُملة «هـذا هـو السـؤال» محاطة بدائرة. في الجانب المؤيد للزواج من المعادلة ضُمِّنَ «أطفال - (إن شـاء الـرب) - رفيقٌ دائم، (وصديق عنـد الشيخوخة) والذي سيشـعر بالاهتمام تجاه المـرء، - كيـانٌ يُبادلُك الحُبَّ واللهو».

بعـد تفكُّرٍ لوقت غير معلوم، عدَّلَ الجُملة السابقة إلى «أفضلَ من كلبٍ على أيّ حالٍ». وأردَف: «منزلٌ، وشخص ما يعني بالبيت، - سحرُ الموسيقَا وثرثرة أنثى - تلك أشـياءُ حَسِـنةٌ لصحة المَرْء. - لكنها تُمثِّلُ خسـارة فادحة للوقـت». انحرف داروين رغمًا عنه في العمود المؤيد للزواج من دون سـابق إنـذار إلى عامل رئيس مناهض للـزواج، واحد كبير لدرجة تشـديده عليه. وهذه الإشـكالية - انتهاك الزواج لوقته، ولا سيما وقت عمله - تمَّ تناولها بإسهاب في العمود المناسب، ألا وهو عمود «لا زواج». حيث كتب أن عدم الزواج من شأنه الحفاظ على «حريّة الذهاب لأي وجهة يرغبها المرء - اختيار المُجتمـع والاكتفاء بالقليل منه. - محاورة الرجال الأذكياء في الأندية - عدم الاضطـرار لزيـارة الأقارب والخضـوع لأي أمر تافه - توفـير نفقة الأطفال وهمّهم - وربما الشـجار - خسـارة الوقت. - عدم القراءة أوقات المسـاء - السمنة والكسل - الهمّ والمسؤولية - مالٌ أقل لأجل شراء الكتب وإلخ - لو أجبر كثير من الأطفال على كسب خُبز المرء».

عـلى الرغم من ذلك اسـتمرت القـوى المؤيدة للـزواج بتقدُّمها مع قافلة الأفـكار هـذه في نهاية عمود الـزواج: «يا إلهي، إن من غـير المُحتمل التفكير في قضـاء المرء حياتـه بأكملها، مثل نحلـة عاملة، بالعمـل والعمل ولا شيء غـير العمـل. - لا، لن أفعل ذلـك. - تخيّل عيش يومك كُلّـه في عزلة داخل منزل لندني داخن متسـخ. - تخيل نفسـك فقط رفقة زوجة لطيفة رقيقة على أريكـة أمـام موقـد جيّد، ومـع الكتب والموسـيقا ربما». وبعد تسـجيله تلك التخيّـلات كتـب: «زواج - زواج [كذا في الأصل][1] - الـزواج و.ه.م[2].»

(١) في الإنكليزية [sic] وتعني كذا ورد في الأصل، وعادة ما توضع نهاية جُملة مُقتبسـة مشـكوك في صحة نقلها أو أصلها [المترجم]

(٢) (أي بمعنى وهو المطلوب إثباته، وعادة ما توضع نهاية حلّ كُل مبرهنة [المترجم])

وكان على قرار داروين النجاة من موجة شكّ إضافية. حيث بدأت ردة فعله الارتجاعية ببراءة معيّنة، إذ كتب يقول: «لقد ثبت أن من الضروري الزواج، متى؟ عاجلًا أم آجلًا». لكن هذا السؤال أثار نوبة الذعر الأخيرة التي يعرفها كثير من العرسان. والعرائس بالطبع على معرفة بها أيضًا، إلّا أن شكوكهنّ غالبًا ما تكون حول ما إذا كان شريك حياتهنّ هو الخيار الصائب. بالنسبة إلى الرجال، كما تؤكد مذكرة داروين، فإن الذعر لا يتعلق جوهريًا بهويّة الشريك المُحتمل؛ بل المخيف إلى حد ما هي فكرة شريك الحياة نفسها؛ لأن - في المجتمع أحادي الزواج على الأقل - يثبّط هذا الأمر من احتمالات إنشاء علاقات حميمة مع كافّة النسوة الأخريات اللاتي تُجادل جينات الرجل حاملها أن يبحث عنهنّ ويتعرّف بهنّ (ولكن لمدة وجيزة).

لا يعني هذا أن ذعر ما قبل الزواج يثبت نفسه بخشونة في تخيلات الشركاء الجنسيين المحتملين؛ حيث يُمكن للعقل الباطن أن يكون أدقّ من ذلك. تظلّ هناك بشكل موثوق بين الرجال الموشكين على نذر أنفسهم لامرأة واحدة مدى الحياة رهبة الوقوع الوشيك في كمين، إحساس بأن أيّام الشقاوة قد انتهت. «إيوو!!» كتب داروين بقشعريرة أخيرة في مواجهة الالتزام الأبدي. «لن يتسنّى لي تعلّم الفرنسية أبدًا، - أو رؤية القارّة - أو الذهاب لأمريكا، أو الطيران في منطاد، أو الذهاب في رحلة منفردة إلى ويلز - العبيد المساكين - سأكون أتعس حالًا من زنجي»، لكنه بعد ذلك استطاع استجماع العزيمة اللازمة كما أراد القدر. «لا تشغل بالك يا بُنَيّ - ابتهج - لا يُمكن للمرء عيش حياة العزلة هذه، مع هوان الشيخوخة، غياب الأصدقاء والبرد، غياب الأطفال المُحدقين لوجه المرء، بدأت التجاعيد في الظهور بالفعل - لا تشغل بالًا، ثق بالمصادفة - تنبّه جيّدًا - هناك كثير من العبيد السعداء -» نهاية المستند.

كان داروين قد كتب مذكرة تداولية سابقة، ربما في شهر نيسان، هَذى فيها عن مسارات مهنية - التدريس في كامبريدج؟ في الجيولوجيا؟ علم الحيوان؟ أو «العمل على تحوّل الأنواع»؟ - والتفكير مليًا في مسألة الزواج بشكل غير حاسم. ولا طريقة هناك لمعرفة ما دفعه لإعادة فتح هذا السؤال وحسمُ أمره هـذه المرة. لكن من المثير للاهتمام أن بين المرات السّت التي تداول فيها هذا الأمر في دفتر يومياته بشكل متقطع بين شهري نيسان وتموز، قال في اثنين: إنه يشعر «بالتوعّك». كان الشعور بالتوعك على وشك أن يُصبح أسلوب حياة بالنسبة إلى داروين، وهي حقيقة يُرجِّحُ أنه احتمل حدوثها بالفعل. ما يُثير السخرية أن تلميحات الفناء يُمكنها جرُّ المرء للزواج، ذلك أن غالبًا ما تكون هذه التلميحات نفسها هي التي تدفعه في وقت لاحقًا للخروج بحثًا عن دليل على فحولته. لكن السخرية تتلاشى عندما تُختزل إلى سبب نهائي: إنّ كلًا من دوافع المجاهرة بالحب مدى الحياة لامرأة ورغبة الشقاوة الكامنة في باطن الرجل هي نتيجة عدد المرات التي أدّت فيها إلى إنجاب ذريّة عند الأسلاف. وبهذا المعنى فكلا الدافعين يعدّان ترياقًا مناسبًا للفناء، على الرغم من أنّ النهاية عديمة الجدوى (باستثناء رؤية الأمر من منظور الجينات)، وفي حالة الرسالة فإن الشقاوة غالبًا ما تكون مدمّرة أيضًا.

على أي حال، فبمستوى أقل من التفلسُف: ربما شعر داروين أنه سيحتاج إلى مرافِقة ومُمّرضة مُخلصة بعد مرور زمن ليس كثيرًا. ولرُبما كان لديه بصيص أمل لقضاء سنوات عدّة في العمل، في عزلة مريضًا ومفتقرًا، على كتاب كبير عن التطور. وبينما كانت صحته تسوء، كان إدراكه لهذا الموضوع في تحسُّن. حيث افتتح أول دفاتر ملاحظاته عن «تحوّل الأنواع» في شهر حزيران أو تموز من العام ١٨٣٧، والثاني في وقت مبكر من العام الذي لحق. وفي أثناء العام الذي كان يُفكّر فيه مليًا بالزواج، كان قد قطع بعض الطريق نحو الانتقاء الطبيعي. إذ اعتقد أن أحد مفاتيح التطور كامنٌ بدايةً في الاختلاف الوراثي الطفيف؛ ذلك أن حينما ينقسم نوع على مجموعتين سكانيتين منعزلتين،

ولنقل بسبب كتلة مائية، فما يكون في البداية محض تنويعيَن من ذات النوع يعيشان منفصلين سُرعان ما سيَتأهَّلان ليُصبحا نوعين جديدين مستقلّين. كلّ ما يتبقى - وهذا هو الجزء الصعب - اكتشاف ما يقودهما للتباين. في تموز ١٨٣٨، أنهى دفتر ملاحظاته الثاني عن الأنواع وافتتح الثالث، الدفتر الذي سيصل فيه إلى إجابة لهذا السؤال. ولرُبّما سيُراوده، لصياغته أيضًا مذكرة زواجه المصيرية في الشهر نفسه، إحساسٌ بالنجاح الوشيك.

ظهر الحلّ في أواخر شهر أيلول. حيث كان داروين قد قرأ وقتها مقالة توماس مالتوس الشهيرة عن السكان، والتي أشارت إلى أنّ معدّل النمو السكاني الطبيعي سيتّجه إلى تجاوز الإمدادات الغذائية ما لم يُضبَط. يستذكرُ داروين في سيرته الذاتية: «إن الاستعدادات الجيدة لتقدير الصراع من أجل البقاء تجري في كُلّ مكان بحسب الملاحظات المستمرة لعادات الحيوانات والنباتات، وقد أدهشني ميل التغيّرات الملائمة تحت هذه الظروف لأن تظلّ محفوظة، بينما تُدمَّرُ غير الملائمة. ونتيجة ذلك قد ينشأ نوع آخر. وهنا إذن أستطيع القول بتوصّلي أخيرًا لنظرية يُمكن العمل عبرها». وتحت ترويسة «٢٨ أيلول» دوّن داروين في دفتر ملاحظاته بعض السطور عن مالتوس ثمّ تقصّى آثار الانتقاء الطبيعي من دون وصفه صراحة: «ربما يقول المرء إن هناك قوة كمائة ألف وتد تحاول إجبار كلّ أنواع الهياكل المُكيّفة على الانحشار في فجوات اقتصاد الطبيعة، أو بالأحرى تشكيل فجوات عبر إقصاء الضعفاء. على أن يكون السبب الأخير لكل هذه الأوتاد فرز الهياكل المناسبة وتكييفها مع التغيير».

لقد تحدّد مسار حياة داروين المهنية، وهو يُقبلُ الآن على تحديد مسار حياته الشخصية. حيث بعد ستة أشهر من كتابة هذه الفقرة، وتحديدًا يوم الأحد المصادف ١١ من شهر تشرين الثاني («يوم الأيام!» مثلما سمّاه في يومياته الشخصية)، تقدّم لطلب يد إيمّا ويدجوود.

برؤية الأمر عبر أسهل مصطلحات الداروينية، يبدو انجذاب داروين لإيمّا غريبًا. إذ كان في ذلك الوقت رجلًا رفيع المكانة ميسور الحال في نهاية

العشرينات من عمره. ويُفترض أنه كان قادرًا على نيل زوجة شـابّة جميلة. فقد كانـت إيـمّا تكبره بعـام، ولأنها لم تكنْ جذّابـة (على الأقل في عيون رسّـامها)، فيُعتقـد أنها لم تكن جميلـة كذلك. لماذا قد يفعل داروين أمـرًا يعارض التكيّف كالـزواج مـن امـرأة عاديّـة اسـتنفدت بالفعل ما يزيـد على العقد مـن قدرتها الإنجابية؟

بداية، تبدو هذه المعادلة - تكافؤ الرجل الغني رفيع المكانة مع سيدة يافعة جميلـة - مفرطة في اقتضابها. إذ هناك كثير من العوامل المؤدية إلى شريك مُبشّر من الناحية الوراثية، بضمنها الذكاء والجدارة بالثقة، إضافة إلى مختلف أشكال التوافـق. إضافة إلى ذلك فإن اختيـار الشريك هو كذلك اختيار لوالد أبنائك. وقد لُمحت صلابة شـخصية إيمّا بالرعاية والاهتمام الذين سـتمنحهما لأبنائها. تسـتذكرُ إحـدى بناتهـا قائلـة: «إن تعاطفهـا وهـدوء أعصابها جعـل أطفالها يشـعرون براحة مطلقـة معها، وراحة أكيدة في كلّ مشـكلة تورّطوا بها سـواء أكانـت كبـيرة أم صغيرة، كـما وجعلهم إيثارهـا عارفين بعدم وجـود شيء قد يمثل لها عبأً، وباسـتطاعتهم قصدها حاملين كافّة احتياجاتهم الطفولية سـواءً أكانت طلبًا للتفسير أم المساعدة».

ثم إذا كانت المشكلة في مقدار «قيمة» الزوجة التي يُتوقَّع من داروين البحث عنها، فإن السـؤال، بالمعنى الدقيق للكلمة، ليس بمدى الرواج السوقي الذي كان للشريك، بل مدى الرواج السـوقي الذي أعطى انطباعًا بأنه يملكه. فعند حلـول مرحلـة المراهقة، إن لم يكن قبلها، يحصل الأشـخاص عـلى ردود فعل معيّنة عن قيمتهم السـوقية، ردودٌ تُشـكِّل تقديرهم لذواتهم وبذلك تؤثر على ارتفاع المعايير التي يستهدفونها. ولا يبدو أن داروين قد تجاوز مرحلة المراهقة حامـلًا شـعورًا بأنه ذكر ألفا. فعلى الرغم من ضخامتـه كان وديعًا، ولا يُمكن وصفه بالمقاتل. وكما تَلحَظُ واحدة من بناته فقد عَدَّ وجهه «عاديًا بنحو مُنفِر».

الحقّ أن كل ما سـبق أصبح قليل الأهمية بعد إنجازاته اللاحقة. ربما لم يَحُزْ داروين مكانة رفيعة في مراهقته، لكنه نالها لاحقًا، ويُمكن للمكانة بحدّ ذاتها في نظر النساء التعويض عن المظهر المتواضع والافتقار إلى القوّة الغاشمة. ومع

ذلك يبدو أن شعور انعدام الأمان قد استمر معه - كما يحدث كثيرًا في حالات انعدام الأمان المُتشكّلة في أثناء مرحلة المراهقة. ولكن السؤال هو لماذا.

ربما كانت الآلية التنموية التي صقلت انعدام الأمان لدى داروين من آثار التطوّر، تكيّف كان القصد منه رفع اللياقة في بيئة الأجداد، ولكنه لم يعد كذلك الآن. في كثير من مجتمعات الصيد وجمع الثمار، تصلُ هرمية الذكر المُهيمن إلى الثبات عند مراحل البلوغ المبكرة؛ حيث لا يذهب الرجال الخاضعون مُتدنّي المكانة إلى الكلية ولا يتسلّقون السلالم المهنيّة بجَدّ، ومن ثُمَّ لا يُبهرون السيّدات بالمكانات الجديدة التي بلغوها. لذا ففي بيئة الأجداد، قد يكون احترام الذات الذي بدأ بالتيبُّس بعد مدة قليلة من المراهقة دليلًا موثوقًا على القيمة الثابتة للمرء في سوق الزواج؛ وربما لم تُصبح مؤشرًا خاطئًا إلّا في البيئات الأكثر عصرية.

لذلك مرّة أخرى، ربما يُمكن أن تكون النظرة المتدنّية الصُلبة للنفس تكيّفًا في كافّة البيئات تقريبًا. فالزوجات أيضًا يَخُنَّ أزواجهنَّ بعد كُلّ شيء. والحكمة الشعبية تجعلهنَّ على الأقل يَختَرْنَ رجالًا رياضيين وسيمين للخيانة. بذلك فإن نظرة داروين المُتدنّية إلى مغنطيسيّته الحيوانية قد تكون هي التي منعته من الزواج إلى ذلك النوع المذهل من النساء اللواتي غالبًا ما يجتذِبْنَ عروضًا بالزواج من رجال فاتنين رفيعي المكانة ممّن سيجِدْنَهم حينذاك أكثر إثارة منه.

إيمّا توافق

وافقت إيمّا على طلب داروين يدها، تاركة إياه مع شعور بـ«الامتنان القلبيّ على قبولكِ شخصًا مثلي». وقد أسعدها كما ذكرت لاحقًا اكتشافها عدم تأكّده من موافقتها. فلا أحد يرغب في أن تُعدَّ آراؤه أمرًا مفروغًا منه، فذلك يُعدّ نذيرًا سيئًا للإخلاص المستقبلي.

لم تُبدِ إيمّا أيَّ علامات على المراوغة. لقد احترمت ذكاء داروين بوضوح، وشدّدت كذلك، في أثناء شرحها لأسباب موافقتها، على ما تمتّع به من مصداقية، إضافة إلى عاطفته تجاه عائلته وطبيعته «المزاجية اللطيفة». (ترجمة

هذا القول: يُحتمل امتلاكه بعض الجينات الجيدة ويُرجّح أن يكون مستمرًا أبويًا كريمًا ومراعيًا)، ولم يَغِبْ عن انتباهها انحداره من عائلة ثريّة وشغله لمكانة مهنية رفيعة مستمرة في ازدهارها (امتلاكه لموارد ماديّة واجتماعية متزايدة جاهزٌ لاستثمارها).

وللتأكيد فإن إيمّا تنحدر من عائلة أثرى. حيث كان جدّها خزّافًا مبتكرًا وهائل النجاح لا يزال اسمه مُخلّدًا في اسم خزفية ويدجوود. أي كان بإمكانها الزواج إلى رجل فقير من دون مخافة أن يشبَّ أطفالها مع معاناة من الحِرمان. ولكن مثلما رأينا فقد يكون الانجذاب إلى شركاء مُتحكّمين بموارد ماديّة واجتماعية عونًا مستمرًا للياقة النساء في أثناء تطورهنَّ لدرجة تحوّله إلى جزء راسخ تمامًا في عقولهنّ.

حتى لو كانت إيمّا ويدجوود قد شقَّت طريقها نحو مجتمع لندن الرفيع – ولنقل عبر الأعمال الخيرية – ستظلّ مكانة داروين تثير إعجابها. فهي قد فعلت ذلك على أي حال. في أثناء خطبتها إلى تشارلز، استمتعَ الخطيبان بالجيولوجي في جامعة كامبريدج آدم سيدجويك. «يا له من شرف أن يدعوني العظيم سيدجويك إلى منزله»، قالت إيمّا مُتعجّبة، «بمُجرّد التفكير في الأمر! أرى في المستقبل أنه سيكون رجلًا أعظم شأنًا ولا يستطيع رأسي احتمال فكرة أن أكون السيدة داروين. . . لا أستطيع تصوّر ذلك».

الرجال من ناحية أخرى غافلون على نحو ما عن مكانة الشريكة وثروتها. ولكن إن لم تكن أهميّة هذه الأشياء غير متكافئة جنسيًا فعلًا في أثناء معظم مراحل التطوّر، فقد يكون انجذاب الرجل إلى امرأة ثريّة أو بارزة اجتماعيًا مسألة أكثر ارتباطًا بالحسابات الواعية منها بالاستحسان. في مذكّرة الزواج لشهر تموز، حينما كان داروين محتارَ البال بشأن الشرور المزدوجة للزواج – «ضياع الوقت يوميًا»، و«الفقر المُدقع» الذي قد ينتج عن ذلك، تتبَّعَ بمكر كُلَّ واحدٍ من هذه الشرور بمؤهّلٍ اعتراضي: «في غياب زوجة هي كالملاك، تدفع المرء كي يظلَّ مُجتهدًا»، أضافَ بعد الهَمّ الأول. وبعد الثاني أضاف: «في غياب زوجة هي أفضل من ملاك ولديها مال».

وبغض النظر عن مدى ما كان داروين يعرفه ويجهله بشأن مستقبل صحته ومهنته، فقد قُدِّمَ له وقتها رسمًا تخطيطًا مُركَّبًا للزوجة المثالية بالنسبة إلى مريض مُزمن يحاول، على الرغم من عدم ارتباطه بأي جامعة، تأليفَ أهمّ كتاب علمي في القرن. وبغض النظر عما إذا امتلك بعض المعلومات عمّن ستكون زوجته، فقد أُعطي وقتها لوحة مُتقنة تقريبًا لإيمّا ويدجوود. وبين ثروة والدها وثروة والد داروين وعائدات كتاب داروين وبراعته في الاستثمار السليم، سيظلُّ المال في منزل داروين وافرًا دومًا. وعلى الرغم من أنَّ إيمّا قد لا تكون حافظت على اجتهاد داروين الأول، إلّا أنها شجّعته بالتأكيد على ذلك عبر تمريضها الأمين له وحمايته من مُسبّبات الإلهاء. وقد أوضح داروين، بطريقة فريدة في مواربتها، هذه المهمّة منذ البداية. حيث كتب لها بعد ثلاثة أسابيع من الخطوبة عن ردّ فعل واحدة من المَعارف عن الأخبار: «لقد قالت 'إذن فالسيد داروين سيتزوّج؛ أفترض أنه سيُدفن في الريف ويخسر أمام الجيولوجيا'. إنها لا تعرف أيّ زوجة صالحة دقيقة سأتزوجها، فأنا سأتزوج من امرأة تحرص على إرسالي إلى دروسي وتجعل منّي رجلًا أفضل، واحدة أثق بها وأكنُّ لها التقدير في كل شيء...».

داروين يتحمَّس

لا يعني قول أن داروين قد اختار زوجته بعناية وعقلانية افتقاره لمشاعر الحبّ تجاهها. إذ حتى حلول زواجهما ظلّت رسائله إلى إيمّا فائضة المشاعر لدرجة أنها تطرح سؤالًا، وهو: كيف لفيض مشاعره التسارع بهذه الوتيرة؟ فبدءًا من تموز، بناءً على قراءتك للأدلّة، كان إمّا أ) لم يكن يحلم بالزواج منها على وجه الخصوص؛ أو ب) مُتردّدٌ بشدّة عمّا إذا كان يجب عليه الزواج منها. في أواخر شهر تموز، زارها وأجرى معها حديثًا مطوّلًا. وفي زيارته اللاحقة، بعد ثلاثة أشهر ونصف، فجّر سؤالهُ يدها. والآن فجأة صار في انتشاء، وبدأ يكتب رسائل مُزخرفة عن كيفية انتظاره بفارغ الصبر بريد اليوم على أمل أن يجده حاملًا رسالة منها؛ وكيف يستلقي في الليل يقظًا وهو يُفكر في مستقبلهما

معًا؛ كم «أشتاق لليوم الذي ندخل فيه المنزل معًا؛ وما أروع رؤيتك تجلسين جوار موقد منزلنا»، ما الذي حصل لهذا الرجل؟

وضد مُخاطرة الظهور كما لو أنني أعزف على نغمة واحدة، لا بُدَّ لي من توجيه انتباهك مرة أخرى إلى موضوع الجينات. ولا سيما: الاهتمامات الجينية المتباينة بين رجل وأنثى لم يسبق لهما ممارسة الجنس مع بعضهما بعضًا. غالبًا ما تطلب جينات المرأة في مرحلة ما قبل ممارسة الجنس تقييمًا حذرًا. لا ينبغي للمودّة التحوّل سريعًا إلى شغف غامر. في حين أن المصالح الوراثية للذكر غالبًا ما تحثّ على تسريع وتيرة الأمور وقول أشياء من شأنها إذابة تحفّظ المرأة. وعلى رأس قائمة تلك الأشياء إشعارات المودّة العميقة والتفاني الأبدي.

يُمكن تضخيم هذا المنطق عبر عدد من الظروف المختلفة، وإحداها هو مقدار الجنس الذي يحظى به الرجل حتى الآن. فكما لاحظ مارتن دالي ومارغو ويلسون، من الناحية النظرية، على «أي كائن يسير بالطريق الصحيح نحو الفشل الإنجابي التامّ» المحاولة بكثافة متزايدة سعيًا لتغيير هذا المسار. وهذا يعني أن الانتقاء الطبيعي ربما لم يكن كريمًا مع جينات الرجال الذين لم يكن سعيهم لأجل الجنس حثيثًا عند طول غيابه. وكما يعلم الجميع، فقد قضى داروين سنوات دراسته الجامعية من دون ممارسة للجنس على الإطلاق. ما المقدار المطلوب لإثارة رجل طال حِرمانه؟ حينما رست البيغل في بيرو، رأى داروين سيدات أنيقات مُسجَّيات بحُجب تكشف عن عين واحدة فقط. «لكن حينها،» كتب داروين، «كانت تلك العين شديدة السواد والتألّق ولشدّة ما فيها من قوى حركية وتعبيرية كان تأثيرها بالغًا»، ليس مستغربًا أن إيمّا ويدجوود حينما صارت في متناول اليَد - حيث الوجه مكشوف بالكامل، والجسد قريبًا ما سيكون متاحًا له - بدأ داروين يُروّل. (حرفيًا على ما يبدو. راجع مقتطفات مجلة داروين في رأس هذا الفصل.)

من الصعب تقدير النسبة الدقيقة بين الحبّ والشهوة في قلب داروين مع اقتراب موعد الزواج؛ إذ إن قيمها التناسلية النسبية في أثناء ماضينا التطوري

قد اختلفت على نطاق واسع من لحظة لأخرى (كما هو حالها حتى اليوم) ومن ألفية لأخرى. فقبل بضعة أسابيع من الزفاف، تأمّل داروين في واحد من دفاتر ملاحظاته، «ما الذي يدور في خُلد الرجل حينما يقول إنه يُحبُّ شخصًا ... إنه شعور أعمى، شيءٌ شبيه بالمشاعر الجنسية - هل يتعلّق الحُبُّ أو يتأثّر، كونه عاطفةً، بالعواطف الأخرى؟» ويبدو هذا المقطع غامضًا حاله حال كثير من المقاطع في دفتر داروين، ولكن بذكره الحب والمشاعر الجنسية في الوقت، وفي اقتراحه أن الحب قد يكون متجذّرًا بعمق داخل المشاعر الأخرى، يبدو كما لو أنه يسايرُ الاتجاه العام لوجهة النظر الداروينية عن علم النفس البشري. ويقترح (كما فعلت إشارته للترويل) أنه كان، في تلك المرحلة، يختبر أكثر من نوع واحد للمشاعر تجاه إيمّا.

ماذا كانت مشاعر إيمّا؟ إذا كان اهتمام الذكر الشديد بالجنس يُقابل غالبًا بتحفّظ مستمر من جانب الأنثى بالفعل، ينبغي بذلك أن تشعر بحرارة أخفَت مقارنة بداروين. فهناك كل أنواع العوامل التي يمكن لها قَلْبُ الأشياء في أي حالة بالطبع، ولكن هذا هو التوقّع العام: النساء أكثر تردُّدًا من الرجال عن إتمام شروط الزواج، وأقصدُ بذلك الجِماع. وبذلك فإن التأجيل الفيكتوري للجماع حتى تمام الزواج من المفترض نظريًا أن يحوّل مفاتيح السلطة إلى يد المرأة في أثناء مرحلة الخطوبة. وفي حين امتلاك الرجل أسبابه للتشوّق إلى حلول يوم الزفاف (مقارنة برجال اليوم على الأقل)، فإن للمرأة أسبابها الدافعة إلى التردُّد والتأمل (مقارنة بنساء اليوم على الأقل).

وإيمّا قد امتثلت للنظرية. فعلى مدى أسابيع من الخطوبة، ظلّت تقترح تأجيل الزفاف حتى الربيع، بينما كان داروين يدفع باتجاه إجرائه في أثناء الشتاء. حتى إنها استشهدت بمشاعر أختها سارة إليزابيث، التي كانت تكبرها بخمسة عشر عامًا ولا تزال غير متزوّجة، حيث تملّكتها مشاعر مختلطة عن الحدث. لكن إيمّا أضافت مفصحة في رسالة إلى كاثرين شقيقة داروين تحثّ، «ولو أنني تمنّيت فعل ذلك بنفسي. هل لكِ إبطاءُ سير الأمور بعض الشيء يا عزيزتي كاثي».

لكـن داروين، مستعينًا ببعـض النثـر الخصـب («إنّ الأمـل المؤجّل في مناداتـكِ زوجتي بحق يزيد سَقْمَ قلبي»)، وفى شـهر العسـل من التأجيل. ولكـن حتى بعد تثبيت موعد الزفاف، يبدو كأنه ظلّ شـاعرًا بالتهديد بعض الـشيء من إحجام إيمّا، وربما بسبب طابعها العام؛ حيث اتسـمَت رسـائلها بالدفء على الرغم من ابتعادها كلّ البعد عن فيض المشـاعر. كتب داروين: «أصـلّي بصـدق ألّا تندمي أبـدًا على العظمة، وأتحرّقُ شـوقًا ليـوم الثلاثاء»، حاولـت إيـمّا طمأنتـه، لكنها لم تكـن تحت التعويذة نفسـها التـي كان تحتها: «ليس عليك مخافة ألّا أكون سـعيدة بقدرك عزيزي تشارلز، وسأظلّ بانتظار حدث الـ ٢٩ بعدّه شيئًا غاية في السـعادة بالنسـبة إلي، على الرغم من أنه لن يكون بالعظمة أو الجِدَة نفسها التي تشعر نحوه بها». آوتش.

الآن، ربـما ينعكـس كل هذا عـلى الديناميكيات الغريبة بين تشـارلز وإيمّا كليًـا، وليـس على الارتباط الفيكتـوري بإتمام شروط الـزواج. حيث لم تكن إيمّا من صنف النسـاء العاطفيات بإفراط. وعلى أي حال ربما بدأت تساورها شكوك عن حالة تشارلز الصحيّة، شكوك كان لها ما يُبرّرها. ومع ذلك تظلّ النقطـة الأساسـية احتمالية صلاحـه بالمجموع: إن كان يصعـب جر الرجال اليـوم إلى المذبـح أكثر من السـابق، فأحد الأسـباب لذلك هو عدم اشـتراط توقّفهم هناك في الطريق إلى غرفة النوم.

بعد شهر العسل

يُمكـن لإتمام شروط الزواج قَلْبُ تـوازن العاطفة. فرغم كون المرأة أكثر انتقائيـة في إطلاق العنـان لتحرُّقها مقارنة بالرجل في المتوسـط، ينبغي عليها نظريًـا أن تكـون أقلّ نزعـة لكبحها بمُجـرَّد خروجها من البوابـة. فباتخاذها رجـلًا جديـرًا بضمّه إلى اسـتثمارها الوالـديّ الملحمي، عادة مـا تكون لديها مصلحـة وراثية قوية في الحفاظ على انخراطه معها. ومرّة أخرى فإن سـلوك إيـمّا يتطابق مـع التوقّعات. ففـي أثناء الأشـهر القليلة الأولى مـن زواجهما، كتبـت: «لا أستطيع إخباره بمدى سـعادتي بـه وكم من الحبّ أكـنُّ له وأودّ

شكره على كلّ عاطفته التي تزيد يوميًا سعادتي أكثر وأكثر».

ولا يـزال الأمـر غير واضح عمّا إذا كان تفـاني الرجل يتغذّى على شروط إتمام الزواج. ربما كانت حرفته في بذل العاطفة إيهامًا للذات؛ ربما حالما تحمل شريكته طفلهما، ستأتي حينها صفقة أفضل. ولكـن في حالة داروين، كانت العلامات الأولى مُبشّرة. فبعد مضي أشـهر من الزفاف (وأسابيع من إنجاب طفلـه الأول)، كتب داروين في دفتر ملاحظاته ملتمسًـا تفسيرًا تطوّريًا عن سـبب شعور الرجل بالسـعادة لقاء معاملته زوجته وأطفاله بلطف من دون أي اكـتراث لمصالحـه الشـخصية، مـا يـدلّ على أن عاطفتـه تجاه إيـّاها لا تزال عميقة.

ربـما ليس ذلك بالمُسـتغرب. إذ لا تكمـن القيمة التكتيكيـة لتحفّظ المرأة الجنسي في أن الرجـال مُسـتميتون على ممارسـة الجنس، ولأجـل تحصيله قد يقولـون أو يصدقـون أي شيء - بضمـن ذلـك «أود قضـاء حيـاتي بأكملها معـك». إن كانـت ثنائية مادونّا والعاهرة قد أُدمجت فعلًا في دماغ الذكر، فإنّ تحفّظ المرأة المبكر يُمكنه التأثير على نظرة الرجل لها بشـكل دائم. حيث يزداد ترجيح احترامه لها في البدايات - وربما لسنوات عدّة قادمة - إن لم تُبدِ ضعفًا أمام ضغوطاته. ربما كان يقول: «أُحبّك» لكثير من النساء اللاتي يتوق إليهنّ، وربما يعني ما يقول؛ ولكن يُرجّح أن يسـتمرَّ في حُبّه الذي يعنيه إن لم يحصل على ما يسعى له فورًا. ربما كان هناك شيء من الحكمة في الرفض الفيكتوري لممارسة الجنس قبل الزواج.

وحتـى بعد هذا الرفـض، ضُبِطَت الثقافـة الفيكتورية جيـدًا لإثارة جزء الـ«مادونّا» في دماغ الرجل وتثبيط جزء الـ«عاهرة». والفيكتوريون أنفسـهم دعـوا موقفهـم من الإنـاث بـ«عبادة المـرأة». كانت المـرأة مُخلِّصًا - تجسـيدًا للبراءة والنقاء؛ إذ باسـتطاعتها ترويض الحيـوان داخل الرجل وإنقاذ روحه من عالم الكدح المميت. لكنها تسـتطيع فعل ذلك في سـياق منزلي فقط، تحت مباركـة الزواج وبعد مـدة طويلة عفيفة من التـودّد. ويكمن السرّ في امتلاك «ملاك في المنزل» مثلما يصف عنوان إحدى قصائد العصر الفيكتوري.

لم تكـن الفكـرة فقـط أن المفترض مـن الرجال في مرحلة مـا التوقف عن بـذر جيناتهم في الأنحاء، واعتناق الشّرْك وعبـادة زوجاتهم. وإنّما لم يفترض بهـم بَـذر جيناتهم في المقـام الأول. وعـلى الرغم من سـواد ازدواجية المعايير في بريطانيـا القـرن التاسـع عـشر للزنـا كما في أي مـكان آخر، فقـد حورِبَت مـن قبـل حُمـاة الأخلاقيـات الفيكتوريـة الأكثر تزمُّتًـا (وبضمنهـم الدكتور آكتـون)، الذيـن أوصوا الرجال ليـس بالامتناع عن المضاجعـة خارج نطاق الـزواج فقط، بل وبتجنُّبـه مع شريكاتهم قبل إتمام الـزواج كذلك. في كتاب الإطار الفيكتوري للعقل، كتب والتر هوتون: «للحفاظ على الجسد والعقل سـليمين من التلوّث، أوصي الصبية برؤية النسـاء ليـس بوصفهنّ مادّة يجب إيلاءهـا أكـبر قدرٍ من الاحترام فقـط، بل وإجلالها أيضًـا». وعلى الرغم من أن المفترض به كان منح كافّة النسـاء ذلك الاحترام، لكنّه خُصَّ باحترام نوع معيَّن من النسـاء بما يزيـد على ذلـك. «كان عليه النظر إلى النسـاء اللطيفات (مثل أخته ووالدته وزوجته المسـتقبلية) بوصفهن كائنات أقرب إلى الملائكة منها إلى البشر، أيقونة حُسِبَت بعناية ليس لفصل الحب عن الجنس فحسب، بل وتحويل الحب إلى عبادة، عبادة للنقاء».

حينما قال هوتون «حُسِبَت»، فقد كان يعني بذلك ما قاله حرفًا. عبَّرَ أحد مؤلّفـي العام ١٨٥٠ عن فضيلـة عفّة الذكور قبل الـزواج على النحو الآتي: «أين يجب إيجاد ذلك التبجيل للجنس الأنثوي، تلك الشـفافية تجاه المشاعر، ذلك التفاني العميق للقلب لهنّ، والذي يُمثِّل الجزء الجميل والمُطهّر للحب؟ أليس مؤكَّدًا أن كل الرقّة والشـهامة التي لا تزال تتخلَّل وجداننا تجاه النساء قـد تُعـزى إلى الكبت، وبذلك إلى العاطفة المُعظَّمـة والرفيعة؟ ... وما الذي يُمكنـه هـذه الأيام الحفاظ عـلى العفّة وإنقاذ بقايا الإخـلاص الفروسي؟ ألا نُـدرك جميعًـا احتمال افتقار الشـابّ للحماية ضـدّ الشـهوانية والمكائد الدنيئة باستثناء الارتباط المبكّر العفيف العاطفي؟»

بـصرف النظـر عـن عبـارة «الكبْـت»، التي ربـما تكون أسـاءت وصف الديناميكا النفسـية، أجدُ هذا المقطع معقـول بما يكفي. إذ يُلمِّحُ إلى لإمكانية

أن يكون شغف الرجل «مُعظَّمًا ورفيعًا» في حال لم يُخمَدَ في مراحله المُبكّرة - بعبارة أخرى ،يُساعد التودّد العفيف على نقل المرأة إلى جُزء الـ«مادونًا» من عقل الرجل.

هذا ليس السبب الوحيد الذي قد يجعل التودّد العفيف مُشجِّعًا على الزواج. تذكر مدى اختلاف بيئة الأسلاف عن البيئة العصرية. وخاصَّةً: لم يكن هناك واقيات ذكرية أو عازلات مهبلية أو حبوب لمنع الحمل. لذا فإذا اقترن زوجان بالغان وتضاجعا مدة عام أو اثنين ولم ينتج عن جماعهما أي أطفال، تصبح احتمالية عقم أحدهما عالية. وليس من سبيل لمعرفة أيّهما العقيم؛ ولكن بالنسبة إلى كليهما فهناك قليل لخسارته وكثير مما يُمكن تحقيقه في فضّ الشراكة وإيجاد شريك آخر. والتكيف المُتوقَّعُ بزوغه من هذا المنطق هو «معيار لَفْظ الشريك» - ميكانيكية نفسية لدى كلّ من الذكر والأنثى تشجّع المرء على أن يكون أكثر نفورًا تجاه شريكه بعد ممارسة كثير من الجنس بلا ناتج.

هذه النظرية تخمينيّة تمامًا، لكن لها بعض الأدلة الظرفية لجانبها. في الثقافات حول العالم، تُعدُّ الزيجات العاقرة من بين أكثر الزيجات التي يُرجَّحُ تفكُّكها. (على الرغم من أن الزيجات التي شُخِّص العقم كسبب لفضِّها لا تدخل في صُلب هذه النظرية: النفور اللاشعوري عن الشريك). وبشهادة كثير من الأزواج والزوجات فإن ولادة طفل غالبًا ما تعزّز الرابطة الزوجية، وإن لم يكن بشكل مباشر؛ حيث يتحول شيءٌ من حب الوالد إلى الطفل ثم يتكسَّر منتشرًا على الأسرة كَكُل، وبضمنها الزوج. وذلك بمثابة نوع مختلف من الحُب للزوج، لكنه متينٌ بطريقته الخاصّة. وبغياب التغذية الراجعة، قد يميل حبّ الزوج إلى التلاشي تماماً - بحسب التصميم.

يومًا ما قَلِقَ داروين من احتمالية «سواد تقنية منع الحمل بين النساء غير المتزوجات وتدمير العفّة التي ترتكز عليها الرابطة الأسرية؛ وقد يكون إضعافُ هذه الرابطة بمثابة أعظم الشرور المحيقَة بالبشرية». من المؤكد أنه لم يكن يفهم كافة الأسباب الداروينية المعقولة التي تفيد بإمكانية تثبيط وسائل

منـع الحمل والجنس المصاحب لمرحلة ما قبـل الزواج إتمام الزواج فعليًا. كما ولم يُشـكّك في الأسـاس العميـق لديكوتوميّـة مادونّا والعاهـرة أو الوجود المحتمـل لـ«معيار لفظ الشريك». وحتى هذا اليوم لا نزال غير متأكدين من هذه الأشـياء. (إن الارتباطات الراسخة بين الجِماع ما قبل الزواج والطلاق، وبين المُساكنة ما قبل الزواج والطلاق، موحية ولكنها غامضة كذلك) . ومع هذا فإن نبذ مخاوف داروين بعدّها صياحَ عجوزٍ فيكتوري هَرِمْ أصعب اليوم مما كانت عليه قبل ٣٠ عامًا.

ليسـت وسـائل منع الحمل التقنية الوحيدة التي من شأنها التأثير على بنية الحياة الأسرية. إذ كثيرًا ما تشـتكي النسـوة المُرضعات مـن ضعف في الحافز الجنسـي – ولأسـباب داروينية جيـدة، ذلك أنهنّ عادة مـا لا يكُوننَّ قادرات عـلى الإنجـاب في هذه المـدة. وفي أثنـاء هذه المـدة يفشـل الأزواج أحيانًا في الاسـتثارة مع الزوجة المرضعة، وللأسـباب السـالفة نفسها كما يُفترض. لذا قـد يجعل اعتـماد الرضاعة الصناعية الزوجات أكثر شـهوانية وجاذبية بذات الوقـت. ومـن الصعـب تحديـد مـا إذا كان ذلـك مفيـدًا عمومًا بالنسـبة إلى التماسـك الأسري. (هل يزيد إغراء الزوجات للانخراط في علاقات خارج أطـر الـزواج أم يصرف انتباه الأزواج عن أخذهـنَّ؟) على كل حال قد يبدو هـذا المنطق ذو معنى بالنسـبة إلى ادعاء الدكتور آكتـون الذي يبدو هزليًا على أنّ «أفضـل الأمّهـات والزوجات ومدبّـرات البيوت هنّ مـن لا يعرفن غير القليـل فقط عن الانغماس الجنسي. حيث حبّ البيت والأطفال والواجبات المنزلية هو شـغفهنَّ الوحيد». في إنجلـترا الفيكتورية، حينما أمضت كثير من الزوجات كثيرًا من سنوات خصوبتهنّ في الحمل أو الإرضاع على حد سواء، ربما يكون شغفهنّ قد قضى بالفعل أكثر الوقت في حالة ركود.

وحتى لو ساعد تعاقب الأطفال في الحفاظ على تفاني كلا الشريكين، فقد تتبايـن مصالـح الزوج مع الزوجـة بمرور الوقت. فكلما كـبر الأطفال (كلما قلّت الحاجة الملحّة للاسـتثمار الوالـديّ)، وكلما كبرت الزوجة، قلَّ مع ذلك الدعم الذي يناله الرجل من إرثه التطوري. فالمزيد والمزيد من المحصول قد

حُصِدْ؛ الأرض تزداد بورًا؛ وربما يكون الوقت قد حان للمضي قُدمًا. يرتبط مقدار شعور الزوج بهذا الدافع على مدى احتمال أن تُثمِرَ مرة أخرى بالطبع. فقد يتلقى رجلٌ ثريّ وذكي نظراتٍ من نساء قد تغذي دافعه ذاك؛ بينما قد لا ينال رجلٌ قبيح فقير الأمر نفسه. ومع ذلك تظلّ قوة الدافع ميالة كي تكون أعظم لدى الزوج منها لدى الزوجة.

على الرغم من أن تغيّر التوازن في الجاذبية بين الزوج والزوجة نادرًا ما يوصف بهذه الصراحة، لكنه غالبًا ما ينعكس بشكل موارب - في الروايات والأمثال والحكم الشعبية المُقدّمة نصيحة إلى الزوج والزوجة. كتب البروفيسور هيسلو، وهو محارب محنّك من محاربي الدولة المباركة يبلغ الخمسين عمرًا، إلى داروين بعد زواجه بمدة قصيرة يقول: «كل ما لدي لأقوله لك بوصفه نصيحة هو أن تتذكّر حينما تأخذ زوجتك في السراء والضرّاء، الحرص على تقدير الحُسنى وإهمال السوأى تمامًا». ثم يُضيف: «وإهمال هذه التفصيلة الصغيرة هو ما يجعل حالة زواج كثير من الرجال أسوأ من حياة العزوبية». بعبارة أخرى، فقط تذكر قاعدة سهلة: لا تتوقفْ عن محبّة زوجتك، كما يبدو ميل كثير من الرجال لذلك.

في هذه الأثناء كانت إيما تتلقّى نصائح لا علاقة لها بالتغاضي عن عيوب تشارلز، بل بشأن إخفاء عيوبها الخاصة هي، ولا سيما تلك التي تظهر المرأة أكبر سنًا وأكثر شحوبًا. كتبت إحدى العمّات (ربما واحدة كانت تدرك افتقار إيما للوعي بالموضة): «لو أمكنكِ التنبّه أكثر بقليل فاحرصي دائمًا على ارتداء ما هو رفيعٌ ذوقًا؛ لا تحتقري تلك الاهتمامات الصغيرة التي تمنح الجميع مظهرًا أكثر بهجة، لعلمك أن من تزوجته رجلٌ فوق الاهتمام بمثل هذه التفاصيل الصغيرة. فلا وجود لرجل فوق الاهتمام بهذه الأشياء... إذ وجدتها حتى لدى زوجي نصف الأعمى».

عادة ما يظلّ منطق حساسية الذكور المفرطة مبهمًا لجميع المعنيين. إن رجلًا يحوم حول شريكٍ قد لا يُفكّر في «أن أفضل ما يخدمُ حظوظي الإنجابية هو الفرار من هذا الزواج، لذا سأفعل ذلك نزولًا عند رغباتي الأنانيّة»، إذ

الوعي بالأنانية لا يؤدي إلّا لإعاقة الأنانية نفسها. فمن الأسهل جدًا بالنسبة إلى المشاعر التي دفعته للزواج تنظيم انسحاب بطيء وهائل على حدّ سواء.

لقد أوضح تشارلز ديكنز على نحو بديع وجهة النظر متزايدة الحدّة القائلة: إن زوجًا جزعًا قد يفرُّ من زوجته، وهو أحد القلائل في الطبقة الفيكتورية الرفيعة الذين فرّوا من زيجاتهم (عبر الانفصال وليس الطلاق). كان ديكنز، الذي انتُخِبَ لعضوية نادي أثينيوم في لندن في ذات اليوم من عام ١٨٣٨ الذي انتُخِبَ فيه داروين، متزوجًا منذ عامين في حينها إلى امرأة تدعى «نِصفهُ الأفضل». وبعد عقدين من الزمان صار يعاني مشكلة رؤية جانبها الأكثر تألّقًا، وهو الذي حظي حينذاك بمزيد من الشهرة واجتذب إعجاب كثير من الشابّات. بدا له الآن أنها تعيش في «جو قاتل يُقطِّعُ كل من ينبغي أن يكون عزيزًا عليها». كتب ديكنز إلى صديق له: «أعتقد أنه لم يُخلق شخصين بهذا القدر من استحالة الاهتمام والتعاطف والثقة والعاطفة والعطاء المتبادل من أي نوع بينهما كما هو الحال بيني وزوجتي». (لو كان الأمر كذلك، ألم يجدر به مناقشة هذا معها قبل إنجابها منه عشرة أطفال؟) «كتب مؤرخٌ لزواجهما: «في نظره أصبحت مُهمِلة حسودة خاملة، شيئًا بعيد عن الإنسانية كُلّ البُعد».

كبرت إيمّا داروين، كحال كاثرين ديكنز، لتصبح امرأة عجوزًا بشعة. كما ارتقت مكانة تشارلز داروين، كحال ديكنز، كثيرًا بعد زفافه. لكن لا دليل هناك على أن داروين كان قد نظر يومًا إلى إيمّا كشيء أقرب للوحش منها للإنسان. فما هو تفسير الفرق؟

الفصل السادس

خطة داروين للنعيم الزوجي

«كانت النعمة الأعظم في حياتي، ويُمكنني التصريح أنه في أثناء حياتي بطولها لم أسمعها تتفوه قطّ بكلمة لم يجدر بها قولها. ... كانت ناصحتي الحكيمة وأنيستي البهيجة في الحياة، والتي لولاها لكان شطر طويل منها سيستحيلُ إلى بؤس بسبب اعتلال الصحة. وقد كَسَبَت حبّ واحترام كافّة الأرواح القريبة منها».

السيرة الذاتية (١٨٧٦)

تملَّكَ تشارلز داروين كثيرًا من المزايا البارزة في أثناء سعيه لتحقيق زواج دائم ومُرضٍ.

فبادئ ذي بدء، كان هناك اعتلاله المُزمن. فبعد تسع سنوات من زواجه، وبينما كان يزور والده المُعتَل، وقد كان هو نفسه مُعتلًا أيضًا، كتب إلى إيمّا كيف كان «يَحِنُّ» إليها، ذلك أن «من دونكِ، حينما أكون مريضًا يزداد بؤسي بؤسًا»، ثم اختتم رسالته: «أعدّ الوقت حتى أكون رفقتك وتحت حمايتك، فلا أمان لي إلّا فيها». بعد ثلاثة عقود من الزواج، ستُلاحظُ إيمّا أن «ليس هناك ما يُعضِّدُ الزواج بشكل تامّ كالمرض»، قد يكون في مذاق هذا التفكّر

مرارة أكثر مما فيه من حلاوة؛ إذ كان مرض داروين عبئًا مُزمنًا بالنسبة إليها، ولم يكـن بإمكانها استيعابه كاملًا إلّا بعد مرور أشـهر مـن زواجهم. ولكن سـواء أكان قد منحها فكرة أخرى عن الزواج، فقد عَنى، بالنسـبة إلى أغلب حيـاة داروين الزوجيـة، أنـه لم يكن بالسـلعة الصالحـة جدًا للتسـويق. وفي الزواج، غالبًا ما تكون السـلع غير القابلة للتسـويق - سـواء أكانت ذكرًا أم أنثـى - سـلعةً مُرضية، مع تسـبّبها بالقليل فقط من القلق عن وجود نشـاط جنسي، أو من دون ذلك.

إحـدى الأصـول التكميليـة التـي كان داروين قـد جلبهـا لزواجـه هو الاشتراك المخلص في المثالية الفيكتورية التي تعدّ المرأة بمثابة خلاص روحي. في مناجاته التداولية السـابقة للزواج، تخيّلَ «ملاكًا» يحافظ على اجتهاده ومع ذلـك لا يتركه للاختناق في جوّ العمل. وقد نال ذلك، إلى جانب نيله ممرضة أيضًا. ولأجل حُسنِ القياس، لا بُدَّ من ذِكر إمكانية عفّة التودّد المساعدة على إبقـاء إيـمّا ضمن جانب «مادونـا» في عقل داروين. شيء مـا فعل ذلك. ومع اقتراب حياته من نهايتها، كتب يقول: «أعجب من حظّي الحَسِـنْ، أنها، على الرغم من سـموّها في كل صفة أخلاقية سـموًّا لا حـدود له، وافقت على أن تكون زوجةً لي».

الميـزة الثالثـة كانت الجغرافيا السـكنية. إذ عـاش آل دارويـن، مثل قردة الغيبون، على قطعة أرض بمسـاحة ١٨ فدانًا، على بعد سـاعتين بالحافلة عن لندن وتشـتيت صباياها. تميل التخيلات الجنسية للذكور بطبيعتها كي تكون بصريّة في الأسـاس، بينما التخيّلات الجنسية للإناث غالبًا ما تتضمّن اللمس الرقيـق والهمس الناعـم وغيرها من تلميحات الاسـتثمار المُسـتقبلي. وليس مُستغربًا تسهيل تنشيط التخيّلات الذكورية والإثارة الجنسية عبر الإشارات البصرية المحضة، بمُجرّد رؤية جسد أيّ امرأة. لذا فإن العزلة البصرية طريقة جيدة على نحو خاص لمنع الرجل من الاستغراق في أفكار يُمكن أن تؤدي به إلى الاستياء من زواجه أو دفعه للخيانة أو كلا الأمرين.

هذه الأيام يصعب الحصول على العزلة، وليس فقط بسـبب أن الشـابّات

الجميلات لم يعد يبقين في منازلهنّ، حفاة الأقدام وحوامل. تخيَّل رؤية نساء جميلات في كل مكان تنظر إليه. وحقيقة أنهنَّ ثنائيات الأبعاد لا تعني خلوَّهنَّ من التأثير. فلم يكن للانتقاء الطبيعي طريقة تجعله «يتوقّع» ابتكار التصوير الفوتوغرافي. في بيئة الأجداد، كان بإمكان الصور المميزة لكثير من الشابّات الجميلات الدلالة على بديل مربح (وراثيًا) عن الزواج الأحادي، وقد أمكن للمشاعر التكيّف مع التغيير وفقًا لذلك. وجد أحد علماء النفس التطوّري أن الرجال المعروضة أمامهم صور عارضات مجلّة بلي بوي وصفوا أنفسهم لاحقًا بأنهم أقلّ حُبًّا لزوجاتهم مقارنة بالرجال الذين عُرضتَ أمامهم صور أخرى. (في حين لم تُظهر النساء اللواتي عُرِضَت أمامهنَّ صور من بلي غيرل مثل هذا الموقف المُعدَّل تجاه أزواجهنّ) .

حظي داروين أيضًا بنعمة الخصوبة. فزواج يحافظ على تدفّق مستمرّ للأطفال، وبوجود الموارد الكافية لرعايتهم، من شأنه تثبيطُ شهوَة الترْحال لدى الرجال والنساء على حدّ سواء. حيث تستنزف شهوة الترْحال وقتًا وطاقةً بالإمكان استثمارهما جيدًا على أوعية التمرير الوراثية المُحبَّبة الصغيرة تلك. وفي بعض الأحيان تؤخذ حقيقة تراجع احتمال الطلاق مع زيادة عدد الأطفال المولودين بمعنى اختيار الأزواج احتمال آلام الزواج «نزولًا عند مصلحة أطفالهم». ولا شكَّ في أن ذلك ما يحدث. ولكن يُحتمل على الأقل أن يكون التطوّر قد دفعنا إلى حبّ الشريك بعُمق أكبر متى ما أثبت أن الزواج مُثمرٌ. في كلتا الحالتين، فالأزواج الذين يقولون باستمرار زواجهم على الرغم من قرارهم عدم إنجاب أطفال قد يثبُتُ خطأ قرارهم من ناحية أو أخرى.

يُمكننا إلى حدّ ما الآن رسم خطّة تشارلز داروين للنعيم الزوجي: تودَّد بعِفَّة، تزوّج ملاكًا، انتقل إلى الريف بعد مدة وجيزة من الزفاف، أنجب كثيرًا من الأطفال، ثم غُصْ في مرض شديد الإنهاك. وربما يُساعد الالتزام الصادق بعملك أيضًا، ولا سيما في حال لم يكن يستلزم إجراء رحلات.

نصائحُ عن الزواج للرجال

مـن منظـور رجـل أواخـر القـرن العشريـن الاعتيـادي، لا تبـدو خطة داروين ذات جدوى عالية. ربما يُمكن استخلاص بعض المفاتيح العملية للزواج الأحادي الدائم من حياة داروين. ولنبدأ بمقاربته المكونة من ثلاث خطـوات للزواج: ١) قرِّر الـزواج بعقلانية ومنهجيـة. ٢) ابحث عن امرأة تلبي احتياجاتك في أكثر النواحي العملية. ٣) تزوّج منها.

أحـد كتّـاب السـيرة وبَّخ داروين على النهـج المُصاغ، مشـتكيًا من أن «هناك فراغًا عاطفيًا في تأمّله بالزواج». ربما يكون محقًا في ذلك. لكن يَجدُر الذِكْر أن داروين كان زوجًا وأبًا مُحبًّا لقرابة النصف قرن. وأي أحد يرغب في شغل هذا الدور عليه النظر عن كثب إلى «الفـراغ العاطفي» لتأملات داروين عـن الـزواج. ربما يسـتفيدون مـن درسٍ قابـل للتطبيـق في أيامنا المعاصرة.

مـا أعنيـه: إن الحـب الدائـم شيء يجـب عـلى المـرء تقريـر تجربتـه. إن الإخـلاص الأبـدي في الـزواج الأحادي ليـس من بنـات الطبيعة - حتى بالنسـبة إلى النسـاء، وليس للرجـال بأقصى درجات التأكيـد. فهو يتطلّب مـا يُمكن دعوتـه، لافتقارنا إلى مصطلح أنسَـب، إرادة قصديـة. ومن هنا كان الفصـل الظاهري لداروين بين طلب الـزواج وطلب شريكٍ للزواج ملائـمًا. إنـه اتخذ قـراره - بحزمٍ في نهايـة المطاف - أن يتـزوّج وكان تحقيق أقصى استفادة من زواجه لا يقلّ أهمية عن اختياره للشريكة.

هذا لا يعني أن على الشـاب ألّا يأمل الغرق في الحب. فداروين نفسـه اشـتدَّ حماسًـا بحلول يوم زفافه. لكن ما إذا كانت الضراوة المطلقة لمشـاعر الرجل تقيس بدقّة مدة قدرته على الثبات فتلك مسألة أخرى. إذ عاجلًا أم آجلًا، سيتلاشـى الحماس بالتأكيد، ثم سـتعتمد نهاية الزواج من استمراره عـلى الاحـترام والتوافق العملي والمودّة و(في هذه الأيـام خاصّة) العزيمة. بمسـاعدة هذه الأشـياء، يُمكن لشيء يستحق اسـمه كـ«الحب» أن يستمر حتـى المـمات. لكنه سـيكون نوعًـا مختلفًا من الحـب عن ذاك الـذي بدأ به

الزواج. أسيكون حبًا أغنى أم أعمق أم أكثر روحيّة؟ الآراء بهذا الخصوص متباينة. لكنه بالتأكيد حُبٌّ أكثر روعة.

والنتيجة الطبيعية لما سبق أن الزيجات لا تتمُّ في الجنة. فأحد أسباب الطلاق الكبرى إيمان كثير من الرجال (وشطرًا لا بأس به من النساء) أنهم بطريقة ما تزوّجوا من الشخص «الخطأ» وفي المرة القادمة سيختارون «المناسب». وأنا لا أُرجِّح ذلك. حيث تدعم إحصاءات الطلاق وصف صمويل جونسون لقرار الرجل بالزواج مرة أخرى على أنه «انتصار الأمل على التجربة».

وكان لجون ستيوارت مِل وجهة نظر رزينةٌ بالمثل. إذ أصرَّ مِل على تسامُح التنوّع الأخلاقي، وشدَّدَ على القيمة المديدة للتجربة من قِبل المُتمرّدين على قِيَم المُجتمع، لكنه لم يوصي بالمغامريّة الأخلاقية بوصفها أسلوب حياة. تحت راديكالية مقالة «عن الحرية» يكمُن إيمانُ مِل في الإبقاء على نزواتنا رَهنَ سيطرة دماغية صارمة. كتب مِل في خِطاب، «يملك معظم الأشخاص استيعابًا معتدلًا للسعادة. عادة ما يتوقّع من الزواج درجة سعادة أعظم بكثير مقارنة ممّا يجده المتزوّجون عادة: ولا يعلمون أن الخطأ في استيعابهم الضئيل للسعادة – إذ تقودهم نزواتهم للظنّ أن سعادتهم كامنة مع شخص آخر». ونصيحته للتُعساء هي: ارقُد في مكانك حتى يمُرَّ هذا الشعور: «إن حافظ المتزوّجان على اتحادهما، فإن شعور الخيبة سيمُرُّ بعد مدة من الوقت، ومن ثمّ يمضون حياتهم مع بعضهم بعضًا مع قدر من المحبّة أكبر مما يُمكن لهما إيجاده سواءً أفي الوحدة أم في أي اتحاد آخر، من دون الحاجة إلى تكرار الخضوع المرهق لأي تجربة فاشلة».

كثير من الرجال – وجُملةٌ أقلّ من النساء – قد يستمتعون بالمراحل الافتتاحية لتلك التجارب. ولكن في النهاية قد يجدون أن لمحة البهجة الدائمة في التجربة الثانية محض وهم استحثّته جيناتهم، والتي هدفها الأساس كما تذكُر أيها القارئ تحقيق أقصى قدر من المنفعة بدلًا من السعادة الأبدية (والتي أيضًا لا تعمل في البيئة التي صمَّمناها؛ المجتمعات المعاصرة حيث يتسبَّب تعدد الزوجات بقدر من الضرر العاطفي يُمكنه التأثير على

الجميع - ولا سيما الذريّة - على الرغم مما «انتواه» الانتقاء الطبيعي). يُصبح السؤال إذن عمّا إذا كانت المتعة العابرة للمراعي النظِرة تتجاوز في عائدها الألم الناجم عن هجران المراعي الذابلة. وليس هذا بالسؤال السهل، ناهيك عن أن يكون سؤالًا يسهل اختزال إجابته في ما يتوق إليه المرء. لكن الجواب الذي غالبًا ما يرفض كثير من الناس (والرجال خاصّة) الاعتراف به هو لا.

على أي حال، هناك جدلٌ حول ما إذا كان إجمال المتعة مع الألم لحظة بلحظة يُمكن له تسوية هذه الإشكالية. وربما يكون التماسك التراكمي للحياة مهمًا بدرجة ما. لقد شَهِدَ الرجال من أجيال عدّة أن الحياة التي تُشاركُ رفقة شخص آخر وإلى جانب كثير من الآخرين الثانويين على المدى الطويل، على الرغم من كُل إحباطاتها المتنوعة، تأتي بعوائد من النوع الذي لا يمكن تحقيقه عبر وسائل مغايرة. ولا ينبغي علينا بالطبع منح وزن مُطلَق لشهادة الرجال المُسنّين المتزوجين. ذلك أن مقابل كُل واحد منهم زعم قضائه حياة رغيدة، هناك على الأقل عازب واحد يزعمُ استمتاعه بسلسلة غزواته الجنسية. لكن يَجدُر الذكر أن عددًا من هؤلاء المسنّين قد مرّوا بالمراحل المبكرة للحرية الجنسية أقرّوا استمتاعهم بها. بينما لا يُمكن لأيّ من هؤلاء الذين اتخذوا الجانب الآخر المُضاد للخِصام معرفة شكل إنشاء أسرة والاستقرار معها حتى النهاية.

أوضح جون ستيوارت مِل هذه النقطة في سياق أوسع. فحتّى هو، الذي أصرَّ، بصفته الداعية الأبرز للنفعيّة، أن «المتعة والتحرّر من الألم هما الشيئان الوحيدان المرغوبان بوصفهما غايات»، ولم يقصد بما قاله الشيء الذي يبدو عليه المَقال. حيث اعتقدَ أن متعة وألم جميع المتأثّرين بأفعالك (بما في ذلك أي شخص يُنتجه زواجك بالتأكيد) ينتمون إلى حسابك الأخلاقي. إضافة إلى ذلك فقد شدَّد مِل ليس فقط على كميّة المتعة ولكن جودتها كذلك، رابطًا قيمة مميّزة بالملذّات من ضمنها «المَلَكات العُليا»، حيث كتب: «قلّة قليلة من البشر قد يقبلون التحوّل إلى أنواع دُنيا من الحيوانات، مقابل وعد تحقيق أقصى ملذّات الوحوش.... الأفضل أن تكون إنسانًا ناقِمًا على أن تكون

خنزيرًا راضيًا؛ أو سُقراطًا ساخطًا بدلًا من أحمق قنوع. ولو كان للأحمق أو الخنزير رأي مُغاير، فذلك لمعرفتهم بجانبهم من السؤال فقط. بينما يعرف الطرف الآخر في المقارنة كلا الجانبين».

الطلاق بين الماضي والحاضر

منذ زمن داروين، تغيّرت البُنية المُحرّكة المحيطة بالزواج - بل إنها انعكست في واقع الأمر. ففي ذاك الزمان كان لدى الرجال جُملة من الأسباب الجيدة التي تحثّهم على الزواج (الجنس، الحب، والضغط المُجتمعي) وسبب آخر جيد للبقاء متزوّجين (إذ لم يكن لديهم خيارٌ آخر). أما اليوم فبوِسع الرجال العُزّاب ممارسة الجنس بوجود الحبّ أو عدمه، بانتظام واحترام. ولو حصل أن تعثّر بطريقة ما وتزوّج، فلا داعي للذعر؛ فحينما تتلاشى الإثارة، يُمكنه الانتقال من منزله فحسب واستئناف حياة جنسية نشطة من دون اجتذاب العيون. والطلاق اللاحق سهل نسبيًا. ومع أن الزواج الفيكتوري كان مغويًا وصيّادًا أبديًا، فليس الزواج الحديث بالضرورة الحتمية ذاتها، والهروب منه قابلٌ بدرجة معقولة.

بدأ هذا التغيير مع مطلع القرن العشرين، وكان قد بلغ أبعادًا دراماتيكية بحلول منتصفه. حيث تضاعفت معدّلات الطلاق، التي كانت مستقرّة في الخمسينات والستينات، في الولايات المتحدة بين العامين ١٩٦٦ و١٩٧٨ حتى بلغت مستواها الحالي. في هذه الأثناء، وبينما أصبح الهروب من الزواج سهلًا وشائعًا، تراجع حافزُ الرجال (والنساء كذلك، وإن كان بشكل أقلّ دراماتيكيّة) للدخول في مؤسسة الزواج. بين العامين ١٩٧٠ و١٩٨٨، على الرغم من ارتفاع متوسّط أعمار النساء عند زواجهنّ (الأول)، ارتفعت نسبة الفتيات في سن الثامنة عشر اللاتي أبلغن عن خوضهنّ علاقة جنسية من ٣٩٪ إلى ٧٠٪. وبالنسبة إلى الفتيات بعمر الخامسة عشرة فقد ارتفع من واحدة بين كل ٢٠ إلى فتاة من كل أربعة. كما وازداد معدّل العُشّاق غير المتزوّجين الساكنين رفقة بعضهم بعضًا في الولايات المتحدة من نصف

مليون في العام ١٩٧٠ إلى ما يقارب الثلاث ملايين في ١٩٩٠.

وهنا تأتي الضربة المزدوجة: نظرًا لخلق سهولة الطلاق عددًا متزايدًا من المُطلّقات، فإن سهولة الجنس خلقت عددًا متزايدًا من العازبات الدائمات. بين العامين ١٩٧٠ و١٩٩٠ ارتفع عدد الأمريكيات العوانِس المتراوحة أعمارهنّ بين ٣٥ إلى ٣٩ عامًا من واحدة بين كل ٢٠ إلى واحدة بين كل عشرة نساء. وثُلثُ النسوة اللاتي تزوّجن في تلك الأعمار تطلّقن لاحقًا.

أما مُعدّلات الرِجال فأفدَح. إذ إن بين كُلّ سبعة تتراوح أعمارهم بين الـ٣٥ و٣٩ هناك رجلٌ عانس؛ ومثلما رأينا، يميل الزواج الأحادي المُتسلسل إلى ترك عددٍ أكبر من الرجال معلّقًا في تلك الحالة مقارنة بالنساء. ومع ذلك لا تزال النساء الخاسر الأكبر هنا. فرغبتهنّ في إنجاب الأطفال أكبر من الرجال، وإن امرأة على أعتاب الخامسة والأربعين عامًا بلا أطفال، على العكس من نظيرها الرجل، تُشاهد فرصها في الإنجاب وهي تتلاشى سريعًا حتى تبلُغ الصِفر. وفيما يتعلّق بالثروات النسبية للرجال والنساء المُطلّقين: يجلب الطلاق في الولايات المتحدة للرجل في المتوسّط زيادة ملحوظة في المستوى المعيشي، بينما يكون العكس من نصيب الزوجة والأطفال.

رحَّبت كثير من النسويات بقانون يُساعد على تشريع الانفصال الزوجي في إنكلترا عام ١٨٥٧. ومن بين هؤلاء كانت زوجة جون ستيوارت مِل، هاريِّت تايلور مِل، والتي ظلّت حبيسة زواجها الأول المقيت حتى وافت المنيّة زوجها. توصَّلت السيدة مِل، التي يبدو أنها لم تكن متحمّسة كبيرة للوِصال الجنسي، إلى اعتقاد مؤلم مفاده «أن كل الرجال، باستثناء قلّة قليلة من أصحاب العقول النبيلة، شهوانيّون بنسبٍ متفاوتة» بينما «النساء على العكس من ذلك مُتحرِّرات من تلك الصفة». قد يبدو الزواج الفيكتوري بالنسبة إلى أي زوجة تشاركها نفورها الجنسي بمثابة سلسلة من حالات الاغتصاب يتخللها الفزع. وقد فضَّلت الطلاق عند المطالبة لأجل صالح النساء.

زوجها مِل فضَّل الطلاق عند المطالبة أيضًا (بافتراض عدم وجود

أطفال بين الشريكين). لكن رؤيته للمسألة كانت مختلفة عنها. إذ رأى أن نذور الزواج أقلّ تقييدًا للزوجة مقارنة بالزوج. حيث لاحظ مِل أن قوانين الزواج الصارمة في ذلك الوقت، مع النظرة الثاقبة إلى الأصول المؤسسيّة المُفترضة للزواج الأحادي، قد كُتِبَت «بيَدِ أشخاص متبلّدي المشاعر، لأجل أشخاصٍ متبلّدي المشاعر، ولإلزام أشخاصٍ متبلّدي المشاعر»، ولم يكن المؤمن الوحيد بهذه الرؤية. إذ كانَ وراء معارضة قانون الطلاق لعام ١٨٥٧ خوفٌ من تحوّل الرجال إلى الزواج الأحادي المُتسلسل. حيث عارض غلادستون مشروع القانون؛ فذلك على حدّ قوله «سيؤدي إلى الحَطِّ من قيمة المرأة». (أو، كما ستضع امرأة إيرلندية الأمر بعد مرور أكثر من قرن: «إن امرأة تصوّت لصالح الطلاق هي أشبه بديكٍ رومي يصوّت لصالح الكريسماس»). كانت آثار تسهيل الطلاق معقّدة، لكن الدليل من نواحٍ كثيرة يدعم مزاعم غلادستون. فغالبًا ما يكون الطلاق معالجة مجحفة بالنِّسبة إلى المرأة.

لا فائدة من إعادة عقارب الساعة للوراء، كما ولا جدوى من محاولة الحفاظ على الزيجات عبر جعل البديل غير قانونيّ. وتشير الدراسات إلى أن الأصعب على الأطفال من الطلاق هو البقاء وسط والدين مُحاصرين داخلَ حلْبة يخوضان فيها معركة مميتة.

لكن لا ينبغي أن يكون هناك حافزٌ مالي للرجل مقابل الطلاق بالتأكيد؛ على الطلاق ألّا يرفع مستوى معيشته، كما يحدث اليوم في أحيان كثيرة. في الواقع، يبدو من العدل خفْضُ مستواه المعيشي - ليس لعِقابِهِ بالضرورة، ولكن لأنها غالبًا ما تكون الطريقة الوحيدة في الإبقاء على المستوى المعيشي لزوجته السابقة وأطفاله بعيدًا عن التدهور، بالنظر إلى عدم كفاءة أسرتين مقارنة بالأسرة الواحدة. وإذا ما أمِنَت المرأة من الناحية المادّية، فغالبًا ما ستَسْعَد بتربية أبنائها من دون رجل يَظِلُّها - بل وأحيانًا أسعد مما لو كانت رفقته، وأسعد حتى بالمقارنة مع الرجل بعد اعتياده على العُشب في الجانب الآخر للسياج.

ا - حـ - تـ - ر - ا - م

هنـاك اختلاف في الرأي عن مدى «الاحترام» الذي تحوزه المرأة في المناخ الأخلاقي المعاصر. حيث يظنُّ الرجال أنهم يحصلون على كثير منه. ارتفعت نسـبة الرجال الأمريكيين القائلين بأن النسـاء تحظى باحترام أكبر من السابق مـن ٤٠٪ في العـام ١٩٧٠ إلى ٦٢٪ في ١٩٩٠. بينـما تختلـف النسـاء حـول ذلك. ففي دراسـة اسـتقصائية أجريـت عـام ١٩٧٠، كان المرجح وصفهنَّ الرجـال «لطيفون، وقـورون، ورزينـون جوهريًا»، ولكن في دراسـة أخرى في عـام ١٩٩٠ أجراهـا ذات الطـرف الأول وُجِدَ أن أغلب النسـاء وصَفْنَ الرجال بأنّهم لا يُقدّرون رأيًا غير رأيهم، ويحاولون الإبقاء على المرأة في مكانة خفيضة، وينشغلون باقتياد النساء إلى الفراش ولا يعيرون اهتمامًا إلى الشؤون منزلية.

إن الاحـترام عبارة مُلتبِسـة. ربما يعنـي أولئك الرجال الذيـن يعدّون أن النسـاء يحظين بـ«الاحـترام» قد صِرن مقبـولات في سـوق العَمل بوصفهن زميـلات جديرات. وربما يزداد كسـب النسـاء لمزيد من نـوع الاحترام هذا. ولكـن إذا كان مقصـدك بالاحـترام ما قصـده الفيكتوريون حينـما حثّوا على احـترام المـرأة - بعـدم معاملتهـا بوصفها هدفًـا للفتوحات الجنسـية - فربما يكون احترام المرأة قد هبط منذ العام ١٩٧٠ (وربما بدأ هبوطه منذ ١٩٦٠). وأحد التفاسـير للأرقام المذكورة أعلاه هو أن النسـاء ربما يرغبن أكثر بذلك النوع الثاني من الاحترام.

ولا يوجد سبب واضح لمقايضة حادّة بين الاثنين؛ فلا سبب يدعو نسويات أواخـر السـتينات وأوائـل السـبعينات، في إصرارهـنَّ على النـوع الأول من الاحترام، أن يُقوّضن الثاني (والذي قُلْن أنهنَّ بحاجة إليه في الواقع). ولكن كما هي صيرورة الأشياء، فقد حصل ذلك بالفعل. إذ بشَّرنَ بالتماثل الفطري بين الجنسـين في شـتّى المجالات الرئيسة، ومن ضمنها الجنس. واتخذت كثير مـن الشـابّات عقيدة التماثل بأنها تعنـي إمكانيتهنَّ اتّباع انجذاباتهنّ الجنسـية وتجاهـل أي تحذيـر غريـزي مُبهَـم: النـوم مـع أي رجـل يُثـير إعجابهنّ من

دون الخوف من أن مصلحته الجنسية قد لا تعني مبادلتها العاطفة، ومن دون خوف من أن يكون الجنس أكثر تعقيدًا من الناحية العاطفية بالنسبة إليها مقارنة معه. (بعض النسويات مارسْنَ الجنس العرضي بدافع الالتزام الأيديولوجي إلى حد ما.) الرجال من جانبهم استعملوا عقيدة التناظر لإراحة أنفسهم من هذا الشِرك الأخلاقي. والآن بات يُمكنهم النوم من دون قلق من التداعيات العاطفية؛ والنساء كُنَّ مثلهم تمامًا، لذا لم يكن هناك داعٍ لوجود أي اهتمام خاص. ففي هذا الشأن كُنَّ، ولا زِلْنَ، مدعومات من قِبلَ النسوة اللاتي يقاومن الاعتبارات الأخلاقية الخاصّة كرعايةٍ أشدَّ مقاومة (التي حدثت بالطبع في إنكلترا الفيكتورية وتحدث الآن في بعض الأحيان).

في الوقت نفسه عدّ المُشرّعون التماثل الجنسي بمعنى أن النساء لسن بحاجة إلى حماية قانونية خاصّة. إذ في كثير من الولايات، جلبت السبعينات الطلاق «بلا خطأ» وبذلك القسمة المساواتية أوتماتيكيًا لأصول الزوجين - حتى وإن كان أحد الزوجين، غالبًا الزوجة، ليس على مسار مهني وبذلك يقف في مواجهة احتمالات أصعب. قد تُستبدل النفقة مدى الحياة التي كانت تتوقعها المرأة المُطلّقة الآن ببضع سنوات من مدفوعات «الإعالة التأهيلية»، والتي من شأنها أن تمنحها الوقت لبدء تعافيها مهنيًا - تعافٍ قد يستغرق أكثر من بضع سنوات في الواقع في حال كان في عُهدتها بضعُ أطفال. وفي محاولة الحصول على صفقة أكثر إنصافًا، ليس مفيدًا الإشارة إلى أن سبب الانفصال كان استغراقُ زوجها في التودّد لأخريات، أو نزوات غضبه الوحشية المفاجئة. فتلك الأشياء، بعد كل شيء، ليست ذنب أحد. إن فلسفة «بلا خطأ» هي إحدى أسباب كون الطلاق مشروعًا مُربحًا للرجال بالمعنى الحرفي. (والسبب الآخر هو التهاون في إنفاذ الالتزامات المالية للرجل)، لقد مرَّت الآن ذروة «بلا خطأ» وعبرت، واحتوى مُشرّعو الولاية بعض الضرر، لكن ليس كُله.

لم تكن العقيدة النسوية للتماثل الجنسي الفطري الجاني الوحيد، أو الرئيس حتى. إذ إن المعايير الجنسية والزوجية قد تغيّرت ولمدة طويلة، ولأسباب كُثُر

تتراوح من تكنولوجيا منع الحمل إلى تكنولوجيا الاتصالات، ومن الأنماط السكنية إلى النزعات الترفيهية. فلماذا الإسهاب في الحديث عن النسوية؟

جزئيًا بسبب التشاؤمية المحْضة (الجديرة بالثناء تمامًا) من أن مساعي إيقاف نوع واحد من استغلال النساء يتسبب بنوع آخر منه. وجزئيًا، كذلك، بسبب أن بعضهنّ، على الرغم من عدم انفراد النسويات في خلق هذه المشكلة، ساعدْنَ على ترسيخها. وحتى مدة قريبة كان الخوف من رد الفعل النسوي إلى حدّ بعيد العقبة الرئيسة أمام إخضاع الاختلافات بين الجنسين للمناقشة الصريحة. كتبت النسويات مقالات وكُتُب تدين «الحتمية البيولوجية» من دون تكليف أنفسهنَّ عناء فهم البيولوجيا أو الحتمية. كما أن المناقشة النسوية المتزايدة، وإن كانت متأخرة، للفروق بين الجنسين أحيانًا ما تكون مُبهمة وملتوية؛ إذ لديهنَّ ميل لوصف الاختلافات القابلة للتفسير موضوعيًا بالمصطلحات الداروينية مع تجنُّب السؤال عمّا إذا كانت فطرية أم لا.

زوجةٌ تعيسة

قد تبدو «خطة داروين» للبقاء متزوجًا - وبالطبع التوجّه العام لهذا الفصل حتى الآن - أنها تفترض مسبقًا صورة مُبسَّطة: تُحبُّ النساء الزواج، بينما الرجال ليسوا كذلك. ومن الواضح أن الحياة أعقد من أن تُختزل بهذا الشكل. إذ بعض النساء لا يرغبن في الزواج، وكثير منهنّ لا يكنّ سعيدات بعد الزواج. لو كان هذا الفصل قد شدّد على اختلاف عقل الذكر مع الزواج الأحادي (وهذا ما حدث بالفعل)، فهذا ليس لِظنّي بأن عقل الأنثى ينبوع دائِم للتزلّف والإخلاص. بل لاعتقادي أن عقل الذكر هو العقبة الأكبر أمام الزواج الأحادي الدائم - وعقبة كُبرى كهذه تبزغُ جليّة بالطبع من الأنموذج الدارويني الجديد.

إن اللاتوافق بين عقل الأنثى والزواج الحديث يفتقر إلى البساطة والجلاء (وفي النهاية إلى الاضطراب). وليس الصِدامُ كلُّه مع الزواج الأحادي بقدر

ما هو مع الوضع الاجتماعي والاقتصادي لهذا النوع الحديث من الزواج. في مجتمع الصيد وجمع الثمار الأنموذجي، كانت للنساء حياة مهنية ومنزلية على حد سواء، والتوفيق بين الاثنين لم يكن بالأمر الصعب. فحينما كُنَّ يخرجن لجمع الطعام، كانت رعاية الأطفال بالكاد تُمثِّل مشكلة؛ إذ كان الأطفال يرافقونهنّ، أو باستطاعتهم البقاء رفقة خالاتهم، أخوالهم، أجدادهم أو أبناء عمومتهم. وحين رعاية الأم لأطفالها بعد العودة من العمل، يكون السياق اجتماعيًا، بل ومجتمعيًا حتى. كتبت عالمة الأنثروبولوجيا مارجوري شوستاك بعد عيشها في قرية صيادين جامعي ثمار: «إن منظر أمّ وحيدة يثقِلُ كاهلها أطفال مولولون ليس مشهدًا قد تصادفه في الحياة اليومية للكونغ!».

يبدو أن معظم أمهات العصر الحديث يجدن أنفسهن بحالة جيدة على أحد جانبي المسؤولية المعتدلة التي اعتادت نساء مجتمعات الصيد وجمع الثمار التصدي لكليهما طبيعيًا. إذ قد يعملن طوال أربعين أو خمسين ساعة أسبوعيًا، قلقات بشأن الرعاية النهارية مع شعور مُبهم بالذنب. أو أن يكُنَّ ربّات بيوت بدوام كامل عاكفات على تربية أطفالهنّ لوحدهنّ والرتابة تُجِنُّ جنونهنّ. بعض ربّات البيوت تَمكنَّ بالطبع من تشييد بنية تحتية اجتماعية متينة حتى في ظل الوضع الذي تفرضه الأحياء الأنموذجية الحديثة حيث صعوبة الاستقرار مطوّلًا وتعسُّر معرفة كثيرين لدرجة كافية. لكن تعاسة كثير من النساء غير الراضيات بذلك هو أمر لا مفرّ منه. ولا عجب أن استطاعت نسويات العصر الحديث حشد مثل هذا الزخم في أثناء الستينيات، بعد أن أضعف انتشار الضواحي (وغيرها كثير) اللاحق للحرب العالمية الثانية ارتباط المرء بالمجتمع المحلّي ومزّقَ الأسر المتوسّعة؛ إذ لم تُصمَّمُ النسوة ليكنَّ ربّات بيوت في الضواحي.

كانت مساكن الضواحي في الخمسينات عمومًا أكثر «طبيعية» بالنسبة إلى الرجال. فمثل كثير من آباء مجتمعات الصيد وجمع الثمار، أمضى الأزواج في الضواحي العتيقة وقتًا طويلًا مع أطفالهم ووقتًا أطول في الترابط مع بقية الذكور، سواء أفي العمل أم اللعب أم أداء الطقوس. وعن هذه المسألة،

امتلـك كثير من رجـال العصر الفيكتوري (على الرغم من أن داروين لم يكن واحـدًا منهم) ذات الإعدادات. حيث على الرغم من كون الزواج الأحادي الأبدي نفســه أقلُ طبيعيًا بالنسـبة إلى الرجال منه للنساء، إلّا أن أحد أشكال الزيجات الأحادية التي غالبًا ما اتُّخِذَت، ولا تزال تُتَّخذ، قد تكون على النساء أصعب منها على الرجال.

ولكـن ذلـك ليس كـما القـول: إن عقـل الأنثى يهـدد الـزواج الأحادي المعـاصر أكثـر من، أو بمثل، عقـل الذكر. يبدو أن اسـتياء الأم لا يُترجم إلى انفصال بشكل طبيعي كما هو الحال مع الأب. والسبب النهائي هو أن في بيئة الأجـداد، كان البحث عن زوج جديد بوجود أطفال نادرًا ما يكون افتراضًا مربحًا وراثيًا.

إن جعل الزواج الأحادي المعاصر «يعمل» - بمعنى الاسـتمرارية وترك الزوجة والزوج سعداء إلى حد ما - يُمثل تحديًا شديد التعقيد. إذ قد يستلزم الإصـلاح الناجح التلاعب ببنية الحياة السكنية والمهنية الحديثة. وأي عبث طموح لا بُدّ أن يتفكَّرَ في البيئة الاجتماعية التي تطوّر فيها البشر.

لم يُصمّـم النـاس بالطبع كي يكونوا سـعداء بلا حـدود في بيئة الأجداد؛ إذ كان القلـق حينهـا، كما هو الحـال الآن، مُحفِّزًا مزمنًا، بينما السـعادة الهدف المنشـود والمُتهـرّبُ في الغالب دومًا. عـلى الرغم من ذلك فلـم يُصمَّم البشر ليُطلقوا عنانهم بجموح في بيئة الأجداد.

خطة إيما

عـلى الرغـم ممـا في الزيجات الحديثة من مشـاعر اسـتياء، تتطلـع كثير من النساء إلى العثور على رفيق دائم وإنجاب أطفال منه. فما الذي بإمكانهنّ فعله إن كان المنـاخ الحـالي لا يُفضّل هذا المسـعى؟ لقد تحدّثنـا بالفعل عن الكيفية التي يُمكن أن يتصرّف الرجال وفقها إذا ما أرادوا للزواج أن يكون مؤسسة أكثـر متانـة. لكـن إعطاء الرجال نصائح عن الزواج يشـبه إلى حـد ما تقديم كتيّـب مجاني إلى فـرد من الفايكنغ عنوانـه «كيف تتجنَّبُ النهْـب». إن كانت

النسـاء أقرب بطبيعتهنّ إلى الزواج الأحادي مقارنة بالرجال، وغالبًا ما يكُنَّ ضحية حالات الطلاق، فربـما يُمثّلن الموضع الأكثر منطقية للإصلاح. فكما اكتشـف جورج ويليامز وروبرت تريفرز، تنبع أكثر السـيكولوجيا الجنسـية البشرية من ندرة البويضات مقارنة بالمني. وهذه الندرة تمنح النساء قوة أكبر - في العلاقات الشـخصية وتشكيل النسيج الأخلاقي - مما يدركن في بعض الأحيان.

وفي أحيـان يُدركنهـا. معـروفٌ عـن النسـوة الراغبـات في زوج وأطفال تجربتهـنّ خطـة إيـمّا ويدجـوود للإيقاع برجـل. ففي أكثـر أشـكالها تطرفًا، تعمـل الخطـة على النحـو الآتي: إن أردتِ سـماع عهود بالإخـلاص الأبدي حتى حلول ليلة زفافك - ولو أردتِ التأكد من أن يوم الزفاف ذاك سـيحلّ بالفعل - فتجنّبي جِماعَ رجلك حتى حلول شهر العسل.

الفكـرة هنـا ليس فقـط، كما يقول المثـل، إن الرجـل لن يقـدِمَ على شراء البقـرة إن كان ضامنًا الحصول على الحليب مجانًا. لو كانت ديكوتوميّة مادونّا والعاهرة متجذّرة وراسـخة في عقل الرجل فعلًا، فممارسة الجنس مبكرًا مع المرأة قد تميل إلى إخماد أي مشـاعر حبّ ناشـئة ناحيتهـا. وإن كان هناك شيء كـ«معايـير لفـظ الشريك» في العقـل البشري، فقد تؤدي ممارسـة الجنس من دون مشـكلة - سواء بالنسـبة إلى الرجل أو المرأة - إلى إحساس بالبرود تجاه الآخر.

تجد كثير من النسوة استراتيجية إيمّا بغيضة. إذ يقول بعضهـم: إن «الإيقاع» برجل أمرٌ أدنى منزلة منهم؛ إذ لو كان السبيل الوحيد للزواج منه في إكراهه، فالأفضـل الاسـتغناء عنـه. بينـما يقـول بعضهم الآخـر: إن نهج إيـمّا رجعي ومتحيّز جنسـيًا، وهو إحيـاء للمطلب العتيق القائل باحتمال النسـاء العبء الأخلاقي لضبط النفس لأجل صالح النظام الاجتماعي. كما أن هناك آخرين يقولـون: إن هـذا النهج يبدو كأنـما يفترض أن ضبط النفـس الجنسي للمرأة سهلًا، وهو ما لا يكون كذلك في الغالب. وهذه الردود كلها مشروعة.

هنـاك اعتراض شـائع آخر على اسـتراتيجية إيمّا: أنهـا لا تعمل. ففي هذه

الأيـام يتوفر كثـير من الجنس أمام الرجـل مقابل التزام قليل مـن جانبه. ولم تمضِ سـنوات كثيرة منذ أن كان قطع امـرأة للإمداد يُعزّز من بدائلها. تجلس النسـاء المتحفّظات في منازلهنّ مسـتمتعات بعفّتهن. ففي يوم عيد الحب عام ١٩٩٢، نقلـت صحيفة النيويـورك تايمز عن امرأة عزباء تبلغ من العمر ٢٨ عامًا «تندبُ الحاجة المتزايدة إلى الرومانسية والتودُّد»؛ حيث تقول: «لا يزال الرجال يفكّرون أنكِ إن لم تطاوعيهم فستأتي أخرى. يبدو أن لا وجود لحافز إلى الانتظار حتى معرفة أحدكما الآخر بشكل أفضل».

وهـذه أيضًـا نقطة مشروعة وسـبب وجيـه لعدم احتماليـة أن تجلب حملة تقشُّف صارمة أي فوائد على المرأة. ومع ذلك وجدت بعض النسوة أن بعض التقرّب ناحية التقشّف قد يكون منطقيًا. فإن لم يكن رجلًا من الرجال معجبًا بـها يكفـي بإحداهنّ لدرجـة احتماله، لِنقل، شـهرين من التواصـل العاطفي المجـرّد قبل التدرّج إلى الشـهوة، فليس مرجّحًا بقاؤه طويـلًا إلى جانبها بأي حال. بعض النسـاء قرّرت أن عليها عدم تضييع الوقت – وغني عن القول: إن الوقت بالنسبة إليهنّ أهمُّ مما للرجال.

إن هذه النسخة المخفّفة من نهج إيمّا يمكن أن تعزّز نفسها بنفسها. فكلما زاد عدد النسوة اللاتي يكتشفن قيمة فترة التروّي اليسيرة، كلما أصبح من الأسهل عليهنّ فرض فترات تروٍّ أطول. إذا كان الانتظار مدّة ثمانية أسابيع شائعًا، فلن تضـع مُـدّة أمدها عشرة أسـابيع في وضـع تنافسي غير مـؤات. ولا تتوقع لهذا التوجّـه أن يصـل إلى المسـتويات الفيكتورية المتطرّفة. غير أننا نتوقع اسـتمرار هـذا التوجّـه الذي يبدو أنه بدأ بالفعل. ربما يـأتي أغلب المناخ الجنسي المحافظ ابتـداءً من مخافة الأمراض المنقولة جنسـيًا؛ ولكـن للحكم عبر الرأي الواضح المتزايـد لكثير من النسـاء أن الرجـال خنازير في الأصل، فإن جـزءًا من المناخ الجديد قد يأتي من نساء يسعين بعقلانية لتحقيق المصلحة الذاتية عبر الاعتراف بالحقائـق القاسـية عن الطبيعة البشرية. وأحد الرهانـات الأمينة عمومًا هو في أن الناس سيسـتمرّون بالسـعي تجاه مصالحهم الذاتية أينما وجدوها. وفي هذه الحالة يُمكن لعلم النفس التطوري أن يساعدهم على رؤيتها.

هناك سبب آخر لإمكانية كَوْن التوجّهات في الأخلاق الجنسية - سواء أكانت اقترابًا من التحفّظ الجنسي أو ابتعادًا عنه - مكتفية ذاتيًا. لو كان الرجال والنساء مصمّمون فعلًا لضبط استراتيجياتهم الجنسية بحيث تلائم الظروف المحليّة للسوق، فإن معيار كُلّ جنس سيعتمدُ على معيار الجنس الآخر. وقد رأينا بالفعل دليلًا لدى ديفيد بوس وآخرين أنه عندما يَصِمُ رجالٌ امرأة ما بالانحلال، فإنهم سيعاملونها وفقًا لذلك - بوصفها غزوة مؤقتة، بدلًا من مكسب دائم. كما ورأينا دليلًا من إليزابيث كاشدان على أن النساء اللاتي ينظرنَ إلى الرجال على أنهم يتّبعون عمومًا استراتيجيات قصيرة الأمد يَكُنَّ أنفسهنَّ أكثر احتمالًا للظهور والتصرّف بوصفهن مُنحلّات: ارتداء ملابس مُثيرة جنسيًا والإكثار من ممارسة الجنس. يُمكن للمرء تخيُّل أن هذين التوجّهين ينحصران في دوامة من التغذية الراجعة الموجبة، مما يؤدّي لما كان الفيكتوريّون سيدعونه بالتدهور الأخلاقي المستمر. أي قد يؤدي انتشار الفساتين الخليعة والمظاهر المغرية إلى إرسال إشارات من شأنها تثبيط استعداد الذكور إلى الالتزام؛ وبينما يُنمّي الرجال المُثبَّطون مراعاة أقل نحو النساء مع الجهر بنواياهم الجنسية، فإن انتشار الملابس الخليعة سيشهد زيادة بين النساء. (حتى إن المظاهر المغرية التي تظهر هنا وهناك على اللوحات الإعلانية وبين صفحات مجلّات بلي بوي قد يكون لها بعض التأثير).

إن كان لا بد للأمور من التحرّك بطريقة ما صوب الاتجاه الآخر، صوب الاستثمار الوالديّ للذكر، فيُمكن للتوجّه استحصال الدعم المستدام لذات ديناميكية التعزيز المتبادل سالفة الذكر. حيث كلما ازدادت مادونيّة النساء، كلما ازداد ميل الرجال لتبنّي استراتيجية الأبوّة والتخلّي عن الشقاوة، وبذلك ازدياد مادونيّة النساء أكثر بوصفه نتيجة، وهكذا دواليك.

إن وصف هذه النظرية بالتأمليّة بمثابة بَخْس لقيمتها. صحيح أنّها مُثقلةٌ بعيب صعوبة الاختبار المُباشر (حالها حال كثير من نظريات التغيير الثقافي)، إلّا أنها تستند إلى نظريات علم النفس الفردي القابلة للاختبار. تُعدُّ دراسات بوس وكاشدان بمثابة اختبار أولي، ولا تزال هاتان الركيزتان صامدتين إلى حدّ

بعيد حتى الآن. كما وتتمتّع النظرية بميزة المساعدة على تفسير سبب استمرار توجّهات الأخلاق الجنسية لمدة طويلة. فتمامًا كما كان الحياء الفيكتوري، في ذروته، تتويجًا لتوجّه دامَ قرنًا من الزمن، يبدو الآن أنه أخذ في التراجع لمدة ستكون طويلة للغاية.

لماذا ينعكس التأرجح البطيء الطويل للبندول؟ الأسباب المحتملة تتراوح بين التحوّلات التقنية (موانع الحمل على سبيل المثال) وصولًا إلى التغيّرات الديمغرافية. ويُحتمل أيضًا أن ينزع البندول إلى الانعكاس حينما يجد جزء كبير من أحد الجنسين (أو كليهما) أن مصالحها الأعمق تُخدمُ بالنحو الكافي فيبدأ نتيجة لذلك بإعادة تقييم نمط حياته عن وعي. في العام ١٩٧٧ لاحظ لورانس ستون «إشارة السجل التاريخي إلى أن احتمال استمرار هذه الحقبة من الانفتاح الجنسي المفرط لمدة طويلة من دون التسبُّبُ بخلق ردّة فعل عنيفة أمر غير ممُكن إلى حد كبير. إنها لمفارقة مضحكة أنه في الوقت الذي يُبشّر فيه المفكرون بحلول الزواج المثالي المؤسس على الإشباع التامّ للحاجات الجنسية والعاطفية والإبداعية للزوج والزوجة على حد سواء، نجد نِسَب الانهيارات الزوجية المقاسة بمعدّلات الطلاق في ازدياد مُستمر»، ومنذ كتابته ذلك، طرحت النسوة، صاحبات النفوذ الأكبر على الأخلاق الجنسية، وبأعداد متزايدة على ما يبدو، أسئلة أساسية عن الحكمة خلف الإفراط في ممارسة الجنس خارج إطار الزواج. من المستحيل تحديد ما إذا كنا على أعتاب الدخول إلى حقبة نمو طويلة من التحفّظ الجنسي، إلّا أن المجتمع المعاصر يُظهر معالمَ الرضا الغامر عن الوضع الراهن.

سرُّ فيكتوريا

صدرت كثير من الأحكام عن الأخلاق الجنسية الفيكتورية، وإحداها أنها كانت قمعيّة بشكل مؤلم وبشع، والآخر أنها كانت ملائمة جدًا لمهمّة الحفاظ على استمرارية الزواج. وتؤكّد الداروينية على هذين الحكمين وتوحّدهما. فبمجرّد رؤية الاحتمالات الواقفة بالضدّ من استمرارية الزواج الأحادي مدى الحياة، ولا سيما في المجتمعات الطبقية اقتصاديًا - أي بعبارة أخرى

بمُجرّد رؤية الطبيعة البشرية – سيكون من الصعب تخيّل شيء أقلّ من القمع القاسي لأجل الحفاظ على استقرار المؤسسة.

لكن الفيكتورية ذهبت لما هو أبعد من القمّع اليسير العام. حيث كانت موانعها الخاصّة مضبوطة على نحو مدهش كي تناسب المهمّة المُناطة بها.

ربما قوبل التهديد الأكبر لدوام الزواج – إغراء الرجال المسنّين أو الأثرياء أو رفيعي المكانة للتخلي عن زوجاتهم لصالح زوجات أصغر سنًّا – بضغوط اجتماعية كُبرى. فَلَمْ يتمكّن تشارلز ديكنز من ترك زوجته إلّا بإثارة جدل كبير وتكبّد تكلفة اجتماعية عالية، ما أجبره على حصر كافّة لقاءاته بعشيقته في إطار من السريّة إلى الأبد. والحقيقة أن هجره زوجته كان هجرانًا من شأنه أن يجتذب نحوه استهجانًا لم يكن على استعداد لمواجهته.

إذا ما هدَّدَ رجل فيكتوري مؤسسة الزواج الأحادي بشكل أكثر مُباشرةً، ولنقل عبر ارتكاب الزنا مع نساء «محترمات»، فإن المخاطر كانت بالغة. اتُّهِمَ طبيب داروين، إدوارد لاين، في المحكمة من قِبلَ زوج إحدى مريضاته بالزنا مع المريضة. في تلك الأيام كان هذا النوع من القضايا فاضحًا لدرجة أن صحيفة «تايمز أوف لندن» غطّته يوميًا. وقد تتبّع داروين ذلك الحدث عن كثب. وربما تشكّك في كون لاين مذنبًا عن قناعة («لم أرَ منه يومًا تعبيرًا شهوانيًا قط»)، وكان قلقًا بشأن مستقبل الطبيب: «أخشى أن هذا الأمر سيُدمّره»، وربما كان يُحتمل حصول ذلك لو لا تبرئة القاضي له.

وتماشيًا مع المعايير المزدوجة بالطبع، تلقّت الزانيات قدرًا أكبر من اللوم مقارنة بنظرائهنَّ الذكور. فقد كان كُلّ من لاين ومريضته متزوّجين، وعلى الرغم من ذلك سردت مذكّراتها محادثة أحبّة سابقين بينهما تقسّم فيها اللوم بالنسب الآتية: «لقد توسّلته أن يُصدّق أنّي منذ زواجنا لم أخن الأمانة بأصغر درجات الخيانة. لكنه واساني على ما اقترفته، وناشدني أن أغفر لنفسي». (أقنع محامي لاين المحكمة أن مذكّرات الزوجة كانت محض خيال مجنون، ولكن حتى وإن كانت كذلك فقد عكست الأخلاقيات السائدة).

قد لا تكون المعايير المزدوجة عادلة، لكن يُمكن أن يكون لها أساس منطقي. حيث يُعدّ الزنا بحدّ ذاته تهديدًا أكبر للزواج الأحادي حينما ترتكبه زوجة.

(مـرة أخرى: سيعاني الرجل الاعتيادي في المتوسّـط مصاعـب أكبر للغاية في اسـتمرار زواجه عند علمه بخيانة شريكته مقارنـة بالمرأة)، وإذا ما تمكّن زوج الزانية من الاستمرار في زواجه بطريقة ما فإنه سيبدأ بمعاملة أطفاله بقدر أقلّ من الدفء بعد أن ثارت الآن شكوكه في أبوّتهم.

إن إجـراء هـذا النوع مـن التقييم السريـري السريع للأخـلاق الفيكتورية أمـر محفـوف بالمخاطـر. إذ يميل النـاس عمومًا إلى إسـاءة الفهـم. لـذا فلنكُن واضحـين: إن السريريـة ليسـت مثل المعيارية؛ فهـذا ليس جـدالًا بالنيابة عن ازدواجية المعايير أو أي موضوع معين آخر يخصّ الأخلاق الفيكتورية.

في الواقع فإن أيًا كانت المسـاهمة التي قدّمتها ازدواجية المعايير للاسـتقرار الزوجي عبر منح شـهوة الذكر متنفَّسًـا، فقد تغيّر الزمن. في هذه الأيام لم يعُد رجـال الأعـمال النافذون يحـصرون علاقاتهـم خارج إطـار الـزواج بالبغايا، أو بخادماتهـم أو سـكرتيراتهم ذوات الخلفيـات الثقافيـة التـي لا تجعل منهنّ زوجات محتملات. إذ مع انتشـار النسـاء في مجالات العمل على نطاق أوسـع، سـيُمكن له مصادفة شـابّات في المكتب أو رحلات العمل من النوعية التي قد يتزوجهـا تمامًا إذا ما كان عليه أن يفعل ذلك مرّة أخرى؛ وسـيعاود فعل ذلك من جديد. وفي حين لم يكن النشاط خارج إطار الزواج في القرن التاسع عشر، بل وحتى حلول خمسـينيات القرن العشرين، يوفّر متنفَّسًـا جنسـيًا بالنسبة إلى الأزواج المخلصـين في ظـروف معيّنة، ففي هذا الأيام أصبـح المنحدر صوب الهجـران زلقًا. ربما تكون ازدواجية المعايـير قد عززت الزواج الأحادي يومًا، لكنها تؤدي في هذه الأيام إلى الطلاق.

وبعيـدًا عـن السـؤال عـمّا إذا كانـت الأخلاقيـات الفيكتوريـة من شـأنها أن «تعمـل» اليـوم، فإن هناك سـؤال عـمّا إذا كانت فوائدها ستُسـوغُ تكاليفها العديدة. شَعَرَ بعض الرجال والنساء الفيكتوريون أن الزواج قد مَثّل لهم قيدًا شـديدًا. (على الرغم مـن أن الزيجات حينها بدت غير قابلـة للفِكاك، وهو أمر بـدا من جنس المُسـتحيل حرفيًا، كان الناس أقلّ تركيـز على عيوب بعضهم). كما أن الأخلاق السـائدة في ذلك الحين جعلت من الصعب على بعض النسـاء الاسـتمتاع حتى بالجِماع الزوجي من دون شـعور مصاحب بالذنب – ناهيك

عـن حقيقـة عدم معرفة الرجـال الفيكتوريين بحساسـيتهم الجنسـية. وكانت الحياة صعبة كذلك على النساء اللواتي أردن أن يكنَّ أكثر من مجرّد زينة، أكثر من «ملاك داخل المنزل» فحسـب. لقد صرّحت أخوات داروين لتشـارلز ببعض الشكوك حيال صداقة أخيهنَّ إيرازموس الناشئة، وإن كانت غامضة، بالكاتبة هاريت مارتينو، التي لم تكن بالخنوع الذي يتناسب مع القالب الأنثوي. وترك لقاؤها بداروين عنده الانطباع الآتي: «كانت مريحة للغاية ومتمكّنة في حديثها في غير عدد من المواضيع، على الرغم من ضيق وقت اللقاء. كما اندهشـتُ من ضآلة ما فيها من قُبح، ولكن مما بدا لي فقد كانت غارقة في مشـاريعها الخاصّة، في أفكارهـا وقدراتها. لكن إيرازموس خفَّفَ من ذلك عبر النصح بعدم النظر إليهـا بصفتهـا امرأة.» كان هذا النـوع من الملاحظات أحد الأسـباب العديدة التـي تجعل من الوجوب علينا ألّا نحاول إعادة إحياء الأخلاقيات الفيكتورية الجنسية في عمومها.

ليـس هناك شـك من وجـود أنظمـة أخلاقية أخـرى بإمكانهـا النجاح في الحفـاظ على الزواج الأحادي. لكن يبدو مُرجَّحًا أن أي نظام كهذا من شـأنه، كحـال الفيكتورية، أن ينطـوي على تكاليف عالية. وعلى الرغـم من إمكانيتنا الكفاح لأجل أخلاقيات توزّع التكاليف بالتسـاوي بين الجنسين (وبالتساوي ضمن كلا الجنسـين)، إلّا أن توزيع التكاليف بشكل متطابِق أمر يقلّ احتماله. إن الرجال والنسـاء مختلفـون، والتهديدات التي تطـوّرت أدمغتهم للتوجّس منها بشأن الزواج مختلفة كذلك. وهكذا فإن العواقب التي تواجه بها الأخلاق الفعّالة هذه التهديدات ستكون متباينة بين كلا الجنسين.

إذا كنّا جادّين حقًا في اسـتعادة مؤسسة الزواج الأحادي فإن القتال على ما يبدو سيكون عبر العبارة الفضْل بالتأكيد. في العام ١٩٦٦، لاحظ أحد العلماء الأمريكيـين عند النظر إلى الشـعور بالعار المحيط بالدافـع الجنسي بين الرجال الفيكتوريين «اغترابًا يُثير الشـفقة من جانب فئة كاملة من الرجال عن حياتهم الجنسـية»، وكان محقًّا تمامًا حول الاغتراب. لكن وصف «يثير الشـفقة» يمثّل مسألة أخرى. فعلى الطرف الآخر من طيف «الاغتراب» هناك «الانغماس» – الخضـوع المطلق لدوافعنا الجنسـية كما لو أنها صـوت الهمجي النبيل، الصوت

القـادر على إعادتنا إلى حالة النعيم البدائـي الذي لم يكن في حقيقة الأمر واقعًا يومًا. كان ربـع قرن مـن الانغماس في هذه الدوافع قد سـاعد عـلى خلق عالم يضمُّ من بين ما يضم: كثير من الأبناء أيتام الأب، كثير من النسوة المكلومات، كثير من الشكاوى عن الاغتصاب والتحرّش الجنسي، ومشهد متكرّر لرجال وحيديـن يسـتأجرون أشرطـة فيديويـة إباحية المحتوى على الرغـم من وفرة النسـوة الوحيدات. يبدو من الصعب هـذه الأيام إعلان حرب فيكتورية ضد شـهوة الذكور «المثيرة للشـفقة»، ولكن مثيرة للشـفقة قياسًـا بـماذا؟ ربما يبدو صامويل سـمايلز كثير السـؤال حينما يتحـدّث عن قضاء المرء حياته «مسـلّحًا ضد إغراء الانغماس الدنيء»، ولكن لا يبدو البديل حلًّا أفضل كما هو واضح.

من أين تأتي القواعد الأخلاقية؟

إن النغمـة الأخلاقيـة المتذبذبة لهذا الفصل هي من قبيل السـخرية إلى حدّ مـا. على الرغم مـن ذلك فمن جانب يقـترح الأنموذج الداروينـي الجديد أن أي مؤسسـة «غـير طبيعيـة» كالزواج الأحـادي يصعب أن تواصـل البقاء بلا قاعـدة أخلاقية قويـة (والمقصود قمعيـة). لكن للأنموذج الجديـد أيضًا تأثير موازٍ: تغذية نسـبويّة أخلاقية معيّنة - هذا إن لم يكن بالطبع اسـتخفافًا صريحًا بالقواعد الأخلاقية عمومًا.

وأقرب الأشـياء إلى نظرة داروينية شـاملة لكيفية نشوء القواعد الأخلاقية هي الآتية: يميـل الناس إلى إصدار أنواع الأحكام الأخلاقية التي تُعينهم على تمريـر جيناتهم إلى الجيل اللاحق (أو على الأقـل أنواع الأحكام التي تعزّز هذه القضيـة في بيئتنـا التطوّرية). وبذلك فإن القاعدة الأخلاقية هي بمثابة تسـوية غير رسمية بين المجالات المتنافسة للمصالح الجينية الذاتية، كلّ منها يسعى إلى تطويع القاعدة وفقًا لغايته الخاصّة، مستخدمًا كل عتلة تحت تصرّفه.

تأمل ازدواجية المعايير الجنسية. إن أوضح التفسيرات الداروينية أن الرجال صُمّموا في جانب كي يكونوا منفتحين جنسـيًا، وفي الجانب الآخر، مع ذلك، للنزول لمستوى النساء المنفتحات جنسيًا «العاهرات» في المستويات الأخلاقية الدنيا - حتّى إن أولئك الرجال يشجّعون تلك النسوة بشكل ملحوظ على أن

يكنّ منفتحات جنسيًا. وبذلك فإن هؤلاء الرجال الذين يشكّلون القواعد الأخلاقية قد يضمّنون فيها ازدواجية في المعايير. على الرغم من ذلك فعند الفحص الدقيق يُنظر إلى هذا الحكم الذكوري الجوهري على أنه يجذب الدعم الطبيعي من عند الدوائر الأخرى: آباء الفتيات اليافعات الجميلات الذين يشجّعون بناتهم على حِفظِ محاسنهنّ للسيد الصحيح (بمعنى أن تظلّ هدفًا جذّابًا للاستثمار الوالدي الذكوري)، والذين ينصحون بناتهم بـ«خطأ» ارتكاب العكس؛ البنات المُحتفظات بفضائلهنّ لمزايدٍ أثرى، ينتقصن من قيم البدائل المنافسة الرخيصة، النساء المتزوجات السعيدات اللاتي يعتقدن أن جو المخالطة غير المشروعة خطرًا جليًا وقائمًا على زواجهنّ (بمعنى لاستمرار استثمار أبوي مرتفع لأبنائهنّ). هناك مؤامرة وراثية مفترضة تحثّ على وسم النسوة المنفتحات جنسيًا بالشر. وفي الوقت نفسه هناك تسامح نسبي مع الذكور الجوّالين، وليس فقط لكون بعض الذكور (ولا سيما الجذّابون والأثرياء منهم) قد يعجبون بالفكرة. كما أن عدّ الزوجات كذلك الهجران بوصفه خرقًا أشدّ وطأة من الخيانة يعزّز ازدواجية المعايير.

إذا اقتنعت بطريقة رؤية القواعد الأخلاقية هذه، فلن تتوقع منها خدمة الصالح العامّ ككل. فهي تنبثق من عملية سياسية غير رسمية من المفترض أن تمنح وزنًا إضافيًا للأشخاص المتنفّذين؛ حيث من غير المحتمل أن تمثّل مصالح الجميع على قدم المساواة (على الرغم من أنها قد تنجح في ذلك ضمن مجتمع تسوده حرية التعبير والمساواة الاقتصادية). وبالتأكيد لا سبب هناك لافتراض أن القواعد الأخلاقية الحالية تعكس حقيقة أرفع بقدر ما يُمكن استيعابها عبر إلهام إلهي أو تحقيق فلسفي متحرّر.

في الواقع يُمكن للداروينية أن تساعد على إبراز التناقض بين القواعد الأخلاقية التي لدينا والنوع الذي يصل إليه فيلسوفٌ متحرّر. على سبيل المثال: على الرغم من أن المعاملة القاسية لازدواجية المعايير مع الجنس غير المشروع الذي تنخرط فيه الإناث قد تُعدّ نتاجًا ثانويًا طبيعيًا للطبيعة البشرية، فربما يجادل فيلسوف أخلاقي بارع أن الترخيص الجنسي غالبًا ما يكون مشكوكًا فيه من الناحية الأخلاقية في حالة الرجل. تأمّل رجلًا غير متزوج

وامـرأة غـير متزوجـة يخرجان في موعد أول. مـن المرجّح أن يعـبّر الرجل هنا عـن التـزام عاطفي أكبر (بوعـي أو من دونه) مقارنة بالمرأة ثـم نيل جِماع معها مسـتفيدًا مـن هـذه الذرائـع الزائفة. وإن تـمّ ذلـك فاحتمالية تـلاشي عاطفته تصـير أكثـر احتمالًا منهـا. وهذا شيء بعيـد كل البعد عن كونـه قاعدة صارمة وسريعة؛ إذ إن السـلوك الإنسـاني شـديد التعقيـد، والمواقف تختلـف اختلافًا كبيرًا كما الأفراد، وأعضاء كلا الجنسـين يُمضغون عاطفيًا بشـتّى الطرق. ومع ذلـك، بوصفه تعميـمًا إجماليًا، فمن العـدل القول: إن الرجال غـير المتزوجين يتسبّبون بقدر أكبر من الألم لشريكاتهم المؤقّتات عبر خيانتهم عهودهم مقارنة بالنسـاء العزبـاوات. وطالما أن النِسـاء لا يَنمْـنَ مع رجـال متزوّجين بالفعل، فـإن انحلالهـنّ الجنسي عادة ما يضرّ الآخرين بشـكل غير مبـاشر أو مُخصّص، هذا إن كان هناك ضرر سـيحصل من الأصـل. وبذلك إذا كنت تظّن، كما هو حـال أغلب النـاس مثلما يبدو، أن من غير الأخلاقي التسبّب للآخرين بالألم عبر تضليلهم بشـكل ضمني أو صريح، فقد تكون أكثر ميلًا لإدانة الانحلال الجنسي للرجال مقارنة بالذي ترتكبه النساء.

وهذه ستكون رغبتي على أيّ حال. لو بدا في هذا الفصل أنّي أقترح ممارسة النسـاء ضبطًا جنسيًا، فإن النصيحة لم يُقصد منها حَمْل عبء زائد من الالتزام. إذ كانت مساعدة ذاتية، لا فلسفة أخلاقية.

قـد يبدو هذا متناقضًا: حيث يُمكن للمرء، من وجهة نظر داروينية، نُصْحَ النساء بضبط النفس جنسيًا، مردّدًا الوعظ الأخلاقي التقليدي إلى حدّ ما، بينما يشجب في الوقت نفسه اللوم الأخلاقي للنساء غير الآخذات بهذه النصيحة. وقـد تعتـاد كذلك على هـذه المفارقة، كونها جـزءًا من الميـل الدارويني الأكثر عمومية للأخلاق.

مـن ناحية، قد يتعامـل الدارويني مع الأخـلاق القائمة بشيء مـن الريبة. ومن ناحية أخرى، غالبًا ما تجسّـد الأخلاق التقليدية حكمة نفعية معيّنة. بعد كل شيء، يتوافـق السـعي وراء الاهتـمام الوراثـي أحيانًا، إن لم يكـن دائمًا، مع السـعي وراء السـعادة. إن تلك الأمهـات اللاتي يجادلن بناتهـنّ لأجل «حِفظ أنفسـهنّ» قد يُقدّمن في أحد المستويات مشـورة قاسـية تخدم المصالح الجينية

الذاتيـة، إلّا أنهـنّ، في مسـتوى آخر، مُهتمّات بضمان سـعادة بناتهـنّ على المدى البعيـد. وكذلـك الحـال بالنسـبة إلى الفتيـات المُتبعـات لنصائـح الأم، اللاتي يعتقدن بأنها ستسـاعدهن على تحقيق زواج دائم وإنجاب أطفال: نعم، سـبب رغبتهـن في أطفـال أن جيناتهنّ «تريد» منهـنّ الرغبة بأطفـال؛ مع ذلك، تظل الحقيقـة رغبتهنّ في أطفـال، وأرجحيّة تحقيقهنّ حياة أكثـر إرضاءً واقعًا إذا ما رُزِقـن بهم. وعلى الرغم من عدم وجود شيء جيد جوهريًا في المصلحة الجينية الذاتيـة، لكـن لا شيء خاطئ في حـد ذاته بخصوصها أيضًـا. فحين تؤدي إلى السـعادة (وهو أمر ليس حتمي دائمًا)، من دون أن تؤذي شـخصًا آخر بشـدّة، فما الداعي لمحاربتها؟

بالنسـبة إلى الدارويني الميّال إلى الفلسـفة الأخلاقية، فإن الهدف من اللعبة فحـص الأخلاقيات التقليدية تحت افتراض أنها محمّلة بالحِكَم العملية المُعزّزة للحيـاة، على الرغـم من كونها مُحمّلة بالأحكام التي تخـدم الذات وغير القابلة للدفاع فلسفيًا عن «الفجور» المطلق لهذا أو ذاك. قد يكون وراء نُصْح الأمهات لبناتهـنّ بضبط النفـس حكمة – وفي هذا الصدد، من الحكمة إدانة المُنافسـات غير المُنضبطات. لكن الزَعْمَ بأن هذه الإدانات لها قوة أخلاقية قد تكون شـيئًا من السفسطة المنسّقة وراثيًا فحسب.

وتخليص الحكمة من السفسـطة سـتكون مهمّة كُبرى وشـاقّة بالنسـبة إلى فلاسـفة الأخلاق في العقـود القادمة، بافتراض أن من سـيتفهّمون الأنموذج الجديـد منهـم ليسـوا أكثر من قلّـة قليلة فحسـب. وعلى أي حـال، هي مهمّة سنعود إليها في نهاية الكتاب، بعد اتّضاح أصول أعمق للدوافع الأخلاقية.

عِلمٌ مُحلى

أحد ردود الفعل الشـائعة على المناقشات عن الأخلاق في ضوء الداروينية الجديـدة هو: ألسـنا نسـتبق اللعبة قليـلًا هنا؟ فقد بـدأ علم النفس التطوّري الآن، منتجًـا بضع نظريّـات نالت دعمًا قويًا (تباينات فطريـة بين غيرة الذكور والإنـاث)؛ بينـما حصـل بعضهـا على قـدر متوسّـط مـن الدعـم (ديكوتوميّة مادونّـا والعاهـرة)؛ وهناك كثـير منها لم تتجـاوز كونها تخمينـات محضة، وإن

كانـت معقولة (معيار «لفـظ الشريك»). أيقدر هيكل النظريّات هذا على دعم التصريحات الكاسحة للأخلاقيات الفيكتورية أم غيرها؟

أخـذ فيليـب كيتشر، الفيلسـوف الذي رسّـخ نفسـه بوصفـه ناقـدًا بارزًا للبيولوجيـا الاجتماعيـة، هذا الشـك خطـوة إضافية إلى الأمـام. إذ كان يعتقد أن على الداروينيين السـيّر بحذر ليس في صناعـة عمل الامتدادات الأخلاقية والسياسـية من علمهم غير المكتمل فحسـب (امتـدادات يتجنّبها أغلبهم على كل حال، بفضل النار التي تلقّتها قلّة في السـبعينات)، بل وفي تأسيسـهم علمًا من الأساس. فبعد كل شيء حتى إن لم يعبروا الخط الفاصل بين العلم والقِيَم، فإن أحـدًا ما آخر سـيفعل؛ إذ من المحتّم أن تسـتعمل النظريـات عن الطبيعة البشرية لدعم هذه أو تلك من العقائد الأخلاقية أو السياسية الاجتماعية. وإن تبـيّن خطأ هذه النظريات، فسـيكون ضررها قد وقع بالفعل. يَلحظُ كيتشر أن العلـوم الاجتماعية مختلفة عـن الفيزياء أو الكيمياء. ففي حـال اعتنقنا «وجهة نظر غير صحيحة عن أصول مجرّة بعيدة»، فإن «ذلك الخطأ لن يكون مأساويًا. لكن على النقيض من ذلك، إذا تبيّن خطأنا بشأن أُسُس سلوك اجتماعي إنساني مـا، إذا تخلّينـا عن هدف التوزيـع العادل لفوائد وأعباء المجتمع بسـبب قبولنا فرضيات خاطئة عن أنفسنا وتاريخنا التطوّري، فإن عواقب هذا الخطأ العلمي فادحـة للغايـة»، وهكذا، «حينـما تؤثر ادّعاءات علمية على مسـائل السياسـة الاجتماعية، فلا بُدّ لمعايير الدليل والنقد الذاتي أن تكون غاية في الارتفاع».

هناك زوج من المشاكل هنا. الأولى أن «النقد الذاتي» في حد ذاته ليس جزءًا جوهريًـا مـن العلم. بينما النقد الذي يُمارسـه الزمـلاء الأكاديميون – نوع من النقد الذاتي الجماعي – هو كذلك، وهو ما يُحافظ على «معايير الأدلة» مرتفعة. ولا يُمكـن لهـذا النقد الـذاتي الاجتماعي أن يبـدأ حتى لحظة طـرح الفرضية. افـترض أن كيتشر لا يقترح أن نُضيّق دائرة خوارزمية التقدم العلمي هذه عبر الإحجام عن تقديم الفرضيات الضعيفة؛ حيث تكتسب الفرضيات الضعيفة قوّتهـا مـن التدقيق الذي لا رحمة فيه، ولا طريقة أخـرى لبلوغ ذلك. وإن كان كيتـشر يقـترح نعت الفرضيـات الفكريـة فقط على هـذا النحـو، فليس هناك اعـتراض. ففي واقع الأمـر، بفضل أناس مثل كيتشر (ولا أقـول هذا تهكّمًا)،

أصبح كثير من الداروينيين اليوم أساتذة في التأهيل الدقيق.

ما يقودنا إلى المشكلة الثانية مع حجّة كيتشر: اقتراح أن على علماء الاجتماع الداروينيين، وليس علماء الاجتماع عمومًا، التقدّم بمنتهى الحذر. إن الافتراض غير المعلن عن أن النظريات الداروينية الخاطئة عن السلوك ستميل لتكون أكثر ضررًا بالمقارنة مع النظريات غير الداروينية الخاطئة عن السلوك. لكن ما وجوب أن يكون الحال كذلك؟ يبدو أن مذهب علم النفس غير الدارويني ذا المعايير القديمة - القائم على عدم وجود فروق عقلية فطرية بين الرجال والنساء فيما يتعلق بالتودّد والجنس - قد تسبب بقدر لا بأس به من المعاناة طوال العقود القليلة الماضية. وكثيرًا ما اعتمد على أدنى «معايير الأدلة» التي يُمكن تصوّرها - غياب الأدلة الحقيقية بالمُطلق، ناهيك عن التجاهل الوقح والمتعجرف للحِكَم الشعبية في كل ثقافات الكوكب. ولكن لسبب ما، لا يبدو أن ذلك يُزعج كيتشر؛ إذ يبدو كما لو كان يعتقد بأن النظريات المنطوية على جيناتٍ يُمكن أن تتسبب بتأثيرات أسوأ مقارنة بالنظريات غير المتضمّنة لجينات.

يبدو أن التعميم الأكثر موثوقية هو أن انطواء النظريات الخاطئة على آثار سيئة أرجح من انطواء نظرياتها الصحيحة. وإذا لم نكن عارفين يقينًا، كما هو الحال في أحيان كثيرة، أيّ النظريات صحيحة وأيّها خاطئة، فالرهان الأفضل هو الذهاب مع تلك التي تبدو كأنها صحيحة. قامت مقدمة هذا الكتاب على أنّ علم النفس التطوّري، على الرغم من حداثته، أصبح إلى حدّ بعيد جدًا أرجح المصادر لنظريات العقل البشري التي قد يتّضح صوابها - كما اكتسبت كثير من نظرياتها النوعيّة، بالطبع، أساسًا راسخًا إلى حدّ ما.

ليست كل التهديدات المُحْدِقَة بالاستكشاف الصادق للطبيعة البشرية مصدرها أعداء الداروينية. فضمن الأنموذج الجديد، أحيانًا ما تُكسى الحقيقة بكِسوة حلوة. حيث غالبًا ما يكون من المغري، على سبيل المثال، تقليل قيمة الاختلافات بين الرجال والنساء. إذ لأجل طبيعة الرجال الميّالة لتعدّد الزوجات، قد يقول علماء الاجتماع الداروينيون الحسّاسون سياسيًا أشياء من قبيل: «تذكّر أن هذه مجرّد تعميمات إحصائية، وقد يشذّ أي فرد إلى حدّ كبير عن

قاعدة جنسه». حسنٌ، هذا صحيح، ولكن القليل فقط من هذه الانحرافات تذهب إلى الدرجة التي تكون فيها شديدة القرب من معيار الجنس الآخر (وتذكّر أن نصف الانحرافات تكون بعيدة عن المتوسّط من معيار الجنس الآخر). أو: «تذكر أن السلوك يتأثر بالبيئة المحلية والخيار الواعي. والرجال غير مضطرين للعبث». هذا صحيح، بل ومهم للغاية. إلّا أن كثيرًا من دوافعنا، بحكم التصميم، شديدة القوّة، لذا يجب على أي قوّة تعمل على كبتها أن تكون غاية في القسوة. إن من المضلّل على نحو فادح التحدّث كما لو كان ضبط النفس سهلٌ سهولة تغيير قناة تلفزيونية باستخدام جهاز تحكم عن بعد.

وهذا خطرٌ أيضًا. وربما يَجنَحُ جورج ويليامز، والذي قد يكون أقرب شيء إلى الأب المؤسس للأنموذج الجديد، بعيدًا حينما يقول: إن الانتقاء الطبيعي «شرّير». فقد خلق في النهاية كل شيء حميد في الطبيعة البشرية كما هو حال كل شيء مُدمّر فيها. ولكن صحيح بالطبع أن أصول كُل الشرور بالإمكان رؤيتها في الانتقاء الطبيعي، وعُبِّرَ عنها (إلى جانب الأُخريات الخيّرة جميعها) في الطبيعة البشرية. إن عدو العدل والكياسة قابع في جيناتنا بالفعل. ولو بدا في هذا الكتاب أني أبتعدُ عن استراتيجية العلاقات العامّة التي مارسها بعض الداروينيين، مُشدّدًا على ما هو سيئ في الطبيعة الإنسانية من دون ما هو جيد، فذلك لاعتقادي أننا تحت تهديد الاستهانة بالعدّو أكثر من كوننا عرضة لخطر المبالغة في تقديره.

الباب الثاني

أسمنت اجتماعي

الفصل السابع

العوائل

«لدينا مع النملة العاملة حشرة تختلف كثيرًا عن والديها، كما أنها عقيمة تمامًا؛ بحيث لا يُمكن لها تمرير التعديلات المكتسبة تتابعًا في البنية أو الغريزة إلى نسلها. وقد يُسأل المرء عن كيف يكون ممكنًا التوفيق بين هذه الحالة ونظرية الانتقاء الطبيعي».

أصل الأنواع (١٨٥٩).

[البارحة] كان دودي [ويليام، ابن داروين] كريمًا كفاية لإعطاء آني آخر لقمة من حصّته لخبز الزنجبيل واليوم ... وضع مرة أخرى فتاته الأخيرة على الأريكة لأجل آني كي تركض ناحيتها فيُنادي مُصطنعًا البهجة «أوه يا دودي الطيّب» «دودي الكريم».

ملاحظات عن أطفال داروين (١٨٤٢)

جميعنا يُحبُّ أن يرى نفسه بوصفه واحدًا من المُؤثِرين، وفي مناسبات معيّنة نكون كذلك بالفعل. إلّا أننا ثُلّة من الحقراء بالمقارنة مع الحشرات الاجتماعية. إذ يُضحّي النحل بحياته لأجل زملائه، نازعين أحشائهم عند

لدغ الدُخلاء. بعض النمل يُفجّر نفسه على العدو دفاعًا عن المستعمرة، في حين يُقدّم نملٌ آخر حياتهُ بوّابة تقطعُ الطريق بوجه الحشرات غير الحاملة لتصاريح أمنية، أو كأكياسٍ للطعام، متدلّين بأجسامهم المنتفخة من السقف وقت شحّة الطعام. قطع الأثاث هذه ليس لها ذُرّيّة.

قضى داروين أكثر من عقدٍ يتساءل كيف يُمكن للانتخاب الطبيعي إنتاج طوائف كاملة من النمل العقيم. وفي الأثناء نفسها كان هو نفسه منشغلٌ بخلقِ ذريته الخاصّة. حظيت مُشكلة عُقم الحشرات باهتمامه تزامنًا مع ولادة طفلته الرابعة هنريتّا المولودة في أواخر العام ١٨٤٣، وظلّت المشكلة عصية على الحل حتى وقت مجيء طفله العاشر والأخير، تشارلز، عام ١٨٥٦. وظلّ طوال تلك السنوات محتفظًا بنظرية الانتخاب الطبيعي سرًا، وأحد الأسباب قد يكون التناقض الصارخ الذي يُمثّله النمل بالنسبة إليها كما يبدو. إذ يقول: بدت المفارقة «مستعصية، بل وقاتلة في الواقع لنظريّتي بأكملها».

ربّما لم يجرِ على ذهن داروين، في أثناء تفكّره بلغز الحشرات، أن حلّه قد يُفسّر كذلك نسيج الحياة اليومية المتنامية لعائلته: ما سبب إظهار أطفاله مودّةً تجاه بعضهم بعضًا، وما سبب شجارهم أحيانًا؛ لماذا شعر بأنه مُجبرٌ على تعليمهم فضائل اللُطف، ولماذا قاوموا ذلك أحيانًا؛ بل ولماذا بكى وزوجته إيّما خسارة أحد أبنائهم أكثر من الآخر. إن فهم التضحية بالنفس بين الحشرات من شأنها توضيح ديناميكيات الحياة العائلية بين الثديّات، والبشر من ضمنهم.

وعلى الرغم من أن داروين تصوّر أخيرًا، بشكل مُبهم على الأقل، التفسير الصحيح لعُقْم الحشرات، واشتبه في احتمالية كونه ذا صلة بالسلوك البشري، لكنه لم يقترب من رؤية اتّساع وتنوّع هذه الصلة. بل ولم يستطع أحدٌ آخر تحقيق ذلك قبل مرور قرن كامل.

قد يكون أحد أسباب ذلك في أن تفسير داروين، بالشكل الذي صاغه، كان عسيرًا على الفهم. في أصل الأنواع، كتب أن مفارقة تطوّر العقم «تضمحلُ، أو تختفي مثلما أعتقد حينما نتذكّر إمكانية تطبيق الانتقاء الطبيعي

علـى العائلة مثل تطبيقه على الفرد، وبذلك قـد نحصل على النهاية المرغوبة. وهكذا، يُطهى الخُضار الطيِّب بينما يُدمَّرُ الفرد؛ لكن البُستانيّ ينثر بذورًا من المخـزون نفسـه، بينما يتوقّع بمُنتهى الثقة الحصول عـلى ذات الصنف تقريبًا؛ يرَغب مربّو الماشية في تحقيق لحم وشحم مُجزّع جيّدًا؛ وحتى بعد ذبح الحيوان سيعود المُربّي واثقًا إلى ذات العائلة التي أنجبته».

أيًا كانت الغرابة التي يبدو عليها أمر استحضار مربّي النباتات والحيوانات إلى المشـهد، فإن ذلك أصبح يُمثّل أمرًا منطقيًـا تمامًا بعد العام ١٩٦٣، حينما رسـم بيولوجـي بريطـاني شـاب يدعى ويليـام هاميلتـون الخطـوط الأولية لنظرية انتقاء الأقارب. إن نظرية هاميلتون فرعٌ وامتدادٌ لرؤية داروين في لغة الوراثة، وهي لغة لم تكن موجودة أيام داروين.

يقترح مصطلح انتقاء الأقرباء نفسـه ارتباطًا بتأكيـد داروين أن «الانتقاء يُمكـن تطبيقـه عـلى العائلـة»، وليس عـلى المُتعضّي الفـرد فقـط. إلّا أن هذا الاقـتراح مُضلّـلٌ على الرغم مـن حقيقته. إن جمـال نظريـة هاميلتون يكمن في رؤيتهـا عـدم حدوث الانتقاء الطبيعي على مسـتوى الفـرد أو العائلة، بل الجـين نفسـه. كان هاميلتون أول مـن تناول بوضوح هـذا الموضوع المركزي للأنموذج الدارويني الجديد: النظر إلى البقاء من منظور الجين نفسه.

تفكّـر في سـنجاب أرضي فتـيّ لم يَزَل بـلا ذرية، وعند ملاحظته مُفترسًـا يقترب، يقـف على قائمتيه الخلفيتين مطلقًا إنذارًا صاخبًا من شـأنه اجتذاب انتبـاه المُفترس جالبًا لنفسـه احتمالًا بالموت الخاطـف. إذا نظرت إلى الانتقاء الطبيعي بالطريقة نفسـها التـي ينظر إليه كافّة البيولوجيـين في أثناء منتصف القـرن العشرين – بوصفها عملية تتعلق ببقـاء وتكاثر الحيوانات وذريتها – فلـن يكون نـداء التحذير منطقيًـا. إذا لم يكن لدى السـنجاب الأرضي ذرية لإنقاذهـا، فإن نداء التحذير يُعدّ انتحارًا تطوريًا. أليس كذلك؟ كان هذا هو السؤال الذي أجاب عليه هاميلتون بالنفي، وأتت إجابته بالغة في أهميتها.

في المنظور الهاميلتوني، يتحوّل الانتباه من السنجاب الأرضي المُطلِق لنداء التحذير إلى الجين نفسـه (أو سلسـلة الجينات في الواقع) المسؤول عن إطلاق

النداء. فبعد كل شيء، لا تعيش السناجب الأرضية إلى الأبد، ولا أي حيوان آخر أيضًا. والكيان العضوي الوحيد الذي يُمكن وصفه بالخلود هو الجين (أو بشكل أدق، نمط المعلومات المشفّرة في الجين، بما أن الوجود المادّي للجين نفسه سيزول بعد تمرير النمط عبر التناسخ). لذا ففي إطار زمني تطوّري، أي على مدى مئات أو آلاف أو ملايين الأجيال، ليس السؤال عن الكيفية التي يقطع فيها الحيوان الفَرد تذكرة السفر؛ فجميعنا يعلم الإجابة الكئيبة لذلك. بل السؤال كيف ترتحلُ جينات الفرد. حيث يفنى بعضها ويزدهر آخر، وأي المصيرين مسألة عاقبة. كيف يُمكن لجين «نداء تحذير انتحاري» أن يرتحل؟

الإجابة المفاجئة إلى حد ما، الكامنة في جوهر نظرية هاميلتون، هي: ذلك ممكن تمامًا في ظل الظروف المناسبة. والسبب أن السنجاب الأرضي الحاوي للجين قد يكون له أقرباء قريبون سيتمُّ إنقاذهم إذا ما أطلق إنذارًا، وربما يكون بعض أولئك الأقرباء حاملين للجين نفسه. يُمكن افتراض أن نصف جميع الأخوة والأخوات، على سبيل المثال، يمتلكون الجين نفسه (ما لم يكونوا أخوة غير أشقّاء، وفي هذه الحالة ستكون النسبة الربع بطبيعة الحال).

إن كان نداء التحذير ينقذ حياة أربعة من أشقاء المُنذِر الذين ما كانوا ليظلّوا أحياءً لولا النداء، مع وجود اثنين منهم يحملان الجين المسؤول نفسه عن النداء، فإن الجين قد حقق وضعًا جيدًا لنفسه، حتى وإن دفع الحارس الحامل له الثمن الأقصى المتمثّل بالتضحية بالنفس. سيؤدي هذا الجين المؤثِر ظاهريًا أفضل على مر العصور مقارنة بجين أناني ظاهريًا يدفع حامله للفرار نحو الأمان بينما يُفني أربعة من أشقائه - ونسختين من الجين بوصفه معدّلا[1]. الأمر نفسه سيظلّ مُنطبقًا لو نجح الجين في إنقاذ شقيق واحد فقط، بينما يراهن الحارسُ الذي يحمله على فرصة موت احتمالها واحد إلى أربعة. وعلى المدى البعيد سيكون هناك مقابل كل جين مفقود جينين تمَّ إنقاذهما.

---

(١) في الحقيقة يتشارك السنجاب الأرضي (أو الإنسان) مع أشقّائه أكثر بكثير من نصف جيناته فحسب - ومع بقية أفراد نوعه كذلك. إلّا أن الجينات حديثة العهد إلى حد ما، تلك التي ظهرت الآن ضمن مجموعة سكانية بعينها، ستكمُنُ في نصف ذريّة المُتعفي الحامل لها بوصفه مُعدّلًا. وإن الجينات الحديثة هي صاحبة الأهمية الأكبر حين نتحدث عن تطوّر السمات الجديدة.

لا شيء روحاني يجري هنا. إذ لا تشعر الجينات روحيًا بوجود نسخ من نفسها في المتعضّيات الأخرى ومن ثم تحاول إنقاذها. فليست الجينات متبصّرة، ولا حتى واعية؛ إنها لا «تحاول» فعل أي شيء. لكنّ جينًا يظهر، يدفع حامله للتصرّف بطرق تساعد في بقائه على قيد الحياة وتعزز احتمالات إنتاجه حاملات أخرى يُرجّحُ حملها الجين نفسه، يُمكن أن يزدهر حتى لو انخفضت حظوظ حاملاته في أثناء هذه العملية. وهذا يُدعى بانتقاء الأقرباء.

يُمكن أن ينطبق هذا المثال، كما في الحالة السالفة، على جين يحثّ الثدييات على إنتاج نداء تحذير حينما ترى تهديدًا يحيق بجحرها، حيث يقي أقاربها. ويُمكن أن ينطبق هذا المنطق على جين يقود حشرة لتكون عقيمة، طالما أنها ستقضي حياتها في مساعدة أقاربها الخصبين (الحاملين للجين بشكل «غير ظاهر») على البقاء والتكاثر. ويُمكن أن ينطبق هذا المنطق على جينات تحثّ البشر على الشعور مبكرًا بمن هم أشقّاؤهم ومن ثمّ مشاركتهم الطعام وإرشادهم والدفاع عنهم، إلخ.. - إن الجينات بعبارة أخرى هي التي تقود نحو التعاطف والحُنُوّ والإشفاق: جيناتٌ للحُب.

ساعد الفشل في تقدير الحب العائلي في إبقاء مبدأ انتقاء الأقارب بعيدًا عن الوضوح حتى حلول هاميلتون. في العام ١٩٥٥، وفي مقال مشهور، أشار البيولوجي البريطاني ذائع الصيت جـ. بـ. سـ. هالدن أن جينًا يحثّك على القفز إلى نهر بغية إنقاذ طفل يغرق، مُخاطرًا بنسبة واحد إلى عشرة أن تموت، سيزدهر على المدى الطويل في حال كان هذا الطفل من ذريتك أو أشقّائك؛ بل يُمكن للجين أن ينتشر حتى، ولو بمعدّل أبطأ، في حال كان ذلك الطفل قريبًا لك، طالما أن الأقرباء من الدرجة الأولى يُشاركونك بالمعدّل ثُمن جيناتك. ولكن بدلًا من الانشغال بسلسلة الأفكار هذه، اختصر الأمر بملاحظة أن في حالات الطوارئ لا يملك المرء وقتًا لإجراء الحسابات الرياضية اللازمة؛ ومن المؤكد، على حدّ قوله، أن أسلافنا من العصر الحجري القديم لم يشغلوا أنفسهم في حساب مدى قرابة بعضهم ببعض. لذلك خَلَصَ هالدن إلى أن

جينات البطولة لم تنتشر سوى «ضمن الجماعات الصغيرة نسبيًا حيث معظم الأطفال فيها هم أقارب بدرجة ما للرجل الموشك على المُخاطر بحياته». بعبارة أخرى: يُمكن أن تتطور البطولة العابرة للتمييز، التي تعكس متوسّط درجة الارتباط بالناس في المحيط العام، إذا ما كان هذا المتوسّط مرتفعًا إلى حد ما.

على الرغم من رؤية هالدن الثاقبة في النظر إلى الأشياء من منظور الجينات، لا الفرد، كان الإخفاق في اتباع هذا المنطق حتى نهايته أمر يُمكن وصفه بالغريب على أقل تقدير. الأمر كما لو كان قد فكّر بأن الانتقاء الطبيعي يُدرك حساباته عبر جعل المُتعضّيات تعيدها مرارًا، بدلًا من ملء المتعضّيات بمشاعر تُعدُّ، بمناسيب محدّدة، وكيلةً للحسابات. ألم يلاحظ هالدن أن الناس يميلون لامتلاك أدفأ المشاعر تجاه من يبادلونهم الجزء الأكبر من جيناتهم؟ وأن الناس أكثر ميلًا للمخاطرة بأنفسهم لأجل من يشعرون بالودّ تجاههم؟ ما أهميّة ألّا يكون رجال العصر الحجري القديم عباقرة في الرياضيات؟ إذ كانوا حيوانات؛ وكانت لهم مشاعر.

من ناحية تقنيّة، كان هالدن على حقّ فيما ذهب إليه. فضمن الجماعات السكانية الصغيرة وثيقة الصلة ببعضها، يُمكن للإيثار العابر للتمييز التطوّر. ويظلّ ذلك صحيحًا حتى وإن بُذِلَ بعض ذلك الإيثار على أشخاص لا يُعدّون من بين الأقارب. فبعد كل شيء، حتى ولو وجَّهتَ إيثارك نحو أشقائك على نحو الخصوص، فسيذهب بعض منه سُدًى من الناحية التطوّرية، بما أن الأشقّاء لا يشاركونك كافّة جيناتك، ومن الممكن ألّا يحمل أحدُ أولئك الأشقّاء الجين المسؤول عن الإيثار. المهمّ في كلا القضيّتين ميل جين الإيثار لتعزيز احتمالات بقاء المركبات التي قد تحمل نسخ من نفسه؛ المهم تجاوز ما ينتجه الجين من خير الضرر بالنسبة إلى تضاعفه على المدى البعيد. دائمًا ما يشغل السلوك مكانًا وسط عدم اليقين، وكل ما يُمكن للانتقاء الطبيعي فعله اللعب على الاحتمالات. في سيناريو هالدن، تتمثّل طريقة اللعب على الاحتمالات في غرس إيثار معتدل وعمومي تعتمد قوّته الدقيقة على متوسّط

مـدى القرابـة مع الأشـخاص المسـتقرّين في المحـال المجاورة. وهذا تفسـير يُمكن تقبّله.

ولكـن كما لاحـظ هاميلتـون في العام ١٩٦٤ فـإن الانتقـاء الطبيعي، لو أتيحت له الفرصة، سـيعزّز الحظـوظ عبر تقليل عدم اليقين إلى الحد الأدنى. إن أي جينـات تشـحذُ الدقّـة التـي يتمّ عبرها توجيـه الإيثار سـتزدهر. وإن جينًـا يحـثّ الشـمبانزي على منـح أوقيّتين من اللحم إلى شـقيقه سيسـود في نهايـة المطـاف على آخـر يحثّه على منح أوقيّة لحم لشـقيقه وأخـرى لفرد ليس مـن العائلة. لذا، ما لم يكن تمييز القرابـة غاية في الصعوبة، فعلى التطور إنتاج سلاسة قويّة ودقيقة الاستهداف في إحسانها، بدل واحدة ضعيفة وعشوائية. وهذا ما حصل. إذ جرى ذلك، إلى حد ما على الأقل، مع السناجب الأرضية التي يزداد احتمال إطلاقها نداءً تحذيريًا عند وجود أقارب في الجوار. وجرى كذلك إلى حد ما مع الشـمبانزي وبقية الرئيسـيات غير البشرية التي غالبًا ما يكون لها علاقات داعمة مع الأشقاء. كما وقد جرى إلى حد كبير معنا.

ربما سـيكون العالم مكانًا أفضل لو لم يكن الحال كذلك. فالمحبة الأخويّة بالمعنـى الحـرفي لها تأتي على حسـاب المحبّة الأخوية بالمعنـى التوراتي؛ إذ كلما أغدقنـا على الأقارب بقدر غـير محدود من الكرم، كلما بقي هناك القليل فقط لنُغدقـه على الآخريـن من خارج العائلة. (وهذا، كـما يعتقد بعضهم، ما منع هالـدن، الماركـسي، مـن مواجهـة الحقيقة). ولكـن، في السرّاء والـضرّاء، ما نملكه من المحبّة الأخوية هو النوع الحرفي.

تتعـرّف كثـير من الحشرات الاجتماعيـة على أقربائها بمعونة الإشـارات الكيميائيـة المدعوّة بالفرمونـات. ومن غير الواضح كيـف يُميّز البشر وبقية الثديّـات (بوعـي أو من دونه) القريـبَ من غيره. إن مشـاهدة والدتنا وهي تطعـم وترعى طفلًا يومًا بعد آخر يُمثّل إشـارة واضحة. وربما يُمكننا أيضًا، عبر مراقبة الانتماءات الاجتماعية لوالدتنا، تطوير شعور بمن هي أختها مثلًا، وبذلـك هويّة ذريّة تلك الأخت. إضافة إلى ذلـك فمنذ ظهور اللغة، تمكّنت الأمهـات مـن إخبارنـا بهويّة كل شـخص - تعليـمات من صالحهـا الوراثي

تزويدنـا بها وإعارتهـا اهتمامنا. (وهذا يعني ازدهار الجينـات الحاثّة للأم على مساعدة أطفالها في التعرّف على الأقارب، إلى جانب تلك الحاثّة للأطفال على الاهتمام بهذه الإرشـادات). من الصعب تحديد آليات التعرّف على الأقارب في حال وجدت، بما أن التجارب التي قد تحلّ هذه المشكلة تتضمن إجراءات لا أخلاقية كإبعاد الأطفال عن عائلاتهم.

ما هو جليّ أن الميكانيكيات موجودة. فأي شخص له ذرية – من أي ثقافة كان – عـلى درايـة بالتعاطف مع شـقيق محتـاج إلى العون، والشـعور بالوفاء لتقديـم المسـاعدة، والذنـب في حـال عـدم تقديمهـا. وكل مـن عانى موت شـقيق له على درايـة بالحزن الناتج. هؤلاء الأشـخاص عالمون بماهيّة الحب، ويُمكنهم شكر انتقاء الأقارب على ذلك.

يتضاعـف ذلك بالنسـبة إلى الذكور الذين في غيـاب انتقاء الأقارب ربما ما كانوا ليشـعروا بالحـب العميق مُطلقًا. ومرة أخرى قبل أن يصبح جنسـنا البـشري أكثـر رقيًّا في الاسـتثمار الأبوي، لم يكن هناك سـبب يدعـو الذكور إلى الإيثار الشـديد نحـو ذريتهم. إذ كان هذا النوع من المـودة ميدانًا حصريًا للإناث، ويعود ذلك جزئيًا إلى أنهنّ الوحيدات المتيقّنات من عائديّة ذريّتهن. إلّا أن بإمـكان الذكـور التأكد تمامًا من هويّة أخوتهـم وأخواتهم، لذلك فقد تسـلّل الحب إلى نفوسـهم عبر انتقاء الأقارب. لو لم يكتسـب الذكور القدرة على محبّة أخوتهم، ربما ما كانوا ليوجِّهوا بسهولة نحو الاستثمار الأبوي العالي، أو الحـب العميق الذي يجلبه ذلك. يُمكن للتطوّر العمل فقط مع المواد الخام الـذي تصادف وجودها في الأنحاء؛ لو لم يكن الحب لنوع معيّن من الأطفال – الأشـقّاء – جزءًا من عقول الذكور قبل بضعة ملايين من السنوات، لكان الطريق نحو حبّهم لذريّتهم – الطريق إلى استثمار أبوي عالي – صعبًا للغاية.

مع وجود نظرية هاميلتون في متناول اليد، يكون سهلًا تقدير العلاقة التي رآها داروين بين بقرة لحمها «مُجزّع جيدًا» تتعرض للذبح والأكل، ونملة تكدح طوال حياتها من دون مشكلة. إن جين البقرة المسؤول عن اللحم المجزّع الجيد، للتأكيد، لم يساهم بشيء لأجل مركبته، وربما لن يساهم بشيء لأجل الإرث الجيني لها؛ إذ لا يُمكن للأبقار الميّتة إنتاج مزيد من الذرية. إلّا أن الجين سيظلّ يساهم بكثير لأجل الإرث الجيني غير المباشر لمركبته، ذلك أنه عبر إنتاجه اللحم المُجزّع، فهو يدفع المزارع إلى تربية وإطعام أقارب مركبته الذين يحمل بعضهم نسخًا من الجين نفسه. وكذلك الحال بالنسبة إلى النمل العقيم. ليس للنمل إرث مباشر، لكن الجينات المسؤولة عن هذه الحقيقة لا تزال تعمل جيدًا، وتُشكر على ذلك، طالما أن الوقت والطاقة اللذين كان بالإمكان تخصيصهما للتكاثر يُنفقان على نحو مربح لأجل مساعدة الأقارب المقرّبين كي يكونوا خصبين. وعلى الرغم من أن جين العقم يكمن خاملًا كذلك لدى أولئك الأقارب، إلّا أنه موجود ويجري تمريره إلى الجيل اللاحق، حيث يُنتج مرّة أخرى تكتّلات من الحشود العقيمة المؤثرة المكرّسة لخدمة عملية تمريره. وهو ذات المنطق الدقيق الذي يجمع بين النحلات العاملات والماشية لذيذة الطعم: بعض الجينات، عند إعاقة مرورها عبر إحدى القنوات، تُشحّمُ مرورها عبر قنوات أخرى، والنتيجة النهائية مزيد من المرور.

إن الرأي القائل بوجوب شعور داروين، الذي عمل من دون معرفة بالجينات أو فهم ظاهر لطبيعة الوراثة، بهذا التوازي قبل قرن من هاميلتون يُمثّل واحدًا من التقديرات المغالية عن العناية والدقّة في فكره.

ومع ذلك لا داعي للشك في تفوّق نسخة هاميلتون من أنموذج انتقاء الأقارب قياسًا بداروين. فهي دقيقة بما يكفي للقول، كما فعل داروين، إن الانتقاء الطبيعي في بعض الأحيان (كما في حالة الحشرات العقيمة) يعمل على الأسرة وفي أحيان على مستوى الكائن الفرد. لكن لِمَ لا نبقي على الأمور

سـهلة؟ لِمَ لا نقـول فقـط: إن الوحـدة النهائية للانتقـاء في كلا القضيّتين هي الجـين؟ أو نـدلي ببيان واحد موجز يشـمل كافّة أشـكال الانتقـاء الطبيعي؟ المقصـود: أن تلـك الجينـات المفضية إلى البقاء والتناسـخ هـي الجينات التي سـتفوز. قـد تفعـل الجينـات ذلك، عبر دفـع مركباتها بشـكل مبـاشر للبقاء والتوالـد ومـن ثم تجهيـز الذريـة للبقاء والتكاثـر. وقد يؤدون ذلك بشـكل غـير مباشر عبر دفـع مركباتهم، مثـلًا، إلى الكدح والعقم و«نكـران الذات» بحيـث تنتـج ملكة النمل كثيرًا مـن الذرية التي تحويهم. وأيًـا كانت الطريقة التـي سـتُتَمِّم بها الجينات المهمّـة، فهي أنانية من منظورهـم وإن بدت مؤثِرة على مسـتوى المتعضّي. ومن هنا جاء عنوان كتاب «الجينة الأنانية» لريتشـارد دوكينز. (واجه العنوان معارضة كبيرة من الناس الذين لاحظوا أن الجينات ليـس لديهـا نوايـا، وبذلـك لا يُمكن لهـا أن تكـون «أنانية». وهـذا صحيح بالتأكيد، غير أن القصد من العنوان لم يكن حرفيًا).

بطبيعـة الحال فإن مسـتوى المتعضّي هو الشـغل الشـاغل للبـشر؛ فالبشر متعضّيـات. غـير أن ذلك يُمثّل شـأنًا ثانويًا للانتقاء الطبيعـي. لو كان هناك مغـزى في «اهتـمام» الانتقـاء الطبيعي بـأي شيء - والقصد مجـازي - فذلك الـشيء هـو نحـن؛ بالمعلومـات الموجودة داخـل خلايانـا الجنسـية، بيوضنا وحيامننا، «يريد» الانتقاء الطبيعي منا، بالطبع، التصرّف بطرق معينة. ولكن طالمـا أننـا نمتثل لشرائعـه فلا يهم إن كنا سـعداء أم لا في أثناء هـذه العملية، سـواء أتعرّضنا للتشـوه الجسـدي أو متنا حتى. الشيء الوحيد الذي «يريد» الانتقـاء الطبيعـي الإبقاء عليه بحالة جيدة في النهايـة هو المعلومات المضمّنة في جيناتنـا، ولا اعـتراض لديـه على أي معاناة سـيتكبّدها جانبنـا خدمة لهذا الغرض.

كان هـذا هـو المضمـون الفلسـفي مـن النقطـة السـهلة التـي أوضحهـا هاميلتون تجريديًا وهيكليًا وأوردها في رسالة بعث بها عام ١٩٦٣ إلى محرري مجلّـة The American Naturalist. حيـث تخيّل جينًا يُدعى ج يتسـبّب بسـلوك الإيثار وألحظ: «على الرغم من مبدأ «البقـاء للأصلح» فإن الفيصل

النهائي الذي يحدد ما إذا كان الجين ج سينتشر أم لا ليس فيما لو كان هذا السلوك سيخدمُ سالِكَه، بل سواء أكان سيخدمُ الجين ج نفسه أم لا؟ وهذا هو الحال الذي سيكون إذا ما زاد السلوك الجديد من تركيز الجين ج في تجميعة الجينات».

كسا هاميلتون ملاحظاته باللحم في العام الذي أعقب نشر ورقته «التطور الجيني للسلوك الاجتماعي» في مجلّة البيولوجيا النظرية. وأصبحت الورقة، بعد إهمالها لسنوات عدّة، واحدة من أكثر الأعمال استشهادًا في تاريخ الفكر الداروينـي، محدثة ثورة في رياضيات البيولوجيا التطوّرية. قبل ظهور انتقاء الأقارب، كان من الشائع التحدث كما لو أن الفيصل الأخير في التطّور هو «اللياقة»، والتي يبدو أن تجلّيها النهائي هو المجموع الكلّي لإرث المتعضّي البيولوجي المباشر. وسيكون الازدهار حليف الجينات التي تجعل المتعضّي أصلح - تلك التي تعزز عدد ذريته وذرية ذريته وهكذا دواليك. والآن يُنظر إلى أن الفيصل النهائي للتطوّر هو «اللياقة الشاملة»، والتي تأخذ الإرث غير المباشر للجينات في حسبانها أيضًا؛ والتي يُمكن تأمينها عبر الذرية والأقارب وهكذا دواليك. كتب هاميلتون في العام ١٩٦٤: «بعد ذلك اكتشفنا هنا لياقة شاملة وكميّة، والتي تميل في ظروف الأنموذج إلى أن تُعزَّز بمثل ما تُعزَّز في الأنموذج الكلاسيكي الأسهل».

تحتوي رياضيات هاميلتون على رمز قوي - r - قُدِّمَ في وقت سابق من قبل البيولوجي سيوال رايت، لكنه مُنِحَ الآن قيمة جديدة؛ حيث يُمثّل r درجة القرابة بين المتعضّيات. وبين الأخوة الأشقّاء تساوي r قيمة ١/ ٢، بينما تكون قيمتها بين الأخوة غير الأشقّاء وأبناء الأخوة والأقرباء والعمّات والأعمام ١/ ٤، وبين الأقارب من الدرجة الأولى ١/ ٨. تقول الرياضيات الجديدة: إن جينات السلوك التَضحوي ستزدهر طالما أن تكلفة الإيثار (من حيث التأثير على النجاح الإنجابي المستقبلي) التي يتكبّدها المُؤثِر أقل من الفائدة العائدة على المتلقّي (كما ورد أعلاه) مضروبة في درجة الارتباط بين الاثنين. أي طالما أن c أقل من br.

حينـما قـدم هاميلتون نظريـة انتقاء الأقـارب، اسـتخدم في مثاله مجموعة المتعضّيـات نفسـها التـي حـيّرت داروين. وكـما حصل مـع دارويـن، فقد صدمته التضحية غير الاعتيادية بين كثير من الحشرات ضمن رتبة غشائيات الأجنحـة، ولا سـيما النمـل والنحـل والدبابير بالغـة الاجتماعية. ما سـبب وجـود هذا الإيثار الشـديد في تماسكه الاجتماعي المصاحب لـدى قلّة قليلة فقط من أركان مملكة الحشرات؟ قد تكون هناك أسباب تطورية عدّة، إلّا أن هاميلتون أشـار بإصبعه ناحية الذي بدا سـببًا مركزيًا. حيث أشار إلى أن هذه الأنـواع، والفضل يعـود إلى تكاثرها عجيب التكويـن، تتميّز بقيمة r كبيرة. حيث تتشارك النملات الأخوات قيمة ٣/ ٤ من جيناتها عبر سلفها المشترك، وليس ½ فقط. لذا فإن للإيثار الهائل ما يسوغه في عيون الانتقاء الطبيعي.

حينـما تكـون قيمـة r أكبر حتى مـن ¾، فإن الحجة التطوريـة عن الإيثار والتكافـل الاجتماعـي تـزداد قوّة. ضع في ذهنـك قالبًا مـن الغرين الخلوي، والذي يتمازجُ بإحكام بحيث يثير جدلًا منطقيًا عما إذا كان من الأفضل عدّه بوصفـه مجتمعًـا من الخلايـا أم معتضّيًا واحـدًا. ولأن خلايا القالـب الغريني تتكاثر لا جنسيًا، فإن قيمة r خاصتها تساوي ١؛ إذ إن جميعهم توائم متماثلة. إذن، مـن وجهـة نظر الجين، ليـس هناك اختلاف بين مصـير خليّته أو الخلية المجـاورة لها. وليس مفاجئًا فشـل كثـير من خلايا قالب الغريـن في التكاثر، بينما تكرّس نفسـها بدلًا من ذلك في خدمة خصوبة الخلايا الرفيقة الأخرى. حيث تُعدُّ رفاهيّة جيرانهم، بالمعنى التطوري، مماثلة لرفاهيتهم الخاصة. ذلك هو الإيثار.

كذلـك الحـال أيضًا مع البـشر - ولا أقصد هنا مجاميـع البشر، بل الخلايا التي تُشـكّل البشر. في مرحلة ما قبل مئات الملايين من السنين، بزغت الحياة متعـددة الخلايـا. حيث أصبحـت مجتمعات الخلايـا متوحـدة للغاية بحيث اكتسبت لقب «متعـضّي»، وهذه المتعضّيـات أنجبتنا في نهايـة المطاف. لكن كـما يشـهد قالب الغرين الخلوي، فـإن الخط الفاصل بـين المجتمع والمُتعضّي ليس واضحًا. من العدل، فنيًا، عدّ حتى المتعضّيات شديدة الالتحام كالبشر

مجتمعًا محكم التماسك من الكائنات وحيدة الخلية. حيث تُظهر هذه الخلايا نوعًا من التعاون والتضحية بالنفس تجعل حتى الكفاءة شبه الآلية لأي مستعمرة حشرية باليةً بالمقارنة. إنّ كافّة الخلايا في جسم الإنسان تقريبًا عقيمة باستثناء الخلايا الجنسية – «ملكات النحل» خاصتنا – التي لها قدرة الحصول على نسخ من نفسها للأجيال اللاحقة. والأعداد المهولة من الخلايا العقيمة التي تتصرف كما لو كانت قانعة تمامًا بهذا الترتيب لا شك أنها مؤسسة على حقيقة أن قيمة r بينها وبين الخلايا الجنسية تساوي ١؛ حيث تنتقل الجينات في الخلايا العقيمة إلى أجيال المستقبل بلا أدنى ريب عبر المني والبيوض بالجودة نفسها التي كانت ستُمرَّرُ بها عبر مركباتها بالضبط. مُجدَّدًا: حينما تكون قيمة r تساوي ١، يكون الإيثار مطلقًا.

حدود الحب

الجانب الآخر من هذه العملة أن r حينما لا تساوي ١، لا يكون الإيثار مطلقًا. فحتى محبّة الأشقّاء النقية – الحب الأخوي – ليست حبًّا تامًّا. يُقال: إن هالدِن صرَّح يومًا ما أنه ليس على استعداد للتضحية بحياته من أجل شقيق له، لكنه بدلًا من ذلك على استعدادٍ للتضحية بنفسه لأجل «اثنين من الأشقّاء أو ثمان من أولاد العمومة». ويُفترض أن قوله ذاك كان مزاحًا. ربما قصد السخرية مما عدّه مُحطئًا الامتداد مُسرف الدقّة للمنطق الدارويني. إلّا أن مزحته هذه تصطادُ حقيقة أساسية. إن تحديد درجة الإخلاص تجاه أي قريب هو تحديدٌ لدرجة اللامبالاة، وربما الخصومة كذلك؛ حيث كوب المصلحة المشتركة بين الأشقاء نصفه فارغ ونصفه ممتلئ. وبينما تبدو مساعدة شقيق أو شقيقة منطقية جينيًا، حتى لو كانت التكلفة مهولة، فإن تلك التكلفة ليست مُطلقة، وإن لها حدودًا.

وبذلك فمن ناحية لا يتوقع أي دارويني معاصر احتكار طفل إمدادات الغذاء بينما يَشبُّ أخٌ له ضعيفًا بسبب الجوع. لكن لا ينبغي لنا توقّع، بافتراض وجود شطيرة واحدة وشقيقين، أن تُحلّ مسألة توزيعها وديًّا. ربما

ليس من الصعب تعليم الأطفال المشاركة مع أشقّائهم (في ظروف معيّنة على الأقـل)، ولكن من الصعب تعليمهم المشـاركة بالتسـاوي، فذلك يتعارض مـع مصالحهم الجينيـة. وهذا هو ما يوجبـه الانتقاء الطبيعـي على أي حال. وبالإمـكان ترك هذا الأمر للمخضرمين مـن الآباء كي يجيبوا على ما إذا كان هذا التنبؤ مُثبتًا بالتجربة أم لا.

يخلق تباين المصالح الجينية بين الأشقّاء مفارقة مثيرة للسخط، وإن كانت في بعض الأحيان ساحرة. إذ إنهم يتنافسون بشدّة على عاطفة واهتمام آبائهم، مـع كل المـوارد التي يأتي بها ذلـك، وعبر هذه العملية يُظهـرون غيرة حقيرة لدرجة يصعب معها نسب الحبّ لهم؛ ولكن ما إن يُظهر أحدهم حاجة ماسّة أو يجابـه خطرًا مُحْدِقًا حتى ترى الحبّ يطفو إلى السـطح. لقد شـاهد داروين هذا التحوّل في السـلوك من جانب ولده ويـلي، البالغ من العمر حينها خمس أعـوام، تجاه شـقيقته الصغرى آني. حيـث كتب داروين، «كلـما كانت تؤذي نفسـها ونحـن حاضريـن، لم يكـن ويلي يُبـدي اهتمامًـا، بـل وكان يُصدر في أحيـان جلبة كبيرة كما لو كان راغبًا في تشـتيت انتباهنـا عنها»، ولكن في يوم ما آذَت آني نفسـها بغيـاب بالغين على مرأى من الحدث، لـذا لم يكن بإمكان ويـلي افـتراض أن أي خطـر حقيقي سَيجري علاجه. فـكان رد فعله حينها «مختلفًـا تمامًا. إذ سـعى في البدايـة إلى تهدأتها بمنتهى اللطـف، ثم أخبرها أنه سـيُنادي بيسي وحينما لم يجدها على مرأى منه تخلّت عنه شجاعته ومن ثمّ بدأ يبكـي أيضًـا»، لم يُفسر داروين ذلك الحدث، أو غـيره من حالات الحب بين الأشـقّاء، من حيـث انتقاء القرابة، أو ما اعتاد دعوتـه بـ»العائلة»؛ ويبدو أنه لم يرَ أبدًا الارتباط بين التضحية بالنفس لدى الحشرات وعاطفة الثديّات.

وكان البيولوجـي الأول الـذي أكّـد على الفراغ الجزئـي لكوب المصالح الجينيـة المشـتركة هو روبـرت تريفرز. إذ لاحـظ، على وجـه الخصوص، أن المصالـح الجينيـة للطفل لا تختلف فقط عن مصالـح الأخ أو الأخت، ولكن حتى عن تلك الخاصة بالأبوين. على كل طفل، من الناحية النظرية، أن يرى نفسـه بضعف القيمة التـي يرى فيها أحد أشـقّائه، بينما يُقـدّر الوالدان جميع

أطفالها بالتساوي لارتباط الاثنين مع كُلّ طفل بذات الدرجة من القرابة.

في العام ١٩٧٤ حلَّل تريفرز صراع الأبناء والآباء بالتفصيل في ورقة تحمل اسم «صراع الأبناء والآباء». وعلى سبيل التوضيح، ناقش قضية الثديّات المثيرة للجدل حول متى يجب أن يكون موعد الفِطام. ولاحظ أن عِجْلَ الوعل سيستمرّ بالرضاعة حتى بعد مضي وقت طويل من توقف ضرورة الحليب لبقائه حيًّا، على الرغم من منع استمراره الأم من إنجاب عجل آخر يشاركه جيناته. فبعد كل شيء: «العجل تامّ الارتباط بنفسه لكنه مرتبط جزئيًا فقط بشقيقه المستقبلي...» سيأتي الوقت الذي تكون فيه مكافآت الرضاعة الغذائية هامشية لدرجة ستفضل فيها المصلحة الجينية مجيء عجل آخر على الحليب. إلّا أن الأم التي تُقدّر «ضمنيًا» كلا العجلين من ذريتها بالتساوي، تبلغ تلك المرحلة في وقت أبكر. لذا فإن نظرية الانتقاء الطبيعي، المُبيَّنة عبر اللياقة الشاملة، تشير إلى أن النزاع على الفِطام سيكون جزءًا دائمًا من حياة الثديّات - كما يبدو أنه يحصل بالفعل. يُمكن لهذا النزاع الاستمرار بضع أسابيع وأن ينحى منحى شرسًا، حيث يصرخ الأطفال طلبًا للحليب ويكيلون الضربات لأمهاتهم. يعرف مراقبو البابون المخضرمون أن من بين الطرق الجيدة للعثور على جوقة من قردة البابون الإنصات كل صباح للصوت الصادر نتيجة نزاع بين أم وطفلها.

في النزاع على الموارد، من المتوقع أن يستعمل الأطفال أي أدوات تحت تصرّفهم، ومن ضمنها الخيانة. وقد تكون الخيانة فجّةً وموجهة ناحية الأشقّاء. («كان ويلي في بعض الأحيان يجرّب حيلًا صغيرة لمنع آني من الحصول على تفّاحته... إن في حوزتك تفّاحة أكبر من التي لدي»). ولكن قد تكون الحيلة أدقّ وموجهة ضدّ جمهور أكبر يشمل الوالدين. فإحدى الطرق الجيدة لتقليص مطالب الأبوين بتقديم تضحيات أكبر هي عبر المبالغة - أو لنقل عبر تسليط الضوء بشكل انتقائي - في التذكير بالتضحيات المقدّمة بالفعل. وأحد الأمثلة مذكور في مطلع هذا الفصل: أعطى ويلي، البالغ من العمر حينها عامين والملقب بدودي، أخته الصغرى آخر قطعة من خبز

الزنجبيل قبل أن يصرخ من أجل أن يُسمِعَ الجميع: «أوه يالَ دودي الطيّب، دودي الكريم»، وكثير من الآباء مطّلعون على هذا النوع من نكران الذات الظاهري.

حيلة أخرى يستخدمها الأطفال لاستخلاص الموارد من الأبوين ألا وهي بهرجة احتياجاتهم. دوّنت إيمّا داروين أفعال ابنها ليونارد البالغ من العمر ثلاثة أعوام بعد أن «كشط قطعتي جلد صغيرتين من معصمه»: «لم يظنّ أن بابا أشفق عليه بما يكفي وأومأ له بشكل قاطع. الجلد اجتُثَّ - وقد فقده - ثم باشر النزيف»، ثم بعدها بعام سُمِعَ ليونارد وهو يقول، «بابا - لقد سعلتُ بشدّة - عدّة مرّات بشدّة - خمسٌ شديدات - هل لي أن أحصل على بعض تلك الأشياء السود؟ [يقصد عرق السوس]».

ولتعزيز صورة الاستحقاق بشكل أكبر، قد يُشدّد الصِغار على القسوة والظلم الذي يكابدونه بسبب الأبوين. وفي ذروة الشدّة، يُعرف هذا التشديد بنوبة الغضب - وهو جزء من حياة الطفل ليس موجودًا لدى نوعنا فقط، بل ولدى صغار الشمبانزي والبابون وغيرها من الرئيسيات الأخرى. معروف عن صغير الشمبانزي الغاضب للكثيرين، كما يصف أحد علماء الرئيسيات قبل نصف قرن، أنه «يسترق النظر إلى أمه أو القائم برعايته كما لو كان يستكشف ما إن كانت ثورته تجتذب الانتباه».

ولحسن حظ صغار الرئيسيات فإن الآباء مُجهَّزون للاستغلال. فإيلاء طفل بكّاء أو شكّاء الاهتمام يصبّ في صالح جينات الآباء، ذلك أن البكاء أو الشكوى قد يشيران إلى حاجة حقيقية تشعر بها المركبة الحاملة لنسخ منهم. بعبارة أخرى: يُحبّ الآباء أطفالهم ويمكن أن يصيبهم ذلك الحبّ بالعمى.

ومع ذلك فإن فكرة كون نوبة الغضب شكل من أشكال التلاعب لن تصيب معظم الآباء بالصدمة على أنها رؤية ثورية، وهذا دليل على أنهم ليسوا عميان تمامًا. فعلى الرغم من أن الانتقاء الطبيعي جعل الوالدين منفتحين على التعرّض للتلاعب في المقام الأول، فلا بد من أن ذلك قد زوّدهم لاحقًا، من الناحية النظرية، بأدوات مضادّة للتلاعب، مثل الشكّ الفطن بالأنين

الطفولي. ولكن بمُجرّد وجود هذه الفطنة، لا بُدَّ للانتقاء الطبيعي من تزويد الأطفال بتقنية مضادّة للفطنة بشكل أنين أكثر صدقًا. وهكذا يستمرُّ سباق التسلّح إلى الأبد.

وكما أكّد تريفرز في ورقته الصادرة عام ١٩٧٤، فإن المنظور الجيني يشير إلى أن الآباء أنفسهم متلاعبون مخادعون. فهم يريدون - أو جيناتهم «تريد» منهم على الأقل - أن يستخلصوا من أطفالهم المزيد من الإيثار والتضحية المكرّسين للأقارب، وبذلك غرس مزيد من الحبّ داخل الطفل أكثر مما تحتاجه مصلحته الجينية. ولا ينطبق هذا على حبّ الأشقّاء فحسب، بل على حبّ الأعمام والعمّات والأقارب وجميع من لهم (في المتوسّط) ضعف ما للوالدين من جينات مقارنة بجينات الطفل. ومن هنا تأتي الندرة العامّة للخصومة التي يطالب فيها الآباء طفلهم بأن يكون أقلّ مراعاة لأشقّاء الوالدين أو أبنائهم.

إن الأطفال غير محُصَّنين بيولوجيًا أمام الحملة الأبوية الدعائية، مثلما هو حال الآباء أمام حملات أطفالهم. والسبب أن غالبًا ما يكون من المنطقي داروينيًا فعل ما يقوله الأبوان. وعلى الرغم من تباين المصالح الجينية للوالدين والطفل، لكن هناك تداخل بينهما قيمته ٥٠٪، لذا لا وجود لصاحب مصلحة وراثية أكبر من الأبوين كي يحوز حافز ملء عقل طفله بالحقائق والأقوال المفيدة. كما ولا وجود لشخص يُمكن أن يوليه الطفل اهتمامًا أكثر من أبويه. على جينات الطفل أن «تريد» منه الاستفادة من بنوك البيانات الفريدة المخلصة عند الوالدين.

ومن الواضح أن الجينات قادرة على شقّ طريقها. فحين كُنّا صغارًا، كانت المهابة والسذاجة تملؤنا بحضور والدينا. تستذكر إحدى بنات داروين أن «كل ما كان يصدر عنه حقيقة مطلقة وقانونًا نافذًا بالنسبة إلينا». من المؤكد أن في كلامها مبالغة. (حين وجد داروين ابنه ليونارد البالغ من العمر خمسة أعوام يقفز فوق الأريكة وأخبره أن فعله هذا مخالف للقواعد، أجاب ليونارد، «إذا كان الأمر كذلك فأنصحك بالخروج من الغرفة»)، ومع ذلك

فللصغـار ثقـة أساسـية، إن لم تكن مطلقـة، بالوالدين، وعـلى الوالدين، من الناحية النظرية، إساءة استخدامها.

يجب على الوالدين، بشـكل خاص، فعل ما يدعوه تريفرز «القولبة» تحت سـتار «التعليـم». إذ كتب: «طالما يُتوقّع من الذريـة تمييز التعليم (على عكس القولبـة) بوصفه شـيئًا يخـدم مصلحتهم الجينيـة، فالمتوقّع من الآبـاء تعظيم دورهم بوصفهم مُعلّمين لأجل الحدّ من المقاومة الموجودة لدى صغارهم.» قـد ينظر تريفرز بشيء من التهكّم ناحية إحدى ذكريات داروين عن والدته: «أذكرها تقول: 'إن كانت تطلب مني شيئًا .. فلأن فيه مصلحتي فقط».

للوالديـن أفضلية ثانيـة أكثر خصوصيّة في محاولة تثبيـط جينات أطفالهم (جزئيًا). يضمن انتقاء الأقارب أن الضمير يُراعي الأشـقّاء، ويُنتج الشـعور بالذنب بعد كل إهمال فادح لهم. لذا فإن لدى الآباء مركزًا للشـعور بالذنب يتّكلـون عليه، وعلى الانتقـاء الطبيعي أن يجعلهم جيّـدون في الاتكال عليه. عـلى الجانب الآخر، لاحظ تريفرز أن على الانتقـاء الطبيعي حينها الالتفاف ومنح الأطفال عدّة مضادّة للاسـتغلال – ربما، على سـبيل المثال، شكًّا حادًّا في مزاعم الآباء عن قيمة الواجب الأخوي. سباق تسلّح آخر.

ونتيجـة كل ذلـك معركـة متكاملـة الأركان عـلى روح كُلّ طفـل. كتب تريفرز: «إن شخصية وضمير كل طفل يُشكّلان داخل حلبة صراع».

يرى تريفرز أن النظرة السائدة لتربية الأطفال – على أنها عملية «الثَقْفَنَة»، والتي يزود عبرها الآباء أطفالهم مُخلصين بالمهارات الضرورية اللازمة – هي نظرة سـاذجة بشـكل ميؤوس منه. «لا يجوز للمرء افـتراض أن الآباء الذين يحاولـون تمرير فضائل كالمسـؤولية والأدب والأمانة والجدارة بالثقة والكرم ونكـران الـذات إنّما يـزودون ذريتهم بالمعلومـات المفيدة فقط عن السـلوك المناسـب الـذي يجـب تبنيـه في الثقافة المحليـة، ذلـك أن كافّـة الفضائل من هـذا النوع قـد تؤثر على مقدار السـلوك المُؤْثِـر والأناني الـذي يَمسُّ أقارب الوالدين، ويُتوقّع من الأبوين والطفل النظر إلى هذا السلوك بنحو مختلف». يـكاد تريفرز يبدو وأنه يـرى هيمنة فكرة «الثَقْفَنَة» بمثابـة مؤامرة غير معلنة

بين الظالمين. ويشير إلى أن «المفهوم السائد للتنشئة الاجتماعية هو إلى حد ما وجهة نظر يتوقّع المرء أن يستمتع بها البالغون ويَعمدون إلى نشرها».

يُلمّح هذا إلى مغزى يُمكن فيه للداروينية، التي صوِّرَت لزمن طويل بوصفها نظرة يمينية للعالم، الانبعاث بشكل آخر مغاير. فعبر الأنموذج الجديد، يُمكن للخطاب الأخلاقي والأيديولوجي أن يبدو بوصفه نزاعًا دائمًا على السلطة، حيث يسود في الغالب الأقوى بينما يُستغل الضعيف»، كتب كارل ماركس وفريدريك إنجلز: «كانت الأفكار السائدة في كل عصر هي أفكار طبقة العصر الحاكمة».

والدتك أكثر محبّيك دومًا

حتّى الآن كنا نبحث في نماذج انتقاء الأقارب الخالية من الرتوش وفي النزاع بين الآباء والأبناء، مستندين إلى افتراضات مريحة على الرغم مما يشوبها من شكوك في بعض الحالات. وأحد تلك الافتراضات أن في أثناء التطور البشري كان للأشقّاء ذات الأب والأم. وإلى الحد الذي تكون فيه هذه الفرضية معيبة – وهي كذلك بالطبع إلى حدّ ما – فإن النسبة «الطبيعية» للإيثار بين الأشقّاء ليست اثنين لواحد إلى صالح النفس، ولكن بين اثنين وأربع إلى واحد. (قد يخفف هذا التصحيح من مخاوف الآباء الذين يجدون ذريتهم أشدّ عدائية مع بعضها بعضًا مقارنة بما تبدو رياضيات هاميلتون تحْسَبه «طبيعيًا»)، وبالطبع قد يكون الأبناء يُعايرون (من دون وعي) بالفعل احتمالات أن يُشاركهم أشقّاؤهم والدهم ووالدتهم، ومن ثمّ يعاملونهم وفقًا لذلك. سيكون من المثير للاهتمام، على سبيل المثال، رؤية إذا ما كان الأشقّاء في منزل يتضمّن أبوين أكثر كرمًا تجاه بعضهم بعضًا مقارنة بالأشقّاء في المنازل التي تتضمّن والدًا واحدًا.

وإحدى التبسيطات المفرطة الأخرى هي فكرة أن r نفسه – درجة قرابتك بالآخرين – يحدّد موقفك الجيني الأمثل تجاه إخوتك. إن السؤال الرياضي الذي أثاره هاميلتون – هل قيمة c أقلّ من br؟ – يتضمّن متغيّرين

آخرين: تكلفة إيثارك نسبة لـ(c) والفائدة العائدة على المتلقي (b). وكلاهما مذكـور من حيث اللياقـة الداروينيـة: إلى أيّ مدى سـتنخفض فرص إنتاج ذريـة ناجحة قابلة للبقاء والتكاثر بسـبب إيثارك وما مدى اسـتفادة المتلقّي. من الواضح أن كلا الأمرين يعتمدان على أي الفرص سـيتمّ البدء بها - على مقـدار الإمكانات الإنجابية، إن وجدت، التي لك وللشـخص الآخر. وإن المقـدرة الإنجابيـة أمـرٌ يتباين للغاية سـواءٌ أمن قريبٍ لآخـر أو عقدٍ عمري لآخر.

فمثلًا: إن لأخ كبير قوي ذكي وسـيم طموح احتمالية نجاح إنجابية أعلى مـن آخـر منطو بليد أحمـق. وقد يكون هذا صحيحًا عـلى وجه الخصوص في البيئة الاجتماعية لتطوّر الإنسـان، حيث الذكور رفيعـو المكانة يملكون أكثر مـن زوجة واحدة - أو، في حال الفشـل في ذلك، يكونـون ميّالين جدًا للزنا بنطـاق واسـع. مـن الناحية النظريـة، على الآبـاء (بوعي أو مـن دونه) إيلاء الانتبـاه إلى مثـل هـذا الاختلافـات. بـل وعليهـم توزيع الاسـتثمارات على أطفالهـم بفطنة مدير محفظة اسـتثمارية في وول سـتريت، والهدف دائمًا تعظيم إجمـالي العائـد الإنجـابي مقابل زيـادة في الاسـتثمار. وبذلك قد يكـون هناك أسـاس تطوري للشكوى «أنت الأكثر محبّة بالنسبة إلى والدتنا [أو والدنا]». جعـل الفريـق الكوميـدي The Smothers Brothers هذه الجملة شـديدة الشهرة في الستينيات، ودائمًا ما كان تومي أبلهَ وبليدَ الوجهِ يشكوها إلى أخيه ديك ذي الملامح الحادّة والديناميكية.

قد تعتمد الإمكانية الإنجابية النسبية لاثنين من الذرية على ما هو أكثر من الذرية نفسـها. فقد تسـتند إلى المكانة الاجتماعية للعائلة. إذ بالنسبة إلى عائلة لديهـا ابنة جميلة وابن وسـيم على الرغم من افتقـاره لعطايا من نوع آخر، من المرجـح أن تنجـب الابنة مزيدًا مـن الأطفال، ذلك أنها تبـدأ حياتها بأفضليّة جوهريـة؛ حيث الفتيـات أكثر احتـمالًا لـ«الـزواج» على السـلم الاجتماعي الاقتصادي مقارنة بالأولاد. وبالنسـبة إلى العوائـل الثريّة رفيعة المكانة، فإن الأبنـاء، عنـد تسـاوي كافّـة الخصائص الأخرى، سـتكون لديهـم إمكانات

إنجابيـة أعـلى؛ إذ يُمكن للرجل، على عكس المرأة، استخدام ثروته ومكانته لإنتاج عشرات الأبناء.

هـل البـشر مبرمجـون لتنفيذ هذا المنطـق المُزعج؟ هـل يُقرِّر الآبـاء الذين يجـدون أنفسـهم رفيعـي المكانة أثريـاء الموارد، مـن دون وعـي، الإفراط في الاهتـمام بأبنائهم على حسـاب بناتهم، منذ قدرة الأبنـاء (في أثناء التطوّر على الأقـل) تحويـل المكانـة أو المـوارد المادية إلى ذريّـة؟ وهل يفعل الآبـاء الذين يجـدون أنفسـهم فقراء العكـس؟ يبدو ذلـك غريبًا، ولكن كونـه غريبًا ليس معناه عدم حدوثه.

يرتكـز هذا المنطق على نقطة أعمّ أسَّسـها روبرت تريفـرز عام ١٩٧٣ في ورقـة ألّفها بالاشـتراك مع عـالم الرياضيـات دان يـ. ويلارد. لـدى أي نوع متعـدّد الزوجـات، يتـزاوج بعض الذكـور بغزارة بينما يفشـل آخـرون تمامًا بالتناسـل. لذا فقد تسـتفيد الأمهات اللائي يعانين حالة بدنية سيئة (وراثيًا) مـن معاملة البنـات على أنهنّ أصولٌ أكثـر قيمة من الأبناء. فـإذا افترضنا أن صحة الأم المتدهورة تؤدي – في أثناء حليبها خالي الدسـم، مثلًا – إلى إنتاج ذريـة ضعيفة، فإن ذلك سـيُنذر باعتـلال الأبناء على وجـه الخصوص. وقد يُستبعد الذكور الذين يعانون سـوء التغذية تمامًا من المنافسـة، في حين تظلّ الأنثى الخصيبة في كافّة حالاتها تقريبًا قادرة على جذب شريك جنسي.

ويبدو أن بعض الثدييّات غير البشرية تخضع لهذا المنطق. فأمّهات الجيروذ الشرقي، إذا ما أُطعِمَت بشـكل سيئ، ستُجبِر أبناءها على لفظ حلماتها، بل وتتركهم يتضورون جوعًا حتى الموت، بينما تعكف على رعاية البنات مانحة إياهـنّ حريّـة الوصـول المطلقة. بينما في أنـواع أخرى، حتى معـدّل ولادات الذكـور للإناث ينالـه التأثير، حيث يـزداد معدل المواليد الذكـور للأمّهات المرفّهات بينما تكون الزيادة من حصّة الإناث عند الأمّهات الفقيرات.

يُمكـن أن تكـون الثروة والمكانـة، وتعدّد الزوجات إلى حـدّ ما في أغلب مراحـل التطـوّر، أهـم مـن الصحّـة. فكلاهمـا أسـلحة يتنافس بهـا الرجال للحصـول على النسـاء – وبما يخـصّ المكانة فقد كانت هـي القضية المحوريّة

طـوال ملايـين السـنين. لذلـك فبالنسـبة إلى الآبـاء الذيـن يجدون أنفسـهم يتمتّعـون بامتيـاز اجتماعـي ومـادّي، تكون زيـادة الاسـتثمار في الأولاد على حسـاب أخواتهم البنـات ذات معنى (تطوريًا). وهذا مثـال جيد على المنطق الـذي غالبًا ما يصـدم الناس بكونه ميكيافيليًا للغايـة بحيث يكون جزءًا من الطبيعة البشرية. بالنسبة إلى الدارويني فإن البرودة الميكيافيلية، لو وجدت، تُضيـف مصداقيّـة. (وكما قـال توماس هكسـلي بعد اقـتراح داروين فرضية كريهـة بنحو بارز عن التكاثر لدى قنديل البحـر: «تُعدُّ بذاءة العملية إلى حدّ مـا في صالـح أرجحيتها»)، وحتـى الآن هناك دليل عـن أن الداروينيين على حـق، وأدلّة أقـلّ من ذلك بكثـير على العكـس. في السـبعينيات خَلَصَ عالم الأنثروبولوجيا ميلدريد ديكمان، بعد دراسـة الصين والهند في القرن التاسـع عـشر وأوروبا العصور الوسـطى، إلى أن ممارسـة وأد الإنـاث كانت متركّزة أكثـر بين أبناء الطبقات العليا. كما وهناك نزعة شـائعة في كثير من الثقافات، مـن ضمنها الخاصّـة بداروين، حيـث الأسر الثريّة تورّث القـدر الأكبر من أصولهـا إلى الأبناء، لا البنات. (نبّه قريب لداروين، وهو الاقتصادي يوشـيا ويدجوود، في دراسة عن الميراث قائلًا: «يبدو من المعتاد بين الأسلاف الأثرى في عيّنتي توريثهم أبناءهم مقدّراتٍ تزيد على المتروكة لبناتهم. بينما لدى ملّاك الأصول الأقلّ فالقسمة المتساوية أكثر شيوعًا بكثير»)، ويمكن للانحيازات تجاه البنين أو البنات اتخاذ شـكل أكثر دقّة. حيث وجد علماء الأنثروبولوجيا لورا بيتزغ وبول ترك، في أثناء عملهما في ميكرونيسيا، أن الآباء رفيعي المكانة يقضـون وقتًا أطول مع أبنائهم، بينـما يقضي متواضعو المكانة أكثر الوقت مع البنـات. وكل هـذه الاكتشـافات تتوافق مـع منطق تريفـرز وويلارد: حيث تُفضِّـل العوائـل في الطرف الأعلى من السـلم الاجتماعـي الاقتصادي البنين على البنات بوصفه استثمارًا.

وما قد يكون أكثر الأدلّة الداعمة لفرضية تريفرز - ويلارد إثارة للاهتمام هو من بين الأحدث. حيث وجدت دراسة أجريت على العائلات في أمريكا الشـمالية اختلافـات واضحـة في مدى تسـاهل الآبـاء من طبقـات اجتماعية متباينـة مـع الأولاد والبنـات مـن ذريتهـم. حيـث أكثـر من نصـف البنات

المولـودات لأمّهـات متواضعات الدخـل حصلن على رضاعـة طبيعية، بينما أقـلّ مـن نصـف الأبناء حصل على ذلك؛ في حـين حوالي ٦٠٪ مـن البنات المولودات لأمّهات ميسورات أرضِعن طبيعيًا فقط مقابل ما يقارب الـ ٩٠٪ من الأبناء. والأكثر إثارة أن النساء متدنّيات الدخل كُنَّ يُنجبْنَ طفلًا جديدًا بعد ٥ , ٣ سـنة من ولادة المولود الولد وبعد ٣ , ٤ سـنة بالمتوسّـط إذا كانت المولـودة الأولى بنـت. بعبـارة أخـرى: في السـباق عن موعد إنجاب شـقيق آخـر، تميل الأمهـات متدنّيات الدخـل إلى ترك البنات يفُـزْنَ؛ حيث ينتظرن مدّة أطول قبل أن يُنجبْنَ منافسًـا على الاسـتثمار. أمّا بما يتعلّق بالأمّ الميسورة فقـد كان العكـس صحيح: حيث تنال البنات شـقيقًا منافسًـا بعد ٢ , ٣ عام من الولادة بالمتوسّط، بينما لا يحصل الأولاد على منافس لهم قبل مرور ٩ , ٣ عام. يُفترض أن القليل من الأمّهات في الدراسة يعرفن كيف يُمكن أن تؤثّر المكانـة الاجتماعية على النجاح الإنجابي للذكور والإناث (أو بالمعنى الدقيق للكلمـة، كيف أثّرت عليه في بيئتنا التطوّريـة). وهذا تذكير آخر بأن الانتقاء الطبيعي يميل إلى العمل في الخفاء، عبر تشـكيله للمشـاعر الإنسانية، لا عبر جعل البشر مُدركين لمنطقها.

وعلى الرغم من تركيز جميع هذه الدراسات على الاستثمار الوالدي، إلّا أن المنطق نفسه بالإمكان تطبيقه على استثمار الأشقّاء. إن كُنت فقيرًا، فعليك من الناحية النظرية توجيه مزيد من الإيثار ناحية الأخت مقارنة بالأخ، وفي حال كنت غنيًا، فالعكس بالعكس. ومن المؤكد أن في أسرة داروين الثريّة، قضت الأخـوات وقتًا أطول في القلق بشـأن أخوتهنّ والعمـل على رعايتهم. ولكن ربـما يكون هذا التوجّه بعينه واضحًا كذلك بين الطبقات الدُنيا في وقت كان فيه خضوع المرأة مثالًا اجتماعيًا يُحتذى به (وهو تذكير بقدرة الثقافة على دفع سلوكنا نحو اتجاه يتعارض مع المنطق الدارويني).

إلى جانـب ذلـك فنزعـة المسـاعدة الاسـتثنائية التـي تتمتّـع بها المـرأة لها تفسـيرات داروينية أخرى. إذ تتغير الإمكانية الإنجابية في أثناء دورة الحياة، كـما وتختلـف بالنسـبة إلى الذكـور عنها للإنـاث. أعلـن هاميلتـون في ورقة

صدرت عام ١٩٦٤ بتجرّد إلى أن «سلوك الحيوان في فترة ما بعد الإنجاب يُتوقّع أن يكون مُؤثِرًا تمامًا»، فبعد كل شيء، بمُجرّد توقّف المركبة الحاملة للجينات عن قابلية نقل حمولتها إلى الجيل اللاحق، تنزع جميعها بحكمة بالغة إلى توجيه طاقاتها كافّة نحو المراكب القادرة. ومنذ قضاء النساء جزءًا كبيرًا حياتهنّ في وضع ما بعد الإنجاب، فالمعنى الضمني أن النساء المُسنّات سيُغدقنَ، أكثر من المسنّين للغاية بالمقارنة، على أقاربهنّ بالاهتمام والرعاية. وذلك ما يَفْعَلنه. فصورّة العمّة الوحيدة التي تكرّس جُلّ حياتها لأجل الأقارب مشهدٌ أكثر شيوعًا من صورة العمّ الذي يفعل الشيء نفسه. كان كُلٌّ من أخت داروين سوزان وأخيه إيرازموس أعزبين في متوسّط العمر حينما توفّيت شقيقتهم ماريان، لكن سوزان هي من تبنّت أطفالها.

أنماط الحزن

إن الإمكانية الإنجابية تتغيّر إلى حدّ ما بمرور الوقت حتّى بالنسبة إلى الذكور. بل إنها تتغيّر في واقع الأمر كُلّ عام لدى الجميع. فشخص يبلغ الخمسين من كلا الجنسين على حدّ سواء له ذريّة محتملة أقلّ بكثير في المتوسّط قياسًا بما كان عليه الحال في الثلاثين من العمر - وانطلاقًا من هذه النقطة يُمكن القول أيضًا: إن الذريّة المحتملة أقلّ مما كانت عليه في عمر الخامسة عشرة. في الجانب المقابل فإن الذريّة المحتملة في المتوسّط للشخص البالغ من العمر خمسة عشر عامًا أكثر من تلك التي لصاحب العام الواحد، منذ أن الطفل البالغ عامًا واحدًا قد يقضي نحبه قبل بلوغ المراهقة - وهو أمر كان شائعًا نسبيًا في أغلب مراحل تطوّرنا.

وهنا يكمن تسهيل مُفرطٌ آخر في الأنموذج غير المُنمنم لانتقاء الأقرباء. فمُنذ أن الإمكانية الإنجابية مُضمّنة في كلا جانبي التكلفة والمنفعة في معادلة الإيثار، فإن عُمُر كُلٍّ من المانح والمتلقّي للمساعدة سيُساعدان على تحديد ما إذا كان الإيثار سيميل صوب زيادة اللياقة، وبذلك منح أفضلية بالنسبة إلى الانتقاء الطبيعي، أم لا. بعبارة أخرى، يعتمد مقدار ما نشعر به من دفء

وكرم تجاه الأقرباء، من الناحية النظرية، على كُل من عمرنا وعمر القريب المتلقّي. إذ يجب، على سبيل المثال، توافر تغيير مُستمر طوال حياة الطفل لمدى تثمين الوالدين لهذه الحياة.

يجب خصّيصًا على تفاني الوالدين الاستمرار في النمو حتى بلوغ الطفل سنّ المراهقة المبكرة، حيث تصبح القدرات الإنجابية في أوجها، ومن ثمّ البدء في الانخفاض. فمثلما يشعر مربّي للخيول بخيبة الأمل عند وفاة سليل سُلالة أصليّة في اليوم السابق لسباقه بدلًا من ملاقاة حتفه بعد ولادته، فلا بُدَّ وأن الوالدين يقاسيان حزنًا أكبر عند وفاة ابن مراهق مقارنة بفقدان آخر رضيع. إن كُلًّا من الابن المراهق وفرس السباق الأصيل البالغ بمثابة أصول على وشك الإتيان بالعوائد، وفي كلا الحالتين يستغرق الأمر كثيرًا من الوقت والجهد، والبدء من الصفر، قبل نيل بديل آخر ورعايته وصولًا إلى هذه النقطة الحاسمة. (وهذا لا يعني القول: إن الوالد لن يشعر أبدًا بالعطاء أو الحماية تجاه رضيعه مقارنة بابنٍ مراهق. فلو اقتربت مثلًا فرقة من الغزاة، سيكون الدافع الطبيعي للأم اختطاف رضيعها قبل الهروب، وبذلك ترك المراهق للعناية بنفسه؛ لكن سبب وجود هذا الدافع قدرة المراهقين على العناية بأنفسهم، لا لأنهم أقلّ قيمة من أخوتهم الرضّع).

وكما كان متوقَّعًا، يحزن الآباء على موت أبنائهم المراهقين أكثر من حزنهم على وفاة رضيع يبلغ من العمر ثلاثة أشهر - أو، بما يتّفق مع النظرية، فقدان ابن يبلغ الأربعين. يبدو تجاهل هذه النتائج أمرًا مغريًا: إن أسفنا على وفاة شابّ يافع يفوق ذاك الذي على رجل عجوز؛ إذ من المأساوي كما هو واضح موت المرء مع ترك كثير مما لم يحياه. وعلى هؤلاء يردّ الداروينيون: نعم، ولكن تذكّر - أن «وضوح» النمط بحد ذاته قد يكون نتيجة للجينات نفسها التي أوجدته كما سبق واقترحنا. إن الطريقة التي يُعْمِل بها الانتقاء الطبيعي إرادته هي عبر جعل بعض الأشياء «واضحة» و«صائبة» و«مرغوبة» وبعضها الآخر «منافيًا للعقل» و«خاطئًا» و«بغيضًا». ولا بُدَّ لنا من تفحّص ردود أفعالنا البدهية في ضوء النظريات التطوّرية بعناية قبل الخلوص إلى أن

البدهية بحدّ ذاتها ليست تشوّهًا معرفيًا ناتجًا عن التطوّر.

وفي هذه الحالة علينا السؤال: إن كانت الحياة الطويلة التي لم ينل المراهق فرصة حياتها هي ما تجعل موته مأساويًا، لماذا لا يبدو إذن موت رضيع حدثًا أكثر مأساوية؟ إحدى الإجابات تخلص؛ لأننا حضينا بمزيد من الوقت للتعرّف على المراهق وبذلك إمكانية رؤية حياته المُقبلة التي لم ينل فرصة عيشها بشكل أكثر جلاء. ولكن يا لها من مصادفة أن التغييرات التعويضية في هاتين الكمّيتين – الحميمية المتزايدة تجاه شخص مع مرور الزمن والقَدْر المتقلّص لحياة ذلك المرء غير المُعاشة – يحدث أن تصل إلى نوع من قيمة حزن مركّبة قصوى في المرحلة العمرية القريبة من المراهقة، حيث تكون الإمكانية الإنجابية لذلك الشخص في أوجها. إذ لماذا لا تكون القيمة القصوى للحزن على من يبلغون الخامسة والعشرين مثلاً، حين تكون ملامح الحياة غير المعاشة في أكثر مظاهرها تجلّيًا؟ أو في سنّ الخامسة، حين تكون هناك مرحلة حياة أطول لن يحدث أن تُعاش؟

الدليل حتى الآن أن الحزن يتوافق بشكل ما مع التوقّعات الداروينية. في دراسة كندية تعود للعام ١٩٨٩، سُئِل البالغون عن تخيّل وفاة أبنائهم في مختلف الأعمار وتقدير أيّ الوفيات ستترك الشعور الأمَرّ بالخسارة لديهم. وجاءت النتائج التي ضُمِّنت في رسم بياني مُظهرة أنّ الحزن يتزايد حتى مرحلة ما قبل المراهقة بقليل ثم يبدأ بالانحسار. وحينما قورِنَ هذا المنحني بآخر يُظهر التغيّرات في الإمكانية الإنجابية في أثناء دورة الحياة (وهو نمطٌ محسوبٌ من بيانات ديموغرافية كندية)، ظهر الترابط قويًا إلى حد ما. إلّا أن الترابط الأقوى – الذي اقترب في الحقيقة من الكمال – كان بين منحنى الحزن الكندي المعاصر والإمكانية الإنجابية لمجتمع الصيادين وجامعي الثمار، الكونغ! الأفارقة. بعبارة أخرى، كان نمط التغيّر في الحزن موافقًا بالضبط تقريبًا لما قد يتوقّعه الداروين، بالنظر للحقائق الديموغرافية في بيئة الأجداد.

في النظرية، كما في الواقع، تتغيّر محبّة الوالدين تجاه الأبناء بمرور الزمن أيضًا. ففي عيون الانتقاء الطبيعي الخالية من الرحمة، تنخفض منفعة والدينا

منّـا، وبعد نقطة معيّنة يصبح انحدارها أسرع حتّى من انحدار منفعتنا منهم. وبينـما نمـرّ متجاوزين مرحلـة المراهقة، تقـلّ أهمّيتهم بوصفهم حُمـاة وبنوكًا للبيانـات ومانحين للخدمات. وبينما يتجاوزون هـم منتصف العُمر، تقلّ مع ذلـك احتمالية نشرهم لجيناتنا. وفي حلـول الوقت الذي يصبحون فيه عجزة عاجزين، لا يظلّ لدينا سـوى النزر اليسـير من المنفعـة الجينية منهم، هذا إن وجـدت. وحتّى لـو عكفنا على تلبية احتياجاتهـم (أو كلّفنا أحدهم بذلك)، فقـد نشـعر بآثـار التململ والامتعـاض من فعلنا ذلـك. أمّـا والدينا فهم في النهايـة متّكلون علينا مثل اتّكالنا عليهم يومًا، وعلى الرغم من ذلك لا نُقدم على تلبية احتياجاتهم بذات الحماس الذي كانوا عليه تجاه احتياجاتنا.

يعدّ التوازن دائمَ التغيّر والتباين للعاطفة والالتزام بين الوالدين والطفل واحـدٌ مـن أعمق تجارب الحيـاة وأكثرها لذّة ممزوجة بالمـرارة. حيث يوضّح كيف يُمكن للجينات أن تكون غير دقيقة في تفعيل أو غلق حنفياتنا العاطفية. وعـلى الرغـم من عدم ظهور سـبب دارويني جيد كما يبدو لقضـاء المرء وقتًا ويذلـه طاقـة على أبيه العجوز المحتضر، إلّا أن قليـلًا منّا فقط بإمكانهم إدارة ظهورهم لأبٍ محتاج. إن الجوهر العنيد للحبّ العاطفي يستمر لما بعد فائدته التطوّرية. ويُفترض أن معظمنا سعيدٌ بفظاظة التحكم الجيني هذه - هذا على الرغـم بالطبـع من عدم وجود طريقة لمعرفة ما كان رأينا ليكون عليه في حال كان الضبط أدق.

حُزن داروين

كان لداروين كثير من المناسبات المُحزنة، وبضمنها وفاة ثلاثة من أطفاله العشرة إلى جانب والده. وكان سلوكه متطابقًا بشكل عام مع النظرية.

جاء موت طفلة داروين الثالثة ماري إيليانور بعد ثلاثة أسـابيع فقط من ولادتها عام ١٨٤٢. هيمن الحزن على تشارلز وإيمّا بلا شكّ، وكانت الجنازة قاسـية عليـه، لكن لم توجد علامات على حزن غامـر أو دائم. وكتبت إيمّا أن «حزننـا لا يُمكن مقارنته باحتـمال أن تعيش مدة أطول وتعاني أكثر»، مؤكدة

لزوجـة أخيهـا أنه مع وجـود طفلين آخرين يشـغلانها وتشـارلز، «لا داعي لخشية دوام الحزن طويلًا».

كان عـلى وفاة آخر أطفال داروين، تشـارلز وارينغ، مـن الناحية النظرية أن يكـون بمثابـة ضربـة خاطفة أيضًـا. إذ كان صغيرًا يبلغ العـام والنصف، مبتليًـا بتخلف عقـلي. إحدى أكثـر التنبـؤات الداروينية وضوحًـا أن رعاية الوالدين للأطفال من ذوي الإعاقات ستكون قليلة نسبيًا لقيمتهم الإنجابية المتواضعـة. (في كثير مـن مجتمعات ما قبل الصناعـة، كان الأطفال من ذوي الإعاقـات الواضحـة يقتلـون دوريًا، وحتـى في المجتمعـات الصناعية نجد ذوي الإعاقات معرضين إلى إسـاءة المعاملة على نحو خاص). كتب داروين خطبة قصيرة إلى ابنه المتوفى، لكنها كانت من بعض النواحي منفصلة سريريًا («كان غالبًا ما يتجهّم وينتفض بغرابة حينما يناله الحماس...») وقد بدا مُجَرَّدًا مـن الألم. وقالت إحدى بنـات داروين في وقت لاحق عن الطفل: «كان كُلٌّ مـن والـدي ووالـدتي حنونين تجاهه بلا حـدود، ولكن بعدمـا قضى نحبه في صيف عام ١٩٥٨، لم يشعرا بعد حزنهما الأول إلّا بالامتنان».

كـما لم ينبـغِ لوفاة والد داروين عـام ١٨٤٨ أن يكون له وقـع مدمّر. كان تشـارلز حينذاك معيلًا لنفسـه بينما يبلـغ والده الثانيـة والثمانين، حيث قضى كلّ إمكانياتـه الإنجابية. أظهـر داروين حينها علامات على الحزن العميق في الأيام التي أعقبت الوفاة، ولا طريقة هناك بالطبع لمعرفة ما إذا كانت معاناته قد اسـتمرّت لبضعة أشـهر. ولكن مما تبيّن في رسائله لم يكن أكثر انفتاحًا من التصريـح أن «لا أحـد يعرفـه جيدًا سـيصدّق بإمكانية احتفـاظ رجل تجاوز عمره الثالثة والثمانين بكل تلك الرقّة والعاطفة، وكل تلك الحصافة الصافية حتى النهاية»، ثم كتب بعد انقضاء ثلاثة أشـهر على الوفاة: «حينما رأيته آخر مـرة كان غاية في الراحة والتعبير المرتسـم على وجهه، كـما لا أزال أحفظه في ذاكرتي، هادئًا ومبتهجًا».

مـن الواضـح أن وفاة ابنة داروين آنّي في العـام ١٨٥١ كان لها وقعٌ متفرّد دونًا عن حالات الوفاة الثلاث جميعها، بعد معاناة مع مرض دوري بدأ لديها

قبل عام من ذلك. حيث كانت حينذاك ابنة العاشرة وعلى بعد بضع سنوات من ذروة إمكانيّتها الإنجابية.

في الأيام التي سبقت وفاتها، كان هناك تبادل مؤلم ومؤثّر للرسائل بين تشارلز، الذي سافر رفقة ابنته إلى الطبيب، وإيمّا. وبعد بضعة أيام من وفاتها، كتب داروين خطبة إلى آنّي كانت مختلفة في نبرتها بشكل لافت للنظر مقارنة بخطبته الأخيرة عن تشارلز وارينغ. «كانت بهجتها وروحها الحيوانية تشعّ من وجهها بالكامل، وتملأ كل حركة لها باللدونة والحيوية والحياة. كانت رؤيتها بهيجة ممتعة. يشخص الآن وجهها أمامي، إذ كانت تعتاد نزول السلالم جريًا حاملة في جعبتها القليل من السعوط المسروق لأجلي، بهيأة تشعّ بهجة بالكامل تبثّها في المحيط. ... في اعتلالها الأخير القصير، كان سلوكها بأسهل الأوصاف ملائكيًا. لم تتذمّر يومًا من شيء؛ ولم تعبُس؛ كانت دومًا مراعية تجاه الآخرين، وشاكرة بأسلوب في منتهى اللطف والإشفاق على كُلّ ما بُذل لأجلها. . . حين أعطيتها شيئًا من الماء قالت: «أشكرك جزيل الشكر»، وهذه كانت، كما أعتقد، آخر كلمات صدرت من شفتيها تجاهي»، ثم أردف في الختام: «لقد خسرنا فرحة أسترنا، وسلوى شيخوختنا. لا بُدّ وأنها علمت أيّ حبّ أحببناها. أوه، وعليها الآن معرفة مدى عمق الحب الذي سنظلّ نكنّه لوجهها البهيج العزيز إلى الأبد! فلتحلّ البركة عليها!».

من الممكن حقن هذا التحليل لحزن داروين (صدق أو لا تصدّق) بشيء من التهكّم. يبدو أن آنّي كانت الابنة المفضّلة لداروين. إذ كانت ألمعية وبهيجة («موزارت ثانٍ،» كما قال يومًا في وصفها) - أصول كانت تزيد من قيمتها في سوق الزواج، وبذلك إمكانيتها الإنجابية. وكانت طفلة أنموذجية، مثالًا للكرم والخلق وحسن السلوك. أو كما قد يضع تريفرز الأمر: لقد نجح تشارلز وإيمّا في إغوائها كي تتابع لياقتها المتضمّنة على حساب لياقتها الشخصية. ربما يؤكد تحليل لـ«الطفل المفضّل» أنهم كانوا يميلون إلى تمليك هذا النوع من السمات القيّمة - قيّمة من منظور جينات الوالدين، والتي قد تعني أو لا تعني أنها قيّمة من منظور جينات الطفل.

بعد بضعة أشـهر فقط من وفاة والده، أعلن داروين انتهاء حداده، مشيرًا في رسـالة إلى «والدي العزيـز الذي بات التفكير فيه الآن يثير سـعادتي»، أمّا بالنسـبة إلى آني، فلـم يتـمّ بلوغ مثل هـذه المرحلة بالنسـبة إلى تشـارلز وإيمّا. وإحـدى بناتهم، وهـي هنريتّا، سـتكتب لاحقًا، «قد يقُال يومًـا أن والدتي لم تتعـافَ أبدًا من هذا الحـزن. كانت نادرًا ما تذكر آني في حديثها، ولكنها حين تفعل، دائمًا ما يرتسـم على محياها شـعور غير شاف بالخسـارة على الفور. ولم يكـن والدي قادرًا على احتـمال فتح هذا الجرح مجُدَّدًا، وهـو لم يتحدّث عنها مطلقًـا عـلى حدّ علمـي»، بعد خمسـة وعشرين عامًـا على وفـاة آني، كتب في سيرته الذاتية أن التفكير بها لا يزال يبكيه. كتب أن موتها كان «أشدّ الأحزان وطأة» من بين ما اختبرته العائلة.

في عام ١٨٨١، بعد وفاة شـقيق داروين إيرازموس، وفي الواقع قبل أقلّ مـن عـام على وفاة داروين نفسـه، كان مُسـتثارًا لدرجة أن أشـار، في رسـالة موجّهـة إلى صديقه جوزيف هوكر، إلى الفرق بين «موت الكبار واليافعين»، كتب: «أن الموت في الحالة الثانية، عندما لا يزال هناك مستقبل مُشرق مقبل، يتسبّب بحزن لا يُمكن محوه بالكامل أبدًا».

الفصل الثامن

داروين والهمج

«تحدّث السيد جون ستيوارت مِل في عمله المُحتفى به «النفعية» عن المشاعر الاجتماعية بعدّها «عاطفة طبيعية قويّة»، وبأنها «الأساس الطبيعي لعاطفة الأخلاق النفعية»؛ لكنه يقول في الصفحة اللاحقة: «إن لم تكن المشاعر الأخلاقية فطرية، بل مكتسبة، مثلما أعتقد، فلا يجعلها ذلك أقلّ طبيعية». إنّني أجرؤ مع شيء من التردّد على الاختلاف مع مفكّر ألمعيّ، إذ يصعبُ الجدال ضدّ غريزية أو فطريّة المشاعر الاجتماعية عند الحيوانات الدُنيا. فلماذا لا يكون حالها كذلك أيضًا بالنسبة إلى لإنسان؟»

أصل الإنسان (١٨٧١).

حينما واجه داروين مجتمعًا بدائيًا للمرّة الأولى، كانت ردّة فعله مشابهة تقريبًا لما قد تتوقّعه من رجل إنجليزي نبيل من القرن التاسع عشر. حيث عندما أبحرت البيغل داخل خليج في تيّيرّا ديل فويغو، رأى مجموعة من الهنود يصرخون و«يقذفون أذرعهم بعنف حول رؤوسهم». كتب لمعلّمه جون هينسلو: «بدوا بشعرهم الطويل المنسدل كأنّهم أرواح مضطربة من العالم الآخر»، وقد عزّز الفحص الدقيق من انطباعه بهمجيّتهم. لغتهم،

«كانـت بالكاد، وفقًا لمفاهيمنا، تسـتحقّ أن تدعـى منطوقة»؛ بيوتهم «مثل ما يصنعـه الأطفـال في الصيف بأغصان الأشـجار»، كما ولم تكـن تلك البيوت مُشيّدة على المودّة بين الزوج وزوجته، «ما لم تُعدّ معاملة السيّد لعبد مسحوق مودّة».

فـوق كل ذلـك، بـدا أن للفوجيـين عـادة أكل نسـائهم المُسـنّات أوقات القحـط. أفـادَ داروين مُشـمئزًّا أن ولدًا فوجيًّا، حينما سُـئل عن سـبب عدم تناولهم كلابهم بدلًا من ذلك، أجاب: «تصطاد الكلاب ثعالب الماء - النساء لا يصلُحـنَ لشيء - الرجال جائعون». كتـب داروين لأخته كارولين: «هل سـبق أن بلغ آذاننا شيء غاية في الفظاعة حدّ تسخيرهنّ عبيدًا يتدبَّرن الطعام في الصيـف وفي الشـتاء يصرن الطعـام أحيانًا. - يتنابني القرف لمجرّد سـماع أصوات أولئك المتوحّشين البائسين».

لقد تبيّن أن الجزء المتعلّق بأكل النسـاء كان ملفّقًا. إلّا أن داروين قد شهد جملـة من الأمثلـة الأخرى على العنـف في مختلـف المجتمعـات البدائية التي زارها في أثناء رحلته. حيث كتب بعد عدّة عقود في كتابه «أصل الإنسان» أن الهمج «أسـعدهم تعذيبُ أعدائهم، وتقديم قرابين دمويّة، وممارسة الوأد من دون أدنى شـعور بالندم»، لذا فمن المشكوك فيه، بما أن داروين عرف حقيقة عدم أكل الفوجيّين مدنيّيهم البالغين، ما إذا كان قد عَدِلَ عن رؤيته للسكان البدائيـين في روايته الشـعبية عن رحلة البيغل: «لم أكـن أصدّق مقدار التباين بين الهمج والمُتحضّرين. إنه أوسع من ذلك الذي بين حيوان برّي وداجن.».

ومـع ذلك تضمّنـت الحياة الفيوجينيـة بعض الأشـياء الكامنة في صميم الحيـاة المتحضّرة لإنكلـترا الفيكتوريـة. على سـبيل المثـال: الصداقـة، التي يُعـبّر عنها بالكرم المتبادل والموسـومة بطقوس التضامـن. كتب داروين عن الفوجيّين: «بعد أن أهديناهم بضع أقمشـة قرمزية، والتي سريعًا ما عقدوها حـول أعناقهم، أصبحـوا لنا أصدقاء حميمين. هذا ما أظهـره لنا عجوزٌ وهو يربّـت على صدورنـا، مصدرًا نوعًا مـن القهقهة كالتـي يصنعها الناس حين يطعمـون دجاجاتهـم. سِرت جنبًـا لجنـب مع العجـوز، وحينـذاك تكرّرت

مظاهـر الصداقـة هـذه عدّة مـرات؛ حيث اختتمهـا بثلاث صفعـات قويّة وجّهها لصدري وظهري في الوقت نفسه. ثم كشف صدره لي كي يسمح بردّ المجاملة، وحين ردّدتها له أسعده ذلك أيّما سعادة».

ارتفـع وعي داروين بإنسـانية الهمج أكثر عبر تجربـة في التعدّدية الثقافية. في رحلـة بحريـة سـابقة، أحضر القبطان فيتـزروي أربعة مـن الفيوجيّين إلى إنكلترا، ثم عاد ثلاثة منهم إلى موطنهم الأصلي بعد تعليمهم وتحضيرهم (إلى جانب إكسائهم بملابس لائقة)، كي يساعدوا على نشر التنوير والمسيحية في العالم الجديد. وقد فشـلت التجربـة من نواحٍ عدّة، وأكثر تلـك النواح خزيًا سرقة أحد الفوجيّين المتحضّرين حديثًا جميعَ ممتلكات فوجيّ متحضّر حديثًا آخـر ثم الفرار تحت جنح الظلام إلى الطرف الثاني من القارّة. إلّا أن التجربة أنتجـت على الأقل ثلاثة فوجيّين متحدّثين بالإنكليزية، وبذلك منح داروين فرصة لفعل شيء مع بقيّة السـكّان الأصليـين بدل الحملقة فيهم في حالة من النكران. كتب لاحقًا يقول: «إن الأمريكيين الأصليين والزنوج والأوروبيين مختلفـون عـن بعضهم بعضًـا في العقـل كاختـلاف أيّ ثلاثة أعـراق أخرى بالإمكان تسـميتها؛ ومع ذلك أُدهِشتُ مرارًا، ففي أثناء عيشي مع الفوجيّين على متن البيغل وجدت أن كثيرًا من السـمات الصغيرة في شـخصيّاتهم تظهر مدى تشـابه عقولهم معنا مثلما تُشابه عقل زنجيّ نقيّ صادف أن عرفته جيّدًا مرّة».

إن هذا التصوّر للوحدة الجوهريّة بين البشر – الطبيعة الإنسـانية – يُمثّل الخطـوة الأولى باتجـاه أن يكون المرء عالم نفس تطوّري. أمّـا الخطوة الثانية – محاولـة شرح أجزاء من تلك الطبيعة في ضوء الانتقاء الطبيعي – التي اتخذها داروين على وجه الخصوص، فكانت محاولة شرح أجزاء من النفس البشرية التـي، عـبر الحكم مسـتندين على رسـائله المبعوثة مـن البيغل، قـد تعتقد أن الفوجيّـين وغيرهـم من «الهمـج» لم يمتلكوها مطلقًـا: «إن الحسّ الأخلاقي هو الذي يخبرنا عمّا يجب فعله و ... الضمير من يؤنّبنا إذا ما عصيناه. ...».

مـرة أخـرى، وكحـال العقم لـدى الحـشرات، فضّـل داروين مواجهة

عقبة رئيسة تعرقل نظرية التطوّر خاصّته. إذ من الصعب أن تكون المشاعر الأخلاقية نتاجًا واضحًا للانتقاء الطبيعي.

إلى حد ما كان حل داروين لمشكلة العقم حلًّا للإشكالية الأخلاقية أيضًا. يُمكن لمفهومه في انتقاء «العائلة»، أو انتقاء الأقارب، أن يُفسّر الإيثار لدى الثديّات، وبذلك الضمير. لكن انتقاء الأقارب مسؤول فقط عن أدوار الضمير ضمن العائلة. والبشر قادرون للغاية على استشعار التعاطف تجاه الأغراب، السعي لمساعدتهم والشعور بالذنب عند الفشل في ذلك. سيُلاحظ برونيسلاو مالينوسكي، في بداية القرن العشرين، أن سُكّان جزيرة تروبرياند لديهم مرادفين لكلمة «صديق» اعتمادًا على ما إذا كان هذا الصديق من داخل العشيرة أو خارجها. وقد ترجم الكلمتين لتكونا بالمعنيين «صديق ضمن الحدود»، و«صديق عابر للحدود»، حتى الفوجيّين، أولئك «الهمج البائسين»، كانوا قادرين على صنع صداقات مع الشباب البيض القادمين من وراء المحيط. ويبقى السؤال، حتى بعد نظرية انتقاء الأقارب: لماذا نملك أصدقاءً من وراء الحدود؟

بل إن السؤال أكبر من ذلك حتى. حيث يُمكن للبشر استشعار التعاطف تجاه من هم «وراء الحدود» ولا يُعدّون أصدقاء – أناس لا يعرفونهم حتّى. لِمَ ذلك؟ لماذا يوجد هناك سامريّون طيّبون؟ ولماذا يعاني معظم الناس صعوبة في تجاوز متسوّل من دون الشعور على الأقل بوخزة الضيق؟

وجد داروين إجابة لهذه الأسئلة. وجوابه، مثلما يبدو اليوم، كان مُضلِّلًا. لكنها ضلالة بطريقة مستنيرة للغاية. إذ ترتكز على نوع معيّن من الالتباس الذي أوقع النكبات دوريًا بالبيولوجيا حتى أواخر هذا القرن، حتى تمّ التخلص منه أخيرًا، وخلا الطريق لعلم النفس التطوّري الحديث. إضافة إلى ذلك، يُعدّ تحليل داروين للأخلاق البشرية، وصولًا إلى النقطة التي ارتكب فيها خطأه الكبير، أنموذجيًا من بعض النواحي؛ حيث يُعدّ من نواحٍ أنموذجيًا بالنسبة إلى منهج علم النفس التطوّري حتى وفق المعايير الحالية.

جيناتٌ أخلاقية؟

أول مشكلة تواجه أي شخص يسعى لحيازة رؤى تطوّرية في الأخلاق هي تنوّعها الهائل. فهناك احتشـام إنكلترا الفيكتورية وكياسـتها، ووحشـيّة الهمج المشروعـة أخلاقيًا، مع كثير بـين هذا وذاك. كتب داروين بشيء من الحيرة عن «قواعد السلوك المنافية للعقل» المنعكسة، كمثال، على «الرعب الذي استشعره هندوسي يُخلع من طبقته» و«عار إمرأة محمّدية تكشف عن وجهها».

لـو كانـت الأخـلاق متأصلـة في البيولوجيـا البشريـة، كيـف للقواعـد الأخلاقيـة التباين إلى هذا الحـد؟ هل للعرب والأفارقـة والإنكليز «جينات أخلاقية» مختلفة؟

ليس هذا بالتفسـير الذي يُفضله علم النفـس التطوّري الحديث، ولا هو الذي شـدّد عليه داروين. للتأكيد فقد اعتقد أن للأعـراق اختلافات عقلية فطرية، بعضها ذا صلة بالأخلاق. كان هذا الاعتقاد سـائدًا في القرن التاسـع عـشر، وهـي حقبة اعتـاد فيها بعـض العلماء (وليـس من ضمنهـم داروين) الجـدال بحماسـة أن الأعراق ليسـت أعراقًـا على الإطلاق، بـل أجناس. مع ذلـك كان اعتقاد داروين أن العادات الأخلاقية المتنوعة حول العالم متجذّرة - بالمعنى العام على الأقل - في الطبيعة البشرية المشتركة.

بـادئ ذي بـدء، كان قـد أشـار إلى الحساسـية العميقـة لكافّـة البشر تجاه الرأي العام. وأكّد «أن حب الاستحسـان ومخافة العار، إلى جانب منح الثناء أو اللـوم» أمـور راسـخة في الفطرة. يُمكن أن تتسـبّب مخالفـة المعايير العامّة بـ«عـذاب» الرجـل، وإن انتهـاك جـزء تافه مـن آداب السـلوك، حتى حينما يُستذكر بعـد أعوام طِوال، يُمكن له اصطحاب «إحسـاس حـارق بالعار»، وبذلـك فإن الالتزام بأي قاعدة أخلاقية لها أسـاس فطـري. وما ليس فطريًا هو محُدّداتٌ معيّنة من القواعد الأخلاقية فحسب.

ما سـبب تباين المحتوى هكذا؟ آمن داروين أن للشعوب المختلفة قواعد مختلفة؛ لأن أحكامهم، ولأسباب تاريخية خاصّة بهم، مبنية على معايير مختلفة يرونها في خدمة الصالح العام.

غالبًا ما تكون هذه الأحكام، كما يقول داروين، خاطئة، مُنتجة جُملة من الأنماط السلوكية العبثية، هذا إن لم تكن، بالطبع، «في تعارض تامّ مع الرفاه والسعادة الحقيقيتين للبشرية». برؤية الأمر من منظور داروين، يتملّك المرء انطباع بأن إنكلترا، أو أوروبا بالعموم، كانت المكان صاحب العدد الأقلّ من الأخطاء المرتكبة. ومن الواضح أن الهمج قد كسبوا هناك أكثر من نصيبهم. إذ بدا أنهم يمتلكون «قوى تفكّر ناقصة» تعيقهم عن تمييز الروابط غير الواضحة بين القوانين الأخلاقية والصالح العام، وكانوا يفتقرون، بطبيعتهم ربّما، إلى الانضباط الذاتي؛ «كان انحلالهم المُطلق، ناهيك عن جرائمهم المنافية للطبيعة، شيء يدعو للذهول».

ومع ذلك فقد اعتقد داروين ألّا ينبغي لأي من هذه الهمجية تشتيتنا عن العنصر العالمي الثاني في الأخلاق البشرية. يمتلك الفوجيّون والإنكليز على حدّ سواء «غرائز اجتماعية»، ومركزها التعاطف تجاه رفاقهم. «إن مشاعر التعاطف والمودّة شائعة، ولا سيما عند المرض، بين أعضاء العشيرة الواحدة...» و«كثير من الأمثلة دُوّنت عن برابرة، .. فضّلوا، من دون استرشاد بأي دافع ديني، التضحية بأنفسهم بعد الأسر على خيانة رفاقهم؛ ويُمكن عدّ سلوكهم هذا أخلاقيًا بالطبع»، صحيحٌ أن للبرابرة ميل مؤسف لعدّ كُل من هو خارج قبيلتهم شيئًا غير قيّم أخلاقيًا، إلى درجة عدّ محاولة إلحاق الضرر بالغرباء من جنس المحاولات المُشرّفة. في الواقع، «لقد دُوِّنَ أن قاطع طريق هندي ندِمَ بصِدقٍ على عدم خنقه ونشله عددًا من المُسافرين يُساوي العدد الذي بلغهُ والده»، ومع ذلك فقد كانت هذه المسألة تتعلّق بمدى الإشفاق وليس حقيقة وجوده؛ وطالما أن للشعوب كافّة قدرة جوهرية على المراعاة الأخلاقية، فلا شعب غير قابل للتهذيب. ففي أثناء رحلة البيغل، كتب داروين عن جزيرة محاذية لساحل تشيلي: «إن من المُبهج رؤية السكّان الأصليين وهم يتقدّمون إلى ما يقترب من مستوى الحضارة، وإن كانت الوتيرة التي حقّقها غُزاتهم البيض بطيئة التقدّم».

إنّ أيَّ همجي يشعر بالإطراء من منح داروين إيّاهم حيازة تامّة لدوافع

تعاطفية وغرائز اجتماعية متضمّنة عليه إدراك أنه مُنحَ شرفًا يُماثل الذي حازته بعضٌ من أشكال الحياة غير البشرية. إذ سبق لداروين أن رأى التعاطف في التقارير المتحدّثة عن الغربان التي تُطعمُ رفاقها المكفوفين بإخلاص، وقردة البابون التي تُقْدِم بُمنتهى البطولة على إنقاذ صِغارٍ من براثن قطيع كلاب بريّة؛ و«من يستطيع تخمين ما تشعر به الأبقار حين تُحيط وتُحدّق برفيق ميّت أو مُحتضر في منتهى الاهتمام؟» وصف داروين علامات المودّة بين اثنين من الشمبانزي، نقلها إليه أحد حرّاس حديقة الحيوان ممّن شَهِدَ أوّل لقاء بينهما: «جلسوا قبالة أحدهما الآخر، يتلمّسان بعضهما بشفاههما البارزة؛ أحدهما وضع يده على كتف الآخر. ثمَّ أحاطا بعضهما ببعض بذراعيهما. ثمَّ بعد ذلك انتصبا واقفين ويَدُ كليهما على كتفِ الآخر، رؤوسهم مرفوعة، ومنهما تصدر صرخة بهيجة».

قد تكون بعض هذه الأمثلة حالات للإيثار بين الأقارب المقرّبين، وفي هذه الحالة يكون التفسير هو انتقاء الأقارب بسهولة. ولذلك قد يكون تجسيد حارس الحديقة مشهد تعرّف قردي الشمبانزي إلى بعضهما بعضًا فيه شيء من المبالغة. ولكن تجدر الإشارة إلى أن الشمبانزي حيوانات تصنع صداقات بالفعل، وهذه الحقيقة الوحيدة كافية للحجّة التي كان داروين ينحتها: أنَّ أيًّا كان المقدار الذي نعدُّ فيه جنسنا مميّزا، فإننا لسنا متفرّدين في قدرتنا على التعاطف، حتّى حين يتعلّق الأمر بما وراء حدود الأسرة.

أشار داروين إلى أن البشر يأخذون السلوك الأخلاقي بالتأكيد نحو أبعاد فريدة. إذ يستطيعون، عبر قدراتهم اللغوية المعقّدة، التعلّم بدقّة نوع السلوك المتوقّع منهم خدمة للصالح العام. ويُمكنهم النظر إلى الماضي واستحضار النتيجة النهائية المؤلمة لترك غرائزهم الأساسية تُهيمن على «غرائزهم الاجتماعية»، ومن ثمّ العزم على فعل ما هو أفضل. في الواقع، لقد اقترح داروين، ولأجل أُسُسٍ كهذه، أن عبارة «أخلاق» حصريّة لجنسنا البشري. ومع ذلك فقد رأى في أصل هذه الأخلاق غريزة اجتماعيّة تسبِق البشر بكثير، حتى وإن كان التطوّر البشريّ قد أثراها.

في خِضَمّ اكتشاف كيف فضّل التطوّر الدوافع الأخلاقية (أو ما سواها)، من الضروري التركيز على السلوكيّات التي تأتي بها. فالسلوك بعد كلّ شيء، ليس الفكر أو العاطفة، بل ما يحكمُ عليه الانتقاء الطبيعي؛ فالأفعال، وليس المشاعر نفسها، هي ما تقود بشكل مباشر إلى تمرير الجينات. لقد فهم داروين هذا المبدأ تمامًا: «غالبًا ما كان يُفترض أن الحيوانات اجتماعيّة في المقام الأوّل، يزعجهم الانفصال عن بعضهم بعضًا، ويريحهم البقاء قرب بعضهم بعضٍ؛ لكن الرؤية الأرجح أن هذه الأحاسيس قد تطوّرت لأول مرّة بسبب استفادة هذه الحيوانات من العيش ضمن مجتمع، وبذلك حُثّت على العيش مع بعضها بعضًا، ومع هذه الحيوانات المستفيدة من عيشها ضمن ارتباطات وثيقة، سيتجنّب الأفراد المستمتعين بوجودهم داخل مجتمع مخاطر عدّة؛ بينما الأقلّ اهتمامًا بشأن رفاقهم ممن يُفضّلون العزلة، سيطولهم الهلاك بنسب أعلى».

الانتقاء على مستوى الجماعة

في سياق مقاربته سليمة الأساس لعلم النفس التطوّري، خضع داروين لإغراء يُعرف باسم الانتقاء على مستوى الجماعة. تأمّل تفسيره المركزي لتطوّر الحسّ الأخلاقي. كتب في «أصل الإنسان» أن «التقدّم في المعيار الأخلاقي والزيادة في عدد الرجال المُتميّزين سيمنح أفضلية لأحدى القبائل على سواها بالتأكيد. ليس هناك شك في أن قبيلة تضمّ كثيرًا من الأفراد المتحلّين بدرجة عالية من الروح الوطنية والإخلاص والطاعة والشجاعة والتعاطف، سيكونون مستعدين دومًا لتقديم العون إلى بعضهم والتضحية بأنفسهم لأجل الصالح العام، بذلك سيكون النصر حليفهم ضد أغلب القبائل الأخرى؛ وهذا هو الانتقاء الطبيعي».

نعم، هذا سيكون انتقاءً طبيعيًا فيما لو حدث بالفعل. لكن في الوقت الذي لا يُستبعد حدوثه تمامًا، فكُلما فكرت فيه أكثر قلّ احتمال حدوثه. وداروين نفسه رأى العقبة الرئيسة قبل بضع صفحات فحسب: «إن من المشكوك فيه

للغايـة مـا إن كانت ذريّة الآباء الأكثر تعاطفًا وإحسـانًا، تلك العائدة لمن هم أكثر إخلاصًا لرفاقهم، ستزدهر بأعداد أكبر قياسًا بذريّة الأنانيين الخونة من ذات القبيلة»، على النقيض من ذلك، تجد أن الرجال الشجعان المُقدمين على فداء أنفسـهم «يقضون نحبهم بمعدّلات أعلى من نظرائهم»، والرجل النبيل «غالبًا ما لا يترك خلفه نسلًا يرث صفاته النبيلة».

بالضبـط. إذن حتـى لو سـادت قبيلة مليئـة بالمؤثِرين على أخـرى يُهيمن عليها الأنانيون، سـيظل مـن الصعب تخيّل كيف امتلأت قبيلـةٌ بالمؤثِرين في المقـام الأول. يُفـترض أن الحيـاة اليومية لعصور مـا قبل التاريـخ، مع ما لها من نصيب طبيعي للمِحن، كانت تُفضّل جينات الأشـخاص الذين اعتادوا مثـلًا اكتناز الطعام لأنفسـهم بدل مشـاركته مع الآخريـن، أو ترك جيرانهم يخوضـون معاركهم الخاصّة بدل المخاطرة بأنفسـهم وتلقّي إصابة ما؛ وهذه الميزة القبلية كانت سـتنمو حينما تستعر المنافسـة داخل القبيلة في قلب نظرية داروين للانتقاء على مسـتوى الجماعة، كأن تتعـرّض لمجاعة أو تخوض حربًا (مـا لم تكن المجتمعـات، بعد الحروب، سـتولي اهتمامًا بالغًا بـذوي الأبطال الذيـن قتلوا في الحرب). لـذا قد لا تكون هناك طريقـة للدوافع المؤثِرة ذات الأسـاس البيولوجـي أن تنتـشر ضمن الجماعـة. وحتى لو تدخّلـت بطريقة سـحرية وزرعت جينات «تعاطفية» في ٩٠٪ من السـكان، فإنها ستتلاشـى بالتدريج أمام منافساتها الأقلّ نُبلًا.

المؤكّـد، كما يقـول داروين، إن الأنانية المتفشـيّة الناتجة ربـما تعني أن هذه القبيلـة قـد اكتُسِـحت في أثناء منافسـتها لقبيلة أخـرى. إلّا أن كافّـة القبائل خاضعة لذات المنطق الضمني، لذا يُفترض أن المنتصرين أنفسهم لن يكونوا أنموذجًـا للفضيلة. وإن أيّ قدر ضئيل من الإيثار يسـتعملونه لغرض جيّد، من الناحية النظرية، سينحسِر في أثناء تذوقهم ثمار النصر.

الإشـكالية مع نظرية داروين هي واحدةٌ شـائعة في نظريّات الانتقاء على مستوى الجماعة: إذ من الصعب تخيّل الانتقاء على مستوى الجماعة ينشر بعض الصفات التي ما كان الانتقاء على مستوى الفرد ليُفضّلها؛ فمن الصعب تخيّل

الانتقاء الطبيعي يحلّ صراعًا مباشرًا بين صالح الجماعة ورفاهية الفرد بتفضيل صالح الجماعة. وللتأكد، يُمكن للمرء الحلم بسيناريوهات - بمعدلات هجرة معيّنة ضمن الجماعات، ومعدّلات انقراض معيّنة للجماعات - حيث الانتقاء على مستوى الجماعة قد يُفضّل التضحية بالفرد؛ وهناك القليل من البيولوجيين الذين يعتقدون أن الانتقاء على مستوى الجماعة يلعب دورًا محوريًا في تطوّر الإنسان. ومع ذلك، تميل سيناريوهات الانتقاء على مستوى الجماعة كي تكون معقّدة بعض الشيء. حتى إن جورج ويليامز وجدها في الواقع مرهقة عمومًا لدرجة اقتراحه في كتاب التكيّف والانتقاء الطبيعي انحيازًا رسميًا ضدّها: «على المرء افتراض أن التكيّف ليس بمستوى أعلى مما تقتضيه الحقائق»، بعبارة أخرى: ابحثْ بجدّية أولًا عن الطريقة التي يُمكن للجينات الكامنة وراء سِمة أن تُفضَّل فيها في أثناء منافسة يوميّة مباشِرة. وفقط بعد الفشل في ذلك يُمكنك اللجوء إلى المنافسة بين المجاميع السكّانية، وحينها عليك توخّي الحذر البالغ. أصبحت هذه بمثابة العقيدة غير الرسمية للأنموذج الجديد.

في الكتاب نفسه، وضع ويليامز مذهبه تحت التطبيق الحي. فمن دون اللجوء إلى الانتقاء على مستوى الجماعة، اقترح ما يُعدّ الآن التفسير المقبول للمشاعر الأخلاقية الإنسانية. حيث كتب ويليامز في منتصف الستينات، بعد تفسير هاميلتون لأصول الإيثار بين الأقرباء مباشرة، مقترِحًا طريقة يُمكن للتطوّر عبرها إشاعة الإيثار لما وراء حدود القرابة.

الفصل التاسع

الأصدقاء

«ليس باللّافت قليلًا أن التعاطف مع محن الآخرين يَسْتَدِرُّ دموعنا بغزارة أكبر مقارنة بما عليه الحال مع محننا الخاصّة؛ وهذه بالذات هي القضيّة. كثير من الرجال ممّن لا تُجبرهم محنهم على استدرار دمعة تراهم يذرفون الدموع غزيرة لأجل معاناة صديق مقرّب».

التعبير عن المشاعر لدى الإنسان والحيوانات (١٨٧١)

ربما شعر داروين بضعف نظريته الرئيسة عن المشاعر الأخلاقية، ملقيًا بنظريّة ثانية لأجل مُعايرة أفضل. كتب في أصل الإنسان أنه عبر تطوّر البشر، «بينما تُصقل قوى المنطق والبصيرة، سُرعان ما سيتعلّم كُلّ إنسان عبر التجربة أنه إذا ما هرع لِمعونة رفيق، مكافأته ستكون رد الجميل. ومن هذا الدافع الضعيف قد يكتسب عادة مساعدة الرِفاق؛ كما أن عادة القيام بأعمال خيرية قَوَّت بالتأكيد الإحساس بالتعاطف، ما يُبشّر بأولى الدوافع تجاه الأعمال الخيرية. إضافةً إلى ذلك فالعادات المُتّبعة عبر أجيال عدّة ربما تميل لتكون موروثة».

إن الجملـة الأخيرة خاطئة بالطبـع. إذ بتنا نعلم الآن أن العادات تُمرَّر من الآباء إلى الأبناء عبر الإرشاد والأماثيل، لا الجينات. في الحقيقة، ليست هناك تجارب حياتيّة (باستثناء التعرّض للإشعاع مثلًا) يمكنها التأثير على الجينات المُمـرّرة إلى الأبنـاء. كان جمـال نظرية دارويـن في الانتقاء الطبيعي، بشـكلها الصـارم، أنهـا لا تتطلّب توريـث الصفات المكتسـبة، كما هو حـال نظريات التطوّر السـابقة، كنظرية جان بابتيسـت دي لامارك. وقـد رأى داروين هذا الجمال، وركّز في تشديده على النسخة النقية لنظريّته. لكنّه كان على استعداد، ولا سيما بعـد تقدمه في السـنّ، لاسـتحضار ميكانيكيات أكثر إثارة للشـكّ لأجل حلّ بعض المسائل المزعجة ومنها أصل المشاعر الأخلاقية.

إن نقطة ويليامز الأساسـية (والتي فهمها داروين بالتأكيد، وشـدّد عليها في سـياقات أخرى) هي واحدة سـبق ومررنا بها. فغالبًا مـا تنفذ الحيوانات، وبضمنهـا البـشر، منطقًا تطوّريًا من دون حسـابٍ منطقـي، ولكن عبر اتباع مشـاعرها المُصمّمـة كأجهزة تنفيذيـة للمنطق. وقد تتضمن المشـاعر في هذه الحالـة، كما يقترح ويليامز، الإشـفاق والامتنان. يُمكـن للامتنان دفع الناس لـردّ المعـروف مـن دون التفكير كثـيرًا في حقيقة مـا يفعلونه. وإذا ما شـعرنا بالإشفاق قويًّا تجاه بعض أنواع الناس - أناس ندين لهم بالامتنان على سبيل المثال - سيقودنا ذلك إلى ردّ الجميل، ومرّة أخرة، مع وعي شحيح بالحقيقة.

حُوِّلَـت تكهنـات ويليامـز الوجيـزة إلى نظريّـة متكاملـة الأركان بأيدي روبـرت تريفـرز. في العـام ١٩٧١، أي بعـد مائـة عـام بالضبـط مـن ظهور تلميـح دارويـن إلى الإيثار المتبادل في كتابه أصل الإنسـان، نشر تريفرز ورقة بحثيـة بعنـوان «تطـوّر الإيثار المتبـادل» في مجلّـة The Quarterly Review of Biology. في ملخّـص ورقتـه، كتـب، «يُمكن تفسـير الصداقـة، النفور، العدوان الأخلاقي، الامتنان، التعاطف، الشكّ، الجدارة بالثقة، جوانب من الذنب وبعض أشكال انعدام الأمانة والنفاق، بوصفها تكيّفات هامّة لضبط نظـام الإيثار». واليـوم، بعد مرور عقدين على هذا التصريح الجسـور، باتت هناك جملة من الأدلة المتنوعة والمتنامية التي تدعمه.

نظرية اللعبة والإيثار المتبادل

لو قُدِّمَ داروين للمحاكمة بتهمة عدم تصوّر وتطوير نظرية للإيثار المتبادل، فإحدى دفاعاته ستكون في أنه جاء من ثقافة فقيرة فكريًا. حيث افتقرت إنكلترا الفيكتورية إلى أداتين إذا ما اجتمعتا تُشكّلان وسيطًا تحليليًا فريدًا وقويًّا: نظرية اللعبة وجهاز الكومبيوتر.

تطوّرت نظرية اللعبة في أثناء العشرينات والثلاثينات بوصفها طريقة لدراسة صناعة القرار. ثم أصبحت شائعة في الاقتصاد والعلوم الاجتماعية الأخرى، لكنها عانت من سمعةٍ كونها لطيفة للغاية. نجح مُنظّرو اللّعبة بذكاء في جعل دراسة السلوك البشري أنيقة ونظيفة، إلّا أنها كلّفتهم ثمنًا باهظًا في الواقعية؛ حيث افترضوا أحيانًا أن ما يسعى إليه الناس في الحياة يُمكن تلخيصه بأناقة في عملة نفسيّة واحدة - المتعة أو السعادة أو «المنفعة»؛ إضافة إلى افتراضهم أن السعي وراء هذه العُملة يجري بعقلانيّة حازِمة. يُمكن لأي عالم نفس تطوّري إخبارك أن هذه الافتراضات خاطئة، فالبشر ليسوا آلات حاسِبة؛ بل حيوانات، مُقادين إلى حدّ ما بمنطق واع، ولكن تقودهم إلى جانبها قوى مختلفة أخرى أيضًا. والسعادة على المدى الطويل، مهما كانت جاذبيتها، ليست المسعى الذي تطوّروا لأجل تعظيمه.

من ناحية أخرى فقد صُمِّمَ البشر بوساطة آلة حاسِبة، عمليّة غاية في العقلانيّة ومُستقلّة متبلّدة المشاعر. وقد صمّمتهم تلك الآلة لأجل تعظيم عُملة واحدة، ألا وهي التناسخ الجيني الشامل، اللياقة الشاملة.

والتصاميم لا تعمل دائمًا بالطبع. فكثيرًا ما تفشل المتعضّيات المفردة في تمرير جيناتها لأسباب عدّة. (بعض منها مُحتّمٌ عليه الفشل. وهذا هو السبب المؤكّد وراء حدوث التطوّر). إضافة إلى ذلك ففي حالة البشر، نُفِّذ التصميم ضمن بيئة اجتماعية شديدة الاختلاف عن الحالية. إذ نسكنُ مُدنًا وضواحي ونشاهد التلفاز ونكرعُ الجعّة، وفي أثناء ذلك تُأرجحنا مشاعر صُمِّمَت لنشر جيناتنا ضمن مجموعة سكانية صغيرة من الصيادين جامعي الثمار. وليس مُستغربًا أن الناس غالبًا ما يبدون غير ساعين لتحقيق هدف مُعيّن بنجاح

كبير، سواء أكان ذلك الهدف السعادة أم اللياقة الشاملة أو غيرهما.

إذن قد يرغب منظّرو اللّعبة باتّباع مجموعة من القواعد السهلة عند تطبيق أدواتهم على تطوّر الإنسان. أولًا: على هدف اللعبة أن يكون تعظيم التناسخ الجيني. ثانيًا: على سياق اللعبة أن يعكس الواقع في بيئة الأسلاف، وهي بيئة أشبه تقريبًا بمجتمع الصيادين جامعي الثمار. ثالثًا: لا تنتهي التجربة بمُجرّد العثور على الاستراتيجية المُثلى. والخطوة الأخيرة - المكافأة - هي اكتشاف أي المشاعر تقود البشر إلى اتّباع هذه الاستراتيجية. وعلى هذه المشاعر، من الناحية النظرية، أن تكون جزءًا من الطبيعة الإنسانية؛ إذ يجب أن تكون قد تطوّرت عبر أجيال وأجيال من اللعبة التطوّرية.

استعمل تريفرز، بناءً على اقتراح ويليام هاميلتون، لعبة كلاسيكية تدعى معضلة السجين. شريكان في جريمة استجوب كلٌّ منهما على حدا في مواجهة قرار صعب. تفتقر الولاية إلى الأدلة الكافية لإدانتهما بالجرائم الجسيمة، التي ارتكباها إلّا أن لها ما يكفي من الأدلّة لإدانة كليهما بتُهم أقل - ولنقل عامًا واحدًا لكلٍّ منهما. يضغط المدّعي العام، رغبة منه بإنزال عقوبة أشدّ، على كُلّ رجل منهم منفردًا كي يعترف ويورّط الآخر. إذ يقول لكلّ واحد: إذا اعترفت ولم يعترف شريكك، سأتركك حرًّا بعد استعمال شهادتك لحبسه مدّة عشرة أعوام. لكن الجانب الآخر من هذا العرض يُعدّ تهديدًا: إن لم تعترف واعترف شريكك، فإن السجن مدّة عشرة أعوام سيكون نصيبك. وفي حال اعترفت واتّضح أن شريكك اعترف كذلك، كلاكما سيُسجَن ولكن لثلاثة أعوام.

لو كنت مكان أحد السجينين، ووزنت خياراتك واحدًا بعد الآخر، كُنت ستُقرّر الاعتراف بالتأكيد - لأجل «الإيقاع» بشريكك. افترض، قبل كلّ شيء، أن شريكك كان ينوي الإيقاع بك. إذن الأفضل لك الإيقاع به: حيث تنال ثلاث سنوات في السجن بدل السنوات العشر التي كنت لِتقضيها في حال صمتك في أثناء اعترافه ضدك. والآن افترض عدم إيقاعه بك. سيظلّ الأفضل لك الإيقاع به: إذ في حال اعترافك مع بقائه صامتًا، سيُطلق

سراحك، بينما ستُحبَسُ عامًا واحدًا لو التزمتَ الصمت. وبذلك، يبدو هذا المنطق عصيًّا على المقاومة: خُن شريكك.

ومع ذلك، في حال اتّبع كلا الشريكين هذا المنطق العصيّ على المقاومة تقريبًا وأوقع بعضهما ببعض، فإن كليهما سينتهي إلى الحبس مدّة ثلاثة سنوات، في حين كان بالإمكان لكليهما أن يحظى بالحبس عامًا واحدًا لو حافظا على إخلاصهما لبعض والتزما الصمت. لو أمكن لكليهما التواصل والتوافق فقط، كان بالإمكان أن يبزغ التعاون بينهما، وينتهي كليهما إلى وضع أفضل. لكن ذلك غير ممكن. لذا كيف للتعاون أن يبزغ؟

يوازي السؤالُ سؤالَ كيف يُمكن للحيوانات الغبيّة، التي لا تستطيعُ قطع الوعود أو وفاء الدين أو استيعاب مفهوم وفاء الدين بما يخصُّ هذا الصدد التطور لتصبح مُؤثِرَةً تبادليًا. توازي خيانة شريك في جريمة مع بقائه مُخلصًا لك حيوانًا يستفيد من فعل مؤثِر مع عدم إيفاء الدين مُطلقًا. والخيانة المتبادلة لا تُشبه، في المقام الأول، أيًّا من الحيوانات الكريمة: فعلى الرغم من أن كليهما قد يستفيد من الإيثار المتبادل، لكنهما لن يخاطرا بالاحتراق على حدّ سواء. يشبه الإخلاص المتبادل جولة واحدة ناجحة من الإيثار المتبادل - معروفٌ مُنِحَ ورُدَّ. لكن مرّة أخرى: ما الذي يدفعك لتقديم معروف إن لم يكن ردّه مضمونًا؟

إن التطابق بين الأنموذج والواقع ليس مثاليًا. فمع الإيثار المتبادل هناك فارق زمني بين الإيثار ورَدّه، في حين ينبغي على اللاعبين في معضلة السجن حسم أمرهم بالتزامن. إلّا أن هذا التمايُز لا ينطوي على فرق كبير. ذلك أن السجناء غير قادرين على التواصل بشأن قراراتهم المتزامنة، حيث كلاهما في الوضع الذي تواجهه الحيوانات المؤثِرَة غير أكيدين مما إذا كانت عروضهم الودودة قد تُردُّ إليهم. إضافة إلى ذلك، إذا واصلت تأليب اللاعبين نفسهما ضدّ بعضهما، لعبة بعد أخرى - في «معضلة سجين متكرّرة» - سيكون بإمكان كليهما الاستعانة بالماضي السلوكي للشريك قبل تقرير كيفية التصرّف تجاهه في المستقبل. وهكذا يُمكن لكل لاعب أن يحصد مُستقبلًا ما زرعه في الماضي

- تمامًا كحال الإيثار المتبادل. بشكل عام فإن التوافق بين الأنموذج والواقع جيّدٌ جدًا. حيث المنطق المؤدّي إلى التعاون في معضلة السجين المتكرّرة هو نفسه بالضبط المؤدي إلى الإيثار المتبادل في الطبيعة. وجوهر هذا المنطق في كلتا الحالتين لاصفري.

محصّلة لاصفريّة

افترض أنّك شمبانزيٌ وقتلت الآن قردًا يافعًا ثم منحت بعضًا من لحمه إلى شمبانزي رفيق لك كان بحاجة للطعام في الفترة الأخيرة. ولنقل أنك منحته خمس أونصات، ودعنا نُسمي ذلك بخسارة قدرها خمسة نقاط عليك. المغزى المهم الآن أن مكسب القرد الآخر سيكون أكبر من خسارتك. فقد كان بعد كل شيء في فترة من الاحتياج غير الاعتيادية، لذا فإن قيمة الطعام الحقيقية بالنسبة إليه - من حيث مساهمتها في تكاثره الجيني - كانت مرتفعة للغاية. وبالطبع، لو كان بشرًا لَقَدِرَ على التفكير في محنته، وأُجبر على توقيع عقد ملزم، كان سيُوافق بمحض إرادته على إعادة الأونصات الخمس التي استعارها ستًّا يوم الجمعة المقبل مثلًا. لذا فإن ما اكتسبه يُعادلُ ستَّ نقاط على الرغم من أن خسارتك كان خمس فحسب.

وهذا التباين هو ما يجعل محصّلة اللعبة لاصفريّة. إذ لا تشطُبُ مكاسبُ أحد اللاعبين خسارَةَ الآخر. إن السمة الجوهرية للمحصّلة اللاصفريّة أنها، عبر التعاون أو المعاملة بالمثل، تجعل من كلا اللاعبين أفضلَ حالًا. حيث لو سدَّدَك الشمبانزي الآخر في وقت تكون فيها اللحوم وفيرة عنده وشحيحة عندك، فإن خسارته المقدّرة بخمس نقاط ستكون مكسبًا قيمته ستّ نقاط لك. وبذلك يكون كلاكما خرج بصافي ربح مقداره نقطة من هذا التبادل. إن سلسلة من مجموعات التنس أو الجولات[1] أو حُفر الغولف تنتج في النهاية فائزًا واحدًا. ومعضلة السجين، لكونها لعبة محصلتها لاصفريّة، مختلفة. إذ يُمكن لكلا اللاعبين الفوز في حال تعاونا. فلو اجتمع رجل الكهف أ

---

(١) (أدوار اللعب في رياضات مثل الكريكت وكرة القاعدة [المترجم])

مـع رجل الكهف ب في لعبة صيد لا يسـتطيع فيهـا رجل بمفرده القتل، فإن عائلتي الرجلين على حدّ سـواء ستحظى بلحم وفير؛ لكن في غياب مثل هذا التعاون، كلا العائلتين ستنام جائعة.

وتقسـيم العمل يُعدُّ مصدرًا شـائعًا للمحصّلـة اللاصفريّة: تُصبحُ خبيرًا في قـصّ الجلـود وتمنحنـي ملابـس، بينما أحـترفُ نحـتَ الخشـب وأزوّدك بالرماح. المفتاح هنا – كما في مثال الشـمبانزي أعلاه، وجميع الأمثلة المنطوية عـلى محصّلات لاصفريّة – أن العنصر الفائـض لدى حيوان يُمكن أن يكون بالنسبة إلى آخر سلعة نادرة وثمينة، وهذا يحدث طوال الوقت. كتب داروين مستذكرًا تبادلًا للسلع مع الهنود الفوجيّين، أن «كلا الفريقين كانا يضحكان ويتعجّبان ويحدّقان ببعضهما بعضًا؛ إننا نشـفق عليهم لمنحنا سمكًا وسرطان بحـر طـازج مقابل شيء من الخرق وما إلى ذلك؛ بينما هم سيسـتغلّون فرصة العثور على حمقى آخرين لمبادلة هذه الحليّ المبهرجة مقابل عشاء جيّد».

للحكم بالاسـتناد إلى كثير من مجتمعات الصيادين جامعي الثمار، لم يكن تقسـيم العمل الاقتصـادي دراماتيكيًا في بيئة الأجداد. مـن المؤكد تقريبًا أن السلعة الأكثر شيوعًا في التبادلات هي المعلومات. فمعرفة مكان العثور على مخـزون كبير من الطعـام، أو الذي واجه فيـه أحدهم ثعبانًا سـامًّا، يُمكن أن يكـون مسـألة حياة أو موت. ومعرفة من ينام مع مـن ومن غاضب مِمَّن، من يخـدع من وهكذا دواليك، يُمكن أن توفّر الاطّلاع الكافي لممارسـة مناورات اجتماعيـة تضمن مزيـدًا من الجنس والموارد الحيوية الأخـرى. في الواقع فإن أنواع النميمة التي يشـعر الجميع من شتّى الثقافات بالتعطّش لها – حكايات النـصر، والمـآسي، والرخـاء، والمحـن، والإخـلاص الاسـتثنائي، والخيانـة الحقـيرة، وهكذا دواليـك – تتوافق جيـدًا مع أنواع المعلومات التي تسـاعد اللياقـة. إن تـداول النميمـة (ولا عبارة أكثـر ملائمة منها) هـي إحدى أكثر الأشـياء التي يفعلها الأصدقاء، وقد تكون إحدى الأسباب الرئيسة لوجود الصداقة من الأساس.

وعلى العكس من الطعام والرماح والجلود، يتمّ تبادل المعلومات من دون

التخلّي عنها بالفعل، وهي حقيقة يُمكن لها جعل محصّلة التداول لاصفريّة بشكل راديكالي. وبالطبع هناك أحيان لا تكون المعلومات فيها قيّمة إلّا حين اكتنازها. ولكن ليس هذا هو الحال الشائع. أحد كُتّاب سيرة داروين كتب، بعد حوارات علمية بين داروين وصديقه جوزيف هوكر، «نافس كلاهما الآخر في ادّعاء أن المزايا التي كسباها من بعضهما ... تفوق أيًا كان الذي قد يمنحانه مقابِلًا لها».

إن المحصّلة اللاصفريّة بحدّ ذاتها ليست كافية لتفسير تطوّر الإيثار المُتبادل. إذ لا يكون التعاون منطقيًّا بالضرورة حتى في لعبة محصّلتها غير صفريّة. في مثال مشاركة الطعام، على الرغم من حصادك نقطة واحدة من كُلّ جولة للإيثار المتبادل، فإنك ستحصد ٦ نقاط كاملة عبر الغش – عبر قبول الكرم من دون ردّه. إذن يبدو أن الدرس هو: إن كنت قادرًا على قضاء حياتك في استغلال الآخرين، فافعل ذلك بشتّى الوسائل؛ حيث تتضاءل قيمة التعاون بالمقارنة. إضافة إلى ذلك، إذا لم تتمكن من إيجاد أُناس يُمكنك استغلالهم، فربما حينها لن يكون التعاون الاستراتيجية المُثلى أيضًا. فلو كنت محاطًا بأشخاص يحاولون دائمًا استغلالك، يصير الاستغلال المتبادل سبيلك الوحيد لتقليل خسائرك. وسواء أكانت المحصّلة اللاصفريّة تُغذي تطوّر الإيثار المتبادل أم لا فذلك شأن يعتمد بشدّة على البيئة الاجتماعية السائدة. على معضلة السجين فعل ما هو أكثر من مجرّد توضيح المحصّلة اللاصفريّة لو كان لها من الفائدة كثير هنا.

إن اختبار النظريات هو بالطبع مشكلة عامّة بالنسبة إلى علماء الأحياء التطوّريّة. يختبر الكيميائيون والفيزيائيون نظريّاتهم عبر تجارب مضبوطة بعناية حيث إمّا تكون النتيجة موافقة للتنبؤ وتدعم النظرية أو العكس. وفي بعض الأحيان يستطيع البيولوجيون تحقيق ذلك. فكما سبق أن رأينا كيف حرم الباحثون أمّهات الجيروذ للتمكّن من رؤية ما إذا كانت ستُفضّل توفير الغذاء لبناتها على أبنائها كما المتنبأ. لكن لا يستطيع البيولوجيون تصميم تجارب على البشر بذات الطريقة التي يتعاملون فيها مع الجيروذ، ولا

بمقدورهم إجراء التجربة المطلقة: إعادة الشريط وتكرار التطوّر من البداية.

على الرغم من ذلك يُمكن لعلماء الأحياء إعادة صياغة التقديرات التقريبية للتطوّر بشكل متزايد. حينما وضع تريفرز نظريّته للإيثار المتبادل عام ١٩٧١، كانت أجهزة الكومبيوتر لا تزال آلات غريبة يستخدمها المتخصّصون فقط؛ ولم يكن مفهوم الكومبيوتر الشخصي موجودًا من الأساس. وعلى الرغم من إجادة تريفرز استعمال معضلة السجين تحليليًا، إلّا أنه لم يتحدّث عن محاكاتها فعليًا - أي خلق أنواع داخل الكومبيوتر حيث يواجه أفرادها المعضلة بانتظام، وقد يعيشون أو يموتون بسببها، ثم ترك الانتقاء الطبيعي يأخذ مجراه.

في أواخر السبعينات، ابتكر روبرت آكسلرود، عالم السياسة الأمريكي، مثل هذا العالم الحاسوبي ثم شرع في ملئه. ومن دون ذكر الانتقاء الطبيعي - الذي لم يكن على سلّم اهتماماته منذ البداية - دعا خبراء في نظريّة اللعبة لتقديم برنامج حاسوبي يجسّد استراتيجيّة لمعضلة السجين المتكرّرة: قاعدة يُقرر البرنامج بموجبها إذا ما كان عليه التعاون في كلّ مواجهة مع برنامج آخر. ثم ضغط الزرّ وترك هذه البرامج تُخالِطُ بعضها. يعكس سياق المنافسة السياق الاجتماعي لتطوّر البشر وأسلافهم. كان هناك مُجتمع صغير إلى حدّ ما - عدّة عشرات من الأفراد يتفاعلون بانتظام. كُل برنامج كان قادرًا على «تذكّر» ما إذا كان كُلّ برنامج آخر قد تعاون أم لا في اللقاءات السابقة، ومن ثمّ تعديل سلوكه بناءً على ذلك.

وبعد مواجهة كُلّ برنامج للآخر ٢٠٠ مرّة، كشف آكسلرود عن النتائج مُعلنًا الفائز. ثمّ أطلق جيلًا ثانيًا من المتنافسين بعد انتقاء منهجي: كُلّ برنامج كان مُمثّلًا بما يتناسب مع نجاح الجيل الأول؛ حيث الأصلح قد نجا. وهكذا استمرّت اللعبة جيلًا بعد آخر. لو كانت نظرية الإيثار المتبادل صحيحة فعليك توقّع «تطوّر» الإيثار المتبادل داخل حاسوب آكسلرود، حتى يُهيمن تدريجيًا على السكّان.

وهذا ما حصل. دُعي البرنامج الفائز، الذي صمّمه مُنظِّر اللعبة الكندي

أناتـول رابوبـورت (الـذي سـبق وألّـف كتابًـا بعنـوان معضلة السـجين)، باسـم واحدة بواحدة. استرشـد واحدةٌ بواحدة بأسـهل القواعـد - حرفيًا: إذ كان عـدد أسـطره البرمجيـة خمسـة فقـط، الأقصر تقديـمًا. (إذن لـو كانت الاسـتراتيجيات مصنّعة عشوائيًا عبر طفرات حاسوبية، بدلًا من تصميمها، ربـما رأيناها ضمـن أوائل الظاهرين). كانـت واحدة بواحـدة مماثلة لما يعنيه اسـمها بالضبـط. في المواجهة الأولى مـع أي برنامج، سـتذهب للتعاون. ثم بعد ذلك سـتُكرّر كُلّ خطوة أخيرة اتخذها البرنامج المُنافس ضدها. فالحسنة بمثلها والعكس بالعكس.

إن فضائل هذه الاسـتراتيجية سـهلة بسـهولة الاسـتراتيجية نفسـها. في حال أظهر برنامجًا ميلًا للتعاون، فإن واحدة بواحدة سـيتقدّم مباشرة لإنشاء صداقة، بحيث يستمتع كلا النظيرين بثمار التعاون. أمّا في حال أظهر برنامجٌ ميلًا إلى الخيانة، فإن واحدة بواحدة سيُحجِّم خسائره؛ حيث يحجبُ التعاون حتـى يتهـذّب البرنامـج الآخـر، متجنّبًـا التكاليـف الباهظة للحماقـة. إذن فـإن واحدة بواحدة لا يسـقط في الحفرة نفسـها مرّتين تتابعًـا كحال البرامج التعاونيـة العشـوائية. ومع ذلك فهو يتجنّب أيضًا مصير البرامج العشـوائية غـير المتعاونة التي تحاول اسـتغلال نظرائها من البرامـج الأخرى: الانغلاق في سلسـلة خيانـة متبادلة مكلفة مـع برامج أخرى لن تُقدِمَ عـلى التعاون إلّا في حـال تلقّيها المبـادرة. بالطبع، يتجاهـل واحدة بواحدة عمومًا المكاسـب الجمّة التي بالإمكان تحقيقها عبر الاستغلال. إلّا أن الاستراتيجيّات الموجّهة ناحية الاستغلال، سواء أعبر الغش المستمر أم «المفاجئ المتكرّر»، ستتّجه إلى الخسـارة مع اسـتمرار اللعبة. حيث تتوقّف البرامج عن معاملتهم بالحسنى، ويذلـك يُحرمـون من كل المكاسـب الجمّـة للاسـتغلال والأخـرى المعتدلة للتعـاون المتبـادل. إن قـوّة اسـتراتيجية واحدة بواحـدة تكمن في سـهولتها التـي جعلتها تتفوّق على برامج أخرى أكثـر موضوعية ولطفًا و«ذكاءً» حتى صارت قواعدها من التعقيد بحيث يصعب على البرامج الأخرى قراءتها.

إن استراتيجية واحدة بواحدة - أن تُعامل الآخرين بالمثل - لها كثير من العوامل المشتركة مع البشر الاعتياديين. ومع ذلك ليس لها بصيرة كما البشر، إذ لا تُدرك قيمة المعاملة بالمثل، حيث تردّ بالمثل فحسب. وبذلك قد تكون أشبه بالأوسترالوبثيكوس، أسلافنا ذوي الأدمغة الصغيرة.

أي المشاعر غرسها الانتقاء الطبيعي في الأوسترالوبثيكوس كي يحثّه على تطبيق استراتيجية ذكية للإيثار المتبادل على الرغم من محدودية ذكائه؟ تذهب الإجابة لما وراء «التعاطف» اليسير غير المُخطط الذي شدّد عليه داروين. صحيح أن هذا النوع من التعاطف سيظهر فائدة في البداية، مُحفِّزًا مبادرة حسن النية الابتدائية لاستراتيجية واحدة بواحدة. ولكن بعد ذلك يجب التخلّص من التعاطف انتقائيًا، وإلحاقه بمشاعر أخرى. قد ينبثق العائد الموثوق لتفضيل استراتيجية واحدة بواحدة من الإحساس بالامتنان والالتزام. يُمكن تحقيق الميل لحجب السخاء عن الأوسترالوبيثكوس عبر الغضب والكراهية. والميل إلى اللطف تجاه محدودي الذكاء السالفين ممن رتَّقوا طرقهم قد يكون آتٍ من الشعور بالمغفرة - ممحاة الكراهية عكسية النتائج. وجميع هذه المشاعر موجودة لدى البشر في شتّى الثقافات.

في الحياة الواقعية، ليس التعاون مسألة أبيض أو أسود. إذ إنك لا تجري ناحية المعرفة تحاول الاستزادة منها بالمعلومات، ثم إمّا تنجح أو تفشل. حيث في أغلب الأحيان يتبادل كلاكما بيانات متنوعة، كُلٌّ منها يوفّر شيئًا مفيدًا للآخر، والمساهمات لا تتماثل بالضرورة. لذا فمن المحتمل أن تكون القواعد البشرية للإيثار المتبادل أقلّ تساويًا مقارنة باستراتيجية واحدة بواحدة. لو أبدى الشخص ف لطفًا في عدّة مناسبات، فقد تخفض حذرك وتتفضّل عليه بلا حسبان، وتتيقّظ فقط للإشارات الجسيمة الدالّة على خسّة أوّلية، وتراجعًا دوريًا - بوعي أو من دونه - لحسابه التراكمي معك. وبالمثل، إن كان الشخص ي لئيمًا مدّة شهور، فمن الأفضل تجنّبه. إن الأحاسيس التي من شأنها تشجيعك على التصرف بأساليب توفير الوقت والطاقة هذه هي

المـودّة والثقة عـلى التتابع (التي تسـتلزم مفهوم «الصديـق»)؛ كذلك العداء والارتياب (المرتبطة بمفهوم «العدو»).

الصداقة، المودّة، الثقة - هذه هي الأشياء التي حافظت، قبل زمن طويل من اعتياد الناس توقيع العقود، وقبْل سـنّ القوانين، على تماسك المجتمعات البشريـة. وحتـى اليوم لا تـزال هذه القوى أحد أسـباب تفـوّق المجتمعات البشرية بشـكل كبير على مسـتعمرات النمل من حيـث الحجم والتعقيد على الرغم من أن درجة القرابة بين الأشخاص المتفاعلين تعاونيًا قريبة من الصفر في العادة. وبينما تشـاهد هيمنة النوع اللطيف ولكن الصارم من اسـتراتيجية واحدة بواحدة بين السـكّان، فإنك ترى كيف يُمكن للإسـمنت الاجتماعي الفريد الخاص بالجنس البشري النمو من طفرات جينية عرضية.

ربـما يكـون الأكثـر لفتًـا للنظـر أن الطفـرات العرضيـة تزدهـر من دون «انتقـاء الجماعة». وهذه كانـت نقطة ويليام عـام ١٩٦٦: إن الإيثار تجاه غير الأقـارب، عـلى الرغم من كونه عنصرًا حاسـمًا في تماسـك الجماعـة، لم يوجد لأجـل «صالح القبيلة»، ناهيك عن «صالح النوع» نفسـه. بل يبدو أنه انبثق من المنافسة اليومية الهينة بين الأفراد. كتب ويليامز عام ١٩٦٦: «ليس هناك مـن الناحية النظرية حدّ لمدى وتعقيد السـلوك المرتبـط بالجماعة الذي يُمكن لهذا العامل إنتاجه، والهدف المباشر لمثل هذا السلوك دائمًا ما سيكون رفاه فرد آخـر، وغالبًا ما لا يكـون ذلك الفرد مُقرَّبًا جينيًا. ومـع ذلك، في النهاية، لن يكون ذلك تكيّفًا لصالح الجماعة. حيث سيتطوّر عبر البقاء التفاضلي للأفراد وسيُصمَّم لإدامة جينات الفرد التي توفر منفعة للآخر».

إحدى مفاتيح ظهور هذا التناغم الماكروي (المرئي) من الأنانية الميكروية (المجهريّة) هو التغذية الراجعة بين الماكروي والميكروي. وبينما يتعاظم عدد كائنـات واحدة بواحـدة - بنمو التناغم الاجتماعـي - تتعاظم أيضًا حظوظ كل فـرد من أفراد واحـدة بواحدة. فالجار الأمثل لفـرد واحدة بواحدة، بعد كل شيء، هو فرد واحدة بواحدة آخر. إذ سُرعان ما يسـتقر الاثنان من دون ألم في علاقـة مثمرة دائـمًا. لن يتعرّض أيّهما للحرق ولـن يحتاجا لتنفيذ عقوبة

مُكلفة بحق أحدهما الآخر. وبذلك، كلما زاد التناغم الاجتماعي، كُلّما كان ذلك في صالح أفراد واحدة بواحدة، ومن ثم تعزيز التناغم الاجتماعي أكثر، وهكذا دواليك. يُمكن للتعاون القليل، عبر الانتقاء الطبيعي، تغذية نفسه فعليًا.

الرجل الذي كان رائدًا في الدراسة الحديثة لهذا النوع من التماسك الاجتماعي المعزز ذاتيًا، وكذلك التطبيق التطوري لنظرية اللعبة، هو جون ماينارد سميث. سبق ورأينا كيف أنه استعمل فكرة الانتقاء «المعتمد على التردد» لإظهار إمكانية تواجد نوعين من سمكة الشمس زرقاء الخيشوم - أفراد جوّالون وآخرون صالحون مستقيمون - في حالة من التوازن: لو ازداد عدد الجوّالة مقارنة بالمستقيمين، يُصبح الجوّالة أقل خصوبة من الناحية الوراثية، وبذلك تعود أعدادهم إلى معدّلاتها الطبيعية. إن واحدة بواحدة هي كذلك خاضعة للانتقاء المعتمد على التردّد، إلّا أن الديناميكية هنا تعمل في الاتجاه الآخر، بتغذية راجعة إيجابية وليست سلبية؛ كلما زاد عدد واحدة بواحدة هناك، كلما ازداد نجاح واحدة بواحدة. وفي حال أنتجت التغذية الراجعة السلبية في أحيان «حالة مستقرة تطوريًا» - توازنًا بين الاستراتيجيات المختلفة - يمكن للتغذية الراجعة الإيجابية إنتاج «استراتيجية مستقرة تطوريًا»: استراتيجيةٌ، بمجرّد شيوعها بين السكان، تصبح منيعة أمام الغزوات محدودة النطاق. لا استراتيجية بديلة هناك يُمكنها الازدهار بتقديمها عبر جين طافر وحيد. استنتج آكسلرود، بعد مشاهدته انتصار واحدة بواحدة وتحليل نجاحها، أنها كانت مستقرّة تطوّريًا.

يُمكن للتعاون البدء بتغذية نفسه في وقت مبكر من اللعبة. فلو استخدم شطر صغير فقط من السكان استراتيجية واحدة بواحدة بينما اعتمد البقيّة جميعًا استراتيجيات غير تعاونية، فإن دائرة التعاون المتّسعة ستغمر السكّان جيلًا بعد جيل. والعكس ليس صحيحًا. فحتى لو وصل بضعة من غير المتعاونين إلى المشهد في وقت واحد، سيظلّون غير قادرين على تقويض مجتمع تسود فيه استراتيجية واحدة بواحدة. إن التعاون المشروط القليل أكثر عدوى

مقارنة بالخسّة التامّة. كتب روبرت آكسلرود ووليام هاميلتون، في فصل ألّفاه بالاشتراك ضمن كتاب آكسلرود الصادر عام ١٩٨٤ تطوّر التعاون: «إن لعجلات تروس التطور الاجتماعي سُقّاطة»[1]. ولكن المؤسف أن هذه السقّاطة لا تنشّط من البداية. لو دخل كائن واحدة فقط في مناخ الخسّة الخالصة، فالانقراض مصيره. من الواضح أن عدم التعاون العازم هو في حدّ ذاته استراتيجية مستقرة تطوريًا؛ بمُجرّد تغلغلها في مجموعة سكّانية، تصبح مُحصّنة ضد أي طفرة تتبنى استراتيجية مغايرة من أي نوع، وإن كانت مكشوفة لمجموعة صغيرة من الطفرات التعاونية المشروطة.

بهذا المعنى، أعطت بطولة آكسلرود واحدة بواحدة انطلاقة السبق. فعلى الرغم من عدم استمتاع الاستراتيجية بداية برفقة أيّ مستنسخات بعينها، إلّا أن غالب جيرانها كانوا مصمّمين للتعاون في ظلّ ظروف معيّنة على الأقل، وبذلك رفع قيمة طبيعتها الجيّدة. ألقيت واحدة بواحدة وسط ٤٩ متبنيًا لاستراتيجية دنيئة، فسيكون هناك ٤٩ طريقة ربط في المرّة الأولى، وخاسرٌ واحدٌ فقط. وعلى الرغم من الحتمية التي يبدو عليها نجاح واحدة بواحدة على شاشة الحاسوب، إلّا أن انتصار الإيثار المتبادل لم يكن شديد الوضوح في البطاقات قبل ملايين السنين، وقتما سادت الخسّة سُلالتنا التطوّرية.

إذن كيف برز الإيثار المتبادل إلى السطح؟ إذا انتهى المطاف بكل جين جديد يعرض التعاون بمعاناة سوء المعاملة حدّ الفناء، فكيف يُمكن أن تظهر قلّة قليلة تتبنى الإيثار المتبادل بعدد يكفي لقلب الموازين إلى صالح التعاون؟

أحد أكثر الإجابات جاذبية هي تلك التي اقترحها هاميلتون وآكسيلرود: إن انتقاء القرابة منح الإيثار المتبادل دفعة خفيّة. يُمكن لانتقاء القرابة، كما سبق ورأينا، تفضيل أي جين يزيد دقّة تدفق الإيثار باتّجاه الأقارب. وبذلك فإن الجين الذي يحث القرود على محبّة القردة الأخرى التي رضعت من أثداء

(١) السقّاطة: أداة ميكانيكية تسمح بتدوير الحركة في اتجاه واحد مانعة الحركة في الاتجاه المعاكس. [المترجم]

أمهاتها - أي أشقّاؤهم الصغار - سيزدهر. لكن ما الذي على الأشقّاء الصغار فعله؟ إذ لم يسبق لهم رؤية أشقّائهم الكبار يرضعون، فما هي دالّاتهم؟

أحد الدالّات هو الإيثار نفسه. بمجرّد سيادة الجينات الموجهة للإيثار ناحية الرضّع عبر إفادة الأشقاء الصغار، فإن الجينات الموجهة للإيثار ناحية المؤثرين ستُفيد الأشقاء الكبار. هذه الجينات - جينات الإيثار المتبادل - ستسود بالنتيجة، وانتقاء القرابة هو نقطة انطلاقها.

إن أي انعدام توازن في المعلومات بين قريبين حول نسبة قرابتهما يُعدُّ أرضًا خصبة بالنسبة إلى جين الإيثار المتبادل. ويُحتمل أن مثل هذه الاختلالات كانت موجودة في الماضي. قبل مجيء اللغة، كان للعمّات والأخوال وحتى الآباء دالّات واضحة على هويّة أقربائهم الصغار وقتما لم يكن العكس صحيحًا؛ لذا لابد أن الإيثار تدفّق بغزارة من الأقارب الأكبر باتجاه الأصغر. اختلال التوازن هذا بحد ذاته كان دالّة موثوقة للصغّار كي يستعملونها في توجيه الإيثار نحو الأقارب - وربما كان ليكون على الأقل أكثر موثوقيّة مقارنة بالدوال البسيطة الأخرى، وذلك هو المهم. إنّ جينًا يقابل الإحسان بالإحسان يُمكن أن يسود في أسرة متمدّدة، وإلى عوائل أخرى كذلك عبر التهجين، حيث بإمكانه الازدهار لاحقًا بالمنطق نفسه. وفي مرحلة ما ستكون استراتيجية واحدة بواحدة منتشرة كفاية بحيث تحافظ على ازدهارها حتى من دون معونة انتقاء القرابة. لقد سُكّت سُقّاطة التطور الاجتماعي الآن.

ربما مهّد انتقاء القرابة الطريق لجينات الإيثار المتبادل بطريقة أخرى كذلك: عبر وضع عملاء نفسيين في المتناول تحت التصرّف. قبل وقت طويل من تحوّل أسلافنا إلى مؤثرين متبادلين، كانوا قادرين على المودّة والكرم الأسريين، على الثقة (بالأقرباء) والشعور بالذنب (تذكرة لضمان عدم إساءة معاملة قريب). هذه وغيرها من عناصر الإيثار كانت جزءًا من عقل القرد، مستعدة للارتباط معًا بطريقة جديدة. وذلك سهّل الأمور على الانتقاء الطبيعي تقريبًا، الذي غالبًا ما يحسن استخدام الأدوات التي في المتناول.

يُمكن للمرء، بعد النظر إلى هذه الروابط المحتملة بين انتقاء القرابة

والإيثار المتبادل، رؤية طوري التطوّر تقريبًا بوصفه دافعًا إبداعيًا واحدًا، حيث حاك به الانتقاء الطبيعي شبكة دائمة التمدّد من المودّة والإخلاص والثقة وكلها مستخلصٌ من المصلحة الجينية الذاتية عديمة الرحمة. إن السخرية وحدها تجعل من هذه العملية جديرة بالاهتمام، حتى إن لم تتضمن هذه الشبكة كثيرًا من التجارب التي تمنح قيمةً للحياة.

أيُعدّ ذلك علمًا؟

إن نظرية الألعاب والمحاكاة الحاسوبية أنيقة وممتعة، لكن ما مقدار ما تضيفه حقًا؟ هل نظرية الإيثار المتبادل علم حقيقي؟ وهل تنجح في تفسير ما تهدف لتفسيره؟

إحدى الإجابات هي: مقارنة بماذا؟ إذ لا يوجد هناك فائض من النظريات المنافسة. ففي البيولوجيا، البدائل الوحيدة نظريات انتقاء جماعي، والتي تميل لمواجهة نوع المشكلة التي واجهتها نظرية داروين في انتقاء الجماعة. أمّا في العلوم الاجتماعية، لا يزال هذا الموضوع يُمثّل فراغًا هائلًا.

من المؤكّد أن علماء الاجتماع، بالعودة على الأقل إلى أنثروبولوجي مطلع القرن إدوارد ويسترمارك، قد أدركوا أن الإيثار المتبادل عنصرٌ حياتي أساس ملحوظ في كافّة الثقافات. إذ هناك مؤلفات كاملة عن «نظرية التبادل الاجتماعي، حيث تُقاس التبادلات اليومية للموارد غير الملموسة أحيانًا – المعلومات والدعم الاجتماعي – بعناية. لكن بسبب مقاومة كثير من علماء الاجتماع لفكرة الطبيعة المتأصلة للبشر بحد ذاتها، فغالبًا ما نُظر إلى المعاملة بالمثل على أنها «سُنّةٌ» ثقافية صادف أن تكون عالمية فقط (على افتراض اكتشاف الشعوب المتمايزة لمنافعها بشكل مستقل). وقلّة فقط لاحظوا أن الحياة اليومية لكل مجتمع بشري لا تقوم على المعاملة بالمثل فحسب، بل وعلى أساس مشترك من المشاعر – التعاطف، والامتنان، والمودّة، والإخلاص، والشعور بالذنب، والكراهية وهكذا دواليك. حتى إن عددًا أقلّ اقترح تفسيرًا نهائيًا لهذه المُشتركات. إذ لا بد أن يكون هناك تفسير ما. هل لدى

أحدهم بديل عن نظرية الإيثار المتبادل؟

وهكذا تنتصر النظرية لغياب البدائل. لكن انتصارها لا يقتصر على غياب البدائل. فمنذ نشر تريفرز ورقته البحثية عام ١٩٧١، اختُبِرت النظرية مُظهرة نجاحًا تامًا حتى اللحظة.

وكانت بطولة آكسلرود واحدة من الاختبارات. لو سادت الاستراتيجيات غير التعاونية على نظيراتها التعاونية، أو إذا أتت الاستراتيجيات التعاونية ثمارها فقط بعد سوادها على معظم السكان، كانت الأمور ستسوء بالنسبة إلى النظرية. لكن ثبت أن للمودّة المشروطة اليد العليا على الخسّة، وبالطبع ستتحول إلى قوّة تطوّرية لا ترحم ما أن تجد لنفسها موطئ قدم صغير.

وقد كسبت النظرية دعمًا من العالم الطبيعي: دليلًا على أن الإيثار المتبادل يُمكن أن يتطوّر من دون إدراك الإنسان المُجرّد لمنطقِه، طالما أن الحيوانات المعنية ذكية بما يكفي لتمييز جيرانها الأفراد وتسجيل أفعالها الماضية، سواء أبوعي أو من دونه. لاحظ ويليامز، عام ١٩٦٦، وجود تحالفات دعم مشترك طويلة الأمد بين قردة الرِيص. واقترح أن سلوك «الاكتراث» المشترك لخنازير البحر قد يكون متبادلًا – وهو افتراضٌ تأكّد لاحقًا.

كما تبيّن أن الخفافيش مصّاصة الدماء، التي لم يذكرها تريفرز ولا ويليامز، مؤثِرةٌ تبادليًا أيضًا. فلكُلّ خفّاش سجلٌ نجاح متقطّع في امتصاص دماء الماشية والخيول وغيرهما من الضحايا. ونظرًا لأن الدم سريع التلف، ولافتقار الخفافيش للبرّادات، غالبًا ما تحيقُ الشحّة بالخفافيش الأفراد. وتستدعي الشحّة الدورية لدى الأفراد، كما سنرى، منطق المحصلة اللاصفرّية. إذ مؤكد أن الخفافيش التي تعود إلى كهوفها خالية الوفاض غالبًا تُمنَحُ دمًا مُتقيّئًا من خفافيش أخرى – كما أنها تميل إلى جزاء هذا الإحسان في المستقبل. وبعض هذه المشاركة تكون بين الأفراد، وهذا ليس مستغربًا، إلّا أن كثيرًا منها تحدث ضمن شراكات – اثنان أو أكثر من الخفافيش غير الأقارب ممن يُميّز بعضهم بعضًا عبر «نداءات اتصال» وغالبًا ما يرعى بعضهم بعضًا. رفقة من الخفافيش.

أكثر دعائم تطوّر الإيثار المتبادل لدى البشر المستمدّة من الحيوانات حسمًا جاءت من أقرب أقربائنا، الشمبانزي. حين كتب ويليامز وتريفرز للمرة الأولى

عن المعاملة بالمثل، كانت الحياة الاجتماعية للشمبانزي موشكة على الاتّضاح. حيث كانت هناك علامات قليلة على مدى تغلغل الإيثار المتبادل بينهم. والآن نعلم أن الشمبانزي يتشاركون الطعام ويشكّلون إلى حدّ ما تحالفات دائمة. حيث يرعى الأصدقاء أحدهم الآخر ويتعاونون على درء المخاطر ومواجهة الأعداء. كما ويمنحون بعضهم بعضًا مداعبات مُطَمئِنة ومعانقات دافئة. وحينما يخون صديقٌ صديقه، يُلاحظ أن غضبًا عارمًا يتفجّر بينهم.

كما وتمرّ نظرية الإيثار المتبادل عبر اختبار علمي أساس، جماليّ في جوهره: اختبار الأناقة، أو سهولة التفسير: كلّما كانت النظرية أسهل، وكلما تعددت وتنوعت الأشياء التي تفسّرها، كلّما ازدادت «قَتْرًا». إذ من الصعب تخيّل شخص يعزل قوة تطورية واحدة وسهلة إلى حدّ ما، كالتي عزلها ويليامز وتريفرز، يُمكنها تفسير أشياء متنوعة بشكل معقول كالتعاطف، والكراهية، والصداقة، والعداء، والامتنان، والشعور القارص بالمسؤولية، والحساسية المفرطة تجاه الخيانة، وهكذا دواليك.

يُفترض أن الإيثار المتبادل لم يُشكّل نسيج العاطفة البشرية فحسب، بل والإدراك البشري كذلك. أظهرت ليدا كوزمايدس أن الناس بارعون في حل الألغاز المنطقية المحيّرة حينما تطرح الألغاز بشكل تبادل اجتماعي – ولا سيما حين يُبيّن موضوع اللعبة ما إذا كان أحدهم يغش. يقترح هذا على كوزمايدس أن وحدة «كشف الغشاشين» تقع في الأعضاء العقلية المسيطرة على الإيثار المتبادل. ولا شك بوجود المزيد الذي يتعيّن اكتشافه أيضًا.

معنى الإيثار المتبادل

أحد ردود الفعل الشائعة على نظرية الإيثار المتبادل هي عدم الراحة. ينزعج بعض الناس من فكرة أن دوافعهم الأنبل نابعة من حيل جيناتهم الأمكر. وهذه بالكاد استجابة ضرورية، لكن بالنسبة إلى من اختاروها، ربما يكون الانغماس التامّ مكفولًا. إذا كانت جذور الأنانية الجينية للتعاطف والإحسان أساسٌ لليأس فعلًا، إذن فاليأس الشديد سيأتي لاحقًا؛ لأنك كلّما

تأمّلت النقـاط الدقيقة للإيثار المتبادل أكثر، كلمّا زاد ظهور الجينات بوصفها مُرتزقة.

تأمّل مُجدَّدًا سـؤال العاطفة - وعلى الأخص ميلها للنمو بما يتناسـب مع مـأزق المرء. لماذا نشـعر بحزن أكبر تجاه شـخص يتضوّر جوعًـا مقارنة بآخر جائـع بعـض الـشيء؟ ألأنَّ الـروح البشريّـة شيء مهيـب مكـرّس لتخفيف المعاناة؟ احزر مرّة أخرى.

تنـاول تريفـرز هذا السـؤال عبر سـؤاله لماذا يتبايـن الامتنان نفسـه وفقًا للمحنة التي يُراد إنقاذ المُمتن منها. لماذا تمتنُّ بسـخاء على شـطيرة مُنحت لك بعد ثلاثة أيّام من التضوّر جوعًا في العراء بينما تُبدي امتنانًا معتدلًا تجاه عشاء دعيـت إليه في مسـاء يوم ما؟ وإجابته سـهلة ومعقولة وليسـت بالمذهلة: إن الامتنان، عبر عكس قيمة المنفعة المكتسـبة، يُعايرُ السـداد المكافئ. فالامتنان هو تعبير عن المديونية، وهو بطبيعة الحال يوثّق ما ندين به.

بالنسـبة إلى المسـتفيد، فإن مغزى القصّة واضح: كلما كانت محنة المستفيد أكثر يأسًا، زاد التعبير عن المديونية. والتعاطف مفرط الحساسية مجرّد نصيحة استثمارية عاليـة الدقّة. فإشـفاقنا الأعمق هـو أفضل صفقة لدينـا. قد ينظر أغلبنـا باحتقـار إلى طبيب طوارئ يُضاعف أجر سـاعات عمله خمس مرّات مـع مريـض على حافّة الموت. كُنّا لنصمه بالاسـتغلالي. كُنّا سنسـأل: «أليس عنـدك أدنى قـدر من التعاطف؟» ولو سـبق أن قرأ لتريفرز، كان سـيجيب: «نعم، إن عندي كثير منه. لكنّي صادق حول ماهيّة تعاطفي فحسب»، وربما هذا كفيل بتثبيط سخطنا الأخلاقي.

بالحديث عن السخط الأخلاقي: هو، كما التعاطف، يفترض طاقمًا جديدًا في ضوء الإيثار المتبادل. يلاحظ تريفرز أهميّة الوقاية من الاسـتغلال. فحتى في عـالم كومبيوتر آكسـلرود البسـيط، بتفاعلاتـه الثنائية المنفصلـة، كان على واحـدة بواحدة معاقبة الكائنات التي أسـاءت معاملتهـا. في العالم الواقعي، حيـث يُمكن للناس، تحت سـتار الصداقة، مراكمة ديـون كبيرة قبل التنصّل منها - أو الانخراط في سرقة صريحة - كان لا بُدَّ من تثبيط الاستغلال بشكل

أكثر تشـديدًا. وربما نتيجة لذلك يستعر سخطنا الأخلاقي ليقيننا العميق بأنّا ظُلمنـا، وأن الجاني يسـتحق العقاب. إن الفكرة الجليّة حدسـيًا لاسـتحقاق الجـاني العقاب، جوهر الحس الإنسـاني بالعدالة، هو، في هـذا المنظور، ناتجٌ من نتاجات التطور، حيلة وراثية سهلة.

الأمر المحيّر في البداية هو الشـدّة التي قد يبلغها السـخط الصالح. حيث يمكنها بدء العداوات التي من شأنها تقزيم الجريمة المزعومة، ما يؤدي أحيانًا لمـوت السـاخط. لماذا تحثّنا جيناتنا على أن نخاطر ولـو قليلًا بالموت من أجل شيء غير ملموس كـ«الشرف»؟ يشير تريفرز، في ردّه، أن «المظالم الطفيفة إذا ما تكرّرت على مدى الحياة فقد تؤدي لخسـائر فادحة»، وهذا ما يُبرّر «إظهار عدوانية شديدة عند تبيّن نوايا الخداع».

أمّا النقطة التي لم يُشر لها، ولكنّ كثيرين أشـاروا لها من بعده، أن السخط يكـون أكثر قيمة حينما يُشـهَدُ عليـه علنًا. فلو انتـشرت الأقاويل عن شرفك الرهيـب في الأرجـاء، بحيث يمنع شـجار دامي وحيد عـشرات الجيران من خداعك - ولو بشكل طفيف وبين فينة وأخرى - فإن الشجار كان يستحقّ الانخـراط فيـه. وفي مجتمـع الصياديـن جامعـي الثـمار، حيـث تكـون كافّة السـلوكيات معلنة تقريبًا، تُسافر الإشـاعات بشكل أسرع، وحيث الجمهور الفعّـال يشـهد الشـجار بتفاصيلـه. مـن الملاحـظ أنـه حتى في المجتمعات الصناعية الحديثة، حينما يقتل الذكور آخرون يعرفونهم، عادة ما يكون هناك جمهور. هذا النمط يبدو فاسدًا، إلّا من حيث علم النفس التطوّري. تُرى ما الذي يدفع أحدهم لارتكاب جريمة بوجود شهود؟

أظهر تريفرز كيف يُمكن للعبة الحياة الواقعية لمعضلة السـجين أن تصبح مراوغة بنحو معقّد، حيث تتكيف المشـاعر التـي تطورت لأجل غرض كي تخـدم آخـر. وبذلـك يُمكن أن يصبـح السـخط الصالح وضعية يسـتعملها المخادعون - بوعي أو من دونه - للهرب من دائرة الشبهة («كيف تجرؤ على الطعن بنزاهتي!»). والشعور بالذنب، الذي ربما كان له في الأصل دور يسير في دفع الديون المتأخرة، يمكن أن يبدأ في خدمة غرض ثانٍ: تحفيز الاعتراف

الوقائـي بالغش الذي يبدو اكتشـافه موشـكًا. (هل لاحظـت يومًا كيف أن للشعور بالذنب علاقة معيّنة باحتمال التعرض للاعتقال؟).

تتمثّل إحدى السمات المميزة للنظرية الأنيقة في استيعابها الرشيق للبيانات قديمـة العهد والمحـيّرة. في تجربة أجريت عام ١٩٦٦، كان الأشـخاص ممن خضعوا للاختبار الذين اعتقدوا بكسرهم آلة باهظة الثمن أكثر ميلًا للتطوّع في تجربـة مؤلمة، لكن بشرط اكتشـاف مكمن الضرر حصرًا. لو كان الشـعور بالذنب شـبيهًا بما يفترضـه المثاليون - منارة للإرشـاد الأخلاقي - ما كانت شـدّته لتعتمد على احتمال اكتشـاف الجريمة من عدمها. والتسـاؤل نفسه عمّا إذا كان الشـعور بالذنب، كـما يظنّه المعتقدون بانتقاء الجماعـة، حافزًا لتقديم التعويضـات العائـدة بالفائـدة عـلى الجماعة عمومًـا. ولكن لو كان الشـعور بالذنب، كما يقول تريفرز، مجرّد وسـيلة لإرضاء الجميع بمسـتوى معاملتك بالمثل، فلا يجب أن تعتمد شدّته على قدر آثامك، بل على من يعرف بها أو من سيعلم قريبًا عنها.

يُساعد المنطق نفسه على تفسير الحياة الحضرية اليومية. حينما نمرّ بمتسوّل، قـد ينتابنا شـعور بالانزعـاج لعجزنا عن مسـاعدته. لكن مـا يزعج الضمير حقًـا هو التواصل البصري معه والعجز عن مسـاعدته على الرغم من ذلك. يبـدو أننا لا نهتم بالإحجـام عن العطاء بقدر اهتمامنـا أن يرانا الآخرون غير معطائين. (وردًا على سـبب اهتمامنا برأي شـخص قد لا نصادفه مرّة أخرى يومًـا: ربـما كان جميع من نصادفهم في بيئة الأسـلاف ممن يغلب أن نُصادفهم مُجدَّدًا).

لا ينبغـي المغـالاة في زوال منطـق «صالـح الجماعة» أو إسـاءة فهمه. فقد حُلِّلَ الإيثـار المتبادل كلاسـيكيًا في مواقف ثنائية، ويكاد يكون نشـوءه بهذا الشـكل مؤكّدًا. إلّا أن تطوّر التضحية بالنفس ربما زاد تعقيدًا بمرور الوقت وعزز شـعورًا مـن الالتزام بالجماعة. تأمّـل (ليس بالمعنى الحـرفي تمامًا) جينًا «مُشكّلًا للأندية» يمنحك القدرة على التفكير في شخصين أو ثلاثة بوصفهم جـزءًا مـن فريـق موحّد؛ حيـث في حضورهم تسـتعمل إيثارك بشـكل أكثر

عموميّـة، مانحًا قدرًا أكبر من التضحيات لصالح النادي ككل. وقد تخاطر، مثلًا، في الانخراط ضمن مسـعى مشـترك في لعبة بريّة وتتوقع (بوعي أو من دونـه) مـن كل واحد منهم تعويضك في حملاتك المسـتقبلية. ولكن بدلًا من توقّـع تعويض مباشر، فإنك تتوقع منهم التضحيـة بالمثل لصالح «الجماعة»، كما فعلت أنت. كما ويتوقع بقية أفراد الجماعة المثل، ومن يفشل في تحقيق هذه التوقعات قد تُنهى عضويته، إمّا تدريجيًا أو ضمنيًا أو صراحةً.

قد تبدو البنية التحتية الجينية للناديويّة، كونها أكثر تعقيدًا من البنية التحتية للإيثار الثنائي، أقلّ احتمالًا. ولكن بمجرّد ترسيخ تشكيلة الثنائية، لن تمنع الخطوات التطوريّـة الإضافيـة ذلـك. كذلـك الحـال بالنسـبة إلى الخطوات اللاحقـة التي تسـمح بالولاء حتى للمجاميع الأكـبر. في الواقع فإن النجاح المتزايـد لأعداد الجماعـات الصغيرة الآخـذة في التزايد داخـل قرية صيادين جامعـي ثمار قد تكـون حافزًا داروينيًـا للانضمام إلى وحـدات أكبر، وبذلك رفـع حظوظهم في المنافسـة؛ حيث يُمكن للطفـرات الجينية التي عززت مثل هـذا الوِصال الازدهار. في النهاية يُمكن للمرء واقعًا تخيّل حجم القدرة على الـولاء والتضحيـة لصالح الجماعة بحجـم القبائل التي اسـتُعيرت في نظرية انتقاء الجماعة المتعلقة بالمشـاعر الأخلاقية لداروين. وعلى الرغم من ذلك لا يعاني هذا السـيناريو من تعقيداته الخاصة. إذ لا يتضمّن التضحية لأجل أي أحد ممّن لا يُجازون بالمثل في النهاية.

في الواقع إن الإيثار المتبادل لتشكيلة الواحدة بواحدة الكلاسيكية يُمكن أن ينتج، بنفسـه، سـلوكًا جماعيًا كما يبـدو. في الأنواع صاحبـة اللغة، إحدى الطرق الفعّالة وغير المُكلفة تقريبًا لمكافأة اللطفاء من الناس ومعاقبة اللئيمين هو عبر وسـم سـمعتهم بما يتلاءم مع صفاتهم. وإشـاعة خبر محاولة أحدهم خداعـك يُمثّل انتقامًا شـديدًا، بسـبب قيادته الآخرين حجـب إيثارهم عنه خوفًـا من التعرّض للخداع. ربما يسـاعد هذا على تفسـير تطـوّر «التظلّم» – ليـس فقط الشـعور بالظُلم، بل والرغبة في الإعلان عنـه أيضًا. يقضي الناس كثيرًا من الوقت في مُشـاركة مظالمهم أو الإنصات لمظالم الآخرين وتحديد ما

إذا كان التظلّم عادلًا ومن ثمّ تعديل مواقفهم تجاه المتّهم وفقًا لقرارهم.

ربما كان تريفرز، في شرحه لـ«السخط الأخلاقي» بوصفه وقودًا للعدوان الثأري، سابقًا للّعبة. ومثلما ألحظ كُلّ من مارتن دالي ومارغو ويلسون، إذا كان العدوان اليسير هدفك، فإن الشعور بالغضب الأخلاقي ليس ضروريًا؛ إذ سيعمل العداء المطلق بشكل جيد. ويُفترض أن تطوّر البشر وسط حشد من المتفرّجين - متفرّجين آراءهم تُعدّ فارقة - هو ما تسبّب بظهور البُعد الأخلاقي، وتبلور المظالم.

وسبب أهميّة آراء المتفرّجين يُمثّل سؤالًا آخر. إذ قد يفرضُ المتفرّجون، كما يضع كُلٌّ من دالي وويلسون الأمر، «عقوبات جماعية» بوصفها جزءًا من «عقدٍ اجتماعي» (أو بوصفها جزءًا من «عقد النادي» على الأقل). أو ربما، كما سبق واقترحت، كانوا بسهولة يتجنّبون مشاهير الجناة بدافع من المصلحة الذاتية، ما يؤدي لفرض عقوبات اجتماعية فعلية. كما وقد يفعلون بعضًا من كلا الأمرين. على أي حال يُمكن لإشاعة المظالم أن يؤدي إلى ردود فعل واسعة النطاق تعمل بوصفها عقوبات جماعية، وربما يصبح ذلك جزءًا حيويًا من الأنظمة الأخلاقية. قلّة من علماء النفس التطوّريين قد يختلفون مع رؤية دالي وويلسون الأساسية بأن «الأخلاق جهاز حيوان ذي تعقيد معرفي استثنائي، يسعى وراء مصالحه في فضاء اجتماعي غاية في التعقيد».

ربما يكون أكثر الأمور إحباطًا بشأن الإيثار المتبادل تسميته الخاطئة. فبينما «هدف» جيناتنا مع انتقاء القرابة مساعدة متعضيٍّ آخر، فمع الإيثار المتبادل يكون الهدف ترك الآخر مع انطباع بأننا ساعدناه بالفعل؛ والانطباع لوحده كافٍ لجذب المعاملة بالمثل. دائمًا ما يستلزم الهدف الثاني الأول في كومبيوتر آكسلرود، وغالبًا ما يكون المثل في المجتمع البشري. ولكن حينما لا يحدث ذلك - حينما يُمكننا أن نبدو لطفاء من دون أن نكون لطفاء حقًا، أو نكون لئيمين بما يحقّق لنا الفائدة من دون تكلفة - فلا يُفاجئك ظهور جزء قبيح من الطبيعة البشرية إلى السطح. وبالنتيجة نجد أن الخيانات السريّة من جميع الرتب موجودة، بدءًا من الخيانات اليومية الهينة وصولًا إلى الشكسبيريّة.

ومن هنا جاء الميل العام لتلميع السمعة الأخلاقية؛ والسمعة هي هدف اللعبة بالنسبة إلى هذا الحيوان «الأخلاقي». ومن هنا أتى النفاق؛ إذ يبدو وأنه نابع من قوّتين طبيعيتين: الميل إلى التظلّم - فضح خطايا الآخرين - مع الميل إلى طمس خطايانا الخاصّة.

يُعدّ تطوّر تأملات جورج ويليامز عام ١٩٦٦ بشأن العون المتبادل ضمن هيكل تفسيري مقنع أحد إنجازات القرن العشرين العظمى. وقد اشتملت على أدوات حديثة بارعة وواضحة للتحليل، مُحقِّقةً نتائج غاية في الأهمّيّة. وعلى الرغم من أن نظرية الإيثار المتبادل لم تثبت بالمعنى الذي تُثبتُ فيه نظريات الفيزياء، إلّا أنها تحظى بثقة كبيرة في مجال الأحياء، ولا بُدّ لهذه الثقة من النمو مع زيادة وضوح الارتباط بين الجينات والدماغ البشري في العقود القليلة القادمة. وعلى الرغم من أن النظرية ليست بمثل غموض وتعقيد نظريات الجاذبية أو ميكانيكا الكمّ، إلّا أنها في النهاية قد تغيّر النظرة العالمية للبشر بوصفهم نوعًا بشكل أعمق وأشْكَل.

الفصل العاشر

ضمير داروين

«في النهاية، هو شعورٌ في غاية التعقيد، أصله الأول في الغرائز الاجتماعية، مُسترشد إلى حد كبير باستحسان رفاقنا الرجال، محكوم بالعقل والمصلحة الذاتية، وفي أوقات لاحقة بمشاعر دينية عميقة، ومؤكّدٌ بالتعليمات والعادات، كل ما سبق مُجتمعًا يُشكّل حسّنا الأخلاقي وضميرنا».

أصل الإنسان (١٨٧١)

يُنظر لداروين أحيانًا على أنه رجل في غاية الخُلُق. وباستذكار تقييم أحد كُتّاب سيرته وهو الطبيب جون بولبي الذي وجد ضمير داروين «مفرطَ النشاط» و«مترفّعًا». وبينما كان مُعجبًا بافتقار داروين لـ«التصنّع» وبـ«مبادئه الأخلاقية القويّة»، آمن بولبي أن «هذه الصفات قد تطورت للأسف قبل أوانها وإلى درجة مفرطة»، تاركة إيّاه «عرضة لوخز الضمير» و«فترات من القلق المزمن ونوبات الاكتئاب الشديد نسبيًا».

كان وخز الضمير في الواقع طبيعة ثانية بالنسبة إلى داروين. حيث يقول مستذكرًا مرحلة طفولته: «كنت أظن أن الناس مُعجبون بي، تارة لمثابرتي وتارة لجرأتي في تسلّق الشجرة المنخفضة،» والشعور في الوقت نفسه «بأني

تافـه وغـير جديد بـشيء»، وبعد بلوغه، أصبـح النقد الذاتي نوعًـا من القراد بالنسبة إليـه، تواضـع عكـسي التأثير؛ حيـث تضمّن جـزءًا لا بـأس به من مراسـلاته الضخمة اعتذارات عن نفسه. إذ كتب في مراهقته: «أعتذر لكون هذه الرسـالة مُشـتّتة بشـكل صادم»، وفي عشرينياته: «أجد أني أكتب أَنْفَسَ أنـواع الهراء»، وفي ثلاثينياتـه: «لقد كتبت خطابًا مملًا وطويلًا بنحو لا يُعقل، لذا أستودعك»، وهكذا دواليك.

كان الليل بمثابة وليمة بالنسـبة إلى شـكوك داروين. ومن ثمّ، وفقًا لابنه فرانسـيس، «أيًـا كان ما يغيظـه أو يضايقه في أثناء النهار، يُطـارده في الليل»، كان يستلقي مستيقظًا مُعيدًا صياغة محادثة أجراها مع أحد الجيران لقلقه من أنـه ربما أسـاء لـه بطريقة ما. وكان النوم يجافيه بسـبب رسـائل لم يَزل لم يُجِب أصحابها. يستذكر فرانسيس: «اعتاد القول إنه إن لم يُجبهم، فإن تخلّفه سيُثقل ضميره لاحقًا».

لقد غطّت مشـاعر داروين الأخلاقية ما هو أكثر بكثير من مُجرّد التزاماته الاجتماعية. فبعد سنوات عدّة من رحلة البيغل، كانت ذكرى العبيد المُعذّبين في البرازيل لا تزال تقضّ مضجعه. (على متن البيغل، كان قد أغضب القبطان بسبب سخريته من الدفاع عن العبودية)، بل إن داروين لم يحتمل حتى معاناة الحيوانات. حيث يتذكره فرانسـيس وهو عائد مرّة من نزهة «شاحبًا ومنهكًا لرؤيته حصانًا تُساء معاملته، ومن احتجاجه العنيف ضد سائسه»، لا وجود لاعتراض على وجهة نظر بولبي: كان ضمير داروين مؤلمًا للغاية.

ثـمّ مرّة أخـرى لم يَعدنا الانتقـاء الطبيعي بحديقة زهور. إنـه لا «يريدنا» أن نكون سُـعداء، بـل منتجين ووراثيًا. وفي حالة داروين لم يكن الأمر شـديد السـوء. إذ رزق بعشرة أطفال، نجا سـبعة منهم حتى سن الرشد. لذلك بينما نحـاول تبيّن بعـض الصفات الأصلح التي صمّمها الانتقـاء الطبيعي داخل الضمير، فلا وجود لسـبب يمنع اسـتعمال ضمير داروين كالعرض أ: مثالٌ على التكيّف الذي يبدو سـلبيًا في أساسه. في حال همزه لفعل أشياء من شأنها تضخيم إرثه الجيني، فقد فعل ما صُمّم لأجله، حتى لو آلمه الهَمْز.

إن السعادة عظيمة بالطبع، ولا حصر للأسباب التي تُسوغ السعي نحوها، ولا حصر أيضًا للأسباب التي تدفع الأطباء النفسيين لمحاولة غرسها في مرضاهم، ولا سبب لديهم لقولبة أنواع الأشخاص بما «يريده» الانتقاء الطبيعي لهم. لكنّ المعالجين النفسيين سيكونون أفضل جاهزية لإسعاد الناس بمُجرّد فهم ما «يريده» الانتقاء الطبيعي، وكيف «يحاول» تحقيقه بما يتعلّق بالبشر. ما الوسائل العقلية المرهقة التي وجدنا أنفسنا محاصرين معها؟ وكيف يُنزع فتيلها، إن كان ذلك ممكنًا من الأصل؟ ومقابل أي ثمن - بالنسبة إلينا أو للآخرين؟ يُمكن أن يساعدنا فهم ما هو مرضي وغير مرضي من وجهة نظر الانتقاء الطبيعي على مواجهة الأشياء التي تُعدّ مرضيّة من منظورنا نحن. وأحد سُبُل تحقيق هذا الفهم عبر محاولة وتبيّن متى كان ضمير داروين عاجزًا؟ ومتى لم يكن كذلك؟

حيلة رخيصة

إحدى السمات البارزة للمكافآت والعقوبات التي يقتضيها الضمير هي افتقارها للحسيّة. إذ إن الضمير لا يجعلنا نشعر بالسوء الذي يُشعرنا به الجوع، أو النشوة مع الجنس. بل يشعرنا كما لو أننا فعلنا أمرًا صائبًا أو خاطئًا. مذنب أم غير مذنب. إن لمن المدهش أن عملية محايدة أخلاقيًا وبراغماتيّة باردة كالانتقاء الطبيعي بإمكانها تصميم عضو عقلي يجعلنا نشعر كما لو كنا على صلة بحقائق أسمى. حيلة رخيصة بحق.

لكنّها فعّالة، وستجدها فعّالة بمستوى عالمي. لقد كفل انتقاء الأقرباء أن الناس في كل الأرجاء سيشعرون بالذنب في أعماقهم، ولنقل، لإلحاقهم الأذى الشديد أو إهمالهم أخًا أو أختًا أو ابنةً أو ابنًا أو حتى ابن أخ أو ابنة أخت لهم. وقد أدى الإيثار المتبادل لتوسيع الشعور بالالتزام - انتقائيًا - لما يتجاوز دائرة القرابة. هل هناك ثقافة واحدة تعدّ إهمال الصديق سلوكًا نزيهًا ومقبولًا على نطاق واسع؟ والجميع سيتشكّك حال ادّعاء أنثروبولوجي وجود واحد كذلك.

ربما ترك الإيثار المتبادل بصمة أكثر بروزًا في الضمير كذلك. قبل بضعة عقود، حاول عالم النفس لورنس كولبيرغ بناء تسلسل طبيعي لتطور الأخلاق البشرية، يبدأ من المفهوم اليسير للطفل الصغير عن «السيئ» (الذي يعاقب الأهل عليه) وصولًا إلى القانون الأساس. وكلما علا ارتفاع سلّم كولبيرغ، وصولًا لتلك الرتبة التي يشغلها الفلاسفة الأخلاقيّون (وكولبيرغ أيضًا كما نفترض)، كلّما ابتعد عن أكثر عن الأنواع الأنموذجية. لكن يبدو التقدّم عبر ما دعاه «المرحلة الثالثة» معيارًا ثابتًا في مختلف الثقافات. تستلزم هذه المرحلة رغبة في أن يكون المرء معروفًا بـ«اللطف» و«الخير». وهذا يعني: رغبة في أن تُعرف بوصفها مؤثِرًا متبادلًا موثوقًا، امرئ لا يخاف الآخر مشاركته بنحو مربح لكلا الطرفين. يساعد هذا الباعث في منح القوانين الأخلاقية التوافقية قوّتها الهائلة؛ جميعنا نرغب في أن نفعل - أو أن نُرى تحديدًا بأننا نفعل - ما يراه الجميع صالحًا.

خلف هذه الأنواع من الأبعاد الأساسية والعالمية كما يبدو للحسّ الأخلاقي، بدأت محتويات الضمير في التباين. لا يقتصر الأمر على اختلاف الأعراف الخاصة التي يفرضها الثناء واللوم الجماعي بين ثقافة وأخرى (تذكير آخر بالتنوع الهائل الذي تسمح به الطبيعة البشرية)؛ في أيّ ثقافة، تتباين صرامة الامتثال من شخص لآخر. بعض الأشخاص، مثل داروين، لديهم ضمائر كبيرة وشديدة بحيث يُجافيهم النوم مُتفكّرين في ما اقترفته أيديهم. وبعضهم الآخر ليسوا كذلك.

الآن يُفترض أن لبعض جوانب وساوس داروين فريدة القوة علاقة بجيناتٍ فريدة. يقول علماء الوراثة السلوكية: إن نسبة ما موروث من مجموعة السمات التي يدعونها «الضمير الحي» هي ما بين ٣٠ و ٪٩ , ٤٠، أي حوالي ثلث الاختلافات بين الناس (في البيئة الاجتماعية الأنموذجية لأواخر القرن العشرين على الأقل) يُمكن أن تُحال إلى جيناتهم المختلفة. لكن ذلك يترك ما يُعادل الثلثين مُحالًا إلى البيئة. ويبدو أن الضمير، في جزء كبير منه، مثال على المفاتيح التي وهبتها الجينات للطبيعة البشرية والتي تُضبط بيئيًّا بسُبُلٍ

وخيارات عدّة. يشعر الكل بالذنب، ولكن ليس الكُلّ يشعر بالذنب فعلًا، كما داروين، تجاه المحادثات اليومية. ويتعاطف الكل مع المعاناة الإنسانية في أحيان، وفي أخرى (ولو لمدة وجيزة) يكون للمعاناة ما يُبررها، وللقصاص المُنزل ما يُبرّره. لكن تقترح حقيقة تعذيب العبيد بوحشية في البرازيل في أثناء زيارة داروين أن ما شعر به حول متى يجب التعاطف أو إنزال العقاب تعاقبًا بنحو عادل لا يشاركه فيها الجميع.

الأسئلة المترتّبة هي: لماذا منحنا الانتقاء الطبيعي ضميرًا مرنًا إلى حدّ ما، بدلًا من ترسيخ مضامينه فطريًا؟ وكيف رتّب الانتقاء الطبيعي بحيث يُشكّل الضمير؟ لماذا وكيف تُضبطُ المفاتيح الأخلاقية للطبيعة الإنسانية؟

أمّا بالنسبة إلى سؤال «كيف»: فقد رأى داروين نفسه ضبطه الأخلاقي بوصفه أمّرًا يبدأ باكرًا وبتوجيه الأقرباء. أن بإمكانه تسمية نفسه، عمومًا، «فتى إنسانيًا» ينسب فضل ذلك إلى «تعاليم وأماثيل أخواتي. وأشكّ حقًّا فيما إذا كانت الإنسانية صفة طبيعية أو فطرية»، كانت خططه لبدأ مجموعة حشراته معقدة حينما «استنتجتُ عند استشارة أختي أن من غير الصواب قتل الحشرات سعيًا لتشكيل مجموعة».

كانت عريفة الأخلاق بالنسبة إلى داروين صاحب الثامنة هي أخته كارولين التي تكبره بتسع سنوات، والشاغلة لدور الأم البديلة بعد وفاة والدتهما عام ١٨١٧. يذكر داروين أن كارولين كانت «حريصة كُلّ الحرص على تربيتي؛ إذ أتذكّر جيّدًا ... وقتما كنت أُقبل على دخول غرفة هي فيها - أيّ لائمة ستلقي بها عليّ الآن؟».

كان والد داروين كذلك قوّة لا يُستهان بها، رجلًا ضخمًا مهيبًا وصارمًا في أحيان كثيرة. وقد ولّدت شدّته نظريّات جمّة عن الديناميكا النفسية بين الأب وابنه، وغالبًا ما لم تكن بالنظريّات المُثنية على الآباء. لخّص أحد كُتّاب سيرة داروين صورة عامّة عن والده روبرت داروين: «كان دوره في المنزل دور متنمّر وتأثيره على ابنه كارثة مستمرّة من العصاب والعجز».

إن تشديد داروين على التأثير الأخلاقي للأقرباء تأكّد عبر علم السلوك.

يعمـل الآبـاء وبقية ذوي السـلطة، بضمنهم الأقارب كبار السـنّ، بوصفهم نـماذج قياديّـة ومُعلّمين، يصقلون الضمير بالثناء واللـوم. وهذه بالذات هي الطريقة التي وصف بها فرويد تشـكيل الأنا العليا - والتي تشـمل، بحسب مُخطّـط فرويـد، الضمير - ويبدو كأنه بلغها بنحو صحيـح. كما ويُقدّم أولياء الأطفال ملاحظات إيجابية وسلبية تعمل على تمكين انسجامهم مع الأعراف السائدة.

مـن المنطقـي بالطبع أن يوجـه الأقارب تطويـر الأخلاق بنحو حاسـم. وبسـبب مشـاركتهم كثيرًا من الجينات مع الطفل، فإن لديهم سببًا قويًا، وإن كان محـدودًا، لمنحهم إيّاه النصح. وبالمنوال نفسـه، لـدى الطفل كافّة ما يُبرّر اتباعه لها. هناك سـببٌ، كـما يلحَظُ تريفرز، يدعو للتشـكّك في الجزء المتعلّق بالطفل - سـببُ لاستبعاد، على سـبيل المثال، مواعظ الوالدين عن المشاركة والتسـاوي بـين الأخـوة. لكن في المجـالات الأخـرى - كيفيـة التعامل مع الأصدقـاء والغربـاء - تبدأ أسُـس تلاعب الآباء بالتضـاؤل، وبذلك تزدهر أسس طاعة الأبناء. وعلى أي حال، من الواضح أن لصوت الأقارب المقرّبين صـدى فريدًا. يقول داروين: إن اسـتجابته لزَنِّ أختـه كارولين المزعج كانت عبر جعل نفسه «عنيدًا لدرجة عدم الاهتمام بما تقول». وسواء أنجح في ذلك أم لا فذلك سـؤال آخر. في رسـائله لكارولين المبعوثة مـن الكلية، اعتذر لها عن خطّ يده وبذل جهودًا مضنية في إقناعها بالتزامه الديني، وأظهر بالعموم قلقًا بشأن رأيها فيه.

كـما ويبـدو أن قنـوات التأثـير الوالدي ظلّـت مشرعة الأبـواب في دماغ داروين. كان داروين الصغـير يُمجّـد والـده وظـلّ وفيًا لذكـرى نصائحه السـديدة وتوبيخاته القاسـية - «إنك لا تهتم لشيء سـوى الرماية والكلاب واصطيـاد الجـرذان، وسـتكون مصـدر خـزي لنفسـك وعائلتك عـلى حدّ سواء». لقد أمل مُخلصًا وسعى جاهدًا لنيل قبول والده. يقول تشارلز: «أظنّ أن والـدي ظلمني بعض الشيء حين كُنـت صبيًا، غير أني صرت مُمتنًا لاحقًا لظنّي أني أصبحت المفضّل بالنسـبة إليـه». حينما أدلى داروين بملاحظته هذه

لإحدى بناته، ترك ذلك عندها «ذكرى مشرقة عن تعبير الاستغراق السعيد الذي صاحب الكلمات»، كما لو أن «الذكرى تركت إحساسًا عميقًا بالسلام والامتنان»، وكلما زاد عدد من يتشاركون هذا الإحساس بالسلام - كلما زاد من يعانون من الشعور بالغضب تجاه رفض آبائهم لهم، ولا سيما في مرحلة البلوغ - ازدادت مصداقيّة الشهادة على قوّة هذه العُدّة العاطفيّة وهي تعمل.

ماذا عن سؤال «لماذا»؟ لماذا جعل الانتقاء الطبيعي الضمير مرنًا؟ المؤكّد أن أقرباء داروين كانوا المزوّدين الطبيعيين للنصح الأخلاقي النافع؛ ولكن ما هو النافع فيه؟ ما هو القيّم للغاية، من منظور الجينات، بشأن التكلفة الكبيرة للإحساس بالذنب الذي قضّ مضجع داروين الصغير؟ وعلى أي حال، لو كان الضمير الكبير قيّمًا للغاية، فلِمَ لا ترسّخه الجينات في الدماغ؟

بدأ الجواب بحقيقة أن الواقع أعقد من كومبيوتر روبرت آكسلرود. في بطولة آكسلرود، انتصرت جماعة من إلكترونيات واحدة بواحدة ثم عاشت سعيدة إلى الأبد بتعاون متبادل. كان لهذا التمرين قيمة في إظهار كيف يُمكن أن يتطور الإيثار المتبادل وبذلك اقتراح سبب امتلاكنا كلنا للعواطف التي تحكمه. ولكننا بالطبع لا نستعمل هذه المشاعر مع الثبات اليسير لواحدة بواحدة. بعض الأحيان يكذب الناس أو يخونون أو يسرقون - وقد يسلكون، بالعكس من واحدة بواحدة، هذه السلوكيات حتّى ضد من كانوا لطفاء معهم. الأكثر من ذلك: أن الناس في أحيان يزدهرون بهذه الطريقة. يقترح امتلاكنا لهذه القدرة على الاستغلال وإتيانها ثمارها في أحيان أن هناك أوقات في أثناء التطور كانت فيها معاملة اللطفاء بلطف ليست الاستراتيجية المثلى جينيًا. قد نمتلك كلنا آلية الواحدة بواحدة، إلّا أن لنا آليات أقلّ إثارة للإعجاب. والسؤال الذي نواجهه هو أيّ الآليّات علينا استعمالها. ومن هنا تأتي القيمة التكيّفية للضمير المرن.

كان هذا، على الأقل، اقتراح تريفرز في ورقته الصادرة عام ١٩٧١ عن الإيثار المتبادل. حيث أشار إلى أن المردود المستحصل من مساعدة الآخرين - ومردود خيانتهم وغشّهم - يعتمد على البيئة الاجتماعية التي نجد أنفسنا

فيهـا. والبيئـات تتغيّر بمرور الزمن. لذا «قد يتوقّـع المرء من الانتقاء تفضيل المرونة التطوّرية لتلك السمات الضابطة لنزعات الإيثار والغش واستجابات هـذه الميـول لدى الآخريـن»، وبذلك فـإن «الشـعور المتنامـي بالذنب لدى المُتعـضّي» قد «يُثقّف، ربما بمعونة الأقارب جزئيًا، وذلك للسـماح بترخيص أشـكال الغـش التـي تجعلها الظـروف المحلّيـة تكيّفًـا وتثبيط تلـك التي لها عواقب شديدة الخطورة»، باختصار: إن «التوجيه الأخلاقي» تعبير مُلطّف. فالآبـاء مُصمّمون لتوجيه الأبناء ناحية السـلوكيات «الأخلاقية» بقدر ما في هذه السلوكيات من خدمة للذات فقط.

مـن الصعـب تحديـد الظـروف الدقيقة التـي منحـت، في أثنـاء التطور، الاسـتراتيجيات الأخلاقية المختلفة قيمتها. فقد تكون هناك تغييرات دورية في حجم القرى أو كثافة الطرائد الكبيرة أو المفترسـات المُهدّدة. وأيّ واحدة من هذه بمقدورها التأثير على كمّ وقيمة المسـاعي التعاونية المتاحة محلّيًا. إلى جانب ذلك، كل شـخص يولد لعائلة تحتل مكانة معينة في البيئة الاجتماعية، وكل شـخص له رصيد ومسـؤوليات اجتماعية معيّنـة. يُمكن لبعض الناس الازدهار من دون أخذ مخاطرة الغش، وبعضهم الآخر ليسوا كذلك.

ومهما كان السبب الذي جعل الانتقاء الطبيعي يمنح جنسنا استراتيجيات إيثار متبادل مرنة، فإن ورود المرونة سـيزيد من قيمتها. وبمُجرّد انتقال رياح التعـاون السـائدة – مـن جيل إلى آخر، ومـن قرية إلى أخرى مجـاورة، أو من عائلة إلى الثانية – تكوّن هذه الانتقالات قوى لا يستهان بها، والاستراتيجية المرنة هي السـبيل إلى ضبطها. وكما أظهر آكسـلرود، تعتمد قيمة استراتيجية معيّنة كليًّا على الأعراف المحليّة.

لـو كان تريفـرز عـلى حـق، إذا كان تكوين ضمير شـاب يعتمـد جزئيًا على تعليمات عن الغش المربح (والوقاية المربحة من التعرّض للغش)، إذن فإنك قد تتوقّع أن يكون أطفالك بارعين في تعلّم الخداع. ويبدو أن هذه استهانة لو صحّ التعبير. كتب جان بياجيه في دراسـته للتطوّر الأخلاقي عام ١٩٣٢ أن «النزعة إلى الكذب طبيعية .. فطريّة وعالمية»، وقد أثبتت دراسة لاحقة زعمه هذا.

يبـدو مؤكـدًا أن داروين كان كاذبًا بالفطـرة - «أعطيت كثـيرًا لابتكار الأكاذيب المدروسـة»، على سـبيل المثال، «جمعت مرّة كمًّا مـن الفاكهة القيّمة من أشـجار والدي وخبّأتها بين الشجيرات، ثم سارعت أجري في لهاث كي أنشر إشـاعة اكتشافي كنزًا من الفاكهة المسروقة»، (كما فعل بحق إلى حد ما)، وقليلًا ما تنزّه من دون زعْم رؤيته «تُدْرُجًا أو طائرًا غريبًا آخر» سـواءٌ أكان ذلـك حقيقـة أم لا. وفي مرّة أخبر صبيًا أن «بإمكاني إنتاج زهور ربيع متنوعة الألـوان زاهية عبر سـقيها بسـوائل ملوّنة معيّنة، وهو مـا كان بالطبع حكاية خيالية، إذ لم يسبق لي تجربة ذلك».

الفكـرة هنا أن أكاذيـب الطفولة ليسـت مرحلة جنوح مسـالم نتجاوزها بسلالسـة، لكنهـا الأولى من سلسـلة اختبارات عـن التضليـل المُربح نداوم عـلى إجرائهـا. وعبر التعزيـز الإيجـابي (للأكاذيـب المثمرة وغير المكتشـفة) والسلبي (بالنسبة إلى الأكاذيب التي يفضحها الأقران، أو التي يوبخنا عليها الأقـارب) نتعلـم ما يُمكننا الإفـلات منه وما لا يُمكننا، ومـا يعدّه ولا يعدّه أقرباؤنا خداعًا حكيمًا.

ندرة إلقاء الآباء محاضرات على أطفالهم عن فضائل الكذب لا تعني أنهم لا يعلمونهم إيّاه. إذ يبدو أن الأطفال سـيداومون على الكذب ما لم يصدّهم أحد عن ذلك. ولا يزداد احتمال تحوّل الأطفال ممّن يغلبُ على آبائهم الكذب إلى كاذبـين مزمنـين فقط؛ بـل وكذلك ممّـن يفتقـرون إلى الإشراف التربوي الدقيـق للأبوين كذلك. فإذا امتنع الآباء عن صـدّ أنواع الكذب التي أثبتت فائدتهـا لهم - وإن كانـوا يتداولون مثل هذه الأكاذيب أمـام أبنائهم - فإنهم بذلك يُقدّمون درسًا متقدّمًا بالكذب.

كتـب أحـد علـماء النفـس، «لا شـكّ أن الكذب مثـير؛ وذلـك معناه أن التلاعب نفسـه، وليـس الفوائد المترتّبـة عليه، يُحفّز الأطفـال على الكذب». إن هـذه الثنائيّة مُضلّلة. يُفترض أن الانتقاء الطبيعي جعل الكذب التجريبي مثـيرًا لما في الكـذب البارع من فوائد. ومرّة أخرى: يُـمارس الانتقاء الطبيعي «التفكير»؛ بينما نمارس نحن «الفعل» نفسه.

يستذكر داروين اختلاق القصص لأجل «متعة إثارة الانتباه والإدهاش المحضة». فمن ناحية، «أفترض أن هذه الأكاذيب، حينما لا تُفضح، تُحمّس انتباهي [و]عبر توليد تأثير كبير على عقلي، فإنها تمنحني السعادة، كما المأساة». من ناحية أخرى، فإنها تتركه في أحيان مع شعور بالخزي. هو لا يفشي عن السبب، إلّا أن هناك احتمالين يطرآن في الذهن. الأول: أن بعض الأكاذيب فضحها أطفال شَكوكون. والآخر: أن الكذب تسبّب بتوبيخه من قبل أقربائه الأكبر سنًّا.

في كلا الحالتين، كان داروين يستحصل مراجعات على مدى ملاءمة أكاذيبه لبيئته الاجتماعية. وفي كلتا الحالتين، لهذه المراجعات تأثير مُحتسب. ففي حلول بلوغه الرشد، كان يُعدّ من بين الصادقين طبقًا للمعايير المعقولة جميعها.

إن تمرير التعليمات الأخلاقية من الكبار إلى الصغار يوازي انتقال المعلومات الجينية، بل وفي أحيان يتعذّر التمييز بين آثارهما. كتب صامويل سمايلز في كتابه المساعدة الذاتية: «وهكذا تتكرّر شخصيّات الوالدين باستمرار مع الأبناء؛ وصنائع المودّة والتأدّب والمثابرة والانضباط، التي يتعرّضون يوميًا لها، يعيشونها ويتصرّفون وفقها حينما يتمّ تناسي كُلّ ما تلقّنوه سمعًا... من الذي يُمكنه أن يعرف مقدار الشرّ الذي قمعه الآباء الصالحون، ممّن لم يلطخوا ذكريات أطفالهم بارتكاب فعل حقير، أو التساهل مع فكرة غير قويمة؟».

إنّ أمانة التوريث الأخلاقي تظهر جليّة مع داروين. فعندما يُطري على والده في سيرته الذاتية - ذاكرًا كرمه وعطفه - ربما كان يتحدّث بذلك عن نفسه. وسيعمل داروين أيضًا على تزويد أطفاله بمهارات إيثار متبادل راسخة، تتراوح من الاستقامة الأخلاقية وحتى الدماثة الاجتماعية. كتب إلى أحد أبنائه في المدرسة: «عليك بالكتابة إلى السيد وارتون: والأفضل أن تبدأ خطابك بعبارة: 'سيدي العزيز' . . . ثمّ تنهيها بالقول: 'أشكرك والسيدة وارتون على كلّ اللطف الذي قدّمتماه لي. أنا مُمتنٌّ لكما حقًا'».

لم يكن للانتقاء الطبيعي وسيلة لتوقّع بيئة داروين الاجتماعية. لا يتضمّن البرنامج الجيني البشري لتخصيص الضمير خيارًا مُعنونًا بـ«رجل يلائمُ إنكلترا الفيكتوريّة». لهذا السبب (من بين أسباب أخرى) علينا ألّا نتوقع من تجربة داروين المبكّرة تشكيل ضميره تكيّفيًا بالكامل. ومع ذلك فإن بعض الأشياء التي يُفترض بالانتقاء الطبيعي «توقّعها» - على سبيل المثال، وجوب تباين المستوى المطلق للتعاون المحلّي من بيئة لأخرى - واردة في أي مكان وزمان. من الجدير رؤية ما إذا كان التطوّر الأخلاقي لداروين قد جعله مؤهّلًا للازدهار أم لا.

إن السؤال عن كيف أثبت ضمير داروين فائدةً كما السؤال عن كيف أثبت الضمير الفيكتوري نفسه فائدة. فقد كانت بوصلة داروين الأخلاقية، بعد كل شيء، مُجرّد نسخة أكثر حدّة من الأنموذج الفيكتوري الأساس. يشتهر الفيكتوريون بتركيزهم على «الشخصية»، وكثير منهم، في حال أُلقوا بيننا، سَيَبدون أكثر جدّية وضميرًا، على الرغم من أن ما يظهروه سيكون أقلّ من الذي كان لداروين.

كان جوهر الهويّة الفيكتورية «الصدق والنزاهة والصلاح»، وفقًا لصامويل سمايلز، «النزاهة قولًا وفعلًا هي عمود الشخصية»، كما كتب في المُساعدة الذاتية، «والالتزام الأمين بالصدق أبرز ما يُميّزها». لاحظ التفاوت مع «الشخصية»، مزيج السحر والإثارة وغيرها من البهارج الاجتماعية التي قيل لنا: إنها قد حلّت في القرن العشرين محلّ الهويّة بوصفها معيارًا للإنسان. يُلاحظ أحيانًا أن هذا الاختلاف مع الاقتراح المؤلم بأن القرن الحالي هو قرن الانتكاس الخُلقي والأنانيّة المتفشّية. بعد كل شيء تمنح «الهويّة» الصدق أو الشرف قيمة قليلة، وتبدو بوضوح بوصفها آلة للتقدّم الذاتي.

تتمتّع ثقافة الشخصية بشعور سطحي، ومن السهل أن يراودها الحنين إلى الأيّام التي لم تكن فيها المداهنة المُطلقة بالخيار الذي يأخذك بعيدًا. لكن هذا لا يعني أن عهد الهويّة كان حقبة من النزاهة المُطلقة، لم تُلوثه المصلحة

الذاتية. إن كان تريفرز مُحقًا بشأن سبب مرونة الضمير، فـ«الهويّة» قد تكون مما يصبّ في صالح الذات.

الفيكتوريون أنفسهم لم يتردّدوا بشأن استعمالات الهويّة. اقتبس صامويل سمايلز رجلًا، بعد نيل موافقته، «يتمتّع باستقلال مُطلق من حيث المبدأ والالتزام الصارم بالحقيقة» والذي أشار إلى أنّ طاعة الضمير هي «الطريق نحو الرخاء والثروة»، لاحظ سمايلز نفسه أن «الهويّة هي القوّة» («بمعنى يفوق كثيرًا القول إن المعرفة هي القوّة»). واقتبس العبارات الحماسية التي قالها رجل الدولة جورج كانينغ: «طريقي لابدّ أن يكون عبر الهويّة إلى القوّة؛ لن أجرّب مسالك أخرى؛ وأنا متفائل كفاية للاعتقاد أنّ هذا الطريق، وإن لم يكن الأسرع، فهو الأضمن».

إذا كانت الهويّة مواتية جدًا للترقّي هذه الأيام، فلماذا كانت أفضل في السابق مما هي عليه الآن؟ هذا ليس مكانًا لأطروحة داروينية عن التاريخ الأخلاقي، لكنّ أحد العوامل المحتملة يبدو واضحًا: معظم سكان إنجلترا الفيكتورية عاشوا فيما يعادل مدينة صغيرة تقريبًا بمقاييس اليوم. من المؤكّد أن التحضّر كان يسير على قدم وساق، وبذلك فقد كان عهد طمس الهويّة يقترب. لكن بالمقارنة مع اليوم، كانت الأحياء، حتى في المناطق الحضرية، مُستقرّة. يميل الناس للبقاء في أماكنهم، ومقابلة ذات الجماعة الصغيرة من الأشخاص عامًا بعد آخر. وهذا ينطبق كثيرًا على مسقط رأس داروين، قرية شروزبري قديمة الطراز. لو كان تريفرز على حقّ - إن كان الضمير اليافع يتشكّل، بمعونة الأقارب، لملائمة البيئة الاجتماعية المحلية - فشروزبري إذن هي المكان الذي قد نتوقّع أن يؤتي فيه وازع داروين ثمارًا.

هناك سببان على الأقل يجعلان النزاهة والأمانة منطقيين في محيط اجتماعي صغير ومستقرّ. الأول: أن (مثلما يعرف كل شخص عاش في بلدة صغيرة) لا مهرب من ماضيك. في فصل من كتاب المُساعدة الذاتية عنوانه «كُن كما تبدو»، كتب سمايلز، «على الرجل أن يكون تمامًا مثلما يبدو مُتطلّعًا لأن يكون... إن الرجال الذين تتعارض أفعالهم مع أقوالهم لا يحظون بالاحترام،

ولا وزن يُقام لما يقولونه». ينقل سمايلز طُرفة عن رجل يقول «سأمنحك ألف باوند لقاء أخذ سمعتك الطيّبة لنفسي». «لماذا؟» «لأنّي سأكسبُ من ورائها عشرة آلاف». إن داروين الموصوف بلسان إيّما ويدجوود الشابّة – «الرجل الأكثر انفتاحًا وشفافية ممّن رأيت على الإطلاق، وكل كلمة ينطق بها تُعبّر عن أفكاره الحقيقية» – هو رجل مجهّز جيّدًا للازدهار في شروزبري.

كان كومبيوتر آكسلرود شبيهًا جدًا بشروزبري: تتقابل ذات الجماعة الصغيرة من الهويّات، يومًا بعد يوم، حيث يتذكّر الجميع كيفيّة التصرّف الأخير الذي واجهه. وهذا بالطبع سبب رئيس لفائدة الإيثار المتبادل داخل الكومبيوتر. ولو جعلت عالم الكومبيوتر أكثر شبهًا ببلدة صغيرة، عبر السماح لكائناته بتبادل النميمة عمّن يتسم بحُسن الخُلق ومن لا يتّسم، فستزداد سرعة ازدهار الاستراتيجيات التعاونية. حينذاك سيُقلت الغشّاشون بعدد أقلّ من عمليات الاحتيال قبل أن يبدأ الناس بتجنّبهم (لكومبيوتر آكسلرود استخدامات متعدّدة. بمُجرّد تجهّز الناس بعُدّة أخلاقية مرنة، يُمكن للتعاون الانتشار – أو الانحسار – عبر الأجيال من دون أي تغيّرات في البركة الجينية. وبذلك فإن الكومبيوتر، عند تأريخه لمثل هذه التذبذبات، يُمثّل أنموذجًا للتغيّر الثقافي، كما هو الحال هنا، بدلًا من نمذجة التغيّر الجيني، كما هو الحال في الفصل الأخير).

والسبب الثاني خلف جعل كونك لطيفًا أمرًا مثمرًا في مكان مثل شروزبري هو أن من ستعاملهم بلطف سيبقون قربك لمدة طويلة. وحتى هذا الإنفاق المُشتت للطاقة الاجتماعية، كالإغداق السائد للمجاملات الدافئة، قد يكون استثمارًا جيدًا. كتب سمايلز: «تلك المجاملات الصغيرة التي تشكّل التغيرات الطفيفة للحياة، قد تظهر لوحدها ذات قيمة جوهرية ضئيلة، لكنها تكتسب أهميّتها من التكرار والتراكم»، وأشار إلى أن «الإحسان هو العنصر الغالب في جميع أنواع المنافع المتبادلة والجماعات الممتعة بين البشر. تقول ليدي مونتاج: إن الكياسة لا تُكلّف صاحبها شيئًا بينما تشتري كُلّ شيء....وقال بيرلي للملكة إليزابيث: اكسبي القلوب،

وستكون قلوب كافّة الرجال وجيوبهم مُلك يمينك».

في الواقع فإن للكياسة تكلفة: القليل من الوقت والطاقة النفسية. وفي هذه الأيام ليس هناك كثير لتشتريه - على الأقل ما لم تكن دقيقةً فيمن توجّه نحوه. كثير ممّن نصادفهم يوميًا، إن لم يكن مُعظمهم، لا يعرفون من نحن وقد لا يكتشفون ذلك أبدًا. وحتى معارفنا قد يكونون عابرين. فالناس كثيرًا ما يُغيّرون محلّ إقاماتهم ووظائفهم. لذا فإن سمعة التحلّي بالنزاهة أقلّ أهميّة اليوم، والتضحيات من شتّى الأنواع - حتى تلك المُقدّمة في سبيل زميل أو جار - غير مرجّح أن يُعاد سدادها مستقبلًا. هذه الأيام ربما يكون رجل من الطبقة المتوسّطة العليا والذي يُعلّم ابنه، على سبيل المثال، كيف يكون ماهرًا ويُظهر أمانة زائفة، وأن يسرف في قول الأكاذيب الطفيفة، وأن يعمل جاهدًا على قطع الوعود من دون الوفاء بها، قد يكون مؤهلًا بشدّة للنجاح.

يُمكنك أن ترى ذلك في كومبيوتر آكسلرود. إذا غيّرت القواعد وسمحت بالهجرات المُتكرّرة من وإلى كلّ مجموعة، بحيث تقلّ فرص جني ما زرعته، فإن قوة واحدة بواحدة ستتضاءل بنحو بارز وتتقدّمها الاستراتيجيات الأكثر شراسة. (هنا، مرّة أخرى، سنستخدم الكومبيوتر لنمذجة التطور الثقافي، لا الجيني؛ إن حجم متوسّط الضمير في تغيّر، ولكن سبب ذلك ليس التغيّرات المتضمّنة في البركة الجينية).

في الكومبيوتر، كما الحياة، تكون هذه الاتجاهات ذاتية الاكتفاء. حينما تزدهر الاستراتيجيات الأقل تعاونية، ينحدر معدل التعاون المتاح محليًا، مما يقلل من قيمة التعاون، وبذلك يزيد ازدهار الاستراتيجيات الأقل تعاونًا. والأمر يعمل بشكل مشابه بالنسبة إلى الطرف الآخر: كلما ازداد الفيكتوريون ضميرًا، كلما بدت زيادة الضمير منطقية أكثر. ولكن حينما يبلغ البندول ذروته، لأي سبب كان، ويعود للأسفل، فإنه سيحشد بطبيعة الحال زخمًا.

يؤكد هذا التحليل إلى حد ما بسهولة على البدهيات القديمة عن تأثيرات طمس الهويّة الحَضريّة: النيويوركيّون وقحون، ونيويورك تغصّ بالنشّالين. ولكن هذا ليس كافيًا. المسألة هنا ليست مجرّد أن ينظر الناس حولهم بحثًا عن

أي فرصة ملائمة للاحتيال، ثم اغتنامها عن وعي. وعبر عملية يستشعرونها باهتةً إن استشعروها، عملية تبدأ منذ وقت تعلمهم الكلام، حينها تُعدّل ملامح ضميرهم لأجلهم - من قبل الأقارب (الذين ربما لا يفهمون أيضًا ما يجري) وعبر مصادر أخرى من المراجعات البيئية. يمكن للتأثير الثقافي أن يكون غير واعٍ بقدر ما هو التأثير الجيني. وهذا ليس بالمفاجئ نظرًا لمدى عمق التشابك.

ذات المسألة تنطبق على قطاع تُعدّ أخلاقياته موضوع كثير من النقاشات هذه الأيام: الأحياء الشعبية الأمريكية الفقيرة الغاصّة بالجريمة. لا يحتاج المجرمون الناشئون للنظر حولهم وتقييم الموقف قبل اختيار حياة الجريمة بتعقّل. فإذا كانت هذه هي الحقيقة الكاملة، فإن الحلّ الأنموذجي للجريمة - «تغيير هيكل الحوافز» عبر التأكد من أن الجريمة لا تُكافئ فاعلها - قد يعمل بشكل أفضل. تقترح الداروينية حقيقة أكثر إثارة للقلق: منذ السنوات المبكّرة في عمر المرء، تُحاصر البيئة ضمير كثير من الأطفال الفقراء، والمقصود قدراتهم على التعاطف والشعور والذنب، وبينما ينضجون فإنها تترسّخ عميقًا بعض الشيء ضمن هذه الهيأة المتشنّجة.

ويُفترض أن يكون مصدر هذا التشنّج أبعد من مُجرّد طمس الهويّة الناتج عن التحضّر. إن كثير من الأشخاص في المدن الداخلية يواجهون فرصًا محدودة للتعاون «المشروع» مع العالم الأوسع. وليس للذكور، المعرّضون للنسبة الأعلى من المخاطر بحكم جنسهم الذي بدأوا به، خبرات حياتية طويلة عمّا يعدّه كثير من الناس أمورًا مفروغًا منها. جادل كُلٌّ من مارتن دالي ومارغو ويلسون بأن «الآفاق الزمنية الضيّقة» التي يُعرف بها المجرمون قد تكون «استجابة تكيّفية للمعلومات التنبؤية عن احتمالات طول العمر والنجاح النهائي».

كتب صامويل سمايلز: «ليس للثروات والمكانة ارتباط ضروري بالصفات النبيلة الحقيقية. فقد يكون رجلٌ فقير نبيلًا حقيقيًا - بالروح والحياة اليومية. فقد يكون أمينًا وصادقًا ومستقيمًا ومؤدبًا وشجاعًا وكريمًا

وعزيز النفس وعصاميًا، – وهذا معنى أن يكون المرء نبيلًا حقيقيًا»، ذلك أن «من الأعلى إلى الأدنى، ومن الأغنى إلى الأفقر، إلى غياب المكانة أو الحال في الحياة، أنكرت الطبيعة أعظم نِعمها – القلب الكبير». إنها فكرة جميلة، وقد تحمل في طيّاتها شيئًا من الحقيقة بشأن ما يخصّ الأشهر القليلة الأولى من الحياة. لكنها – في ظلّ الظروف العصريّة على الأقلّ – ربما تزداد زيفًا منذ ذلك فصاعدًا.

قد يبدو غريبًا لبعضهم سماع الداروينيين يصفون المجرمين بـ«ضحايا المجتمع» بدلًا من ضحايا الجينات المعيبة. لكن ذلك مُجرّد اختلاف واحد بين الداروينية في مطلع هذا القرن عنها في مطلع القرن الماضي. بمُجرّد التفكير في الجينات على أنها مُبرمجات للتطوير السلوكي، وليس السلوك فحسب، حيث تُشكّل العقل الفتيّ كي يُلائم سياقه، فإننا سنبدأ جميعًا بالظهور بوصفنا ضحايا (أو مستفيدين) لبيئتنا، بالضبط كما هو الحال مع جيناتنا. وهكذا يُمكن تفسير الاختلاف بين مجموعتين (فلنقل من الناحية الاجتماعية الاقتصادية أو حتى الإثنية) عبر التطور ومن دون إيعازها إلى الاختلافات الجينية.

ليس هناك، بالتأكيد، ثلّمة اسمها «طبقة حضريّة دُنيا» في البرنامج التنموي الذي يُشكّل الضمير، مثلما لا وجود لثَلمة تُدعى «الفيكتورية». (في الواقع، تُشبه قرية شروزبري أكثر نوع البيئة التي «يتوقّعها» الانتقاء الطبيعي أكثر مما هو حال مدن اليوم الكبيرة)، ومع ذلك فإن البراعة التي غالبًا ما تستغلّها الفرص الحَضريّة للاحتيال تقترح أن بيئة الأسلاف قدّمت في بعض الأحيان فرصًا لارتكاب جرائم مُربحة.

أحد المصادر المحتملة لمثل هذه الفرص هو الاتصال الدوري بالقرى المجاورة. والتكيف الذي من شأنه المساعدة في اغتنام تلك الفرص هو بالضبط ما نجده في العقل البشري: مشهد أخلاقي ثنائي، يتألّف من مجموعة داخلية تستحقّ الاهتمام وأخرى خارجية تستحقّ الاستغلال. وحتى أعضاء العصابات الحضرية لديهم أُناس يُمكنهم الوثوق بهم. كما وذهب الرجال

الفيكتوريـون المهذّبـون بحِرْص إلى الحـرب مـع قناعة بعدالة المـوت الذي أنزلوه بالآخرين. إن التطور الأخلاقي غالبًا ما لا يكون سؤالًا عن مدى قوّة الضمير فحسب، بل والمدى الذي يغطيه هذا الضمير.

الحكم على الفيكتوريين

إن مـدى «أخلاقيّة» الفيكتوريين هـي في الواقع موضِع خلاف. فعادة ما اتُّهِمـوا بالنفـاق البالغ. ولكـن مما رأيناه فالقليـل من النفاق يُعدُّ أمـرًا طبيعيًا لجنسـنا البـشري. والغريـب أن زيـادة النفـاق قـد تُمثّل مـؤشرًا عـلى الرِفعة الأخلاقيّـة. في المجتمعات رفيعة «الأخلاق» - حيـث تنطوي الحياة اليومية على كثير من اللباقة والإيثار، وحيث تُعاقب الخسّة وانعدامُ الشرف اجتماعيًا - تُعدُّ السـمعة الأخلاقية الحميدة أمرًا حيويًا ولنقيضتها السيئة كُلفة هائلة. ويُمثل الثقل الإضافي للسمعة حافزًا أكبر لفعل ما يفعله الناس بشكل طبيعي عـلى أي حـال: المبالغة باسـتعراض صلاحِهم. ومثلما كتـب والتر هوتون في كتابه الإطار الفيكتوري للعقل: «على الرغم من أن الجميع يتظاهر في أحيان بأنـه أفضـل مما هو عليه حقيقـة، حتى أمام ذاته، فقـد كان الفيكتوريون أكثر ميلًا منّا لهذا النوع من الخداع. إذ عاصروا مرحلة اتسـمت بمعايير سـلوكيّة أعلى بكثير مقارنة بالحالية...»

وحتـى لو قبلنا بأن النفاق الفيكتـوري توكيدٌ ملتو للأخلاق الفيكتورية، فسـنظلّ نسـأل عمّا إذا كانت «الأخلاق» هي الوصف الصحيح لها. بالنسـبة إلى أغلـب الفيكتوريـين لم تأتِ الفضائل السـائدة، بعـد كل شيء، بالتضحية الصافية. كان الكثيرون يراعون جدًا أن يحصل كل واحدٍ على جزء من أجزاء الحدث. لكن لا يُراد بهذه أن تكون لائحة اتهام موجهة للأخلاق الفيكتورية. هذه هـي الفكرة الكاملـة وراء الأخلاق الصارمة: تشـجيع التبادلات ذات المحصّلـة اللاصفريّـة، وبذلك رفـع مسـتوى الرفاهية العامّة؛ أي لتشـجيع التبـادلات اللاصفريّـة خـارج عوالم الحيـاة الاقتصاديـة والإلـزام القانوني. أحـد الكُتّـاب النادبـين لـ«ازدهـار الأنانية» ورحيـل «أمريـكا الفيكتورية»،

لاحظ أنه في ظل الفضائل الفيكتورية «كانت الكتلة المركزية العظمى من الأمريكيين تعيش في نظام اجتماعي متوقّع ومستقر ومهذّب في أساسه. وكان الحال كذلك - بعيدًا عن النفاق - بسبب أن الغالبية من الناس شعروا بأن الواجبات والالتزامات تجاه بعضهم بعضًا تتقدّم في أهميّتها أهمّية مُتعهم الخاصّة». قد نُسائِل الحقيقة الحرفية لتلك الجملة الأخيرة من دون الشك في مغزاها. إذ إن ما حافظ على حسّ الكل بالواجب ليس إنكار الذات، بل موافقتهم الضمنية على عقد اجتماعيّ واسع النطاق حيث أيُّ واجبات يؤدّونها لمصلحة الآخرين، وإن كانت بشكل غير مباشر، تعادُ إليهم بموجب العقد. وعلى الرغم من ذلك يظلّ المؤلّف على صواب: حيث، في هذه الأيام، لا يُهدر ذات القدر من الوقت والطاقة الذي اعتيد بذله بحذر.

تتمثّل إحدى وسائل طرح هذا الأمر بالقول: إن إنجلترا الفيكتورية كانت مجتمعًا مُحبَّبًا، ولكن ليس مُجتمعًا متألّفًا من أفراد محبّبين على وجه الخصوص. إذ لم يفعلوا سوى ما نفعله نحن - التصرّف بضمير وتهذيب وتعقّل للدرجة التي تُحقّق لصالحنا مكسبًا. إنها فقط تحقق مكسبًا أعلى هذه الأيام. إلى جانب ذلك فسلوكهم الأخلاقي، مهما كان جديرًا بالثناء أو لم يكن، كان يُعدّ إرثًا أكثر منه اختيارًا؛ لقد تشكّل السلوك الفيكتوري بطرق لم يفهمها الفيكتوريون أبدًا وكانوا بمعنى ما عاجزين عن التأثير فيها.

هنا إذن يأتي الحكم على تشارلز داروين صادرًا بسلطة كل ما نعرفه الآن عن الجينات: لقد كان نتاج بيئته. لو كان رجلًا طيّبًا، فقد كان طيّبًا نسبة لانعكاس صلاح مجتمعه السلبي. وعلى أي حال فقد حقق قدرًا لا بأس به من المكاسب لقاء «طيبته».

ومع ذلك، يبدو أن داروين قد ذهب أحيانًا لما وراء نداء الإيثار المتبادل. ففي أثناء وجوده في أمريكا الجنوبية، عكف على زراعة حدائق الهنود الفوجيين. وبعد سنوات من ذلك، في أثناء إقامته في قرية داون، أسس جمعية أصدقاء داون، والتي قدّمت خطة توفير للعمّال المحليين، إضافة لـ«غرفة اجتماعات» (إذ ستتحسّن حياتهم الأخلاقيّة عبر تكييف سكينريّ - حيث

تُقابَلُ الشتائم والشجارات والسُكر بالغرامات).

بعض الداروينيين يتبنّون هواية تقليل هذا النوع من اللطف لأجل ضمان مزيد من المصلحة الذاتية. وإن لم يتمكّنوا من العثور على طريقة يُمكن للهنود الفوجيين ردّ الجميل بها (ولا نعلم عمّا إذا كانوا لم يفعلوا ذلك)، فالمصدر الثاني سيكون الحديث عن «تأثيرات السُمعة»؛ ربما سيحمل رجال البيغل حكايات عن كرم داروين وينقلونها إلى إنجلترا، حيث تؤدي بطريقة ما إلى تكريمه. لكن مشاعر داروين الأخلاقية كانت من القوّة بحيث تقوّض هذا النوع من السخرية لدرجة الفناء. فحينما سمع عن فلّاح محلي يُجوّع بعض ماشيته حتى الموت، عمل بنفسه على جمع الأدلّة ورفع دعوى إلى القاضي. كانت الخراف المسكينة في وضع أسوأ مما يسمح لها بردّ الجميل، والفلّاح لم يكن سيفعل ذلك بالتأكيد. و«تأثيرات السمعة» للسلوك المتعصّب ما كانت لتعمل في صالح داروين إلى حد كبير. وبالمثل، أين كانت مكافأة مُجافاة النوم حزنًا على معاناة العبيد في أمريكا الجنوبية؟

إن أفضل طريقة لتقييم هذا النوع من السلوك الأخلاقي «المفرط» عبر استذكار أن البشر ليسوا «معزّزين للّياقة المتضمّنة» لكنهم بدلًا من ذلك «منفّذين تكيّفيين»، والتكيّف قيد السؤال - الضمير - قد صُمِّمَ لتعزيز اللياقة، لاستغلال البيئة المحلية باسم المصلحة الذاتية الجينية، إلّا أن النجاح في هذا المسعى بعيد كُلّ البعد عن أن يكون مضمونًا، ولا سيما في البيئات الاجتماعية الغريبة عن الانتقاء الطبيعي.

وهكذا يُمكن للضمير قيادة الناس للقيام بأشياء ليست في صالحهم، إلّا لو كان بمعنى إراحة الضمير نفسه. إن التعاطف والالتزام والشعور بالذنب، ما لم يتعرّضوا لحملة إبادة صريحة عند سنّ الشباب، دائمًا ما ستكون لهم القدرة على الإتيان بسلوكيات تتعارض مع «استحسان» الانتقاء الطبيعي «خالقها».

افتتحنا هذا الفصل بالفرضية العاملة التي مفادها أن ضمير داروين كان تكيّفًا سلسًا في عمله. وهو كذلك في كثير من النواحي. ما هو أكثر أن بعض

هـذه النواحـي مبهجة للغاية: إذ إنها تظهر كيـف أن بعض الأعضاء العقلية، على الرغم من تصميمها أساسًا لخدمة المصلحة الذاتية، فقد صمّمت كذلك للعمل بانسـجام مع الأعضاء العقلية للآخرين، وهـذه العملية قد تؤدّي في النهايـة لإنتـاج قدر هائل مـن الرفـاه الاجتماعي. ومع ذلـك، لم يكن ضمير دارويـن عاملًا أحيانًا بشـكل تكيّفي مـن بعض النواحي. وهـذا يُمثّل أيضًا سببًا للبهجة.

الباب الثالث

الخلاف الاجتماعي

الفصل الحادي عشر

تأخّر داروين

«لقد تحسّنت صحتي كثيرًا منذ وصلت بلدي، وأؤمن أني بالنسبة إلى أعين الغرباء يجب أن أبدو رجلًا قويًا إلى حدّ ما، غير أني لا أجدني قادرًا على أي مجهود، وكثيرًا ما أتعب نفسي بعد ممارسة أشياء غاية في التفاهة. . . . لقد كانت إهانة مريرة بالنسبة إلي كي أستوعب نتيجة أن "السباق هو لأجل الأقوياء" - وأنّي لن أقوم سوى بما هو أكثر بقليل، ولكن يجب أن أكون قنوعًا في إعجابي بالقفزات التي يصنعها آخرون في العلم - وهكذا يجب أن يكون الأمر...»

رسالة إلى تشارلز لايل (١٨٤١)

بعد اكتشاف الانتقاء الطبيعي عام ١٨٣٨، قضى داروين العقدين اللاحقين في عدم الكشف عنه. ولم يبدأ بتأليف كتاب عن نظريته حتى العام ١٨٥٥، وهو كتاب لم يُكمله حقًا. وعند العام ١٨٥٨ فقط، حينما عَلِمَ بشأن توصّل عالم طبيعي آخر لذات النظرية، قرّر كتابة ما أسماه «الملخّص» - أصل الأنواع الصادر عام ١٨٥٩.

إلّا أن داروين لم يقضِ أربعينات القرن التاسع عشر مكتوف الأيدي.

فعلى الرغم من عرقلته بسبب مرضه المتكرر - ارتعاش شديد، ونوبات قيء، وألم المعدة، وانتفاخ بطنه الملحمي بالغازات، وحالات الإغماء، وخفقان القلب - فقد كان غزير الإنتاج. إذ ففي أثناء الأعوام الثماني الأولى من زواجه، نشر ورقة علمية وأنهى تحرير المجلّدات الخمسة من علم حيوان رحلة البيغل وكتب ثلاثة كتب بالاستناد إلى الرحلة: بنية وتوزيع الشعاب المرجانية (١٨٤٢)، ملاحظات جيولوجية على الجزر البركانية (١٨٤٤)، وملاحظات جيولوجية في أمريكا الجنوبية (١٨٤٦).

في الأول من أكتوبر عام ١٨٤٦، كتب داروين هذا التقديم في يومياته الشخصية: «لقد أنهيت آخر أدلّتي للملاحظات الجيولوجية في أمريكا الجنوبية؛ استغرقني هذا المجلّد، وبضمنه الورقة في مجلّة الجيولوجيا عن جزر فوكلاند ١٨ شهرًا ونصف: ومع ذلك لم تكن الرحلة مثالية دائمًا كما في حالة الجزر البركانية. لذا فقد استغرقت مني الجيولوجيا خاصتي ٤ سنوات ونصف: والآن مضى على عودتي إلى إنجلترا ١٠ سنوات. كم من الوقت خسرتُه بسبب المرض!»

هذا هو داروين العتيق من نواحٍ عدّة. هناك ذلك التسليم القاتم الذي، مع استمرار مرضه، كان يخوض عبره في أثناء عمله في أحيان كثيرة؛ فعلى الرغم من إنهائه حتى يومنا هذا ثلاثية كُبرى (واحد من تلك المجلّدات لا يزال يعدّ كلاسيكيًا على الأقل)، إلّا أنه لا يبدو كمن كان مستعدًا لفتح زجاجة شمبانيا والاحتفال. كما وكان هناك ذلك النوع من نقد الذات الذي لا ينتهي؛ إذ لم يكن يتذوّق لذّة الانتهاء من عمل أنجزه مدّة يوم واحد حتى قبل التحوّل إلى عيوب عمله. وكان هناك ذلك الوعي الحادّ بمُضيّ الزمن، وهوسه باستثماره على أحسن ما يُمكن.

قد تعتقد أن هذه اللحظة كانت ميمونة بالنسبة إلى داروين كي يبدأ في التحرك الحثيث أخيرًا صوب موعده مع القدر. مؤكدٌ أن إحدى حوافز الإنتاجية الكبيرة - الشعور بالفناء - صارت مشحوذة حتى بلغت ذروة حِدّتها. عام ١٨٤٤ كان قد منح إيما مسودّة من ٢٣٣ صفحة لنظرية الانتقاء

الطبيعي، إلى جانب تعليمات مكتوبة من أجل نشرها - و«تحمل عبء الترويج لها» - في حال وفاته. إن حقيقة كون عائلة داروين قد انتقلت الآن من لندن إلى قرية داون الريفية كانت دليلًا على تدهور صحته. هناك كان يخطط للابتعاد عن مُشتّتات حياة المدينة واختلالاتها، وأن يستمدّ الدفء من عائلته المتنامية، ومحاولة استخلاص بضع ساعات جيّدة للعمل في ظلّ نظام محكم من العمل والترفيه والراحة - سبعة أيام في الأسبوع - طالما أن فيه نفسًا. كانت هذه هي البيئة التي شيّدها لنفسه في أثناء إتمامه كتبه عن جيولوجيا أمريكا الجنوبية. في رسالة إلى القبطان فيتزروي كتب أن في ذات ذلك اليوم (الأول من أكتوبر ١٨٤٦)، أفاد داروين: «تمرّ حياتي مضبوطة كساعة، وأنا مضبوط في المكان الذي يُقدَّرُ أن أنهيها فيه».

بالنظر إلى كل ما سبق - مكان عمل مؤمّن، والصوت الخافت لخطى قابض الأرواح، وإتمام كافّة الالتزامات العلمية من رحلة البيغل الاستكشافية أخيرًا - نظرًا لكل هذا، أي الأسباب ظلّ هناك لدفع داروين تأجيل تأليفه كتابًا عن الانتقاء الطبيعي؟

بكلمة واحدة: البرنقيل. بدأ انخراط داروين الطويل مع البرنقيل في منتهى البراءة، مع فضول بشأن الأنواع المنتشرة على طول شاطئ تشيلي. إلّا أن نوعًا قاد للآخر، ولم يمضِ وقت قبل تحوّل منزله إلى ما يشبه مقرًّا عالميًا للبرنقيل بعد امتلائه بالعينات التي جمعها جامعون وأرسلوها له عبر البريد. وقد لازمت دراسة البرنقيل حياة داروين لمدة طويلة وبشكل مركزي للغاية، لدرجة أن أحد أبنائه الصغار، في أثناء زيارته لمنزل جاره، سأل: «أين يصنع برنقيله؟» ومع حلول نهاية العام ١٨٥٤ - بعد ثماني سنوات من توقّع داروين أن عمله على البرنقيل سيأخذ منه بضعة شهور فحسب، وربما عامًا على الأكثر - أصدر كتابين عن الأنواع الحيّة للبرنقيل وآخران عن مستحاثّات البرنقيل، وأسّس لنفسه سمعة وسط هذا المجال. ولا تزال كُتبه إلى يومنا هذا مراجع لعلماء الأحياء الدارسين للفئة الفرعية Cirripedia من شعيبة Crustacea (أي البرنقيل).

الآن، لا ضير في أن تكون حاكمًا في مجال البرنقيل. إلّا أن بعضهم مقدرٌ لهم ما هو أعظم. لماذا استغرق داروين طويلًا قبل إدراك أن عظمته تكمن في مجال أهمّ. أكثر النظريات شيوعًا أكثرها جلاءً: وكتابة كتاب يسيء إلى المعتقدات الدينية لجميع من يسكن قربك تقريبًا - من بينهم زوجتك وكثير من زملائك - مهمّة لا ينبغي التعامل معها من دون حيطة.

هذه مهمّة تصدّى لها بالفعل قلّة قليلة من الأشخاص، ولم تكن النتائج مما يستحقّ المدح المُطلق. إذ قدّم إيراسموس جدّ داروين، وهو عالم طبيعة وشاعر معروف، نظريّة تطوّر متقدّمة بنفسه عام ١٧٩٤ في كتابه Zoonomia. وأراد أن يُنشر الكتاب بعد وفاته قبل أن يُغيّر رأيه في نهاية المطاف بعد عشرين عام قائلًا: «صرت اليوم أكبر من خشية القليل من الإساءة»، وهي ما تلقّاه حينذاك. كما وظهر عرض جان بابتيست دي لامارك الكبير لمخطط تطوري مشابه عام ١٨٠٩، وهو عام ولادة داروين نفسه، ما أدى لوصمه بالفسق. في العام ١٨٤٤، ظهر كتاب بعنوان «آثار التاريخ الطبيعي للخلق»، خاطًا نظرية تطورية ومتسبّبًا بضجّة كبيرة. اختار مؤلفه، وهو ناشر إسكتلندي يُدعى روبرت تشامبرز، التستّر على اسمه، وكان حكيمًا في ذلك. وصف كتابه من بين ما وصف بـ«الشيء الأحمق والقذر، ملمسه ملوّث وأنفاسه مُعدية».

ولم تكن أي من هذه النظريات المهرطقة بمستوى الإلحاد الذي كانته نظرية داروين. إذ كان لدى تشامبرز «حاكم إلهي» يقود التطوّر. وقال إيراسموس داروين، لكونه ربوبيًا، أن الرب ضبط ساعة التطوّر العظيمة ثمّ تركها تدق. وعلى الرغم من شجب تشامبرز للامارك بعدّه «عديم الاحترام تجاه العناية الإلهية»، إلّا أن التطوّر اللاماركي كان، إذا ما قورن بالدارويني، روحانيًا بشكل صريح؛ حيث أظهر ميلًا مفرطًا تجاه التعقيد العضوي الأعظم والحياة الأكثر وعيًا. بعد أن مُني كلّ هؤلاء الرجال بالتوبيخ الشديد، تخيل المُخبّأ لداروين وهو من لم تنطوِ نظريّته حاكمًا إلهيًا أو ساعةً مضبوطة (على الرغم من تركه المجال مفتوحًا لاحتمالية وجود شيء من هذا القبيل)، ولا ميلًا

تقدّميًا متأصلًا - لا شيء سوى التراكم البطيء للتغيّرات العرضيّة.

ليس هناك شك في أن داروين كان، منذ البداية، قلقًا بشأن رد الفعل الشعبي. فحتى قبل تبلور إيمانه بالتطور إلى نظرية الانتقاء الطبيعي، كان يَزِنُ تكتيكات بلاغية من شأنها تخفيف حدّة النقد. في ربيع عام ١٨٣٨، كتب في مفكّرته، «اذكُر اضطهاد علماء الفلك الأوائل»، وفي السنوات اللاحقة، بات خوف داروين من الاستهجان يظهر في مخاطباته. تتميّز الرسالة التي اعترف فيها بهرطقته لصديقه جوزيف هوكر بواحدة من أكثر المسارات الدفاعيّة التي انتهجها على الإطلاق - ليس بالإنجاز السهل. حيث كتب عام ١٨٤٤، «أنا متيقّن تقريبًا (بخلاف الرأي الذي بدأت به تمامًا) أن الأنواع ليست (كأنه اعتراف بجريمة قتل) غير قابلة للتغيير. لقد حفظتني السماء من هراء لامارك عن 'الميل للتقدّم' و'تكيّفات الإرادة البطيئة للحيوانات' وإلخ، - لكن الاستنتاج الذي خلصت إليه لا يختلف تمامًا عن خاصّته - على الرغم من أن وسائل التغيّر هي نفسها بالمُجمل - أظنّ أنني اكتشفت (إنّه يُخمّن!) الطريقة السهلة التي تتكيّف بها الأنواع بشكل رائع إلى نهايات مختلفة. - ربما تتذمّر الآن وتفكّر مع نفسك "أي رجل هذا الذي أضيّع وقتي في الكتابة له" كُنت نفسي سأفكّر قبل خمس سنوات بهذه الطريقة».

مريض ومتعب

تفترض النظرية القائلة: إن ما أبطأ داروين المناخ الاجتماعي المعادي أشكالًا عدّة، تتراوح من المتكلّف إلى السهل، ويصف هؤلاء تأخره بطرق مختلفة تتراوح من المرض إلى الحكمة.

في الإصدارات الأكثر اعتدالًا للنظرية، يظهر مرض داروين - الذي لم يُشخَّص تمامًا وظلّ لغزًا - بوصفه أداة تسويفٍ نفسجسميّة. كان داروين يشعر بخفقانٍ قلبي في تشرين الأول عام ١٨٣٧، بعد بضعة أشهر من افتتاحه دفتر ملاحظات التطوّر الأول خاصّته، وظلّت تقاريره المرضية مستمرّة بمعيّة تقدّم دفاتره هذه نحو الكشف عن نظرية الانتقاء الطبيعي.

لقـد قيل: إن إيمّا، المعتزّة بدينها والتي آلمتهـا تطوّريّة زوجها كثيرًا، زادت مـن حدّة التوتّر بين علمه ومحيطـه الاجتماعي؛ وأنّها عبر إخلاصها في رعايته يـسَّرَت اعتلاله على حسـاب عافيتـه. وقد تضمّنت رسـالة إلى تشـارلز قبل زواجهما مباشرة فقرة عن هذا التأثير: «لا شيء سيجعلني أسعد من شعوري بـأن أكون مصـدر فائدة أو راحة من أي نوع لعزيزي تشـارلز حينما لا يكون بخـير. لـو تعلم فقط كم أتوق لأكون معـك حينما لا تكون بخير! ... لذا لا تمرض يا عزيزي تشـارلي حتى أكون معك لرعايتك...» قد تمثل هذه الجمل تأكيدًا على لهفة إيمّا قُبيل الزواج.

ليسـت كل النظريات التي تربط مرض داروين بأفكاره تشـير إلى مؤامرة لا شـعورية هدفها إخفاؤها. ربما كان داروين يعاني بسـهولة مما يُعرف اليوم بالمـرض المُسـتحث عاطفيًا. فالقلق مـن الرفض الاجتماعـي في نهاية المطاف أمـر فسـيولوجي، كـما كان داروين أول من أشـار لذلك. وهـو يتطلّب أداة فسيولوجية.

يقبـل بعض الناس أن داروين كان يعاني مرضًا حقيقيًا، قد يكون أصيب به في أمريكا الجنوبية (ربما مرض شاغاس أو متلازمة التعب المزمن)، لكنهم يقولون إنه اسـتخدم البرنقيل لاستباق يوم الحساب من دون وعي منه. عند دخول داروين مرحلة البرنقيل، وإصراره على أن تكون وجيزة، راودته بعض الشكوك عمّا كان يستتر وراءها. وقد كتب إلى هوكر عام ١٨٤٦ : «سأشرعُ في كتابة بعض الأوراق عن الحيوانات البحريّة الدُنيا، والتي ستستغرقني بضعة شـهور وربما عامًا، ثم سأبدأ بعدها في البحث وسط ملاحظاتي المتراكمة عن الأنـواع والتباينات بينها لعشر سـنوات، مع الكتابة عنهـا، والتي أجرؤ على القـول إنّي سـأكون بها ضئيلًا بنحو لا نهائي في نظـر كافّة علماء الطبيعة – لذا تلك هي مسـاعيّ المسـتقبليّة». هذا هو نوع السـلوك الذي يقود للانشـغال بمشروع بحثي عن البرنقيل أمده ثماني سنوات.

بعـض الملاحظـين، بمـن فيهم بضعـة من معـاصري داروين، قالوا: إن البرنقيل قدّم له خدمة جليلة. إذ إنه اسـتغرقه بالكامل في تفاصيل التصنيف

(تجربـة جيّدة بالنسـبة إلى شـخص يدّعي امتلاكه نظريّة تفسّر كيف تفرّعت كافّـة التصنيفات) ومنحته فئة فرعية كاملة من الحيوانات لتفحّصها في ضوء الانتقاء الطبيعي.

إلى جانـب ذلك هناك أشـياء أخـرى غير علم التصنيـف لم يكن قد تمكّن مـن إتقانهـا بعد - مـا يقود إلى أسـهل النظريّات عـن تأخّـره. الحقيقة أنه في العـام ١٨٤٦ - و١٨٥٦، و١٨٥٩ خاصّـة، عنـد نـشره أصـل الأنـواع - لم يتبيّن داروين الانتقاء الطبيعي تمامًا. ومنطقـيّ أن تحاول جعل نظريّتك التي سيتسبّب كشف النقاب عنها بتشويه سمعتك وتعريضك للكراهية في أفضل حال ممكنة.

أحد الألغاز التي واجهها داروين بشـأن الانتقاء الطبيعي كان لغز الإيثار الشـديد للحشرات العقيمة. ولم يكتشـف حلّ ذلك حتـى العام ١٨٥٧، مع سلفه لنظرية انتقاء الأقارب.

مـن الألغاز الأخرى التـي لم ينجح داروين أبدًا في حلّها مشـكلة الوراثة نفسها. أحد المزايا العظيمة لنظرية داروين أنها لا تعتمد، كالخاصة بلامارك، على وراثة السـمات المكتسـبة؛ إذ كي يعمل الانتقاء الطبيعـي، ليس ضروريًا تأثـير مدّ الزرافـة رقبتها لبلـوغ الأوراق الأعلى على طول أعناق نسـلها. إلّا أن التطوّر الدارويني يعتمد على شـكل من أشـكال التغيير في نطاق السـمات الموروثـة؛ يحتـاج الانتقـاء الطبيعـي إلى قائمة تغيـير دائمـة لـ«الاختيار» من بينهـا. اليوم يُمكن لأي طالـب بيولوجيا جيّد في الثانوية إخبارك كيف تتغيّر القائمـة باسـتمرار - عبر إعـادة التركيب الجنسي والطفـرات الجينية. لكنّ هذيـن الآليّتـين لم يكن لهـما معنى واضح قبـل معرفة الناس بشـأن الجينات. تحدث داروين عن «الطفرات العشوائية» عندما سُئل عن كيفية تغيّر مجموعة السمات، إذ قال، «ثق بي - إنها تفعل ذلك فحسب».

مـن الممكـن تقييم تأخـر داروين من وجهـة نظر علم النفـس التطوّري. ووجهـة النظر هذه لا تسـفر عـن نظرية جديـدة متكاملة عن تأخّـره، لكنها تسـاعد في توضيـح شيء مـن الغموض. ويمكـن تقديره بشـكل أفضل بعد

اتّضـاح الجذور التطوّرية لطموحاته ومخاوفـه. في الوقت الحالي، دعونا نترك القصة في العام ١٨٥٤، عند نشر آخر كتب البرنقيل وحلول وقت اسـتجماع داروين كافّة مدّخراته من الحماس للعمل القادم الذي سيكون تتويجًا لحياته. وقد كتب لهوكر: «أشـعر بالكسـل حين أفكّـر بانفجـار كلّ شيء مثل فقاعة فارغة بعد جمع كافّة ملاحظاتي عن الأنواع وغيرها».

الفصل الثاني عشر

المكانة الاجتماعية

«بالنظر إلى مدى قِدَم هذه التعبيرات فلا عجب أن من الصعب إخفاءها. - قد يُسامح رجلٌ تعرّض للإهانة عدوّه من دون الرغبة في ردّها له، لكنه سيجد صعوبة كُبرى في الحفاظ على هدوئه. - إذ قد يحتقرّ الرجلَ من دون قول شيء، ولكن سيجد صعوبة في منع شفتيه من الزمّ على أسنانه من دون إرادة واضحة منه. - كما قد يشعر بالرضا تجاه نفسه، وعلى الرغم من خشيته من الاعتراف بذلك، لكن خطوته قد تُظهر انتصابًا وتيبّسًا مثل ديك رومي».

دفتر الملاحظات M الصادر عام ١٨٣٨.

من بين الأشياء التي وجدها تشارلز داروين مزعجة بشأن الهنود الفوجيين افتقارهم الواضح للتباين الاجتماعي. كتب في العام ١٨٣٩: «في الوقت الحاضر، حتى قطعة من الملابس تُمزّق لأشلاء وتوزّع؛ ولا يُسمحُ لفرد أن يكون أثرى من الآخر»، ويخشى أن مثل هذه «المساواة التامّة» قد «تؤخّر حضارتهم لمدة طويلة»، لاحظ داروين على سبيل المثال أن «سكّان أوتاهيتي، الذين، حين اكتُشفوا للمرّة الأولى، كانوا محكومين من قبل ملوك بالوراثة، قد بلغوا مرتبة تعلو كثيرًا أي فرع آخر من فروع شعبهم. النيوزلنديون - الذين على

رغـم انتفاعهم من الإجبار على تحويل انتباههم ناحية الزراعة، كانوا جمهوريين بالمعنى المطلق للكلمة». الخلاصـة: «في تييرا ديل فويغو، حتـى يبزغ رئيس ما يتمتّع بالسلطة الكافية لتأمين أي مزايا مُكتسبة، كالحيوانات المستأنسة أو غيرها من الهدايا القيّمة، يبدو أن أي تحسُّنٍ يلحق بالبلاد يُمثّل احتمالًا نادرًا للغاية».

ثـم يُضيف داروين: «مـن ناحية أخرى، يبدو من الصعب فهم كيف يُمكن لرئيس الارتقاء من دون وجود ملكيّة خاصّة من نوع ما يُمكن له عبرها البرهنة على سلطته ومن ثمّ تعزيزها».

لـو قلّبَ داروين هذه الفكـرة اللاحقة في دماغه أكثر قليلًا، لبدأ بالتسـاؤل عمّا إذا كان الفوجيون في واقع الأمر شعبًا «تامّ المساواة» أم لا. بالنسبة إلى رجل انكليزي ثريّ تربّى وسـط الخدم سـيبدو له مُجتمعًا قريبًا دومًا من حافّة المجاعة على درجة صارخة من المسـاواة بطبيعة الحال. إذ لن تظهر هناك استعراضات غزيـرة للمكانـة، ولن تجد فيهـا تباينات طبقيّة فادحة. إلّا أن التسلسـل الهرمي الاجتماعـي يُمكنـه اتّخاذ أشـكال عدّة، ويبدو أن في كُلّ مُجتمـع بشري لا بُدّ من رؤية واحدة.

كان هذا النمط بطيئًا في ظهوره. وأحد الأسباب أن كثيرًا من أنثروبولوجيي القرن العشرين، مثل داروين، جاءوا من مجتمعات شديدة الطبقية، ثم صُدموا، وفي أحيانٍ أخرى سُحِروا، بانعدام الطبقيّة النسبي لشعوب الصيد وجمع الثمار. لقـد أُثقِـلَ علـماء الأنثروبولوجيا كذلك باعتقـاد متفائل عن القـدرة اللانهائية تقريبًـا لمرونـة العقل البـشري، وهـو اعتقادٌ عزّزه بشـكل خـاص فرانز بواس وتلامذته المشـاهير، روث بندكـت ومارغريت ميـد. كان التحيّز البواسي ضد الطبيعـة البشريّـة جديرًا بالثناء مـن بعض النواحي - رد فعل حسـن النيّة ضد التوسّـعات السياسـية الفجّـة للداروينيـة التي عـدّت الفقر وغـيره العديد من الأمـراض الاجتماعيـة «طبيعية». إلّا أن التحيّز حسـن النيّة يظـلّ تحيّزًا. حيث تجاهـل بواس وبندكـت وميد أجزاء كبيرة مـن قصّة الإنسـانية. ومن بين تلك الأجزاء الجوع البشريّ العميق للمكانة والحضور العالمي كما يبدو للهرميّة.

في الآونة الأخيرة، بـدأ الأنثروبولوجيون ذوو النزعة الداروينية في البحث

بتمعّن عن الهرميّة الاجتماعيّة. وقد وجدوها حتى في أقلّ المواضع احتمالًا.

يبدو في البداية أن الآكي، وهم شعبُ صيادين وجامعي ثمار في أمريكا الجنوبية، يعيشون في مساواة شاعريّة. حيث يذهب لحمهم إلى حوض مُشترك، وبذلك يُعاون صيّادوهم الأمهر جيرانهم الآخرين الأقلّ حظًّا. لكن في أثناء الثمانينيات، ألقى الأنثروبولوجيون نظرة فاحصة ووجدوا أن الصيّادين الأفضل، على الرغم من كرمهم في اللحم، يختزنون موارد أكثر جوهريّة. إذ إن لهم عددًا أكبر من العلاقات خارج إطار الزواج وقدرًا أكبر من الأبناء غير الشرعيين مقارنة بنُظرائهم المتواضعين من الصيّادين. ولذريتهم فرصة أفضل للبقاء، بسبب حصولهم كما يبدو على معاملة أفضل. بعبارة أخرى، إن ذيوع صيتك بوصفك صيّادًا ماهرًا بمثابة ترفيع غير رسمي للمكانة يُكسبك نفوذًا بين الرجال والنساء على حد سواء.

يبدو للوهلة الأولى كذلك أن أقزام أكا في وسط أفريقيا مُفتقرين للهرميّة، حيث ليس لهم «زعيم»، ولا قائد سياسي مُطلق. إلّا أن لهم رجلًا يدعونه كومبوتي يؤثّر بمهارة وقوّة على قرارات الجماعة الكبرى (والذي غالبًا ما يكتسب تلك المكانة بفضل براعته في الصيد). وقد اتّضح أن الكومبوتي يحصل على نصيب الأسد من الزوجات والطعام والذريّة.

هكذا هي الحياة. ومع إعادة تقييم المزيد والمزيد من المجتمعات في الضوء غير المُبهرج للأنثروبولوجيا الداروينيّة، يُصبح من المشكوك فيه عمّا إذا وجد أبدًا أي مجتمع بشري مساواتي. بعض المجتمعات ليس لديها علماء اجتماع، وبذلك ربما لم يعرفوا مفهوم المكانة، إلّا عبر المكانة موجودة لديهم. إذ تجد بينهم أشخاصًا رفيعي المكانة وآخرين متدنّي المكانة، والجميع يميّز مقام الآخر. في العام ١٩٤٥، نشر الأنثروبولوجي بيتر موردوك، السابح ضد التيّار البواسي السائد، مقالًا بعنوان «القاسم المشترك للثقافات»، والذي غامر فيه بالقول: إن «تمايز المكانة» (إلى جانب تقديم الهدايا وحقوق الملكية وعشرات الأشياء الأخرى) عالميٌّ بالنسبة إلى البشر. وكلما نظرنا عن كثب، بدا هذا الرأي أكثر صوابًا.

بمعنى ما فإن شيوع الهرميّة بمثابة لغز دارويني. لماذا يستمرّ الخاسرون بمواصلة اللعبة؟ لماذا من صالح جينات الرجال المُتدنّين في عمود الطوطم مُعاملة من يفوقونهم مهارة باحترام؟ لماذا تُعير طاقتك لنظام يتركك مع قدر أقلّ مما لجيرانك؟

يُمكن للمرء تخيّل الأسباب وراء ذلك. ربما تجعل الهرميّة المجموعة متماسكة بالكامل حيث يستفيد معظم أو جميع أعضائها، حتى وإن لم تكن الفوائد متساوية - وهو تمامًا المصير الذي أمل داروين أن يُصيب الفوجيين يومًا. بعبارة أخرى، ربما تخدم الهرميّات «صالح الجماعة» وبذلك تكون مُفضّلة بالنسبة إلى «انتقاء الجماعة». هذه النظريّة تبنّاها الكاتب الشهير روبرت أردري، وهو عضو بارز في جيل أنصار انتقاء الجماعة الذي دلّ تراجعهم على صعود الأنموذج الدارويني الجديد. كتب أردري أن الناس إن لم يكونوا قادرين بطبيعتهم على الخضوع، فـ«سيستحيل المجتمع المنظّم ولن تنتج لنا سوى الفوضى».

حسنٌ، ربما الأمر كذلك. لكن بالحكم على العدد الكبير من الأنواع غير الاجتماعيّة أساسًا، لا يبدو أن الانتقاء الطبيعي يُشارك أردري اهتمامه بالنظام الاجتماعي. إذ إنه مستعد تمامًا كي يسمح للكائنات الحيّة بمتابعة لياقتها الشاملة وسط الفوضى. إضافة إلى أنك لو بدأت التفكير مليًا في هذا السيناريو الخاص بأنصار انتقاء الجماعة، فستظهر المشاكل. مؤكدٌ عند مواجهة قبيلتين في قتال، أو تنافس على مصدر واحد، يُرجّح تفوّق الجانب الأكثر هرميّة وتماسكًا. لكن كيف وصلت جماعةٌ لتكون هرميّة ومتماسكة في المقام الأول؟ كيف يُمكن للخضوع إلى المشورة الجينيّة، وبذلك تخفيض اللياقة، النجاح في كسب موطئ قدم وسط المنافسة اليومية للجينات ضمن المجتمع؟ ألن يُرجّح إقصاءهم من الحوض الجيني قبل نيل فرصة إثبات صلاحهم للجماعة؟ هذه هي الأسئلة التي غالبًا ما تواجهها نظريات انتقاء الجماعة - كحال نظرية داروين للمشاعر الأخلاقية - وغالبًا ما تفشل في تجاوزها.

أكثـر التفاسـير الداروينيـة قبولًا للهرميّة سـهل ومباشر ومتوافـق جيّدًا مـع الواقـع المرصود. فبمعونة هـذه النظرية المتاحة في اليـد - بعد إلقاء نظرة واضحة فحسـب عـلى المكانة الاجتماعية البشرية، مـن دون بهرجة الأخلاق والسياسـة - نستطيع العودة مرة أخرى للأسئلة الأخلاقية والسياسية. وفق أي المعـاني بالضبـط يكـون التباين الاجتماعـي متأصلًا في الطبيعـة البشرية؟ هـل عدم المسـاواة، مثلـما يقترح داروين، شرط أسـاس للتقـدّم الاقتصادي والسياسي؟ وهل بعض الناس «مولودٌ للخدمة» وآخر «مولودٌ للقيادة»؟

النظرية الحديثة لهرميّات المكانة

ألـقِ بضـع دجاجـات مـع بعضهـنّ بعضًـا، وسـترى أنـه بعـد مـدة من الاضطـراب، والقتـال أحيانًا، ستسـتقرّ الأمـور. إذ تصبـح النزاعات (على الطعـام مثـلًا) موجزة وحاسـمة، حيث تنقر إحدى الدجاجـات أخرى مرّة واحدة بسـهولة، جالبـة إرجاءً سريعًـا. وتُشـكّل الإرجاءاتُ نمطًـا. فهناك هرميّة خطيّة يسـيرة، وكُل دجاجة تعرف مكانها. أ تنقر ب وعندها حصانة، ثم ب تنقر ج، وهكذا دواليك. لاحظ ثورليف شلدريب إيبّي هذا النمط في العشرينيـات ودعاه بـ«نظـام النقر». (لاحظ شـلدريب إيبّي كذلك، في نوبة من الاسـتقراء المفرط المحمّل سياسـيًا: «أن الاسـتبداد هو الفكرة الأساسية للعالم، وهو مُرتبط بشـكل راسـخ مع كلّ أشـكال الحياة والوجود. . . . ولا وجـود لـشيء لا طاغية عليـه»، لا عجـب أن الأنثروبولوجيّـين ابتعدوا عن التفسيرات التطوّرية للهرميّة الاجتماعيّة مُدّة طويلة).

ونظـام النقر ليس اعتباطيًا. حيث للدجاجـة ب نزعة ملحوظة لهزيمة ج في النزاعات المُبكّرة، وتميل أ للتغلّب على ب. لذا فليس بالتحدي الكبير، بعد كل شيء، تفسـير الهرميّـة الاجتماعية البازغة على أنها محـض مجموع المصالح الشخصيّة. فكلِ دجاجة ترضخ للأخريّات اللاتي يُحتمل تفوّقهنّ ضدها على أي حال، مما يوفّر عليها تكاليف خوض المعارك.

إذا قضيت كثيرًا من الوقت مع الدجاج، فقط تشكّ في قدرتها على معالجة

فكرة معقّدة كـ«إن الدجاجة أ ستهزمني على أيّ حال، فما الداعي للقتال؟» وشكّك مُبرّر. إذ يعدّ نظام النقر حالة أخرى جرى «التفكير» فيها عبر الانتقاء الطبيعي، لذا لا حاجة للمتعضّي التفكير فيها. وينبغي للمتعضّي أن يكون قادرًا على التمييز بين جيرانه، والشعور بالخوف الصحي من أولئك المتوحّشين، لكنه غير مجبر على فهم المنطق وراء هذا الخوف. ولا بُدّ من ازدهار أي جينات تمنح الدجاج هذا الخوف الانتقائي الذي يَحدّ من الوقت المبذول في القتالات المكلفة وغير المُجدية.

وبمُجرّد شيوع مثل هذه الجينات بين السكان، تصبح الهرميّة جزءًا من العِمارة الاجتماعية. قد يبدو المجتمع، في الواقع، كما لو أنه صُمّم من قبل شخص يُفضّل النظام على الحريّة. لكن هذا لا يعني صحّة كذلك. فكما وضع جورج ويليامز الأمر في كتابه التكيّف والانتقاء الطبيعي، «إن هرميّة الرُتَب بين الذئاب وجُملة واسعة من الفقاريات والمفصليّات ليست تنظيمًا وظيفيًا. بل هي النتيجة الإحصائية للتسويّة التي قدّمها كل فرد عبر تنافسه على الطعام والشركاء وغيرها من الموارد. وكُلّ تسوية بمثابة تكيّف، لكن ليس الإجمالي الإحصائي كذلك».

ليس هذا هو التفسير الوحيد الممكن تصوّره للهرميّة من أجل تجنّب مآزق انتقائية الجماعة. فالآخر يستند إلى مفهوم جون ماينارد سميث عن الحالة المستقرّة تطوريًا - وبشكل أدق، إلى تحليل «الصقر - الحمامة» خاصته لأنواع الطيور الافتراضية. تخيّل الهيمنة والخضوع بوصفهم استراتيجيتين ذات أساس تطوريّ، حيث نجاح كُلّ واحدة يعتمد على تواترها النسبي. أن تكون مهيمنًا (على سبيل المثال، التجوال وترهيب الخاضعين لمنحك نصف طعامهم) أمر جيد طالما هناك كثير من الخاضعين حولك. ولكن مع انتشار الاستراتيجية، فإنها تصبح أقل جدوى: حيث يقلّ عدد الخاضعين الممكن استغلالهم تدريجيًا، بينما يزيد عدد المهيمنين المتنافسين لدرجة انخراطهم في قتال مكلف ضد بعضهم بعضًا. وهذا هو سبب إمكانية ازدهار استراتيجية الخضوع؛ حيث غالبًا ما يضطر الحيوان الخاضع لمنح بعض من طعامه، لكنه

بذلك يتجنّب القتال المكلف جدًا الذي يعانيه المُهيمنون. لا بُدّ للسكّان من التوازن نظريًا، بنسبة ثابتة من المهيمنين والخاضعين. وكما هو حال جميع الحالات المُستقرّة تطوريًا (تذكّر سمك الشمس أزرق الخيشوم من الفصل الثالث)، فإن نسبة التوازن هذه هي النقطة التي تتمتّع فيها كل استراتيجية بذات النجاح التناسلي.

هناك أنواع يبدو أن هذا التفسير يناسبها. فبين عصافير هاريس، تكون العصافير الأقتم لونًا أكثر هيمنة وعدوانية، بينما الأفتح لونًا ليّنة الطباع وخاضعة. وجد ماينارد سميث دليلًا غير مباشر على أن الاستراتيجيتين تؤديان إلى اللياقة بنحو متساوٍ - السمة المميزة للحالة المستقرة تطوريًا. ولكن عند التحوّل إلى الجنس البشري - وإلى الأنواع الهرميّة الأخرى في واقع الأمر - يواجه هذا التفسير للهرميّة الاجتماعية مجموعة من المشاكل. من أبرزها اكتشافات عدّة - لدى الآكي والآكا وغيرهما كثير من المجتمعات البشرية، وكثير من الأنواع الأخرى - وجد أن انخفاض المكانة يؤدي إلى انخفاض النجاح الإنجابي. ليست هذه السمة المميزة لمزيج استراتيجيات الاستقرار التطوّري. بل هي سمة الحيوانات متدنّية المكانة التي تحاول تحقيق أعلى استفادة من موقف شديد السوء.

على مدى عقود وبينما قلّل أنثروبولوجيون عدّة من أهمية الهرميّة الاجتماعية، عكف علماء النفس والاجتماع على دراسة ديناميكياتها، مراقبين المنشأة التي يفرز ضمنها أفراد جنسنا أنفسهم. ضع مجموعة من الأطفال مع بعضهم بعضًا، وسرعان ما سيُصنّفون ضمن درجات متمايزة. من سيشغلون القمّة هم الأكثر شعبيّة، ممن يُكثر الآخرون تقليدهم، وحينما يودّون تسليط تأثير، يُفضّل طاعتهم. وبدايات هذا الميل تظهر بين الأطفال البالغين من العمر حتى عام واحد. في البدء تعادل المكانة الصلابة - حيث أرفع الأطفال مكانة أولئك الذين لا يتقهقرون أمام تحدٍّ - وبالنسبة إلى الذكور، بالطبع، تظلّ الصلابة فارقة حتى مرحلة المراهقة. لكن في أثناء مرحلة رياض الأطفال، يرتقي بعض الأطفال التسلسل الهرمي عبر مهاراتهم التعاونية. أمّا

المواهب الأخرى - الفكرية والفنيّة - فسيكون لها وزنٌ كذلك، ولا سيما مع تقدّمنا في العمر.

درس كثير من العلماء هذه الأنماط من دون استحضار وجهة نظر داروينية إلى عملهم، لكن من الصعب عدم الشكّ في وجود أساس فطري لمثل هذه الأنماط الروبوتيّة للتعلّم. إلى جانب ذلك فهرميّات المكانة تعمل حتى وسط العائلة الواحدة. حيث تظهر بغاية الجلاء والتعقيد لدى أقرب أقربائنا، الشمبانزي والبونوبو، ونجدها أيضًا، ولو بشكل أيسر، لدى قريبنا الأقرب اللاحق الغوريلا وغيرهم كثير من الرئيسيات الأخرى. لو اتخذت عالم حيوان من كوكب آخر وعرضت عليه شجرة عائلتنا، ثم أشرت إلى أن الأنواع الثلاثة الأقرب إلى غصننا هرميّة بطبيعتها، غالبًا ما كان ليُخمّن أن نوعنا هرميٌّ كذلك. ولو أخبرته بوجود الهرميّة فعلًا لدى كافّة المجتمعات البشرية حيث يحرص الناس على السعي وراءها، حتى بين الأطفال ممّن لم ينالوا قدرة الحديث بعد، فربما كان ليعدّ القضيّة محسومة.

وهناك مزيد من الأدلة. يبدو أن بعض الطرق التي يدلّ بها الناس على مكانتهم ومكانة الآخرين ثابتة عبر الثقافات. بل إن داروين نفسه وبعد استجواب واسع النطاق للمبشّرين والرحّالة الآخرين حول العالم خَلُصَ إلى أن «الازدراء والاحتقار والتعالي والاشمئزاز يُعبَّرُ عنها بجملة من الطرق المختلفة، عبر حركات الملامح والإيماءات المختلفة؛ وهي متماثلة في كل أنحاء العالم»، وأشار أيضًا إلى أن «الرجل الفخور يُبدي إحساسه بالتفوّق على الآخرين عبر شدّ رأسه وجسده باستقامة»، وستُظهر الدراسات بعد قرن من الزمن أن وضعية الجسم تصبح أكثر استقامة فور تحقيق نصر اجتماعي - كأن يحصل تلميذ مثلًا على درجة مرتفعة في أحد الاختبارات. وسيجد عالم الأخلاق إيرينايس إيبل إيبسفيلدت أن الأطفال من مختلف الثقافات، بعد خسارتهم شجارًا، يُطأطِئُون رؤوسهم في حالة من الإذلال الذاتي. عالميّة أساليب التعبير هذه لها انعكاسات ضمنيّة. حيث يشعر الناس من شتّى الثقافات بالفخر عند النجاح الاجتماعي، وعند الفشل ينالهم

الحـرج، بل حتّى العـار، ويتتابهم في بعض الأحيان القلـق في أثناء انتظارهم هذه المُخرجات.

ترسـل الرئيسيات غير البشرية بعضًا من ذات إشـارات المكانة هذه التي للبشر. حيـث يتبختر ذكور الشـمبانزي المهيمنـون - والرئيسـيات المهيمنة عمومًـا - بزهـو واختيال. وبعد انتهاء عراك بين اثنين من ذكور الشـمبانزي عـلى المكانـة، ينحنـي الخاسر ذُلًا. ثـم يتكرّر هـذا النوع من الانحنـاء لاحقًا بوصفه تعبيرًا عن الخضوع السلمي.

المكانة وتقدير الذات والكيمياء الحيوية

أسـفل التماثـلات السـلوكية بـين البشر وغيرهم مـن الرئيسـيات تكمن أوجه تشابه بيوكيميائية. في مجتمعات قرود الفرفت، معدّل ما يملكه الذكور المهيمنـون مـن نواقـل السـيروتونين العصبية أكـبر بالمقارنة مـع الخاضعين. ووجـدت إحـدى الدراسـات أن في الأخويّـات الجامعيـة، لـدى مسـؤولي الأخويّات متوسط سيروتونين أعلى مقارنة بإخوتهم الأقلّ شأنًا.

وهـذه فرصـة جيّـدة لكبـح فكرة خاطئـة ازدهـرت ذات يـوم والتي مع أفولهـا الآن لم تزل حيّة على الرغم من اسـتحقاقها المـوت. ليس الأمر أن كلّ السـلوكيّات الخاضعـة لـ«السـيطرة الهرمونيـة»، أو أيّ «سـيطرة بيولوجيّة» أخـرى، «مُحدّدة جينيًا». نعـم، هناك علاقة بين السـيروتونين (هرمون، مثله مثـل كافّـة النواقـل العصبية) والمكانـة الاجتماعية. لكن لا، هـذا لا يعني أن المكانـة الاجتماعية لشـخص ما كامنة «في جيناته»، مُحدّدة سـلفًا منذ الولادة. فـإذا مـا تفحّصـت مسـتويات السـيروتونين لرئيـس الأخويّـة قبـل ارتقائه السـياسي بمدة طويلة، أو الخاص بذكر فِرْفِت ألفا قبل هيمنته، فقد لا تجدها اسـتثنائية. إن مسـتوى السـيروتونين، على الرغم من كونه أمرًا «بيولوجيًا»، لكنـه من نتاجـات البيئة الاجتماعيـة إلى حد كبير. وهو ليـس طريقة الطبيعة لتوجيـه النـاس منذ الـولادة نحو القيادة؛ بـل طريقة الطبيعـة لتجهيزهم إلى القيـادة بمُجـرّد بلوغهم إياها (وكـما تقترح بعض الأدلّة فهو يُشـجّعهم على

محاولة تولّي زمام القيادة في اللحظة المناسبة سياسيًا). أنت كذلك بإمكانك الحصول على مستويات سيروتونين مرتفعة، إذا ما انتُخِبت رئيسًا لأخويّة في الكليّة.

إن الاختلافات الجينية فارقة بالتأكيد. حيث تحثّ بعض الجينات أصحابها كي يكونوا طموحين أو أذكياء أو رياضيين وغيرها، بما يتجاوز الحدّ العادي- بما في ذلك حثّهم على امتلاك سيروتونين بمستويات تفوق الاعتيادي. لكن هذه السمات تعتمد في ازدهارها على البيئة (وفي بعض الأحيان على بعضها بعضًا)، ويُمكن أن تعتمد ترجمتها النهائية إلى مكانة على الصدفة إلى حدّ كبير. لم يولد أحد لأجل القيادة، ولا أحد ولد كي يكون تابعًا. وإلى الحد الذي يولد فيه بعض الناس مع أفضلية عرقية (كما هم بالطبع)، فربما يكون حق الميلاد ذلك على الأقل نتيجة أفضلية ثقافية بقدر ما هو نتيجة أفضلية جينية. وعلى أي حال هناك أسباب داروينية جيّدة للاعتقاد أن الجميع ولد بقدرة على امتلاك مستويات سيروتونين عالية – مع المعدّات اللازمة للخدمة بوصفه قائدًا رفيع المستوى في ظل بيئة اجتماعية تُفضي للارتقاء. والغاية المطلقة للدماغ البشري المرونة السلوكيّة، وهي شديدة الاختلاف عن الانتقاء الطبيعي، حيث مع هذه المرونة يُمكن لأي شخص الاستفادة من المكاسب الجينية للمكانة الرفيعة بمُجرد أن تسنح الفرصة.

ما الذي يفعله السيروتونين؟ يُعدُّ تأثير النواقل العصبية دقيق للغاية، وشديد الاعتماد على السياق الكيميائي، لدرجة تكون التعميمات اليسيرة محفوفة بالمخاطر. لكن يبدو في كثير من الأحيان، على الأقل، أن السيروتونين يُريح الناس ويجعلهم أكثر أُنسة وشفافية وكياسة اجتماعيًا، تمامًا كما يفعل كأس مثل النبيذ. والحقُّ أن إحدى تأثيرات الكحول إطلاق السيروتونين. وكإفراط طفيف ومفيد في التيسير، يُمكنك القول: إن السيروتونين يُزيد من احترام الذات؛ فهو يجعلك تتصرّف وفق طرق تليق برئيسيّات مُحترمة. ويُمكن لانخفاض مستويات السيروتونين البالغة أن تؤدي لا فقط لتدنّي احترام الذات، بل وإلى الاكتئاب الشديد الذي قد يقود للانتحار. وتعمل

مضادات الاكتئاب كالبروزاك على رفع مستوى السيروتونين.

لم يذكر هذا الكتاب سوى القليل عن النواقل العصبية كالسيروتونين، أو عـن الكيميـاء الحيوية عمومًا. ويعود ذلك جزئيًـا إلى أن الروابط الحيوية بين الجينـات والدماغ والسـلوك غير مفهومة تمامًا إلى حد كبير. والسـبب أيضًا؛ لأن المنطـق الأنيـق للتحليل التطـوّري كثيرًا ما يتيح لنا معرفـة دور الجينات المحـوري من دون القلق بشـأن التفاصيل الدقيقـة لتأثيراتها. لكن التفاصيل الدقيقة غالبًا ما تكون حاضرة بالطبع. حيث متى ما تحدّثنا عن تأثير الجينات (أو البيئـة) عـلى السـلوك أو الفكـر أو العاطفـة، فإننـا نتحدّث عن سلسـلة بيوكيميائية من التأثيرات.

وبينـما تتوضَّحُ هذه السلاسـل، يكون بإمكانها منح شـكل للبيانات غير المكتملة والمساعدة على تطعيم البيانات في إطار دارويني. وجد علماء النفس منذ عدة عقود مضت أن تقليل احترام الذات اصطناعيًا للناس (عبر منحهم تقارير كاذبة عن درجاتهم في اختبار الشـخصية) تجعلهم أكثر احتمالًا للغش في لعبـة ورق لاحقًـا. كـما وجدت دراسـة أحـدث أن أصحاب المسـتويات القليلـة من السـيروتونين أكثر احتـمالًا لارتكاب جرائم متهـوّرة. ربما يقول كلا هذيـن الاكتشـافين، بعـد ترجمتها وفـق المصطلحـات التطوّريـة، الأمر نفسـه : إن «الغـش» ردّ فعل تكيفي، يُحفَّزُ عندمـا يُدفع الناس إلى الحضيض، وبذلـك يصـير صعبًا عليهـم تأمين المـوارد شرعيًّا. ربما هنـاك بعض الحقيقة في هـذه العبارة الميـسّرة ظاهريًا عن الجريمة في المدن الفقـيرة - إنها نابعة من «احترام متدني للذات»، حيث يُذَكَّرُ الأطفال الفقراء عبر التلفزيون والأفلام أنهـم ليسـوا قريبين بأي نحـو من قمّة الهـرم. ومرّة أخرى نـرى كيف يُمكن للداروينيـة، التـي غالبًا ما تصوّر على أنها حتمية وراثيّـة ويمينية، التناغم مع الحتمية البيئية المفضلة لدى اليسار.

كـما ونرى أيضًا طريقة أخـرى لاختبار نظريات انتقـاء الجماعة. لو تطوّر قبول المكانة المتدنّية أساسًـا بوصفه عنـصرًا من عناصر نجاح الجماعة، نجاح سـيتدفّق بعد ذلك ويصـب في صالح حتى من هم في مرتبـة أدنى، فإنك لن

تتوقّع من الحيوانات متدنّية المكانة قضاء وقتها في تخريب نظام الجماعة.

يُعَدُّ تأكيد الارتباط بين السيروتونين والمكانة لدى الرئيسيات دون البشرية مهمّة فوضوية، ولم يُجرّبها أحدٌ مع أقرب أبناء عمومتنا، الشمبانزي. لكنّ الرهان الأوفر أنه موجود هناك. الحقّ أن أوجه التشابه بين سعي الإنسان والشمبانزي تجاه المكانة لافتة للنظر، وإن لنا مع الشمبانزي ارتباطًا وثيقًا، لدرجة يُمكن معها أن تكون كثير من الآليات البيوكيميائية - والحالات العقلية والعاطفية المتماثلة - مشتركة مع الشمبانزي بفضل سلف مشترك. بذلك يُعدُّ كفاح الشمبانزي مما يستحقّ النظر فيه.

أكثر جوانب العناية المفرطة التي يوليها الشمبانزي للمكانة لا تتعدّى كونها طقوسًا فقط: التحايا المتواضعة التي يمنحها تابعٌ لسيّده. حيث ينحني الشمبانزي وقد يُقبّل قدم سيّده فعليًا. (ويبدو أن تقبيل الأقدام شذوذ ثقافي لا يظهر في جميع مستعمرات الشمبانزي)، لكن في حالة الذكور على الأقل، فالترتيب المعترف به سلميًا ضُبط بعد صراع. فلو رأيت شمبانزي يجتذب إجلالًا عظيمًا، فذلك بعد انتصاره في عدد لا بأس به من العراكات.

الرهانات حقيقيّة للغاية. حيث تُخصَّص الموارد وفق المكانة بصرامة، وغالبًا ما يضمن الذكر الألفا حصّة الأسد لنفسه. وتحرس غيرة الألفا، على وجه الخصوص، الإناث المرغوبات في أثناء فترة الشبق، وهي مرحلة تَتَّضِح فيها الخصوبة.

وبمجرّد وجود سلّم المكانة هذا، وضمان السلالم العليا لمكافآت إنجابية أكبر، ستنتشر الجينات التي تساعد الشمبانزي على تسلّقه مقابل تكلفة معقولة. قد تعمل الجينات عبر غرس الدوافع التي توصف لدى البشر بـ«الطموح» أو «التنافسية»؛ أو عبر غرس مشاعر كـ«العار» (إلى جانب النفور منه والميل للشعور به بعد ارتكاب فشل جليّ)؛ أو «الفخر» (إلى جانب الانجذاب له والميل للشعور به بعد إنجاز أعمال باهرة). لكن أيًّا كانت دقّة المشاعر، إذا ما كانت تقود لتعزيز اللياقة فإنها ستصبح جزءًا من سيكولوجيا النوع.

يبدو أن ذكور الشمبانزي أكثر خضوعًا بكثير لهذا النوع من القوى مقارنة بإناثهم؛ إذ إنهم يبذلون جهدًا أكبر في السعي لأجل المكانة. وهذا هو السبب وراء عدم استقرار هرميّات الذكور. حيث يبدو أن هناك دائمًا ذكرًا يافعًا ملؤه الطموح يتحدّى الألفا، في حين يقضي الذكور الألفا كثيرًا من الوقت في رصد مثل هذه التهديدات ومحاولة درئها. بينما تستقرّ الإناث ضمن هرميّة أقل صدامًا (حيث غالبًا ما تكون الأقدميّة مهمّة للغاية)، وبذلك تصبح أقل انشغالًا بمكانتها. والواقعُ أن هرميّة الإناث متواريّة لدرجة يصعب رصدها إلّا بالعين الخبيرة، في حين يُمكن لتلميذ مدرسة تمييز ذكر الألفا لما يُبديه من غرور وغطرسة. وغالبًا ما تدوم تحالفات الإناث - الصداقات - مدى الحياة، بينما تتقلّب تحالفات الذكور بحسب المنفعة الاستراتيجية.

الرجال والنساء والمكانة

بعض ما سبق له طنين مألوف. فذكور البشر كذلك معروفون بالطموح والغرور والانتهازية. لاحظت اللغوية ديبورا تانين، مؤلّفة كتاب أنت عديم الفهم، أن المحادثة بالنسبة إلى الرجال، على عكس النساء، «هي في الأساس وسيلة لحفظ الاستقلالية والتفاوض والحفاظ على المكانة في النظام الاجتماعي الهرميّ». جادل كثيرون، ولا سيما في النصف الثاني من هذا القرن، أن الاختلاف ثقافي بالكامل، وقد وافقت تانين في كتابها على هذه الرؤية. لكنها رؤية تكاد تكون خاطئة بالتأكيد. فالديناميكيات التطوّرية وراء سعي ذكر الشمبانزي المحموم لأجل المكانة مفهومة جيدًا، وكانت هذه الديناميكيات عاملة في أثناء تطور البشر أيضًا.

هذه الديناميكيات هي نفسها التي تفسر مقاربات الذكور والإناث للجنس: القدرة الإنجابية الهائلة للذكر، والمحدودة للأنثى، والتفاوت الناتج في النجاح الإنجابي بين الذكور. من ناحية، قد لا يكون للذكور مُتدنّي المكانة أيّ ذريّة - وهي حقيقة يُمكن لها بواسطة الانتقاء الطبيعي أن تعني تحقيق نفور نشط من المكانة المتدنّية. ومن ناحية أخرى، يُمكن أن تعني المكانة ألفا

إنجـاب عشرات الأبنـاء بمعيّة كثير مـن الأمّهات - وهي حقيقـة يُمكن لها بواسـطة الانتقاء الطبيعي أن تغرس في الذكور رغبة لا حدود لها في السلطة. بينما بالنسبة إلى النسـاء فالمخاطر الإنجابية لِلُعبة المكانـة أقلّ كثيرًا. حيث لا تواجه أنثى الشمبانزي في مرحلة التبويض نقصًا في خاطبي الودّ بغض النظر عن مكانتها. وهي لا تخوض منافسة جنسية مع بقيّة الإناث.

إن النسـاء في جنسـنا تتنافس بالطبع على الشركاء - عـلى أكثرهم عرضًا للاسـتثمار الوالـدي. لكن لا دليل هنـاك على أن المكانـة الاجتماعية، في أثناء تطـوّر البـشر، كانت الأداة الرئيسـة في تلك المنافسـة. إلى جانـب أن الضغط التطـوري وراء تنافسـية الرجـال لأجل الجنس يبـدو أنه فـاق الضغط وراء تنافسـية النساء على الاسـتثمار. والسبب مرة أخرى أن الاختلافات المحتملة في اللياقة أكبر بكثير لدى الذكور منها عند الإناث.

توضـح موسـوعة غينيس للأرقام القياسـية هـذه النقطة بجـلاء. حيث أكثـر الآبـاء البشريـين خصوبة في تاريخ العـالم له ٨٨٨ طفـلًا - ما يزيد على ٨٦٠ طفـلًا تقريبًـا لما تحلم أيّ امـرأة بإنجابه طوال حياتها، مـا لم يُنعَم عليها بقـدرة اسـتيلاد التوائـم المتعدّدة. وكان اسـمه ولقبه على التتابـع هو مولاي إسـماعيل الدموي، الإمبراطور الشريف للمغرب. إنه لأمر مفزِع التفكير في أن جينات شـخص يُكنّى بالدموي وجدت طريقها لما يقارب ألفًا من ذريّته. إلّا أن هذه هي الطريقة التي يعمل الانتقاء الطبيعي وفقها: إذ غالبًا ما تنتصر أكثر الجينات إثارة للفزع. وبالطبع، ليس مؤكدًا أن تعطّش مولاي إسـماعيل للدماء كامنٌ في جيناته المميزة؛ فربّما عانى من طفولة قاسـية فقط. على الرغم مـن ذلك ربـما فهمت المُراد: في بعـض الأحيان تكون الجينات مسـؤولة عن دافـع الذكـر الجامح للسـلطة، وطالما أن هذه السـلطة تُترجـم إلى ذريّة حيّة، فهذه الجينات ستزدهر.

بعد وقت قصير من رحلة البيغل، كتب داروين إلى قريبه فوكس أن عمله «تلقّى استحسـانًا من قبـل المدافع الكبيرة وقد منحني ذلـك كثيرًا من الثقة، ولسـت آمـل أن يُرافقها كثيرٌ مـن الغرور؛ وعلى الرغم مـن ذلك أعترف أنّي

غالبًا ما أشعر مثل طاووس مأخوذ بذيله». في تلك المرحلة، وقبل شروق فجر الانتقاء الطبيعي عليه، ومدة أطول من بزوغ الانتقاء الجنسي، لم يكن داروين عالمًا بمدى ملائمة مقاربته تلك. لكن أمكنه لاحقًا رؤية ذلك بالطبع، حيث يُنتَج الأنا الرجولي بذات القوى التي تُنتج ذيل الطاووس: التنافس الجنسي بين الذكور. كتب داروين في أصل الإنسان: «يبدو أن المرأة تختلف عن الرجل في مزاجها العقلي، وبشكل رئيس في حنانها العظيم وأنانيّتها الضئيلة. أمّا الرجل فهو منافس غيره من الرجال؛ حيث تُسعده المنافسة، وهذا يقود إلى الطموح الذي يتحوّل إلى أنانيّة بسهولة. ويبدو أن هذه الصفات اللاحقة هي حقه الطبيعي والمؤسف».

رأى داروين كذلك أن هذا الحق الطبيعي لم يكن مُجرّد بقايا من أيّامنا القرديّة، بل نتاج قوى فاعلة موجودة منذ زمن سحيق قبل تحوّلنا إلى بشر. «إن أقوى الرجال وأنشطهم، - أولئك القادرون على الدفاع والصيد لأجل عوائلهم جيدًا، والقادة أو الرؤساء في وقت لاحق، - أولئك المزودون بأفضل الأسلحة والحائزون لمعظم الممتلكات، كأكثر الكلاب وغيرها من الحيوانات، يُمكن لهم النجاح في تربية أكبر قدر من الذرية مقارنة بالأعضاء الأضعف والأفقر والأدنى من القبيلة نفسها. في الوقت الحاضر ينجح زعماء كل قبيلة في كل أنحاء العالم تقريبًا بضمان أكثر من زوجة واحدة». في الواقع تقترح الدراسات التي أجريت على الآكي، والأكا، والإزتك، والإنكا، وقدماء المصريين، وغيرهم كثير من الثقافات أن قوة الرجل كانت، حتى مجيء الاستخدام الشائع لوسائل منع الحمل، تترجم إلى كثير من الأبناء. وحتى الآن بعد كسر موانع الحمل هذا الارتباط، يبقى الارتباط بين المكانة ومقدار الجنس الذي يُمارسه الرجل قائمًا.

من المؤكد أن القدرة التنافسية للذكور لها أساس ثقافي وجيني على حد سواء. وعلى الرغم من تفوق حزم الأطفال الذكور عمومًا مقارنة بالإناث الصغيرات، إلّا أنهن يُمنحن أيضًا مدافع ويُلحَقْنَ بدوريّ الصغار. ثم مرّة أخرى، قد تكمن هذه المعالجة نفسها جزئيًا في الجينات. ربما بُرمِجَ الآباء على

قولبـة أبنائهم إلى آلات إنجابية مثاليـة (أو، بالمعنى الدقيق للكلمة، إلى آلات يُرجّـح أن تكون مثاليّة إنجابيًا بالنسـبة إلى بيئتنا التطورية). أبدت مارغريت ميـد مرّة ملاحظة عن المجتمعات البدائية قـد تنطبق من حيث بعض المعايير عـلى كافّـة المُجتمعـات: «تتعلّـم الفتـاة الصغيرة أنهـا أنثى وأنها لـو انتظرت بسـهولة، فسـتكون أمًّا يومًا ما. بينما يتعلّم الولد الصغير أنه ذكر وأنه فيما لو نجـح في الأعمال الرجوليـة يومًا ما، سـيُصبح رجلًا ويَقدر على اسـتعراض مـدى رجولتـه». (قـد تعتمد القوّة النسـبية لهذه الرسـائل على مـدى المغزى الداروينـي الـذي تصنعه محليًا. فهنـاك دليل على إيلاء الآبـاء عند التربية، في المجتمعات متعـدّدة الزوجات، حيث يكون الرجـال رفيعو المكانة ذا غزارة إنتاجية فلكية، عناية خاصّة لتنمية القدرات التنافسية لدى أبنائهم).

لا يعني أي من هذا احتكار الذكور للطموح. فبالنسبة إلى الإناث الرئيسيات - سواء القردة أم البشر - يُمكن للمكانة ضمان عدد من الفوائد، كزيادة الطعام أو تلقـي ذريتهـا معاملة أفضل؛ وبذلك فهم يسـعون للارتقـاء إلى مكانة أرفع بشيء من الحماس. تُهيمن إناث الشـمبانزي روتينيًـا على الذكـور اليافعين في سـنّ المراهقة، وبسبب الفراغ في هيكل السلطة الذكورية، يُمكنهنّ بلوغ مواقع سياسـيّة عُليـا. فحينـما لا تتضمّـن معسـكرات الشـمبانزي المأسـورين ذكورًا بالغـين، فقد تشـغل إحدى الإناث مكانـة الألفا ثم تدافع عـن موقعها باقتدار حين ظهور منافسـين من الذكور. وتُظهر البونوبو - أقـرب أقربائنا التطوّريين الآخـر - شـهوة أكبر للسـلطة من جانب الإنـاث. ففي كثير مـن المجموعات الأسـيرة الصغيرة، تُرى النسـاء بمناصب قيادية لا يُنازعهنّ أحد عليها. وحتى في البريّة، يُمكن للإناث الأكثر بطشًا السيادة على الذكور الأصغر سنًا.

لذا وبينما ننظر إلى صراعات المكانة بين الشـمبانزي، ستنطبق الدروس - أقلّها جزئيًا - على الإناث. سـنُركّز على المعارك المُخاضة من جانب الذكور، ذلـك أن الذكور يتقاتلون بأسـلوب رفيع. إلّا أن القـوى العقلية التي تُغذي هـذه المعارك، في حال كانت كامنة لدى البـشر، قد تكون كامنة لدى الإناث كما الذكور، ولو بجرعات أصغر.

تعدّ هرميّتا البشر والشمبانزي كلاهما أرقُّ من هرميّات الدجاج. أي يُمكن تبدّل حال الحيوانات بين ليلة وضحاها - ليس فقط لأن التسلسل الهرميّ جرى تعديله (وهذا ما يحصل له عادة) ولكن لأن الهيمنة يُمكن أن تعتمد على السياق؛ يُمكن أن تعتمد هوية فرد الرئيسيات المرجَّح شقّ طريقه على من يتواجد عداه في الأنحاء. والسبب أن للشمبانزي والبشر شيء لا يملكه الدجاج: الإيثار المتبادل. إن العيش في مجتمع يتسم بالإيثار المتبادل معناه امتلاك أصدقاء. ويساعد الأصدقاء بعضهم بعضًا في أثناء النزاعات الاجتماعية.

قد يبدو ذلك واضحًا. فالصديق، بعد كل شيء، وقت الضيق. إلّا أنه أمر رائع حقًا. فالمزيج التطوّري الذي ولّده - الخاص بالإيثار المتبادل وهرميّة المكانة - نادر للغاية في سجلات الحياة الحيوانية.

ويُحفّز المركّب حقيقة أن بمُجرّد وجود الهرميّة، تُصبح المكانة موردًا. إن منحتك المكانة وصولًا أكبر للطعام أو الجنس، فسيبدو بحثك عنها في خلاصة السياق مفهومًا، كما يبدو بحثك عن المال مفهومًا على الرغم من عدم استطاعتك أكله. لذا فإن تبادل المساعدة المعزز للمكانة بين حيوانين ليس مختلفًا نوعًا عن تبادل الطعام: طالما للتبادل محصّلة غير صفريّة، فالانتقاء الطبيعي سيعمل على تشجيعه إذا مُنحت له الفرصة. في الواقع، وبعد النظر عن كثب إلى مجتمعات البشر والشمبانزي، قد يظنّ المرء أن التعاون بغرض تعزيز المكانة هو الهدف الرئيس للصداقة من وجهة نظر الانتقاء الطبيعي.

يُمثّل الاندماج التطوري للهرميّة والإيثار المتبادل شطرًا جيدًا من متوسّط حياة الإنسان. فكثير من تقلّباتنا المزاجية والتزاماتنا المصيرية وتغيّرات قلوبنا تجاه الآخرين وجمعيّاتنا وحتّى أفكارنا، إن لم يكن أغلبها، تحكمها أعضاء عقلية أوجدها هذا الاندماج. وقد فعلت كثيرًا لتشكيل نسيج الوجود اليومي.

كما شكّلت أيضًا أغلب بنية الوجود. إن الحياة ضمن الشركات وبينها، ضمن الحكومات الوطنيّة وبينها، ضمن الجامعات وبينها - جميعها محكومة

من قبل ذات الأعضاء العقلية. فكُلٌّ من الإيثار المتبادل وهرميّة المكانة تطوّرا بوصفهما عاملًا مساعدًا لبقاء الجينات الفردية، على الرغم من ذلك فهُم إلى جانب بعض يُمسكون العالم.

يُمكنك رؤية الأساس في الحياة اليومية للشمبانزي. انظر إلى هيكل مجتمعهم، ثم تخيّل نموًا ضخمًا في ذكائهم - في الذاكرة والدهاء والتخطيط بعيد المدى واللغة - وستكون قادرًا حينها على تصوّر مبانٍ كاملة مليئة بأفراد من الشمبانزي المتأنّقين: مباني مكتبية، مباني الكابيول، مبان جامعية، جميعها تعمل بصورة شبيهة لما لدينا اليوم في خيرها وشرّها.

سياسات الشمبانزي

تعتمد المكانة لدى الشمبانزي، حالها حال المكانة عند البشر، على ما هو أكثر من الطموح والقوّة الخام. صحيح أن ارتقاء الشمبانزي الألفا غالبًا ما يتضمّن هزيمة الذكر الألفا الحالي مرّةً على الأقل. ويُمكن للألفا الجديد بعد ذلك الاعتياد على ترهيب سلفه وجميع البقية الآخرين؛ حيث يعدو وسط المستعمرة ضاربًا الأرض ومتّجهًا نحو سلسلة من القرود الذين، عبر اجتنابه، يعترفون بتفوّقه - وقد يصفع واحدًا أو اثنين منهم على أيّ حال لتأكيد أفضليته. مع ذلك، غالبًا ما يتطلّب الأمر ذكاءً استراتيجيًا لبلوغ الهيمنة والحفاظ عليها.

وأكثر الأمثلة شهرة للمكانة المبحوثة بذكاء تأتي من ملاطفة مايك، أحد ذكور الشمبانزي الذين درستهم جين غودال في أفريقيا. اكتشف مايك، على الرغم عدم اتصافه بالضخامة، أنه عبر الجري نحو أكثر الذكور رجولة مع دحرجة علب الكيروسين الفارغة بضجيج مرتفع في اتجاههم، يمكنه كسب احترامهم. كتبت غودال: «يُكرر مايك أحيانًا هذا الأداء إلى ما يصل لأربع مرات متتابعة، ثمّ ينتظر حتى ينشغل خصومه في العناية ببعضهم مرّة أخرى قبل شنّ حملة جديدة ضدهم. وحين يتوقّف في النهاية (وغالبًا في المكان المحدد الذي كان يجلس فيه الذكور الآخرون)، يعودون ناحيته

ويبدأون برعاية مايك مع إيماءات خاضعة. . . . لقد بذل مايك جهودًا حثيثة لأجل تأمين المصنوعات البشرية كي يُحسّن من عروضه - كراسٍ وطاولات وصناديق وحوامل ثلاثية القوائم وأي ما توفر له. في النهاية استطعنا تأمين كافّة هذه العناصر له».

ليست عبقريّة مايك الاستثنائية أنموذجيّة بنحو خاص وقد لا تكون ذات صلة وثيقة بتطوّر البشر. فبين الشمبانزي، لا يتعلق الاستخدام الأكثر شيوعًا للدهاء في السعي نحو المكانة بسحر التكنولوجيا، بل الذكاء الاجتماعي: التلاعب بولاءات الإيثار المتبادل خدمة للمصلحة الشخصية الميكيافيلية.

والشمبانزي بعد كل شيء كما الإنسان نادرًا ما يقود وحيدًا. إن التربّع على قمّة حشد من القرود، بعضهم ذكور يافعون طموحون، أمر محفوف بالمخاطر، لذا يلجأ الألفا إلى ترتيب مصدر منتظم يستمدّ منه الدعم. وقد يكون هذا الدعم بشكل مُلازم واحدٍ قوي يساعد الألفا في التصدّي للمنافسين مقابل منحه مزايا معيّنة، كالوصول الجنسي إلى الإناث في مرحلة التبويض. أو قد يكون في توثيق علاقة مع أنثى مهيمنة؛ حيث تدافع عن الألفا مقابل ضمان معاملة تميّزها وذريّتها عن الأخريات. وقد يكون الدعم بأشكال أكثر تعقيدًا وتشوّشًا كذلك.

أفضل توضيح لليونة سلطة الشمبانزي، وما يصاحبها من تعقيد عاطفي وإدراكي، وصف عالم الرئيسيات فرانس دي وال الجذّاب والمطوّل للحياة بين الشمبانزي في جزيرة مساحتها فدانين داخل حديقة حيوانات في بلدة آرنهيم الهولندية. يجد بعض الناس كتاب دي وال - والحقّ عنوان الكتاب نفسه، سياسات الشمبانزي - إشكاليًا. حيث يظنّون أنه استسهل للغاية نَسْب الطبيعة البشرية إلى الشمبانزي. لكن لا أحد يستطيع إنكار فرادة هذا الكتاب في وصفه التفصيلي الدقيق للحياة بين القردة. وسأروي القصة كما رواها دي وال، مُكمّلة بنبرته المُجسّمة الجذابة، ثم التعامل مع إشكاليات التأويل لاحقًا.

كان يروين، وهو شخصيتنا الرئيسة في الدراما، يعرف جيدًا هشاشة السلطة. إذ في أثناء احتلاله منصب الألفا اعتمد على ولاء كثير من الإناث، ولاسيما ماما، وهي قردة مؤثّرة للغاية احتلّت مكانة الأنثى المهيمنة في كامل سرديّة دي وال. كانت الإناث من التفت إليهنّ يروين طلبًا للدعم حينما تحدّاه لويت الأصغر والأقوى.

تعاظم تحدّي لويت بلا هوادة. في البدء كان عبر مضاجعة إحدى الإناث في أثناء مرحلة الإباضة، وفعل فعلته بنحو سافر صاخب على مرأى ومسمع من يروين الغيور والتملّكي (مثله مثل أي ذكر ألفا)؛ ثم تبعت ذلك سلسلة من «العروض» العدائية أو التهديدات استهدفت يورين؛ وأخيرًا اعتداءٌ جسدي: نزل لويت من الشجرة على يروين ضاربًا إياه قبل الهرب بعيدًا. ليس هذا نوع المعاملة التي اعتادها ذكور الألفا. إذ شرع يروين في الصراخ ثم ركض ناحية جماعة من الشمبانزي، أغلبهم من الإناث، محتضنًا كلّ فرد منهم، وبعد تعزيزه علاقاته الاستراتيجية، قادهم نحو لويت. حاصر يروين ورفاقه لويت، الذي تلاشى في نوبة من الغضب. لقد خسر معركته الأولى.

يبدو أن يروين شعر مسبقًا بأن هذا التحدي كان قيد الإعداد. تظهر سجلّات دي وال أن في أثناء الأسابيع التي سبقت أول تحد علني للويت، ضاعف يروين الوقت الذي قضاه في تواصله الودّي مع الإناث البالغات بما يزيد عن ضعفين. لاحظ أن مُعظم القُبلات التي يوجّهها السياسيّون لرعيّتهم تكون في الأوقات القريبة من الانتخابات.

كان انتصار يروين المسكين مؤقتًا للأسف. إذ بدأ لويت بعدها في تقويض الائتلاف الحاكم. حيث قضى الأسابيع اللاحقة في ضرب أنصار يورين. وحينما كان يرى أنثى تعتني بيورين، يقترب ناحية الاثنين مهدّدًا أو يهاجم الأنثى فعليًا، وفي أحيان يقفز عليها صاعدًا هابطًا. ومع ذلك كان لويت يُرى وهو يعتني بذات الأنثى أو يلاعب أطفالها – طالما هي ليست مع يورين. فهمت الإناث الرسالة.

ربما لو دافع يروين عن حلفائه بشكل أفضل، لأمكنه التمسّك بمكانة

الألفا. لكن هذا الخيار بات غير مضمون بعد التحالف الذي نشأ بين لويت وذكر يافع اسمه نيكّي. كان نيكّي يرافق لويت في أثناء إساءته معاملة الإناث، موجهًا لهنّ في أحيان صفعة قاسية بنفسه. كانت شراكتهم طبيعية: كان نيكّي الذي تجاوز الآن سنّ المراهقة يكافح من أجل فرض هيمنته على كل الإناث - وهي بمثابة طقوس البلوغ بالنسبة إلى الشمبانزي - والانتماء إلى لويت سهّل ذلك. في النهاية، وبعد بعض التردّد، منح لويت لنيكّي الحافز الإضافي المتمثّل بامتيازات جنسية خاصّة.

بعد عزل يورين، أمكن للويت الارتقاء إلى رتبة الألفا. وانطوى انتقاله على كثير من المواجهات العدائية، ولم يحكم قبضته حتى أذعن يِروين محيّيًا لويت بخضوع.

أثبت لويت أنه زعيم حكيم وناضج. ففي ظل حكمه، كانت الحياة منظمة وعادلة. في حال تعارك اثنان من الشمبانزي، كان يتوسّطهما بسلطة هادئة، منهيًا العداء من دون خوف أو محاباة. وحينما ينحاز لأحد المتقاتلين، غالبًا ما يكون لصالح الطرف الموشك على الخسارة. كان هذا النمط من دعم المضطهدين - الشعبوية كما ندعوها - قد اِستُعمل في أثناء مرحلة حكم يِروين كذلك. ويبدو أنه أثار إعجاب الإناث بنحو خاص؛ فإلى جانب الظهور بمظهر الأقل انخراطًا من غيره في السعي وراء المكانة، بدا أيضًا كمَن يكافئ الاستقرار الاجتماعي. أمكن للويت الآن الاعتماد على دعمهم له.

ومع ذلك لن تكفي الشعبوية على المدى الطويل. فما زال لويت من جانب يواجه ولع يِروين المستمرّ بالسلطة (وربما بعض العداوة المستمرّة، على الرغم من تصالح الاثنين السخي مع كثير من العناية المتبادلة، وبعد اعتراف يِروين بالهزيمة)؛ وعلى الجانب الآخر هناك طموح نيكّي الجلي. ولا بُدّ أن لويت قد وجد الأخير أكثر تهديدًا؛ لأنه سعى للتحالف مع يورين، وبذلك إبعاد نيكّي خارج دائرة السلطة. لكن يورين، الذي بدا مدركًا لمكانته المحورية في ميزان القوى، أثبت كونه حليفًا خجولًا، لاعبًا على الحبلين في هذا الصراع. ثم أخيرًا حوّل ثقله تجاه نيكّي، وبعد التحالف معه أطاح بلويت. انتقلت مكانة

الألفا إلى نيكّي، لكن يِروين استمرّ بلعب أوراقه ببراعة لدرجة أنه في العام اللاحق كان هو من يقود كافّة الذكور في النشاط الجنسي وليس نيكّي. عدّ دي وال نيكّي قائدًا «صوريًا» بينما مثّل يِروين السلطة الحقيقية وراء العرش.

للقصة خاتمة مروّعة. بعد نشر كتاب دي وال، نشب خلاف بين نيكّي ويِروين. إلّا أن شعورهما بالمصلحة المشتركة تمّ إحياؤه بعد استعادة لويت منصب الألفا. وفي إحدى الليالي بعد عراك دموي، أصابوا لويت بجروح قاتلة - بل وذهبوا بعيدًا، في جزء لا مسوّغ له من الرمزيّة الداروينية، حدّ تمزيق خصيتيه. لم يكن لدى دي وال شكّ يذكر بشأن أي القاتلين المشتبهين استحقّ اللوم الأكبر على ذلك. «بدا نيكّي، الأصغر بعشر أعوام، مجرّد بيدق في ألعاب يوريـن» مثلما صرّح لاحقًا: «لقد وجدت نفسي أقاتل هذا الحكم الأخلاقي، لكن حتّى يومنا هذا لا يمكنني النظر إلى يِروين من دون أن أرى فيه قاتلًا».

كيف يبدو الأمر حين تكون شمبانزيًا

هذه هي قصة الشمبانزي في آرنهيم، محكيّة كما لو كانوا بشرًا. هل يستحق دي وال الإدانة على تجسيده هذا؟ من المفارقات أنه حتى هيأة محلّفين مكونة من علماء نفس تطوّريين كانت ستصوّت لصالح الإدانة - لواحدة على الأقل من التهم المقدّمة.

يشك دي وال في أنه، قبل محاولة لويت الحصول على منصب الألفا تمامًا، حينما بدأ يِروين قضاء مزيد من الوقت مع الإناث، «شعر بالفعل أن موقف لويت قد تبدّل وأن منصبه بات مُهدَّدًا»، ربما «أحسَّ» يروين بتبدّل في الموقف، وقد يفسر ذلك اهتمامه المفاجىء بالإناث المحوريات سياسيًّا. لكن هل علينا الافتراض، مثل دي وال، أن يروين «علم» بشأن - وتوقّع عن وعي - التحدّي القادم وبذلك اتخذ إجراءات احترازية مقدّمًا؟ ولماذا لا يقدر إصرار لويت المتزايد على إلهام وخزات انعدام الأمان التي حثّت يروين على الانسحاب والتقرّب لأصدقائه؟

مـن المؤكد قدرة الجينات التي تشـجّع على اسـتجابة عقلانيـة غير واعية للتهديـدات تحقيـق نتائج جيّـدة في الانتقـاء الطبيعي. فحينـما يتقهقر صغير إنسـان أو شـمبانزي لحظة رؤيتـه حيوانًا مخيفًـا عائدًا إلى أمه، تُعدّ اسـتجابته منطقيـة، غـير أن الصغير لا يُدرك منطق اسـتجابته. وبالمثـل، حينما اقترحت سـابقًا أن مـرض داروين المتكـرّر ربما كان يُعيـد ملأ عاطفته لإيـمّا دوريًا، لم أزعـم إعادته تقييم قيمتهـا في ضوء حالته الصحيّة المتدهورة (على الرغم من احتماليـة فعله ذلك). يبـدو أن التهديدات بمختلف أنواعهـا تُغذّي عاطفتنا تجاه من يساعدوننا في مواجهة المِحنْ - الأقارب والأصدقاء.

المسـألة هي أن إسناد التألق الاسـتراتيجي بسهولة مفرطة إلى الشمبانزي قد يحجب موضوعًا أساسـيًا لعلم النفس التطوّري: غالبًا ما يكون السـلوك البـشري اليومـي نتاجًـا لقوى باطنية - قـوى عقلانية، ربما، لكـن عقلانيتها ليسـت عن وعي. وبذلك ربما خلق دي وال ديكوتوميّة مضلِّلة حينما تحدّث عـن «الانتكاسـات السياسـية والقـرارات العقلانيـة والانتهازيـة» ليرويـن ولويت ثم التأكيد على أن «لا مجال في هذه السياسـة للتعاطف أو الكراهية». ما بدا مثل سياسـات قد يكون نتاجًا للتعاطف والكراهية؛ فصانع السياسـة المطلق هو الانتقاء الطبيعي، وهو يعاير هذه المشاعر لأجل تنفيذ سياساته.

مـع إصـدار هـذا الحكـم، يُحتمـل أن تسـتمر هيأة محلفـي علـماء النفس التطـوّري في تبرئة دي وال مـن عدّة تهم أخرى تتعلّق بالتجسـيم. ففي أكثر الأحيان، كان ما ينسبه إلى الشمبانزي ليس الحسابات البشرية ولكن المشاعر الإنسـانية. ففي المرحلة المبكرة غير الحاسـمة من تحدي لويت ليروين، اعتاد الاثنان القتال دوريًا. وعادة ما يتبع القتال (لدى الشـمبانزي وغيرها العديد من الرئيسـيات الأخرى، بضمنها نحن)، عاجلًا أم آجلًا، بطقوس الصُلح. لاحـظ دي وال كيف كان كل منهما مترددًا في بدء التقارب ناسـبًا هذا التردد إلى «حسّ الشرف».

لقـد وضع هذه العبارة في منتهى الحذر وسـط علامتـي اقتباس، وربما لا تكـون هنـاك ضرورة لذلك. إذ في مجتمع الشـمبانزي، كما هـو حال المجتمع

البشري، يُمكن لعروض السلم حمل إشارات بالخضوع؛ وللخضوع في أثناء الصراع على القيادة تكاليف داروينية باهظة، ذلك أنها تجلب لصاحبها مكانة ثانويّة أو ما هو أقل. لذا فالنفور العام ذو الأساس الجيني لمثل هذا الخضوع (إلى حد ما على الأقل) له ما يُبرره تطوّريًا. في جنسنا البشري، نسمي هذا النفور بحسّ الشرف أو الكبرياء. هل هناك ما يمنع استعمال ذات المصطلحات عند الحديث عن الشمبانزي؟ وكما لاحظ دي وال، بالنظر إلى القرابة الوثيقة بين النوعين، فإن الافتراض بأن القواسم العقلية المشتركة العميقة تمثّل علمًا مُقتصدًا جيّدًا: فرضيّة واحدة تفسر بشكل معقول ظاهرتين منفصلتين.

معروف عن الزوجات أن يقلن عن أزواجهنّ: «قد يشنق نفسه قبل الاعتراف بخطئه»، أو «لم يبادر بالاعتذار يومًا»، أو «إنه يكره طلب الإرشادات». يبدو أن الرجال يكرهون التنازل عن تفوّقهم لصالح إنسان آخر، حتى في أشد المسائل تفاهة كالجغرافيا المحلّية. وربما يكمن السبب في أنه في أثناء التطوّر البشري، كان مصير الذكور الذين سعوا بسهولة مفرطة للتصالح بعد القتال، أو خضعوا لغيرهم من دون داعٍ، أن يشهدوا تدنيًا في مكانتهم، وبذلك لياقتهم الشاملة. يُفترض أن الإناث فعلن ذلك أيضًا؛ فالنساء، كما الرجال، يتردّدن قبل الاعتذار أو الاعتراف بخطئهنّ. لكن لو أمكن الاعتماد على الحِكَم الشعبية، فالنساء أقلّ تردّدًا من الرجال بالمتوسّط. ولا ينبغي لهذا أن يفاجئنا، ذلك أن لياقة أسلافنا الإناث لم تعتمد على هذا الإحجام بقدر اعتماد لياقة أسلافنا الذكور عليها.

تحدث دي وال أيضًا عن «الاحترام». إذ حينما صارت هيمنة لويت غير قابلة للإنكار، سعى يروين إلى التقرّب منه، لكن لويت قابله بالتجاهل حتى سمع بضع «همهمات محترمة»، إشارات جليّة على الخضوع. من شأن ذكر الشمبانزي البيتا أن يشعر تجاه الألفا بذات الطريقة التي يشعر بها مقاتل خاسر تجاه خصم يبلغه أنه الآن صار «يحترمه». وفي لحظات الهيمنة المطلقة للقرد، حينما ينحني المهزوم في خضوع مُذل، قد تكون الرهبة هي الكلمة المناسبة.

رأت جين غودال، كما دي وال، «الاحترام» لدى القردة التي عرفتها، رغم استعمالها هذه العبارة بشكل مغاير نوعًا ما. مستذكرة فترة تدريب ذكر شمبانزي يافع يدعى غوبلن تحت يد ذكر ألفا اسمه فيغان، كتبت أن «غوبلن كان شديد الاحترام لـ'بطله' حيث كان يتبعه أينما ذهب ويشاهد ما يفعله ويعتني به»، يُمكن لكل من مرّ بمرحلة المراهقة وامتلك أنموذجًا يتطلّع إليه تخيّل كيف شعر غوبلن. في الحقيقة، قد يقترح بعضهم أن «تبجيل» تُعدّ عبارة أنسب من «احترام» في هذا الصدد.

قد يبدو كّل ما سبق هيّنًا - قفزة كبيرة من أوجه التشابه السطحية بيننا والقردة نحو أعماق علم نفس الرئيسيات. وربما يتّضح لاحقًا أنه كان هيّنًا فعلًا؛ ربما التشابه الغريب بين الشمبانزي والحياة البشرية ليس راسخًا في السلف التطوّري المشترك أو الكيمياء الحيوية. ومع ذلك، إن لم نشرح مثل هذه المسائل - الاحترام، والتبجيل، والرهبة، والشرف، والكبرياء العنيد، والاحتقار، والازدراء، والطموح، إلخ.. - بوصفها وسيلة من وسائل الانتقاء الطبيعي غايتها تجهيزنا للحياة القائمة على هرميّة المكانة، كيف علينا شرحها إذن؟ لماذا هي موجودة في كافّة الثقافات؟ وهل هناك نظرية بديلة؟ وإن وجدت، فهل تفسر أيضًا سبب وصول الكبرياء والطموح أوجهما لدى الذكور في المتوسط مقارنة بالإناث؟ لدى الداروينية الحديثة تفسير لكل ذلك، وهو يسير: الانتقاء الطبيعي في سياق هرميّة المكانة.

القوّة والصواب

إحدى تجسيدات دي وال المزعومة تكسو باللحم هياكل تكهنيّة وضعها روبرت تريفرز في ورقة بحثية صدرت عام ١٩٧١ عن الإيثار المتبادل. يعتقد دي وال أن السلوكيات التي يعامل وفقها الشمبانزي بعضهم بعضًا ربما تكون «خاضعة لذات الشعور بالصرامة والعدالة الأخلاقية الموجود بين البشر»، هذه الفكرة أثارتها أنثى شمبانزي تُدعى بويست، والتي «دعمت لويت في مطاردة نيكّي. وحينما عُرِض نيكّي لاحقا على بويست، التفتت

ناحيـة لويـت ومدّت له يدها باحثة عن الدعم. عـلى الرغم من ذلك لم يفعل لويت شـيئًا للدفاع عنها ضد هجوم نيكّي. مـا أدّى بها مباشرة إلى الانقلاب عـلى لويـت والصراخ في وجهه بغضب ثم مطاردته عـبر الحظيرة، بل وحتى ضربـه»، المسـألة لا تتطلّـب خيـالًا عظيـمًا كي تـرى في خضمّ هـذا الغضب السخط البالغ الذي قد تعاقب به صديقًا تخلّى عنك وقت الحاجة.

إن أعمق مصادر هذا «الشعور بالإنصاف» هو، كما ألحظ تريفرز، الإيثار المتبـادل. ولا حاجـة إلى انخـراط هرميّة المكانة. في الواقع، إن ما يسـميه دي وال اثنين من القواعد الأساسـية لسـلوك الشـمبانزي - «ما جزاء الإحسان إلّا الإحسـان»، و«العين بالعين والسـنّ بالسـنّ» - يرقـى إلى وصف واحدة بواحدة، والتي تطوّرت في ظلّ غياب المكانة.

مع ذلك فالمنافسـة عـلى المكانة الاجتماعية - والظاهـرة المصاحبة المتمثلة بالحلـف الاجتماعـي والعـداوة الجماعية - هـي التي منحت هـذه البدهيات الفلسـفية العميقة كثيرًا من ثقلها. غالبًا ما تتميز التحالفات البشرية المتنافسة على المكانة بإحسـاس غامض بالاسـتحقاق الأخلاقي، شعورٌ بأن التحالف الآخـر يسـتحق الخسـارة. والحقيقـة أن جنسـنا البـشري تطـوّر وسـط كل مـن الإيثـار المتبادل والهرميّـة الاجتماعية قـد لا تُخفي تحـت جُنحها الأحقاد والثارات الشخصية فحسب، بل كذلك الفِتَنْ العرقيّة والحروب العالمية.

إن احتماليـة كون الحرب بهذا المعنى «طبيعيـة» لا يعني أنها جيّدة بالطبع؛ أو أن لا مفـرّ منهـا حتى. ويُمكن قول الشيء نفسـه عـن الهرميّة الاجتماعية. وإن اختيار الانتقاء الطبيعي انعدام المسـاواة الاجتماعية لجنسـنا لا يعني أنها صائبـة؛ ويجعلها حتميّة بشـكل محـدود فقط. أعني: حينـما تقضي مجاميع من النـاس - ولا سـيما الذكور - كثيرًا مـن الوقت رفقة بعضهـا، فمؤكدٌ ظهور نوع من الهرميّة، سـواءٌ أكانت ضمنية أو دقيقة. وسـواءٌ أعرفناها أم لا فنحن نميل طبيعيًا إلى ترتيب أحدنا الآخر وفق طبقات، ونعبّر عن ترتيبنا عبر أنماط الاهتمام والاتفاق والإذعان - بحسب من نهتمّ إليه ونتّفق معه ونضحك على نكاته ونأخذ باقتراحاته. لكن انعدام المسـاواة بالمعنى الأوسـع - التفاوتات

الجسيمة في الثروة والامتيازات عبر الأمّة بأكملها - تُمثّل مسألة أخرى. فهي نتاج لسياسات الحكومة، أو افتقارها للسياسات.

يجب أن تمتثل السياسة العامّة في نهاية المطاف إلى الطبيعة البشرية بالطبع. فلو كان الناس أنانيّون في أساسهم - وهم كذلك - إذن فمطالبتهم بالكدح من دون كسب يزيد عمّا يناله جارهم غير المنتج يتجاوز ما يُمكنهم تقبّله بيُسر. إلّا أننا نعلم ذلك بالفعل؛ فقد فشلت الشيوعية. ونعلم أيضًا أن ضرائب إعادة التوزيع المعتدلة لا تقضي على إرادة العمل. وبين هذين النقيضين هناك قائمة ضخمة من السياسات. لكُلٍّ منها تكلفته، لكن التكلفة هي من نتاجات الأنانية البشرية القديمة الواضحة - شيء ليس جديدًا تمامًا - وليس لتعطّش الإنسان إلى المكانة في حدّ ذاته.

في الواقع، قد يؤدي التوق ناحية المكانة إلى خفض تكاليف إعادة التوزيع. إذ يبدو البشر ميّالين لمقارنة أنفسهم مع أولئك الأقرب لهم في سلّم المكانة الهرمي - مع من يعلوهم مباشرة على وجه الخصوص. وهذا يبدو منطقيًا من الناحية التطوّرية بوصفه تقنية تقنية لارتقاء السلّم، لكن هذه ليست المسألة. فالأمر المهم أن في حال أخذت الحكومة ألف دولار إضافية من الجميع في حَيِّكَ متوسّط الحال، موقفك سيظلّ مماثلًا نسبة لجيرانك كما كان الحال قبلًا. لذا فإن مواكبة الجيران هو ما يدفعك، ولا ينبغي تثبيط حافزك للعمل كما لو أنه قيسَ وفقًا للمعايير النقدية المطلقة.

توجّه النظرة المعاصرة للهرميّة الاجتماعية كذلك ضربة قوية إلى أحد أقبح الأعذار الفلسفية لانعدام المساواة. فكما حاولت التشديد، ليس هناك سبب لاشتقاق قيمنا من «قيم» الانتقاء الطبيعي، ولا سبب لعدّ ما «يجده» الانتقاء الطبيعي ملائمًا أمرًا «حسنًا». لكن لا يزال بعضهم يفعل ذلك. إذ يقولون: إن الهرميّة وسيلة الطبيعة لإبقاء الجماعة قويّة، لذا يُمكن تسويغ انعدام المساواة باسم الصالح العالم. وبما أن الطبيعة لا تبدو الآن وكأنها ابتكرت الهرميّة البشرية لأجل صالح الجماعة، فقد صار هذا المنطق معيبًا بضِعْف ما كان عليه من قبل.

إن تجسيد التتويج (المزعوم) في كتاب دي وال هو العنوان نفسه، سياسات الشمبانزي. إن كانت السياسة هي العملية التي توزّع عبرها الموارد كما يقول علماء السياسة، فالشمبانزي يُظهر إذن، من وجهة نظر دي وال، أن أصول السياسات البشرية سبقت الإنسان بوقت طويل. في الواقع، هو لا يرى مجرّد عملية سياسية، بل و«حتى هيكلًا ديمقراطيًا» عاملًا في مستعمرة الشمبانزي في آرنهيم. إذ يواجه ذكور الألفا صعوبة في بسط حكمهم من دون موافقة المحكومين.

كان نيكّي على سبيل المثال، يفتقر إلى قدرة لويت على كسب ودّ محيطه ولم ينل شعبية لويت أو يروين على حدّ سواء في أثناء فترتيهما. وكانت الإناث خاصّةً يزهدن في تحيّاتهنّ الخاضعة له، وحينما يبلغ نيكّي من العنف مبلغًا لا داعي له، كُن يُطاردنه في جماعات. وفي مرّة طاردته المستعمرة بأكملها حتى فرَّ لأعلى شجرة. هناك جلس وحيدًا محاصرًا وصارخًا - الذكر المُهيمن، تعرّض للهيمنة. ربما لم تكن هذه أشبه بالديمقراطيات التمثيلية الحديثة، إلّا أنها لم تكن دكتاتوريّة ناعمة كذلك. (لا دليل هناك عن المدّة التي كان نيكّي سيظلّ فيها محاصرًا لو لم تصعد له ماما، مسؤولة التسوية، وتمنحه قبلة، ثم تنزله إلى أسفل، كي يسعى متواضعًا لنيل الغفران الجماعي).

إليك تمرينًا مفيدًا: حين متابعة خطبة سياسية على التلفاز، اخفض الصوت. ثم لاحظ إيماءات الخطيب. لاحظ مدى شبهها بالإيماءات التي يستخدمها السياسيّون كافّة حول العالم - الوعظ والسخط وما إلى ذلك. ثم ارفع مستوى الصوت. استمع لما يقوله السياسية. إليكم محتوى افتراضي: إنه (أو إنها في حالات نادرة) يقول أشياء تروق لمجموعة الناخبين الذين يُرجّح أن يضعوه في زمام السلطة أو يدعمونه للمحافظة عليها. تحكم مصالح المحكومين - أو بعض شرائح المحكومين الحاسمة - ما يقوله السياسيّون البشر، تمامًا كما تحكم ما يفعله سياسيّو الشمبانزي. في كلتا الحالتين، هدف السياسيين النهائي هو المكانة (سواء أعلموا بذلك أم لم يعلموا). وفي كلتا الحالتين سنرى شيئًا من المرونة فيما يقدر السياسيون على فعله لكسب تلك

المكانـة والحفـاظ عليها. فحتى أكثر الخطب حماسًـا يُمكـن أن يُثبّطها تحالف ملائم. وعبر رفع الصوت، تكون قد لخّصت بضعة ملايين من سنين التطوّر.

طريقة الزوني

على الرغم من جميع أوجه التشـابه الموحية بين كفاح القردة والبشر، تظلّ الاختلافات كبيرة. غالبًا ما يكون للوضع البشري علاقة قليلة نسـبيًا بالقوّة الغاشمة. صحيح أن الهيمنة الجسدية الصريحة غالبًا ما تكون مفتاحًا للهرميّة الاجتماعيـة بين الصبية. لكـن قصّة المكانة، خاصّة بين البالغين، تمثّل مسـألة أكثر تعقيدًا، وفي بعض الثقافات كانت جوانبها السياسية الجليّة غير واضحة تمامًا. وفيما يأتي وصف أحد العلماء للحياة في قبيلة نافاجو: «لا يُمكن الوثوق بأي شـخص يسـعى وراء السـلطة. إذ يترفّع القادة بالاقتداء والمحاكاة. فلو نجح شـخص ما بزراعة الذُرة، سـتتمّ مُحاكاته، وبذلك يكون في هذه الحدود قائدًا. ولو حفظ شخصٌ كثيرًا من آيات ترنيمة علاجية، سيحظى بالاحترام لإنجـازه هذا وسـتصبح مكانتـه كـ"مُغنـي" جديـرة بالتقدير. أمّا السياسـة والتزلّف... فلا مكان لها في مجتمع النافاجو التقليدي».

هذا ليس معناه أن النافاجو لا يسـعون وراء السـلطة - بل يسـعون إليها بمهـارة. ولا معنـاه القول: إن المكانة منفصلة عن مسـعى الامتياز الإنجابي. إذ يُحتمـل لُمـزارع الذرة الخبـير أو المغنّي الماهر أن يكون شريـكًا جذّابًا. ومن السـهل تخمـين السـبب؛ حيث يمتلك شـخص بهـذه المواصفـات موهبة في توفير الموارد المادّية ويظهر علامات على الذكاء. ومع ذلك لا يكسـب هذان المثالان من النافاجو امتيازهما الإنجابي عبر التخويف الجسـدي أو السـيطرة بأي شكل على الآخرين؛ بل وجدوا بسهولة حرفة تناسبهم تفوّقوا فيها.

إن مجموعـة الأشـياء التـي بإمكانهـا تحقيـق المكانـة في مختلـف الثقافات والأقلّيات مدهشـة للغاية. فحيث تشـمل: صناعة الخرز، والموسيقا، وإلقاء الخطـب، وابتـكار العقاقـير، وإيجـاد الحكايات، وجمـع العمـلات المعدنية، وفِـرَاء الرؤوس. ومـع ذلك فالآلية العقلية التي تقود هذه الأنشـطة المتنوعة

هي نفسـها في الأسـاس. حيث صُمِّمَ البشر لتقييم بيئتهـم الاجتماعية، وبعد اكتشـافهم مـا يثير إعجاب النـاس، ذهبوا لفعله؛ أو اكتشـافهم مـا ينفر منه النـاس وتجنّبوا فعله. إنهم منفتحون جدًا بشـأن ماهيـة هذا «الشيء». والأمر الرئيـس أنهـم قادرون عـلى النجاح فيـه؛ إذ يرغب الجميع مـن كل مكان في الشعور بالفخر، لا الخزي؛ لجذب الاحترام، لا الازدراء.

وهـذا الميل للوحدة النفسـية البشرية في التواري خلف التنوّع السـلوكي هو ما مكّن الأنثروبولوجيين البواسـيّين التقليـل من الطبيعة البشرية. كتبت روث بنديكت عام ١٩٣٤، «علينا أن نقبل كافّة الآثار المترتّبة لميراثنا البشري، وأحـد أهمّهـا النطـاق الصغـير للسـلوك المنقـول بيولوجيًـا، والـدور الهائل للعمليّـة الثقافية في نقـل التقاليد»، وقد كانت، بالمعنـى الدقيق للكلمة، على حق. فبمُجـرّد تجاوز الأفعال النمطيّة كالمشي والأكل والرضاعة، لن تكون بقيّـة «السـلوكيات» قابلـة للانتقـال بيولوجيًا. حيث يعتمـد عمل الأعضاء العقليـة على الظروف المحيطة، وعادة ما تكون رشـيقة كفاية لتنتج كثيرًا من السلوكيات المختلفة.

من السـهل رؤية كيـف تملّصت الآليـة العقلية للبحث عـن المكانة، على وجـه الخصـوص، مـن توكيد بنديكـت. حيث درسـت الـزوني، الذين، كما النافاجـو القريبون منهم، يزدرون المنافسـة والسـعي السـياسي الصريح. إذ كتبـت: «الرجل المثـالي لدى الزوني هو من يتمتّـع بالكرامة والودّ ولا يحاول القيـادة مُطلقًـا... وأيّ صراع، وإن كان الحقّ مع مفتعله، سـيعود بالضدّ من صاحبـه... وأعـلى درجـات الثنـاء أن يُقال عـن أحدهم: 'إنـه رجل مهذب ولطيـف'». لاحظ العبارات بين السـطور، وسـتجد هنـاك «الرجل المثالي»، وكلّ من يقترب من المثالية سـيحظى بـ«الثناء»، في حين أن المقصّر سـينقلب فشـله «بالضدّ» منـه. بعبارة أخرى: تمنـح الزوني المكانة لمن لا يسـعون إليها بضراوة، وتمنعها عن غيرهم. إن قوّة آلية البحث عن المكانة نفسـها هي التي تحافـظ على دقّة هرميّة مكانـة الزوني. (كذلك تميل البنيـة التحتية الاجتماعية للإيثـار المتبـادل في كافة الثقافات كما سـبق ورأينا إلى ممارسـة بعض الضغط

لصالح الودّ، إلى جانب الكرم والأمانة. ربما تكون ثقافة الزوني قد سخّرت هذا الضغط بكفاءة غير عادية، ما عزّز الرابط الطبيعي بين اللطف والمكانة).

يُمكنك النظر إلى الحياة وسط الزوني على أنها تكريم إما لقوّة الثقافة أو ليونة التكيّفات العقلية. الأمر كامن في كليهما، لكن دعونا نتأمّل الأخير: يبدو أن الأعضاء العقلية غاية في المرونة بحيث يُمكنها المشاركة في تمرّد افتراضي ضدّ المنطق الداروينـي الذي يقف خلفها. فعلى الرغم من تنشيط آلية البحث عن المكانة الدائم لعراكات الأيدي والسياسات القائمة على استعراض القوّة، لكن يُمكن أن تستخدم كذلك لقمع الأمرين على حدّ سواء. في الأديرة، يُمكن للحُلم والزهد أن يكونا مصدرًا للمكانة. وفي بعض الطبقات الاجتماعية لإنجلترا الفيكتورية، يكاد يثير السخرية أن بعض الكياسة والتواضع بإمكانها المساعدة على كسب المكانة (أي بالأحرى، كما هو الحال في الزوني، ربما).

بعبارة أخرى، إن ما ندعوه «القيم» الثقافية هو من حيل النجاح الاجتماعي. ويعمد الناس لتبنّيها بسبب إعجاب الآخرين بها. يُمكننا عبر التحكم في البيئة الاجتماعية للطفل، عبر توزيع الاحترام والازدراء انتقائيًا، برمجة القيم عنده كما لو كان روبوتًا. يجد بعضهم هذا الأمر مقلقًا. حسنٌ، هذا يُبيّن فقط أن ليس بالإمكان إرضاء الجميع. في أثناء جدل سوسيوبيولوجي نشب في السبعينات، كانت أحد المصادر الرئيسة للغضب هو الخوف من احتمال صواب علماء البيولوجيا الاجتماعية، وبذلك لن يكون ممكنًا برمجة الناس كما وعد بورهوس سكينر وسلوكيون آخرون.

لدى الأنموذج الجديد مجال للتكييف السكينري، مُكمَّلًا بمعزّزين واحد إيجابي وآخر سلبي. من المؤكد أن بعض الدوافع والعواطف - كالشهوة والغيرة على سبيل المثال - قد لا يُمكن محوها تمامًا. مع ذلك فالتنوع الأخلاقي الهائل بين الثقافات - أي التنوعات في التعبيرات السلوكية للشهوة والغيرة مثلًا - يقترح مساحة كبيرة تسمح بالحركة في قسم القيم. وهذه هي قوة القبول والرفض الاجتماعي.

السؤال الكبير هو: إلى أي مدى يُمكن تشكيل أنماط الموافقة والرفض نفسها؟ أو بعبارة أخرى: ما مدى مرونة المجتمع بشأن ما سيجده مُرضيًا؟

هنا تكمن بعض الميول الراسخة من دون شك. قد تستمر الأصول الاجتماعية التي كانت مهمّة باستمرار في أثناء التطوّر في حمل ثِقلها بعناد. فقد يكون للرجال الأقوياء والنساء الجميلات دائمًا السبق في صراع المكانة. وربما لا يُثير الغباء أبدًا إعجابًا واسع النطاق. كما وستحظى السيطرة على الموارد - الأموال في هذه الحالة - بجاذبية معيّنة. على الرغم من ذلك لا تزال المقاومة ممكنة. فهناك ثقافات وأقلّيات تحاول تقليل التركيز على ما هو مادّي لصالح ما هو روحي. ونجاحهم في ذلك يُثير الإعجاب أحيانًا، هذا إن لم يبلغ حدّ الكمال. كما ولا يوجد سبب للاعتقاد أن أيًا منهم قد بلغ حدود إمكانياته البيولوجية.

فحتّى ثقافتنا، على الرغم من كل إفراطها المادّي، تبدأ في الظهور مثيرة للإعجاب عند النظر إلى بعض البدائل الأخرى. فضمن قبيلة اليانومامو في أمريكا الجنوبية، إحدى وسائل بلوغ المكانة للرجال اليافعين هي قتل كثير من رجال القرى المجاورة. ولو أمكن لهم في خضمّ ذلك اختطاف وتنفيذ اغتصاب جماعي لنساء تلك القبيلة، فذلك أفضل بكثير. وإن حاولت زوجته تركه من أجل رجل آخر، فله حُريّة قطع أذنيها على سبيل المثال. سبق وقطعنا بالفعل شوطًا طويلًا بشأن خطر الظهور غير نسبويين أخلاقيًا.

في بعض الأحياء العصرية، نمت القيم مؤخرًا بشكل قريب للغاية من اليانومامو. حيث يُقابل الرجال القتلة بالاحترام - على الأقل وسط دائرة الشباب الذين يهتمّون بآرائهم. وذلك دليل على أن أقبح أجزاء الطبيعة البشرية دائمًا ما يوجد قريبًا من السطح، مستعدًّا للبزوغ حال تضعضع الوازع الثقافي. لسنا صفائح بيض، كما تخيّل بعض السلوكيّين يومًا. بل مُتعضّيات يُمكن إخضاع ميولها الأفظع، ولو بصعوبة. والسبب الرئيس وراء هذا التفاؤل الهش هو المرونة الخانعة التي يُسعى عبرها وراء المكانة. إذ إننا على استعداد للقيام بأي شيء بغية نيل الاحترام، بما في ذلك عدم التصرف مثل حيوانات.

الفصل الثالث عشر

خداع الذات والآخر

«كم بائسة هي الأعمال الناتجة عن السعي وراء الشهرة؛ حبُّ الحقيقة وحده لن يدفع أبدًا رجلًا لمُهاجمة آخر بشراسة».

رسالة إلى جـ. د. هوكر (١٨٤٨).

إن ازدراء الانتقاء الطبيعي لمبدأ الحقيقة في الإعلان يظهر جليًا على نطاق واسع. بعض إناث اليراعات في جنس الـPhoturis تحاكي وميض التزاوج لإناث جنس الـPhotinus ثم تستدرج بعد ذلك ذكور الـPhoturis وتأكلهم. وبعض زهور الأوركيد تبدو أشبه تمامًا بإناث الدبابير، وكلما ازداد شبهها بهنّ ارتفعت احتمالية إغوائها ذكر دبّور ليُساعد في نشر حبوب لقاحها من دون قصد منه. وقد طوّرت بعض الثعابين غير المؤذية صبغات الأفاعي السامّة كي تكتسب احترامًا غير مستحق. بعض خادرات الفراشات تحمل شبهًا غريبًا برؤوس الثعابين – قشور وأعين مزيّفة – وإن أُزعِجَت، تُشرِعُ في اهتزاز جنوني. باختصار: للمُتعضّيات أن تُقدِّمَ نفسها بأي شكل يُمكن له خدمة مصلحتها الوراثية.

ويبدو أن الناس ليسوا استثناءً من ذلك. ففي أواخر الخمسينات وبداية الستينات، أثار عالم الاجتماع (غير الدارويني) إرفينغ غوفمان ضجّة عبر كتاب بعنوان «تقديم الذات في الحياة اليومية»، والذي شدّد على مقدار الوقت الذي نقضيه على خشبة المسرح، نؤدي دورًا أمام مشاهد أو آخر، مُكافحين للتأثير عليه. إلّا أن هناك اختلاف بيننا وبين كثير من الممثلين الآخرين في مملكة الحيوان. ففي حين يُفترض أن أنثى الـPhoturis ليست ضحيّة وهم، بل هي طبيعتها الحقيقية، إلّا أن للبشر طريقة كي يُؤخذوا بأدوارهم التمثيلية. إذ في بعض الأحيان تعجّب غوفمان أن الشخص يكون «مقتنعًا بصدق أن انطباع الواقع الذي يؤديه على المسرح هو الواقع الحقيقي».

إن ما تجلبه الداروينية الحديثة لملاحظة غوفمان، من بين أمور أخرى، هو نظرية عن وظيفة الوهم الذي نخدع به أنفسنا من أجل إيهام أفضل للآخرين. وقد أُهملت هذه النظرية في منتصف السبعينات من قبل ريتشارد ألكسندر وروبرت تريفرز على حد سواء. ففي مقدّمته لكتاب ريتشارد دوكينز «الجينة الأنانية»، لاحظ تريفرز أن فرضية دوكينز عن أثر الإيهام في حياة الحيوان وأضاف، في مقطع يكثُر الاستشهاد به، أن في حال كان «الخداع بالفعل أساسيًا لتواصل الحيوانات، إذن لا بدَّ من أن هناك انتقاء قويًّا لكشف الإيهام، وهذا ينتقي أيضًا درجة إيهام الذات، ما يجعل بعض الحقائق والدوافع غير واعية كي لا يُقوّض الوهم المُمارس عبر التلميحات الدقيقة للمعرفة»، وهكذا غامر تريفرز بالقول: «إن وجهة النظر التقليدية القائلة: إن الانتقاء الطبيعي يُفضّل الأنظمة العصبية التي تُنتج صورًا أكثر دقّة للعالم لا بدَّ من كونها وجهة نظر شديدة السذاجة عن تطور العقل».

لا ينبغي أن يكون مفاجئًا جعل دراسة خداع الذات العلم غامضًا. فـ«الوعي» منطقة مُحدّدة المعالم وسهلة الاختراق. والحقيقة، أو جوانب معيّنة منها، قد تطفو داخل الإدراك وخارجه، أو تحوم على الهامش، حاضرة، لكن غير بارزة. وحتى مع افتراض أن بإمكاننا تأكيد عدم إدراك شخص ما تمامًا للمعلومات ذات الصلة بموقف ما، فسواء أكان ذلك يُشكّل خداعًا للذات أم لا يمثّل مسألة أخرى. هل المعلومات موجودة في مكان ما داخل العقل،

محجوبة عن الوعي بواسطة رقيب مُصمّم لهذه الوظيفة؟ أم هل أن الشخص قد فشل في الانتباه إلى المعلومة في المقام الأول؟ وإن كان الأمر كذلك، فهل الإدراك الانتقائي نفسه هو نتيجة لتصميم تطوّري معيّن لخداع الذات؟ أم هل هو انعكاس أعمّ لحقيقة أن العقل يُمكنه الاحتفاظ بكثير من المعلومات (والعقل الواعي أقلّ قدرة منه في ذلك)؟ مثل هذه الصعوبات في التحليل تمثّل إحدى أسباب عدم بلوغ العلم الذي تبصّره تريفرز قبل عقدين من الآن - دراسة دقيقة لخداع الذات، والتي يُمكنها أن تؤدي في النهاية إلى رسم صورة واضحة للعقل اللاواعي.

ومع ذلك، مالت السنوات الفاصلة إلى التحقّق من صحّة انحراف رؤية دوكينز وتريفرز وألكسندر: إن تصويرنا الدقيق للواقع - للآخرين ولأنفسنا أحيانًا - لا يشغل مكانة عليا في سلّم أولويات الانتقاء الطبيعي. والأنموذج الجديد يُساعدنا على رسم خريطة تضاريس الخداع البشري للآخرين والذات، وإن كان بدرجة متواضعة من الوضوح.

لقد اسكتشفنا بالفعل أحد عوالم الخداع: الجنس. إذ قد يضلل الرجال والنساء بعضهم بعضًا - وحتى أنفسهم في بعض الأحيان - بشأن استعدادهم للالتزام والإخلاص المُحتملين. كما وأن هناك عالمين آخرين كبيرين حيث يكون فيهما لتقديم الذات وإدراك الآخرين لها عواقب داروينية أكبر: الإيثار المتبادل والهرميّة الاجتماعية. هنا، كما هو الحال مع الجنس، يُمكن للأمانة أن تُمثّل حماقة كبرى. في الواقع، قد يكون الإيثار المتبادل والهرميّة الاجتماعية مع بعضهما مسؤولين عن معظم انعدام الأمانة عند جنسنا - والتي أيضًا مسؤولة عن جزء كبير من انعدام الأمانة في مملكة الحيوانات. إننا بعيدون جدًا عن أن نكون الأنواع الوحيدة المخادعة، إلّا أنّنا الأكثر خداعًا بينها، ذلك فقط لأننا نُكثر الحديث.

الناس لا يبحثون عن المكانة بحدّ ذاتها. إذ إنهم لا يُخطّطون ارتقاءهم المرغوب ثم يسعون لأجله منهجيًا كجنرال ميداني يُقيمُ حربًا. حسنٌ، بعضهم يفعل ذلك. بل ربما أكثرنا يفعل ذلك في بعض الأحيان. لكن السعي لأجل المكانة شُيِّدَ بنحو أكثر دقّة داخل النفس. فالناس من شتّى الثقافات، سواء أدركوا ذلك تمامًا أم لا، يرغبون في إبهار جيرانهم لأجل الارتقاء في درجات الاحترام المحلّي.

يَظْهَر التعطّش لنيل القبول في وقت مبكّر من الحياة. كان لداروين ذكريات كريستالية عن إثارته إعجاب الناس بمهارته في تسلّق الأشجار: «كان مُعجبي المفترض هو عامل البناء العجوز بيتر هايلز، وشجرة السِمَّن فوق العشب»، أمّا الوجه الآخر لهذه العملة فهو النفور المبكر والمستمر من الازدراء والسخرية. كتب داروين أن ابنه الأكبر، في عمر الثانية والنصف، أصبح «شديد الحساسية تجاه السخرية، وصار شكوكًا جدًا لدرجة اعتقاده غالبًا أن كل اثنين يضحكان ويتحدثان لبعضهما بعضًا كانا يضحكان منه»، قد يكون ابن داروين غير طبيعي في هذا الصدد، لكن هذا ليس موضوعنا. (على الرغم من أن من المثير للاهتمام ملاحظة كمّ الأمراض النفسية، وبضمنها البارانويا، التي قد تكون ميولًا راسخة تطوّريًا تحوّلت لاحقًا إلى ثلمة بالغة)، المسألة هي أنه في حال لم يكن طبيعيًا، فقد كان غير طبيعي في الدرجة وليس النوع. ذلك أنه بالنسبة إلينا جميعًا، يكاد تجنّب السخرية أن يكون هوسًا في السنين المبكّرة. لك أن تستذكر ملاحظات داروين عن «الإحساس الحارق بالعار الذي يشعر به أغلبنا حتى بعد مرور بضع سنين، عند استذكار انتهاك عرضي لقاعدة تافهة، على الرغم من كونها راسخة، من قواعد الآداب»، وتقترح مثل هذه الآليّة النزقة مخاطر كبيرة. في الواقع: تمامًا مثلما يُمكن أن يجلب التقدير العامّ العالي مكافآت وراثية كبرى، فإن التقدير العامّ المتدني يُمكن أن يكون كارثيًا من الناحية الوراثية. في كثير من مجتمعات الرئيسيات غير البشرية – ولدى عدد غير قليل من المجتمعات البشرية – يُدفع بالأفراد

غير المحبوبين جدًا إلى هوامش المجتمع وما هو أبعد، حيث يصبح البقاء والتكاثر محفوفين بالمخاطر. وعن هذه المسألة، فإن انخفاض المكانة بأي درجة على السلّم الهرمي يحمل في طيّاته تبعات. ومهما كان مكانك في المجتمع، فإن ترك نوع الانطباع الذي يمارس ضغطًا تصاعديًا على مكانتك غالبًا ما يستحق العناء (بالمصطلحات الداروينية)، حتى وإن كان التأثير ضئيلًا.

وسواء أكان الانطباع دقيقًا أم لا هو بحدّ ذاته أمر غير ذي صلة. فحينما يُهدِّدُ شمبانزي منافسًا، أو يستجيب لتهديد من منافس (أو مفترس)، ينتصب الشعر على جسمه جاعلًا إياه يبدو أكبر حجمًا من الحقيقي. يُمكن رؤية آثار هذا الوهم لدى البشر ممّن ينتصب شعرهم عند شعورهم بالخوف. ولكن بوصفها قاعدة عامّة: يَعمد البشر لتضخيم أنفسهم شفهيًا. حيث ألحظ داروين، في تكهنه بالوقت الذي أصبح في أثنائه اهتمام الرأي العام قويًا بالتطوّر، أن «أوقح المتوحّشين» يُظهرون مثل هذا التقدير «عبر الاحتفاظ بمكافآت شجاعتهم» و«عبر عاداتهم في الإفراط بالتباهي».

في إنكلترا الفيكتورية، عُدَّ التفاخر مُستهجنًا، وكان داروين خبيرًا في كيفيّة التواضع. تتشارك كثير من الثقافات هذا الذوق، ولا يشغل «الإفراط بالتباهي» سوى مرحلة من مراحل الطفولة. لكن ما هي المرحلة اللاحقة؟ مرحلة عمرية تتسم بمزيد من التباهي. حتى إن داروين نفسه كان جيدًا في ذلك. حيث أشار في سيرته الذاتية أن كتبه «قد تُرجِمَت إلى لغات عدّة، حتى بيعَت بطبعات عدّة في بضعة من البلدان الأجنبية. لقد سَمِعتُ أن نجاح العمل خارج البلاد قدَّم الاختبار الأفضل لقيمته الراسخة. وأشكّ في ما إذا كان هذا أمرًا جديرًا بالثقة تمامًا؛ لكن عبر الحكم عليه بهذا المعيار فلا بُدَّ من استمرار اسمي لبضع سنوات على الأقل.» حسنٌ، لو انتابه شكّ في جدارة هذا المعيار بالثقة، فلماذا القياس به؟

من المفترض أن مقدار التباهي الصارخ الذي تستعرضه يعتمد على الوسائل الموثوقة لترويج الذات في بيئتك الاجتماعية (وربما تُعاير عبر ردود فعل الأقارب والأقران في سنوات الحياة المبكرة). ولكن إن لم تستشعر ولو

قليلًا من الحافز لنشر أخبار انتصاراتك، مهما كانت مهارة إشاعتك الأخبار، مع بعض التردّد في الحديث الشفاف المستفيض عن إخفاقاتك، فأنت لا تعمل بالشكل الذي صُمِّمت لأجله.

هل يغلب أن ينطوي مثل هذا الترويج للذات على الخداع؟ ليس بالمعنى الأفظع للكلمة. حيث إن إشاعة الأكاذيب الكبيرة عن أنفسنا وتصديقها سيكون خطيرًا. إذ يُمكن للأكاذيب أن تُفضح، وهي تُجبرنا على بذل كثير من الوقت والجهد في تذكّر ما هي الأكاذيب ولمن قلناها. لاحظ صامويل بتلر، وهو نفسه من التطوّريين الفيكتوريين (والرجل الذي أفتى أن الدجاجة ما هي إلا وسيلة البيضة لصنع بيضة أخرى) إن «أفضل الكاذبين هو من يتفوّه بأقلّها، فتقطع أكاذيبه من المسافات أطولها». فعلًا. هناك أنواع من الأكاذيب يصعب ابتلاعها، إمّا لضعفها أو صعوبة استساغتها، وهذه هي أنواع الأكاذيب التي يجب أن نتوقّع من الناس قولها. فبين الصيّادين، أصبحت كذبة «الواحدة التي هربت» سيئة السمعة والصادرة من القلب مصدرًا أساسيًا للفكاهة.

قد يكون مثل هذا التحريف واعيًا في البدء، أو نصف واعٍ على الأقل. ولكن إن لم يُقابله اعتراض، فإن الإدراك المُبهم للمبالغة يُمكن أن يَهْمَد عند تتابع إعادة السَرْد. أظهر علماء النفس المعرفيون كيف أن تفاصيل القصّة، حتى الزائفة منها، تُرسّخ نفسها في الذاكرة الأصلية مع التكرار.

وغني عن القول إن هروب السمكة ليس ذنب الصيّاد. فتحديد مكمن اللوم والثناء، وهو مجال تكون فيه الحقيقة الموضوعية بعيدة المنال، يوفّر أرضًا خصبة للنفخ الذاتي. وقد أُثبت ميل عزوْنا نجاحاتنا إلى المهارة وفشلنا إلى الظروف – الحظ، الأعداء، الشيطان – مختبريًا، وذلك واضح على أي حال. في الألعاب التي يلعب فيها الحظّ دورًا، نميل إلى عزو خسارتنا إلى الحظ في السحبة وانتصاراتنا إلى الذكاء.

ولسنا نقول ذلك فقط؛ بل نؤمن به إيمانًا حقيقيًا. كان داروين لاعبًا متحمّسًا للطاولة، وما لا يُثير الدهشة أنه غالبًا ما كان ينتصر عند لعبه

ضد أطفاله. إحدى بناته تستذكر: «احتفظنا بلائحة للثنائيّات التي رماها كُلّ واحد منّا، حيث كُنت مُقتنعة أنه كان يرمي النرد بشكل أفضل مني»، هذه القناعة مألوفة لدى لاعبي الطاولة الخاسرين في كل مكان. إذ تُساعد في الحفاظ على إيماننا بكفاءتنا وبذلك إقناع الآخرين بها. كما وتوفّر مصدر دخل ثابت لممارسي لعبة الطاولة.

دائمًا ما يأتي التعظيم الذاتي على حساب الآخرين. إذ إن قولك: إنّك خسرت بالحظ بمثابة القول: إن انتصار خصمك كان بالحظ. وحتّى بترك الألعاب وغيرها من المساعي التنافسية المفتوحة جانبًا، فإن النفخ في مزمارك يعني كتم المزامير الأخرى؛ لأن المكانة شيء نسبي. فمكسبك خسارةٌ لشخص آخر ما.

والعكس صحيح: فخسارة شخص ما مكسبٌ لك. وهذا هو الموضع الذي يُمكن أن يشهد فيه السعي اللاواعي للمكانة تحوّلًا قذرًا. ففي الجماعات الصغيرة (ولنَقُل جماعة بحجم قرية صيّادين، جامعي ثمار)، يكون لدى المرء اهتمام واسع بتقويض سمعة الآخرين، ولا سيما الذين من جنسه وعمره، مِمَّن لديه معهم منافسة طبيعية. ومرّة أخرى، أفضل الطرق لإقناع الناس بشيء، بما في ذلك عيوب جيرانهم، هو عبر تصديق ما تقوله بنفسك. لذا قد يتوقّع المرء، عند الأنواع الهرميّة المنعوم عليها باللّغة، أن المُتعصّبات غالبًا ما تُضخِّم مآثرها الخاصّة، وتُقلِّل من مآثر الآخرين، فاعلة كلا الأمرين عن قناعة. الواقع أن في مختبر السيكولوجيا الاجتماعية، لا يميل الناس فقط إلى عزو النجاح إلى المهارة والفشل للظروف؛ بل ويميلون إلى عكس هذا النمط حين تقييم الآخرين. فالحظ هو الشيء الذي يجعلك تفشل بينما يساعد الآخرين على النجاح؛ في حين تعمل القدرة في الاتجاه المعاكس.

وغالبًا ما يحوم الانتقاص من الآخرين عند مستوى بالكاد يُمكن اكتشافه، وقد يختفي إن كان الآخرون من الأقارب أو الأصدقاء. لكن توقّع بلوغه حجومًا كبيرة حينما يتنافس شخصان على شيء لا يوجد منه سوى واحد – امرأة معيّنة، رجل معيّن، تمييز مهني معيّن. كان ريتشارد أوين، عالم

الحيوان والحفريات البارز الذي كان لديه أفكاره الخاصة عن كيفية تغيّر الأنواع، أحد المراجعين الذين انتقدوا أصل الأنواع. وبعد صدور المراجعة، أشار داروين إلى أن «اللندنيّين يقولون: إنه غاضب حاسد؛ لأن كتابي صار محط اهتمام». هل أقنع أوين نفسه (وبذلك الآخرين) أن عملًا منافسًا له كان متواضع الشأن؟ أم هل أن داروين أقنع نفسه (وبذلك الآخرين) أن رجلًا يُهدِّدُ مكانته كان مُقادًا بداوفع أنانية؟ ربما هذه أو تلك، ويُحتمل كلاهما.

إن الحساسية الشديدة التي يكتشف بها الناس عيوب منافسيهم هي إحدى عجائب الطبيعة. إذ يتطلّب الأمر جهدًا هرقليًّا للتحكم بميل الوعي هذا، ولا بُدّ من تكرار الجهد بأساس مُنتظم. يُمكن لبعض الناس استدعاء ما يكفي من ضبط النفس كي لا يتحدّثوا عن انعدام قيمة منافسيهم؛ حتى إنهم قد يقتبسون بعض العبارات الفيكتورية عن «الخصم الجدير». إلّا أن كبح الإدراك نفسه - البحث اللامتناهي وغير الواعي والشامل عن علامات انعدام الجدارة - هو في الحقيقة عمل الراهب البوذي. وإن صدق التقييم بعيد عن متناول معظم البشر.

الانكماش الذاتي

إن كان الترويج متأصلًا بعمق لدى الإنسان، فلِمَ وجود مُستنكرات الذات؟ إحدى الأجوبة أن استنكار الذات لا ينطوي على تكلفة حينما يَعْلَم الجميع بشكل أفضل، ويُمكن أن يحقق بعض الفائدة؛ إذ تعزز سمعة التواضع مصداقية التباهي الخفي. (لاحِظ داروين). إجابة أخرى أن البرنامج الجيني للتطور العقلي شديد التعقيد ويتكشّف في عالم مليء بانعدام اليقين (عالم مختلف للغاية عن بيئة أسلافنا)؛ لا تتوقع أن يخدم كل السلوك البشري المصالح الجينية. والجواب الثالث هو الأكثر إثارة للاهتمام: لقد كانت للهرميّة الاجتماعية، عبر الانتقاء الطبيعي، بعض التأثيرات المثيرة للسخرية على العقل البشري. فهناك أوقات يكون فيها من المنطقي تطوريًا امتلاك رأي متواضع عن نفسك ومشاركة هذا الرأي مع الآخرين.

تذكّر أن أصل المكانة بالكامل يكمن في حقيقة أن بعض الجيران - ولنقل الدجاجات التابعة لدجاجات أخرى - أكثر رهبة من أن يكون تحدّيهم مربحًا. إن الجينات التي تُشيّد أدمغة تخبر أصحابها عن أي الجيران يستحق التحدّي وأيهم لا ستزدهر. لكن كيف تنقل الأدمغة بالضبط هذه الرسالة؟ بالتأكيد ليس عبر إرسال نص مقتضب مفاده «تحدّى» أو «لا تتحدّى» يظهر في مقلة العين. إذ يُفترض أن تنتقل الرسالة عبر الشعور؛ حيث تشعر الحيوانات إمّا أنها بمستوى التحدي أو لا. والحيوانات الموجودة أسفل السلم الهرمي - تلك التي تتعرض للضرب من قبل الجميع - سَتَستشعر الرسالة الأخيرة بشكل مُزمن. ويُمكنك تسمية حالتها بتدنّي احترام الذات.

في الواقع يُمكنك قول إن تدنّي احترام الذات تطوّر بوصفه وسيلة لتقبّل الناس حالة التبعية حينما تكون الترضية من مصلحتهم الجينية.

لا تتوقع من ذوي تقدير الذات المتواضع أن يخفوا ذلك. ربما ليس تقبّل المكانة المتواضعة مما يصب في مصلحتهم الجينية فحسب، بل وفي بعض الظروف إشاعة قبولهم لها - التصرّف بخضوع حيث لا يُنظر إليهم خطأً بوصفهم تهديدًا، وبذلك معاملتهم على هذا النحو.

لا يوجد شيء خادع للذات بالضرورة في تدنّي احترام الذات. أكيد أن أي شعور مصمّم لمنع الناس من التطلّع لأكثر مما يُمكنهم تحقيقه يوجب نظريًا أن يحمل على الأقل توافقًا تقريبيًا مع الواقع. ولكن ليس على الدوام. فإن كانت إحدى وظائف تدنّي احترام الذات هي المحافظة على رضا رفيعي المكانة عن إذعانك، فمستواه، بالمعنى الدقيق للكلمة، سيتعمد على مقدار الإذعان اللازم للقيام بذلك؛ إذ عليك الشعور، عند حضور فرد قويّ ما، بتواضع أعمق - بشأن ذكائك مثلًا - مما قد يراه مراقب موضوعي بوصفه شيئًا مفروغًا منه. وقد توصّل الأنثروبولوجي جون هارتونغ، الذي أثار عام ١٩٨٨ إمكانية خفض احترام الذات لخداع الذات - «خفض الخداع» كما أسماه - إلى مثال من نوع آخر. إذ اقترح أن النساء قد يخضعن زيفًا في بعض الأحيان لصالح الرجال. فإذا اعتمد دخل الأسرة جزئيًا، مثلًا، على تمتّع

الزوج بتقدير كبير لذاته في مكان العمل، قد تجد المرأة نفسها من دون قصد وهي «تُشيّد ثقة زوجها بنفسه عبر إظهارها مستوى متدنيًا من الكفاءة».

أظهرت تجربة بارعة مدى العُمق الذي يُمكن عنده دفن الحقيقة عن ذواتنا. حينما يُنصت الناس لصوت مُسجَّل، ترتفع استجابة جلودهم الغلفانية (GSR)، وسترتفع أكثر في حال كان الصوت الذي ينصتون له صوتهم. والمثير للدهشة أنه عند سؤال الناس عمّا إذا كان الصوت صوتهم، فإن إجاباتهم ستكون في المتوسط صائبة بمعدل أقلّ من صواب الـ(GSR) خاصتهم. والمثير هنا نمط الخطأ. فبعد خفض احترام الذات، عبر جعل الأشخاص «يفشلون» في بعض المهامّ المفتعلة، فإنهم سيميلون أكثر لنكران عائديّة الصوت المسموع لهم بالرغم من إظهار الـGSR خاصتهم أنهم «يعلمون» بمستوى ما في قرارة أنفسهم حقيقة عائديته لهم. وحينما يُرفَعُ احترام الذات، يبدأون بادّعاء أن أصوات الآخرين هي لهم أيضًا، على الرغم من أن الـGSR خاصتهم يُظهر مرّة أخرى أن في مكان ما داخلهم، دُوّنت البيانات المستحصلة بشكلها الصائب. كتب روبرت تريفرز بعد مراجعة هذه التجربة، «الأمر كما لو أننا نُضخّم أنفسنا. . . عندما ننجح ونُقلّص عرضنا لذواتنا حين نفشل، على الرغم من ذلك فنحن إلى حد كبير غير واعين بهذه العملية».

إن الشعور بالسوء تجاه نفسك مفيد لأشياء أخرى عدا إرسال إشارات تخدم مصالح الآخرين. بادئ ذي بدء، هناك الوظيفة المذكورة أعلاه عن الشعور الحارق بالعار: مُعاقِبٌ على الأخطاء الاجتماعية، طريقة لكبح تكرار السلوكيات التي تقوّض المكانة. وأيضًا، كما أكّد الطبيب النفسي التطوّري راندولف نيسّي، يُمكن للمزاج أن يُركّز الطاقة بكفاءة. قد يُصاب الأشخاص من شتّى المكانات بالخمول والكآبة عندما تبدو الآفاق الاجتماعية أو الجنسية أو المهنية قاتمة، كما ويزدادون تفاؤلًا وحيويّة عند ظهور الفرص. يبدو الأمر كما لو أنهم كانوا يستريحون استعدادًا لمباراة كبيرة. وإن لم تظهر أي فرص، وتحوّل الخمول إلى اكتئاب خفيف، فإن هذا المزاج قد يهمزهم نحو تحوّل

مثمر بالطبع – تغيير المهن، وهجر الأصدقاء الجاحدين، والتخلي عن السعي وراء رفيقة مراوغة.

يقدم داروين مثالًا جيدًا عن المنفعة المتشعّبة للمشاعر السيئة. في يوليو ١٨٥٧، قبل عامين من طباعة كتابه أصل الأنواع، كتب إلى صديقه جوزيف هوكر: «لقد أجريت بعض الحسابات عن الأصناف وما إلى ذلك وتحدثت إلى لوبّوك، فأوضح لي الخطأ الفادح الأكبر الذي ارتكبته من حيث المبدأ، والذي كلّفني خسارة أسبوعين إلى ثلاثة من العمل»، ترك هذا لدى داروين شعورًا بميل أقلّ من المعتاد للتشديد على قيمته. إذ كتب: «أنا الكلب الأكثر بؤسًا وضلالة وغباءً في إنجلترا، وأنا على استعداد للبكاء غيظًا من عماي واستعجالي».

الآن أحصي السُبُل التي يُمكن لهذا الاغتمام أن يكون مفيدًا عبرها. واحد: بوصفه مُثبِّطًا لاحترام الذات. حيث عانى داروين من إذلال اجتماعي. ففي مواجهة مباشرة، ظهر بصفته شخصًا شديد الارتباك بشأن قضية تقع ضمن خبرته المفترضة. ربما كان هناك انزلاق طويل الأمد في احترامه لذاته؛ ربما انبغى عليه التخفيف من حدّة طموحه في دراسته، كي لا يبدو بمثابة تهديد لنجوم الفكر الإنجليز العظماء، الذين سيتفوّقون عليه حتمًا في النهاية.

اثنان: بوصفه مُعزِّزًا سلبيًا. قد يخدم الألم المستمر من هذه الحادثة بمثابة كابح لداروين كي لا يُكرّر سلوكياته (التحليل المشوش في هذه الحالة) التي قادته إلى الإذلال. ربما سيكون أشد حذرًا في المرة اللاحقة.

وثلاثة: بوصفه مُغيّرَ مسارٍ. إن استمرّ هذا الاغتمام، وحتى لو اقترب إلى الاكتئاب، فربما سيُغيّر سلوك داروين بنحو أشدّ جذريّة، محوّلًا طاقته إلى قنوات جديدة تمامًا. كتب في اليوم نفسه إلى لوبّوك، شاكرًا إياه ومعتذرًا عن كونه «مشوَّشًا»، «يكفي أنّه جعلني أمزّق المخطوطة كاملة ومن ثم الاستسلام بيأس». كما نعلم فإن داروين لم يُمزّق مخطوطته. ولكن لو واجه سلسلة من الانتكاسات بهذا الحجم، فربما كان سيتخلّى عن هذا المشروع. وكان هذا سيصبّ في صالح مكانته الاجتماعية على المدى البعيد، في حال

كان مشوّشًا للغاية فعلًا بحيث لا يقدر على تأليف كتاب مدهش كأصل الأنواع.

ليست هذه التفسيرات الثلاثة لاغتمام داروين متعارضة. فالانتقاء الطبيعي عملية مقتصدة وواسعة الحيلة، توظّف ذات المواد الكيميائية، والمشاعر التي تحملها تلك الكيميائيات، لاستخدامات عِدّة. وهذا أحد أسباب صعوبة اختزال وظيفة أي ناقل عصبي، كالسيروتونين، أو أي حالة مزاجية، كالاغتمام، ضمن عبارة سهلة. لكنه كذلك سبب لعدم شعور الداروويني بالإحباط عندما يتبين أن شيئًا مثل رأي وضيع (أو رفيع) عن النفس له أغراض متعدّدة معقولة بذات القدر. وقد تكون جميعها حقيقية.

إلى أين تنتمي الحقيقة في طيف احترام الذات؟ إذا كنت في شهر تبع سلسلة من النجاحات المهنية والاجتماعية، وتشبّعت إلى حد ما بالسيروتونين وشعرت بدوام الكفاءة والجدارة بالمحبّة والجاذبية، ثم في الشهر اللاحق، بعد بضع انتكاسات، وانزلاق معيّن في مستوى السيروتونين، أحسست بانعدام القيمة، فلا يُمكن أن تكون على حقّ في كلا المرّتين. أي المرّتين أخطأت فيها؟ وهل السيروتونين مصل للحقيقة؟ أم هل هو مخدّر للعقل؟

ربما ليس هذا أو ذاك. عندما تشعر بالرضا أو السوء تجاه نفسك، فربما يعني ذلك إخفاء قدر كبير من الأدلّة عن الأنظار. وأكثر الأوقات صدقًا تأتي بين النقيضين.

على أي حال، ربما الأفضل ترك «الحقيقة» خارج الأمر تمامًا. فسواء أكنت شخصًا «جيدًا» أم «عديم القيمة» فذلك سؤال جوابه الموضوعي في أحسن الأحوال بعيد المنال. وحتى لو أمكن تعريف «الحقيقة» بوضوح، فهي مفهوم لا يبالي الانتقاء الطبيعي به. وللتوكيد، إذا كان التصوير الدقيق للواقع، سواء تجاه النفس أم الآخرين، يمكنه المساعدة على نشر جينات المرء، فسوف تتطوّر دقّة البصيرة أو التواصل. وغالبًا ما يكون هذا هو الحال (حينما تتذكر على سبيل المثال أين خُزِّن الطعام ثم تشارك هذه البيانات مع ذريتك وأشقائك). ولكن حين تتقاطع التقارير الدقيقة مع المصلحة الجينية، فليس

ذلك سوى صدفة سعيدة. إذ لم يُفضّل الانتقاء الطبيعي الحقيقة والأمانة في حد ذاتها. فالانتقاء الطبيعي لا «يفضّل» الأمانة ولا انعدام الأمانة. هو لا يهتمّ بذلك فحسب.

قويّ على الرغم من حسّاسيّته

يجلب الإيثار المتبادل أجنداته الخاصّة إلى تقديم الذات، ومن ثم إلى خداع الذات. ففي حين أن هرميّات المكانة تضع إضافة إلى كفاءتنا وجاذبيتنا وقوتنا وذكائنا الظاهرة إلخ..، فإن الإيثار المتبادل يضفي توكيدًا على اللطف والنزاهة والإنصاف. هذه هي الأشياء التي تجعلنا نبدو وكأننا مُؤثرين تبادليين جديرين. إنها تجعل الناس يرغبون باستهلال علاقات معنا. فلا يُمكن لتضخيم سمعتنا بعدّنا شرفاء وكرماء أن يكون ضارًّا بأي حال من الأحوال، بل وغالبًا ما يحمل في جعبته فوائد.

شدَّد ريتشارد ألكسندر، بشكل خاص، على الأهميّة التطوّرية للترويج إلى الذات أخلاقيًا. وكتب في بيولوجيا الأنظمة الأخلاقية أن «المجتمع الحديث مليء بالأساطير» عن طيبتنا: «عن أن العلماء باحثون متواضعون ومخلصون للحقيقة؛ وأن الأطبّاء يُكرّسون حياتهم للتخفيف من معاناة الآخرين؛ وأننا جميعًا أرواح ملتزمة بالقانون ولطيفة ومؤثرة تُقدّمُ مصالح الجميع على مصلحتها الخاصة».

ليس هناك سبب يُحتّم على نفخ الذات أخلاقيًا أن ينطوي خداعًا للذات. إلّا أن هناك شكّ يسير بإمكانيته ذلك. شوهدت التلافيف اللاواعية التي عبرها نقنع أنفسنا بطيبتنا في المختبر قبل وجود نظرية الإيثار المتبادل لتفسيرها. ففي تجارب مختلفة، طُلب من المشاركين التصرّف بقسوة تجاه شخص ما عبر توجيه إساءات له أو حتى ما اعتقدوه صعقة كهربائية. بعد ذلك أصبح المشاركون ميّالين إلى الإساءة لضحاياهم كما لو أنهم يُقنعون أنفسهم باستحقاق ضحاياهم إساءة المعاملة – فعلى الرغم من علمهم بأن الضحية لا يُعاقَب نظير جريرة ارتكبها، وبصرف النظر عن ذلك، كانوا

يعرفـون عنـه فقط ما يُمكن معرفته عن شـخص في أثناء إسـاءة معاملته لمدة وجيـزة داخـل المختبر. ولكن حين وجّه المشـاركون «الصدمات» لشـخص بعد أن قيل لهم إنه سيثأر لاحقًا منهم عبر صدمهم أيضًا، أظهروا ميلًا لعدم إسـاءة معاملته. يبدو كما لو أن العقل مبرمج وفق قاعدة سهلة: طالما سُوِّيَت الحسـابات، فلا ضرورة للمسـوّغات؛ إذ يُمثّل تناظر التبادل دفاعًا كافيًا عن سلوكك. لكن في حال غششت أو أسأت معاملة شخص لم يغشّك أو يسيء معاملتـك، فـلا بُدّ من اختلاق الأسـباب التي تجعله يسـتحق ذلـك. في كلتا الحالتـين، سـتكون مستعدًا للدفاع عن سـلوكك عند التحـدّي؛ أي في كلتا الحالتين سـتكون مستعدًا لتُجابه بسـخط أي مزاعم عن كونك شخصًا سيئًا أو غير جدير بالثقة.

إننـا نملك ذخيرة وافرة من الأعـذار الأخلاقية. إذ وجد علماء النفس أن الناس يُسوغون فشلهم في مساعدة الآخرين عبر التقليل، بنسب متباينة، من محنهم («هذا لا يُعدّ اعتداءً، بل شـجار عُشّـاق»)، ومسؤوليتهم الخاصة تجاه المحن، وكفاءتهم في المساعدة.

مـن الصعـب دائمًا التأكد من إيمان الناس حقًـا بمثل هذه الأعذار. إلّا أن سلسـلة شـهيرة من التجارب أظهرت (في سـياق مختلف تمامًا) كيف يُمكن للعقل الواعي أن يكون غافلًا عن دوافعه الحقيقية، وكم هو منشـغل بوضـع تسويغات لنواتج هذه الدوافع.

أجريت التجارب على مرضى «الدماغ المنشـطر» – أشخاص قطع لديهم الاتصـال بين نصفـي الدماغ الأيمن والأيـسر لأجل إيقـاف نوبات الصرع الشديدة. المدهش أن للجراحة تأثير ضئيل على السلوك اليومي، لكن في ظل الظـروف المفتعلة، يُمكن حدوث أشـياء غريبة. فلـو ومضت عبارة جوز في النصف الأيسر للمجال البصري (المُعالج بواسطة النصف الأيمن للدماغ)، وليـس الأيمن (المُعالج في النصـف الأيسر للدماغ)، فلن يُبلغ المُشـارك عن إدراك واعٍ للإشـارة؛ إذ لـن تدخـل المعلومـة نصـف دماغه الأيـسر، والتي تسـيطر عنـد معظم النـاس على اللغة ويبـدو أنها تهيمن عـلى الوعي. في هذه

الأثنـاء، فـإن اليد اليُسرى للمشـارك على الرغـم من ذلك - المُسيطر عليها من قبل النصف الأيمن - سـتلتقط الجوز لو سُـمح لهـا التنقيب في صندوق يتضمّن بعض الأشياء. لا يُبلغ المُشارك عن وعي بهذه الحقيقة ما لم يُسمح له برؤية ما تُقبل يده اليسرى على مسكه.

عندما يحين الوقت للمُشـارك كي يُسـوغ سـلوكه، ينتقل النصف الأيسر للدمـاغ من الجهل المزعـوم إلى التضليل غير الواعي. وأحد الأمثلة: يُرسـل أمـرًا بالمشي إلى النصف الأيمـن لدماغ رجل، فيمتثل. وحينما يُسـأل إلى أين يذهـب، يـأتي نصف دماغـه الأيسر، غير الداري بالسـبب الحقيقـي، بواحد آخر: حيث يُجيبُ قانعًا أنه ذاهب لإحضار الصودا. مثال آخر: صورة إباحية ومضـت أمام النصف الأيمن لدماغ امـرأة، فتُفلت منها ضحكة إحراج. ثم بسؤالها ما المُضحك، تأتي بإجابة أقلّ فضائحيّة من الحقيقية.

قال مايكل غازينغا، الذي أجرى بعض تجارب الدماغ المشطور: إن اللغة مُجرّد «وكيـل إعلامي» لأجزاء العقل الأخرى؛ حيث تسـوغ شـتى الأفعال التـي تحثّها، مُقنعةً العالم أن المؤدي شـخص موضوعي وعقلاني ومسـتقيم. وقد يكون مجال الوعي نفسـه بمثابة وكيل إعلامي في جزء كبير منه - المكان الذي تُشـبّع فيه بياناتنا الصحفية المكتوبة من دون وعي بالقناعة التي تمنحها القـوة. يُخفي الوعي منطق الجينـات البارد والخادم للذات بمجموعة متنوعة مـن الهيئـات البريئة. كتـب الأنثروبولوجـي الدارويني جـيروم باركو: «من الممكـن المجادلة بـأن الوظيفة التطوّرية الأساسـية للذات هـي أنها عضو في إدارة الانطباع (بدلًا من صانع للقرار، كما تريد له السيكولوجيا الشعبية)».

ويُمكـن للمـرء الذهاب لما هـو أبعد واقتراح أن السـيكولوجيا الشـعبية نفسـها مدمجـة في جيناتنـا. بعبـارة أخـرى، لا يُعدُّ الشـعور بأننـا متحكمون «عن وعي» بسـلوكيّاتنا وهمًا فحسـب(اقترحت تجارب عصبية أخرى ذلك أيضًا)؛ بل وهمٌ هادف صمَّمه الانتقاء الطبيعي كي يُقرض القناعة لمزاعمنا. عـلى مدى قرون قارب الناس الجدل الفلسـفي عـن الإرادة الحرّة مع حدس غامض وقوي في الوقت نفسـه بوجـود الإرادة الحرّة؛ نحن (نحنُ الواعون)

مسؤولون عن سلوكياتنا. وليس عابرًا للحدود اقتراح أن هذا الجزء غير اليسير من التاريخ الفكري يُمكن أن يُنسب مباشرة تقريبًا إلى الانتقاء الطبيعي – إن أحد أكثر المواقف الفلسفية قُدسية هو في جوهره تكيّف.

المحاسبة المشبوهة

يتجاوز تأثير تشويه الإيثار المتبادل الاعتقاد العامّ باستقامتنا؛ إذ يُمكن رؤيته في أنظمة المحاسبة الاجتماعية المنحرفة خاصّتنا. ومن الأمور المركزية في الإيثار المتبادل مراقبة التبادلات – سجل من يُدين لك ومن تدين له ومقدار الديون المستحقّة عليك. من وجهة نظر الجينات، فإن مراقبة جانبي السجل بالجدية نفسها سيكون حماقة. فلو انتهى بك الحال وأنت تحصل على أكثر مما تعطي بقليل، فذلك أفضل للغاية. ولكن إن أعطيت أكثر مما تأخذ ولو بهامش زيادة ضئيل، فهي زيادة في الخسارة.

أن يتتبع الناس عن كثب ما يدينون به أكثر من متابعة ما مدينون به بالكاد أخبار تومض من تخوم علم السلوك. وقد بدا ذلك شديد الوضوح لمدة طويلة حتى إنه كان قبل قرن ونصف بمثابة أساس غير معلن لمزحة صغيرة مرّرها داروين لأخته كارولاين. ففي رسالة من البيغل، كتب عن رجل «قيل في إحدى رسائل اللورد بيرونز أنه تغيّر بعد مرض لدرجة أن دائنه الأقدم لم يتعرّفه». داروين نفسه راكم على نفسه بعض الديون أيّام الكلية، ويذكر أحد كتّاب سيرته أنه «شعر بالسوء تجاه هذه الديون، وعند ذكر تبذيره بعد سنوات، يبدو أنه قد نجح بتقليصها إلى النصف».

تذكّر داروين انتقائيًا الديون من النوع الفكري أيضًا. ففي سنّ مبكّرة، قرأ كتابات إيرازموس عن التطوّر. وقد تضمّنت جملة تتوقّع بنحو لافت للنظر الانتقاء الجنسي، وهو نوع الانتقاء الطبيعي الذي جعل الذكور شديدي التنافسية: «يبدو أن السبب الأخير لهذه التنافسية بين الذكور أن أقوى الحيوانات وأنشطها يجبُ أن ينشر النوع، والذي عليه من ثم التحسّن»، ومع ذلك، حينما أدرج داروين في طبعته الثالثة من أصل الأنواع

موجـزًا تمهيديًا للسـلائف الفكرية، تجاهل جدّه بعدّه نذيـرًا ما قبل لاماركي لالتباس لامارك. وفي سيرته الذاتية، تحدّث داروين باستخفاف عن زونوميا إيرازمـوس، الكتاب الذي، وفقًـا للاقتباس أعلاه، زرع ربما في ذهن داروين ليس بذرة التطورية فحسـب، بل ونظرية الانتقاء الطبيعي كذلك. إنه لرِهان آمـن الاعتقـاد بأن ضمير داروين دائـم اليقظة رفض السـماح من دون وعي بجزل اعتراف مقتضب لجدّه.

لم يكـن داروين مقصّرًا عمومًا في أمانتـه الفكرية، بل مقصّر انتقائيًا. فكما كتـب أحد كُتّاب سـيرته: «عـلى الرغم من كـرم داروين الدائم تجـاه أولئك الذيـن وجد ملاحظاتهـم التجريبية مفيدة، إلّا أنه بالـكاد اعترف بمن أثّرت عليـه أفكارهـم». يا لـه من نمط مفيـد. إذ بذل داروين الفضـل إلى عشرات الباحثـين في الدوريـات الثانوية، بينما منعها عن أسـلافه القلائـل الذين ربما لم يكونـوا أكثـر مـن منافسـين بعيدين عـلى تاجه؛ وهكـذا تحمّل ديـون كثير من العلماء الشـبّان الصاعدين، بينما خاطر بالإسـاءة لكبار السـن والأموات منهم بشـكل رئيـس. والخلاصة هي صيغة سـليمة للمكانـة الرفيعة إلى حد ما. (بالطبع فإن الصيغة نفسـها - «لا تنسـب الفضل لمن بشّروا بنظريّتك» - ليست مكتوبة في الجينات. لكن قد يكون هناك ميل داخلي للامتناع عن منح مزايا مُعزّزة للمكانة لأولئك الذين تُهدد مكانتهم مكانتك).

يـتراوح التحيّـز الأنويّ من الملحميّ إلى الهامـشي. تتميّز الحروب روتينيًا بإحسـاس عميـق ومؤكـد بالظلم لـدى كلا الجانبـين، إيمان قـوي أن العدو مُذنـب. ويُمكن للجيران المتجاورين، حتى الأصدقاء منهم، استذكار إدانة مماثلة من سجل خلافاتهم التاريخية. وهذه الحقيقة يُمكن ضياعها وسط بعض طبقـات المجتمع الحديث، حيث يغطي بريق الـود الحياة اليومية. لكن هناك كافـة الأسـباب للاعتقاد بأنه في أثنـاء التاريخ وما قبله، حمـل الإيثار المتبادل توتّرًا يوميًا، مسـاومة ضمنيّة أو صريحة. لاحظ برونيسلاف مالينوفسكي أن سـكّان جزر تروبرياند بدوا منغمسـين في منح الهدايا وكانوا «ميّالين للتباهي بهداياهم الخاصّة التي شـعروا بالرضا التامّ عنها، بينما تنازعوا، أو تشـاجروا

حتّى، على قِيَم الهدايا التي تلقّوها لأنفسهم».

هـل وجـدت يومًا ثقافة لم يختلـف فيها أبناؤها بانتظام - حول السـلع في السـوق، أو الراتـب في العمل، أو تقسـيم الأراضي، أو طفل من أخطأ بحق طفـل الآخـر؟ يُمكن للجـدالات الناتجة أن تحمـل عواقب حقيقيـة. ونادرًا مـا تؤثـر بمفردها على أمور تتعلـق بالحياة والموت، لكنها تؤثـر على الرفاهية الماديّة، وفي أثناء التطوّر كان الفارق الصغير في الرفاهية الماديّة فارقًا بين الحياة والموت أحيانًا، بين جذب الشريك من عدمه، بـين نجاة ثلاثة من الذرية أو اثنين فقط. لذا هناك سبب للشك في الأساس الفطري للمحاسبة الاجتماعية المتحيّـزة. ويبـدو أن الانحياز عالمي، كما يبدو بدهيًا أنـه نتيجة طبيعية لنظرية الإيثار المتبادل.

ومع ذلك، بمجرّد النظر إلى الموقف عبر شيء غير الحدس، تصير الأمور أقـلّ جلاءً. في كومبيوتر آكسـلرود، كان مفتاح نجـاح واحدة بواحدة أنها لا تحاول التفوّق على جيرانها؛ حيث دائمًا ما كانت على استعداد لقبول مقايضة عادلـة. والكائنـات التي صَعُـبَ اسـترضاؤها - تلك التي تحـاول «الغش» للحصول على أكثر مما تسـتحق - انقرضت. وبذلك، إن كان التطوّر يعاقب الجشـعين، فلماذا يبدو البشر مُجبرين لا شـعوريًا على منح ما هو أقلّ بقليل مما يحصلون عليه؟

الخطـوة الأولى نحـو إجابـة ذلك هـي عبر رؤيـة «الحصول عـلى أكثر مما تُقـدّم» بوصفـه شـيئًا يختلـف عن «الغـش». خلـط كومبيوتر آكسـلرود بين الاثنـين بجعـل الحيـاة ثنائيـة: إما التعـاون أو عدمه؛ إمّـا أن تكـون لطيفًا أو غشاشًـا. في حـين أن الحياة متدرّجة بنحو أدق. إذ وفـيرة هي فوائد المجموع اللاصفـري لدرجة تكون فيها التبادلات غـير المتكافئة بنحو هامشي منطقيّة لكلا الطرفين. فلو قدّمت ٤٩ معروفًا لصديقك ثم حصلت بالمقابل على ٥١ معروفًا، ربما لا تزال الصداقة تسـتحقّ وقت صديقك. فأنت لم «تغشّـه» حقًا في النهايـة. صحيـح أنك نلت منه، ولكـن ليس لدرجـة ألّا يُفضّل بدلًا عن صفقته معك اللا صفقة.

لـذا يُمكـن مـن الناحية النظريـة أن تكـون بخيلًا بهامش يسـير فقط عن واحدة بواحدة من دون أن تُعدّ غشّاشًا، وبذلك من دون اجتذاب انتقام مؤلم لنفسك. وهذا النوع من البخل، لكونه متأصلًا في الانتقاء الطبيعي، قد يتّخذ شكل محاسبة مشبوهة – إحساسٌ عميق بالعدالة ميّالٌ قليلًا تجاه الذات.

لماذا يُهمُّ للغاية أن يكون الانحياز لا واعيًا؟ في كتاب بعنوان اسـتراتيجية الصراع للاقتصادي ومنظّر اللعبة توماس شـيلينغ قد نجد هناك دليلًا كامنًا. في فصـل بعنوان «مقال عن المسـاومة» – وهو ليـس عن التطوّر، لكن يُمكن أن ينطبق عليه – أشـار شـيلينغ إلى مفارقة: في لعبـة محصلتها لا صفرية، «قد تعتمـد القـدرة لتقييد خصـم على قدرة تقييـد النفس». والمثال الكلاسـيكي هـو لعبـة «الدجـاج» ذات المحصلـة اللاصفرية. سـيارتان تتجهـان مباشرة صـوب أحدهمـا الأخرى. السـائق الذي ينحرف أولًا عن مسـاره سـيخسر اللعبـة، ومعها شيءٌ من مكانته وسـط أقرانه المراهقين. عـلى الجانب الآخر، إن لم ينحرف أي السـائقين، فكلاهما سـيخسر ما هو أكثر للغاية. فما العمل؟ يقترح شـيلينغ إلقـاء عجلة قيادتك مـن النافذة أمام مرأى السـائق الخصم. بمُجرد اقتناعك أنك ملزم بها لا رجعة فيه على الالتزام بمسارك، فسينحرف خصمك لو كان متحليًا بالعقل.

ينطبـق ذات المنطـق عـلى المواقف الأكثـر شـيوعًا، كشراء سـيارة. هناك طيف من الأسـعار تكون ضمنها الصفقة منطقية لكل من البائع والمشـتري. عـلى الرغم مـن ذلك تتباعد المصالـح ضمن الطيف: فالمشـتري يُفضّل الحد الأدنـى، بينما يُفضّل البائع الأعلى. يقول شـيلينغ إن الطريـق إلى النجاح من حيـث الجوهـر هو نفسـه في لعبة الدجاج: كُـن أول من يقنـع الطرف الآخر بصلابتك. لو آمن البائع أنك على استعداد للمغادرة إلى الأبد، فسيُسلِّم لك. لكن لو نفّذ البائع ضربته الاستباقية وقال: «لن أستطيع مطلقًا قبول أقل من س»، وتبيّن أنه شـخصٌ لن يسمح له كبرياؤه بالتراجع عن كلمته، فسيفوز. يقول شـيلينغ: إن المفتاح بتقديـم «تضحية طوعية ولكن لا رجعة فيها لحرية الاختيار» – وأن تكون أول من يبادر إليها.

لأجل غاياتنا، خذ عبارة تطوعي. قد يُستبعد المنطق الأساس من الوعي لجعل التضحية تبدو «لا عودة فيها» حقًا. وليس حينما نكون في ساحة لبيع السيارات المستعملة، ربما. في الحقيقة يُفكّر بائع السيارات، حاله حال منظّري اللعبة، بشأن ديناميكيات المساومة، وكذلك الحال بالنسبة إلى مشتري السيارات الأذكياء. مع ذلك فإن المساومة اليومية – على السيارات والمرتّبات والمناطق المتنازع عليها – تبدأ غالبًا باعتقاد فعلي، من الجانبين، عن مدى شدّتها. ومثل هذا الاعتقاد، المُتوصَّلُ إليه سريعًا وبوضوح فائق عمّا نستحقّه، طريقٌ سريع للضربات الاستباقية التي يوصي بها شيلينغ. إذ صلابة الأعصاب هي النوع الأكثر إقناعًا.

مع ذلك، تظلّ الألغاز قائمة. يُمكن للصلابة المطلقة أن تهزم الذات. فمع انتشار جينات «المحاسبة الغامضة» بين السكان، سيواجه المحاسبون الغامضون بعضهم بعضًا أكثر فأكثر. حيث مع إصرار كل واحد على أن يحوز النصف الأفضل من الصفقة، سيفشل كلاهما في إبرام أي صفقة. إلى جانب ذلك، ففي الحياة الواقعية، لن تعرف الصلابة الموضع الأنسب لها، ذلك أن من الصعب تحديد أي الصفقات التي سيقبلها الطرف الآخر. إذ لا يعرف مشتري السيّارة كم هي تكلفتها الفعلية على التاجر أو قدر المبلغ الذي عرضه مشترون آخرون. وفي المواقف الأقلّ تنظيمًا – المحاباة المتبادلة على سبيل المثال – تصبح مثل هذه الحسابات أبْهت، ذلك أن الأشياء تصبح أقل قابلية للقياس. وهكذا جرى الأمر في أثناء التطوّر: صعوبة فهم نطاق الصفقات التي تصبّ في صالح الطرف الآخر بدقّة. لو بدأت المساومة مع الإصرار بما لا رجعة فيه على صفقة خارج ذلك النطاق، فستُترك من دون صفقة.

ربما أفضل الاستراتيجيات هي الصلابة الزائفة والرسوخ المرن. حيث تبدأ الحديث ببيان مُشدّد عمّا تستحقه. ومع ذلك عليك بالتراجع – إلى حدّ ما على الأقل – بعد ورود بيّنة على رسوخ الطرف المقابل. وما نوع هذه البيّنات؟ حسنٌ، إنها بيّنات. لو استطاع الناس شرح الأسباب الكامنة وراء

قناعاتهم، وبدت أسبابهم معقولة (ومُخلصة)، فإن بعض التراجع سيكون في محلّه. ولو تحدّثوا عن مقدار ما بذلوه لأجلك في الماضي، وكانوا في ذلك صادقين، فعليك التنازل عن موقفك. لكن بالطبع إلى الحد الذي يُمكنك فيه حشد بيّنات مُضادّة ذات إقناع مُضاد. وهكذا دواليك.

ما وصفناه الآن هو ديناميات الجدال البشري. إذ يتجادل الناس وفقًا لهذا النهج بالضبط. (في الواقع، هذا ما تعنيه عبارة جدال)، مع ذلك فهم غالبًا ما يكونون غافلين عمّا يفعلونه، وسبب فعلهم إيّاه. إذ يجدون أنفسهم بسهولة على اتصال دائم بجميع البيّنات التي تدعم موقفهم، وغالبًا ما يكونون بحاجة إلى التذكير بالبيّنات التي بالضدّ منه. كتب داروين في سيرته الذاتية عن عادة دعاها بـ«القاعدة الذهبية»: لتدوين أي ملاحظة تبدو غير متوافقة مع نظريّاته فورًا – «لأنني وجدت في أثناء التجربة أن مثل هذه الحقائق والأفكار كانت أكثر استعدادًا للزوال من الذاكرة مقارنة بتلك المؤيّدة لنا»، وسبب أن أسلوب الجدل البشري العام يبدو هيّنًا للغاية هو أن بحلول وقت بدايته، كان العمل قد تمّ بالفعل. كتب روبرت تريفرز عن الخلافات الدورية – كالتي يُمكنك دعوتها بالتفاوضات المُعادة على العقود – التي غالبًا ما تُمثّل جزءًا من علاقة وثيقة، سواء أكانت علاقة صداقة أم زواج. حيث أشار إلى أن الجدل «قد يظهر وكأنه يندفعُ عفويًا، مع القليل من المراجعة أو من دونها. مع ذلك، وبينما تتقدّم، يظهر أفقان كاملان من المعلومات وكأنهما منظّمان بالفعل، فقط في انتظار صواعق الغضب كي يُظهرا نفسيهما».

والافتراض هنا أن الدماغ البشري هو إلى حدّ كبير آلة لكسب المجادلات، لإقناع الآخرين أن مالكه على صواب، وبذلك لإقناع مالكها بالشيء نفسه. إن الدماغ أشبه بمحام جيّد: حيث أيًا كانت المصالح الواجب الدفاع عنها، فهو يذهب لإقناع العالَم بقيمتك الأخلاقية والمنطقية، بغض النظر عن حقيقة امتلاكك أي منهما. وكما المحامي، يريد الدماغ البشري النصر، لا الحقيقة؛ وكما المحامي، غالبًا ما تكون المهارة، لا الفضيلة، محلّ تقديره.

قبل وقت طويل من كتابة تريفرز عن الاستعمالات الأنانية للخداع

الـذاتي، جمـع علـماء الاجتماع بيانـات داعمـة. في إحدى التجـارب، تعرض الأشـخاص ذوو المواقف الراسـخة بخصوص إشـكالية اجتماعيـة إلى أربع حجـج، اثنتان مؤيدتـان واثنتان معارضتان. وفي كل جانب من الإشـكالية، كانـت الحجج من نوعين: أ) معقولة تمامًا، وب) غير معقولة لحد السـخافة. وكان الناس ميّالين إلى تذكّر الحجج المعقولة التي تدعم رؤاهم وغير المعقولة التي لا تدعمها، والنتيجة النهائية تأكيد صحّة موقفهم وسخافة البديل.

قـد يظن المـرء أننا، بكوننا كائنات عقلانية، سـوف نشـكّ في النهاية بوتر الاستقامة الطويل الغامض خاصتنا، موهبتنا المعصومة في بقائنا على الصواب في أثنـاء أي نـزاع عـلى السـمعة أو المال أو القيـم وغيرها. غـير صحيح. إننا نُصـدم مرارًا وتكرارًا - سـواء أتجادلنا على مـكان في الطابور، أم على عرض ترويجي لم نحصل عليه أم حادث سير تعرضنا له - بمدى عمى من يقترحون أن غضبنا ليس له ما يسوغه.

الصداقة وانعدام الأمانة الجماعي

في كل أدبيات علم النفس التي سبقت وجهة النظر الداروينية عن الخداع ودعمتـه، تـبرز عبارة واحـدة لاقتصـاده الهـش: beneffectance.[1] وقد سُـكّ عـام ١٨٨٠ على يد عـالم النفسِ أنتـوني غرينوالد لوصـف ميل الناس لتقديم أنفسـهم بوصفهم مُفيدين وفعّالين على حدّ سواء. ويُجسّد نصفا هذه المسكوكة المركّبة موثات الإيثار المتبادل وهرميّة المكانة على التتابع.

إن في هـذا التمييـز شـيئًا مـن المبالغـة. إذ يُمكـن في الحيـاة الواقعية دمج تفويضـات الإيثـار المتبـادل والمكانـة بحيث تبـدو مفيدة وفعالـة. في إحدى التجارب، عندما سئل الناس الذين كانوا جزءًا من جهد جماعي عن دورهم فيه، مالوا للإجابة باستفاضة إن قيل لهم في البدء: إن الجهد كان ناجحًا. لكن لو أُبلِغوا أنه فشل، تراهم يتركون مساحة أكبر لتأثيرات زملائهم في الفريق.

(1) مزيج من الإحسان والفعالية ضمن اصطلاح واحد [المترجم]

إن احتكار الفضل واقتسام اللوم هذا يخلص إلى منطقين تطوّريين. حيث يجعل الشخص يبدو أكثر فائدة، بمساعدته الآخرين ضمن المجموعة حتى تحقيق النجاح، وبذلك استحقاق السداد المستقبلي على دوره؛ كما ويجعل ذلك الشخص يبدو فعّالًا، مستحقًا لمكانة رفيعة.

وأحد أشهر انتصارات أنصار داروين جاء في عام ١٨٦٠، حينما تولّى توماس هكسلي، المعروف أيضًا باسم «بولدغ داروين»، مواجهة الأسقف ساموئيل ويلبرفورس في أثناء مناظرة عن أصل الأنواع. سأل ويلبرفورس ساخرًا من هكسلي عن أي جانبي عائلته ينحدر من قرد، كي يجيب الأخير بأنه يُفضل انحداره من قرد على أن ينحدر من رجل «يمتلك من الوسائل والتأثير ما هو عظيم وعلى الرغم من ذلك يؤْثِر استعمالها لمحض التهكّم في مناقشة علمية خطيرة»، على الأقل هذه هي الطريقة التي روى بها هكسلي القصة لداروين، ورواية هكسلي هي التي دوّنتها كتب التاريخ. إلّا أن صديق داروين المقرّب جوزيف هوكر كان حاضرًا أيضًا، وتذكّر الأمر بنحو مغاير. حيث أخبر داروين أن هكسلي «لم يستطع رفع صوته بما يتناسب مع حجم الحضور البالغ ولا توجيه الجمهور؛ كما لم يُشِر إلى مواطن ضعف سام [الأسقف ويلبرفورس] ولم يضع الأمر بشكل أو طريقة يستسيغها الحضور».

لحسن الحظ أن هوكر ذكر مواجهته بنفسه لويلبرفورس: «لقد وجّهت له صفعات وسط جولات من التصفيق» واستمرّ ليُبيّن «أنه لم يتمكّن مطلقًا من قراءة كتابك» وأنه «كان جاهلًا تمامًا» بالبيولوجيا. «ولم يكن لدى ويلبرفورس كلمة واحدة ليردّ بها وحُلّ التجمّع فورًا بتركك سيّد المجال بعد معركة دامت ٤ ساعات». قال هوكر إنه منذ ذلك اللقاء، «تلقّيت التهنئة والشكر من قبل أشدّ المعاطف سوادًا والملافع بياضًا في أوكسفورد»، في غضون ذلك، أفاد هكسلي بأنه كان «الرجل الأكثر شعبية في أوكسفورد طوال الساعات الأربع مضافًا لها العشرين التي تبعتها». كان كلٌّ من هكسلي وهوكر يُفيدان بقصص من شأنها فعل أمرين: رفع مكانتهم أمام داروين، ثم تركه مدينًا لهما.

يتقاطع الإيثار المتبادل والمكانة بطريقة ثانية. حيث يصدر الاستثناء الشائع

لميلنـا إلى التقليل من مسـاهمات الآخريـن عند تمتّع أولئـك الآخرين بمكانة رفيعـة. فلـو امتلكنا صديقًا مشـهورًا مثلًا، سـنعتزّ حتى بهدايـاه المتواضعة، ونسـامح تجاوزاتـه اليسـيرة، ونتأكّد جيّدًا مـن عدم خذلانه. مـن ناحية يُعدّ هـذا تعديـلًا مرحَّبًا به للأنوية؛ ربـما تكون ميزانياتنـا العمومية أكثر إخلاصًا تجاه أصحاب المكانة الرفيعة مقارنة بغيرهم. غير أن للعملة وجهين. فرفيعو المكانـة هـؤلاء ينظرون إلينا في هذه الأثناء بقبح زائـد، حيث يُخصم من دفتر حساباتنا بقسوة تعكس تواضعنا.

مع ذلك يبدو أننا نعدّ العلاقة معهم جديرة بالاهتمام. فقد يُمارس صديق رفيـع المكانة، وقت الحاجة، تأثيرًا حاسـمًا لصالحنـا، وغالبًا ما يتكبّد في ذلك تكلفة صغيرة. تمامًا مثلما يستطيع ذكر قرد ألفا حماية حليف له بمجرد النظر شزرًا نحو مهاجمه المحتمل، يُمكن للراعي رفيع المكانة بمكالمة أمدها دقيقتان صنع فارق هائل بالنسبة إلى شخص متواضع المكانة.

من هذا المنطلق، لا تتقاطع الهرميّة الاجتماعية مع الإيثار المتبادل فحسب، بل وتندمجان ضمن بُعد واحد. وما المكانة إلّا نوع مختلف من الأصول يُمكن للناس الاستعانة بهـا ووضعها على طاولة المفاوضات. أو بشـكل أدق: إنها واحـدة من الأصـول التي يُمكنها إفادة أصول أخـرى؛ ذلك يعني أن مقابل تكلفة صغيرة يُمكن للمرء منح أفضال كبيرة.

يُمكـن للمكانـة أن تكـون إحـدى الأفضال كذلـك. فعندمـا نطلب من أصدقاء المسـاعدة، غالبًا ما لا نسألهم استعمال مكانتهم فقط، بل كذلك رفع مكانتنا في أثناء العملية. بين قردة الشمبانزي في آرنهيم، كان تبادل دعم المكانة أمرًا سهلًا في أحيان؛ فالشمبانزي أ يساعد ب ضد منافس ليحفظ له مكانته؛ فيعيـد الشـمبانزي ب لاحقًـا هـذا الفضل لصاحبـه. أمّا بين النـاس، فدعم المكانـة أقـلّ ماديّة. حيث باسـتثناء الحانات وسـاحات المـدارس الإعدادية وغيرهـا مـن مناطـق ارتفـاع التوستوسـتيرون، يكـون الدعـم عـلى شـكل معلومـات لا عضلات، فمعونة صديق غالبًا ما تعني الدفاع عنه لفظيًا حينما تكـون مصالحه محلّ نزاع - وبشـكل أعم، قول أشـياء جيّـدة معززة للمكانة بحقه. ولا يهم ما إن كانت تلك الأشياء صحيحة على وجه الخصوص أم لا.

فما هي إلّا أشياء يفترض بالأصدقاء قولها. ينخرط الأصدقاء في نفخ متبادل. وإن كونك صديقًا حقيقيّ لشخص معناه تأييد الأكاذيب المُحبّبة له.

وسواء أكان هذا الانحياز تجاه مصالح الأصدقاء غير واع بشكل عميق أم لا فهي مسألة تحتاج إلى بحوث لم تُجرَ بعد. والإجابة الإيجابية السهلة قد تصطدم مع الخيانة المعروف عنها غزوها للصداقات. مع ذلك فقد تكون السمة المميزة لأصلب وأطول الصداقات هي عمق الانحياز المشترك؛ فأفضل الأصدقاء من يرون بعضهم بعضًا بانفتاح بالغ. مع ذلك، بغض النظر إن كانت الأكاذيب واعية أم لا، فأحد تأثيرات الصداقة هو أخذ العُقد الفردية للنذالة الأنانية وربطها ضمن شبكات من النذالة الجماعية. حيث يصبح حبّ الذات مجتمع إعجاب متبادل.

والعداء يكون بمجتمعين ذوي مقت مشترك. فإذا كان لصديقك الحقيقي عدوّ لدود، يُفترض بك تبنّي عداء صديقك كأنه عداؤك أنت؛ هكذا تدعم مكانة صديقك. بالمنوال نفسه، يُتوقّع من ذلك العدو - وأصدقائه - لا كراهية صديقك فحسب، بل وكراهيتك أيضًا. ليس هذا نمطًا صارمًا، إلّا أنه ميل. فأن تحافظ على علاقة وثيقة بعدوّين معلنين هو أن تكون في موضع مُحرج لا تُحسد عليه.

إن المؤامرة الخبيثة بين الإيثار المتبادل وهرميّات المكانة تمتد إلى مستوى أعمق. ذلك أن العداوة نفسها هي خليقة مشتركة للمتآمرين. فمن ناحية، تنشأ العداوة من التنافس والسعي المشترك والمتضارب للمكانة. ومن ناحية أخرى، تمثّل الجانب الآخر للإيثار المتبادل. وكما يُشير تريفرز، أن تكون مؤثِرًا ناجحًا بالتبادل معناه أن تكون مُنفِذًا - تتّبع أولئك الذين ينالون عونك ولكن من دون سداده، فإمّا حجب العون عنهم مستقبلًا أو عقابهم.

مرّة أخرى، قد يُعبر عن كل هذا العداء ليس بشكل صريح أو جسدي، كما بين الشمبانزي، ولكن شفهيًا. حينما يصبح أُناسٌ أعداء لنا، أو يفشلون في دعمنا بعد دعمهم، فالردّ الأنموذجي هو تداول أشياء سيئة عنهم بنحو مقنع. ومرة أخرى، أشد الطرق إقناعًا لإشاعة مثل هذه الأشياء هي عبر تصديقها بنفسك - اعتقد في قرارتك أن هذا الشخص غير كفء أو غبيًا

أو، الأفضـل، أو سيئًا ومعيبًـا أخلاقيًـا وذا خطـر عـلى المجتمـع. في التعبير عن المشـاعر عند الإنسـان والحيوان، لخّص داروين طبيعة العداء المشـحون أخلاقيًـا: «بعض الأفراد . . . يُمكنهم تأمل شـخص مكروه لمدة طويلة، من دون الشعور بعلامات السخط أو الغضب وإظهارها».

كانـت تقييمات داروين الخاصة لبعضهم تحمل أحيانًا طابعًا انتقاميًا. ففي أثناء وجوده في كامبريدج، التقى برجل يدعى ليونارد جينيس، عالم حشرات نبيل كان، مثل داروين، جامعًا للخنافس. بدا ممكنًا أن يُصبح الاثنان أصدقاء وحلفـاء على الرغـم من التنافس الطبيعي بينهما. وقد قـدّم داروين في الواقع هـذا العرض مانحًـا لجينيس «عددًا لا بأس به من الحشرات» التي، كما ذكر داروين، بدا لأجلها ليونارد «ممتنًا للغاية»، ولكن حينما حلّ موعد الردّ بالمثل، جينيـس «رفض إعطائي عينة من خنفسـاء الجيف عـلى الرغم من امتلاكه ٧ أو ٨ عيّنات منها»، وفي معرض نقله هذه الأخبار إلى ابن عمه، علّق داروين ليـس عـلى أنانية جينيس فحسـب، بل و«عقلـه الضعيف»، بعد ١٨ شـهرًا، وعلى الرغم مما سبق، عَدَّ داروين جينيس «عالم طبيعة ممتاز»، وقد يكون هذا الرأي المُعدّل مرتبطًا بإعطاء جينيس لداروين، ففي أثناء تلك المرحلة: «هدية رائعة من ذوات الجناحين».

حينما تتّسـع الضغائن لدرجة تشـكيلها شبكات، بحيث يُكوّن الأصدقاء تحالفات يدعم عبرها أحدهم مكانة الآخر، فالنتيجة ستكون شبكات أوسع مـن خداع الذات ومن العنف ربما. وإليكم جملة وردت في النيويورك تايمز: «في غضون أسبوع، شيّد كلا الجانبين قصصًا عاطفية عميقة تشرح أدوارهما، روايـات من جانب واحـد مُقدّمة بقناعة عاطفية، على الرغم من أنها لا تقدر على الصمود أمام التمحيص من نواح عدّة بالنسبة إلى كلا الجانبين».

ويُشـير المقطـع إلى حادثة أطلق فيهـا جنود إسرائيليون النـار على مدنيين فلسـطينيين، ورأى كل جانـب بوضـوح أن الطـرف الآخـر هـو من أشـعل فتيل المشـكلة. لكن يُمكن تطبيق ما في المقطع بدقّة متسـاوية على كافّة أنواع الصدامـات، كبـيرة كانت أم صغيرة، على مر القرون. ذلـك أن ما يقوله هذا المقطع يُمثّل جزءًا كبيرًا من التاريخ البشري.

إن الآليـة الحديثـة التي تقـود إلى الحـروب العصرية - الحماسـة الوطنية، والشعور الجماعي بالصواب الأخلاقي والغضب المُعدي - غالبًا ما تمّ تتبعها من قبل التطوّريين وصولًا إلى عصور الصراع بين القبائل أو العصابات. من المؤكـد أن مثـل هذا العدوان واسـع النطاق قـد ظهر مرارًا وتكـرارًا في أثناء حياة جنسـنا البشري. ولا شـكّ أن المحاربين كثيرًا مـا حصلوا على مكافآت داروينيـة عبر اختطافهم أو اغتصابهم نسـوة أعدائهم. ومـع ذلك فحتى مع تشكّل سيكولوجية الحرب بالفعل من الحروب الشاملة، فإن لها أهميّة ثانوية. يُمكن أن تكون لمشـاعر العداء والتظلّم والسـخط المُبرر أخلاقيًا - الشـعور الجمعـي بهـنّ - جذورهـا العميقـة في الصراعـات القديمة داخـل العُصَب البشرية وما قبل البشرية. ولا سـيما: في الصراعات بين تحالفات الذكور على المكانة.

جماعات المصلحة

إن ميـل الأصدقـاء لكراهية أعداء أصدقائهـم لا حاجة كي تكون محض تبـادل للأفضـال. فأحـد أقوى الروابـط الذي يمكـن لصديقـين امتلاكه - البـادئ العظيم للصداقات والمحافظ عليها - هو العدو المشـترك. (صديقان يلعبان معضلة السجين سيتعاونان أكثر بوجود شخص يتشاركان كراهيته).

وغالبًـا ما تُحجب هذه القناعة الاسـتراتيجية في المجتمع الحديث. إذ ربما لا تقوم الصداقات على الأعداء المشتركين، ولكن على الاهتمامات المشتركة: الهوايات، والأذواق في الأفلام أو الرياضة. وتنشأ الألفة بعواطف من النوع الأكثـر بـراءة. لكـن يُفـترض أن رد الفعـل هذا قـد تطور في سـياق تميل فيه العواطف المشـتركة كي لا تكون بريئة تمامًا: سـياق آراء سياسـية صريحة عن من عليه قيادة القبيلة مثلًا أو كيف ينبغي تقسـيم اللحوم. بعبارة أخرى، ربما تكون ألفة المصالح المشـتركة قد تطوّرت بوصفها وسيلة لتدعيم التحالفات السياسـية المثمرة، من ثم ربطت نفسـها لاحقًا بقضايـا قليلة الخطورة. وهذا من شأنه على أي حال المساعدة في تفسير الوقار السخيف المحيط بالخلافات عن أمور تبدو تافهة. لماذا يُمكن لحفل عشـاء سـلس التحول فجأة إلى وضع

محرج بسبب خلاف على مزايا أفلام جون هيوستن؟

إضافة إلى ذلك، غالبًا ما تتحول «المسائل قليلة العواقب» بالتمحيص الدقيق إلى تضمّن مخاطر حقيقية. خذ على سبيل المثال اثنين من علماء الاجتماع ذوي التفكير الدارويني. فعلى الرغم من أن المصلحة التي تربطهما «فكرية بحتة» - افتتان بالجذور التطوّرية للسلوك البشري، إلّا أنها كذلك مصلحة سياسية مشتركة. فكلا العالِمين سئما التعرض للتجاهل أو الهجوم من قبل المؤسسة الأكاديمية، ومن عقيدة الحتمية الثقافية وانتشارها العنيد في كثير من أقسام الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع. وكلاهما يريد نشر أبحاثه في أكثر المجلّات احترامًا. كما ويرغبان بنيل مناصب في أفضل الجامعات. وبالسلطة والمكانة. إنهما يريدان تقويض النظام الحاكم.

والحقّ أنهم لو أطاحوا بالنظام الحاكم وصاروا مشاهيرَ، وألّفوا الكتب الأكثر مبيعًا، فربما لن تكون هناك مكافأة داروينية. فقد لا يُسمح لهما بترجمة المكانة إلى جنس، وإن حققوا ذلك فقد يستخدمون موانع حمل. لكن في البيئة التي تطوّرنا فيها - حتى القرون القليلة الماضية - كانت المكانة تُترجم إلى عملة داروينية بنحو أكفأ. ويبدو أن هذه الحقيقة قد أثّرت عميقًا في نسيج الجدال الفكري، ولا سيما بين الرجال.

سنستكشف مثالًا لهذا التأثير في الفصل اللاحق، في وصف الجدال الفكري الذي جعل من داروين شهيرًا على وجه الخصوص. أما الآن دعونا نلاحظ بهجة داروين فحسب، في العام ١٨٤٦، لاكتشافه مصالح علمية مشتركة تربطه بجوزيف هوكر، الذي سينضم بعد أكثر من عقد إلى داروين في معركة القرن العلمية ويبذل كثيرًا من طاقته في رفع مكانة داروين الاجتماعية. كتب داروين إلى هوكر يقول: «كم هو رائع تماثل الأذواق. أشعر كما لو أنني أعرفك منذ خمسين عامًا...»

الفصل الرابع عشر

نصر داروين

«لقد صرت أكثر اهتمامًا بموضوعي؛ على الرغم من رغبتي بوضع قيمة أقل للشهرة التافهة، سواء أكانت الحالية أم اللاحقة لرحيلي، مما أفعل الآن، لكنّي لست كذلك بأي حال من الأحوال؛ على الرغم من ذلك، لو كنت أعرف نفسي، لَعَمِلْتُ بذات القدر من الجديّة، وإن كان بحماسة أقل، لو علمت أن كتابي سيُنشر إلى الأبد من دون الكشف عن هويّتي بوصفي مؤلفه».

رسالة إلى ويليام داروين فوكس (١٨٥٧)

كان داروين واحدًا من أفضل عيّناتنا. فقد أتمّ بنحو رائع ما صمّم البشر لأجله: التلاعب بالمعلومات الاجتماعية لتحقيق منفعة شخصية. والمعلومات المعنية كانت القصة السائدة عن كيف جاء البشر وبقية الكائنات إلى الوجود؛ وقد أعاد داروين صياغتها بطريقة رفعت مكانته الاجتماعية جذريًا. وحينما توفي عام ١٨٨٢، أُشيد بعظمته في الصحف حول العالم، حتى دفن في دير ويستمنستر، ليس بعيدًا عن مرقد إسحاق نيوتن. أرض الذكور الألفا.

وفوق كل ما سبق: كان رجلًا جيدًا. إذ أشارت مجلّة التايمز اللندنية:

«بقـدر ما كان عظيمًا، بقدر مـا كان رَحِبًا في نطاق ذكائه، لكن ما جعله محبوبًا بالنسـبة إلى كثـير مـن أصدقائه، وما سَـحَرَ كل أولئك الذين نالـوا حتى أقلّ التواصلات به، كان جمال شـخصيّته». اسـتمرّ افتقار داروين الأسطوري إلى التظاهر حتى النهاية، حينما خرج الأمر عن سيطرته. يسـتذكّر صانع نعشـه المحلّي: «لقد صنعت هذا النعش بالطريقة التي أرادها تمامًا تمامًا، خشنٌ بالمُجمل، تمامًـا مثـل دكـة، لا تلميـع ولا سـواه». لكـن لاحقًا، بعـد قرار دفنـه في دير ويستمنسـتر: «لم يكن نعشي مرغوبًا فيه، ورُدَّ لي. أمّا الآخر فيُمكنك الحلاقة عليه عند مرآه».

هذه هي مفارقة تشارلز داروين الحقيقية التي كثيرًا ما لوحظت. فقد نال شـهرة عالميّة على الرغم من ذلك ظلّ يبدو مفتقرًا للسـمات التي تغذي عادة الارتقاء الاجتماعي الملحمي. لقد بدا، كما يصف أحد كتّاب السـيرة، «ناجيًا غـير محتمـل في رهانات الخلود، متمتّعًـا بمُعظم الصفـات الكريمة التي تمنع الرجل من القتال بشراسة».

ولا يُمكن حلّ المفارقة بسـهولة عبر الإشـارة إلى أن داروين ألّف النظريّة الصحيحـة عن كيف جاء الناس للوجود، حيـث إنه لم يكن الوحيد في قيامه بذلـك. فألفريـد راسـل والاس، الذي توصّـل إلى الانتقاء الطبيعي بشـكل مسـتقل قد بـدأ في تعميم وصف مكتوب لها قبل نَشر داروين. وكُشـف عن نسـختي النظرية رسـميًا في ذات اليوم، وفي ذات المنتدى. لكن اليوم داروين هو داروين، بينما ليس والاس أكثر من هامش. ما سبب انتصار داروين؟

في الفصل العاشر وَفَّقنا جزئيًا بين كياسـة داروين وشـهرته، منوّهين عن عيشـه ضمن مجتمـع كان فيه فعـل الخير شرطًا أساسـيًا للعمل الجيّـد عادةً. فقد عنت السـمعة الأخلاقية كثـيرًا، وكلّ ما تفعله تقريبًا من شـأنه أن يعْلَقَ بسمعتك.

لكـن القصـة أكثـر تعقيـدًا من ذلـك. إن إلقاء نظـرة فاحصـة على درب داروين الطويل والمتعرّج نحو الشـهرة يُثير تسـاؤلات عـن بعض التقييمات الشـائعة بشأنه - إنه امتلك، مثلًا، طموحًا متواضعًا ولم يكن ميكيافيليًا أبدًا،

وإن إخلاصه إلى الحقيقة لم يُحرّفه التعطّش للشهرة. بالنظر إليه عبر الأنموذج الجديد، يبدو داروين أقلّ شبهًا بقدّيس وأكثر شبهًا بذكر من الرئيسيات.

الترقّي الاجتماعي

أظهر داروين منذ البداية مقوّمًا مشتركًا للنجاح الاجتماعي: الطموح. حيث سابق منافسين على المكانة وتاق للتقدير الذي تجلبه معها. كتب إلى قريب له من كامبريدج: «نجاحي . . . كان جيدًا للغاية مع خنافس الماء. أظنّ أنني هزمت جينيس في الـColymbetes»، وحينما استُشهد بجمعه للحشرات في الرسوم التوضيحية للحشرات البريطانية، كتب: «سترى اسمي في الإصدار الأخير لستيفنس. إني سعيد بذلك لمجرّد النكاية بالسيد جينيس».

فكرة أن داروين كان شابًا أنموذجيًا، عازمًا على الفتح، تتناقض مع التقييمات القياسية. فداروين الموصوف من قبل جون بولبي - «المزدري لذاته بعِنْد»، «النازع للتقليل من قيمة إسهاماته»، «الخائف دومًا من النقد، سواء نقد الذات أو الآخرين» - لا يبدو مثل ذكر ألفا في طور التكوين. لكن تذكّر: غالبًا في مجتمعات الشمبانزي، ودائمًا تقريبًا في المجتمعات البشرية، لا يُمكن للمستوى الاجتماعي الترقّي لوحده؛ فالخطوة الشائعة الأولى تكوين رابطة مع الرئيسيات رفيعة المكانة، ويتضمّن ذلك الخضوع، حرفة الدونيّة. وصف أحد كتّاب سيرة داروين اعتلاله المزعوم بمصطلحات موحية على نحو خاص: «بعض العيب في ثقته بالنفس، وشيءٌ من انعدام اليقين، جعله يشدّد على مدى قصوره كلما تعامل مع من هم في موقع سلطة».

في سيرته الذاتية، يستذكر داروين «وهج الفخر» الذي شعر به حينما سمع في مراهقته أن أحد العلماء البارزين، بعد حديث بينهما، قال: «في هذا الشاب شيء يُثير اهتمامي». يقول داروين: إن هذا الإطراء «قد يكون راجعًا في الأساس لإدراكه أنني استمعت باهتمام كبير لكل ما قاله، لكن سبب ذلك أني كنت جاهلًا مثل خنزير بشأن مواضيعه في التاريخ والسياسة والفلسفة

الأخلاقية»، هنا ظهر داروين، كعادته، بمنتهى التواضع، لكنه قد يكون محقًا في اقتراحه أن تواضعه نفسه قد لعب دورًا. (يُتابع داروين ملاحظًا: «إن سماع المديح من شخص مرموق، على الرغم من إثارته للغرور بلا شكّ، أمر طيّبٌ بالنسبة إلى رجل يافع، ذلك لمساعدته في إبقائه على المسار المستقيم.» نعم: ناحية الأعلى).

إن وصف تواضع داروين بالأمر التكتيكي لا يعني أنه مخادع. فميل الناس للنظر إلى شاغلي السُلّمة اللاحقة في الهرم الاجتماعي باحترام يزداد فاعلية حينما يكونوا في حالة من العبوديّة التامّة لها، وغير مدركين لغرضها: إننا نشعر بالرهبة حقًا مِمَّن قد نتذلّل أمامهم بشكل مربح، كما يحدث كثيرًا. ربما كان توماس كارلايل، أحد معاصري داروين (ومعارفه)، محقًّا في قوله: إن عبادة البطل جزء جوهري من الطبيعة البشرية. وربما ليس من قبيل المصادفة أن عبادة البطل تزداد قوّة وقت الحياة حينما يبدأ الناس تنافسهم الاجتماعي بجديّة. لاحظ أحد الأطباء النفسيين أن «المراهقة هي فترة بحث متجدد عن المُثُل... يبحث المراهق عن قدوة، شخص مثالي كي يُحاكيه. إنها تشبه إلى حدّ كبيرة لحظة الطفولة قبل إدراك عيوب الوالدين».

نعم، تبدو الرهبة تجاه المُثُل العليا أشبه بالرهبة المبكرة من الوالدين إلى حد كبير – وربما تكون نتاج الكيمياء العصبية نفسها. لكن وظيفتها ليست فقط تشجيع المحاكاة التوجيهية؛ إذ تساعد أيضًا في كتابة العقد الضمني بين كبار الشركاء وصغارهم ضمن ائتلاف واحد. وهؤلاء الأخيرون المفتقرون للمكانة الاجتماعية ذات القيمة الكبيرة بالنسبة إلى الإيثار المتبادل سيعوضون نقصها عبر الإذعان.

بينما كان داروين في كامبريدج، وجّه أبلغ درجات احترامه ناحية الأستاذ (والقسّ) جون ستيفنز هينسلو. سمع داروين من أخيه الأكبر أن هينسلو كان «رجلًا على علم بكلّ مجال من مجالات العلم، وبذلك كُنت مُعدًّا لتبجيله»، وبعد اللقاء بأحد معارفه، أفاد داروين بأنه «أفضل رجل التقيته على الإطلاق».
أصبح داروين معروفًا في كامبريدج بأنه «الرجل الذي يسير رفقة هينسلو»،

كانت علاقتهم أشبه بملايين العلاقات من هذا النوع على مرّ تاريخ نوعنا. إذ استفاد داروين من هينسلو بوصفه قدوة وناصحًا واستند إلى صلاته الاجتماعية، مكافئًا ذلك بخنوعه ووصوله المبكر إلى محاضرات هينسلو للمساعدة في إعداد المعدّات وغيرها. يذكرنا ذلك بوصف جاين غودال لارتقاء غوبلن الاجتماعي: «عامل معلمه فيغان «باحترام»، تبعه في كل مكان، راقب ما يفعله، وغالبًا ما اعتنى به».

وبعد نيله قبول فيغان واستيعاب حكمته، انقلب غوبلن عليه، مزيحًا إياه بوصفه ذكر ألفا. لكن ربّما شعر غوبلن بالتوقير حقًا حتى لحظة الانفصال الأكبر. وهكذا الحال معنا: إن مقياسنا لقيمة الآخرين - مستواهم المهني، نسيجهم الأخلاقي، أو أيًا يكن - يعكس جزئيًا المكانة التي يحتلونها في العالم الاجتماعي عند ذلك الوقت. إننا عميان انتقائيًا تجاه تلك الصفات التي سيكون من غير الملائم الاعتراف بها.

ليست عبادة داروين لهينسلو المثال الأفضل على هذا العمى، ذلك أن هينسلو كان رجلًا مُبجّلا على نطاق واسع. لكن خذ بعين النظر قبطان البيغل روبرت فيتزروي. حينما التقى داروين بفيتزروي في المقابلة التي ستقرر ما إذا كان سيُبحر على البيغل أم لا، كان الموقف سهلًا: كان رجلًا رفيع المكانة ستؤدي موافقته في النهاية إلى رفع مكانة داروين بشكل ملحوظ. لذا، ليس مستغربًا أن يبدو داروين كأنه مُعدٌّ لـ«توقير» فيتزروي. بعد الاجتماع، كتب إلى أخته سوزان: «لا فائدة من محاولتي التعبير عن قدر الإشادة التي شعرت أنه يستحقها، فلن تصدقي لو حكيت لك مقدارها...» وكتب في مذكراته أن فتزروي كان «مثاليًا بقدر ما يُمكن للطبيعة أن تجبله». ولهينسلو (الذي كان دَرَجَةً في سُلَّم داروين الذي أوصله إلى البيغل) كتب يقول: «يُمثّل القبطان فيتزروي كل ما يُبهج...»

بعد سنوات، وصف داروين فيتزروي بأنه الرجل الذي «يملك المهارة الأبرع في النظر إلى كل شيء وكل جسد بطريقة منحرفة». بعد سنوات فقط استطاع قول ذلك. أما الآن فلم يكن هناك وقت لإجراء مسح على فيتزروي

بحثًا عن عيوب، أو التحقيق أسفل المظهر المدني الخارجي الذي يُحَدُّ عادة قبل إجراء اللقاءات الأولى. كان الآن وقتًا للإذعان والوئام، وقد أثبت تبنّي هذا المنحى نجاحًا. في المساء كان داروين يكتب رسائله، بينما يكتب فيتزروي إلى ضابط في البحرية - «يُعجبني ما أراه وأسمعه منه كثيرًا» - طالبًا تسمية داروين طبيعيَّ السفينة. كتب داروين في إحدى المقاطع الأهدأ من رسالته إلى سوزان: «آمل أن يكون حكمي موضوعيًا وليس منحازًا بخصوص القبطان فيتز»، لكن حكمه بُنِيَ على الأمرين؛ إذ كان يسعى بعقلانية لتحقيق مصلحة ذاتية طويلة الأجل بمساعدة انحياز قصير الأجل.

قرب نهاية رحلة البيغل، حصل داروين على أكثر ما يرغبه ذوقه من التقدير المهني. فقد كان (بنحو ملائم) في جزيرة أسينشن حينما تلقّى رسالة من سوزان تنقل فيها الاهتمام الذي أثارته ملاحظاته العلمية، والتي قُرِأت من قبل الجمعية الجيولوجية في لندن. وعلى وجه الخصوص قول الجيولوجي البارز من جامعة كامبريدج إن داروين ذات يوم «سينال اسمًا عظيمًا بين علماء الطبيعة في أوروبا»، لم يتّضح بعد ما هي الناقلات العصبية المُطلقة بفعل أخبار مثل هذه (والسيروتونين أحد المرشّحين مثلما سبق ورأينا)، إلّا أن داروين شرح تأثيرها بجلاء حيث قال: «بعد قراءتي هذه الرسالة، ارتقيتُ أعلى جبال الرِفعَة بوثبة هائلة وجعلت الصخور البركانية تدوّي أسفل مطرقتي الجيولوجيّة!

ردًا على ذلك، أكّد داروين لسوزان أنه سيعيش الآن وفقًا لعقيدة «أن الرجل الذي يجرؤ على إضاعة ساعة واحدة من الوقت، لم يكتشف بعد قيمة الحياة».

قد يؤدي الارتقاء في المكانة إلى إعادة تقييم للكوكبة الاجتماعية المحيطة بالفرد. فالمواقع النسبية للنجوم قد تبدّلت. والناس الذين اعتادوا أن يكونوا مركزيّين صاروا هامشيين، وعلى التركيز التحوّل ناحية أجرام ألَمع بدت سابقًا بعيدة المنال. ولم يكن داروين من نوعية الرجال الذين يؤدون مثل هذه المناورة بفظاظة؛ فلم ينسَ يومًا صغار الناس قط. ومع ذلك، لا تزال هناك ملامح على تبدّل الإشارات الاجتماعية عندما كان على متن البيغل. فقريبه الأكبر ويليام فوكس قدّمه إلى علم الحشرات (وإلى هينسلو)، وفي كامبريدج استفاد داروين

جدًا من التبادل المستمرّ لعيّنات الحشرات والمعارف المتعلّقة بها. ففي أثناء تلك المراسلات، وفي أثناء بحثه عن الإرشاد والبيانات من فوكس، اصطنع داروين موقفه المعتاد المتمثّل في الخضوع المتذلّل. إذ كتب، «لم يكن عليّ إرسال هذه الرسالة الغبية المخزية، بل أنا حريص فقط على نيل بعض فتات المعلومات عنك وعن الحشرات». وذَكّر فوكس في أحيان «كم من الوقت كنت أرجو عبثًا تلقي رسالة من أستاذي القديم» وألزمه بـ«تذكّر أنني مُريدك..»

ثـم يُصبح الأمر مؤثـرًا عندما تُشير أبحاث داروين على متن البيغل بعد ست سنوات إلى ارتقائه في المكانة، فيستشعر فوكس تبدّلًا جديدًا في صداقتهما. وفجأة بعد الاعتذار عن «بلادة» رسالته، هو الذي شدَّدَ على «أنك لم تغب عن تفكيري يومًا»، والذي توسّل تلقّي رسالة، تُكتب له من قبل فوكس: «مرّ وقت طويل منذ آخر مرّة رأيت فيها خطّ يدك لدرجة صرت لا أستطيع التعبير عن مقدار السرور الذي ستمنحني إياه به. على الرغم من ذلك أشعر أن وقتك ثمين ولا يساوي وقتي أمامه شيئًا بالمقارنة، ما يحدث فارقًا شاسعًا»، اختلال التوازن في المودّة هذا سمة اعتيادية بالنسبة إلى الصداقات وسط التغيّرات الحادّة في المكانة، حيث يُعاد التفاوض بصمت على عقد الإيثار المتبادل. ومثل إعادات التفاوض هذه ربما كانت أقلّ شيوعًا في بيئة الأسلاف، حيث كانت، بالنظر لمجتمعات الصيادين جامعي الثمار الحالية، الهرميّة أقلّ مرونة بعد تجاوز مرحلة البلوغ مما هي عليه الآن.

المُحبّ لايل

في أثناء الرحلة البحرية، أبقى هينسلو، ناصحُ داروين، على رابطه الرئيس بالعلوم البريطانية. والتقارير الجيولوجية التي أثارت إعجاب سيدجويك كانت مقتطفات من رسائل إلى هينسلو، والتي نشرها بإخلاص. كتب داروين قرب انتهاء رحلته إلى هينسلو طالبًا منه التمهيد لعضويته في الجمعية الجيولوجية. وطيلة الوقت لم تترك رسائل داروين أي شك بشأن استمرار ولائه إلى «رئيسي ومعلّمي»، وعند وصوله إلى شروزبري بعد رسو

سفينة البيغل، كتب: «عزيزي هينسلو، أتوق إلى لقائك؛ كُنت لي أكرم صديق امتلكه إنسان يومًا».

لكن أيام هينسلو بوصفه مُعلّمًا رئيسًا كانت معدودة. فعلى متن البيغل، قرأ داروين (باقتراح من هينسلو) مبادئ الجيولوجيا، تأليف تشارلز لايل. في هذا الصدد، ناصر لايل النظرية المثيرة للجدل، المُقدّمة في وقت سابق من قبل جيمس هوتون، أن التشكيلات الجيولوجية كانت في الأساس نتاجًا للبلاء المستمر والتدريجي، بدلًا من الأحداث الكارثية كالفيضانات. (لاقى الأنموذج الكارثي للتاريخ الطبيعي استحسان رجال الدين، حيث بدا كأنه يشير إلى التدخلات الإلهية)، وعمل داروين على متن البيغل - دليله، على سبيل المثال، بأن ساحل تشيلي آخذ في الارتفاع بشكل غير محسوس منذ العام ١٨٢٢ - مال إلى دعم وجهة النظر التدريجية، ثم سرعان ما دعا نفسه بـ«تلميذ لايل المتحمّس».

كما يلاحظ جون بولبي، ليس مفاجئًا أن يصبح لايل ناصح داروين وقدوته: «إن شراكتهما في الدفاع عن المبادئ الجيولوجية نفسها منحتهما قضية مشتركة كانت علاقة داروين بهينسلو تفتقر لها»، والقضايا المشتركة، كما رأينا سابقًا، بمثابة ضامن دائم للعلاقات، لأسباب داروينية كما يبدو. فبمجرّد تبنّي داروين وجهة نظر لايل الجيولوجية، أصبح ارتقاء أو تقوّض مكانة كلا الرجلين مرتبط بحظوظ وجهة النظر هذه.

مع ذلك فرابطة الإيثار المتبادل بين لايل وداروين كانت أكثر من مجرّد «قضية مشتركة». إذ وضع كلا الرجلين أصوله الخاصة على الطاولة. حيث جلب داروين جبالًا من الأدلّة الجديدة إلى وجهة النظر التي ارتبطت بها سمعة لايل بشدّة. أمّا لايل، فإضافة لتقديمه رفًا نظريًا متينًا يُمكن لداروين تنضيد أبحاثه عليه، أمّن لداروين الإرشاد والرعاية الاجتماعية التي كان الأساتذة معروفين بها. وفي غضون أسابيع من عودة البيغل، كان لايل قد دعا داروين إلى العشاء، مستشيرًا إياه بشأن الطريقة الأفضل لاستثمار الوقت، ومؤكدًا له أنه بمُجرّد خلوّ مكان في نادي أثنيوم النخبوي، سيكون

تشارلز شاغله. يخبر لايل أحد زملائه أن داروين سيصبح «إضافة عظيمة إلى مجتمع الجيولوجيين خاصّتي...»

وعلى الرغم من أن داروين قد يكون في بعض الأحيان طالبًا منفصلًا عن الدوافع البشرية وساخرًا منها، لكن يبدو وأنه كان مخدّرًا بالطبيعة البراغماتية لاهتمام لايل. كتب إلى فوكس بعد شهر من عودته: «من بين أعظم رجال العلم، لم يكن هناك أحد بودّ ولطف لايل. لا تتخيل مدى سلاسة دخوله كافّة خططي». يا له من رجل لطيف!

حان الوقت لتذكير آخر بأن سلوك خدمة الذات لا يستدعي حسابات واعية. في الخمسينيات أظهر علماء النفس الاجتماعي أننا نميل للإعجاب بمن نستطيع التأثير فيهم. ونميل للإعجاب بهم أكثر فيما لو كانت مكانتهم رفيعة. ليس من الضروري التفكير: «إن كنت قادرًا على التأثير فيه، فهو مقبول، وعليّ العناية بهذه الصداقة»، أو «سيكون امتثاله مفيدًا بنحو خاص لو كان متمتّعًا بمكانة رفيعة»، فمرة أخرى، يبدو أن الانتقاء الطبيعي هو من «فكّر».

قد يُكمِّلُ الناس بالطبع هذا «التفكير» بأفكارهم هم. إذ لا بد وأن كان هناك وعي من نوع ما لدى لايل وداروين بشأن فائدة أحدهما للآخر. إلّا أنهم شعروا بالتأكيد في الوقت نفسه بركيزة قوية وبريئة من الصداقة. ربما كانت، مثلما كتب داروين إلى لايل: «من أعظم مباهجي الكتابة أو التحدث عن الجيولوجيا معك»، وكان داروين، من دون شك، غارقًا بـ«السلوك السلس للغاية» الذي منح لايل في أثنائه النُصْح، «غالبًا من دون أن يُطلب ذلك منه حتى».

وربما كان داروين صادقًا بالمثل حينما اشتكى، بعد بضعة عقود، من أن لايل كان «مغرمًا بالمجتمع للغاية، ولا سيما بالرجال البارزين ورفيعي المكانة؛ وهذه مبالغة تقدير مكانة الآخر في العالم بدت لي عيبه الرئيس»، لكن ذلك كان بعد أن اكتسب داروين، المشهور على نطاق عالمي الآن، وجهة نظر خاصّة به إن أمكن القول. أمّا سابقًا فكان داروين مأخوذًا بمكانته في العالم لدرجة منعته من الانتباه إلى عيوبه.

إعادة النظر في تأخّر داروين

لقد رأينا كيف قضى داروين عقدين بعد عودته إلى إنجلترا: في اكتشاف الانتقاء الطبيعي ومن ثم القيام بسلسلة من التدعيات من دون وضع نهاية له. واطلعنا كذلك على مجموعة من النظريات عن تأخره. إن الحَيْد الدارويني لتأخّر داروين ليس حقًا بديلًا عن النظريات الموجودة بقدر ما هو خلفيّة لها. وبادئ ذي بدء، يصوّر علم النفس التطوري القوتين اللتين جذبتا داروين كلًا من طرف، واحدة نحو النشر، والأخرى تُنفره منه.

الأولى هي الحبّ المتأصّل لنيل التقدير، حبٌّ كان لداروين نصيبٌ فيه. وأحد طرق نيل التقدير الإعلان عن نظرية ثورية.

لكن ماذا لو فشلت النظرية في إحداث ثورة؟ ماذا لو رُفِضت تمامًا - لعدّها، بالطبع، تهديدًا لنسيج المجتمع نفسه؟ في هذه الحالة (حالة من النوع الذي كان داروين ضمن صنف المُسهبين فيه)، كان تاريخنا التطوّري سيميل إلى الكفّة المناوئة للنشر. إذ بالكاد كان هنالك مكافأة وراثية عبر العصور مقابل الصدح بوجهات نظر لا تحظى بشعبية كبيرة، ولا سيما حين استفزازها للقوى السائدة.

كان العزم البشري على قول ما يُعجب الآخرين جليًا قبل وقت طويل من اكتشاف أساسه التطوّري. ففي تجربة شهيرة من الخمسينات، جمع غفير من الناس إلى حدّ مدهش كان على استعداد للمجاهرة بآراء خاطئة - آراء خاطئة بما لا يقبل الشك - عن الطول النسبي لخطّين إذا ما شاركوا جمعًا آخر من الناس يُجاهرون بالرأي نفسه. وجد علماء النفس كذلك قبل بضعة عقود أن بإمكانهم تقوية أو إضعاف ميل الشخص للمجاهرة بآرائه قبل التحكّم بمعدّل ما يوافق عليه المستمع منها. تجربة خمسيناتيّة أخرى أظهرت أن ذكريات الشخص تختلف وفقًا للجمهور الذي يُشاركها معه: أرِه قائمة بإيجابيات وسلبيات زيادة رواتب المعلّمين، وسيعتمد انطباعه على ما إذا كان يتوقّع مخاطبة جمع من المعلّمين أو دافعي الضرائب. كتب مؤلف هذه التجربة: «يُرجّح أن جزءًا لا بأس به من النشاط العقلي للشخص يتضمّن،

كُليًا أو جزئيًا، تخيُّلًا لتواصل مع جمهور حقيقي أو متخيَّل، وقد يكون لذلك تأثير غير قليل على ما يتذكّره ويعتقد به في أي وقت بعينه. . .» وهذا ينسجم مع وجهة النظر الداروينية بشأن العقل البشري. إذ تطوّرت اللغة بوصفها طريقة للتلاعب بالناس لصالحك (ومصلحتك في هذه الحالة هي الشعبية وسط جمهور يتبنّى آراء راسخة)؛ لذا فالإدراك الذي هو منبع اللغة يتشوّه وفقًا لذلك.

في ضوء كل هذا، يصبح السؤال عن تأخر داروين أقلّ إثارة للتساؤل. إن الأعطية الشهيرة التي رزق بها داروين عن الشكّ بالذات في مواجهة كل خلاف (ولا سيما الخلافات مع الشخصيات السلطوية كما يُقال) بشريّة في جوهرها - غير اعتيادية في الدرجة ربما ولكن ليس في النوع. وليس مُستعجبًا قضاؤه سنوات طوال في دراسة البرنقيلات بدلًا من كشف النقاب عن نظرية تُعدّ على نطاق واسع هرطقة - هرطقة بمعنى يصعب استيعابه اليوم، حيث كثيرًا ما تستعمل كلمة هرطقة في شيء من التهكّم. ولا هو مستعجب شعور داروين، ففي أثناء سنوات حمل أصل الأنواع العديدة، في أحيان كثيرة بالقلق أو الاكتئاب الطفيف حتى؛ إذ «يريدنا» الانتقاء الطبيعي أن نشعر بالقلق عند التفكير في الإجراءات المنذرة بخسارة هائلة في تقدير الجمهور لنا.

المدهش، بطريقة ما، أن داروين يُمكن أن يكون ثابتًا على إيمانه بالتطوّر، نظرًا للعداء المتفشي تجاه الفكرة. فمن قاد الهجوم على كتاب الآثار، المُتتبّع التطوّري الذي ألّفه روبرت تشامبرز والصادر عام ١٨٤٤، كان آدم سيدجويك، عالم الجيولوجيا في كامبريدج (والقس) الذي وصلت إشادته بداروين إلى جزيرة أسينشن، وأعجبته للغاية. كانت مراجعة سيدجويك لكتاب تشامبرز صريحة بشأن أجندتها الخاصة. «العالم لا يتحمّل الانقلاب رأسًا على عقب؛ وإننا على استعداد لشنّ حرب غاشمة ضد كلّ من ينتهك مبادئنا المحتشمة وآدابنا الاجتماعية». رأي ليس مشجّعًا البتّة.

ما الذي وجب على داروين فعله؟ وجهة النظر المتعارفة أنه تردّد، مثل جرذ مختبر يتطلّع لاختطاف لقمة قد تتسبب بصعقه. إلّا أن هناك وجهة نظر

غير رائجة للغاية: ففي أثناء انعطاف اهتمامه الشهير تجاه البرنقيل، عند فشله بنشر نظريته عن التطوّر، انشغل بالتمهيد لردود استقبالها في النهاية. يُمكن النظر لاستراتيجيته في ثلاثة محاور.

الأول، تعزيزه لحجّته. فبينما كان مستغرقًا مع البرنقيل، تابع جمع الأدلّة الداعمة لنظريّته، جزئيًا عبر الاستجواب البريدي لخبراء نباتات وحيوانات من مناطق نائية. وأحد أسباب النجاح النهائي لأصل الأنواع توقّع داروين الدقيق واستجابته الوقائية للنقد. حيث كتب مُصيبًا قبل عامين من نشر الكتاب: «أعتقد أنني ذاهب إلى أبعد ما يمكن في متابعة الصعوبات الجسيمة التي قد تُعيب عقيدتي».

نمت دقّته البالغة هذه من الشكّ الذاتي - من تواضع داروين الأسطوري وخوفه الشديد من النقد. أوضح فرانك سولاوي، المتخصص بكل من داروين وفرويد، هذه النقطة عبر المقارنة بين الرجلين: «على الرغم من أن كليهما شخصيتان ثوريّتان، إلّا أن داروين كان أكثر قلقًا بشأن الأخطاء الشخصية وتواضعًا مع الخطأ. كما أنه وضع نظرية علمية جديدة صمدت بنجاح أمام اختبار الزمن. أمّا فرويد فكان على النقيض من ذلك طموحًا للغاية وواثقًا جدًا بنفسه - واصفًا نفسه بـ«الفاتح» في العلم. ومع ذلك فقد طوّر منهجًا للطبيعة البشرية كان إلى حدّ كبير تجميعة من التخيّلات النفسية والبيولوجية من القرن التاسع عشر متنكّرة بهيأة علم حقيقي».

بمُراجعة سيرة جون بولبي لداروين، أوضح سولاوي الجزئية التي فشل بولبي في شرحها: «يبدو منطقيًا الجدل بأن الدرجة المعتدلة من تدني احترام الذات، والتي كانت مقترنة عند داروين بالإصرار الراسخ والمثابرة الحثيثة، هي في الواقع سمة قيّمة في العلم لكبحها أي مبالغة قد يظهرها المرء في تقدير نظريّاته. إذن فالشكّ المستمرّ في الذات هو السمة المنهجيّة للعلم الجيّد، حتى إن لم تكن ملائمة بنحو خاص للتمتّع بصحّة نفسية جيّدة».

وبطبيعة الحال يبرز سؤال عمّا إذا كان مثل هذا الشكّ الذاتي المفيد، أيًا كان مقدار الألم الذي يتسبب به، جزءًا من الذخيرة العقلية للإنسان، حفظها

الانتقاء الطبيعي بسبب نجاحها عند ظروف معيّنة في دفع ارتقاء مكانة صاحبها. ويصبح السؤال أكثر إثارة للاهتمام في ضوء دور والد داروين في تشكيل شكوك ابنه الذاتية. يسأل بولبي: أكان تشارلز «وصمة عار العائلة التي تنبأ بها والده غاضبًا، أم أنه أحسن العمل ربما؟... كان خوف تشارلز الدائم من النقد، الذي أثبت فائدة وتميّزًا هائلين، سواء أكان من نفسه أم من الآخرين، وتوقه غير المُشبع للراحة، يتسرّبان منه». لاحظ بولبي أيضًا أن «سلوكه الخاضع والمتذلّل إلى والده أصبح طبيعة سائدة لتشارلز» ويشير إلى أن والده كان مسؤولًا جزئيًا عن عدم احترامه «المفرط» للسلطة و»ميله إلى الاستخفاف بإسهاماته».

التكهنات لا تقاوم: ربما كان داروين الكبير، في غرسه مصدر الإزعاج الدائم هذا، يعمل بالشكل الذي بُرمِجَ الآباء المُصمّمون - سواء أعلموا أم لم يعلموا - كي يقوّموا حالة أطفالهم النفسية، وإن آلموهم، عبر طُرُقٍ تَعِدُ برفع مكانتهم. وعن هذا الأمر، ربما كان داروين اليافع، عبر استيعابه ذلك التقويم المؤلم، يعمل بالطريقة التي صُمِّمَ وفقها. لقد بُنينا كي نكون حيوانات فعّالة لا سعيدة (إنما نحن مصمّمون للسعي وراء السعادة؛ وتحقيق الأهداف الداروينية - كالجنس والمكانة وغيرهما - غالبًا ما يُحقّق السعادة، حتى ولو لفترة من الوقت. مع ذلك فإن الغياب المتكرر للسعادة هو ما يدفعنا للسعي وراءها، وبذلك جعلنا منتجين. كان خوف داروين المتزايد من النقد هو ما أبعده بشكل دائم تقريبًا عن السكينة، وبذلك مشغولًا بمحاولة تحقيقها).

بالنتيجة، ربما يكون بولبي محقًا بشأن كل التأثيرات الأبوية المؤلمة على شخصية داروين، وعلى الرغم من ذلك كان مخطئًا بشأن جعلها تبدو مرضيّة للغاية. الحقّ أن حتى الأشياء غير المرضيّة بالمعنى الدقيق للكلمة قد تكون مؤسفة، وأهداف صالحة للتدخل النفسي. لكن يُمكن للأطباء النفسيين التدخل على نحو أكفأ بمجرد توضيح أي أنواع الألم «طبيعية» وأيها ليست كذلك.

المحور الثاني لاستراتيجية داروين ثلاثية المحاور تعزيز أوراق اعتماده. من

الشائع في علم النفس الاجتماعي أن المصداقية تزداد بزيادة الهيبة. فلو أُجبِرنا على تصديق أستاذ جامعي أو مدرس في مدرسة ابتدائية في مسألة بيولوجية، عادة ما نختار الأستاذ. فهذا من ناحية اختيار صائب، حيث من المرجح أن يكون الأستاذ على حق. بمعنى آخر، ما هذه إلّا نتيجة ثانوية اعتباطية أخرى للتطور - مراعاة انعكاسية للمكانة.

في كلتا الحالتين، يعدُّ جوُّ الإتقان مفيدًا عندما تحاول تغيير الآراء. وبذلك كان البرنقيل: فجانبًا عمّا تعلمه داروين منه، كان يعلم بأن الوزن الهائل لمجلّداته الأربعة عن هذا الصنف الفرعي من شأنه إضفاء هيبة على نظريته في الانتقاء الطبيعي.

وهذا على الأقل هو اقتراح أحد كتاب سيرته الذاتية، بيتر برينت: «ربما لم يكن داروين يُدرب نفسه على البرنقيل، بل يؤهلها»، يستشهد برينت بتبادل للخطابات بين داروين وجوزيف هوكر. في العام ١٨٤٥، أبدى هوكر شكوكًا بشأن التصريحات المهيبة التي أطلقها طبيعيٌّ فرنسي «هو نفسه لا يعلم ما يعنيه أن يكون المرء طبيعيًا مُحدَّدًا». أخذ داروين بنحو مميز هذه الملاحظة كي يعكسها على «افتراضه بشأن تجميع الحقائق والتأمل في موضوع الانواع، من دون تحديد نصيبي المناسب من الأنواع». بعد عام من ذلك ذهب داروين للعمل على البرنقيل.

ربما يكون برينت محقًا. فبعد سنوات من نشر أصل الأنواع، نصح داروين عالم نبات شاب، «دع نظرية توجّه ملاحظاتك، لكن حتى ترسَّخ سمعتك جيدًا، تجنّب نشر نظرية. فهي تدفع الناس للشك في ملاحظاتك».

المحور الثالث من استراتيجية داروين كان حشد القوى الاجتماعية القديرة - تشكيل تحالف يضم رجالًا من أصحاب النفوذ وذوي قدرات بلاغية أو ممن يتناسبون مع كلا الوصفين. كان هناك لايل الذي سيحمل ورقة داروين الأولى عن الانتقاء الطبيعي أمام جمعية لينيان اللندنية (على الرغم من أن لايل كان حينذاك لاأدريًا بشأن الانتقاء الطبيعي)؛ توماس هكسلي، الذي سيشتهر بمواجهة الأسقف ويلبرفورس في مناظرة أوكسفورد عن التطور؛ هوكر،

الذي سيواجه ويلبرفورس بشكل أقل شهرة وينضم إلى لايل في الإعلان عن نظرية داروين؛ وآسا غراي، عالم النبات من هارفرد الذي، عبر كتابته في مجلة الأطلنطي الشهرية، سيكون مسؤول الدعاية الخاص بداروين في الولايات المتحدة. سمح داروين لهؤلاء الرجال واحدًا بعد الآخر بالمشاركة في نظريته.

هل كان حشد داروين لقواته محسوبًا بحق على هذا النحو؟ من المؤكد أن داروين كان مدركًا بحلول وقت نشر أصل الأنواع أن المعركة لأجل الحقيقة تُخاض بالناس، لا الأفكار فقط. وأكّد لأحد مؤيديه بعد أيام قلائل من نشر كتابه: «إننا الآن جماعة جيّدة ومتراصّة من الرجال الطيبين، معظمهم ليسوا من كبار السن، وإن النصر حليفنا على المدى البعيد». وبعد ثلاثة أسابيع من نشر الكتاب أرسل خطابًا إلى صديقه الشاب جون لوبّوك الذي سبق وأرسل إليه نسخة من أصل الأنواع يسأله: «هل انتهيت منه؟ إن كنت كذلك فأخبرني أرجوك إن كنت معي في الإشكالية العامّة أم ضدي». مؤكّدًا للوبّوك في الحاشية: «إن لديّ - كما أتمنّى وأرجو أن أقول: إن لدينا - عددًا لا بأس به من الرجال المتميّزين إلى جانبنا في هذه المسألة. . .» الترجمة: لو اتخذت قرارك الآن فستكون جزءًا من التحالف الفائز لذكور الرئيسيات.

إن مناشدات داروين لأجل دعم تشارلز لايل التام - التي تكاد تثير الشفقة من شدّة إصرارها - نفعية بالمثل. إذ يرى داروين أن هيبة حلفائه، وليس عددهم فحسب، سيؤدي إلى تشكيل رأي عام مُساند. في ١١ من سبتمبر ١٨٥٩: «تذكر أن حكمك قد يكون له أثر أشد من كتابي في تقرير قبول أو رفض أفكار كالتي أعتنقها...» الـ٢٠ من سبتمبر: «بما أنني أعدّ حكمك شديد الأهميّة في نظري، ولاعتقادي في أن العالم يراه بأهميّة تزيد عن حكم أي مجموعة أخرى من الرجال، فأنا بطبيعة الحال قلق للغاية بشأنه».

كان تأجيل لايل الطويل في منح دعمه المطلق من شأنه قيادة داروين إلى حافّة المرارة. حيث كتب إلى هوكر في ١٨٦٣: «أنا مُحبطٌ للغاية (ولا أعني على الصعيد الشخصي) لاكتشافي أن خجله منعه من إصدار أي حكم... والنكتة هي اعتقاده أنه بذلك يتصرف بشجاعة شهيد من شهداء الزمن الغابر»، لكن

برؤيـة الأمر في ضـوء الإيثار المتبـادل، كان داروين يطلب كثـيرًا. إذ كان لايل يقترب من بلوغ الخامسـة والستين، ويإرث فكري شاسع حيث لن تفيده كثيرًا المصادقة على نظرية رجل آخر، ولا سيما مع ترجيح معاناتها من التضاد مع عقيدة راديكاليـة ثبت لاحقًـا خطأها. إلى جانب ذلك، كان لايـل معارضًا للتطوّر في ثوبـه اللاماركي، وبذلك قد يكـون كذلك الآن أيضًا؛ حيث ينظر إليها بوصفه شيئًا رجعيًا؛ لذا لم تكن نظرية داروين «قضية مشتركة» بين الرجلين، كما كانت نظرية لايل قبل عقدين، حينما احتاج داروين إلى خزانة عرض لبياناته المُجمّعة حديثًـا. كـما أن لايل سـبق وأن ردّ معـروف داروين بطرق شـتّى ولم يعد يدين بالكثـير لـه. يبدو أن داروين عانى هنا من مفهوم ما قبل دارويني عجيب لماهية الصداقة. أو ربما كان تحت سيطرة نظام محاسبة أنوي.

إن تجنيـد داروين العاجل للحلفاء كما في العـام ١٨٥٩ لا يُثبت بالتأكيد أنه كان يرسم استراتيجيته منذ سنوات. حيث يبدو أن أصل حلفه مع هوكر ساذج بـما يكفي. فالرابـط بينهما نضج في أثناء أربعينيات القرن التاسـع عشر بوصفها صداقـة من النوع الكلاسـيكي - مبنية على الاهتمامات والقيم المشـتركة قائمة عـلى المحبّة. وحينـما تبيّن لاحقًا أن إحـدى هذه الاهتمامات المشـتركة الانفتاح عـلى احتماليـة التطـور، لم يكـن لمحبّـة داروين إلّا أن تـزداد عمقًـا. لكن ليس علينـا الافـتراض أن داروين قد تصـوّر تحوّل هوكـر لاحقًـا إلى مدافع شرس عن نظريّتـه. فالمحبّة التي ألهمتها الاهتمامات المشـتركة هي الاعتراف الضمني للانتقاء الطبيعي بمنفعة الأصدقاء السياسية.

ويُمكـن قول الشيء نفسـه عن الطريقة التي دافع بها داروين عن شـخصية هوكـر المتميـزة، «يُمكن للمرء أن يـرى فورًا بأنه رجل شريـف حتى النخاع»، نعم، ستُثبت مصداقيّة هوكر ضرورتها؛ فقد استخدمه داروين بوصفه مُستمعًا منـذ وقـت طويل من دخول الانتقاء الطبيعي دائـرة الاهتمام والجدل. لكن لا، ذلـك لا يعنـي أن داروين عايَرَ منـذ البداية قيمـة مصداقية هوكـر. لقد منحنا الانتقـاء الطبيعـي ألفة تجاه الأشـخاص الذين يُرجح تشـكيلهم شركاء يعتمد عليهـم للإيثار المتبـادل. وفي كل الثقافات، تدخل الثقة ضمن شروط المصلحة المشتركة بوصفها شرطًا لا غنى عنه في الصداقة.

يُمكن عدّ إلزامية امتلاك داروين كاتم سرّ - ومع اقتراب النظرية من الظهور للعلن، امتلاك مزيد من أُمناء السر مثل لايل، وغراي، وهكسلي، وآخرين - بوصفهم نتاجًا تطوريًا، وليس نتاج الحسابات والوعي فحسب. كتب بعد أيام من نشر أصل الأنواع: «لا أظنني شجاعًا بما يكفي للوقوف أمام تقبيحي من دون دعم الآخرين». من كان سيحتمل ذلك؟ لا إنسان بالمعنى الحرفي يُمكنه شنّ هجوم غاشم على الوضع السائد من دون السعي وراء ضمان دعم اجتماعي أولًا. في الواقع، لن تكون من جنس القردة العليا لو استطعت ذلك.

تخيل عدد المرات التي عانينا فيها، منذ أيامنا بوصفنا قردة، من التحديات الاجتماعية التي توقفت على نجاح المنافس في تشكيل تحالف قوي. تخيل عدد المرات التي عانى فيها المتحدي من التصرّف بتسرّع أو الانفتاح أمام المكائد. وتخيل المخاطر الإنجابية الهائلة. هل مستغربٌ بدءُ الثورات من شتى الأنواع والثقافات بالهمسات؟ حتى إن تمليذًا مدرسيًا بعمر السادسة يفتقر إلى التدريب يشعر غريزيًا بحكمة الاستنباط المتروي للآراء عن المتنمّر المحلي قبل التقدّم لتحديه! حينما أسند داروين نظريته إلى نخبة منتقاة، مُعيّنًا فريق المدافعين عن علامته التجارية (إلى آسا غراي: «أعلم أن ذلك سيجعلك تحتقرني»)، ربما كان مدفوعًا بعواطفه بقدر ما كان مدفوعًا بعقله.

مشكلة والاس

بدأت أعظم أزمات حياة داروين المهنية في العام ١٨٥٨. فبينما كان يخوض متثاقلًا مع مخطوطته الملحمية، وجد أنه أطال الانتظار. إذ اكتشف ألفريد راسل والاس الآن نظرية الانتقاء الطبيعي - بعد عقدين من اكتشاف داروين لها - وصار متأهبًا لاستباقه. وردًا على ذلك، سعى داروين بشراسة لتحقيق مصلحته الذاتية، إلّا أنه سعى لتحقيقها بسلاسة، وغلّفها بقدر كبير من القلق الأخلاقي، لدرجة أن عدّ المراقبون - منذ حينها - هذه الحلقة مثالًا آخر على آدابه الخارقة.

كان والاس عالم طبيعة بريطانيًّا شـابًا، ومثل داروين في شـبابه، أبحر إلى أراضٍ أجنبيـة لدراسـة الحياة. عَلِـمَ داروين لبعض الوقـت أن والاس كان مهتـمًا بأصل الأنواع وتوزيعها. بل أن كلا الرجلين تراسـلا في الواقع بشـأن هذه المسألة، حيث أشار داروين إلى أن لديه بالفعل «فكرة مميّزة وماديّة» عن هذا الأمر، وادعى «أن من المستحيل حقًا شرح رؤاي في نطاق رسالة»، لكن داروين استمر في مقاومة أي دافع يحثه على نشر ورقة قصيرة تلخص نظريته. حيـث كتب إلى لايل الذي حثّه على المسـارعة لتسـجيل رؤاه رسـميًا: «أكره فكـرة الكتابة لأجل الأولوية. ومع ذلك سأشـعر مؤكدًا بالضيق لو سـبقني أحدهم في نشر عقيدتي».

لكـن الغيـظ عصف في الـ١٨ من يونيو ١٨٥٨، حينما حمل البريد رسـالة مـن والاس. فتـح داروين الظـرف ووجد مخطوطة دقيقـة لنظرية والاس في التطوّر، والتي كان تشـابهها مع نظريّته صادمًا. حيث ألحظ يقول، «حتى إن اصطلاحاته تماثل عناوين فصولي».

إن الذعـر الـذي أصاب داروين حتمًا ذلك اليوم يُعدُّ ضريبة لوسـع حيلة الانتقاء الطبيعي. فقد يعود الجوهر البيوكيميائي للذعر إلى أيامنا الزواحفيّة. مع ذلك فما حفّزه ليس الحافز البدائي – تهديد للحياة أو أحد الأطراف – بل تهديد المكانة، مصدرُ قلق يحمل سـمة من سمات أيامنا الرئيسيّاتية. والأكثر، لم يكن التهديد من النوع الجسدي شائعًا بين أقربائنا من الرئيسيات. بل جاء بـدلًا من ذلك بوصفه تعبيرًا تجريديًا: كلمات، جُمل – رموز يعتمد فهمها على أنسـجة المخ التي اكتُسِبَت في أثناء الملايين القليلة الماضية من السنين. هكذا، يأخـذ التطـور مواد خام قديمة ويُكيّفها باسـتمرار لما يتناسـب مع الحاجات الحالية.

يُفـترض أن داروين لم يتوقّف للتفكّـر في الجمال الطبيعـي لذعره. حيث أرسـل ورقة والاس إلى لايل – التي أرسـلها والاس لداروين ملتمسًـا رأيه فيهـا – طلبًـا للنصيحـة. في الواقع، إن عبارة «طلبًا» قويـة إلى حد ما؛ أنا أقرأ ما بين السـطور. اقترح داروين مسـارًا ورعًا للتصرّف وتـرك الأمر إلى لايل

كـي يقـترح عليه مسـارًا أقلّ تقوى: «أرجـوك أن تعيـد إلي المخطوطة التي لم يخبرني بشأن رغبته حول نشرها أم لا، لكنني بالطبع سأكتب فورًا لأي دورية وأعرض إرسالها إليها. هكذا ستُدمّر كل ما في عملي من أصالة أيًا كان قدره. على الرغم من أن كتابي، لو سيظلّ له قيمة على الإطلاق، لن يتأثر؛ إذ إن قوام العمل كله يتمثّل في تطبيق النظرية».

يبدو أن ردّ لايل – الذي لم ينجُ بنحو مُستغرب، على الرغم من أن حفظ تشـارلز لمراسـلاته كانت عادة مقدّسة بالنسبة إليه – قد نجح في التحقّق من ورع داروين. إذ أجابه الأخير في خطاب: «ليس هنـاك في مخطوطة والاس مـا لم أكتبه بنحو أكثر تكاملًا في مخطوطتي المنسوخة منذ عام ١٨٤٤، والتي اطّلع عليها هوكر منذ عشر سنوات تقريبًا. قبل نحو عام أرسلت مخطوطة موجزة عن رؤاي كاملة، ولا زلت أملك نسخة منها ... إلى آسا غراي، بذلك يُمكنني حقيقة ادّعاء وإثبات أني لم أسرق شيئًا من والاس».

ثـم دخل داروين صراعًا ملحميًا ضـد ضميره، على مرأى ومسـمع من لايـل. وحتى لا أبدو سـاخرًا، سـأدرج نص الرسـالة بتحريري كـما أُفسّره: «سأسـعد الآن للغاية بنـشر رؤاي العامّة ضمـن دزينـة مـن الأوراق أو ما يقـرب؛ إلّا أنني عاجز عن إقناع نفسي عن إمكانيّتي فعل ذلك بشرف. [ربما يُمكنك أنت إقناعي بذلك]. لم يقل والاس شيئًا بشأن النشر، وأنا أرفق لك رسـالته لي. ولكن بينما لم يكن في نيّتي نشر أي مُخطّط، هل يُمكنني فعل ذلك بـشرف، ذلـك أن والاس قـد بعث لي بمُخطّـط عن عقيدته؟ [قـل نعم. قل نعـم.] ... ألا تظنّ أن إرسـاله هذا المخطّـط لي يقيّدني؟ [قل لا. قل لا.] ... سـأبعث لوالاس بنسـخة من رسـالتي إلى آسـا غراي، لأبيّن له أنّي لم أسرق عقيدته. لكنّي لا أستطيع التبيُّن مما إذا كان نشري الآن سيُمثّل خِسّة وحقارة. [قـل إنـه لن يُمثّل خسّـة ولا حقـارة]»، في مُلحق أضيـف في اليوم اللاحق، غسل داروين يديه من هذه المسألة، تاركًا الحكم بيد لايل: «لطالما ظننت أنك يُمكن أن تُشـكّل سـيّدًا مستشـارًا من الطراز الأول؛ والآن أناشدك بصفتك سيدًا مستشارًا».

تفاقمت معاناة داروين بسبب أحداث وقعت في منزله. إذ أُصيبت ابنته إيتّي بالديفتيريا، كما أصيب ابنه المتخلّف عقليًا، تشارلز وارينغ، بالحمى القرمزية الآن، والتي ستُميته بعد وقت وجيز.

تشاور لايل مع هوكر، الذي نبّه داروين كذلك بشأن الأزمة، وقرر الرجلان معاملة نظريّات داروين ووالاس بمساواة. إذ سيُقدّمان ورقة والاس عند اللقاء اللاحق لجمعية لينيان، إلى جانب المخطط الذي أرسله داروين إلى آسا غراي وأجزاء من مسودة تعود للعام ١٨٤٤ سبق أن أعطاها لإيمّا، وكُل ذلك سيُطبع لاحقًا مع بعضه بعضًا. (أرسل داروين إلى غراي مخطوطة من ١٢٠٠ كلمة بعد بضعة أشهر من إخبار والاس «استحالة كتابة مخطط للنظرية ضمن رسالة. وسواء أرغب في تقديم دليل غير قابل للشك بشأن أولويته، بعد استشعار أن والاس موشك على التوصّل إلى مكان ما، فذلك أمر لن نعرفه أبدًا)؛ ولأن والاس كان حينذاك في أرخبيل مالاي، واللقاء اللاحق في الجمعية كان وشيكًا، قرر لايل وهوكر المضيّ قدمًا من دون العودة له. وداروين من جانبه تركهم يمضون قدمًا.

حينما علم والاس بشأن ما حدث، كان في موضع مشابه لداروين وقت كان على البيغل، حينما بلغته إشادة سيدجويك المثيرة. كان والاس عالم طبيعة شاب حريص على صناعة اسم لنفسه، معزول عن الانطباعات المهنية، ولم يزل غير واثق مما إذا كان لديه كثير ليضيفه إلى العلم. فجأة وجد عمله يقرأه رجال عظماء أمام المجتمع العلمي العظيم. كتب لوالدته فخورًا، «أرسلت إلى السيد داروين مقالة عن موضوع يكتب فيه الآن كتابًا هائلًا. وقد عرضه على الدكتور هوكر والسير تشارلز لايل، الذين رأوا فيه أهميّة بالغة لدرجة قراءتهم إيّاه فورًا أمام جمعية لينيان. وذلك يؤكّد لي ضمان الانتفاع من عون وخبرة هؤلاء الرجال البارزين فور عودتي إلى الوطن».

العيب الأخلاقي الأكبر لداروين؟

يُعدّ هذا أحد أكثر المقاطع المؤثرة في تاريخ العلم. لقد تعرّض والاس الآن للسطو. فعلى الرغم من إعطاء اسمه قيمة مساوية لداروين، إلّا أن اسم الأخير سيطغى على اسمه مؤكدًا الآن. فبعد كل شيء، ليس بالخبر اللافت أن مبتدئًا شابًّا أعلن نفسه تطوّريًا وتقدّم بآليّة تطوّرية، لكن اللافت أن تشارلز داروين المعروف والمحترف تقدّم بذلك. وأي شكّ متبقٍ بشأن من يجب ارفاق اسمه بالنظرية سيمحوه كتاب داروين، الذي سيدفعه الآن للنشر بالسرعة اللازمة. ولئلا تفلت مكانة الرجلين النسبية من انتباه أحد، أشار هوكر ولايل عند تقديمهما الأوراق أمام جمعية لينيان بالقول: «في الحين الذي ينتظر فيه العالم العلمي ظهور عمل السيد داروين كاملًا، لا بُدَّ من عرض نتائج بعض ثمرات جهده، إلى جانب أخرى توصل لها مراسله القدير، كلها مع بعضها بعضًا أمام الجمهور».

الآن صار ظاهرًا أن داروين قد جمع الأجزاء لوحده قبل سنوات طويلة من توصّل والاس لشيء. لكن الواقع أن في يونيو ١٨٥٨، كتب والاس، على عكس داروين، ورقة عن الانتقاء الطبيعي كان على استعداد لنشرها، حتى وإن لم يقل لداروين بشأن نشرها. لو كان والاس قد أرسل ورقته إلى دورية للنشر بدلًا من إرسالها لداروين - في الحقيقة، لو كان أرسلها إلى أي مكان آخر غير داروين - لكان استُذكِرَ اليوم بعدّه أول رجل قدّم نظرية التطوّر بالانتقاء الطبيعي. ولكان كتاب داروين العظيم، من الناحية الفنيّة، مُجرّد امتداد وإعمام لفكرة عالم آخر. وأي الاسمين ستحمله النظرية في ذلك الحين يظلّ سؤالًا مفتوحًا إلى الأبد.

ومهما كانت شهرة داروين حول العالم، يبدو صعبًا المجادلة بأنه حينما وضع أمام الامتحان الأخلاقي الأصعب في حياته، تجاوزه بإجادة تامّة. خذ بعين النظر الخيارات التي واجهها داروين ولايل وهوكر. إذ كان بإمكانهم نشر أنموذج والاس من النظرية. كما أمكنهم الكتابة إلى والاس وبذلك نشر أنموذجه كما اقترح داروين - ربما دون الإشارة إلى أنموذج داروين.

وامتلكوا إمكانية الكتابة إلى والاس وشرح الموقف ثم اقتراح النشر المشترك. أو أن يفعلوا ما فعلوه. وبسبب احتمال مقاومة والاس النشر المشترك، كما أشارت لهم خبرتهم، فالخيار الذي اتبعوه كان الوحيد الذي ضمن أن الانتقاء الطبيعي سيدخل التاريخ بصفته نظرية داروين. واستدعى هذا الخيار نشر ورقة والاس من دون إذن صريح منه - فعل يُمكن لأحدهم التشكيك في ملاءمته مع شخص ذي وازع أخلاقي مَلَكي مثل داروين.

اللافت أن المراقبين مرارًا وتكرارًا صوروا هذه الحيلة بوصفها نوعًا من الشهادة على الأخلاق البشرية. يصف جوليان هكسلي، حفيد توماس هكسلي، النتيجة بأنها «تذكار للكرم الطبيعي الذي تمتّع به كلا عالمي البيولوجيا العظماء». ودعاه لورين إيسلي بمثال على «سلوك النبالة المتبادل الذي احتفي به في سجلّات العلوم لفرط نزاهته»، وكلاهما نصف صائب. حيث كان والاس، الكريم دومًا، سيُصرُّ طويلًا - بأحقيّة، ولكن بكرم ونبل على الرغم من ذلك - أن استغراق داروين وتعمّقه في فكرته بشأن التطوّر قد أكسبته لقب التطوّري الأول. حتى إن والاس أطلق على أحد كتبه عنوان الداروينية.

نذر والاس ما تبقى من حياته في الدفاع عن نظرية الانتقاء الطبيعي، إلّا أنه ضيّق نطاقها بنحو جسيم. إذ بدأ التشكيك في تفسير النظرية لقوى العقل البشري الكاملة؛ حيث يبدو الناس أذكى مما يحتاج الأمر للنجاة. وخَلُصَ إلى أنه على الرغم من بناء الانتقاء الطبيعي لجسم الإنسان، لكن قدراته العقلية مغروسة إلهيًا. قد يكون ساخرًا للغاية (حتى بالمعايير الداروينية) اقتراح أن هذا التعديل الذي يقلل من نظرية الانتقاء الطبيعي يُمكن أن يُسمّى بـ«الوالاسية»، فبأي حال، كان الرجل الذي سُميت النظرية باسمه حزينًا على ضعف إيمان والاس. حيث كتب له داروين: «آمل أنك لم تقتل طفلي وطفلك بالكامل»، (صدر ذلك عن الرجل الذي، بعد إشارته إلى والاس في تقديم أصل الأنواع، دعا الانتقاء الطبيعي في الفصول اللاحقة بـ«نظريّتي»).

الفكرة الشائعة بأن داروين تصرّف بوصفه نبيلًا مثاليًا طوال قصته مع

والاس تستند جزئيًا إلى الأسطورة القائلة بامتلاكه خيارًا آخر غير تلك الموضحة أعلاه - بأنه كان قادرًا على الإسراع في دفع نظريته إلى الإعلام من دون إشغال نفسه بالإشارة لوالاس. لكن ما لم يكن والاس أكثر قدسية مما يبدو عليه، لجَلَب تصرفه ذاك فضيحة ظلّت تلوّث اسم داروين إلى الآن، إلى درجة يُمكن أن تعرّض ارتباط اسمه بنظريته حتى إلى الخطر. بعبارة أخرى: لم يكن هذا الخيار خيارًا. إن كاتب السيرة الذي لاحظ مُعجبًا أن داروين «كره خسارة أولويته، لكن ما كرهه أكثر احتمال الاشتباه بسلوك غير لائق ولا رياضي» يبتكر تمييزًا غير موجود؛ فعدّه غير رياضي كان سيُعرّض أولويته للخطر. حين كتب داروين إلى لايل، في يوم تلقيه مخطوطة والاس: «أفضّل حرق كتابي كله على أن يُفكر هو أو أي رجل آخر أني تصرّفت بروح خسيسة»، لم ينبع قوله من ضميره الحي، بل من دهائه. أو بالأحرى: كان يتمتّع بضمير حي، والذي يُعدّ، خاصة في بيئته الاجتماعية، مرادفًا للدهاء. فالدهاء وظيفة الضمير الحي.

المصدر الآخر للسذاجة الاستذكارية بشأن سلوك داروين هو قراره البارع بوضع الأمر بين يدي لايل وهوكر. «في لحظة يأس، تنازل عن عرشه»، كما وضع أحد كتاب سيرته الأمر. وسيستخدم داروين هذا «التنازل» بوصفه تمويهًا أخلاقيًا إلى الأبد. فبعد إشارة والاس إلى موافقته بشأن هذه القضية، كتب له داروين: «على الرغم من عدم امتلاكي يد في أيّ مما وجده لايل وهوكر عادلًا فتصرفا وفقًا له، إلّا أنّي لا أستطيع غير القلق بماهيّة انطباعك...» حسنًا، لو لم يكن متأكدًا من موافقة والاس، فلماذا لم يُكلّف نفسه عناء التحقق؟ ألم يستطع داروين الذي أمضى عقدين من دون نشر نظريته الانتظار بضعة أشهر إضافية؟ لقد طلب والاس إرسال ورقته إلى لايل، لكنه لم يطلب تحديده لمصيرها.

إنّ ادّعاء داروين بشأن عدم تسليطه تأثيرًا «من أي نوع» على هوكر ولايل يُحرِّفُ الحقائق وهو، على أي حال، ليس ذي علاقة؛ فهؤلاء كانوا اثنين من أعز أصدقائه. من المؤكد أن داروين لم يشعر بإمكانيته تعيين أخيه إيرازموس

قاضيًا نزيهًا. ومع ذلك فلدينا كل الأسباب التي تدفعنا للاعتقاد بأن التطور، في ترسيخ الصداقة لدى الجنس البشري، قد استخدم بحذاقة كثيرًا من دوافع المودّة والتفاني والولاء التي استخدمها في البدء لربط الأقارب.

لم يكن داروين عالمًا بذلك طبعًا، لكنه عرف مؤكدًا ميل الأصدقاء للانحياز - إن فكرة الصديق بمجملها هي الشخص الذي يُشاركك على الأقل تحيزاتك النافعة للذات. وبالنسبة إليه، كان تصوير لايل بالنزيه - «السيد المستشار» - رائعًا. ولا يبدو الأمر بأوضح أشكاله إلّا في ضوء مناشدات داروين اللاحقة لصداقتهما، حين طالب لايل تقريبًا أن يؤيد نظرية الانتقاء الطبيعي بوصفه صنيعًا شخصيًا.

تحليل نهاية اللعبة

كفاني غضبًا أخلاقيًا. فمن أنا لأحكم؟ إذ فعلت ما هو أسوأ من جريمة داروين الوحيدة الكبرى هذه. في الواقع إن قدرتي على حشد كل هذا السخط المبرر أخلاقيًا واتّخاذ موقف رفيع أخلاقيًا هي ضريبة العمى الانتقائي الذي وهبه التطور لنا جميعًا. والآن سأحاول تجاوز البيولوجيا واستدعاء ما يكفي من التجرّد لأجل تقييم السمات الداروينية في حلقة والاس تقييمًا موجزًا.

لاحظ أولًا المرونة الرائعة لقيم داروين. بوصفها قاعدة، كان يزدري بشدة الإقليمية الأكاديمية؛ إذ اعتقد أن تحفّظ العلماء ضد منافسيهم مخافة سرقة منجز منهم «غير جدير بالباحثين الساعين وراء الحقيقة». وعلى الرغم من كونه غاية الإدراك والصدق ليُنكر التأثير المغري للسلطة عليه، لكنه عدّ هذا التأثير ضئيلًا عليه عمومًا. وادّعى أنه كان سيعمل بذات القدر من الجديّة على كتاب الأنواع خاصته حتى من دون هذا التأثير. ومع ذلك، مع ظهور أول تهديد لمنطقة نفوذه، اتخذ خطوة للدفاع عنها - والتي تضمّنت إصدار كتاب أصل الأنواع بوتيرة متسارعة إلى حد ما بمجرّد بزوغ شك في احتمال من سيصبح اسمه مرادفًا لنظرية التطوّر. لقد رأى داروين التناقض. فبعد أسابيع من قصة والاس، كتب إلى هوكر عمّا يتعلّق بالأولوية أنه كان

يتخيّل دومًا «امتلاكه روح رفيعة بها يكفي بحيث لا أهتم؛ لكنّي وجدت نفسي مخطئًا فعوقبت».

ومع تلاشي الأزمة بمرور الوقت، عادت تقوى داروين القديمة إلى الظهور. إذ ادعى في سيرته الذاتية أنه «لم يهتم كثيرًا بها إذا كان الرجال سينسبون الأصالة لي أم لوالاس». أي شخص قرأ رسائل داروين المذهلة إلى لايل وهوكر سيُعجب حتمًا بمدى قدرة داروين على خداع الذات.

تُسلّط قصة والاس الضوء على انقسام أساسي داخل الضمير، الخط الفاصل بين انتقاء الأقارب والإيثار المتبادل. حينما نشعر بالذنب جراء أذيتنا أو خداعنا أحد الأشقاء، ذلك لأن الانتقاء الطبيعي «يُريد» منا، بشكل عام، أن نكون لطفاء مع الأشقاء، منذ مشاركتهم إيّانا كثيرًا من الجينات. وحينما نشعر بالذنب جراء أذية أو خداع صديق، أو أحد المعارف الطارئين؛ فلأن الانتقاء الطبيعي «يريد» منا أن نبدو وكأننا لطفاء؛ إنّ إدراك الإيثار، وليس الإيثار نفسه، هو ما سيجذب المعاملة بالمثل. لذا فهدف الضمير، عند التعامل مع غير الأقارب، تنشئة سُمعة في الكرم واللياقة، أيًّا كانت الحقيقة. وبالطبع فإن اكتساب هذه السمعة والاحتفاظ بها قد يستلزم في الغالب بذل كرم ولياقة فعليين. لكنه في أحيان أخرى لا يستلزم ذلك.

نرى في ضوء هذا أن ضمير داروين يعمل بأعلى مستوى. إذ جعله جديرًا بالثقة عمومًا في إغداق الكرم واللياقة – في بيئة اجتماعية حميمية لدرجة أن الكرم واللياقة الفعليتين ضروريّتان للحفاظ على سمعة أخلاقية جيّدة. لكن تبيّن أن طيبته لم تكن دائمة تمامًا. فضميره المتبجّح، حصنه المنيع ضد كُل فساد كما يبدو، كان فطنًا كفاية لتثبيط ما هو بخس حينما احتاج سعيه الدائم وراء المكانة لارتكاب زلة أخلاقية طفيفة. سمح هذا التعتيم الطفيف لأنوار داروين التلاعُبَ في الخيوط بمهارة ومن دون وعي حتّى، موظفًا علاقاته الاجتماعية الواسعة ضد منافس شاب ضعيف.

اقترح بعض الداروئيّين إمكانية عدّ الضمير المسؤول عن حساب التوفير الذي تُخزّن فيه السمعة الأخلاقية. إذ ظلّ داروين يُكدّس بعناء وعلى مدى

عقـود رأس مـال من الأدلّة الظاهرة والشاسـعة على حيرتـه؛ وقصة والاس كانت وقت المخاطرة ببعضها. حتى وإن خسر القليل منها - حتى في القضية التي أنتجت بعض الهمسـات الشـكوكة حول لياقـة والاس أمام نشر ورقته من دون موافقة منه - سـتظلّ هذه مخاطرة تسـتحقّ العناء من حيث الارتقاء النهائـي لمكانـة داروين. إن إصـدار مثل هذه الأحكام عـن تخصيص الموارد هـو ما صُمِّمَ الضمير البشري لأجله، وقد أجاد ضمير داروين عمله في أثناء قصة والاس.

ومثلـما حدث، لم يخسر داروين أي من رأس ماله. فقد خرج من المدعكة يفـوح برائحة الزهـور. أمام جمعية لينيان، وصف هوكر ولايل ما حصل بعد تلقـي داروين رسـالة والاس. «لقد قدّر داروين بشـدّة قيمـة الآراء الواردة فيها، لدرجة اقتراحه، في رسالة إلى السير تشارلز لايل، الحصول على موافقة السـيد والاس للسـماح بنـشر مقاله بأسرع وقـت. وعلى ذلك وافقنا بشـدّة، شرط ألّا يتـوارى السـيد داروين عن الإعلام، وهو مـا كان ميّالًا لفعله جدًا (لصالـح السـيد والاس)، والمذكّرات التي كتبها بنفسـه عـن هذا الموضوع، والتي، كما أفدنا سـابقًا، اطلع أحدنا عليها في ١٨٤٤، وكلانا كان على دراية بمحتوياتها منذ سنوات عدة...»

بعـد أكثـر من قـرن، كانت هذه النسـخة المُشـذّبة من الأحـداث لا تزال النسـخة الأنموذجيـة - إذ أُكـرِهَ داروين الدقيق للغاية على ترك اسـمه يظهر جنبًا لجنب مع اسم والاس. كتب أحد كتاب السيرة أن داروين «يصعب أن يكون عميلًا حرًا في مواجهة ضغط لايل وهوكر للنشر».

لا يوجـد أي أسـاس للاسـتنتاج أن داروين رتّـب عن عمـد تفوّقه على والاس. ضـع في نظـرك التعيين الحكيم للايل بصفة «السـيد المستشـار». إن الدافع الطبيعي وقت الأزمات لالتماس مشورة الأصدقاء يُشعر المرء بالبراءة التامّة. نحن لا نُفكّر بالضرورة، «سـأتصل بصديق، بدلًا من غريب ما؛ لأن صديقي يُشـاركني أفكاري الملتوية حول ما أستحقه وما يستحقّه خصمي»، كذلـك الأمر مع تظاهر داروين بالعذاب الأخلاقي: حيث نجح لأنه لم يكن

يعلـم بأنه تظاهر - بعبارة أخرى، ذلك أنه لم يكن تظاهرًا؛ إذ شـعر بالعذاب فعلًا.

وهذه ليسـت المرة الأولى. كان شـعور داروين بالذنب عن تأكيد أولويته - سـحب مرتبـة مـن والاس بقصد ضـمان مرتبة أعلى - هـو الأحدث فقط بين سلسـلة من المخاضات المتشابهة على مدى حياته. (تذكر تشخيص جون بولبـي: عانـى داروين مـن «احتقار الـذات لكونه عديـم الفائـدة». «مرارًا وتكرارًا طوال حياته، كانت رغبته الدائمة لجذب الانتباه والشهرة مقترنة مع إحساسـه العميق بالخزي الذي أحس به لامتلاكه دوافع كهذه»). في الواقع، كانت صحة عذابات داروين الجليّة هي التي سـاعدت في إقناع هوكر ولايل بأن داروين رفض المجد «بشـدّة» وبذلك سـاعدهما على إقنـاع العالم به. كُل رأس المـال الأخلاقـي الذي جمعه داروين على مرّ السـنين جاء على حسـاب تكلفة نفسية هائلة، ولكن في النهاية أدرّ هذا الاستثمار أرباحًا كبيرة عليه.

لا يعنـي أي من هذا أن داروين تـصرّف بنحو تكيّفي تمامًا، وبتناغم دائم مـع مهمّة التكاثـر الجيني، مع كل جـزء من كفاحه ومعاناتـه الهائلتين اللتين انطوت عليهما هذه الغاية. ونظرًا للاختلاف بين إنجلترا القرن التاسـع عشر وبيئـات تطوّرنا، فإن هـذا النوع من الكمال الوظيفي آخر ما على المرء توقّعه. في الواقـع، وكما سـبق أن اقترحنا قبـل بضعة فصول، إن أحاسـيس داروين الأخلاقيـة تفوق بوضوح ما تمليه المصلحـة الذاتية؛ إذ كان حائزًا لرأس مال كبـير في حسـاب توفـيره الأخلاقي مـن دون أن يُغمض له جفـن قبل إجابة رسالة مُتلقّاة، ومن دون شنّ حملة للدفاع عن حقوق المظلومين. الادعاء هنا ببسـاطة أن كثيرًا من الأشـياء الغريبة التي نوقشـت مرارًا عـن عقل داروين وشـخصيته يُمكـن أن يكون لها معنى من نوع أسـاسي ما عنـد النظر لها عبر عدسة علم النفس التطوري.

في الواقـع فـإن كامل حياته المهنية تفترض تماسـكًا معيّنًـا. إذ يظهر الأمر أقل شـبهًا بمسـعى خاطئ، وغالبًا ما يعرقله الشك الذاتي والإذعان المفرط، ويُشـبه إلى حد كبير ارتقاءً لا هوادة فيه، متواريًا ببراعة وراء سـتار من التردّد

والتواضع. تحت وخزات ضمير داروين يكمن هناك الوضع الأخلاقي. وأسفل تبجيله للرجال الناجحين يتوارى هناك التسلّق الاجتماعي. ووراء شكوكه الذاتية المتوارية المؤلمة، يستتر دفاعه المحموم ضد الاعتداءات الاجتماعية. بينما يتخفّى وراء تعاطفه مع الأصدقاء تحالف سياسي فَطِن.

يا له من حيوان!

الباب الرابع

أخلاقيات القصة

الفصل الخامس عشر

التشاؤميّة الداروينية (والفرويدية)

«يُحتمل أن تكون احتمالية امتلاك الدماغ قافلة تامّة من الأفكار والمشـاعر والإدراك منفصلـة عن الحالـة الذهنية الاعتيادية مماثلة للفردانيـة المزدوجة التي تنطوي عليها العادة، حينما يتصرّف المرء من دون وعي موافقًا لذاته الأكثر حيوية...»

دفتر الملاحظات M. (هامش ١)

إن صورة الطبيعة البشرية المرسومة حتى الآن ليست جذابة تمامًا.

نحـن نقضي حياتنا في السـعي المضنى نحـو المكانة؛ بل إننـا مدمنون على التقدير الاجتماعي بالمعنى الحرفي تقريبًا، معتمدين على النواقل العصبية التي نحصـل عليهـا عند إثارة إعجاب الآخرين. يزعم كثـيرون منّا أنهم مكتفون ذاتيًا، وأنّ لديهم جيروسـكوبًا أخلاقيًا وأنهم سريعو التمسّك بالقيم في شتى الظروف. لكن من يتجاهلون حقًا قبول الأقران يُصنّفون بالمعتلّين اجتماعيًا. بينـما الكُنى المحجـوزة لمن هم على الطرف الآخر مـن الطيف، أولئك الذين يسـعون إلى نيـل الاحـترام بحميّـة - الكُنى من قبيـل «المسـوّقون للذات»، «المتسـلّقون الاجتماعيّـون» - ما هـي إلّا علامات على عمانـا البنيوي. فنحن

جميعًا مسوّقون للذات ومتسلّقون اجتماعيون. ومن يُعرفون بهذه الصفات إمّا ناجحون لدرجة إثارة الحسد أو شديدو الوقاحة بحيث تُفضحُ جُهودهم، أو ربما كلا الأمرين.

كما لكرمنا وعاطفتنا هدف ضيّق ضمني. حيث كلاهما موجّه إمّا ناحية الأقارب، الذين يُشاركوننا جيناتنا، أو غير الأقارب من الجنس المُغاير ممّن بإمكانهم مساعدتنا على رزم جيناتنا وشحنها إلى الجيل اللاحق، أو إلى غير الأقارب لكلا الجنسين ممّن تبدو عليهم أمارات ردّ الجميل بالمثل. إضافة إلى ذلك، فلا مهرب من انطواء الجميل على الخبث أو خيانة الأمانة؛ إذ نتفضّل على أصدقائنا بتجاهل عيوبهم، ورؤية العيوب في أعدائهم (هذا إن لم يكن تضخيمها). فالمودّة أداة للعداء، حيث نُشكّل عبرها روابط لتعميق الشِقاق.

إنّنا لا نمتاز بالإنصاف في صداقاتنا، كما هو الحال في أشياء أخرى. إذ نُثمّن عاطفة الأشخاص ذوي المكانات الرفيعة خاصّة، ونظهر أمامهم استعدادًا للردّ بالمزيد - نتوقّع منهم ما هو أقل، ونتساهل في أحكامنا عليهم. وربما يتضاءل «الولع» بصديق في حال قُوِّضَت مكانته، أو فشل ببساطة في تحقيق مزيد من الارتقاء بحيث يتساوى معنا. وقد نُبرّر ذلك بغرض تيسير تجميد العلاقات. حيث نقول: «لم يعد بيننا كثير من المُشتركات كما جرت العادة»، مُشتركات كالمكانة الرفيعة ربما!

من الآمن دعوة هذه بالرؤية التشاؤمية للسلوك. إذن، ما الجديد؟ فلا شيء ثوري في التشاؤميّة. في الواقع قد يدعوها بعضهم قصّة العصر الحالي - الخليفة المهيب للجدّية الفيكتورية.

تمّ تتبّع التحوّل من جديّة القرن التاسع عشر وصولًا لتشاؤميّة القرن العشرين جزئيًا إلى سيغموند فرويد. فمثل الداروينية الجديدة، وجد الفكر الفرويدي أهدافًا خبيثة غير واعية في تصرّفاتنا الأبرأ. ومثل الداروينية الجديدة، فهو يرى الجوهر الحيواني في صميم اللاوعي.

هذه الأشياء هي الوحيدة المشتركة بين الفكر الدارويني والفرويدي. وعلى الرغم من كل النقد الذي اجتذبته في أثناء العقود الأخيرة، ظلّت

الفرويدية الأنموذج السلوكي الأكثر تأثيرًا في عصرنا من النواحي الأكاديمية والأخلاقية والروحانية. وطموح الأنموذج الداروويني الجديد بلوغ هذه المكانة.

وعلى أساس هذا التنافس وحده، سيكون الفصل بين علم النفس الفرويدي والتطوّري يستحق العناء. إلّا أن هناك أساسات أخرى أيضًا، وربما أكثر أهمية: فأشكال التشاؤم التي تقتضيها المدرستان ضمنًا في نهاية المطاف مختلفة، ومتفاوتة بطرق فارِقَة.

تحمل كل من التشاؤميّة الداروينية والفرويدية مرارة أقلّ مقارنة بالتشاؤميّة الشائعة. ذلك أن شكوكهما في دوافع المرء شكوكٌ بدوافع غير واعية، حيث ينظرون إلى المرء - الواعي على الأقل - بوصفه شريكًا غير مُتعمِّد من نوع ما. واقعًا، فإلى الحد الذي يكون فيه الألم ضريبة للاحتيال داخل النفس، يُمكن للمرء أن يكون جديرًا بالتعاطف والشك على حد سواء. فالجميع يُظهرون أنفسهم في النهاية ضحايا. وما انقسمت المدرستان إلّا على وصف كيفية وسبب قصد الإيذاء **victimization**.

عَدَّ فرويد نفسه داروينيًا. فقد حاول النظر إلى عقل الإنسان بوصفه نتاجًا للتطور، وهي الحقيقة والسبب الوحيد ربما الذي سيجعله محبوبًا لدى علماء النفس التطوّريّين إلى الأبد. فكُل من يرى البشر حيوانات، مدفوعة بالجنس وغيره من الحوافز الفظّة، لا يُمكن أن يكون سيئًا بالكامل. إلّا أن فرويد أساء فهم التطوّر بطرق أوّلية وأساسية. فقد ركّز كثيرًا، مثلًا، على الفكرة اللاماركية بأن الصفات المكتسبة عبر التجربة يُمكن تمريرها بيولوجيًا. ربما يكون شيوع بعض هذه المفاهيم الخاطئة في وقته - حيث تبنّى داروين بعضًا منها، أو شجّعت بعض التباساته على الأقل - مُبرّرًا جيدًا. لكن الحقيقة تبقى أنها قادت فرويد لقول كثير من الأشياء التي تبدو غير منطقيّة لدارونيّي اليوم.

لماذا يكون لدى الناس غريزة للموت («ثاناتوس»)؟ لماذا ترغب الفتيات بأعضاء الذكور التناسلية («حسد القضيب»)؟ لماذا يرغب الرجال بممارسة

الجنس مع أمهاتهم وقتل آبائهم («عقدة أوديب»)؟ تخيّل وجود جينات تُشجّع بشكل مُحدّد أيًا من هذه الدوافع، وستتخيّل جينات ليس مُقدّرًا لها الانتشار ضمن مُجتمع من الصيادين وجامعي الثمار بين عشيّة وضحاها.

ليس هناك من ينكر حدّة نظر فرويد في التوتّرات النفسية. فقد يوجد شيء يُشبه صراع أوديب بين الأب وابنه. لكن ما هي جذوره الحقيقية؟ جادل كُل من مارتن دالي ومارغو ويلسون أن فرويد خلط هنا بين كثير من الديناميكيات الداروينية المستقلة، وبعضها متأصّل في صراع الوالد والذرية الموصوف من قبل روبرت تريفرز. فعلى سبيل المثال، حين يبلغ الأولاد سن المراهقة، قد يجدون أنفسهم، ولا سيما في مجتمع متعدد الزوجات (كبيئة أجدادنا)، يُنافسون آباءهم على ذات النساء. ولكن ليست أمّ الصبي بين تلك النسوة؛ إذ غالبًا ما ينتج سفاح القربى ذرية معيبة، وليس في مصلحة الابن الجينية تحميل والدته مخاطر وأعباء الحمل لتكوين شقيق لا قيمة إنجابية له. (وبذلك فناء الفتية الذين يحاولون إغواء أمهاتهم). في سن مبكرة قد يكون للصبي (أو الفتاة في هذه الحالة) صراع والديّ على الأم - ولكن الجنس ليس غايته. فالصراع بين الابن والأب يشتعل على وقت الأم واهتمامها الثمينين. لو كان للصراع إيحاءات جنسية بالمطلق، فلأن مصلحة الأب الجينية تتطلب تخصيب الأم، بينما يناضل الابن لتأجيل مجيء شقيق له (عبر الاستمرار بالرضاعة الطبيعية التي تمنع الإباضة مثلًا).

غالبًا ما تكون هذه الأنواع من النظريات الداروينية تخمينية، وفي هذه المرحلة المبكّرة من نضج علم النفس التطوري، قليلًا ما تُختبر. لكن بعكس نظريات فرويد، فهي مشدودة إلى شيء راسخ: فهم العملية التي صَمَّمت دماغ الإنسان. انطلق علم النفس التطوري في مسارٍ واضح المعالم وينبغي أن يظلّ عرضة للتقويم المُستمر في ديالكتيك العلم في أثناء تقدّمه على هذا المسار.

مفاتيح دوزنة داروين

يبدأ الطريق نحو التقدم بتحديد مفاتيح الطبيعة البشرية - الأشياء التي شاركها تشارلز داروين مثلًا مع البشرية جمعاء. حيث كان مُهتمًا بأقربائه ضمن حدود. سعى إلى المكانة، وإلى للجنس، وحاول إبهار أقرانه واسترضاءهم. شكّل تحالفات وداوم على رعايتها. حاول تحييد المنافسين. خدع نفسه كُلّما أملت عليه مساعيه السابقة أمرًا بشدّة. وشعر بكافّة الأحاسيس - الحب، والشهوة، والإشفاق، والتوقير، والطموح، والغضب، والخوف، وآلام الضمير بسبب الذنب أو الالتزام أو العار وهكذا دواليك - التي تدفع الناس صوب هذه الأهداف.

وبعد تحديد مواضع مفاتيح الطبيعة البشرية - سواء أعند داروين أم غيره - يسأل الدارويني لاحقًا: ما المميز بشأن دوزنة المفاتيح؟ كان لداروين ضمير نشط بما يتجاوز الطبيعي - فقد رعى تحالفاته بعناية غير اعتيادية. وقلق فوق العادة بشأن آراء الآخرين، وهلمّ جرا.

من أين جاءت هذه التنغيمات المميزة؟ سؤال جيد. ربما لم يتبنَ أي عالم نفس تنموي أدوات الأنموذج الجديد، لذلك نجد هناك نقصًا في الأجوبة. إلّا أن السبيل إلى الأجوبة يبدو واضحًا، بشكل عام على الأقل. يتشكّل العقل اليافع اللدن بفعل إشارات تقترح، في بيئتنا التطوّرية، أي الاستراتيجيات السلوكية من شأنها ترجيح نشر الجينات. ويُفترض ميل هذه الإشارات لعكس أمرين: نوع البيئة الاجتماعية التي تجد نفسك فيها؛ ونوع الأصول والخصوم الذين تأتي بهم هذه البيئة لك.

بعض الإشارات تُقدّم بواسطة الأقارب. كان فرويد محقًا عندما شعر أن لدى الأقارب - الآباء خاصّة - كثيرًا لقوله بشأن الهيأة النفسية الناشئة. وكان مُحقًا كذلك في إحساسه بأن الآباء ليسوا كُرماء بالمُطلق، وأن تلك الصراعات العميقة بين الآباء وذريتهم ممكنة. وتشتمل نظرية تريفرز عن صراع الآباء والأبناء أن بعض الدوزنة النفسية الدقيقة قد لا تكون في المصلحة الجينية للمُدَوزَنْ (الطفل) فقط، ولكن في صالح المُدَوزِن (الوالد) أيضًا.

إن فصل نوعي تأثير الأقارب - التعليم والاستغلال - ليس سهلًا بالمرّة. وفي حالة داروين يُظهر صعوبة خاصّة، ذلك أن بعض سماته الفريدة - توقيره الهائل للسلطة، وتردّده الكبير - إضافة لكونها مفيدة في سياق العالم الاجتماعي الأوسع، فهي تُفضي إلى التضحية لأجل الأسرة.

إذا كان لعلماء السلوك استعمال الداروينية الجديدة كي يتتبعوا النمو العقلي والعاطفي، فعليهم التخلي عن افتراض غالبًا ما يكون ضمنيًا في فكر فرويد والأطباء النفسيين عموماً (وأي شخص آخر، بما يتعلق في هذا الصدد): أن الألم عرضٌ لشيء غير سوي ولا طبيعي - علامة على اتخاذ الأمور منحى منحرفًا. وكما أكّد الطبيب النفسي التطوري راندولف نيسي فإن الألم جزء من تصميم الانتقاء الطبيعي (ولا يعني ذلك القول: إنه أمر جيد بالطبع). فالكميّات الهائلة من الألم ولِّدت بفعل الصفات التي ساعدت على جعل داروين حيوانًا فعّالًا: ضميره «مفرط الحيوية»، نقده الذاتي القاس، «ولعه بالاطمئنان»، احترامه «المبالغ» للسلطة. لو كان والد داروين مصدر تعزيز بعض هذا الألم، كما يُزعَم، فسيكون خاطئًا السؤال عن أي الشياطين دفعته للقيام بذلك (ما لم تُجِب بعد ذلك ربما بـ: «الجينات التي تعمل بدقّة ساعة سويسرية»). إضافة إلى ذلك فقد يكون من الخطأ افتراض أن داروين الشاب لم يُشجّع بنفسه، ولو بمستوى ما، هذا التأثير المؤلم؛ ربما يكون الناس مُصمّمون جيدًا لاستيعاب التوجيهات المؤلمة المؤدية إلى تحقيق الانتشار الجيني (أو كانوا كذلك في بيئة الأجداد). وكثير من الأشياء التي تبدو بوصفها قسوة أبوية قد لا تكون مثالًا على صراع تريفرز بين الآباء والأبناء.

إحدى الحالات التي قد تقاوم الفهم طالما يعدّها علماء النفس غير طبيعية أمر عانى داروين منه شخصيًا: انعدام الأمان. ربما كان منطقيًا على مر العصور بالنسبة إلى الأشخاص الذين لم يستطيعوا ارتقاء الهرم الاجتماعي بالوسائل الكلاسيكية (القوة الغاشمة، الوسامة، الكاريزما) التركيز على طرق أخرى. وإحدى الطرق الالتزام المضاعف بالإيثار المتبادل - أي بامتلاك ضمير حسّاس، بل ومؤلم حتى، مع خوف مزمن من عدم المرغوبية.

ولا شك أن الصورة النمطية للرياضي المغرور المتغطرس والواهن المتملّق المراعي مبالغ فيها، لكنها قد تعكس ارتباطًا إحصائيًا صحيحًا، وقد تبدو منطقية داروينيًا. فعلى أي حال، يبدو أنها تُصوّر تجربة داروين بنحو جيد كفاية. إذ كان صبيًا كبير الحجم، لكنه غريب الأطوار وانطوائي، وكتب في المدرسة الابتدائية: «لم أستطع استنهاض شجاعتي للعراك»، وعلى الرغم من إساءة بعض الأطفال تفسير تحفّظه بوصفه أنَفَة، فقد عُرِفَ بلطفه – حيث يستذكر أحد زملائه قائلًا: «كان يُسعده تقديم أي لفتة صغيرة لاسترضاء زملائه»، وسيَعْجَب القبطان فيتزروي لاحقًا من كيف أن داروين «يجعل من الجميع أصدقاء له».

وبالمثل، فقد ينشأ التدقيق الذاتي الفكري الحاد من الإحباط الاجتماعي المبكر. إذ ربما يبذل الأطفال ممن لا يُحقّقون لأنفسهم مكانة بالوسائل الطبيعية جهدًا أكبر كي يصبحوا مصادر معلومات غنيّة، ولا سيما لو حازوا براعة طبيعية فيها. حوّل داروين نوبات الشك الذاتي الفكري خاصته إلى سلسلة من الأعمال العلمية المُشذّبة ساهمت في رفع مكانته وجعلته مؤثرًا متبادلًا مُقدّرًا.

لو صمدت هذه التكهنات، فإن نوعي داروين الأساسيين للشك الذاتي – الأخلاقي والفكري – يُمثّلان وجهين للعملة نفسها، حيث كليهما مظهر من مظاهر انعدام الأمن الاجتماعي، وكليهما مُصمّم بوصفه وسيلة لجعله أصلًا اجتماعيًا قيّمًا حينما تبدو بقيّة الطرق الأخرى كأنها فشلت. يُمكن لـ«حساسية داروين الحادّة تجاه الثناء واللوم»، كما وضع توماس هكسلي الأمر، تفسير حرصه المفرط في كلا المجالين، وقد تكون متجذرة في مبدأ واحد من مبادئ التطور العقلي. وربما فعل والد داروين ما هو أكثر – بموافقة ضمنية من داروين – لتغذية تلك الحساسية الحادّة.

حينما نطلق على أحدهم وصف «غير آمن» فإننا نعني عمومًا بأنه يفرط في قلقه: قلقٌ حول احتمالية عدم مقبوليّته، وبشأن فقد أصدقائه، بشأن احتمال توجيههم إهانة لأحد، وما إذا قدّموا لأحدهم معلومة غير صائبة.

مـن الشـائع تتبع حالـة انعدام الأمن عـادة حتى الطفولة: الرفض في سـاحة المدرسـة الابتدائية؛ الفشل العاطفي في المراهقة؛ منزل غير مستقر؛ وفاة أحد أفـراد العائلـة؛ التنقل كثيرًا بحيـث يصعب تكوين صداقـات دائمة، أو غير ذلك. هناك افتراض غامض وغير معلن عادة بأن أنواعًا مختلفة من الفشل أو الاضطراب في الطفولة من شأنها أن تؤدّي إلى انعدام الأمن لدى البالغين.

يُمكـن للمـرء التفكير في أسـباب (كالتـي طرحتها الآن) عـن لماذا صاغ الانتقـاء الطبيعـي بعـض هـذه الروابـط بـين التجربـة المبكـرة والشـخصية اللاحقـة؟ (كانـت الوفاة المبكـرة لوالدة داروين أرضًا خصبـة للتكهنات؛ إذ كان الرضـا عـن النفس في بيئة الأجـداد ترفًا لا يسـتطيع الطفل يتيم الأم التمتّـع بـه)، يُمكن للمرء أن يجد كذلك، في بيانـات علم النفس الاجتماعي، دعـمًا فضفاضًا لمثل هذه الارتباطات. وسـنبلغ الوضوح حال تواصل هذين الجانبـين مـن الديالكتيك مع بعضهما بعضًا: حينما يبـدأ علماء النفس التفكير مليًا بشأن أي أنواع النظريات التنموية ذات معنى دارويني، ومن ثمّ تصميم بحث لاختبار هذه النظريّات.

وعبر العملية نفسـها سـنبدأ في فهم كيفية تكوّن الميول الأخرى المختلفة: التحفّـظ الجنـسي أو الاختلاطية، التسـامح والتعصّب الاجتماعيـان، تقدير ذات عـال أو منخفض، القسـوة واللـين، وهكذا. وقد يكون سـبب ارتباط هذه الأشـياء باستمرار مع الأسباب التي يشـيع الاستشهاد بها – مثل درجة وطبيعـة حـبّ الوالدين، عـدد الآبـاء داخـل الأسرة، المناوشـات العاطفية المبكـرة، الديناميكيـات بـين الأشـقّاء، الأصدقـاء، الأعـداء – إن مثـل هذا الارتباط له معنى تطوري. فلو أراد علماء النفس فهم العمليات التي تشـكل العقل البشري، عليهم أولًا فهم العملية التي شـكّلت الجنس البشري نفسه. وبمجـرد تحقيقهم ذلـك، يصبح التقدّم مرجّحًـا. والتقدّم القاطـع – التأييد المتزايـد والموضوعـي لنظريّـات أدقّ مـن أي وقت مضى – سـيميّز داروينية القرن الحادي والعشرين عن فرويدية القرن العشرين.

حينـما يتحـوّل الموضوع إلى العقـل اللاواعـي، تسـتمر الاختلافات بين

الفكر الفرويدي والدارويني؛ ومجدَّدًا، تدور بعض الاختلافات عن وظيفة الألم. تذكّر «القاعدة الذهبية» لداروين: لتدوين أي ملاحظة تبدو غير متوافقة مع نظرياته فورًا - «ذلك لأني وجدت عبر التجربة أن مثل هذه الحقائق والأفكار كانت أكثر استعدادًا للانسلال من ذاكرتي مقارنة بالأخرى المُحبّبة». استشهد فرويد بهذه الملاحظة بوصفها دليلًا على الميل الفرويدي «لدرء ما هو غير سار من الذاكرة». وكان هذا الميل بالنسبة إلى فرويد واسعًا وعامًّا، إذ وُجِدَ بين الأصحاء والمعتلين عقليًا على حد سواء، وكان مركزيًا لديناميكيات العقل اللاواعي. إلّا أن هناك مشكلة واحدة مع هذا التعميم المفترض: في بعض الأحيان تكون الذكريات المؤلمة صعبة النسيان للغاية. في الواقع، اعترف فرويد، بعد بضع جمل فقط من استشهاده بقاعدة داروين، أن الناس أفادوا بذلك له، مُشدّدًا خصيصًا على «استذكار المظالم والإهانات».

هل يعني هذا أن الميل إلى نسيان الأمور غير السارة ليس عامًّا بعد كل شيء؟ لا، هو ليس كذلك. وقد انتقى فرويد تفسيرًا آخر: كان الأمر فقط أن في بعض الأحيان يكون الميل إلى التخلص من الذكريات المؤلمة ناجحًا وفي أحيان ليس كذلك؛ فالعقل «ساحة قتال، نوع من الأراضي المتداعية». حيث تتصادم الميول المتعارضة، وليس من السهل تحديد أي الميول سينتصر في النهاية.

يُمكن لعلماء النفس التطوّريين التعامل مع هذه المسألة بمزيد من البراعة؛ لأنهم، على العكس من فرويد، لا يتبنّون مثل هذه الرؤية اليسيرة والساذجة للعقل البشري. فهم يؤمنون بأن الدماغ قد بُني بموادّ رخيصة على مر العصور لأجل إنجاز مجموعة من المهام المختلفة. وبعدم المبادرة لجمع ذكريات المظالم والإهانات والحقائق المزعجة ضمن ذات الفئة، ليس على الداروينيين منح استثناءات خاصة للحالات التي لا تناسبهم. وفي مواجهة ثلاثة أسئلة عن التذكر والنسيان - ١) لماذا ننسى الحقائق غير المتوافقة مع نظرياتنا؟ ٢) لماذا نتذكر المظالم؟ ٣) لماذا نتذكر الإهانات؟ - يمكنهم الاسترخاء والتوصل إلى شرح مختلف يلائم كل سؤال.

لقد تطرقنا بالفعل إلى التفسيرات الثلاثة المحتملة. إن نسيان الحقائق المزعجة يُسهّل المجادلة والإقناع، وغالبًا ما كانت للمُحاججات مصالح وراثية على المحك في بيئتنا التطورية. فقد يؤدي تذكر المظالم إلى تعزيز مساوماتنا بطريقة مختلفة، ما يجعلنا نُذكّر الآخرين بالتعويضات التي يدينون بها لنا؛ كذلك، قد يضمن التظلّم المُتذكّر جيدًا معاقبة من استغلّونا. أمّا بالنسبة إلى ذكرى الإهانة، فإن استمرارها المزعج يثنينا عن تكرار السلوكيات التي قد تُقوّض المكانة الاجتماعية؛ ولو كانت الإهانات ذات وقع كبير بما يكفي، فقد تقلّل ذكراها بشكل تكيّفي مستوى احترام الذات (أو على الأقل تقليل احترام الذات بطريقة يُمكن أن تكون قابلة للتكيّف في بيئتنا التطوّرية).

وبذلك، ربما كان أنموذج فرويد للعقل البشري - صدق أو لا تصدق - متاهة غير كافية. فللعقل البشري أركان مظلمة أكثر مما تصّور، كما ويمارس علينا عددًا أكبر من الحيل والألاعيب الصغيرة.

أفضل ما في فرويد

أفضل ما في فرويد استشعاره التناقض في كوننا حيوانات اجتماعية للغاية: كوننا شهوانيين وجشعين وأنانيين عمومًا في الجوهر، ومع ذلك العيش بتحضّر مع البشر الآخرين - الاضطرار لبلوغ أهدافنا الحيوانية عبر مسار متعرج من التعاون والتسوية وضبط النفس. ومن هذه الرؤية تتدفق فكرة فرويد الأساسية عن العقل: بكونه مكانًا للصراع بين الدوافع الحيوانية والواقع الاجتماعي.

إحدى الرؤى البيولوجية لمثل هذا النوع من الصراع جاءت من بول د. ماكلي. إذ دعا دماغ الإنسان بالدماغ «الثالوثي» الذي تلخص أجزاؤه الثلاثة الأساسية تطوّرنا: نواة زاحفية (مقرّ محرّكاتنا الأساسية)، محاطة بدماغ «ثديي قديم» (الذي منح أسلافنا، بين ما منحهم، المودّة تجاه ذريتهم)، محاطًا بدماغ «ثديي حديث». أتى الدماغ الثديي الحديث الضخم بالتفكير المجرّد واللغة وربما العاطفة (الانتقائية) للأشخاص خارج نطاق العائلة. كتب ماكلين

يقول، إنـه «خادم العقلنة والتبريـر وإعطاء التعبير اللفظـي للأجزاء الأولية والحوفية [الثديي القديم] من دماغنا. . .» ومثل كثير من النماذج الأنيقة، ربما يكون هذا الأنموذج سهل إلى درجة التضليل؛ إلّا أنه يجسد بنحو جيد (ربما) السـمة الحاسـمة لمسـارنا التطوّري: من العزلة الاجتماعية، مع تحول السعي لأجل الطعام والجنس إلى مساعي دقيقة ومتقنة بشكل متزايد.

ينمـو «الهـو» الخاصـة بفرويـد - الوحـش داخـل القبـو - مـن الدمـاغ الزاحفـي، وهو نتاج للتاريخ التطوري مـا قبل المجتمع. بينما «الأنا العليا» - الضمير، بالمعنـى الفضفاض - ابتكار أحدث. وهي مصدر الأنواع المختلفة مـن التثبيـط والذنب المصمم لتقييد الهو بطريقة مربحـة وراثيًا؛ إذ تمنعنا الأنا العليا، على سبيل المثال، من إيذاء أشقائنا أو إهمال أصدقائنا. أما «الأنا» فهي الجـزء الذي في الوسـط. أهدافها النهائية، وإن كانت غير واعية، هي نفسـها أهداف الهو، ومع ذلك فهي تسـعى خلفها وفق حسـابات طويلة الأمد، مع مراعاة لتحذيرات وتوبيخات الأنا العليا.

تم التأكيد على التطابق بين الرؤى الفرويدية والداروينية للصراع النفسي مـن قبـل راندولف نيس والطبيب النفسـي آلان تـ. لويد. فقـد رأوا الصراع بأنه صدام بين مجاميع متناصرة محتربة، صممها التطوّر لمنح التوجيه السـليم، تمامًا كالتوتّر بين فروع الحكومة المصمّمة لتحقيق الحكم الرشيد. إن الصراع الأسـاس - المداولة الأساسـية - يقع «بـين الدوافع الأنانيـة والإيثارية، بين السعي لأجل المتعة والسلوك المعياري، وبين مصالح الفرد والجماعة. تتطابق وظائـف الهو مع النصف الأول من هذه الثنائيـات، بينما وظائف الأنا والأنا العليـا فتتطابق مـع النصف الثاني منهـا»، والحقيقة الأساسـية وراء النصف الثاني من المداولة هي «الطبيعة المؤجلة للمنافع من العلاقات الاجتماعية».

في وصـف هـذا التوتر بين الأنانية قصيرة الأمد وطويلة الأمد، اسـتعمل الداروينيون في بعض الأحيان صورة «القمع». اقترح المحلل النفسي مالكولم سـلافين أن الدوافع الأنانية قد تُقمَع من قبل الأطفال بوصفها وسيلة للبقاء ضمن نِعَم الوالدين - ثم اسـتعادتها بعد لحظات، حينما تمرّ الحاجة إلى المتعة.

آخرون شـدّدوا على قمع النزعات الأنانية تجـاه الأصدقاء. فقد نقمع ذكرى خطايـا بعـض الأصدقاء حتى - وهي خدعة حكيمة بشـكل خاص إذا كان الصديق رفيع المكانة أو قيِّمًا بنحو آخر. ثم يُمكن أن تطفو الذكرى بعد ذلك لاحقًـا إذا رأى المـرء أن حالة الصديق في تدهور أو صار مُسـتحقًا تقييمًا أكثر صراحة لسـبب أو آخـر. وبالطبع فإن حلبات الجنس تشـيع فيها مناسـبات القمـع التكتيكـي. يُمكن للرجل بالتأكيد إقناع المـرأة على نحو أفضل بتفانيه المسـتقبلي إذا لم يكـن مسـتغرقًا في تخيّـل جِماعهـا. حيـث يُمكـن لهـذا الدافع الازدهار لاحقًا، بمجرّد أن تصبح الأرض ملائمة كفاية.

كما ألحظ نيسي ولويد، فالقمع أحد «دفاعات الأنا» العديدة التي صارت جـزءًا من نظريـة فرويد (إلى حد كبير عبر ابنة فرويد آنّا، التي ألفت كتابًا عن دفاعـات الأنا). ويضيفان أن كثيرًا من دفاعـات الأنا الأخرى تبدو مفهومة بالمصطلحات الداروينية. على سبيل المثال، قد يكون «التمثُّل» و«الاستدماج» - اسـتيعاب قيم وسـمات الآخرين، وبضمنهم الآخرين الأقوياء - وسـيلة للتقرّب إلى شـخص رفيع المسـتوى «يوزّع المكانـات والمكافآت على أولئك الداعمين لمعتقداته.» و«التسويغ»، الذي هو اختلاق التفسيرات الزائفة التي تخفي دوافعنا الحقيقية - حسنٌ، هل أحتاج إلى مزيد من التفصيل؟

أخيرًا، ليسـت بطاقة نتائج فرويد سيئة: فقد حدّد (هو وأتباعه) كثيرًا من الديناميكيـات العقلية التي ربما لها جـذور تطورية عميقة. حيث كان محقًا في رؤية العقل بوصفه مكانًا مضطربًا، وأغلبه باطني. ورأى بشـكل عام مصدر الاضطراب: فقد ولِد حيوان متناهي القسوة ضمن شبكة اجتماعية معقّدة لا مهرب منها.

لكن حينما أصبح أقلّ عموميّة من ذلك، صار تشخيصه مضللًا في بعض الأحيـان. فغالبًـا مـا كان يصوّر التوتّـر في مركز الحياة البشريـة بأنه ليس بين الـذات والمجتمـع في جوهـره، بل بين الـذات والحضارة. ففـي كتابه قلق في الحضـارة، وصـف المفارقـة على هـذا النحو: يُدفـع الناس نحـو غيرهم من الآخريـن، ويُطلب منهم كبح نزعاتهم الجنسـية عـبر الانخراط في «علاقات

حب لا تهدف لتحقيق هذه الغاية»، وسؤالهم ليس عن التعايش مع جيرانهم بنحو تعاوني فحسب، بل و«محبّة جيرانهم بمثل محبّة النفس»، ومع ذلك، يلاحظ فرويد أن البشر بسهولة ليسوا كائنات لطيفة: «فجيرانهم بالنسبة إليهم ليسوا معاونين محتملين فقط . . . ولكنهم كذلك أشخاص يغرون المرء على إشباع عدوانيته عليهم، واستغلال قدراته على العمل من دون مقابل، واستخدامه جنسيًا من دون موافقة منه، وحيازة ممتلكاته، وإهانته، وأذيّته، وتعذيبه وقتله. فالرجل ذئبٌ للرجل»، لا عجب أن الناس بائسون للغاية. «في الواقع، كان الإنسان البدائي أفضل حالًا بعلمه أن لا قيود على الغريزة».

تتضمّن هذه الجملة الأخيرة أسطورة ينطوي تصحيحها على كثير من علم النفس التطوري. مضى وقت طويل جدًا منذ تمتّع أي من أسلافنا بـ«انعدام وجود قيود» على هذه «الغرائز». فحتى الشمبانزي عليه الموازنة بين دوافعه الافتراسية ضد حقيقة أن شمبانزيًا آخر يُمكن أن يُمثّل «معاونًا محتملًا»، كما يضع فرويد الأمر، وبذلك يُمكن معاملته بنحو مربح عبر ضبط النفس. ويجد ذكور الشمبانزي (والبونوبو) دوافعهم الجنسية محبطة من جانب الإناث المطالبات بالطعام وغيرها من الخدمات مقابلًا لممارسة الجنس. في سلالتنا، مع توسيع الاستثمار الأبوي المتزايد لهذه المطالب، يجد الذكور أنفسهم في مواجهة «قيود» واسعة النطاق على الدوافع الجنسية قبل أن تجعل الأعراف الثقافية الحديثة من الحياة أصعب.

القصد أن القمع والعقل اللاواعي هما نتاج ملايين السنين من التطور وأنّهما تطوّرا تمامًا قبل وقت طويل من قدوم الحضارة وتعقيدها للحياة العقلية. يتيح لنا الأنموذج الجديد التفكير بوضوح في كيفية تصميم هذه الأشياء على مدى ملايين السنين. وتخبرنا نظريات انتقاء الأقارب، صراع الآباء والأبناء، الاستثمار الوالديّ، وهرميّة المكانة أي أنواع الخداع الذاتي يُحتمل أن يُفضّلها التطور أو لا يُحتمل. لو بدأ فرويديّو اليوم في أخذ هذه التلميحات وإعادة صياغة أفكارهم وفقًا لها، ربما سيُمكنهم إنقاذ اسم فرويد من الكسوف الذي سيعانيه على الأرجح لو تركت هذه المهمّة للداروينين حصرًا.

الخلاصة أن الفكرة الداروينية عن اللاوعي أكثر راديكاليّة من الفرويدية. فمصادر خداع الذات أكثر عددًا وتنوعًا ومتجذرة بعمق، والخط الفاصل بين الوعي واللاوعي أقلّ وضوحًا. وصف فرويد الفرويدية بأنها محاولة «للإثبات أمام "أنا" أي أحد منّا أنه ليس سيّدًا حتى على بيته، بل عليه أن يظلّ راضيًا عن أصدق قصاصات المعلومات بشأن ما يحدث من دون وعي في ذهنه»، وعبر الأضواء الداروينية، تكاد هذه الصياغة تمنح كثيرًا من الفضل إلى «الذات». حيث يبدو أنها تشير بنحو آخر إلى كيان عقلي واضح الرؤية يتعرّض للخداع بطرق مختلفة. بالنسبة إلى عالم النفس التطوري، يبدو الوهم رائجًا لدرجة أن منفعة التفكير بشأن أي جوهر متميّز للصدق هي موضع شك.

الحقّ أن الطريقة المنطقية للتفكير بشأن العلاقة بين أفكارنا ومشاعرنا من جهة وسعينا لتحقيق الأهداف من أخرى ليست خاطئة فحسب، بل ورجعيّة. إذ نميل للتفكير في أنفسنا بوصفها مصدرًا للأحكام ثم نتصرّف وفقًا لذلك: حيث «نُقرّر» هويّة الشريف ثم نُطري عليه؛ «ونكشف» المُخطئ قبل مُعارضته. وإلى هذه الصورة سيُضيف فرويد امتلاكنا غالبًا أهدافًا غير مُدركة، أهدافٌ قد نسعى وراءها بطرق غير مباشرة، بل وعكسية حتى - وإن تصوّرنا للعالم قد يتشوّه في أثناء هذه العملية.

ولكن إذا كان علم النفس التطوري على المسار الصحيح، فيجب قلب الصورة بأكملها رأسًا على عقب. إننا نؤمن بالأشياء - المتعلقة بالقيمة الأخلاقية الشخصية، وحتى بالحقيقة الموضوعية - التي تؤدي إلى سلوكيات من شأنها تمرير جيناتنا إلى الأجيال اللاحقة. (أو نؤمن على الأقل بأنواع الأشياء التي من شأنها نقل جيناتنا، في بيئاتنا التطوّرية، إلى الجيل اللاحق)، إن الأهداف السلوكية - المكانة، والجنس، والتحالفات الفعّالة، والاستثمار الوالديّ، وغيرها - هي من تظلّ راسخة حينما تُعدّل نظرتنا للواقع كي تُلائم هذه الثباتية. وما في مصلحتنا الجينية هو ما يبدو «صائبًا» - صائبٌ

أخلاقيًا وموضوعيًا، أيًا كانت صرامة النظام. باختصار: إذا شدد فرويد على صعوبة رؤية الناس لحقيقة أنفسهم، فالداروينيّون الجدد يُشدّدون على صعوبة الرؤية والحقيقة والفترة. في الواقع، تقترب الداروينية من التشكيك في معنى عبارة حقيقة بحد ذاتها. فالمداولات الاجتماعية التي يُفترض بها أن تؤدي إلى الحقيقة - المداولة الأخلاقية والسياسية وحتى الأكاديمية في بعض الأحيان - بحسب الأضواء الداروينية، صراعات خام على السلطة. إذ سيبرز الفائز، ولكن ليس هناك سبب للاعتقاد بأن الفائز مُحِقٌّ بالضرورة. ربما بدت التشاؤمية، التي تتجاوز التشاؤمية الفرويدية عمقًا، صعبة التخيّل يومًا، ولكن ها هي ذي.

لا يملأ هذا النوع من التشاؤمية الداروينية فراغًا ثقافيًا شاسعًا بالضبط. إذ ينظر كثير من الأكاديميين الطليعيين - مثل المنظّرين الأدبيين «التفكيكيين» والأنثروبولوجيّين وأتباع «الدراسات القانونية النقدية» - بالفعل إلى التواصل البشري كـ«تداول للسلطة». يؤمن كثيرون بالفعل فيما تؤكده الداروينية الجديدة: أن في الشؤون الإنسانية، كُلُّ شيء (أو الأغلب على الأقل) عبارة عن خداع، تلاعُب خادمٌ للذات في الصورة. ويُساعد هذا الإيمان بالفعل على تغذية رافدٍ مركزي لحالة ما بعد الحداثة: القابلية القوية لأخذ الأمور على محمل الجد. فالوعي الذاتي المثير للسخرية صار موضة اليوم. والبرامج الحوارية الحديثة ذات مرجعية ذاتية إلى حد كبير، مع نكات عن بطاقات تذكير مكتوبة على بطاقات تذكير، وكاميرات تلتقط كاميرات، وميل عام ناحية تقويض البنية لنفسها. وصارت الهندسة المعمارية تدور حول العِمارة، إذ يدمج معماريّو اليوم بشكل طريف، ومُتعالٍ أحيانًا، عناصر من حقب مختلفة في هياكل تدعو للضحك. وما يجب تجنّبه بأي ثمن في عصر ما بعد الحداثة هي الجديّة التي تنمّ عن سذاجة محرجة.

وفي حين جلبت التشاؤمية الحديثة اليأس بشأن قدرة الجنس البشري على إدراك المُثُل الجديرة بالثناء، فإن تشاؤمية ما بعد الحداثة ليس كذلك - ليس لما فيها من تفاؤلية؛ بل لأنها لا تستطيع أخذ المُثُل على محمل الجد في المقام

الأول. فالموقف السائد هو العبثية. ربما تكون مجلّة ما بعد الحداثة موقّرة، ولكن لا مرارة فيها؛ فهدفها عشوائي؛ لأن الجميع سخفاء على حد سواء. وعلى كل حال، لا قاعدة أخلاقية هناك لأجل إصدار الأحكام. اجلسْ في المؤخرة واستمتعْ بالعرض فقط.

من الممكن أن الموقف ما بعد الحداثي قد استمدّ بالفعل بعض القوّة من الأنموذج الداروينـي الجديد. حيث بدأت البيولوجيا الاجتماعية، مهما كان مدى ضيق قابلية استقبالها في الأوساط الأكاديمية، تتسرّب إلى الثقافة الشعبية قبل عقدين من الزمن. وعلى أي حال فإن التقدّم المستقبلي للداروينية قد يقوّي المزاج ما بعد الحداثي. ويُمكن للعلماء التفكيكيين وعلماء القانون النقدي في الأوساط الأكاديمية بالتأكيد إيجاد كثير مما يُعجبهم في الأنموذج الجديد. أمّا خارج الأكاديميّة بالطبع فأحد ردود الفعل المعقولة على علم النفس التطوّري هو الوعي الذاتي الحاد للغاية والتشاؤميّة العميقة للغاية، بحيث يوفّر الانفصال الساخر عن المشروع البشري بأكمله الراحة الوحيدة إلى حد ما.

وهكذا فقد يبدو السؤال الصعب عمّا إذا كان الحيوان الإنساني يُمكن أن يكون أخلاقيًا - السؤال الذي تميل التشاؤمية المعاصرة إلى استقباله بيأس - طريفًا بنحو متزايد. بَيْد أن السؤال قد يكون، بعد تجذّر الداروينية الجديدة، عمّا إذا كانت العبارة «أخلاق» مَحْض نكتة.

الفصل السادس عشر

الأخلاقيات التطورية

«فَسَـلَفُنا بذلـك هـو أصـل أهوائنا الشريـرة!! - حيث الشـيطان المُتمثّـل بالبابون جدّنا».

دفتر الملاحظات M.

«هو سؤال آخر عمّا يُرغَبُ بتدريسه، - والجميع اتفق أنها المنفعة العامّة».

ملاحظات قديمة وعديمة القيمة (غير مؤرّخة).

في العـام ١٨٧١، بعد ١٢ عامًا مـن صدور أصل الأنواع، أصدر داروين كتاب أصل الإنسـان، والذي عـرض فيه نظريته عن «المشـاعر الأخلاقية». هو لم يصدح بشـأن الآثار المُقلقة للنظرية؛ إذ لم يُشـدّد على أن حس الصواب والخطأ، والذي يبدو كأنما مُرسـلٌ من السماء، ويستمدّ قوته من هذا الشعور، نتـاجٌ عشـوائي لماضينـا التطـوّري العجيـب. إلّا أن الكتـاب بـيَّنَ في بعـض المواضـع بالفعـل جـوًا من النسـبية الأخلاقيـة. إذ كتب داروين أن في حال تشكيل المجتمع البشري على غرار مجتمع النحل، فـ«لا يُمكن أن يوجد شك

بأن إناثنا غير المتزوّجات، كحال النحلات العاملات، سيعتَقِدْن أن قتلهنّ لأخوتهن واجبٌ مقدّس، في حين ستكافح الأمهات لقتل بناتهنّ الخصبات؛ من دون أن يفكّر أحد بكبحهنّ عن ذلك».

مؤكّـدٌ أن بعضهم وصلتهم الصورة. فقد لاحظت مجلة أدنبرة أن في حال كانـت نظريـة داروين صحيحة، سـيتحتّم عـلى «أكثر الرجـال جديّة التخلي عـن هذه الدوافع التـي حاولوا عبرها العيش بنبل وفضيلـة، بعدّها وجدت صُدفـة؛ وحِسّـنا الأخلاقي سـيتبيّن أنه مجرد غريزة متطـوّرة. ... لو صحّت هذه الرؤى، معنى ذلك أن هناك ثورة فكرية وشيكة ستهزّ أساسات المجتمع عبر تدمير قدسية الضمير والحس الديني».

وعـلى الرغم مما في هذا التوقع من انبهـار، إلّا أنه ليس ببعيـد للغاية عن الصحّـة. فقـد تضاءل الحـس الديني بالفعل، ولا سـيما بين المثقفـين، الذين يقرأون اليوم المكافئات المعاصرة لصحيفة أدنبرة. ولا يبدو أن الضمير يحمل ذات العـبء الذي اعتاد الفيكتوريون حمله. وبين الفلاسـفة الأخلاقيين، لا يوجـد اتفاق قريب بشـأن الوجهـة التي علينا الالتفات لها بغية اسـتخلاص القيـم الأخلاقيـة الأساسـية - ربـما باسـتثناء اللامـكان. ليـس مـن المبالغة جدًا القول: أن الفلسـفة الأخلاقية السـائدة في كثير من أقسـام الفلسـفة هي العدميـة. ويُمكن أن يعزى قـدر ضخم، وإن لم يكن معروفًا، من كل هذا إلى الضربة الأولى التي وجهها داروين: هجوم أصل الأنواع على التفسير الكتابي للخلق، متبوعًا بشكوك أصل الإنسان عن مكانة الحس الأخلاقي.

لـو كانـت الداروينيـة القديمـة قـد اسـتنزفت بالفعـل القـوة الأخلاقية للحضارة الغربية، فما الذي سـيحصل لو سـاد الأنمـوذج الجديد بالكامل؟ لقد أفسـحت تكهنات داروين المشـتّتة في أحيان بشـأن «الغرائز الاجتماعية» المجال للنظريات الراسـخة منطقًا وحقيقةً، نظريات الإيثـار المتبادل وانتقاء الأقارب. ولم يتركوا مشاعرنا الأخلاقية تُعامل كما لو أنها مُنزّلة من السماء كما في السـابق. إن الإشفاق والتعاطف والرِفق والضمير والذنب والندم وحتى الحس بالعدالة، ذلك الشـعور بأن الأخيار يسـتحقون المكافأة، بينما يسـتحق

المسيئون العقاب - كل تلك يُمكن أن تُرى الآن بعدّها بقايا لتاريخ عضوي على كوكب معيّن.

إضافة إلى ذلك، لا يُمكننا تعزية أنفسنا، كما سبق لداروين، عبر الاعتقاد خطأً أن هذه الأشياء قد تطوّرت لأجل الصالح العام، أو «صالح الجماعة». فحدْسنا السماوي بشأن تمييز الصواب عن الخطأ ما هو إلّا سلاح صُمِّم للمعارك اليوميّة اليدوية بين الأفراد.

وليست المشاعر الأخلاقية هي الواقعة الآن في دائرة الشبهات فقط، بل والخطاب الأخلاقي بأكمله كذلك. ففي ضوء الأنموذج الدارويني الجديد، ليس القانون الأخلاقي سوى تسوية سياسية. إذ تشكّل من قبل جماعات متصارعة على المصالح، كلٌ منها يستغلُّ نفوذه كاملًا. وهذا هو المعنى الوحيد الذي يُمكن تمييزه حيث تهبط القيم الأخلاقية من عليائها، كونها تشكّلت من مختلف أجزاء المجتمع وبنسب متفاوتة حسبما تكمن القوّة.

إذن، أين يتركنا هذا؟ وحيدون في كون بارد من دون جيروسكوب أخلاقي وبلا أي فرصة للعثور على واحد، مُجرّدون من أي أمل؟ هل يُمكن ألّا يكون للأخلاق معنى بالنسبة إلى الشخص المفكر في عالم ما بعد دارويني؟ هذا سؤال عميق وقاتم لن يُمَحَّصَ في هذا الكتاب (وقد يريح القارئ سماع هذا). ولكننا قد نحتمل على الأقل عناء معرفة كيفية تعامل داروين مع مسألة المعنى الأخلاقي. فعلى الرغم من غياب إمكانية الولوج إلى الأنموذج الجديد بالنسبة إليه، مع عناصره المحبطة العديدة بما يتجاوز الطبيعي، فقد اكتشف مؤكدًا، بذات التأكيد مع مجلة أدنبرة، الانحراف المربك أخلاقيًا للداروينية. وعلى الرغم ذلك استمر باستعمال العبارات جيد وسيئ، صائب وخاطئ، بحرج بالغ. كيف استمر داروين في أخذ الأخلاق على محمل الجد؟

منافسون محكوم عليهم بالفشل

بينما كانت الداروينية تتقدّم، ومخاوف مجلّة أدنبرة تسود، سارع عدد من المفكّرين لتجنّب انهيار كافّة الأسس الأخلاقية. كثير منهم تجنّبوا تهديد التطوّرية للدين والتقاليد الأخلاقية بمناورة يسيرة: إذ أعادوا توجيه رهبتهم الدينية ناحية التطوّر نفسه، محوّلين إياها إلى معيار للصواب والخطأ. وقالوا: إن لرؤية المطلق الأخلاقي نحتاج النظر إلى العملية التي خلقتنا فحسب؛ فالطريقة «الصائبة» للتصرف هي بالتماشي مع التوجهات الأساسية للتطور: علينا جميعًا السباحة مع التيار.

ما هذا التيار بالضبط؟ تباينت الآراء. ركزت إحدى المدارس التي سميت لاحقًا بالداروينية الاجتماعية على قسوة الانتقاء الطبيعي مع إبداعه النهائي في التخلص من غير الصالح. يبدو المغزى من القصة أن المعاناة تخدم تقدّم البشر كما هو الحال بالنسبة إلى التاريخ التطوري. وتأتي نسخة اقتباسات بارتليت المألوفة عن الداروينية الاجتماعية من هربرت سبنسر، الذي يُنظر له عمومًا بأنه والدها: «إن فقر غير الأَهلين، والمحن التي تصيب الحمقى، والجوع الذي يحلّ بالعاطلين، والضعاف المقصيّين بسبب الأقوياء، ما يترك كثيرين في كربة ومحنة، بمثابة أحكام تنطوي على إحسان كبير وبعيد المدى».

في الواقع، كتب سبنسر ذلك عام ١٨٥١، أي قبل ثماني سنوات من صدور أصل الأنواع. وفي هذا الشأن، أحسَّ كثيرون أن الكسب بعد الألم هو الطريق الطبيعي. وكان هذا جزءًا من إيمان السوق الحرة الذي أوصل إنجلترا لتقدّمها المادّي السريع. إلّا أن نظرية الانتقاء الطبيعي، في نظر كثير من الرأسماليين، أعطت هذه النظرة مقدارًا مُضافًا من التوكيد الكوني. يقول جون د. روكفلر أن اضمحلال الشركات الضعيفة في الاقتصاد غير المدعوم حكوميًا كان «نتيجة لعمل قانون الطبيعة وقانون الرب».

وجد داروين أن الافتراضات الأخلاقية الفجّة لنظريته مثيرة للسخرية. حيث كتب إلى لايل: «لقد لاحظت في إحدى صحف مانشستر سخافة جيّدة إلى حد ما، مُبيّنة أنّي قد أثبتُّ مبدأ 'القوّة على صواب' ولذا فإن نابليون

على صواب وكل تاجر محتال على صواب كذلك». وفي هذا الشأن، كان سبنسر نفسه ليَتنصّل من هذه السخرية اللاذعة. فهو لم يكن قاسيَ القلب مثلما توحي أقواله الأقسى، ولا بالقسوة التي يُستذكر بها اليوم. فقد ركز كثيرًا على حسن الإيثار والتعاطف، وكان واحدًا من دعاة السلام.

توضح الكيفية التي وصل بها سبنسر لمثل هذه القيم الألطف والأرق طريقة ثانية لاكتشاف «تيار» التطوّر. والفكرة كانت في النظر إلى اتجاه التطوّر بوصفه مصدرًا للتوجيه، لا إلى ديناميكيته فقط؛ فلمعرفة كيف على البشر التصرّف، علينا أولًا السؤال عن أي النهايات يتّجه ناحيتها التطور.

هناك طرق مختلفة لإجابة هذا السؤال. إحدى الأجوبة المشتركة بين البيولوجيين اليوم هي أن نهاية التطّور غير قابلة للإدراك. اعتقد سبنسر، على أي حال، أن التطوّر ميّال إلى تحريك الأنواع صوب بلوغ حياة أطول وأريح وتأمين تربية عدد أكبر من الذرية. إذن فَمهمتنا كانت تغذية هذه القيم. وسبيل تحقيق ذلك عبر التعاون مع بعضنا وأن نكون لطفاء - كي نحيا في «مجتمعات دائمة السِلم».

كل ذلك الآن مرمي في مزبلة التاريخ الفكري. ففي عام ١٩٠٣، هاجم الفيلسوف جورج إدوارد مور بنحو حاسم فكرة استخلاص القيم من التطوّر أو من شتّى جوانب الطبيعة المرصودة. وقد وصف هذا الخطأ بـ«المغالطة الطبيعية»، ومنذ ذلك الحين، بذل الفلاسفة جهدهم كي يتجنبوا هذه المغالطة.

لم يكن مور أول من شكك في استدلال ما يُراد للشيء أن يكونه عمّا هو عليه بالفعل. فقد سبقه جون ستيوارت مِل إلى ذلك ببضعة عقود. كان رفض مِل للمغالطة الطبيعية، الأقلّ تقنية وأكاديمية مقارنة بمور، أكثر إقناعًا. ومفتاحه التعبير بوضوح عن الافتراض غير المعلن عادة والكامن وراء محاولات استخدام الطبيعة بصفتها مُرشدًا للسلوك الصحيح: بمعنى أن الطبيعة قد خلقها الله وبذلك يجب أن تجسد قيمه. وليس أي إله فقط، كما يضيف مِل. حيث إن لم يكن الله خَيِّرًا مثلًا، فلماذا نُكرّم قيمه؟ وإذا كان خَيِّرًا، لكنه ليس

كلي القـدرة، فلماذا نفترض نجاحه في ترسـيخ قيمه بدقة داخـل الطبيعة؟ لذا فإن السـؤال عمّا إذا كانت الطبيعة تستحق المحاكاة العباديّة يتلخص في مسألة ما إذا كانت الطبيعة تبدو وكأنها عمل يدوي لإله خَيِّرٍ وكلي القدرة.

كانـت إجابة مِل: هل تمزح؟ في مقالة بعنوان «الطبيعة»، كتب أن الطبيعة «تخـوزق الرجـال وتحطّمهم كما لـو كانوا مشـدودين إلى عجلة، ثـم ترميهم إلى براثـن الوحـوش البريّـة، تحرقهـم حتى المـوت، تحطمهـم بالصخور كما أول شـهيد مسيحي، تجوّعهم وتُجمِدهم وتُسـمّمهم بسموم سريعة أو بطيئة تزفرهـا، ولهـا المئات من الميتات البشـعة الأخرى التـي تدّخرها»، وألحظ أن كل ذلك تفعلـه بـ«أكبر قدر من التغطرس والاسـتخفاف بالرحمة والعدالة، مُنْزِلـة عذابها على الأفضل والأنبل بلا تمييز لصالح الأخسّ والأسـوأ.... لو كان هناك أي علامات على الإطلاق عن تصميم خلقي خاص، فإحدى أكثر التصاميـم جـلاءً هي وجوب إمـرار الحيوانات جميعًـا لوجودها عبر تعذيب والتهـام الحيوانات الأخرى»، وعلى أي شـخص، «مهـما كان نوع العبارات الدينية التي يستعملها،» الإقرار «أن لو كان كلٌّ من الطبيعة والإنسان عملين لكيـان كُلي الطيبة، فـإن ذلك الكيان يقصد للطبيعـة أن تكون مُخَطَّطًا واجب تعديله، لا تقليده، من قبل الإنسـان»، ولا النظـر إليه، كما اعتقد مِل، بصفته مُرشدًا للحس الأخلاقي، أداة «لتقديس كافّة التحيّزات المُترسّخة».

كتب مِل أن مقال «الطبيعة» كُتب قبل أصل الأنواع (على الرغم من نشره لها بعده)، ولم يُفكر في احتمال أن تكون المعاناة ثمنًا مدفوعًا للخلق العضوي. ومـع ذلك، يظل السـؤال القائـم: إن كان الرب كُلي الطيبـة والقدرة، فلم لا يسـتطيع خلق عمليـة إبداعية غير أليمة؟ رأى داروين نفسـه، على أي حال، الألم الهائل في العالم بوصفه عاملًا ضد المعتقدات الدينية الشائعة. في ١٨٦٠، العام الذي تبع صدور أصل الأنواع وقبل وقت طويل من صدور «الطبيعة» لمِل، كتب في رسـالة إلى آسـا غراي: «لا أسـتطيع رؤية دليل عـلى تصميم أو إحسـان في كافّة الجوانب خاصتنا بذات الوضوح الذي يستطيعه الآخرون، ولا بالقـدر الـذي ينبغـي عليّ. يبـدو لي أن هنـاك كثيرًا من البـؤس في العالم. ولا أسـتطيع إقنـاع نفسي بـأن إلهًا صالحًـا وكلّي القدرة كان سـيُصمّم ويخلق

النمسيات [دبابير طفيلية] بقصد صريح وهو التغذية على أجسام اليساريع الحيّة، أو أن يجبل القطّة اللعب بالفئران».

أخلاقيات داروين ومِل

لم يكتف داروين ومِل برؤية المشكلة وفق المصطلحات نفسها فقط؛ بل رأوا الحل بذات المصطلحات أيضًا. فقد آمن الاثنان أن في كون ليس فيه إلهٌ حسب علمنا، تُمثّل النفعية إحدى المصادر المعقولة للبحث عن الإرشاد الأخلاقي. وقد فعل مِل بالطبع ما هو أكثر من تأييد النفعية. فقد كان أول المروّجين لها. في ١٨٦١، أي بعد عامين من صدور «عن الحرية وأصل الأنواع»، نشر سلسلة من المقالات في مجلة فرايزر تُعرف اليوم بعنوان واحد هو النفعية، وقد أصبحت الدفاع الكلاسيكي لهذه العقيدة.

فكرة النفعية سهلة: إذ إن المبادئ التوجيهية الأساسية للخطاب الأخلاقي هي المتعة والألم. يُمكن تسمية الأشياء بالجيدة طالما أنها تنشر السعادة في العالم وسيئة طالما تزيد المعاناة. والغرض من القانون الأخلاقي تحقيق أقصى قدر من السعادة الإجمالية للعالم. وقد جادل داروين ضد هذه الصيغة. حيث ميّز بين «الصالح العام ورفاهية المجتمع»، وبين «السعادة العامّة»، وتبنّى الأولى، لكنه اعترف بعدها أنه طالما «السعادة جزء أساس من الصالح العام، فمبدأ السعادة الأكبر يخدم بشكل غير مباشر بوصفه معيارًا شبه آمن للصواب والخطأ»، بذلك كان نفعيًا لغايات عملية. وكان من أشدّ المعجبين بمِل، لفلسفته الأخلاقية وليبراليّته السياسية على حد سواء.

إحدى فضائل نفعية مِل في عالم ما بعد الداروينية هي الأدْنوية. إذ لو كان من الصعب الآن العثور على أساسات للتأكيدات عن القيم الأخلاقية الأساسية، فمن المفترض أنه كلما كانت التأكيدات الأساسية أقل وأيسر، كلما كان أفضل. يتكون أساس المذهب النفعي إلى حد كبير من التأكيد السهل عن أن السعادة، عند تساوي كل ما عداها، أفضل من التعاسة. من يستطيع الجدال ضد ذلك؟

ستُدهش. فبعض الناس يعتقدون أن حتى هذا الزعم الأخلاقي المعتدل

ظاهريًا هو استنتاج غير مبرر لاستدلال ما يُراد للشيء أن يكونه عمّا هو عليه بالفعل - أي عن أن من حقائق العالم الواقعي حب الناس للسعادة. وجورج إدوارد مور نفسه يجادل بالقدر نفسه عن هذا الشأن (على الرغم من تتبّع الفلاسفة الآخرين لاحقًا لشكوى مور ليتبيّنوا أن سببها كان إساءة فهم مِل).

صحيح أن مِل صاغ أحيانًا حجته بطريقة تستدعي مثل هذا النقد. إلّا أنه لم يُصرّح قط بأنه «أثبت» أخيرًا بشكل تامّ خير اللذّة وشر الألم؛ فقد آمن بـ«المبادئ الأولى» غير القابلة للإثبات. وأتّبَع حجته بخطوط أكثر اعتدالًا وواقعية. تألف أحدها من القول بشكل أساس: لنواجه الأمر، جميعنا مؤيّدون جزئيًا على الأقل للنفعية؛ لكنّ بعضًا منا لا يستخدم هذا المصطلح فحسب.

بادئ ذي بدء، جميعنا يدير حياته كما لو كانت السعادة غاية اللعبة. (حتى من يُبالغون في إنكار الذات يفعلون ذلك عادة باسم السعادة المستقبلية، سواء أفي الدنيا أم في الآخرة)، وبمجرّد اعترافنا جميعًا بذلك، سنجد سعادتنا الخاصة جيدة من بعض النواحي الأساسية، شيء لا ينبغي الدوس عليه دونما سبب، ويصبح من الصعب إنكار ادعاء يتفق عليه الجميع من دون أن يبدو المُنكِر متغطرسًا إلى حد ما. في الواقع لقد اعتُرِفَ بهذه النقطة على نطاق واسع: حيث يتّفق الجميع - باستثناء السايكوباثيّين الذين يعدّهم بقيتنا منارات أخلاقية سيئة - على أن السؤال عن كيفية تأثير أفعالهم على سعادة الآخرين جزء مهم من التقييم الأخلاقي. ربما تؤمن بأي عدد من الحقوق المطلقة (الحرية مثلًا) أو الواجبات (لا تغشّ أبدًا). ربما تفكر في هذه الأشياء بعدّها مُنسّقة إلهيًا، أو مُضمّنة في الفطرة بدقّة متناهية. ربما تعتقد أنهم دائما ما يتحكّمون - «الأوراق الرابحة» مثلما يدعوها بعض الفلاسفة - بالحجج النفعية فقط. لكنك لا تعتقد أن الحجج النفعية غير ذات صلة؛ فأنت توافق ضمنيًا على أنهم سينتصرون في حالة عدم امتلاكك بطاقتك الرابحة.

إضافة إلى ذلك، عند التعرض للضغط، من المحتمل أن يظهر لديك ميل لتسويغ أوراقك الرابحة من الناحية النفعية. فقد تجادل على سبيل المثال بأنه حتى لو أدى الغش العرضي المنعزل بطريقة ما إلى زيادة الرفاهية الإجمالية على المدى القصير، فمن شأن الغش المنتظم تقويض النزاهة، وبذلك سواد

الفوضى الأخلاقية في نهاية المطاف على حساب الجميع. أو بالمثل، بمجرّد حرمان حتى أصغر المجاميع من الحرية، لن يشعر أحد بعدها بالأمان. إن هذا النوع من المنطق المُتضمن - خزانة النفعية - غالبًا ما يظهر عند استخلاص المنطق الكامن وراء «الحقوق» الأساسية. كتب مِل أن «مبدأ السعادة الأعظم كان له نصيب كبير في تشكيل العقائد الأخلاقية لأولئك الذين يرفضون سلطتها بازدراء. ولا توجد هناك أي مدرسة فكرية ترفض الاعتراف بأن تأثير الأفعال على السعادة مادّي في غالبه والاعتبار الأكثر سوادًا في كثير من تفاصيل الأخلاقيّات، مهما كان انعدام الرغبة في الاعتراف بها بوصفها مبدأً أساسيًا للأخلاق ومصدرًا للالتزام الأخلاقي».

توضح الحجج المذكورة أعلاه لـ«البطاقات الرابحة» حقيقة قُدِّرَت حق تقديرها: يُمكن للنفعية أن تكون أساس الحقوق المطلقة والواجبات. حيث يُمكن للنفعي الدفاع بشراسة عن القيم «غير القابلة للانتهاك» طالما أن انتهاكها سيؤدي بنحو معقول إلى مشاكل كبرى على المدى الطويل. ومثل هذا النفعي هو نفعي «قاعدة»، كما مِل على ما يبدو، بدلًا من أن يكون نفعي «فعل». مثل هذا الشخص لا يسأل: ما هو تأثير فعلتي الفلانية اليوم على السعادة الكليّة للبشرية؟ بل يسأل بدلًا من ذلك: ما هو التأثير الناتج لو فعل الناس دائمًا كذا وكذا في ظل ظروف قابلة للمقارنة، بوصفها قاعدة؟

إن الإيمان بصلاح السعادة وشر المعاناة ليس مجرد جزء أساس من الخطاب الأخلاقي الذي نتشاركه. بل يبدو أنه، بنحو متزايد، الجزء الأساسي الوحيد الذي نتشاركه. وبذلك ينتج التشظّي، حيث يسعى أُناس مختلفون وراء حقائق مختلفة منقولة إلهيًا أو تبدو بدهية. لذا، إن كان القانون الأخلاقي بالفعل قانونًا للمجتمع بأكمله، فإن التفويض النفعي - السعادة صالحة، والمعاناة شريرة - يبدو الأساس الأكثر عملية، إن لم يكن الوحيد، للخطاب الأخلاقي. فهو القاسم المشترك للنقاش، والمقدمة الوحيدة التي يستند إليها الجميع. هو كلّ ما تبقى لدينا فحسب.

يُمكنك بالطبع النبش بحثًا عن بعض الأشخاص الذين لن يذهبوا إلى ذلك الحد؛ ربما إن استشهدوا بالمغالطة الطبيعية، سيصرّون على عدم وجود ما

هو جيد في السعادة. (وجهة نظري أن صلاح السعادة في الحقيقة قيمة أخلاقية لا تتأثر بالمغالطة الطبيعية. والمساحة هنا لا تُرخّص بشكل ملائم الدفاع عن طول الأطروحة التي يتطلّبها هذا الادعاء). قد يقول بعضهم الآخر: إنه على الرغم من كون السعادة جيّدة، إلّا أنهم لا يعتقدون بوجود شيء مثل قانون أخلاقي متوافق عليه. وذلك حقهم. فهم أحرار بالانسحاب من الخطاب الأخلاقي، وما ينتج عن القانون غير ملزمين به ولن ينتفعوا بمزاياه. ولكن لو اعتقدت أن فكرة القانون الأخلاقي العام منطقية، ورغبت في أن تُقبل على نطاق واسع، فمقدمة النفعية تبدو نقطة انطلاق منطقية.

ومع ذلك فالسؤال الواجب: لماذا يجب أن نملك قانونًا أخلاقي؟ إذ حتى مع قبول أساس النفعية – صلاح السعادة – ربما تسأل: لماذا على أي منا شغل نفسه بسعادة الآخرين؟ لماذا لا ندع الجميع يقلقون بشأن سعادتهم الخاصّة فقط – والتي يبدو على أي حال أنها الشيء الوحيد الذي يمكنهم الاعتماد بدرجة ما على تحقيقه؟

ربما تكون أفضل إجابة لهذا السؤال إجابةٌ عمليّة تمامًا: بفضل صديقنا القديم ذي المحصلة اللاصفرية، يُمكن لسعادة أي أحد، من حيث المبدأ، الارتفاع في حال عامل الجميعُ الجميعَ بلطف. امتنع عن غشّي أو إساءة معاملتي، وسأمتنع عن غشك أو إساءة معاملتك؛ حيث سنكون جميعًا بحال أفضل مما لو كنا في عالم خالٍ من الأخلاق؛ لأنه في مثل ذلك العالم، ستلغي إساءة المعاملة المتبادلة نفسها تقريبًا على أي حال (بافتراض أن أيًا منا ليس شريرًا أكفأ من الآخر). وإبّان ذلك سيتحمّل كلانا تكلفة إضافية تتمثّل بالخوف والحذر.

لوصف هذه النقطة بطريقة أخرى: الحياة مليئة بالحالات التي يُمكن أن يؤدي فيها الإنفاق الطفيف من جانب امرئ ما إلى فوائد جمّة لصالح امرئ آخر. فعلى سبيل المثال: أمسك بابًا لأجل شخص يسير خلفك مُقبل على الدخول. إن مجتمع يُمسك كافة أفراده الباب لأجل السائرين خلفهم هو مجتمع يكون فيه الجميع أفضل حالًا (بافتراض أن لا أحد منا لديه ميل غريب للسير عبر الأبواب أمام الآخرين من دون هدف). لو أمكنك إنشاء

هـذا النـوع من أنظمـة المراعاة المتبادلـة - نظام أخلاقي - فإن الأمر يسـتحق العناء من وجهة نظر الجميع.

في ضـوء ذلـك، يُمكن إيجاز حجة الأخـلاق النفعية: إن النفعية المُمارسـة على نطاق واسـع تَعِد بجعـل الجميع أفضل حالًا؛ وبقدر ما نسـتطيع القول، فإن هذا هو ما يريده الجميع.

اتّبـع مِـل منطق المحصلـة اللاصفرية (مـن دون استعمال للمصطلح، أو حتـى وضوح بشـأن الفكرة) حتى نهايتهـا المنطقيـة. إذ أراد تحقيق أقصى قدر من السـعادة الإجمالية؛ والسـبيل لتعظيمها عبر استعداد الجميع للتضحية. إذ ليس عليك مسك الباب للآخرين فقط حينما يكون ذلك سهلًا للغاية وموفرًا لكثير من المتاعب لهم. بل عليك بإمسـاك الباب متى مـا كانت المتاعب التي تتكبّدها أقلّ بأيّ نحو من تلك التي توفرها على غيرك. عليك باختصار عيش حياتك مراعيًا لرفاهية الجميع بقدر مراعاتك لرفاهيتك أنت.

إن هـذه العقيـدة راديكالية. إذ معروف عمّـن اعتنقها تعرضهم للصلب. كتـب مِـل: «في القاعـدة الذهبيـة ليسـوع النـاصري، نقـرأ الـروح الكاملـة لأخلاقيـات النفعيـة. أن تعاملِ الآخرين كما تُحب لنفسـك، وأن تحبّ جارك بقدر محبّتك لنفسك، فذلك يمثّل الكمال الأنموذجي للأخلاق النفعية».

داروين والحب الأخوي

مـن المفاجئ لنا رؤية مثـل هذه الفكرة الدافئة الطريّة - الحب الأخوي - وهـي تنبثق من اصطلاح بارد وسريري كـ«النفعية». لكن لا ينبغي للأمر أن يكـون كذلك. فالحـب الأخوي مُضمّن في الصيغ القياسـية للنفعية - أقصى قـدر من السـعادة الكلية، أعظم قدر من الخير لأكبر عـدد من الناس. بعبارة أخـرى: لسـعادة الجميع أهميّة متسـاوية؛ أنت لسـت مُفضَّـلًا، وليس عليك التـصرّف كـما لو أنّـك مُفضّل. وهـذا هو الافتراض التأسـيسي الثـاني الذي يعوزه الوضوح لحجة مِل. فمنذ البداية أكد على أن السـعادة ليسـت صالحة فقط، بل ولا أفضلية لسعادة شخص على آخر.

يصعب تخيّل تشديد يهاجم بشكل مباشر القيم المتضمّنة في الطبيعة أكثر من هذا. فلو كان هناك شيء واحد «يريد» الانتقاء الطبيعي منا تصديقه، فهو أن سعادتنا الشخصية مميّزة من دون غيرها. وهذا هو الجيروسكوب الأساس الذي أوجده فينا؛ إذ في السعي وراء الأهداف التي تَعِدُ بإسعادِنا، إنّما سنُعظِّم نشر جيناتنا (أو نمتلك على الأقل فرصة جيّدة لذلك في بيئة الأجداد). تجاهل قليلًا حقيقة أن السعي وراء الأهداف التي تَعِدُ بِجعلنا سعداء غالبًا ما لا تُحقّق مرادها على المدى الطويل؛ وتجاهل قليلًا حقيقة أن الانتقاء الطبيعي لا «يهتمّ» حقًّا بسعادتنا في النهاية وسيؤيّد عن طيب خاطر أي معاناة تنزل بنا لو كانت تصبّ في مصلحة تمرير جيناتنا إلى الجيل اللاحق. فالمسألة المهمّة الآن أن الآلية الأساسية التي تتحكم عبرها جيناتنا بنا هي الاقتناع العميق، وغير المُعلن عادة (حتى إن بالإمكان دعوته بدهية)، بأن سعادتنا لها أهميّة خاصّة. إننا مصمّمون لكي لا نُشغل أنفسنا بسعادة الآخرين، باستثناء الحالات التي يكون انشغالنا هذا مفيدًا لجيناتنا في أثناء التطوّر.

والأمر لا يخصّنا نحن فقط. فالاستغراق في النفس هو السمة المميزة للحياة على هذا الكوكب. إن المتعضّيات أشياء تتصرّف كما لو كانت رفاهيّتها أهمّ من رفاهيّة كافّة المتعضّيات الأخرى (باستثناء، مرة أخرى، حينما تساعد رفاهية تلك المتعضّيات الأخرى في نشر جيناتها). قد لا يبدو ضارًا لِمل قول إن سعادتك هدف مشروع طالما أنها لا تتعارض مع سعادة الآخرين، لكن قوله هذا يُعدُّ هرطقة بالنسبة إلى التطوّر. فسعادتك صُمِّمت كي تتعارض مع سعادة الآخرين؛ حيث إن سبب وجودها الحقيقي إلهام الاستغراق الأناني فيها.

قبل وقت طويل من معرفة داروين بالانتقاء الطبيعي، ومن التفكير في «قِيَمِه»، كانت قيمةُ النقيضة قد تشكّلت جيّدًا. فالأخلاق التي اعتنقها مِل من ضمن تقاليد عائلة داروين. حيث كتب جدّه إيرازموس عن «مبدأ السعادة الأعظم»، وعلى جانبي العائلة لطالما كان التعاطف العالميّ مثالًا

أعلى. في العام ١٧٨٨، صنع جوزيا ويدغوود، جدّ داروين لأمه، مئات الميداليات المناهضة للعبودية حيث يظهر عليها رجل أسود مقيّدًا بالسلاسل أسفل العبارات «ألست رجلًا وأخًا؟» وصان داروين هذا التقليد العائلي شاعرًا في أعماقه بمعاناة الرجال السود الذين، كما لاحظهم بمرارة، «صُنِّفوا على يد المتوحّشين المهذّبين في إنجلترا على أنهم بالكاد أخوة في الدين، حتى في أعين الربّ نفسه».

إن هذا النوع من التعاطف الهيّن والعميق هو ما استندت إليه نفعية داروين في نهاية المطاف. من المؤكّد أنه، كما هو حال مِل، خطّ أساسًا منطقيًا لأخلاقياته (أساسًا يغازل، بنحو غريب، المغالطة الطبيعية بانفتاح أكبر مقارنة مع مِل). لكن في النهاية كان داروين مجرّد رجل ذي تعاطف غير محدود؛ وما النفعية إلّا تعاطفًا غير محدود.

بمجرّد استيعاب داروين الانتقاء الطبيعي تمامًا، لا بُدَّ وأن رأى عمق التناقض بين أخلاقه والقيم التي تنطوي عليها. القسوة الغادرة لدبور طفيلي، ووحشيّة قطّ يتلاعَب بفأر - وما هذه إلّا غيض من فيض. يعني التأمل في الانتقاء الطبيعي الترنّح بفعل مقدار المعاناة والموت الذين يُمثّلان تكلفة مقابل أي تقدّم طفيف واحد في التصميم العضوي. وهو إدراك أن غاية هذا «التقدّم» على أي حال - أنياب أطول وأحدّ عند ذكر الشمبانزي على سبيل المثال - هي لأجل زيادة معاناة الحيوانات الأخرى أو تأكيد موتها في الأغلب. فازدهار التصميم العضوي قائم على الألم، والعكس بالعكس.

لم يبدُ أن داروين قضى كثيرًا من الوقت في المعاناة من هذا الصراع بين «أخلاق» الانتقاء الطبيعي وأخلاقيّاته هو. فلو كان دبّور أو قطّة تلعب بفأر يجسّدان قيم الطبيعة - حسنٌ، لكان ذلك أسوأ كثيرًا لقيم الطبيعة. إذ من اللافت أن عملية إبداعية مكرّسة للأنانية يُمكن أن تُنتج متعضّيات تعكس، بعد إدراكها صانعها أخيرًا، هذه القيمة المركزية ثم تنبذها. والأبرز أن هذا قد حدث في أثناء زمن قياسي؛ فأول مُتعضّي تسنّى له رؤية خالقه هو من سارع لفعل ذلك. نبذت مشاعر داروين الأخلاقية المُصمّمة كي تخدم في

النهاية أنانيّته هذا المعيار الذي شكّله التصميم بمجرّد إدراكها ماهيّته.

المثير للسخرية إمكانية أن تكون قيم داروين قد استمدّت قوّة معيّنة من الانتقاء الطبيعي. فكّر في الأمر: أعداد لا متناهية من المتعضّيات تجول في الأنحاء، كل منها منوّم بتأثير تعويذة لحقيقة واحدة، وكل تلك الحقائق متماثلة، مع أن جميعها غير متوافقة منطقيًا مع بعضها بعضًا: «إن مادتي الوراثية هي المادّة الأهم على الكوكب؛ فنجاتها تُسوغ ما يصيبك من إحباط وألم وموت حتّى»، وما أنت سوى واحد من تلك المتعضّيات تعيش حياتك في عبوديّة عبث منطقي. يكفي أن يُشعرك ذلك بقليل من الاغتراب – هذا إن لم يشعرك بالتمرّد التامّ طبعًا.

وهناك سياق آخر يعمل فيه التفكير الدارويني بالضدّ من الأنانية، سياق لم يقدّره داروين نفسه حقّ تقديره؛ هناك سياق يُمكن للأنموذج الدارويني الجديد فيه أن يؤدي لقيادة المرء بشكل ملحوظ نحو قيم مِل وداروين والمسيح.

وهذا هو المقصود بشكل غير رسمي. أنا لا أدعي أن الداروينية ناضحة بمُطلقات أخلاقية من أي نوع. ففكرة المطلقات الأخلاقية نفسها، كما سبق ورأينا، عانت من ضرر بالغ على يد داروين بالطبع. إلّا أنني أعتقد أن معظم الذين يفهمون بوضوح الأنموذج الدارويني الجديد ويتأمّلونه جديًا سيُقادون نحو قدر أكبر من التعاطف والاهتمام بأخيهم الإنسان. أو على الأقل نحو التسليم، في لحظات الانفصال، بأن التعاطف والاهتمام الأعظم يبدوان في محلّهما.

يُجرّد الأنموذج الجديد الاستغراق في الذات من ثيابه النبيلة. تذكّر أن الأنانية نادرًا ما تُقدّم نفسها لنا بصيغتها العارية. وبالانتماء إلى أنواع يسوغ أعضاؤها تصرّفاتهم أخلاقيًا، فإننا مصممون كي نفكّر في أنفسنا بكوننا صالحين وأن سلوكياتنا مُسوغة، حتى حين تكون هذه الافتراضات مشكوكًا فيها موضوعيًا. يُصعّبُ الأنموذج الجديد عبر كشفه الآلية البيولوجية وراء هذه الوهم تقبّله.

فعلى سبيل المثال، جميعنا تقريبًا يقول ويؤمن بأننا لا نكره الناس من دون سبب. فلو كان أحدهم موضِع غيظنا، أو لامبالاتنا القاسية حتى - لو أمكننا الاستِمتاع بمعاناته، أو تقبّلها بيسر - نقول: إن ذلك لأجل شيء فعله؛ إنه يستحقّ المعاملة ببرود.

أمّا الآن وللمرة الأولى صرنا نفهم جليًا كيف أصبح لدى الإنسان ذلك الشعور بأن الأحجار التي يُلقِمونها للآخرين عادلة. وأصولها لا توحي بعظيم الثقة الأخلاقية.

وفي جذور هذا الشعور يكمن الدافع العِقابي، وهو أحد حكّام الإيثار المتبادل الأساسيين. ولم يتطوّر لأجل صالح النوع، أو صالح الأمّة، أو حتى القبيلة. بل لصالح الفرد. والحقيقة أنه حتى هذا يُعدُّ مُضلِّلًا؛ إذ الوظيفة النهائية للدافع نسخ المعلومات الوراثية للفرد.

ولا يعني هذا بالضرورة سوء الدافع للعقاب. لكنه يعني أن بعض الأسباب التي فكّرنا بها بوصفها أسبابًا صالحة باتت موضع تساؤل الآن. فعلى وجه الخصوص، يصير من الصعب تقدير هالة التبجيل المحيطة بالدافع - الشعور الأثيري بأن القصاص يجسد نوعًا من الحقيقة الأخلاقية العليا - ما إن يُنظر لها بوصفها رسالة مبعوثة من الجينات غايتها خدمة الذات، وليس رسالة خير مُنزَّلة. وأن أصلها ليس أكثر رِفعة من الجوع أو الكراهية أو الشهوة أو غيرها الموجودة بفضل نجاحها السابق في تمرير الجينات عبر الأجيال.

هناك في الواقع دفاع عن العقاب يُمكن طرحه في سياق أخلاقي - من حيث النفعية أو أي مذهب أخلاقي آخر هدفه حثّ الناس على معاملة بعضهم بعضًا بمراعاة. يُساعد العقاب في حلّ مشكلة «الغشّاش» التي قد يواجهها أي نظام أخلاقي؛ إذ من يُلاحظ أنهم يأخذون أكثر مما يمنحون يُعاقبون على ذلك، حيث يُمنعون من استخدام مسّاكات للأبواب بدلًا من مسكها بأنفسهم. وعلى الرغم من أن الدافع العِقابي لم يُصمّم لأجل صالح الجماعة، كما هو حال نظام مِل الأخلاقي، لكن بإمكانه رفع حصيلة الرفاهية

الاجتماعية، وغالبًا ما يُحقّق ذلك بالفعل. إذ يُحافظ على مراعاة الناس لمصالح الآخرين. ومهما كانت وضاعة أصوله، فقد صار يخدم غرضًا ساميًا. وهذا مما يجب أن نكون شاكرين عليه.

وقد يكون هذا كافيًا لتسويغ الدافع الأخلاقي باستثناء حقيقة واحدة: إذ لا توافق المظالم المُعالجة بالعقاب نوعية الحكم الإلهي المتّسم بالنزاهة الذي قد يصفه مِل. إذ إننا لا نحاول معاقبة من احتال علينا أو أساء معاملتنا فحسب. فنظام المحاسبة خاصّتنا ذاتي بنحو تعسّفي، قائم على انحياز عميق تجاه الذات.

وهذا الانحياز في حساب ما ندين به يمثل واحدة فقط من انحرافات عدّة عن وضوح الحكم الأخلاقي. حيث نميل لرؤية منافسينا ناقصين أخلاقيًا، وحلفائنا جديرين بالتعاطف، ثم توجيه هذا التعاطف لصالح مكانتهم الأخلاقية، مع تجاهل الهامش الاجتماعي تمامًا. من يقدر على النظر إلى كل ذلك ثم يدّعي واثقًا أن انحرافاتنا المختلفة عن المحبّة الأخوية تتحلى بنوع الاستقامة الذي ننسبه إليها؟

إننا محقّون في القول إننا لا نكره الآخرين من دون سبب. لكن السبب غالبًا ما يكون في أن ليس من مصلحتنا الإعجاب بهم؛ فإعجابنا بهم لن يرفع مكانتنا الاجتماعية، أو يعيننا على اكتساب مزيد من الموارد الماديّة أو الجنسية، أو مساعدة أقربائنا، أو فعل أي من الأشياء التي ساعدت جيناتنا على التكاثر في أثناء التطوّر. فالشعور بـ«أننا مُصيبون» المترافق مع كراهيتنا مُجرّد زخرفة ظاهرية. وبمُجرّد إدراك ذلك، قد تتضاءل قوّة هذا الشعور[1].

---

(١) (تختلف الحجّة هنا اختلافًا جوهريًا عن الحجج الأخرى عن الأخلاق التي سبق ذكرها في هذا الكتاب. الخلاف هنا ليس فقط عن إمكانية الأنموذج الداروني الجديد مساعدتنا في تمييز أي القيم الأخلاقية التي حصل أن اخترناها. والزعم بإمكانية الأنموذج الجديد فعليًا التأثير - بشكل مشروع - على اختيارنا للقيم الأساسية في المقام الأول. يُصرُّ بعض الداروينيين على استحالة تشريع مثل هذا التأثير أبدًا. والدائر في أذهانهم المغالطة الطبيعية، التي أفسد انتهاكها السابق مسار عملهم. إلّا أن ما نفعله هنا لا ينتهك المغالطة الطبيعية، بل العكس تمامًا. حيث عبر دراسة الطبيعة - ملاحظة أصول الدافع العِقابي - نرى كيف خُدعنا لانتهاك المغالطة الأخلاقية من دون معرفة

لكن ويحك. ألا يمكننا بالمثل التخلّص من الشعور المصاحب للتعاطف والإشفاق والحب بأننا على صواب؟ فبعد كل شيء، ما وجود الحبّ إلّا، كما الكراهية، بفضل مساهمته الماضية في تعزيز تكاثر الجينات. فمحبّة أخ أو ابن أو زوجة تخدم الذات من منظور الجين مثلما تخدمها كراهية عدو بذات الطريقة؛ يا للوقاحة. لو كانت أصول القصاص أساسًا للشك فيه، لماذا لا يجب الشكّ في الحب أيضًا؟

والجواب وجوب أن يشغل الحب موضع شك، لكنه ينجو من الشكّ أيضًا بشكل جيد. فهو، على الأقل، ينجو بحالة جيدة في ضوء النفعية، أو أي أحد يعدّ السعادة صلاحًا أخلاقيًا بالطبع. حيث يجعلنا الحب راغبين بمزيد من السعادة لصالح الآخرين؛ إذ يجعلنا نتخلّى عن القليل كي يحظى الآخرون (الأحبّاء) بالكثير. إضافة إلى ذلك: فالحب يُشعِرُ المُضحّي واقعًا بشعور جيّد، وبذلك يزيد من السعادة الإجمالية أكثر وأكثر. أحيانًا ما يكون الحب مؤلمًا بالطبع. انظر فقط لامرأة من تكساس خططت لقتل والدة منافسة ابنتها لأجل تأمين ابنتها مكانًا في فريق المشجّعات. إذ لم يضمن حبّها الأمومي، على الرغم من شدّته الجليّة، مكانة إيجابية في سجل الحسابات الأخلاقية. وهكذا هو الحال كلما انتهى الحبّ بضرر يفوق النفع. لكن في كلتا الحالتين – سواء أكانت النتيجة الجديدة جيدة أم سيئة – فإن التقييم الأخلاقي للحب مماثل لتقييم القصاص: علينا أولًا التخلّص من الزخارف الظاهرية، الشعور البدهي بأننا «مُصيبون»، ومن ثم تقييم الأثر على السعادة الكليّة بصراحة.

وبذلك فإن الخدمة المقدمة من الأنموذج الجديد ليست بالمعنى الدقيق للكلمة عن بيان دناءة مشاعرنا الأخلاقية؛ فالدناءة، بحد ذاتها، ليست في صالحهم ولا بالضد منهم؛ إذ إن الأنانية الجينية المطلقة الكامنة وراء الدافع محايدة أخلاقيًا، حيث لا تؤسس لاعتناق الدافع أو إدانته. لكن سبب فائدة

منّا؛ إذ نكتشف أن هالة الحقيقة الإلهية المحيطة بالقصاص ليست سوى أداة تدفعنا بها الطبيعة – الانتقاء الطبيعي – كي نتقبّل «قيمها». وبمُجرّد تعرية هذه السُنّة، تقلّ أرجحيّة خضوعنا للهالة، وبذلك تصبح احتمالية انتهاكنا للمغالطة الأخلاقية أقل).

الأنموذج الجديد في مساعدتنا على رؤية احتمالية كَوْن هالة الصواب المحيطة بكثير من تصرّفاتنا وَهّامَة؛ فقد تُحدث ضررًا حتى حين تُشعرك بحُسن الحال. ومن المؤكد أن الكراهية تُحدث من الأضرار وهي تُشعرك بحُسن التصرّف ما يفوق الناتج عن الحب. لهذا السبب أؤكد أن الأنموذج الجديد سيميل إلى قيادة الشخص سليم الفكر ناحية الحب وبعيدًا عن الكراهية. فهو يساعدنا في الحكم على كل شعور بناءً على ما فيه من مزايا؛ وباعتماد التميّز أساسًا، دائمًا ما ينتصر الحب.

إن لم تكن نفعيًا، فقد يكون حل هذه الإشكالات أعقد بالطبع. وعلى الرغم من أن النفعية كانت حلًّ داروين ومِل للتحدي الأخلاقي الذي واجه العلم الجديد، لكنه لم يكن حلّ الجميع لذلك. وليس هذا الفصل بمعرض جعله حلًّا للجميع (على الرغم من اعترافي بتبنّيه حلًّا). لكن المسألة بالأحرى إظهار أن العالَم الداروينى لا يحتاج إلى عالَم أخلاقي. فحتى لو تقبّلت التأكيد اليسير بأن السعادة أفضل من عدمها (عند تساوي كل ما سواهما)، سيُمكنك المضي قدمًا في تشييد مذهب أخلاقي متكامل، بقوانين وحقوق مطلقة وكل ما إلى ذلك. ويُمكنك إيجاد بعض الأشياء المحمودة كالحب والتضحية والصدق. فقط أكثر العدميين عِنْدًا، ممن يصرّون على أن لا شيء جيد في سعادة البشر، يُمكنهم أن يجدوا عبارة أخلاق من دون معنى في عالم ما بعد الداروينية.

الالتحام مع العدو

لم يكن داروين التطوّري الفيكتوري الوحيد الذي تبنّى نظرة متشائمة عن «قيم» التطوّر. فالآخر كان صديقه ومؤيّده توماس هكسلي. في محاضرة بعنوان «التطور والأخلاق»، ألقاها في جامعة أوكسفورد عام ١٨٩٣، استهدف هكسلي الفرضية الكاملة للداروينية الاجتماعية، القائمة على فكرة اشتقاق القيم من التطوّر. حيث قال، مردّدًا صدى منطق مقالة مِل «الطبيعة»: إن «التطور الكوني قد يعلمنا كيفية ظهور الميول الصالحة والشريرة لدى

البشر؛ لكنه، في حد ذاته، غير مؤهل لتزويدنا بأي سبب جديد جيد لتفضيل مـا ندعـوه صالحًا على مـا نعـدّه شرًا». في الواقع، أوحت نظـرة فاحصة على التطور، مع كم الخسائر الهائلة في الموت والمعاناة، لهكسلي بأنه يتعارض نسبيًا مـع مـا ندعوه صالحًا. حيـث يقول: دعونا نفهـم «مرة وإلى الأبـد أن التقدّم الأخلاقـي للمجتمع لا يعتمد على محـاكاة العملية الكونية، ولا على الهروب منها، بل على الكفاح ضدها».

لاحظ بيتر سـينغر، أحد أوائل الفلاسفة الذين اتخذوا الداروينية الجديدة عـلى محمل الجـد، في هذا الصدد، أنـه «كلما زادت معرفتك بشـأن خصمك، زادت فرصـك في الفـوز عليـه»، وتبنـى جـورج ويليامـز، الذي بـذل كثيرًا لتعريف الأنموذج الجديد، وجهتي نظر سـينغر وهكسـلي، مُشدِّدًا على مدى قـوة الأنمـوذج الجديـد في إبرازهمـا. حيث كتـب أن نفوره من قيـم الانتقاء الطبيعـي تزيـد حتـى على نفور هكسـلي منها: «استنادًا إلى النظـرة المعاصرة الأكثـر تطرفًا للانتقـاء الطبيعي بوصفها عمليّة غايتهـا تعظيم الأنانية، وعلى قائمـة الرذائل الطويلـة التي يُمكن تخصيصها الآن للعـدو»، ولو كان العدو بالفعل «أسـوأ مما اعتقد هكسـلي، فالحاجة إلى الفهـم البيولوجي تصبح أكثر إلحاحًا».

يشـير الفهـم البيولوجـي حتـى الآن إلى بعـض القواعد الرئيسـة بشـأن الالتحـام مع العدو. (وسردي لهـذه القواعد ليس معناه تلميحًا على نجاحي الملحـوظ في اتّباعهـا) ، الخطـوة الجيّـدة الأولى قد تكون عبر حسـم ٥٠٪ أو نحو ذلك من السـخط الأخلاقي عمومًا، مـع التنبّه إلى التحيّز المتضمّن فيه، وأن نكـون شـكّاكين أيضًا في اللامبالاة الأخلاقية تجـاه المعاناة. وعلينا التنبّه إلى مواقف بعينها. إذ نبدو، على سـبيل المثال، ميّالين للشـعور بالسـخط تجاه سـلوك الجماعـات المُغايـرة من الناس (شـعوب الـدول الأخـرى مثلًا) ممن تتضـارب مصالحهـم مـع الجماعة التـي ننتمي لها نحـن. كما ونميـل إلى عدم مراعاة الأشـخاص متدنّي المكانة مع مبالغتنا في التسـامح مع ذوي المكانات

الرفيعة؛ قد يكون لتسهيلنا حياة الأخير على حساب الأول ما يُسوغه، على الأقل في ضوء النفعية (وأضواء المذاهب الأخلاقية المساواتية الأخرى).

هذا لا يعني أن النفعية مساواة طائشة. فالشخص القوي الذي يستعمل مكانته بطريقة إنسانية يُمثّل واحدًا من الأصول الاجتماعية القيّمة، وبذلك قد يستحق معاملة خاصّة، طالما أن المعاملة تيسّر مثل هذه السلوكيات. وأحد الأمثلة الشهيرة في سجلّات الأدبيات النفعية هو السؤال عمّا إن كنت ستنقذ أولًا رئيسًا للأساقفة أم خادمة لو كان الاثنان محاصرين في مبنى تأكله النيران. والجواب الأنموذجي وجوب إنقاذ رئيس الأساقفة أولًا - ولو كانت الخادمة والدتك - لأن في إنقاذه مزيدًا من الخير للمستقبل.

حسنٌ، ربما يكون الأمر كذلك، إذا كان الشخص رفيع المكانة رئيسًا للأساقفة (وحتى حينذاك ربما يعتمد الأمر هويّة رئيس الأساقفة ذاك) غير أن معظم رفيعي المكانة ليسوا رجال دين. وهناك القليل من الأدلة فقط على إبداء رفيعي المكانة ميل معيّن تجاه الضمير أو التضحية. في الواقع، يُشدّد الأنموذج الجديد على أن بلوغهم مكانتهم لم يكن «لأجل صالح الجماعة» بل لمصالحهم الشخصية؛ ويُتوقّع منهم استخدامها وفقًا لذلك، تمامًا كما يُتوقّع منهم التظاهر بخلاف ذلك. لذا فالمكانة الرفيعة لا تستحقّ قدر التساهل المبذول لصالحها عمومًا.

إنّما المبالغة في احترام الأم تيريزا ودونالد ترامب ليست سوى طبيعة إنسانية؛ وقد يكون هذا الجزء من الطبيعة الإنسانية بالنسبة إلى الحالة الثانية مؤسفًا.

تفترض هذه الوصفات بالطبع فرضية نفعية - أن سعادة الآخرين هي غاية النظام الأخلاقية. لكن ماذا عن العدميين؟ وماذا عن أولئك الذين يُصرّون على أن السعادة فحسب ليست أمرًا صالحًا، أو أن سعادتهم الخاصّة فقط هي الصالحة، أو أن على رفاهية الآخرين ألّا تشغلهم لأي سبب من الأسباب؟ حسنٌ، أولًا، ربما يتجوّلون في الأنحاء متصرّفين كما لو أنها

كذلـك. ذلـك أن ادّعاء الزهد كذلك جـزء من الطبيعة البشريـة بقدر ما هو غيابها المتكرّر. إننا نسـتِر أنفسـنا بخطاب أخلاقي متكلّف، مُنكرين دوافعنا الأساسـية ومُشدّدين على الحدّ الأدنى من مراعاتنا للصالح العام على الأقل؛ إلى جانـب اسـتنكارنا الشرس لأنانيـة الآخرين في وقت نُنزّه فيه أنفسـنا عن مثـل هـذه الأنانية. يبـدو من العدل سـؤال حتى من لا يتقبّلـون ما ينتج عن النفعيـة والمحبّة الأخوية أن يُنفّذوا على الأقل تصويبًا سـهلًا واحدًا في ضوء الداروينيـة الجديدة: اثْبَـتْ على مبدأ؛ إمّا البدء في إخضـاع كل تلك المواقف الأخلاقية للتدقيق المصحوب بالشك أو التخلّي عن اتخاذ موقف بناءً عليها.

بالنسـبة إلى الذين يختارون المسـار الأول، فأسـهل مصدر منفرد للتوجيه ملاحظة أن الشعور بـ«الصواب» الأخلاقي شيء أوجده الانتقاء الطبيعي كي يسـتخدمه الناس بأنانية. حيث يُمكنك القـول تقريبًا: إن الأخلاق صُمّمت بحيث يسـاء اسـتخدامها وفقًا لتعريفها. إذ سـبق ورأينا ما قد تكون أوّليات إصدار الأحكام الأخلاقية الصابّة في صالح الذات لدى أقربائنا الشـمبانزي حين يسعون وراء أجنداتهم بسخط مُسوغ أخلاقيًا. وعلى العكس منهم فإننا قـادرون عـلى تجنّب هذه النزعة كفاية بحيث نسـتطيع رصدها - بما يكفي في الواقع لبناء فلسفة أخلاقية متكاملة قائمة أساسًا على مهاجمتها.

يعتقد داروين، وفق أُسُـسٍ كهذه، أن الجنس البشري أخلاقي - وأننا في الحقيقـة الحيوان الأخلاقي الوحيد. حيث كتب: «إن كائنًا أخلاقيًا هو واحدٌ قادر على مقارنة أفعاله أو دوافعه الماضية بالمسـتقبلية، وعلى الموافقة عليها أو رفضها. ولا سبب لدينا لافتراض أن أي من الحيوانات الدُنيا لديها مثل هذه القدرة».

ونعـم، إننـا في هذا الصدد أخلاقيّـون؛ إذ لدينا على الأقل القـدرة التقنية عـلى عيش حياة مدروسـة بحق؛ حيث نملك وعيًا بالـذات وذاكرة وبصيرة وحكمًا. إلّا أن العقود الأخيرة من الفكر التطوري قادت المرء إلى التوكيد على كلمة تقني. فإخضاع أنفسنا بشكل دائم إلى تدقيق أخلاقي حقيقي ومُنعش،

ثم تصويب سـلوكياتنا وفقًا لذلك، ليس شـيئًا صُمِّمنا لأجله. إننا حيوانات أخلاقيـة مُحتملة - وهذا أكثر مما يمكن لأي حيوان آخر تحقيقه - لكننا لسـنا حيوانـات أخلاقية بطبيعتنا. وكي نكـون حيوانات أخلاقية، علينا إدراك كم أننا لسنا كذلك.

الفصل السابع عشر

لوم الضحية

«ولأن كافّة الرجال يرغبون في سعادتهم الذاتية، يُنسبُ الثناء أو اللوم إلى الأفعال أو الدوافع وفقًا لما يُحقق لهم تلك الغاية».

أصل الإنسان (١٨٧١)

«إننا نكتسب كثيرًا من المفاهيم من دون وعي بها، من دون تجريدها والتفكّر بها مليًا (كالعدالة)...»

دفتر الملاحظات N (١٨٣٨)

في منتصف السبعينات، أعطى كتاب السوسيوبيولوجيا للأنموذج الداروينـي الجديد أول دفعة دعائية. كما وأعطى لمؤلفه، إدوارد أوسبورن ويلسون، الدفعة الأولى من سُباب العامّة. فقد وصِمَ بالعنصرية والتحيّز الجنسي والإمبريالية الرأسمالية. كما وصف كتابه بأنه مؤامرة يمينية، ومخطط لاستمرار اضطهاد المستضعفين.

قد يبدو غريبًا استمرار مثل هذه المخاوف مدة عقود عدّة بعد الكشف

عن «المغالطة الطبيعية» وانهيار الأساس الفكري للداروينية الاجتماعية. إلّا أن لعبارة طبيعي أكثر من تطبيق واحد على الأسئلة الأخلاقية. فلو خان رجل زوجته، أو استغل ضعيفًا، مسوغًا الأمر بالقول: «إنما هي الطبيعة فقط»، فذلك لا يعني بالضرورة منح قدسية إلهيّة لها. ربما يعني فقط أن الدافع عميق جدًا بحيث يصعب مقاومته عمليًا؛ ربما ليس ما يفعله صالحًا، لكن يصعب تجنّب فعله.

لسنوات، استمر «الجدل عن السوسيوبيولوجيا» إلى حد كبير عن هذه الإشكالية. حيث اتُّهِمَ الداروينيون بـ«الحتمية الجينية» أو «الحتمية البيولوجية» - والتي قيل: إنها لم تترك مجالًا لـ«الإرادة الحرة». ثمّ اتَّهم المُتَّهَمون مُتَّهِميهم بالالتباس؛ حيث لا تُشكّل الداروينية، المفهومة بنحو صحيح، تهديدًا للمُثُل السياسية والأخلاقية السامية.

والحقيقة أن الاتهامات غالبًا ما شابها الالتباس (وأن التهم الموجّهة إلى ويلسون تحديدًا لم تكن مُسوغة). لكن من الصحيح أيضًا وجود أساس متين لبعض مخاوف اليسار حتى بعد توضيح الالتباس. إن مسألة المسؤولية الأخلاقية في نظر علم النفس التطوّري مسألةٌ كبرى ومحفوفة بالمخاطر. والحق أنها كبيرة بما يكفي، ومفهومة جيدًا، بحيث تُنبّه اليسار واليمين معًا على حد سواء. فهناك قضايا عميقة وخطيرة كامنة فيها، ولم تزل غير مُعالجة إلى حد كبير.

وكما حدث فقد شخَّصَ داروين أعمق هذه الأفكار قبل أكثر من قرن مضى بنحو ذكي وإنسانيّ تمامًا. لكنه لم يصارح العالم بذلك. فعلى الرغم من وعي أي دارويني معاصر بمدى الخطورة التي يُمكن أن يكون عليها أي تحليل أمين بحق للمسؤولية الأخلاقية، إلّا أنه لم ينشر أفكاره هذه أبدًا. حيث بقيت في الظلام، في أعتم خبايا كتاباته الخاصّة - ضمن حقيبة أوراق وصفها بتواضع جليّ «ملاحظات قديمة وعديمة الفائدة عن الحس الأخلاقي وبعض المسائل الميتافيزيقية»، والآن، مع التجلّي المتسارع للأساس البيولوجي للسلوك، صار الوقت مناسبًا للتنقيب في كنز داروين.

الواقع يُبرز رأسه القبيح

إن المناسبة لتحليل داروين هي تضاربٌ بين المثالي والواقعي. فالمحبّة الأخوية عظيمة من الناحية النظرية. مع ذلك، سرعان ما تظهر المشاكل عند الممارسة العملية. فحتى لو أمكننا بطريقة ما إقناع كثيرين بالسعي وراء المحبة الأخوية - مشكلة الواقع الأولى - سرعان ما ستُجابهك مشكلة الواقع الثانية: تميل المحبّة الأخوية لتقويض المجتمع وانهياره!

فبعد كل شيء، ما المحبّة الأخوية الحقيقية إلّا إشفاقٌ غير مشروط؛ قائمة على الشكّ المطلق في صواب أذيّة أي شخص مهما كان سلوكه بغيضًا. وفي مجتمع لا يُعاقب فيه أحد على أي شيء، سيزدهر السلوك البغيض.

وتستتر هذه المفارقة في خلفية النفعية، ولا سيما تلك التي تَصَوّرها جون ستيوارت مِل. قد يقول مِل: إن النفعي الصالح شخص مُحبٌّ بشكل غير مشروط، وحتى حلول اليوم الذي يصبح الجميع فيه مُحبّين غير مشروطين، فإن تحقيق هدف النفعية - أقصى قدر من السعادة الإجمالية - سيستلزم حُبًا مشروطًا للغاية. فأولئك الذين لم يروا النور يجب أن يُشجَّعوا على التصرّف بلطف. إذ لا بُدَّ من معاقبة المجرم وامتداح الإيثار وما إلى ذلك. على الناس أن يُحاسبوا.

اللافت للنظر أن مِل لم يواجه هذا التوتّر في أي مكان من نصّه الأساس للنفعية. فبعد بضع عشرات من الصفحات فور اعتناقه الحبّ الشامل الذي علّمه إياه يسوع، أيّدَ مبدأ «منح كل فرد ما يستحق، أي الخير بالخير والشر بالشر»، وهذا تفاوت يتعذّر ردمه - بين القول «أحب لأخيك ما تحبّه لنفسك» والقول «عامل الآخرين بمثل ما يعاملونك»؛ بين القول «أحب أعداءك» أو «من ضربك على خدك فاعرض له الآخر» والقول «العين بالعين والسن بالسن».

ربما يُمكن عَذرُ مِل على تبنّيه وجهة نظر مترفّقة عن حس العدالة، الحاكم المسيطر على الإيثار المتبادل. وكما أشرنا سابقًا فإن آلية الإيثار المتبادل هي، بالنسبة إلى النفعي، هبة إلهية تطوّرية حقيقية؛ إذ عبر التخلص من الدفق

المستمر لواحدة بواحدة، يُمكنها توفير الثواب والعقاب اللازمين لإبقاء الناس على اتّصال باحتياجات الآخرين. ومع عدم تطوّر الطبيعة البشرية خدمةً لرفاهية المجتمع، فهي تقوم بعمل جيد على الرغم من ذلك. إذ هناك كثير من ثمار المحصلة غير الصفرية يجري حصادها.

ومع ذلك فشكر الدافع العِقابي على خدماته المُقدّمة ليس مُماثلًا لشكره على الضوء الذي يُسلّطه. ومهما كانت قيمته العملية، لا سبب للاعتقاد بأن الإحساس المتأصل بالعدالة - الشعور بأن الناس يستحقّون العقاب، وأن معاناتهم شيء جيد بحد ذاته - يعكس حقيقة أسمى. يكشف الأنموذج الداروينـي الجديد في حقيقة الأمر عن أن الإحساس بالصواب الذي يُحيط العقاب محض نفعية جينية، ووفقًا لذلك يتعرّض للتشويه. كان كشف الستار هذا جزءًا من أساس اقتراحي في الفصل السابق عن أن الأنموذج الجديد سيميل إلى توجيه الناس ناحية التعاطف.

وهناك سبب قوي ثانٍ لأن تبدو فكرة العقاب الجزائي مشكوكًا فيها من وجهة نظر الداروينيين المعاصرين. يزعم علم النفس التطوري أنه الطريق الأضمن لتفسير السلوك البشري كاملًا، صالحه وطالحه، وللحالات النفسية المتضمّنة: الحب والكراهية والجشع إلخ. ومعرفة كل شيء هو غفران كل شيء. إذ بمُجرّد رؤيتك للقوى التي تحكم السلوك، سيصعب عليك بعدها لوم السلوك.

وهذا لا علاقة له بعقيدة يمينية مفترضة لـ«الحتمية الجينية»، فبادئ ذي بدء، ليس لمسألة المسؤولية الأخلاقية طابع أيديولوجي حصري. وعلى الرغم من أن بعض اليمين المتطرّف قد يُسعده سماع عدم قابلية رجال الأعمال مقاومة الرغبة في استغلال العمّال، لكنهم بالمثل لن يُسعدهم سماع عدم قدرة المجرمين الامتناع عن ارتكاب الجرائم. ولن يرغب أي من المتطرّفين الكتابيين ضمن «الأغلبية الأخلاقية» ولا النسويات خاصة في سماع أزيار النساء أنهم عبيد هرموناتهم.

فضلًا عن أن عبارة «الحتمية الجينية» تنضح بالجهل بشأن ما تدور حوله

الداروينية الجديدة. فكما سبق ورأينا، الجميع (وداروين منهم) ليسوا ضحية للجينات، ولكن للجينات والبيئة معًا: للمفاتيح والدوزنة.

ومرة أخرى، الضحيّة ضحية. إذ ليس للستيريو سلطة على الدوزنة أكثر من تلك التي على المولود بها؛ فمهما كانت الأهمية التي تعلّقها بهذين العاملين، لن يكون في تحميل الستيريو مسؤولية موسيقاه أي معنى. بعبارة أخرى: على الرغم من أن المخاوف من «الحتمية الجينية» كانت سائدة في السبعينات، لكن المخاوف من «الحتمية» لم تكن كذلك. مع ذلك فتلك أخبار سارة أيضًا – سبب إضافي للشك في دوافع إلقاء اللوم والتوبيخ وتوسيع تعاطفنا لما يتعدّى الطبيعة متجاوزًا دائرة العائلة والأصدقاء. كما أن هذه أخبار سيئة أيضًا: فلهذا المسعى الفلسفي الصالح بعض التأثيرات الضارة في العالم الواقعي. باختصار، إن الوضع فوضوي.

يُمكنك بالطبع مُجادلة الاقتراح القائل بأن كل ما نحن عليه محض مفاتيح ودوزنة، جينات وبيئة. ويُمكنك الإصرار على وجود شيء ما . . . أمر إضافي. لكن لو حاولت تخيّل الشكل الذي قد يتخذه هذا الشيء، أو التعبير عنه بوضوح، ستجد المهمّة مستحيلة، ذلك أن كل قوة ليست في الجينات أو البيئة هي خارج الواقع المادّي كما نتصوّره. وهي بذلك وراء التداول العلمي.

هذا لا يعني أن الأمر الإضافي غير موجود بالطبع. فربما لا يروي العلم الحكاية كاملة. ولكن لاعترف الجميع على كلا جانبي الجدل السوسيوبيولوجي في السبعينات بأنهم ذوي تفكير علمي، بدت شكوى جميع الأنثروبولوجيين وعلماء النفس من «الحتمية الجينية» للسوسيوبيولوجيا مثيرة للسخرية. إذ كانت فلسفة العلوم الاجتماعية السائدة آنذاك «الحتمية الثقافية» (كما وصفها الأنثروبولوجيون) أو «الحتمية البيئية» (كما عبّر عنها علماء النفس). لكن حينما يتعلق الأمر بالإرادة الحرة، ومن ثم اللوم والثناء، فإن الحتمية هي الحتمية. وكما صرّح ريتشارد دوكينز، «أيًا كانت وجهة النظر التي يتبناها المرء بشأن مسألة الحتمية، فإن إقحام عبارة 'جينية' لن يُحدث فارقًا».

رأى داروين كل ذلك. هو لم يكن على علم بالجينات، لكنه كان عارفًا بمفهوم الوراثة طبعًا، وكان ماديًا علميًا؛ إذ لم يعتقد بالحاجة إلى أي قوى غير مادية لتفسير السلوك البشري أو غيره في العالم الطبيعي. وبذلك رأى أن كل السلوك يجب أن يُلخّص بالوراثة والبيئة. كتب في دفاتر ملاحظاته: «يشك المرء في وجود إرادة حرة؛ لأن الأفعال كافّة محددة من قبل دستور وراثي، من مُثل الآخرين أو تعاليمهم».

إضافة إلى ذلك، رأى داروين كيف أن لهذه القوى تأثيرها المشترك: عبر تحديد «التنظيم» الجسدي للشخص، والذي يحدد أيضًا الأفكار والمشاعر والسلوك. سأل في دفتر ملاحظاته يقول: «أُمنيتي أن أُحسّن أعصابي، والتي لا ينشأ عنها غير التنظيم. ذلك التنظيم قد يتأثر بالظروف والتعليم، وبالاختيار الذي منحني إياه التنظيم حينها كي أديره».

يشير داروين هنا إلى نقطة لم تزل حتى اليوم غير مُدركة بالكامل: أن كافّة التأثيرات على السلوك البشري، سواء أكانت بيئية أم وراثية، تمرّ بوساطة بيولوجية. فمهما كانت مجموعة الأشياء التي تمنح عقلك التنظيم المادي الدقيق الذي يملكه هذه اللحظة (بضمنها جيناتك وبيئتك المبكرة واستيعابك للنصف الأول من هذه الجملة)، فذلك التنظيم المادي هو ما يحدد كيف ستستجيب للنصف الثاني من الجملة. لذا فحتى مع الالتباس الذي يعانيه مصطلح الحتمية الجينية، فإن مصطلح الحتمية البيولوجية لا يعاني ذلك - أو على الأقل لن يعاني ذلك لو أدرك الناس أنه ليس مجرّد مرادف للحتمية الجينية. ثم مرة أخرى، لو أدركوا ذلك، فسيدركون أن بإمكانهم إسقاط عبارة «البيولوجية» من دون خسارة شيء. إن المعنى الذي يكون به إدوارد أوسبورن ويلسون «حتميًا بيولوجيًا» هو نفسه الذي يعدّ فيه بورهورس فريدريك سكينر «حتميًا بيولوجيًا» - أي بمعنى أنه كان «حتميًا». ومعنى أن يكون علم النفس التطوري «حتميًا بيولوجيًا» هو نفسه المعنى الذي تعدّ فيه كافة مذاهب علم النفس «حتمية بيولوجية».

أمّا عن السبب في «شعورنا» كما لو كنّا أحرارًا في اتخاذ القرارات على الرغم

من كون كافّة السلوكيات حتمية، فتفسير داروين المذهل حتى بقياسات القرن العشرين كان: إن عقلنا الواعي غير مطّلع على كافّة القوى الحاثّة. «إن الوهم العام بشأن الإرادة الحرّة واضح. - ذلك أن للإنسان القوة للفعل، ونادرًا ما يستطيع تحليل دوافعه (التي غالبًا ما تكون غريزية في الأصل، وبذلك يبذل العقل جهدًا كبيرًا كي يكتشفها: وهذا تفسير هامّ) التي لم يعتقد بامتلاك أيّ منها».

لا يبدو أن داروين قد فكّر واشتبه فيما تقترحه الداروينية الجديدة: أن بعض دوافعنا مخفية عنا، ليس عرضيًا، ولكن عبر تصميمنا، بحيث يُمكننا التصرّف بمصداقية كما لو لم تكن دوافعنا ما هي عليه؛ وأن «وهم الإرادة الحرّة» بشكل أعمّ قد يكون تكيّفًا. ومع ذلك فقد توصّل للفكرة الأساسية التي مفادها: ما الإرادة الحرّة سوى وهم منحنا التطوّر إياه. إن كلّ ما نُلام عليه أو يُثنى علينا لأجله - بدءًا من القتل والسرقة ووصولًا إلى كياسة داروين الفيكتورية الاستثنائية - ليست نتاج اختيارات صنعتها نوعٌ من «الأنا» غير المادّية، بل نتاج ضرورة ماديّة. كتب داروين في ملاحظاته: «يجب أن نُعلّمنا وجهة النظر هذه على التواضع بعمق، فالمرء لا يستحق الثناء على شيء بتاتًا. كما ولا ينبغي عليه لوم الآخرين لأجل شيء»، هنا كشف داروين عن أكثر الرؤى العلمية إنسانية وخطورة على الإطلاق.

رأى داروين خطر المغفرة الذي جلبه فهمه؛ فقد ظنّ أن الحتمية، عبر تعرية اللوم، تهدد النسيج الأخلاقي للمجتمع. إلّا أنه لم يكن قلقًا جدًا بشأن انتشار هذه العقيدة. وعلى الرغم من قوّته الإقناعية، إلّا أن هذا المنطق يبدو للعالِم المفكّر ماديًا. «لن تُحدِث هذه النظرة أي أذى، ذلك أن لا أحد يُمكن أن يقتنع تمامًا في حقيقتها، باستثناء امرئ استغرق في التفكير وسيعلم أن سعادته تكمن في فعل الخير وتحقيق الكمال وبذلك لن يُغوى لمعرفته أن كل ما يفعله مستقل عنه بحيث يُحدث ضررًا». بعبارة أخرى: طالما أن هذه المعرفة محصورة عند عدد قليل من السادة الإنجليز، ولن تتفشى إلى الجموع، سيظلّ كل شيء على ما يرام.

وقد بدأت الجموع تصاب بالعدوى الآن. ما لم يدركه داروين أن

تكنولوجيا العلم ستُشيع في النهاية قضية الحتمية. لقد رأى أن «الفكرة، مهما بدت غامضة، فهي وظيفة عضو بقدر ما الصفراء في الكبد»، لكنه لم يكن يحلم على الأرجح بأننا سنبدأ في تحديد روابط محدّدة بين العضو والأفكار.

تتصدر اليوم هذه الروابط عناوين الصحف بانتظام. إذ يربط العلماء الجريمة بانخفاض مستويات السيروتونين. ويحاول علماء البيولوجيا الجزيئية - بنجاح طفيف ولكن متزايد - عزل الجينات التي ترجّح إصابة الدماغ باعتلالات عقلية. وقد عُثِر على مادة كيميائية تدعى الأوكستوسين تعدّ الأساس الخفي للحب. وهناك مادة كيميائية غير طبيعية، عقار إكستاسي، يثير حالة ذهنية لطيفة للغاية؛ إذ يُمكن الآن لأي شخص أن يكون غاندي لمدة يوم. صار الناس يدركون المعنى - من أخبار الوراثة والبيولوجيا الجزيئية وعلم العقاقير والأعصاب والغدد الصمّاء - أننا جميعًا آلات، تأرجحنا قوى لا نستطيع تمييزها بأنفسنا من دون العلم.

ليس لهذه الصورة، على الرغم من كونها بيولوجية تمامًا، علاقة خاصة بالبيولوجيا التطوّرية. فالجينات والنواقل العصبية ومختلف العناصر الأخرى الحاكمة للعقل تتم دراستها، في الغالب، من دون إلهام خاص مستمدّ من الداروينية.

لكن الداروينية ستؤطّر بتزايد هذه الصورة وتعطيها قوة سردية. لن نرى فقط أن انخفاض مستويات السيروتونين مثلًا يعزّز الجريمة، بل وسبب ذلك أيضًا: حيث يبدو أنه يعكس إدراك الشخص لمسارات تحقيق النجاح المادّي الممنوعة؛ ربما «يريد» الانتقاء الطبيعي من ذلك الشخص سلوك طرق بديلة. وبذلك يستطيع السيروتونين مع الداروينية تقديم شهادة صلبة لصالح الشكاوى غير الواضحة بشأن كيف أن المجرمين «ضحايا للمجتمع». إن بلطجيًا من الضواحي الفقيرة يسعى وراء المكانة شاقًا الطريق الأيسر لا يختلف عنك كثيرًا في ذلك؛ فهو مقيّد بقوى قوية وبارعة كما التي شكّلت ماهيّتك أنت. ربما لا ترى هذا الانعكاس حين تجده يركل كلبك أو يختطف محفظتك، ولكن بعد مدة، عند التفكير مليًا، سيُمكنك رؤيته. وسترى إمكانية

أن يكون كلاكما مكان الآخر لو ولدتما في ظروف مختلفة.

بدأت الأغلبية الساحقة للأخبار عن بيولوجيا السلوك الآن. فالناس عمومًا لم يخضعوا لها ويتخلصوا لكوننا جميعًا محض آلات. لذا فمفهوم الإرادة الحرّة لا يزال مستمرًا. لكن صار يبدي ملامح الانكماش. ففي كل مرّة يُكتشف أن واحدًا من السلوكيات يستند إلى الكيمياء، سرعان ما يحاول أحدهم إزاحة السلوك المعني من ملكوت الإرادة. وغالبًا ما يكون ذلك «الواحد» محاميَ دفاع. والمثال الأشهر على ذلك هو «دفاع التوينكي»[1]، حيث أقنع محام هيأة محلفين في كاليفورنيا أن اتّباع نظام غذائي قائم على الوجبات السريعة قد ترك موكله بـ«قابلية متناقصة» على التفكير الصافي، وبذلك فإن «تعمّده» ارتكاب جريمة القتل مستحيل. والأمثلة الأخرى كثيرة. إذ في كل من المحاكم البريطانية والأمريكية، استعملت النسوة متلازمة ما قبل الحيض لوقاية أنفسهنّ جزئيًا من المسؤولية الجنائية. وكما سأل مارتن دالي ومارغو ويلسون بلاغيًا في كتابهما القتل، هل يُمكن أن يكون دفاع «ارتفاع مستوى التستوستيرون» للقتلة الذكور قد تأخر كثيرًا؟

اعتاد علم النفس تعرية التأثيم حتى قبل مجيء البيولوجيا لمساعدته في ذلك. فـ«اضطراب ما بعد الصدمة» الاعتلال المفضل لمحامي الدفاع – ويقال: إنه يشمل كل شيء بدءًا من «متلازمة المرأة المعنّفة» ووصولًا إلى «متلازمة الاكتئاب – الانتحار» (والتي لا تقود الناس لارتكاب الجرائم فحسب، بل ولإفساد تلك الجرائم بغاية غير واعية وهي التعرّض للاعتقال). صيغ هذا الاضطراب في الأصل بمصطلحات نفسية بحتة، مع إشارة طفيفة إلى البيولوجيا. لكنّ العمل جاري على قدم وساق من أجل ربط هذه الاعتلالات بالكيمياء الحيوية؛ لأن الدليل المادّي هو ما يجذب انتباه هيأة المحلّفين حقًا. أحد الشهود الخبراء المروجين لفئة فرعية مزعومة من اضطراب ما بعد

---

(١) (تعبير عن الدفاع بعيد الاحتمال، أو الاحتجاج بأسباب غير مقنعة، وسبب التسمية كان لتضمين كعكة التوينكي في النظام الغذائي الذي اعتمده المتهم بالقتل في الجريمة المذكورة في المثال أعلاه. [المترجم])

الصدمة تدعى «متلازمة إدمان الإثارة» (ميل للإثارة بالمخاطرة) تتبّع المشكلة وصولًا إلى الإندورفين، حيث يتوق المجرم إليه بشدّة ويحوزه عبر الجريمة. وقد تبيّن لدى المقامرين القهريين ارتفاع الإندورفين إلى مستويات عالية بها يتجاوز الطبيعي في دمائهم عند ممارستهم القمار. وبذلك (كما تقول الحجة) فالمقامرة مرض. حسنًا، إننا جميعًا نحب الإندروفين، وجميعنا نفعل أشياء بغية نيله، بدءًا من التمشية وصولًا إلى الجنس. وحينما نفعل هذه الأشياء، يزداد مستوى الإندروفين عندنا بما يتجاوز الطبيعي. لا شك أن بعض المغتصبين يشعرون بالرضا إلى حد ما في أثناء أو بعد ارتكابهم جريمتهم؛ ولا شك أن للمتعة أساس كيميائي؛ ولا شك أن هذا الأساس سيظهر إلى النور. لو استمرّ محامو الدفاع بمسارهم هذا واستمررنا نحن بإزاحة الأفعال التامّة بوساطة الكيمياء الحيوية من مملكة الإرادة الحرّة، فبعد عقد من الزمن ستنكمش هذه المملكة إلى شيء متناهي الصغر. وهذا ما ينبغي أن يكون - وفق أسس فكرية دقيقة على الأقل.

هناك على الأقل طريقتان للرد على مجموعة الأدلّة المتزايدة عن أن الكيمياء الحيوية تحكم كل شيء. الأولى باستعمال البيانات، عكسيًا، بوصفها دليلًا على الإرادة. وتدور الحجة بهذا الشكل: لجميع هؤلاء المجرمين إرادة حرّة بالطبع، بغض النظر عن وضعية الإندورفين ومستويات السكر وغيرها لديهم. ذلك أن الكيمياء الحيوية لو نفت حرية الإرادة معناه عدم امتلاك أي منا إرادة حرة! وإننا نعلم أن القضية ليست بهذا النحو. أليس كذلك؟ (وقفة). أليس كذلك؟

غالبًا ما يسمع هذا النوع من الصفير في الظلام ضمن الكتب والمقالات المُتحسّرة على تداعي التأثيم. وضُمِّن ذلك في استفتاء شعبي ألغى أخيرًا دفاع «القدرة المتناقصة» من قانون كاليفورنيا. يُفترض بالناخبين شعورهم أنه لو كان هناك شيء طبيعي كالسُكّر يمكنه تحويلك إلى روبوت، فذلك يعني كَوْنَ الجميع روبوتات، وبذلك لن يستحقّ أحد العقاب. بالضبط. والرد الثاني على نزع الصفة الإنسانية عن البيانات البيوكيميائية استسلام داروين التامّ. استسلامه بشأن حرية الإرادة؛ إذ لا أحد يستحقّ بالفعل اللوم أو الثناء على

أي شيء؛ فجميعنا عبيد للبيولوجيا. كتب داروين في ملاحظاته أن علينا النظر إلى الرجل الشرير «بوصفه شخصًا سقيمًا»، وسيكون «من اللائق الإشفاق عليه لا كراهيته والاشمئزاز منه».

باختصار: إن المحبّة الأخوية عقيدة صالحة. أمّا الكراهية والاشمئزاز اللذان يرسلان الناس إلى السجن والمشنقة - وفي سياقات أخرى، يقودان إلى الخلافات والشجارات والحروب - فليس لهما أساس فكري. قد يكون لهما أساس عملي بالطبع، وهذه هي المشكلة في الواقع: إن اللوم والعقاب ضروريان عمليًا بقدر ما هما خاويان فكريًا. ولهذا السبب شعر داروين بالراحة أملًا بألّا تصبح رؤاه شائعة أبدًا.

وصفة داروين العلاجية

ما الذي يجب فعله؟ لو علم داروين بافتضاح السرّ، وأن الأسس المادية للسلوك صارت عرضة للعامّة، ما الذي كان سيقترحه؟ كيف على المجتمع الاستجابة للمعرفة المخيفة عن طبيعتنا الروبوتية؟ هناك تلميحات في ملاحظاته. بوصفها بداية، علينا محاولة فصل العقوبة عن الدوافع العميقة التي تقودها. قد يعني ذلك أحيانًا تضييق نطاق استخدامها، وحصرها في القضايا التي يُمكن بها تحقيق بعض الخير فعلًا. كتب داروين: «من الصواب معاقبة المجرمين؛ ولكن فقط لأجل ردع الآخرين»، وهذا يتماشى إلى حد كبير مع روح الوصفة العلاجية النفعية العريقة. إذ علينا عقاب الناس طالما سيرفع ذلك مستوى السعادة الإجمالية. لا شيء صالح عن القصاص بحد ذاته، فالمعاناة التي يختبرها الآثمون محزنة كحال المعاناة التي يختبرها أي أحد آخر، وتؤخذ بحساب مساوٍ في عين النفعية الكبرى. ولا تُسوغ إلّا عندما تكون الرفاهية التي تجلبها للآخرين أكبر، عبر كبح الجريمة في المستقبل.

تصدم هذه الفكرة كثيرين بعدّها منطقية وغير راديكالية بنحو رهيب، إلّا أن أَخْذَها على محمل الجد قد يعني ترميم العقيدة القانونية في القانون الأمريكي، وللعقاب عدة وظائف صريحة، أغلبها عملي تمامًا: إبعاد المجرم عن الشارع

وردعه عن الإجرام بعد الإفراج إلى جانب ثني الآخرين الذين يشهدون ما آل له من مصير، وإعادة تأهيله - في فوائده كل ما يُمكن لنفعي التصفيق له. لكن إحدى الوظائف المعلنة للعقاب «أخلاقية» بحتة: القصاص، بصريح العبارة. فحتى لو لم تخدم العقوبة غرضًا واضحًا، يفترض أن تظلّ جيّدة. فلو حدث أن هرب من إحدى السجون النائية في الصحراء نزيل يبلغ الـ٩٥ عامًا مرّ على حبسه طويلًا لدرجة أنه نُسي أمره، فإنك ستخدم قضية العدالة عبر جعله يعاني بشكل ما. وحتى لو لم يعجبك تطبيق العقاب بنفسك، وإن لم يسمع أحد في الأنحاء بذلك، فعليك الاطمئنان أن ربّ العدل في الأعالي يجلس مبتسمًا لمشهد معاناته.

لم تعد تلعب عقيدة العدالة الجزائية الأثر البارز الذي اعتادت لعبه في السابق داخل المحاكم. إلّا أن هناك نقاشًا جاريًا هذه الأيام، ولا سيما بين المحافظين، لإعادة التوكيد عليه. وحتى الآن أحد الأسباب الذي يدفع المحاكم لقضاء مزيد من الوقت في تقرير ما إذا كان المتّهمون قد ارتكبوا جريمتهم عن «إرادة» - بدلًا من كونهم «مجانين» أو «مجانين مؤقتًا» أو يعانون من «قدرة متناقصة»، أو أيًا يكن السبب في حال كان نفعيٌ يُدير العالم، فإن عباراتٍ فوضوية مثل «الإرادة» لن تجد طريقها إلى المشهد مطلقًا. ستطرح المحكمة سؤالين: أ) هل ارتكب المتّهم الجريمة؟ وب) ما هو الأثر العملي لعقابه - على مستقبل سلوك المجرم، وسلوك المجرمين المحتملين؟

وهكذا، حينما تقوم امرأة تعرضت للضرب أو الاغتصاب من قبل زوجها بقتله أو تشويهه، لن يكون السؤال عمّا إذا كان بها «مرض» يدعى متلازمة المرأة المعنّفة. وحينما يقتل رجل عشيق زوجته، لن يكون السؤال عمّا إذا كانت الغيرة «جنونًا مؤقتًا». بل السؤال في كلتا الحالتين هو عمّا إذا كانت العقوبة ستمنع هؤلاء الأشخاص، وغيرهم ممن يمرّون بأوضاع مماثلة، من ارتكاب الجرائم مستقبلًا. وهو سؤال تستحيل إجابته بدقة، لكنه أقلّ فوضوية من سؤال الإرادة، وله ميزة إضافية تتمثل بعدم تجذّره في رؤية عالمية بالية.

هناك بالطبع قدر معين من القواسم المشتركة بين السؤالين. تميل المحاكم إلى الاعتراف بوجود «الإرادة الحرّة»، وبالتالي «اللوم» المُسوغ، في نوعية الأفعال

التي يمكن ردعها عبر توقّع نوعية العقوبة المضادّة لها. لذا لن يرسل أي قاضٍ نفعي أو عتيق الطراز مريضًا ذهانيًا تمامًا إلى السجن (على الرغم من أنّ كليهما قد يحجر عليه داخل مؤسسة مختصة لو بدا محتملًا تكراره الإجرام). وكما كتب دالي وويلسون: «إن الكمّ الهائل للرطانة الصوفية والدينية عن: الكفّارة، والتوبة، والعدالة الإلهية، وغيرها ليست سوى عزو ما يُمثّل في الواقع مسائل دنيوية عملية إلى سلطة علوية مستقلة: والغاية تثبيط الأفعال التنافسية الصابّة في صالح الذات عبر تقليل ربحيتها إلى الصفر».

بحسب كل ما قيل إذن فـ«الإرادة الحرّة» كانت خيالًا مفيدًا إلى حد ما، مفوّض للعدالة النفعية. إلّا أن كافّة المناقشات المستنزفة للوقت التي تتقدّم الآن (هل إدمان الكحول مرض؟ هل الجرائم الجنسية إدمان؟ هل تبطل متلازمة ما قبل الحيض الإرادة؟) تشير لأنها قد بدأت تُبدي منفعة. وبعد عقد أو اثنين من البحث البيولوجي، ربما تكون مشاكلها أكثر من قيمتها؛ وفي الوقت الحالي، ربما تقلّص نطاق «الإرادة الحرة» إلى حد كبير. ثم سنواجه بعد ذلك خيارين (على الأقل): إمّا أ) إعادة الإرادة الحرّة اصطناعيًا إلى مكانة قوية عبر مراجعة تعريفها (عبر الإعلان مثلًا عن أن وجود ارتباط كيميحَيَوي لا يؤثّر على ما إذا كان السلوك إراديًا من عدمه)؛ أو ب) الاستغناء عن الإرادة كليًا واعتماد معايير عقابية نفعية صريحة. وكلا هذين الخيارين يرقيان إلى الشيء نفسه تقريبًا: فمع ورود الدعامات البيولوجية (أي البيئية الجينية) للسلوك إلى المشهد، علينا الاعتياد على فكرة تحميل الروبوتات مسؤولية ما يصيبها من أعطال – طالما أن لهذه المساءلة فائدة معينة على الأقل.

قد يؤدي الاستغناء عن فكرة الإرادة إلى تجريد النظام القانوني من بعض الدعم العاطفي الذي يحظى به. إذ يُقرّر المحلّفون الحكم بإنزال عقاب لشعورهم الحدسي أنه شيء جيد بطبيعته. ومع ذلك يظلّ شعورهم الحدسي هذا شعورًا عنيدًا، وليس مرجّحًا أن يطفأ بتغيير العقيدة القانونية. وحتى لو أصابه الضعف، فالقيمة العملية للعقاب يُحتمل أن تظلّ واضحة بما يكفي لإبقاء المحلّفين في وظائفهم.

إن التهديد الهائل الذي يُشكّله التنوير العلمي يقبع في ملكوت الأخلاق لا القانون. فالمشكلة هنا ليست في أن الحس بالعدالة، الحاكم للإيثار المتبادل، سينهار بالكامل. فحتى المتمتّعين بالانفصال العاطفي الشديد والإنسانية إذا ما شعروا بتعرّضهم للغش أو الكذب أو سوء المعاملة بطريقة أو أخرى، فسيتمكّنون من استدعاء ما يكفي من السخط لدواعي نفعية. آمَنَ داروين بأن الجميع غير لوّامين بالمطلق، لكنه كان قادرًا على استدعاء ما يكفي من السخط كلما تعرّض للضغط. وقد وجد نفسه «يشتعل غضبًا» لسلوك ناقده اللدود ريتشارد أوين. حيث قال داروين في أثناء كتابته لهكسلي: «أظنّ أن كراهيتي تفوق كراهيّتك له».

قاعدة عامة، لو عملنا جميعًا بغية بلوغ المثل الأعلى للرحمة والتسامح العالميين، بالاعتماد على كل التنوير الواجب أن يقدّمه العلم الحديث، فلن يؤدي التقدّم الطفيف الذي سنُحرزه إلى انهيار الحضارة حولنا. قلّة قليلة منا هي من اقتربت إلى المبالغة في المحبّة الأخوية، ومن غير المحتمل أن يقودنا كل المنطق الموضّح للبيولوجيا الحديثة لبلوغ هذا الهدف. إن جوهر الحيوان المتين لواحدة بواحدة مؤمَّنٌ جيدًا ضدّ ويلات الحقيقة.

أمّا الخطر الأخلاقي الحقيقي فواحدٌ أقلُّ مباشرة. إذ لا تستمدّ النظم الأخلاقية قوتها من المبادئ الكامنة وراء واحدة بواحدة - حيث يُعاقِبُ المتضرّرون الجُناة - بل من المجتمع الكلّي الذي يُعاقب الجناة. كان تشارلز ديكنز يخشى التحدّث مع عشيقته علانية لا خوفًا من معاقبة زوجته له، (إذ هجرها بالفعل؛ فما مقدار القوة التي تمتّعت بها حينها؟) لكن خوفه كان من لحاق الفضيحة به.

وهكذا الحال كُلّما كُبِحَ دافع حيواني قوي باستمرار عبر قانون أخلاقي: حيث يؤدي انتهاك قانون إلى تدنّي السمعة، وتجنّب ذلك يُمثّل دافعًا قويًا للحيوان. فالقوانين الأخلاقية الفعّالة تجابه النار بالنار.

الحقّ أنها تجابه النار بآلة متقنة لتزكية النار. إذ درس روبرت أكسلرود،

الـذي دعمت مبارياته الحاسـوبية نظرية الإيثـار المتبادل، مدّ السُـنَن وجزرها أيضًـا. حيـث وجـد أن القواعد الأخلاقيـة الصُلبة لا تعتمد فقط على السُـنن بل وعلى «السُـنَن السامية»: فالمجتمع لا يرفض منتهكي القواعد فحسب، بل وكذلك المتسامحين مع المنتهكين لفشلهم في الرفض. لو أعلن ديكنز عن خيانته الزوجيـة، لقطـع أصدقاؤه علاقاتهم به أو سـيعانون عواقب فشـلهم في إنزال عقوبة به.

في عالم السُـنن والسُـنن السـامية ذي الانتقام غير المباشر والشـمولي، يُنزل العلـم الحديـث بلاءاتـه على النسـيج الأخلاقـي. إذ ليـس علينا القلق بشـأن الحتمية الزاحفة التي تُخرس غضب الضحية. لكن غضب المتفرّجين قد يخفت لـو اعتقدوا مثلًا أن فسـق الذكور «طبيعي»، طالما هو قهرٌ تسـببت به الكيمياء الحيوية - وأن غضب الزوجة الانتقامي من نتاجات التطور الاعتباطية. بذلك تصبح الحياة - على الأقل حياة أولئك الآخرين غير أنفسنا وأقاربنا وأصدقائنا المقرّبـين - فِلمًا نشـاهده بانفصـال عبثي داهِش. وهذا هو شـبح أخلاقيات ما بعـد الحداثة التفصيلية. والداروينية ليسـت مصدرها الوحيد، ولا البيولوجيا بنطاقها الأوسع، لكن يُمكن لكليهما مع بعض رفدها بالكثير.

المفارقـة الأسـاسـية هنـا - عن البطـلان الفكري للّـوم، والحاجـة العملية لـه - واحـدةٌ يبـدو أن قلّـة قليلـة مـن النـاس حريصون عـلى معرفتهـا. أحد الأنثروبولوجيّـين أدلى بالتصريحـين الآتيـين عن الطلاق: أ) «لا أريد تشـجيع أحدهـم عـلى قول، ’حسـنٌ، الأمر مبرمـجٌ فيَّ ولا وسـيلة لكبحـه‘، فبإمكاننا كبحه. إذ بينما لهذه السـلوكيات قوّة غاشـمة، ينجح كثيرون واقعًا في كبحها»؛ وب) «هنـاك رجـال ونسـاءٌ يجولون في الطرقـات اليوم قائلين لأنفسـهم: ’أنا فاشـل! لقـد جرّبت زيجتين وكلتاهما لم تنجحا‘. حسـنٌ، ربما يكـون هذا نمطًا طبيعيًا لسـلوك الإنسـان، وقد يريحهم قليلًا سـماع ما سـأقوله. لا أظنّ أن على الناس الشعور بالفشل بعد الطلاق».

كل واحـدة مـن هذه العبـارات يُمكن الدفاع عنها، ولكـن لا يُمكنك نيل كلتيهـما. إذ دقيـقٌ مـن ناحية قـول: إن أي طلاق جـرى كان حتميًـا، مدفوعًا

بسلسلة طويلة من القوى الجينية والبيئية، وكلها بوساطة كيميحَيوية. ومع ذلك فالتأكيد على هذه الحتمية يعني التأثير على الخطاب العام، وبذلك التأثير على القوى البيئية المستقبلية ومستقبل الكيمياء العصبية، ما يؤدي إلى حالات طلاق مستقبلية حتمية ما كانت لتحدث لولا ذلك. إن وصف الأشياء في الماضي بمتعذّرة التغيير يزيد من جعل الأشياء المستقبلية متعذّرة التغيير. فأن تقول للناس: إنهم غير مُلامين على أخطاء الماضي معناه أن تزيد من أرجحية حدوث أخطائهم المستقبلية. والحقيقة غير مضمونة كي تُحرّرنا.

أو لتوضيح هذه المسألة بطريقة أخرى أكثر تفاؤلًا ربما: تعتمد الحقيقة على ما ندعوه نحن حقيقة. فلو قيل للرجال: إن دافعهم للفسق متجذّر في «طبيعتهم»، وعصيّ على الكبح في جوهره، فالدافع حينها - عند أولئك الرجال على الأقل - سيكون كذلك فعلًا. لكن في أيام داروين، قيل للرجال شيئًا آخر: إن الدوافع الحيوانية أعداء ألدّاء، ولكن يُمكن هزيمتها ببذل الجهد الكافي. حتى أصبحت هذه، بالنسبة لكثير من الرجال، هي الحقيقة. حيث نشأت إرادتهم الحرّة عبر إيمانهم بها.

في السياق نفسه، قد يُجادل أحدهم أن إيمانهم «الناجح» بحريّة الإرادة يُبرّر إيماننا بها. ولكن ليس الإيمان بالعقيدة الماورائية للإرادة الحرّة. إذ لا وجود لشيء في سلوك الفيكتوريين المنضبطين يزعج عقيدة الحتمية؛ إذ لم يكونوا سوى نتاج بيئتهم، في مكان وزمان كان فيه الإيمان بإمكانية ضبط النفس شائعًا - كما كانت (كذلك) العقوبات الأخلاقية الصارمة ضدّ من يفشلون في ضبط أنفسهم. ومع ذلك يُمثّل أولئك الرجال، إلى حد ما، حجّة لنشر ذات التأثيرات بيننا اليوم. فهؤلاء الرجال أقلّها دليل على إمكانية عمل التأثيرات؛ فهم سببٌ لعدّ عقيدة الإرادة الحرّة «حقيقة» بالمعنى البراغماتي المحض للكلمة. ولكن سواء أكان بإمكان مثل هذه البراغماتية التفوّق على الحقيقة الفعليّة أم لا - سواء أكان هذا الإيمان المُحقّق لذاته بالإرادة الحرّة قادر على النجاة أمام الشكّ المتزايد بالإرادة الحرّة بوصفها عقيدة ميتافيزيقية - فهذه مسألة أخرى تمامًا.

وبأي حال، حتى لو نجحت هذه الحيلة، وظلّت فكرة «اللوم» صُلبة

بدرجة ملائمة، نظلّ مجبرين على العودة إلى التحدي المتمثّل في حصرها ضمن أبعـاد مفيدة: لوم الناس فقط حينما يخدم لومهم الصالح العام، ومنع الصوابية الشخصية من ركوبه (كما تميل لأن تفعل بطبيعتها). وفي غضون ذلك، سنظل نواجـه التحدي الأعمق المتمثّل في التوفيق بـين العقاب الأخلاقي الضروري والتعاطف غير المحدود الذي دائمًا ما يكون مناسبًا في الواقع.

مِل بوصفه بيوريتانيًّا

إن شـنّ حـرب عـلى الطلاق مع تشـديد العقوبـات ضدّ الفاسـقين وعدم التسـامح مطلقًـا مـع الادعـاءات القائلـة بـ«طبيعية» الفسـق، قد تسـتحق أو لا تسـتحقّ تكاليفهـا المتنوّعـة. وهـذا هو سـؤال عن أي الأشـخاص العقلاء سيختلفون في ذلك. فالحتميّة المخيفة تُمثّل مشكلة على أي حال، ذلك لمرغوبية القواعـد الأخلاقيـة من أي نـوع. فالأخلاق بعـد كل شيء الطريقـة الوحيدة لجنـي ثمار مختلفة من محصلة غير صفرية - ولا سـيما تلـك الثمار التي لا تُحصد عـبر الإيثار الموجّه للأقارب أو المتبادل. تجعلنـا الأخلاق مدركين لرفاهيّة من هم خـارج دائرة العائلة والأصدقاء، بينما ترفع مـن رفاهية المجتمع الإجمالية. وليس عليك أن تكون نفعيًا كي ترى مدى نفع هذا الأمر.

والحـقّ أن الأخلاق ليسـت الطريقـة الوحيدة لجني هـذه الفوائد تحديدًا، لكنها الأرخص والأقل غرابة. فإذا لم يثمل أحد قبل قيادته السـيارة، سـيكون المجتمـع أفضـل حـالًا. ويفضـل معظمنا رؤيـة التـزام يفرضه رمـز أخلاقي متأصل داخلياً بدلاً من قوة شرطة واسـعة الانتشـار. هذه هي الإجابة الدقيقة للأشـخاص الذين يسألون لماذا ينبغي أخذ مصطلحات مثل الأخلاق والقيم على محمل الجد. ليس لأن التقاليد شيء جيد بحد ذاتها، ولكن بسبب ما يمكن أن يقدمـه رمز أخلاقـي قوي بنحو فريـد: فوائد أكثر مراوغـة للمجموع غير الصفري من دون الحاجة لكثير من رجال الشرطة.

شـعر جون سـتيوارت مِل بإمكانيـة أن تكـون القواعد الأخلاقيـة خانقة ومُخيفـة كما الشرطة واسـعة الانتشـار. إذ اشـتكى في «عن الحريـة» من العيش

«تحت أعين رقابة عدائية وخفيّة»، لذا قد يبدو مثيرًا للسخرية، على أقل تقدير، التغنّـي بالصلابة الأخلاقية مباشرة بعد التغنّي بفلسـفة مِل الأخلاقية المدعوة بالنفعية.

لكـن لم تكن شـكواه الحقيقية بشـأن القواعد الأخلاقيـة الصارمة، بل عن غـير العقلانية منها حـصرًا. وتحديدًا: القواعد التي تحظر سـلوكيات لا تؤدي لأذيـة أحـد؛ بعبارة أخرى، تلك التـي لا تبدو صادرة من منظـور نفعي. ففي تلـك الأيّـام، كانت كثير من أنـماط الحياة الشـاذّة إحصائيًا، كالمثليّة الجنسـية، تُعـدّ جرائم ضد الإنسـانية، على الرغم من صعوبة العثور على إنسـان تعرّض للأذيّـة بسـببها. وكان الطلاق فاضحًا إلى حدّ ما حتـى لو رغب كلا الزوجين فيه وبغياب أطفال بينهما.

لكـن لم تبدُ كل القواعد سـخيفة للغاية بالنسـبة إلى مِـل. في الواقع، لم يؤيد مِـل الحقّ العام في إنهاء الزواج. وعبّر عن رؤاه بشـأن المسـؤولية الزوجيّة عبر عبارات مجرّدة لا يُمكن تمييز غايتها تقريبًا، حيث كتب: «حين يُشجّع شخص مـا آخـر، إمّا بوعد صريح أو بتدبـير، الاعتماد عليه لمواصلته التصرّف بشـكل معـيّن - أن يبني توقّعات وحسـابات ويُسـند كلّ خطط حياته المسـتقبلية على هـذا الافتراض - فإن سلسـلة جديدة مـن الالتزامات الأخلاقية ستنشـأ من جانبـه تجاه ذلك الشـخص، والتـي يُمكن نقضها، ولكن ليـس تجاهلها»، وفي مـا يتعلّـق بالانفصال بعـد إنجاب الأطفـال: «لـو كانت العلاقـة بين طرفين متعاقديـن ... كما في حالة الـزواج، أدت لولادة طرف ثالث، تنشـأ التزامات إضافيـة من جانـب كلا الطرفين المتعاقدين تجاه الطرف الثالث، سـيكون على تحقيقهـا، أو طريقة تحقيقهـا عمومًا، التأثّر للغاية باسـتمرار أو انقطاع العلاقة بين طرفي العقد الأوليين». بعبارة أخرى: من السيىء هجرانُ أسرتك.

تعلّق اعتراض مِل في «عن الحرية» بجاذبية الأخلاق الفكتورية، لا بالجاذبية الأخلاقية نفسها. وكتب يقول: «وقتما كان عنصرا التلقائية والفردانية زائدين، والمبـدأ الاجتماعي في صراع مشـتعل معهـما. . . .» حينها، سـتتمثّل الصعوبة في «حـث الرجـال أصحاب العقـول القويّة على الامتثـال لأي قواعد تتطلّب

منهم التحكّم في دوافعهم»، ولكن: «المجتمع الآن قد نال من الفردانية؛ وصار الخطر الذي يُهدد الطبيعة البشرية ليس زيادة الدوافع والتفضيلات الشخصية، بل نقصانها.» ليس جليًا ما إذا كان مِل سيصدر هذا الحكم نفسه لو كان موجودًا بيننا اليوم. مؤكّد أنه كان سيهاجم بقايا الفيكتورية غير العاقلة اليوم، مثل رُهاب المثلية. لكنه ما كان ليُفضّل مذهب المُتعيّة الذي صُنّف، في نهايات الستينيات، من قبل اليسار (الجنس وعقاقير الهلوسة) ولا الذي صنّفه اليمين في الثمانينات (العقاقير غير المهلوسة وسيارات الـBMW).

في الواقع، عدّ مِل مذهب المتعيّة هدفًا حلالًا للحكم الأخلاقي حتى إن لم يؤذِ غير صاحبه المُتعي. علينا ألّا نعاقب الناس على التنازل عن رفاهيتهم طويلة الأمد لصالح الحيوان داخلهم، كما كتب مِل؛ ومع ذلك لا يُمكنهم إلّا توقّع ذلك، نظرًا لكونهم نماذج في محاكاتها خطورة، فقد لا نختار الارتباط بهم، وسنحذّر أصدقاءَنا من التعامل معهم بالطبع. «على من يُظهر تهورًا وعنادًا واختيالًا، ومن لا يستطيع العيش وفق الوسائل المعتدلة، ولا يكبح نفسه من الانغماس في الملذّات المؤذية، ومن يسعى وراء المُتع الحيوانية على حساب متع المشاعر والفكر، عليه أن يتوقّع انخفاضًا في مكانته عند الآخرين، وأن يكون له النصيب الأقلّ من مشاعرهم الإيجابية...».

هنا يلتقي الليبرالي جون ستيوارت مِل مع البوريتانيّ ساموِيل سمايلز. فعلى الرغم من سخرية مِل من فكرة الطبيعة البشرية «الفاسدة جذريًا» التي يجب خنقها باسم التقدّم الروحي، فقد شكّك كذلك في أن المشاعر الأسمى، المنتجة للأخلاق، يُمكنها الإزهار من دون زراعة. وكتب يقول: «الحقيقة أن ولا نقطة امتياز وحيدة موجودة بصالح الشخصية البشرية تقريبًا، وهذا مما لا يتعارض بالطبع مع المشاعر الساذجة للطبيعة البشرية». لم يكن باستطاعة سمايلز نفسه التعبير عن ذلك بشكل أفضل؛ إذ ما يكمن وراء تشديده على مساعدة الذات في ضبط النفس المرهِق وجهة نظر غير ورديّة تمامًا للطبيعة البشرية.

في الواقع، على الرغم من الانجرافات التي تبدو متضاربة بين كتب سمايلز

ومِـل الصـادرة عـام ١٨٥٩، إلّا أن الاثنـين التقيا بعضهما بعضًـا وجهًا لوجه علـى نطاق واسـع. وقد تبنّى كلاهما (مـع داروين) ما ندعوه اليوم بسياسـات اليسار المعتدل الإصلاحية، إلى جانب إطارها الفلسفي؛ وكان سمايلز من أشد المعجبين بالنفعية، التي كانت تُعرف آنذاك بـ«الفلسفة الراديكالية».

يتوافـق موقـف مِـل مـن الطبيعـة البشرية جيـدًا بما يكفـي مـع الداروينية الحديثة. وسـيكون مبالغٌ القول: إننا أشرار بالفطرة - إننا، مثل كاريكاتور مِل عـن الكالفينيـة، لا نسـتطيع أن نكون أخيـارًا من دون التوقّف عـن أن نكون بـشرًا. لمكونات الأخلاق المتراوحة من التعاطف إلى الشـعور بالذنب أسـاس عميق في الطبيعة البشرية بالطبع. وهي لا تلتحم تلقائيًا مع عقل خيّر بحق؛ إذ إنها لم تُصمَّم لأجل الصالح العام. كما ولا تُعزّز هذه المكوّنات سـعادتنا بنحو موثـوق. إذ لم تكن سـعادتنا يومًا ضمن أولويات الانتقـاء الطبيعي، وحتى لو كانت كذلك، ما كانت السـعادة لتزدهر طبيعيًا في بيئة شـديدة الاختلاف عن سياق تطوّرنا.

الداروينية والأدلجة

هناك شـعور في أن الأنموذج الجديد يفسـح المجال للاسـتعمال الأخلاقي المحافظ. فعبر إظهار أن «المشـاعر الأخلاقية» لا تُطبّق أخلاقيًا بشكل طبيعي، يقـترح أن هنـاك حاجـة إلى قاعـدة أخلاقية صلبـة إن كان على النـاس احترام الصالـح العـام. وعـلى الرغم من روعـة قيادة السـعي وراء المصلحـة الذاتية شـخصان أو أكثـر للعثـور على منفعة مشـتركة، فكثير من المنافع المشـتركة لن يكون لها أساس ما لم نأخذ الأخلاق على محمل الجد.

هـل لهذا النوع من المحافظة الأخلاقية علاقة عميقة بالمحافظة السياسـية؟ ليس حقًا. صحيح أن ما يقضيه المحافظون السياسيون من وقت في الدفاع عن الصرامـة الأخلاقية أطول من خصومهـم، إلّا أنهم يميلون أيضًا للاعتقاد بأن القانـون الأخلاقي الصـارم الذي علينا جميعًا الخضوع له هو ذاك الذي يتبنونه بمقتـضى سـلطته الإلهيـة المطلقـة - أو على الأقل، ذلـك الذي يملـك مباركة

«التقاليد». على النقيض من ذلك، ينظر الداروينى إلى القواعد الأخلاقية التي كرّمها الزمن بتردّد عميق.

من ناحية أخرى، يجب أن يكون للقواعد التي استمرّت طويلًا نوع من التوافق مع الطبيعة البشرية، وربما تخدم مصالح شخص ما على الأقل. لكن مصالح من؟ إن صياغة قاعدة أخلاقية يُعدُّ صراعًا على السلطة، والسلطة في المجتمعات الإنسانية عادّة ما توزّع بشكل معقّد ومتفاوت. وقد يكون تحديد الأجندات المستفيدة أمرًا شائكًا.

يُفضّل أن يجري تشريح القواعد الأخلاقية - تحديد المتفع منها من الخاسر، مع تكاليف وفوائد القواعد البديلة - عبر أدوات الأنموذج الجديد. ومن الأفضل إجراء ذلك بعناية. إذ علينا في النهاية الاستغناء عن تلك السُنَن التي لا معنى عمليّ لها، ولكن علينا في غضون ذلك إدراك أن السُنَن غالبًا ما يكون لها معنى عملي؛ إذ إنها نشأت عبر أخذ وعطاء غير رسميين كان في أغلب الأحيان تعدّديًا إلى حد ما على الرغم من بعده عن الديمقراطية البحتة. إضافة إلى ذلك، قد يأخذ هذا التفاوض الضمني في النظر بعض الحقائق (القاسية ربما) بشأن الطبيعة البشرية التي قد لا تبدو واضحة للوهلة الأولى. كما أن علينا النظر نحو المُسلّمات الأخلاقية بالطريقة التي ينظر بها المنقّب إلى الأحجار اللامعة - باحترام وشكّ بالغين، مع تردّد صحيّ في انتظار مزيد من التفحّص العاجل.

وستكون نتيجة مثل هذا التثمين متنوعة للغاية بحيث لا يُمكن وصفه عبر تعريف سهل. فقد يُطلق عليه محافظًا طالما أن ذلك يُشير إلى احترام أوّلي للتقاليد وليس حبًا أبديًا. ثم مرّة أخرى، قد تُدعى نتيجة التحليل بالليبرالية، طالما أن الليبرالية لا تتساوى مع مذهب المتعيّة أو الانفتاح الأخلاقي. إذا كانت الفلسفة الأخلاقية للّيبرالية هي ما طرحه جون ستيوارت مِل «الراديكالي» (في أيّامه) ضمن كتابه «عن الحرية»، فإنها تتضمن تقديرًا صحيًا للجانب المظلم من الطبيعة البشرية والحاجة إلى ضبط النفس، حتى لأجل غايات الرقابة الأخلاقية.

أمّا بالنسبة إلى تأثيرات الحتميّة البيولوجية الزاحفة - أي الحتمية الزاحفة عمومًا - فهي تتحدّى كذلك التصنيف الأيديولوجي. من ناحية، عبر التأكيد على أن الحبس دائمًا ما يُمثّل مأساة أخلاقية، وإن كان في الأمر ضرورة عملية، فالحتمية تؤكد على المسارعة إلى محو الظروف الاجتماعية، كالفقر، المؤدية إلى السلوكيات التي يعاقب عليها القانون. وقد رأى داروين ذلك. في ملاحظاته، وبعد إعلان تأييده للحتمية والاعتراف بالخواء الفلسفي للعقاب، كتب: «إن من يؤمن بهذه الآراء سيولي اهتمامًا كبيرًا للتعليم»، وأشار إلى أن الحيوانات «تهاجم الضعفاء والمرضى كما نفعل نحن مع الأشرار. - بينما علينا الإشفاق والمساعدة والتعليم عبر نشر دوريات طوارئ في الطريق لتوجيه القوى المحفّزة».

ومع ذلك، كتب أن لو كان الرجل الشرير «سيئًا بما يتجاوز الإصلاح، فلن يُقوّمه شيء». أكيد. فعلى الرغم من تشديد الأنموذج الجديد على المرونة العقليّة التي لطالما شدّد عليها الليبراليّون، لكنه يُشير كذلك - كما هو حال الملاحظة العرضية - لأن هذه المرونة ليست مطلقة، ولا أبديّة بالتأكيد؛ حيث يبدو أن كثيرًا من آليات النمو العقلية لها آثارها الجوهرية في أثناء العقدين أو الثلاثة الأولى من الحياة. ولم يتّضح بعد كيف أصبحت الجوانب المختلفة للشخصية ملموسة. (أيُمكن للرجل أن يُصبح مغتصبًا غير قابل للتقويم تقريبًا، أم على الأقلّ غير قابل للتقويمّ حتى انخفاض مستوى التستوستيرون لديه، قرب منتصف العمر؟) لكن الإجابات قد تكون أحيانًا من جملة ما يُفضّله اليمين السياسي الذي يُجادل لصالح حبسهم ورمي المفاتيح.

من الواضح أن التقدّم في علم النفس التطوّري سيؤثّر - تأثيرًا مشروعًا - على الخطاب الأخلاقي والسياسي للعقود القادمة. لكن لن يوجد عنوان أيديولوجي سهل لتلخيص هذه الآثار. وبمجرّد فهم الجميع هذا، لن يظلّ وجود لحشد النقّاد سواء أيمينًا أم يسارًا كي يتصدّى لهم الداروينيون. حينها فقط سيُمكن للتنوير المضيّ قُدمًا.

الفصل الثامن عشر

داروين ينقضّ على الدين

«كتبت في مجلّتي أنه في أثناء وقوفي وسط أُبّهة غابة برازيلية، «ليس بالإمكان إعطاء فكرة مناسبة عن مدى مشاعر الدهشة والإعجاب والتفاني الهائلة التي تملأ وتُرَقّي العقل»، أذكر جيدًا قناعتي أن في الرجل ما هو أكثر من مجرّد النَفَسْ. لكن الآن لم تعد هذه المشاهد العظيمة تتسبب في إثارة مثل هذه القناعات والمشاعر في عقلي. يُمكن القول حقًا: إنّي أشبه برجل أصيب بعمى الألوان...»

السيرة الذاتية (١٨٧٦)

حينما غادرت البيغل إنجلترا، كان داروين أرثوذكسيًا ومسيحيًا مخلصًا. واستذكر لاحقًا «ضحك عدد من الضبّاط منه (على الرغم من كونهم أرثوذكسيين أيضًا) لاستشهاده بالكتاب المقدس بعدّه سلطة قاطعة عن إحدى مسائل الأخلاق»، لكن الشكوك بدأت تتسلّل إليه. فقد كدّره «التاريخ الزائف الجليّ للعالم» في العهد القديم وتصويره الربّ بوصفه «طاغية منتقمًا»، كما وتساءل عن العهد الجديد أيضًا؛ فعلى الرغم من أنه وجد تعاليم يسوع الأخلاقية جميلة، إلّا أنه رأى «اعتماد كمالها جزئيًا على التفسير الذي نضعه للاستعارات والرمزيّات».

كان داروين توّاقًا لاستعادة يقينه. وحَلَمَ بالتنقيب عن المخطوطات القديمة التي من شأنها تأييد الإنجيل. لكن ذلك لم يساعده. «ظلّلت أفقد إيماني بمعدّل بطيء شيئًا فشيئًا».

بعد أن فقد إيمانه بالمسيحية، تمسّك داروين لسنوات عدّة بتوحيد غير واضح. فقد آمن بـ«السبب الأول»، ذكاء إلهي ضبط الانتقاء الطبيعي وفق حركة إلى نهاية يعلمها هو. لكنه بدأ يتساءل بعدها: «هل يُمكن الوثوق بعقل الإنسان، الذي نشأ، كما أعتقد تمامًا، من دماغ متواضع كدماغ حيوان، عند استخلاصه مثل هذه الاستنتاجات العظيمة؟» استقرّ داروين أخيرًا في حالة من اللاأدرية المستقرّة إلى حد ما، وكان يُمتّع نفسه في لحظاته المتفائلة بسيناريوهات توحيدية؛ لكن لم تكن لحظات التفاؤل شائعة على المدى الطويل من حياته.

ومع ذلك، فمن ناحية، ظل داروين مسيحيًا دائمًا. إذ حاله حال كثير من أبناء عصره وجيله، كان منغمسًا في الصرامة الأخلاقية للإنجيلية. إذ عاش وفقًا للمبادئ التي تردد صداها في الكنائس الإنجيلية ووجد إيضاحًا علمانيًا في كتاب المساعدة الذاتية لساموئيل سمايلز: أن الرجل، عبر ممارسة «إرادته للعمل وإنكاره الذات» يُمكن أن يظلّ «مسلحًا ضد إغراء الانغماس في الملذات». كان هذا، كما رأينا، بالنسبة إلى داروين «أعلى مراحل الثقافة الأخلاقية» - مُدركًا «أن علينا التحكم بأفكارنا، و'لا نعيد التفكير ولو في سرّنا بالخطايا التي ارتكبناها وجعلت الماضي ممتعًا لنا'».

ولكن لو كان داروين بهذا المعنى مسيحيًا إنجيليًا فيُمكن أن يُطلق عليه، بالدقة نفسها تقريبًا، هندوسيًا أو بوذيًا أو مسلمًا. يتكرر موضوع الضبط الصارم للنفس والرغبات الحيوانية مرارًا وتكرارًا في الأديان الكبرى للعالم. كما وأنّ عقيدة المحبّة الأخوية التي رآها داروين جميلة للغاية شائعة الانتشار إلى حد ما. فقبل ست قرون من مجيء يسوع، قال لاو تزو: «إنها طريقة الطاو... أن يُقابل الأذى بالإحسان»، تدعو الكتب البوذية إلى «اعتناق المحبّة الشاملة للكون بأكمله... محبّة لا تشوبها الكراهية في السر، ولا

تثير العداء»، وللهندوسـية عقيدة اسمها «أهيمسا»، وهي انعدام كافّة النوايا الضارّة.

ما الذي على الدارويني فعله مع هذا التكرار اللافت للموضوعات؟ هل أن كثيرًا من الرجال في أوقات مختلفة كانوا مُطّلعين على وحي إلهي لجُملة من الحقائق الكونية؟ ليس بالضبط.

إن الخـط الدارويـنـي في الخطـاب الروحـي مشـابه كثـيرًا للدارويـنـي في الخطاب الأخلاقي. حيث يميل الناس إلى القول والاعتقاد بأشـياء تصبّ في مصلحتهـم التطوّرية المتأصّلة. هذا لا يعني أن إيواء هذه الأفكار يؤدي دائمًا إلى نشر جيناتهم. فقد تفشـل بعض المذاهب الدينية - التبتُّل على سبيل المثال - في تحقيـق ذلـك إلى حـدّ كبير. والتوقّع، بـدلًا من ذلك، هـو أن للمذاهب التي يتمسّـك فيها الناس بسـهولة نوعًا من التناغم مع الأعضاء العقلية التي صممها الانتقـاء الطبيعي. الواقع أن «الانسـجام» مصطلح فضفاض جدًا. فقـد تروي هـذه المذاهب، مـن ناحية، بعـض الظمأ النفـسي العميق (حيث يـرضي الإيـمان بالحياة الآخـرة إرادة البقـاء)؛ أو قد تكبح مـن ناحية أخرى بعض العطش الذي لا يُروى قبل التحوّل إلى عبء (كالشهوة مثلًا). ولكن بشـكل أو بآخر، لا بُدَّ للمعتقدات المُعتنقة أن تكون قابلة للتفسير من منظور العقـل البـشري المُتطوّر. وهكـذا حين يتمكّن عقـلاءٌ متنوّعون من تسـويق ذات الموضوعـات، موضوعات قد تقول شـيئًا عن ملامح ذلك العقل وعن الطبيعة البشرية.

هل يعني ذلك أن للتعاليم الدينية المشتركة نوع من القيمة الخالدة بوصفها قواعـد للعيـش وفقًـا لها؟ اقـترح دونالـد توماس كامبـل، أحد علـماء النفس الأوائل ممن تحمّسوا للداروينية الحديثة، هذا القَدْر. ففي خطاب إلى جمعية علم النفـس الأمريكيـة، تحدّث عن «المصـادر المحتملة للصحّـة في وصفات الحياة التـي طُوِّرت واختُـبِرَت وفُرِزَت في أثنـاء مئات الأجيال مـن تاريخ الحضارة الإنسـانية. ووفق أسـس علمية بحتة، يُمكن عدّ هذه الوصفات للحياة أجود اختبار من أجودِ تكهنات علم النفس والطب النفسي عن كيفية عيش الحياة».

قال كامبل هذا في العام ١٩٧٥، مباشرة بعد إصدار ويلسون كتابه السوسيوبيولوجيا وقبل تبلّور التشاؤمية الداروينية بالكامل. واليوم سيكون كثير من الداروينيين أقل تفاؤلًا. إذ ألحظ بعضهم أنه في حين يجب أن يكون للأفكار نوع من التناغم مع الأدمغة المستضيفة لها، فذلك لا يعني أنها جيّدة لتلك الأدمغة على المدى الطويل. حيث تبدو بعض الأفكار واقعًا متطفلة على الدماغ - بمثابة «فيروسات» على حد تعبير ريتشارد دوكينز. إذ تستمرّ فكرة أن «حَقْنَ الهيروين ممتع» في التفشّي بين الناس عبر جذب ضعفاء النفوس قصار البصر، على الرغم من كونها نادرًا ما تعود على هؤلاء بفوائد في النهاية.

إلى جانب ذلك، حتى لو تفشّت فكرة عبر خدمة مصالح الناس على المدى البعيد، فقد تكون المصالح لحساب مسوّقيها، لا مشتريها. يميل القادة الدينيون للتمتّع بمكانات رفيعة، وليس عجيبًا النظر إلى وعظهم بوصفه شكلًا من أشكال الاستغلال، تطويعٌ خفي لإرادة المستمع من أجل خدمة غايات المتحدّث. حيث مؤكد أن تعاليم يسوع، وبوذا، ولاو تزو، كان لها تأثير في تضخيم سلطة يسوع وبوذا ولاو تزو، ورفع مكانتهم بين جماعة متنامية من الناس.

ومع ذلك فالأمر كما لو أن المذاهب الدينية كانت دائما ما تُفرَضُ على الناس. معروف أن الوصايا العشرة كان لها سلطة شمولية معيّنة، تتناقلها قيادة سياسية وعليها توقيع الربّ نفسه. ويسوع كذلك، على الرغم من افتقاره لمنصب سياسي، لكنه كان دائم التذرّع بتأييد الرب. لكن بوذا مثلًا لم يُشدّد على سلطة خارقيّة. وعلى الرغم من نبالة مولده، فقد قيل: إنه تخلّى عن بهارج المكانة ليجول العالم ويُعلّم؛ حيث بدأت حركته كما يبدو من الصفر.

الحقيقة أن كثيرًا من الناس في أوقات مختلفة اشتروا مذاهب دينية مختلفة من دون إكراه خارجي بالغ. ويفترض وجود بعض المكافآت النفسية لذلك. فالأديان الكبرى هي على مستوى ما أيديولوجيات للمساعدة الذاتية. وسيكون من الهدر حقًا، كما يقترح كامبل، رمي دهور من التقاليد الدينية من

دون فحصها أولاً. لربما خدم الحكماء أنفسهم، مثلهم مثل بقيتنا، لكن هذا لا يعني أنهم ليسوا حكماء.

شياطين

أحد الموضوعات العظيمة للديانات الكبرى هو الإغواء الشيطاني. حيث نرى مرارًا وتكرارًا كيانًا شريرًا يحاول، تحت ستار من البراءة، إغواء الناس لارتكاب فاحشة هيّنة ظاهريًا لكنها تستجيل مخالفة جسيمة في النهاية. الشيطان موجود في الكتاب المقدس والقرآن. وفي النصوص البوذية هناك المغوي الأعظم مارا، الذي ينشر بخبث بناته راتي (الرغبة) وراجا (المتعة).

قد لا يبدو الإغواء الشيطاني مثل عقيدة علميّة بشكل خاص، لكنه يلتقط جيدًا الديناميكيات التي تُكتَسب عبرها العادات: ببطء ولكن بثبات. فعلى سبيل المثال، «يريد» الانتقاء الطبيعي من الرجال ممارسة الجنس مع سلسلة لانهائية من النساء. وهو يُحقق هدفه هذا بسلسلة ماكرة من الإغواءات التي يُمكن أن تبدأ، مثلًا، بمُجرّد التفكير في الجنس خارج إطار الزواج ثم تزداد قوّة باطّراد حتى تجمح في النهاية. لاحظ دونالد سيمونز: «يقول يسوع، ›كلّ من نظر لامرأة نظرة شهوة مارس معها الزنا في قلبه‹ ذلك لإدراكه أن وظيفة العقل توليد السلوك».

ليس من قبيل المصادفة أن الشياطين وتجّار المخدرات غالبًا ما يستعملون ذات الجمل الافتتاحية («جرّب قليلًا منه فحسب؛ سيُشعرك بالرضا»)، أو أن المتديّنين غالبًا ما يرون الشياطين في المخدرات. فاعتياد أيّ غاية – ولنقل الجنس أو السلطة – هي عملية إدمانية حرفيًا؛ اتّكال متزايد على موادّ كيميحيوية تجعل من تلك الأمور مرضية. حيث كلّما تعاظمت سلطتك، رغبت بالمزيد. وأي انحدار فيها سيُشعرك بالسوء، حتى وإن كان هبوطك إلى مكانة سبق وأشعرتك يومًا بالنشوة. (إحدى العادات التي لم «يقصد» الانتقاء الطبيعي تشجيعها يومًا هي إدمان المخدّرات نفسها. فهذه المعجزة التكنولوجية كانت تدخلًا كيميحيويًا غير متوقّع، عملًا تخريبيًا لنظام

المكافآت. إذ كان مفترضًا حصولنا على الاستثارة بالأساليب القديمة، من نتائج أعمالنا اليومية الشاقّة: الأكل، والجماع، والتفوّق على المنافسين وغيرها).

يرتبط الإغواء الشيطاني بسلاسة إلى حد ما مع المفهوم الأساس للشر. فكلا الفكرتين - كائن خبيث وقوّة خبيثة - تضفيان قوّة عاطفية للمشورة الروحية. إذ حينما أخبرنا بوذا بأن «نَقِّبْ عن جذور التوق» بحيث «لا يسحقك مارا المغوي مرارًا وتكرارًا»، وجب علينا تجهيز أنفسها لمعركة موشكة؛ هذه عبارات قتالية. إن تحذيرات كَوْن الجنس أو المخدرات أو الدكتاتور المدمن على الحروب هي «شرور» تتشابه تأثيراتها.

لا يتلاءم مفهوم «الشر»، على الرغم كونه أقلّ بدائية من الناحية الميتافيزيقية مقارنة بـ«الشياطين» مثلًا، بسهولة مع الرؤية العلمية العالمية الحديثة. ومع ذلك يبدو أن الناس لا يزالون يرون فائدة فيه، والسبب ملاءمته من الناحية المجازية. فهناك بالفعل قوة مكرّسة لإغوائنا تجاه ملذّات مختلفة هي من (أو كانت يومًا من) مصلحتنا الجينية لكنها لا تجلب لنا السعادة على المدى الطويل وقد تتسبّب بأذى بالغ للآخرين. ويُمكنك دعوة تلك القوّة بشبح الانتقاء الطبيعي. ويُمكنك دعوتها، بشكل أدق، جيناتنا (أو بعضها على الأقل). ولو كان مفيدًا الاستعاضة بمفردة شر، فلا سبب لتجنّب استعمالها.

حينما يحثّ بوذا على التنقيب بحثًا عن «جذور التوق»، لا ينصح بالامتناع عن ممارسة الجنس بالضرورة. فمن المؤكد أن هناك حديثًا في كثير من الأديان عن الامتناع عن أشياء متنوعة، والامتناع عن الجنس إحدى طرق تقليل الإدمان على الرذيلة. لكن بوذا لم يركّز كثيرًا على قائمة المحظورات بقدر تركيزه على تبنّي سلوك متقشّف عمومًا، ولامبالاة تهذيبية بالمكافآت الماديّة والمُتع الحسيّة: «اقطع غابة الرغبات كُلّها، ولا تكتفي بشجرة واحدة!».

شجّع هذا التحدّي الأساس للطبيعة البشرية عدد من الأديان الأخرى. حيث قال يسوع في عِظة الجبل: «لا تكن لكم كنوز على الأرض»؛ و«لا تشغل بالًا بحياتك، أو مأكلك أو مشربك؛ ولا بالكسوة التي تضعها على جسدك»،

كما تتناول النصوص الهندوسية، مثلها مثل البوذية، بمزيد من الإسهاب والوضوح، موضوع الانسحاب من عالم المُتع. فالإنسان الناضج روحيًا من «يتخلّى عن الرغبات»، ومن «فقد رغبته بالمباهج»، ومن «سحب حواسّه من الأشياء الحسيّة مثلما تسحب سلحفاة أطرافها من جميع الجهات»، ومن هنا فالرجل المثالي كما صُوِّر في البهاغافاد غيتا: رجل منضبط، يتصرّف من دون الاهتمام بثمار تصرّفه، لا يدفعه ثناءٌ أو يُثبّطه نقد. وهذه كانت الصورة التي ألهمت غاندي للمثابرة من دون «أمل في النجاح أو خوف من الفشل».

ليس التشابه الكبير بين الهندوسية والبوذية بالشأن الصادم. فقد ولِدَ بوذا هندوسيًا. لكنه أخذ مسألة اللامبالاة الحسيّة نحو مكانة أبعد، ملخصًا ذلك في شعار قاس - الحياة معاناة - وواضعًا إياه في صميم فلسفته. لو تقبّلت البؤس المتأصّل في الحياة، واتّبعت تعاليم بوذا، عندها سيُمكنك التوصّل بشكل مُستغرب إلى السعادة.

ضمن كل هذه الاعتداءات على الحواس، تكمن حكمة عظيمة - ليس بشأن إدمان الملذات فحسب ولكن بزوالها أيضًا. فجوهر الإدمان، بعد كل شيء، هو ميل المتعة إلى ترك صاحبها قانطًا مع ترك العقل مضطربًا جائعًا للمزيد. فكرة أن دولارًا إضافيًا فقط، مداعبة أخرى فحسب، محض درجة أخرى على سلّم المكانة ستتركنا نشعر بالرضا خاطئة وتعكس سوء فهم للطبيعة البشرية - بل سوء فهم متأصل في الطبيعة البشرية؛ إذ صُمِّمنا بحيث نشعر أن الهدف العظيم اللاحق سيُرضينا، وهذا الرضا مُصمَّمٌ للتبخر بعد مدة وجيزة من بلوغه. للانتقاء الطبيعي حسّ دعابة خبيث؛ فهو يسوقنا بسلسلة من الوعود ثم يقول بعدها «إنّما كنت أمزح فقط»، وكما يضع الكتاب المقدّس الأمر: «يكدح الإنسان لملء فمه، وشهيته على الرغم من ذلك لا تشبع». إنه لأمر لافت للنظر قضاؤنا حياتنا في مطاردة مع ما لا يُمكننا اللحاق به.

ونصيحة الحكماء - بحَثّهم على رفض لعب هذه اللعبة - ليست أقل من تحريض على التمرّد، تمَرّدٌ ضدّ الخالق. فالملذّات الحسيّة هي سوط الانتقاء

الطبيعي للسيطرة علينا وبقائنا عبيدًا لنظام ذا قِيَم مشوّهة. ولذا فزرع بعض اللامبالاة تجاهها إحدى الوسائل المعقولة للتحرّر. وبينما يُمكن لقلّة منا ادّعاء قطعهم مسافة طويلة على هذا الطريق، فإن تكاثر هذه النصائح الدينية يُشير إلى نجاحها في قطع جزء من تلك المسافة.

كما أن هناك تفسيرًا أكثر تشاؤمًا أيضًا لهذا التكاثر. حيث تتمثّل إحدى وسائل التوفيق بين الفقراء ومحنهم في إقناعهم بأن الملذات الماديّة ليست ممتعة بأي شكل. يُمكن للعِظات بشأن التخلّي عن التمتّع أن تكون أداة للسيطرة الاجتماعية والقمع. وكذلك الحال مع تأكيد يسوع أن في الحياة الآخرة «سيكون الأول أخيرًا والأخير أولًا» - يُشبه الأمر قليلًا وسيلة تجنيد لأشخاص متدنّي المكانة ضمن جيش متنامي، تجنيد يبدو أنهم سيتحمّلون تكلفته عند الانخراط بعد التوقّف عن الكفاح من أجل النجاح الدنيوي. ويبدو أنّ الدين، من وجهة النظر هذه، دائمًا ما كان أفيونًا للشعوب.

ربما هو كذلك بالفعل. لكن يظلّ صحيحًا أن المتعة مؤقّتةٌ سريعة الزوال؛ وأن السعي المستمرّ وراءها لا يُمثّل مصدرًا مضمونًا للسعادة (كما ألحظ ساموبل سمايلز وجون ستيوارت مِل كذلك)؛ وأننا لم نُخلق كي نُدرك هذه الحقيقة بسهولة؛ وأن الأسباب لكل ذلك تظهر جليّة في ضوء الأنموذج الدارويني الجديد.

هناك تلميحات مبعثرة في النصوص الدينية القديمة عن فهم؛ لأن الكفاح البشري - السعي وراء المتعة والثراء والمكانة - مُقيّدٌ بالخداع الذاتي. يُفيد البهاغافاد غيتا أن الرجال «المُخلصين للمتعة والسلطة . . . مُجرّدون من البصيرة»، فالسعي وراء ثمار الفعل بمثابة العيش في «دغل من الأوهام»، يقول بوذا إن «خير الفضائل الإمساك؛ وخير الرجال من له عيونًا يرى بها»، بينما كُتِبَ في سِفَر الجامعة: «رؤية العيون خيرٌ من شهوة النفس».

بعض هذه الأقوال تبدو غامضة في سياقاتها، ولكن لا شكّ بالوضوح الذي رأى فيه الحكماء وهمًا بشريًا معينًا: ألا وهو الانحياز الأخلاقي العميق تجاه الذات. تتكرر هذه الفكرة في تعاليم يسوع إذ يقول: «من كان منكم

بـلا خطيئة فليرمني بأول حجر»؛ «يا مُرائي، أُخرِجْ أولًا الخشبة من عينك، وحينئـذ تبـصر جيدًا أن تخرج القـذى من عين أخيك»، كما صـاغ بوذا الأمر نفسـه بلغة أوضح: «سـهلٌ هو إدراك أخطاء الآخرين، لكن الصعب إدراك أخطاء النفس».

رأى بـوذا عـلى وجـه الخصوص أن أكثر الوهم ناشـئ عن ولع الإنسـان بالتفـوّق. وفي تحذيـره لأتباعه ضد التنـازع الدوغمائي قـال: «دليل الحواسّ والأعـمال يلهم مثل هذا الازدراء للآخرين، وبثقة مُتغطرس أنه على صواب في عدّه كافّة منافسيه حمقى وأغبياء مثيرين للشفقة».

إن هذا الفهم لمنظورنا المشوّه بطبيعته مُقيّد بالعِظات عن المحبّة الأخوية. حيث تفترض هذه العِظات أننا نميل بشدّة لعدم رؤية الجميع بالرحمة نفسها التي ننظر بها صوب أقربائنا وأنفسـنا. في الواقع، لو لم نكن ميّالين بعمق، لو لم ندعم ميّلنا هذا بكلّ ما نملك من قناعات أخلاقية وفكرية، ما كُنّا لنُضطر إلى بدء دين جديد بالكامل كي نُصحّح الخلل.

كـما وأن التخلّي عـن الملذّات الحسـيّة مرتبـط بالمحبّة الأخويـة. فمعاملة الآخريـن بكرم ومراعاة مهمّة صعبـة إلّا لو هربت بطريقة ما من الانهماك في تغذية الأنا. وبشـكل عام، بعض الهياكل الفكرية الدينية تُعدّ برامج متماسكة إلى حدّ ما هدفها تعظيم المحصلة غير الصفرية.

نظريات عن المحبّة الأخوية

ويظلّ السـؤال: كيف بـدأت هذه الهياكل؟ ولماذا ازدهـرت عقيدة المحبّة الأخويـة بهذا القدر؟ ضـع جانبًا للحظة أنها كُرِّمت بشـكل رئيس لعصيانها الطبيعـة، وأنـه حتى أولئـك المواظبـين في سـعيهم وراءها قـد يتمكّنون من تخفيـف حبّهم لذواتهم بنحو سـهل فقـط، ولاحظ أن الأديـان المنظمة كثيرًا مـا كانـت أدوات لانتهـاك العقيدة على نطاق اسـتثنائي. إن الحقيقة اليسـيرة بـأن هـذه الفكرة حيّة في هـذا الجنس أمر يثـير الفضول. ففي ضـوء النظرية الداروينية، يبدو كل شيء بخصوص المحبّة الأخويّة متناقضًا باسـتثناء القوّة

البلاغية لمصطلح أخويّة. وهذا لوحده لم يكن كافيًا لتسويق الفكرة بالتأكيد.

تتراوح الحلول المقترحة لهذا اللغز من المفرطة في التشاؤم إلى المعتدلة الإلهام. وفي طرف الطيف الأكثر إلهامًا هناك نظرية الفيلسوف بيتر سينغر. حيث يسأل كتابه الدائرة المتّسعة كيف نما نطاق التعاطف الإنساني متجاوزًا الحدود البدائية المتمثّلة بالعائلة، وربّما الجماعة. يلاحظ سينغر أن الطبيعة البشرية، وهيكل الحياة الاجتماعية البشرية، عوّدت الناس منذ وقت طويل على تبرير أفعالهم علانية بعبارات موضوعية. فحينما نُلح على كسب الاحترام خدمة لمصالحنا، نتحدّث كما لو كنا لا نطلب أكثر مما قد يطلبه أي شخص مكاننا. يعتقد سينغر أن بمجرّد تأسيس هذه العادة (عبر تطور الإيثار المتبادل، من بين أشياء أخرى)، فإن «استقلالية التفكير» ستتولى زمام الأمور. لقد نشأت «فطرة الدفاع النزيه عن النفس» من المصلحة الذاتية، «أمّا بالنسبة إلى فكر الكائنات الموضوعية، فالأمر يأخذ منطقًا خاصًا به يقود نطاقه إلى الامتداد لما وراء الجماعة».

وقد نما هذا الامتداد بشكل يُثير الإعجاب. يروي سينغر كيف حثّ أفلاطون زملاءه الأثينيين على اعتناق ما كان تقدمًا أخلاقيًا كبيرًا وقتها: «إذ جادل بأن اليونانيين عليهم ألّا يستعبدوا اليونانيين الآخرين في الحرب، ولا يستبيحوا أراضيهم أو يدمروا منازلهم؛ بل ألّا يفعلوا ذلك سوى مع من هم غير يونانيين». مرّ زمن طويل منذ صار نمو الاهتمام الأخلاقي الشامل لحدود الدولة-القومية قاعدة. إذ يعتقد سينغر أنه سيبلغ في نهاية المطاف أبعادًا عالمية: بحيث تُمثّل مجاعة في أفريقيا فضيحة كبرى للأمريكيين مثلما لو كانت المجاعة في أمريكا نفسها. يُحتّم المنطق الخالص اتّصالنا الحق بالتعاليم الدينية العظيمة عبر العصور – المساواة الأخلاقية الجوهرية بين الجميع. إذ ينتشر تعاطفنا، كما ينبغي عليه، بالتساوي بين البشرية. وقد تشارك داروين هذا الأمل. حيث كتب في أصل الإنسان: «بينما يتقدّم الإنسان في الحضارة، وتتوحّد القبائل الصغيرة مُشكّلة مجتمعات أكبر، فإن أسهل منطق من شأنه إخبار كل فرد بوجوب مدّ غرائزه الاجتماعية وتعاطفه بحيث تشمل كافّة

أفـراد أمّتـه، حتـى وإن لمّ يعرفهم شـخصيًا. وبمُجرّد بلوغ هـذه النقطة، لن يظلّ هناك ما يستطيع منع تعاطف الإنسان من التمدّد وشمول الآخرين من الأمم، والأعراق الأخرى سوى الحواجز المصطنعة».

بمعنى ما، يقول سينغر: إن جيناتنا كانت شديدة الذكاء بمقدار النصف. حيـث بـدأت منذ زمن بعيد في سـتر الأنانية الخام باللغـة المتعالية للأخلاق، مسـتعملة إياها كي تسـتغل مختلف الدوافع الأخلاقية التي أوجدها الانتقاء الطبيعي. وهذه اللغة الآن، كما سُـخّرت لأجل منطق خالص، تدفع العقول التي شيّدتها للتصرّف بأنانية. صمّم الانتقاء الطبيعي أمرين من أجل المصلحة الذاتيـة الضيقة - الموضوعية البـاردة والدوافع الأخلاقية الدافئة - وبطريقة ما، عند الجمع بينهما، تُصبح لهما حياتهما الخاصّة.

كفى إلهامًا. فتفسير سبب حثّ كثير من الحكماء على توسعة نطاق البوصلة الأخلاقية واحدٌ أكثر تشـاؤمًا سـبق أن ضمّناه في بداية الفصل: إذ ستُوسّـع بوصلة كبيرة جدًا من سـلطة الحكماء المنشـودة. لقد جعلت الوصايا العشرة بما فيها من حظر الكذب، والسرقة، والقتل، رعيّة موسى أيسرَ تنظيمًا. كما أن تحذيرات بوذا بشأن الشجار الدوغمائي حفظت قاعدة سلطته من الانقسام.

ومـا يدعـم هذه التشـاؤمية حقيقة أن الحـب العالمي الـذي تبنّته كثير من الكتب المقدّسة لا يظهر عند الفحص الدقيق عالميًا. حيث تأتي أناشيد نكران الذات في البهاغافاد غيتا في سياقات ساخرة إلى حد ما: إذ حفّز الإله كريشنا المحارب أرجونا تجاه الانضباط الذاتي حتى يستطيع ذبح جيش العدو بمزيد من الفاعلية - جيشٌ كان يتضمّن بعضًا من أقاربه. وفي رسالة بولس إلى أهل غلاطية، بعد ترنيم أناشـيد الحب والسلام والوداعة والصلاح، قال: «دعونا نفعـل خـيرًا للبشر جميعًا، ولا سـيما المنتمـون إلى بيت الإيـمان»، هذه كلمات حكيمـة في الواقـع، وهي صادرة عن لسـان ربّ البيت. لقـد أُثبِت أنه حتى يسـوعَ لم يعِـظ حقًا لصالح الحبّ العالمي، وأن أوامـره بمحبّة «أعدائه» حينما قُيّمت بعنايةٍ، وجِدَ أنها لا تنطبق سوى على أعدائه من اليهود.

في ضوء ذلك، تبدو «الدائرة المتّسـعة» لسينغر امتدادًا لم يعتمد بالضرورة

على المنطق الأخلاقي بل على النطاق السياسي. فبينما يتجاوز التنظيم الاجتماعي مستوى جماعة من الصيادين جامعي الثمار – إلى القبيلة، الدولة المدينة، والدولة القومية – يُصبح التنظيم الديني واسع النطاق أمرًا ممكنًا. لذا يستغلّ الحكماء الفرصة لبسط نفوذهم، ما يعني الوعظ لصالح التسامح واسع النطاق إلى حدّ معيّن. وبذلك فإن مناشدات المحبة الأخويّة تقبل المقارنة مع مناشدات السياسيين حول التمسّك بالوطنية خدمة لمصالحهم. بل إن مناشدات محبّة الوطن هي بطريقة ما مناشدات للمحبّة الأخوية على نطاق وطني.

وهناك نظرية ثالثة تستقرّ قريبًا من منتصف طيف التشاؤمية. نعم، ربما صحيح أن وصايا موسى العشرة يَسَّرت تنظيم رعيّته. لكن يُفترض أنّ كثيرًا من الغنم سيجدُ فائدة من ذلك، حيث لضبط النفس والمراعاة المشتركة فوائد محصّلتها لاصفرية. بعبارة أخرى، إن الزعماء الدينيين، بغض النظر عن مصالحهم الأنانية، لم يكتفوا بفرض مصالحهم على الجماهير فحسب، بل وجدوا تراكبًا بين مصالحهم ومصالح الجموع، وهذا التراكب بات أكبر؛ فمع نمو نطاق التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، ومعها المحصلات غير الصفرية، أنتجت المصلحة الذاتية سلوكًا بحدّ أدنى من اللياقة تجاه أكبر قدر من الناس. والقادة الدينيون يزدادون سعادة بارتقاء مكانتهم على نحو متناسب.

ولم يُصب التغيير التنظيم الاجتماعي فقط، بل طال طبيعته نفسها. لقد صُمِّمت المشاعر الأخلاقية كي تلائم بيئة بعينها، أو سلسلة من البيئات على وجه التحديد، من ضمنها قرى الصيادين جامعي الثمار وغيرها من المجتمعات السابقة التي فُقِدت في ضباب عصور ما قبل التاريخ. ومن الآمن القول: إن هذه المجتمعات لم يكن لها نظام قضائي وشرطة قويّة. في الواقع فإن قوة الدافع العِقابي تمثّل شاهدًا على عهد كان فيه من لم يستطع الدفاع عن نفسه لن يُدافع عنه أحد.

ثم في مرحلة ما بدأت الأمور في التبدّل، حيث شرعت قيمة هذه الدوافع

بالتلاشي. واليوم، يُضيِّع معظمنا قدرًا كبيرًا من الوقت والطاقة في إشباع غضبه. حيث نتعامل بشكل غير فعَّال مع السائقين المتهورين؛ نقضي يوم عمل كامل رفقة الشرطة للعثور على لص حقائب يد، على الرغم من تضمّن الحقيبة ما قيمته ثلاث ساعات عمل بالنسبة إلينا، إلى جانب أن إلقاء القبض على اللص لن يخفض احتمالية الوقوع ضحية للسرقة في المستقبل؛ كما ونقضي كثيرًا من الوقت في حسد المنافسين على حسن حظهم على الرغم من قدرتنا على جلب الشقاء لهم، بل ويُمكننا حتى الاستفادة من معاملتهم بمزيد من الكياسة.

يصعب القول متى بدأت تحديدًا بعض المشاعر الأخلاقية في الزوال في أثناء التاريخ البشري. لكن يجدر بنا التفكير في رؤية دونالد كامبل في أن أديان الحضارات المتمدّنة القديمة – «التي نشأت بشكل مستقل في الصين، والهند، وبلاد ما بين النهرين، ومصر والمكسيك، وبيرو»، – كانت المصدر الموثوق لعناصر الأديان الحديثة المألوفة: كبح «كثير من جوانب الطبيعة البشرية»، من ضمنها «الأنانية، والتكبّر، والجشع، والطمع، والشهوة، والغضب».

يعتقد كامبل أن هذا الكبح كان ضروريًا لـ«تنسيق اجتماعي أمثَل»، وسواء أكان يعني «أمثَلُ» بالنسبة إلى الحاكم أم المحكوم فهو لم يقل شيئًا بخصوص ذلك. ويُمكننا التجرؤ على القول: على الرغم من تناقض الاثنين في بعض الأحيان، إلّا أنهما ليسا متعارضين تمامًا. إذ إضافة إلى ذلك، قد يمتدّ «التنسيق الاجتماعي» في السؤال لما وراء نطاق الأمة الواحدة. وصار كليشيهيًا القول: إن شعوب العالم اليوم أصبحت أكثر ترابطًا من أي وقت مضى. كليشيهي ولكن حقيقي. فالتقدّم المادّي أدى إلى تعميق التكامل الاقتصادي، بينما جلبت التكنولوجيا المتنوعة على الإنسانية تهديدات لا يُمكن مقارعتها إلّا بالتنسيق، كالتدهور البيئي وانتشار الأسلحة النووية. ربما كان هناك وقت حينما عُدَّ من مصلحة القادة السياسيين تأجيج الكراهية والتعصّب لدى شعوبهم إلى حدّ الدخول في صراعات دولية. لكن هذا وقت شارف على الانتهاء.

تُعَلِّم النصوص الهندوسية أن هناك روحًا عالمية وحيدة تسكن الجميع؛ إذ «يرى الحكيم نفسه فيها جميعًا وجميعها فيه»، بوصفها استعارة لحقيقة فلسفية عظيمة - المساواة المقدّسة (اقرأ: القيمة النفعية) لكل مجال وعي إنساني - فهي تعاليم عميقة المعنى. وبوصفها أساسًا لقاعدة حياتية عملية - أن الحكيم يمتنع عن إيذاء الآخرين «كي لا يؤذي نفسه». - فهي تعاليم مُتبصّرة. إن الحقيقة التي يشير لها قدماء الحكماء - مهما بلغوا من أنانية وغموض - لم تكن صحيحة أو ثمينة فحسب، بل ومُقدّرٌ لها أن تزداد قيمة بمرور الزمن كذلك.

عِظات اليوم

في توضيحه لـ«الضمير البوريتاني» لإنجلترا الفيكتورية، وصف والتر هوتون رجلًا كتب كافّة «خطاياه وأخطاءه» واكتشف عادة «الأنانية في كلّ جهد وتصميم»، وترجع الفكرة قديمًا إلى وقت مارتن لوثر، الذي قال: إن القديس هو شخص فهم أن كل ما يفعله نتاج غرور.

ينعكس هذا التعريف للقداسة بشكل إيجابي على داروين. إليكم هذا القول المميز: «لكن يا لها من رسالة ملؤها الغرور أكتبها؛ لقد أتعبتني للغاية عدم كفايتي بالحافز القليل للغرور والكتابة عن الذات المُحبّبة». (لا حاجة للقول: إن هذا النص يتبع مسارًا سيصيب قلّة من الناس اليوم بالغرور. فقد كان يُعبّر عن القلق، لا الثقة، بشأن كيفية استقبال العالم لعمله على متن البيغل).

سواء أكان داروين، وفقًا لمقاييس لوثر، مؤهلًا تمامًا كي يكون قديسًا أم لا، فمؤكد أن الداروينية، وفقًا لهذا المقياس، قادرة على مساعدة المرء ليكون قديسًا. إذ لا وجود لعقيدة تقدر على زيادة وعي الفرد بالأنانية المستترة بحدّة الأنموذج الدارويني الجديد. ولو فهمت هذه العقيدة واعتنقتها ثمّ طبّقتها، ستقضي حياتك في شكّ حيال دوافعك.

تهانينا! هذه هي الخطوة الأولى تجاه تصويب الانحيازات الأخلاقية التي أصّلها الانتقاء الطبيعي فينا. والثانية منع هذه التشاؤمية المكتسبة حديثًا

من تسـميم وجهة نظرنا تجاه الآخرين: بإقران القسـوة تجـاه الذات مع اللين تجـاه الآخريـن: أيّ التخفيف إلى حد ما من الأحكام القاسـية التي تجعلنا في أحيـان كثـيرة غير مبالين برفاه الآخرين، هـذا إن لم نكن معادين له؛ أن نبذخ التعاطف الذي لم يَبْذر منه التطوّر غير القليل. ولو أثبتت هذه العملية نجاحًا كبـيرًا، فقد ينتج عنها شـخص يهتـم برفاه الآخرين إلى حـدّ ملحوظ، وإن لم يكن بذات الكمّ والجديّة التي يبذلها لنفسه.

قام داروين بعمل معقول في هذا الصدد. فعلى الرغم من إجادته التعامل إلى حـد ما مع غرور الآخرين، وازدرائه له، لكـن موقفه العام تجاه الآخرين كان ذا جدّيّة أخلاقية عظمى؛ حيث احتفظ بمعظم سـخريته لنفسـه. وحتى حـين لم يكن قادرًا على تجنّب كراهية أحدهم، فقد حاول الإبقاء على كراهيته في سـياق موضوعـي. إذ فيـما يتعلّق بعـدوه اللدود ريتشـارد أوين، كتب إلى صديقـه هوكر: «أصبحت غاية في الشـيطانية بشـأن أويـن»، و»أبغي محاولة زيادة ملائكية مشـاعري تجاهه». المسـألة ليست عمّا إذا كان قد وفّق في ذلك. (فهـو لم يوفّـق.) بل المهمّ أن إدراج عبارة «شـيطانية» بأسـلوب نصف مازح في سـياق عن مشـاعر الكراهية التي تراود المرء بمثابة إظهار لمزيد من الشكّ الأخلاقـي الذاتي، ولتواضع في الشـعور بأهميّـة الذات، مقارنة بـما يتمتّع به أغلبنا. (ما يزيد من هذا الأمر إعجابًا أن مشـاعر داروين لم تكن شـاذّة تمامًا؛ فأوين، على الرغم من تشـكيله تهديدًا خاصًّا على مكانة داروين بسـبب عدم إيمانه بالانتقاء الطبيعي، كان رجلًا حقودًا ومكروهًا على نطاق واسـع)، لقد اقترب داروين إلى المستحيل تقريبًا وشغل موضعًا جديرًا بالثناء: حيث أبدى سـخرية منفصلـة وحديثـة تمامًا (إن لم تكن مـن مظاهر ما بعـد الحداثة) تجاه النفس، مقترنة بجديّة الفيكتوريين تجاه الآخرين.

شيء آخـر قاله مارتن لوثر، وهو أن العذاب الأخلاقي المزمن علامة على نعمـة إلهيـة. هنا نرى رجلًا كان يسـتلقي ليـلًا من دون أن يغمـض له جفن لشعوره بالذنب على عدم تمكّنه من إجابة رسائل بريدية.

قد نسـأل أين اللطف في إغراق أحدهم بالكرب. وإحدى إجابات ذلك

أن بإمكان الآخرين الاستفادة من ذلك الموقف. ربما كان على مارتن لوثر قول: إن الشخص المعذب أخلاقيًا هو وسيط لنِعم الرب. وهذا (بالمعنى المجازي على الأقل) ما كانه داروين في أحيان: إذ كان نفعيًا مُسَبِّحًا. وعبر سحر المحصّلات غير الصفرية، حوّل تضحياته الصغيرة إلى مكاسب كبيرة لصالح الآخرين. فعبر قضاء بضع دقائق في كتابة الرسائل، كان يجعل يومه يشعُّ ضياءً، وربّما أسبوعه بكامله، بروح من نوع غير معلوم. لم يكن هذا ما صُمِّم الوعي لأجله، ذلك أن من كتب لهم لم يكونوا عادة في وضع يتيح لهم معاملة المقابل بالمثل، وأبعد من أن يُعينوا سمعة داروين الأخلاقية. ومثلما رأينا، فإن وعيًا جيّدًا، بأكثر معاني الاصطلاح تطلبًا وأخلاقيّة، هو ضمير لا يعمل فقط وفق ما «انتواه» الانتقاء الطبيعي.

يقلق بعضهم من أن الأنموذج الداروينـي الجديد سيُجرّد حياتهم من نبالتها. فلو كانت محبّتنا لأطفالنا مجرّد دفاع عن حمضنا النووي، وإن كانت مساعدتنا لصديق مجرّد سداد قيمة خدمات مُقدّمة من جانبه، ولو كان التعاطف مع المضطهدين محض تصيّد للفرص - إذن ما الذي تبقّى للفخر به؟ إحدى الإجابات على ذلك: السلوكيات الشبيهة بداروين. تجاوز دعوة الضمير سلس الفاعلية؛ ساعد من لا يُرجّح أن يساعدوك في المقابل، وافعل ذلك حينما لا يوجد شاهد على فعلك. تلك إحدى طرق أن تصبح حيوانًا أخلاقيًا بحق. والآن، في ضوء الأنموذج الجديد، يُمكننا رؤية مدى صعوبة ذلك، وكم كان ساموِيل سمايلز محقًّا حين قال: إن الحياة الصالحة حرب ضد «الجهل الأخلاقي والأنانية والرذيلة»؛ هؤلاء هم الأعداء حقًّا، وقد صُمّموا بحيث يكونون عنيدين.

والغريب أن الامتنان هو ترياق آخر لليأس أمام الانحطاط المطلق للدافع البشري. وإن لم تشعر بالامتنان تجاه البنية التحتية الأخلاقية الملتوية لنوعنا، فتأمّل البديل. حيث بالنظر إلى الطريقة التي يعمل وفقها الانتقاء الطبيعي، لدينا احتمالان فقط منذ فجر التطوّر: أ) أن يظهر في النهاية نوع له ضمير وشفقة وحبّ حتى، كُلّها مرسّخٌ في الأساس خدمة للمصلحة الذاتية؛ وب) ألّا يظهر يومٌ نوعًا يحوز كافّة هذه الصفات. حسنٌ، ما حدث كان الخيار أ.

حيث لدينا أساس من الكياسة كي نبني عليه. فحيوانٌ مثل داروين أمكنه بذل كثير من الوقت في القلق بشأن غيره من الحيوانات، ولا أقصد زوجته، وأطفاله، وأصدقائه رفيعي المكانة، ولكنْ عبيدٌ بعيدون ومعجبون مجهولون، وصولًا إلى الأحصنة والخراف حتى. ونظرًا لكون المصلحة الذاتية هي المعيار المهيمن لتصميمنا، فإننا جماعة من الكائنات الحيّة المراعية بنحو معقول. في الواقع لو تأملت القسوة المطلقة للمنطق التطوّري بما يكفي، فقد تبدأ بالنظر إلى أخلاقنا الحالية بوصفها مُعجزة تقريبًا.

نهاية داروين

كان داروين نفسه بين آخرمَن قد يرون نعمة الرب في كربهم، أو أي شيء آخر. إذ أبلغ، قرب نهاية حياته، أن إطاره الفكري الأنموذجي كان اللاأدرية. وحينما صرّح قبل يوم من وفاته، «لست أخاف الموت مطلقًا»، كان ذلك إلى حدّ كبير ترقبًا لراحة من المعاناة الأرضية التي ألّمت به، من دون أمل في مجيء ما هو أفضل.

لقد تفكّر داروين في معنى الحياة بالنسبة إلى «رجل لم يمتلك أو يُبدي إيمانًا مؤكدًا بوجود إله شخصي أو وجود مستقبلي يكافئ ويعاقب»؛ حيث آمنَ أن مثل هذا الرجل سيجد «وفقًا لحكم كافّة الحكام أن أعلى مراحل الرضا مستمدّة من اتّباع حوافز معيّنة، ألا وهي الغرائز الاجتماعية. فلو عمل لصالح الجماعة، سيتلقى استحسان رفاقه ويكسب محبّة أولئك الذين يعيش معهم؛ والمكسب الأخير بلا شكّ قمّة المتع الأرضية»، ومع ذلك، «قد يُطالبه عقله أحيانًا بالتصرّف عكس رأي الآخرين، ممن لن ينال استحسانهم حينذاك؛ لكنه سيظلّ شاعرًا بالرضا التام لمعرفته باتّباع دليل ضميره الأعمق».

ربّما كانت الجملة الأخيرة تلك مخرجًا مصمّم لأجل رجل قضى حياته كلها في تشييد نظرية تفتقر إلى «استحسان رفاقه من الرجال» عالميًا، نظرية، على الرغم صحتها، قد لا تميل نحو «صالح الجماعة»، وهي بالتأكيد نظرية لا يزال جنسنا البشري لم يتصالح معها.

بعد نحت مسطرة القياس الأخلاقي، منح داروين حياته درجة نجاح. «أظنّ أنني تصرّفت بنحو ملائم حينما كرّست حياتي للعلم»، ومع ذلك، بينما لم يكن يشعر «بندم على ارتكاب أي خطيئة عظمى»، لكنه غالبًا ما أَسِفَ على عدم فعل مزيد من الخير المباشر لصالح الرفاق من الكائنات، «وعذري الوحيد والهش اعتلالي الصحي البالغ ومزاجي العقلي، ما يُصعّب علي كثيرًا التحوّل من موضوع أو عمل إلى آخر. بإمكاني أن أتخيّل في منتهى الرضا بذل وقتي كاملًا في سبيل الإحسان، وليس لأجل القليل منه فحسب؛ إذ كان ذاك ليكون مسار سلوكيًا أفضل للغاية».

صحيحٌ أن داروين لم يحيَ حياة نفعية مثالية. الحقيقة أن لا أحد نجح في ذلك أبدًا. مع ذلك، وبينما كان قريبًا من الموت، استطاع حقًا استذكار حياته التي عاشها بلطف ورحمة، سلسلة من الواجبات أدّاها بأمانة، مع صراع مؤلم، ولو جزئيًا، ضد تيارات الأنانية التي كان أول من رأى مصدرها. لم تكن حياته مثالية؛ إلّا أن البشر قادرون على عيش ما هو أسوأ بكثير.

شكر وتقدير

عـدد غـير قليـل مـن الأشـخاص كانـوا باللطف الـكافي لقـراءة بعض مسـوداتي وترك تعليقات على أجزاء من الكتـاب: ليدا كوزميديس، ومارتن دالي، وماريـان إيزمان، وويليام هاميلتون، وجون هارتونج، وفيليب هيفنر، وآن هولبرت، وكارين ليرمان، وبيتر سينغر، ودونالد سيمونز، وجون توبي، وفرانـس دي وال، وجلـين ويسـفلد. أعلـم أن جميعهم امتلكوا مـا هو أهم للانشغال به، ولذلك أنا ممتن.

بعـض الأشـخاص اسـتدعوا مـا يكفي مـن الانضبـاط القاتـم للذات، وقرأوا مسـودّة الكتاب كلّها: لورا بيتزيج، جين إبستين، جون بيرس، ميكي كاوس (الذي سـاعد على تحسـين كثير من كتاباتي الأخرى على مر السـنين)، مايك كينسـلي (الذي سـاعد في تحسين ما هو أكثر حتى من كتاباتي منذ شغله منصـب محرر صحيفة النيو ريبابلك)، فرانك سـولواي (الذي كان باللطف الكافي لتقديم أنواع مختلفة من العون، من ضمنها اسـتخدام أرشـيف صوره الخاص). كما وقد منحني غراي كريست ملاحظات جديرة بالثقة عن نسخة سابقة أكثر فوضوية من الكتاب كاملًا، إلى جانب تقديمه نصائح موضوعية ودعـمًا معنويًـا حيويًا في وقت لاحق من اللعبـة. كل واحد من هؤلاء الناس يستحق ميدالية.

منحني مارتي بيرتس إجازة طويلة من النيو ريبابلك، تماشـيًا مع سياسـته العامّـة والنـادرة السـامحة بترك الأشـخاص يستكشـفون ما يثـير اهتمامهم. محظـوظ لعملي لدى شـخص يحترم الأفكار بصـدق. وفي أثناء إجازتي تلك، زودني كل مـن هنـري وإليانون أونيل بإقامة شـتوية مجانيـة في نانتوكيت، ما سـمح لي بكتابـة جزء من هذا الكتاب في ظل بعض مـن أجمل الظروف التي يُمكن تخيلها.

جعلني إدوارد أوسـبورن ويلسـون، عبر تأليفه كتاب السوسيوبيولوجيا وعـن الطبيعة الإنسـانية، مهتمًا بهذه الشـؤون، وقد كان مفيـدًا لي من حينها.

وما ساعدني في الحفاظ على هذا الاهتمام هو حضور جون تايلر بونر، وجيمس بينيغير، وهنري هورن ندوة عن السوسيوبيولوجيا بينما كنت في الكلية. وحينما كنت محررًا في مجلّة العلوم في منتصف الثمانينيات، نلت شرف تحرير عمود ميل كونير، «عن الطبيعة الإنسانية». لقد تعلّمت كثيرًا من هذا العمود، ومن محادثاتي مع ميل عن هذا المنظور إلى الحياة.

والشكر موصول إلى بيل ستروبريدج (لتشجيعي على أن أصبح كاتبًا)، ريك آيلور (لتوجيهي ناحية كتابات بورهوس فريدريك سكينر حينما كنت لا أزال في الثانوية)، بيل نيولن (لنصائحه المبكرة)، جون وينر، ستيف لاغرفيلد وجاي تولسن (لنصائحهم اللاحقة)، سارة أونيل (لمجالستها الأطفال في الوقت المناسب وغيرها من الأعمال المؤثرة)، وشقيقي، مايكل رايت (لتأجيج افتتاني بموضوع هذا الكتاب عبر طرق لا يعرفها هو، ويضمنها كونه حيوانًا أخلاقيًا). كثير من الزملاء في صحيفة النيو ريبابلك يستحقّون إعادة الذكر - وهم آن هولبرت، ميكي كاوس، مايك كينسلي - على ما قدّموه من مشورة يوميّة. وأشعر بالفخر لمعرفتي إياهم وعملي معهم طوال السنوات القليلة الماضية. جون ماكفي، الذي كان أستاذي في الكلية، شكّل كثيرًا من توجّهاتي في الحياة، وقد منحني كذلك نصائح قيّمة في أثناء هذا المشروع. هذا ليس كتابًا ماكفيًا تمامًا، لكنه يسترشد ببعض من قيمه (مثل، كُله حقيقي على حد علمي، ولم أختر الموضوع مع وضع حد أقصى للربح في النظر).

سمح لي كثير من العلماء (بضمنهم كثير ممن سبق ذكرهم أعلاه، ولا سيما في الفقرة الأولى) باستجوابهم بشكل رسمي وغير رسمي: مايكل بيلي، جاك بيكستروم، ديفيد بوس، ميلدريد ديكمان، بروس إليس، ويليام آيرونز، إليزابيث لويد، كيفن ماك دونالد، مايكل ماكغواير، راندولف نيس، كريغ بالمر، مات ريدلي، بيتر ستراهليندورف، ليونيل تايغر، روبرت تريفيرز، بول تورك، جورج ويليامز، ديفيد سلون ويلسون، ومارغو ويلسون. كما وزودني عدد من الأشخاص بأوراقهم البحثية معادٌ طباعتها، وبإجابات على أسئلتي

المزعجة وما إلى ذلك: كيم بوتمان، وإليزابيث كاشدان، وسيف غانغيستاد، ومارت غروس، وإليزابيث هيل، وكيم هيل، وغاري جونسون، وديبرا جدتج، وبوبي لو، وريتشارد ماريوس، ومايكل رالي. متأكد من تسنياني لبعض الناس، بمن فيهم كثير من أعضاء جمعية السلوك والتطور البشري ممن زودتهم في اجتماعاتهم.

يُعد محرري دان فرانك فريدًا بين محرري هذا العصر لفرط الاهتمام والجودة التي يمنحها للنص. كما وأن عددًا آخر من الناس في دار بانثيون لم يتأخر عن تقديم العون ومنهم، مارج أندرسون، وألتي كاربر، وجين مورتون، وكلوديت أوهيرن. وقد كان وكيلي راف ساغالين كريمًا في وقته وموضوعيًا في نصحه.

وأخيرًا، إلى زوجتي ليزا التي أدين لها بأغلب الفضل. لا زلت أذكر عندما قرأتُ لأول مرة المسودة الأولى للقسم الأول من هذا الكتاب وشرحت لي – من دون استعمالها عبارة «شرح» – أنها كانت سيئة. ثم داومت على قراءة المخطوطة بإصدارات عدّة منذ حينها، وكثيرًا ما قدّمت أحكامًا عميقة بأساليب دبلوماسية مرارًا وتكرارًا. وكلما واجهتني نصائح متضاربة أو نالني الارتباك، كانت هي بمثابة السراج المرشِد. وقد فعلت، إضافة لذلك، كل أنواع الأشياء الأخرى التي سمحت لي بتأليف هذا الكتاب من دون أن ينالني الجنون تمامًا. ما كنت لأطلب ما هو أكثر من ذلك (على الرغم من فعلي ذلك حسبما أذكر في بضع مناسبات).

إن ليزا ليست على توافق مع بعض من أجزاء هذا الكتاب. ومتأكد من أن جميع المذكورين ليسوا كذلك أيضًا. هذه هي الطريقة التي تجري بها الأمور مع علم يافع محمّل بالمسؤولية الأخلاقية والسياسية.

ملحق: أسئلة يتكرّر طرحها

عام ١٨٥٩، بعد إرسال داروين نسخة من كتابه أصل الأنواع إلى شقيقه إيرازموس، ردّ عليه الأخير برسالة مديح. إذ كانت نظرية الانتقاء الطبيعي مقنعة منطقيًا لدرجة: أنّ فشل السجل الأحفوري في توثيق التغيّر التطوري التدريجي لم يزعجه، كما قال: «في الحقيقة، إن المنطق المسبق مرضي تمامًا لي لدرجة أنه لو لم يتناسب مع الحقائق، فإنّي سأشفق على الحقائق».

يتشارك التطوريون هذا الشعور على نطاق واسع أكثر مما قد يعترف به بعضهم. إن نظرية الانتقاء الطبيعي في غاية الأناقة والقوّة بحيث تلهم نوعًا من الإيمان بها - ليس إيمانًا أعمى بحق؛ لأنه إيمان يستند إلى قدرة النظرية البيّنة على شرح كثير من ظواهر الحياة. لكنه مع ذلك إيمان؛ حيث هناك نقطة لا يعود بعدها المرء يفكر في إمكانية مواجهة بعض الحقائق التي من شأنها تعريض النظرية برمّتها للتشكيك.

وعليّ الاعتراف طالما بلغتُ هذه النقطة. لقد ثبت الآن أن الانتقاء الطبيعي يُفسر كثيرًا عن الحياة عمومًا وعن العقل البشري خصوصًا لدرجة امتلاكي قليلًا من الشك عن إمكانية تفسيره للباقي. ومع ذلك، فإن «الباقي» ليس تضريسًا تافهًا. فهناك كثير بشأن الأفكار والمشاعر والسلوكيات الإنسانية مما لا يزال يحيّر ويتحدّى أي دارويني - وأخرى كثيرة قد لا تحيّر داروينيًا متيقّنًا، ولكن شخصًا اعتياديًا. سيكون من غير الدارويني لي عدم ذكر بعض الأمثلة البارزة. لقد كان داروين منشغلًا إلى حد ما بأوجه القصور الحقيقية والواضحة في نظريته، وإصراره على مواجهتها جعل أصل الأنواع مقنعًا للغاية. وجاء العيب الذي ألمح إليه إيرازموس من فصل دعاه داروين «مصاعب تحيط بالنظرية»، في الإصدارات اللاحقة، أضاف داروين فصلًا آخر عنونه بـ«اعتراضات متنوعة على نظرية الانتقاء الطبيعي».

واللاحق بالكاد يُمثّل قائمة شاملة للألغاز الحقيقية والمفترضة التي تحيط بالأنموذج الدارويني الجديد كما ينطبق على العقل الإنساني. لكنه يبيّن

طبيعتها ويقترح بعض الآفاق لحلّها. كما يعالج بعض الأسئلة الأكثر شيوعًا عن علم النفس التطوّري، مع أملي في أن يساعد على تبديد بعض المفاهيم الخاطئة الشائعة.

١ - ماذا بشأن المثليين؟ قد لا يتوقّع المرء أن يخلق الانتقاء الطبيعي أناسًا غير راغبين في القيام بما يساعدهم على نقل جيناتهم إلى الجيل اللاحق (الجماع بين الجنسين مثلًا). في فجر السوسيوبيولوجيا، اعتقد بعض التطوّريين أن نظرية انتقاء الأقارب ربما تفسّر هذه المفارقة. ربما كان المثليّون أشبه بالنمل العقيم: إذ بدلًا من بذلهم طاقتهم في محاولة إيصال جيناتهم مباشرة إلى الجيل اللاحق، يستخدمون مسارات أخرى ملتوية؛ فبدل الاستثمار في أطفالهم، يستثمرون في أشقّائهم وأبناء أشقّائهم.

يُمكن لهذا التفسير النجاح من حيث المبدأ، لكن لا يبدو أن الواقع يؤيده. فقبل كل شيء، كم عدد المثليين الذين يقضون جُلَّ وقتهم في مساعدة أشقّائهم وأبناء أشقّائهم؟ وثانيًا، انظرْ إلى ما يفعله أكثرهم لقضاء وقته: السعي وراء الاقتران بمثليّ بذات الحماس الذي يسعى فيه المغايرون للاقتران بالمغايرين. أين المنطق التطوّري في ذلك؟ إذ لا يقضي النمل العقيم كثيرًا من وقته في مداعبة غيره من النمل العقيم، ولو فعل ذلك سيُشكّل الأمر لغزًا لنا.

من الجدير بالملاحظة أن البونوبو، أقرب أقربائنا، يظهر ازدواجيّة في توجهه الجنسي (على الرغم من أنها ليست مثلية حصرية على ما يبدو). إذ ينخرطون في ممارسة فرك الأعضاء التناسلية على سبيل المثال كإحدى علامات الصداقة، وطريقة لنزع فتيل التوتّرات. يُشير هذا إلى مبدأ عام: بمُجرّد أن أوجد الانتقاء الطبيعي شكلًا من أشكال الإشباع الجنسي - في هذا السياق، تحفيز الأعضاء التناسلية - صارت تلك الأشكال في خدمة وظائف أخرى؛ حيث يُمكنها إمّا التكيف مع هذه الوظائف الأخرى عبر التطور الجيني أو المجيء لخدمتها عن طريق التغيير الثقافي المحض. وهكذا طوّرت اليونان القديمة تقليدًا ثقافيًا حيث يُرضي الصبية الرجال في بعض الأحيان بالتحفيز الجنسي. (وبالمصطلحات الداروينية المحضة، ليس واضحًا من كان

يستغل من؛ فالصبية الذين استخدموا هذه التقنية لإرضاء معلّميهم كانوا يستفيدون عبرها من رفع مكانتهم؛ أمّا الرجال - بالاصطلاحات الداروينية مجددًا - فقد كانوا يضيعون وقتهم فقط).

من وجهة النظر هذه، فإن حقيقة تحوّل الحوافز الجنسية لبعض الأشخاص من قنواتها الأنموذجية هو إجلال آخر فحسب لمدى مرونة العقل البشري. إذ يُمكن لحلول حزمة معيّنة من التأثيرات البيئية أن تصنع أيّ قدر من التغييرات. (والسجن هو مثال متطرّف لمثل هذه التأثيرات البيئية؛ فحينما يكون الإشباع الجنسي بين المغايرين مستحيلًا، قد تبحث الرغبة الجنسية - ولا سيما الذكورية القوية والعشوائية نسبيًا - عن البديل الأقرب لها).

هل هناك جينٌ للمثلية الجنسية؟ هناك أدلة تقترح وجود بعض الجينات التي يرجح أن تؤدي إلى المثلية الجنسية أكثر من غيرها. لكن ذلك لا يعني أن هناك «جينًا مثليًا» - جينٌ يدفع المرء حتمًا كي يصبح مثليًا، بغض النظر عن البيئة؛ وهو لا يعني بالتأكيد أن هذه الجينات المعنية قد أُختيرت عبر الانتقاء الطبيعي نتيجة إسهامها في المثليّة الجنسية. (لا شك أن بعض الجينات تجعل المرء أكثر ميلًا للانخراط مثلًا في مجال المصارف أو كرة القدم الاحترافية، مقارنة بجينات أخرى؛ لكن لا وجود لشيء مثل «جين مصرفي» أو «جين لاعب كرة احترافي» - لا وجود لجين أُختير نتيجة مساهمته في الأعمال المصرفية أو لعب كرة القدم. مجُرّد جينات تؤدّي، إن صحّ القول، إلى مواهب في التعامل مع الأرقام أو إلى امتلاك قوّة بدنية)، في الواقع، بمجرد استبعاد نظرية انتقاء الأقارب للميول المثلية، سيكون من الصعب للغاية تخيّل جين يتم اختياره نتيجة تأديته إلى المثليّة الكليّة. لو كان هناك «جينًا مثليًا» انتشر وسط جزء كبير من السكان، فمن المحتمل أن يكون له بعض التأثيرات بخلاف الميل المثلي وسط البيئة التي انتشر فيها.

أحد الأسباب التي تجعل بعضهم قلقًا للغاية بشأن سؤال «الجين المثلي» هو أنهم يريدون معرفة ما إذا كانت المثلية «طبيعية»، وهو سؤال يبدو - بالنسبة إليهم على الأقل - أن له عواقب أخلاقية. هم يعتقدون أن من المهم

للغاية أ) وجود جين (أو تشكيلة من الجينات) مسؤولة عن المثلية انتُقيت حتمًا نتيجة تأثيرها هذا؛ أو ب) هناك جين (أو تشكيلة من الجينات) مسؤولة عن المثلية انتقيت لسبب آخر ولكن، في بعض البيئات، لها تأثير في التشجيع على المثلية؛ أو ج) هناك جين (أو تشكيلة من الجينات) مسؤول عن المثلية وقد وصل حديثًا إلى المشهد البشري إلى حد ما ولا يزال لم ينل بعد تأييدًا قويًا من الانتقاء الطبيعي لأي غرض معين؛ أو د) ليس هناك «جين مثلي».

لكن من يهتم؟ لماذا على «طبيعانيّة» المثلية التأثير بأي شكل في حكمنا الأخلاقي عليها؟ فهي «طبيعية» بمعنى «مقبوليتها» لدى الانتقاء الطبيعي، كمقبولية رجل يقتل آخر وجده نائمًا مع زوجته. وقد يكون الاغتصاب، وفق السياق نفسه، «طبيعيًا»، والاهتمام بإطعام أطفالك وإكسائهم «طبيعي» بالطبع. لكن معظم الناس يحكمون على هذه الأشياء بعد النظر لعواقبها، لا أصولها. والصحيح بوضوح حول المثليّة هو الآتي: ١) بعض الناس ولدوا بتشكيلة من الجينات وضمن ظرف بيئي حفّزهم بقوة تجاه اتخاذ حياة مثليّة؛ ٢) لا وجود لتناقض متأصل بين شيوع المثلية وسط البالغين ورفاهية الآخرين. ولأسباب أخلاقية (كما أعتقد) أرى وجوب أن تكون هذه النقطة نهاية النقاش.

٢- لماذا يختلف الأشقاء عن بعضهم بعضًا؟ لو كانت الجينات غاية في الأهمية، فلماذا يتباين من لديهم كثير من الجينات المشتركة بعضهم مع بعض؟ بمعنى ما، ليس في هذا السؤال منطق بحيث يطرح على عالم نفس تطوري. فبعد كل شيء، لا يدرس علم النفس التطوري السائد كيف تؤدي الجينات المختلفة إلى سلوكيات مختلفة، بل كيف يمكن أن تؤدي الجينات المشتركة بين البشر إلى سلوكيات شتى - في بعض الأحيان مختلفة، وفي أخرى متشابهة. بعبارة أخرى، يُحلّل علماء النفس التطوريّون عادة السلوك بغض النظر عن التكوين الجيني الفريد للشخص. ومع ذلك فالإجابة على هذا السؤال بشأن الأشقاء تلقي بكثير من الضوء على لغز أساس في علم النفس التطوري: إذا كانت التأثيرات الجينية الرئيسة على السلوك البشري آتية من الجينات

التي يتشاركها كافّة الناس، فلم يتصرّفون عمومًا بشكل مختلف عن بعضهم الآخر؟ لقد تناولنا هذا السؤال من جوانب عدّة في الكتاب الذي بين يديك، لكن موضوع الأشقّاء يلقي بنوع جديد من الضوء عليه.

تأمل داروين. كان ثاني أصغر ستة أبناء. وبذلك فهو متوافق مع نمط لافت للنظر لم يظهر سوى مؤخرًا: إنّ من يبدأون أو يدعمون الثورات العلمية من غير المرجّح أن يكونوا أبناءً بكرًا. وجد فرانك سولوي (راجع سولوي [في الصحافة])، الذي وثّق هذا النمط ببيانات ضخمة، أيضًا أن الأشخاص الذين يقودون أو يدعمون الثورات السياسية من غير المرجّح أن يكونوا أبناءً بكرًا.

ما تفسير هذا النمط؟ من المفترض، كما يلحظ سولون، أن للأمر علاقة بحقيقة إيجاد الأطفال الصغار أنفسهم داخل منافسة مع أشقائهم الكبار - شخصيات سلطوية - على الموارد. وفي الواقع، قد يجدون أنفسهم في صراع ليس فقط مع هذه السلطات بعينها، ولكن ضد مؤسسة بأكملها. فللأبناء البكر، بعد كل شيء، قيمة إنجابية أعلى من أشقائهم الأصغر (راجع الفصل السابع)، ولا بدّ أن يكونوا من الناحية النظرية مفضّلين لدى الوالدين عند تساوي الأشياء الأخرى. وبذلك غالبًا ما تكون هناك قواسم مشتركة طبيعية في المصالح، تحالف بين الآباء والأشقاء الأكبر يجد فيه الأبناء الأصغر أنفسهم في صراع. إذ تضع المؤسسة القانون، فيتحدّاه الابن الأصغر. يُمكن أن يكون تكيّفًا للأبناء الذين يجدون أنفسهم في وضع يؤهلهم كي يصبحوا جيّدي التشكيك بالقواعد المتّبعة. أي بمعنى: برنامج تنموي أنموذجي للأنواع قد يميل إلى توجيه الأبناء ممن لديهم أشقاء كبار نحو الفكر الراديكالي.

النقطة المحورية هنا تتعلّق بـ«البيئة غير المشتركة»، التي لم يُدرك علماء الوراثة أهميتها إلّا في العقد الماضي (راجع بلومين ودانيالز [١٩٨٧]). يحب من يشككون بالحتمية البيئية الإشارة إلى شقيقين ترعرعا جنبًا إلى جنب والسؤال عن سبب تحوّل أحدهما مثلًا لمجرم بينما شبّ الآخر وكيل نيابة. لو كانت البيئة شديدة الأهمية، كما يسألون، فلِمَ تفرّقت مسارات حياة هؤلاء؟

مثل هذه الأسئلة تسيء فهم «البيئة»، فعلى الرغم من اشتراك الشقيقين ببعض جوانب البيئة (الوالدين نفسهما والمدرسة نفسها) فإن جزءًا كبيرًا من بيئتهما «غير مشتركة» (من كان معلمهما في الصف الأول، ومَن أصدقائهما، وغيرها).

من المفارقات، كما يشير سولوي (راجع سولوي)، أن للأشقاء، بحكم كونهم أشقاء، ربما بيئات «غير مشتركة» معيّنة تتفاوت جذريًا. على سبيل المثال، فبينما تتشارك أنت وجارك صفة الابن البكر - وبذلك «تتشاركان» هذا التأثير البيئي - فمن غير الممكن لك مشاركة ذات الصفة مع أي من أشقائك. الأكثر من ذلك: يؤمن سولوي أن أحد الأشقاء، بحكم احتلاله «مكانة» استراتيجية معينة داخل البيئة الأسرية، فقد يدفع الأشقاء الآخرين نحو مكانات أخرى في أثناء كفاحهم على الموارد. وبذلك فقد يجد الشقيق الأصغر أن شقيقًا آخر فاز بحظوة كبيرة عبر التضحية الدؤوبة لأجل الوالدين مثلًا؛ وكردّ، قد يسعى الآخر تجاه «مكانة» أخرى - الامتياز في المدرسة مثلًا - بدلًا من محاولة التنافس في سوق بُذِل فيه بالفعل كثير من التضحيات.

٣- لماذا يختار الناس إنجاب قليل من الأطفال أو عدم الإنجاب حتى؟ يُشار لهذا أحيانًا بأنه «لغز» تطوري عظيم. لقد احتار الأكاديميون بمسألة «التحول الديمغرافي» الذي خفض معدلات المواليد في المجتمعات الصناعية المتقدمة، محاولين تفسيرها داروينيًا. يُنَظِّر بعضهم مثلًا أن في البيئات الحديثة، يُمكن لامتلاك ما كان يُعدّ يومًا عائلة متوسطة الحجم أن يضرّ بإرثك الوراثي. فربما سينتهي بك الأمر مع مزيد من الأحفاد لو كان لديك طفلان يُمكنك أن تتحمّل تكاليف تعليمهما في مدارس خاصة باهظة الثمن مما لو امتلكت خمسة أطفال تلقوا تعليمهم في مدارس أرخص؛ فوجدوا أنفسهم غير قادرين على إعالة أطفالهم بأنفسهم. وبذلك فمع إنجاب عدد أقل من الأطفال، يتصرّف الناس تكيّفيًا.

وهناك حل أسهل: لم تكن الغاية الأساسية للانتقاء الطبيعي في حملنا على

التكاثر تغرس رغبة عارمة وواعية فينا لإنجاب الأطفال. فقد صُمِّمنا لمحبة الجنس، وبذلك محبة العواقب المتحققة بعد تسعة أشهر منه، لا الانخراط في الجنس محبة في خصد العواقب. (لاحِظْ سكان جزيرة تروبرياند، الذين لم يدركوا، وفقًا لمالينوفسكي، العلاقة بين الجنس والإنجاب، ولكن مع ذلك، ظلّ الرجل المُسنّ على رغبته نفسها في مواصلة التكاثر)، ولم يعرقل هذا التصميم سوى ظهور تقنيات منع الحمل.

يُعدّ اختيار حجم الأسرة إحدى القضايا العديدة التي تفوقنا فيها على الانتقاء الطبيعي؛ فعبر التفكير الواعي - النظر مثلًا إلى مدى إزعاج الأطفال عند بلوغهم المراهقة - يُمكننا اختيار اختصار الأهداف النهائية التي «أراد» لنا الانتقاء الطبيعي السعي وراءها.

٤ - لماذا ينتحر الناس؟ مرة أخرى، يمكن للمرء أن يحاول بناء سيناريوهات يكون فيها هذا النوع من السلوك قابلًا للتكيف. ربما كان اختيار الشخص الذي مثّل في بيئة الأسلاف عبئًا كبيرًا على عائلته إخراج نفسه نهائيًا من المشهد مُعزِّزًا للياقة الشاملة. فربما يكون الطعام مثلًا شحيحًا لدرجة أن استمراره في تناول الطعام قد يحرم أقرباءه الأكثر قيمة إنجابية من العناصر الغذائية لحد تعريض حياتهم إلى الخطر.

هذا التفسير غير مستبعد تمامًا، لكن فيه بعض الإشكالات. إحداها أن في البيئة الحديثة على الأقل، نادرًا ما ينتمي المنتحرون إلى عائلات تواجه المجاعة.

وبالفعل، فإن الاقتراب من الجوع ما هو إلا ظرف وحيد لا يمكن أن يكون الانتحار معه منطقيًا داروينيًا. ونظرًا لوفرة الغذاء المتاح إلى حد ما، فالجميع تقريبًا - باستثناء المعاقين وكبار السن والعجزة - يمكنهم البقاء أحياء والمساهمة بشكل كبير في أقاربهم القيّمين تكاثريًا: جمع التوت، تعليم الأطفال ورعايتهم، إلخ. (وعلى كل حال، حتى لو أصبحت عبئًا غير مُبرّر بالنسبة إلى عائلتك، فهل سيكون الانتحار الكليّ المسار الأمثل وراثيًا؟ ألن يكون من الأفضل مثلًا لجينات الرجل المكتئب أن ترتحل بعيدًا عن القرية،

على أمل إيجاد مكان آخر أفضل لو أسعفه الحظ - على أمل مواجهة امرأة غريبة يُمكنه إغواءها، هذا إن لم يكن اغتصابها ربما؟).

يكمن أحد الحلول المحتملة لمفارقة الانتحار في تذكر أن «التكيّفات» السلوكية التي صممها الانتقاء الطبيعي هي ليست السلوكيات بحد ذاتها، لكنها الأعضاء العقلية الضمنية. والأعضاء العقلية التي تكيّفت بما يكفي في بيئة ما كي تصبح جزءًا من الطبيعة البشرية قد تؤدي في بيئة أخرى إلى سلوكيات عصيّة على التكيّف. وسبق أن رأينا على سبيل المثال لماذا قد يكون الشعور بالسوء تجاه النفس قابلًا للتكيّف أحيانًا (الفصل الثالث عشر)، ولكن للأسف يمكن للعضو العقلي المصمم لجعلك تشعر بالسوء تجاه نفسك أن يخطئ؛ فالشعور بالسوء تجاه نفسك لمدة طويلة، من دون ما يُريح، قد يؤدي إلى الانتحار.

يبدو أن البيئات الحديثة أكثر احتمالًا كي تؤدي إلى هذا الخلل من بعض البيئات القديمة؛ فهي تسمح مثلًا بدرجة من العزلة الاجتماعية لم تكن معروفة بالنسبة إلى أسلافنا.

٥ - لماذا يعمدُ الناس لقتل أطفالهم؟ ليس قتل الرضّع مجرّد نتاج من نتاجات البيئة الحديثة. إذ كثيرًا ما حدث في ثقافات الصيد وجمع الثمار والثقافات الزراعية. هل هو إذن نتيجة للتكيف - عضو عقلي يحسب ضمنيًا متى سيُعظّم قتل رضيع اللياقة الجينية؟ ذلك محتمل جدًا. إذ ليس الأطفال المعتلون والمعاقون أكثر عرضة للقتل فقط؛ بل وأيضًا المواليد المولودون في ظل أنواع أخرى من الظروف سيئة الحظ - كأن يكون للأم أطفال صغار والأب غائب مثلًا.

في البيئة الحديثة يصعب بالطبع تفسير قتل الرضّع بأنه خدعة وراثية منطقية. ولكن كما سبق أن رأينا (في الفصل الرابع)، فإن كثيرًا من حالات القتل المفترضة للذرية هي في الواقع قتل لأبناء الأزواج. وأظنّ أن كثيرًا من بقيتها يرتكبها أزواج قد يكونون آباءً طبيعيين واقعًا لكنهم بدأوا يشكّون في أبوّتهم - بوعي أو من دونه. وفي الحالات القليلة نسبيًا التي تقتل فيها

الأم طفلها حديث الولادة، غالبًا ما يكون ذلك وسط نوع من الإشارات البيئية التي ربما كانت تعني، في بيئة الأجداد، أن وأد الأطفال سيكون مربحًا وراثيًا: الفقر النسبي، والافتقار لمصدر موثوق للاستثمار الأبوي، إلخ.

٦- لماذا يضحي الجند لأجل أوطانهم؟ القفز فوق قنبلة يدوية - أو، في بيئة الأجداد، قيادة دفاع انتحاري ضد غزاة يحملون الهراوات - قد يحمل معنى داروينيًا لو كنت في حضرة أقربائك المقرّبين. لكن لماذا التضحية بالنفس لأجل زمرة من الناس ليسوا سوى أصدقاء؟ فذلك فضل لم تتمتّع برفاهية رؤيتهم يسدّدونه لك.

أولًا، يجدر تذكر أن في بيئة الأجداد، في قرية صغيرة يسكنها الصيّادون جامعو الثمار، لم يكن متوسّط القرابة مع رفيق السلاح منخفضًا للغاية - وقد يكون في الواقع، استنادًا لأنماط الزواج هناك، مرتفعًا إلى حد ما (راجع تشاغنون [١٩٨٨]). عند مناقشة نظرية انتقاء الأقارب في الفصل السابع، ركزنا على الأعضاء العقلية التي تحدد الأقارب ومن ثمّ تعاملهم بكرم مخصوص؛ كما واقترحنا أن الجينات المؤدية لمثل هذا التمييز ستميل إلى الازدهار على حساب الجينات المانحة للإيثار بشكل أوسع من دون تمييز. لكن قد تكون هناك بعض الظروف التي لا تسمح بهذا التمييز الدقيق، وأحدها التهديد الجماعي. فلو تعرضت مثلًا مجموعة كاملة من الصيادين جامعي الثمار، بمن فيهم عائلتك الأقربون وكثير من الأقارب الآخرين لهجوم رهيب، فقد يكون للشجاعة المفرطة معنى وراثي مباشر بفضل انتقاء الأقارب. إذ ربما يتصرّف الرجال في حروب اليوم تحت تأثير الميل لمنح مثل هذا الإيثار العشوائي في المواقف الشبيهة بالحرب.

فارق آخر بين الحرب الحديثة وحرب الأسلاف أن المكافأة الجينية للنصر صارت أقلّ اليوم. من المعقول الشكّ - استنادًا إلى ملاحظة المجتمعات البدائية - في أن الاغتصاب أو اختطاف النساء كان ذات يوم سمة مشتركة من سمات الحرب. وبذلك فقد كانت المكافآت كبيرة بما يكفي، وفق المنطق الداروينى، كي تُسوغ المخاطرة بالنفس (وإن لم يكن باتخاذ سلوك انتحاري

واضـح). ومـن المرجح أن الرجال الذين أظهروا أعلى قدر من الشـجاعة في أثناء الحرب كوفئوا بأفضل ما يكون.

باختصـار، إن أفضـل التخمينات للشـجاعة إبّـان الحرب هـي أنها نتاج أعضـاء عقليـة خدمـت ذات يـوم لتعظيـم اللياقـة الشـاملة إلى حدودهـا القصـوى وربما لم تعد تفعل الشيء نفسـه اليوم. لكن هـذه الأعضاء لا تزال قائمـة وجاهزة للاسـتغلال، مثلها مثـل أعضاء أخرى، من قبل السياسـيين المستفيدين من الحرب (راجع جونسون [١٩٨٧]).

يطـرح السـلوك البشري كثيرًا مـن الألغـاز الداروينية الأخـرى. ما هي وظائـف الفكاهـة والضحـك؟ لماذا يعترف النـاس على فراش المـوت؟ لماذا يتّخـذ بعضهـم نـذورًا للزهـد والتبتّـل - بـل والالتـزام بهـا حتـى في بعض الأحيان؟ ما هي وظيفة الحداد بالضبط؟ (من المؤكد أنها تشـير، كما افترضنا في الفصـل السـابع، إلى درجة الاسـتثمار العاطفي في المتـوفى، ومن المؤكد أن الاسـتثمار العاطفي نفسـه كان له معنى وراثي حينـما كان المتوفى حيًّا. ولكن الآن بعد رحيل المتوفى، كيف يخدم الحداد الجينات؟)

الحـل لمثـل هـذه الألغـاز يُمثّـل واحـدًا مـن أكـبر التحديـات في العلوم المعـاصرة. وغالبًا ما يتضمّن الطريق إلى الحل هـذه الموضوعات: ١) التمييز بـين نوع السـلوك والعضو العقلي الذي يحكمه؛ ٢) تذكـر أن العضو العقلي، وليس السـلوك، هو ما صمّمه الانتقاء الطبيعي حقًّا؛ ٣) إلى جانب تذكر أنه عـلى الرغـم من كون هذه الأعضاء قد تؤدي إلى سـلوك تكيفي في البيئة التي صُمِّمت فيها (ذلك أن هذا هو السـبب الوحيد الذي يدفع الانتقاء الطبيعي أبـدًا لتصميـم عضو عقـلي)، فإنها قـد لا تسـتمر في إنتاج هذا السـلوك؛ ٤) تذكّرْ أن العقل الإنسـاني معقّد بشـكل لا يُصدّق، وأنه قد صُمِّم لإثمار طيف كبير من السـلوكيات، اعتمادًا على كافة أشـكال التفاصيـل الدقيقة للظروف المحيطـة، وأن طيـف السـلوكيات الـذي يُثمره يتوسّـع بنطاق هائل بسـبب التنوع غير المسبوق للظروف في البيئة الاجتماعية الحديثة.

الفهرس

الباب الثالث

الحيوان الأخلاقي

كيف تشكلت الفطرة البشرية؟

«وليمة فكرية وسردية عظيمة عن أعمق القضايا المُتناولة، فيه متعة لكل مُفكّر ... يشرح بوضوح فهمنا لتطور المشاعر الأخلاقية الإنسانية، ويستخلص آثاره المستفزّة للسياسات الجنسية، والعائلية، والسلطوية، والمجتمعية ... يكتب السيد رايت بحذاقة متماسكة ومباشرة بلا مواربة، من دون تضحية بالجدية الصادقة لمقصده».

ستيفن بنكر / مراجعات كتب النيويورك تايمز

«يفتح العين، يحفّز الفكر، يُسري القشعريرة في العمود الفقري ويحيّر العقل، تمنيت لو سبقته التفكير في هذا النوع من الكتب العلمية».

مات ريدلي / ملحق التايمز الأدبي

«المجال الجديد لعلم النفس التطوري - الساعي لتفسير السلوك البشري والعواطف وفق التطور الداروني - لن يجد منَ هو أفضل من روبرت رايت لاستعراضه. فعبر محاولته كشف المنطق التطوري وراء الصداقة، والرومانسية، وكراهية الأجانب، والعنصرية، والتنافس بين الإخوة، وغيرها، تجد رايت يخفف جديّة ذكائه بالفكاهة، ممزوجًا ذلك بسيرة تشارلز داروين الذاتية التي نظر إليه بما تتضمنه من زواج، وحياة جنسية، ومآسي شخصية، وأسفار بضوء الداروينية الجديدة نفسها ... يُعدّ هذا الكتاب الاستكشاف المتعمّق الأرقى حتى اللحظة في التفكير الدارويني الجديد».

بابليشرز ويكلي (الناشرون الأسبوعيون)

ISBN: 978-9922-854-69-4



دار الخيال للنشر والتوزيع
DAR AL KHAYAL